سينا للنشر



حاييم هرزوج

الحروب العربية - الإسرائيلية ١٩٤٨ - ١٩٨٢

ترجمة: بدر الرفاعي

٢

الحُرُوبُ
العَرَبيَة-الإسرائيلية
١٩٤٨-١٩٨٢

الكتاب :الحـــروب العربية الإسرائيلية
(١٩٤٨ - ١٩٨٢)
الكاتب : حاييــــــــم هـــــرزوج
ترجمة : بــــــــدرالرفاعـــــــى
الطبعـــــــة الأولـــــى ١٩٩٣

الناشـــــر : ســـــينا للنشـــر
المدير المسؤول : راويــة عـبد العظـيم

١٨ شـارع ضريح سعد - القصـر العينى -
القاهـرة - جمهـورية مصـر العربيـــة -
تليفـــون / فاكـــس : ٣٥٤٧١٧٨ / ٠٢٠٢

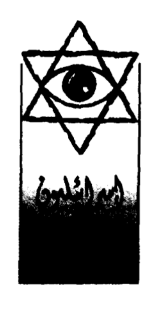
هذه ترجمه لكتاب :

The Arab - Israeli Wars
War and Peace in the Middle East

الناشــــــر :

Random House New York

الغـــــــلاف : عمـــاد حلـــيم
الاخراج الداخلي : إينـــاس حسـني
الصـــــــف : ســـينا للنشـــر



حايـم هـرزوج

الحُرُوبُ العربيَّة ـ الإسرائيلية ١٩٤٨ ـ ١٩٨٢

ترجمة : بـدر الرفـاعي



من المترجم

من المشكوك فيه أن يضع مؤتمر السلام، الذى تدور جلساته المتعثرة الآن بالتواقت مع إرساء قواعد النظام الدولى الجديد، نهاية للصراع العربى الإسرائيلى، بل سيكون مجرد خاتمة لمرحلة وتدشينا لمرحلة جديدة من الصراع، يعاد فيها توزيع الأدوار وترتيب التحالفات سواء على المستوى الدولى أو الإقليمى. فالصراع سوف يستمر بأشكال جديدة وآليات مختلفة، ولا يزال الخيار العسكرى واردا. من هنا يظل استخلاص الدروس والخبرات من المواجهات السابقة مع العدو أمرا ضرورياً لنا، فى إطار بحث علة العلل، أى البنية المتخلفة للمجتمع العربى بتداعياتها المختلفة والتى تطيح بالوجود الإنسانى والروحى للمواطن العربى، هى حجر الزاوية فى أى مشروع للبعث.

والكتاب الذى بين أيدينا يعتبر من الكتب القليلة، أو ربما كان الوحيد،الذى يتناول الجولات العربية الأربع (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ إضافة إلى الحرب اللبنانية فى ١٩٨٢) مجتمعة من منظور عسكرى تفصيلى، فهو يعرض لتلك الحروب حربا حربا، ومعركة معركة. ومن اللافت للنظر أن المكتبة العربية تكاد تخلو من الكتب التى تتناول حروبنا مع اسرائيل فى جانبها العسكرى، وخاصة حربى ١٩٥٦، ١٩٦٧. فغالب تلك الكتابات تتناول الحرب من المنظور السياسى وبمعنى تبريرى يغلب عليه التواطؤ مع الذات. صحيح أن الحرب هى «امتداد للسياسة بوسائل أخرى»، لكن تظل دراسة جانبها العسكرى وتقييم الأداء أمراً على درجة كبيرة من الأهمية.

إن هذا الكتاب يقدم بانوراما عسكرية لما يزيد على الثلاثين عاما من الصراع الذى شهدته الجبهات العربية المختلفة: فلسطين.. مصر.. سوريا.. الأردن.. لبنان. وهو يؤرخ فى الوقت نفسه لقيام الجيش الإسرائيلى وتحوله من منظمات وعصابات مختلفة: (الهاجاناه.. اتسل.. ليحى. شتيرن. وغيرها) إلى جيش نظامى. والكتاب، وإن كان يقدم المنظور الاسرائيلى - منظور العدو - إلا أنه يحوى الكثير من الحقائق والتفاصيل التى غابت عن المصادر العربية بفعل

عوامل كثيرة. كما أن منظور العدو، بحد ذاته، ومهما اعتراه من مبالغات أحيانا، يعد رؤية مقارنة عظيمة الأهمية لتكوين صورة متوازنة لواقع ما جرى، تسهم فى فهم الوقائع وتفسيرها.

ويكتسب هذا الكتاب أهميته كذلك من أهمية كاتبه والمعلومات التى توفرت له بحكم مناصبه التى تولاها والأدوار التى لعبها. فـ «حاييم هرزوج»، الرئيس السابق لإسرائيل، ارتبط بالمجهود العربى الاسرائيلى منذ الثلاثينيات عندما انخرط فى صفوف «الهاجاناه» وهو بعد صبى. وقد لعب بعد ذلك دوره فى بناء الجيش الإسرائيلى، وبالذات فى بناء جهاز مخابراته العسكرية الذى تولى رئاسته لمرتين (من ١٩٤٨ - ١٩٥٠، من ١٩٥٩ - ١٩٦٢). وهو من مواليد ايرلندا. تخرج فى جامعة كمبردج. هاجرت أسرته إلى فلسطين عندما عين والده «اسحاق هرزوج» كبيراً لحاخامات فلسطين. بدأت خدمته العسكرية الطويلة فى الحرب العالمية الثانية عندما خدم فى صفوف الجيش البريطانى فى شمال اوروبا. فى الفترة من ١٩٥٠ - ١٩٥٤ عمل ملحقا عسكريا بواشنطن. وبعد ١٩٦٧، أصبح أول حاكم عسكرى للضفة الغربية لنهر الأردن. عين بعد ذلك مندوبا لإسرائيل بالأمم المتحدة. بعد أن استقال من الجيش برتبة الميجور جنرال أصبح واحدا من أبرز المعلقين العسكريين والسياسيين بإسرائيل. عمل بصورة منظمة مع الإذاعة الإسرائيلية وهيئة الإذاعة البريطانية وعدد من شبكات الإذاعة فى الولايات المتحدة وأوروبا، إلى جانب الكتابة لعدد من كبريات الصحف الإسرائيلية والانجليزية والأمريكية. اختير لفترة عضوا بالكنيست، ومارس المحاماة بتل ابيب، وساهم فى أوجه النشاطات السياسية والعامة.

تبقى كلمة أخيرة حول الترجمة. فالكاتب يذكر أسماء بلاد ومواقع تفوق الحصر، بل إنه يتحدث عن معارك دارت فى مواقع لا توردها الخرائط لضآلة أهميتها، إضافة إلى أنه يخطئ أحيانا فى كتابه أسماء تلك البلاد. فقرية «صفورية» الفلسطينية، على سبيل المثال، يكتبها Zippori، كما أنه يكتب «ماعص» السورية Maatz، بل إنه يكتب «يعبتس» اليهودية Janowitz. وهذه مجرد أمثلة فقط من كثير من الأسماء التى يخطىء الكاتب فى كتابتها. وقد استدعى الأمر الرجوع إلى عدد من الخرائط والمراجع، سواء للتحقق من تلك الأسماء أو لإيراد بعض التعليقات، نورد ثبتا إجماليا بها فى نهاية لكتاب.

بدر الرفاعى

تمهيد

فى التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧، صوّت مجلس الأمن بأغلبية ٣٣: ١٣ صوتاً (وامتناع ١٠ وغياب صوت واحد) على تقسيم منطقة فلسطين إلى الغرب من نهر الأردن إلى دولة يهودية وأخرى عربية، مع وضع القدس تحت الإدارة الدولية. وقد استقبلت الطائفة اليهودية ، التى كانت لاتزال تعيش كابوس المحرقة التى راح ضحيتها مئات الآلاف من اليهود فى أوروبا، القرار بالحبور، واحتفلت علناً بما اعتبرته يوماً تاريخياً فى حياتها. لكن البلدان العربية لم تبتهج للقرار ورفضته، وأعلنت تصميمها على القتال للحيلولة دون وضعه موضع التنفيذ. وفى اليوم التالى، وبينما الطائفة اليهودية تواصل احتفالها باعتراف العالم باستقلالها القومى، تعرض أتوبيس يحمل مسافرين يهود لهجوم بالبنادق على طريق بتاح تكفا - اللد راح ضحيته خمسة من الركاب. وهكذا بدأت حرب استقلال اسرائيل حوالى ٦٥٠ ألفا من السكان اليهود فى مواجهة مايقرب من ١٫١ مليوناً من السكان العرب، يدعمهم سبعة جيوش عربية من خارج الحدود .

لقد كانت الاضطرابات، التى اندلعت فى ٣٠ نوفمبر ١٩٤٧ وتحولت إلى غزو عربى لفلسطين، بمثابة تصعيد للصراع المتقطع بين السكان اليهود والعرب، والذى يرجع إلى عام ١٩٢٢، عندما منحت عصبة الأمم لبريطانيا حق الانتداب على فلسطين .

فى أواخر القرن التاسع عشر، وجد اليهود فى الحركة الصهيونية تجسيداً سياسياً حديثاً للحلم القديم بالعودة إلى أرض التوراة والأجداد. وهذا التنظيم، والذى قاده فى البداية الدكتور «تيودور هرتزل» ثم الدكتور «حاييم وايزمان» وغيرهما من القادة اليهود البارزين، هو الذى قاد النضال من أجل الاعتراف الدولى بالكيان اليهودى فى فلسطين. لقد كان التنظيم، فى واقع الأمر، بمثابة حركة التحرر الوطنى للشعب اليهودى .

وفى نوفمبر ١٩١٧، أصدرت الحكومة البريطانية «تصريح بلفور»، معلنة تأييد بريطانيا لإقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، على أن يتم ذلك دون الإخلال بحقوق العرب من سكان البلاد. وقد لاقت هذه السياسة، التى كان يؤيدها بحماس عدد من قادة الرأى العام البريطانى (مثل لويد جورج وتشرشل وبلفور، وغيرهم) المزيد من الدعم بفضل التأييد اليهودى - خاصة فى الولايات المتحدة - لقضية الحلفاء فى الحرب العالمية. ولم يعارض الشريف «حسين»، زعيم العالم العربى خلال الحرب العالمية الأولى، عودة اليهود إلى فلسطين. وقد كتب ابنه «فيصل» - الذى كان يمثل العالم العربى فى مؤتمر السلام بباريس - إلى «جستس فليكس فرانكفورتر» ممثل الولايات المتحدة يقول: «هناك مكان لكلينا فى سوريا. بل إننى اعتقد بأنه لايمكن لأى منا أن يحرز النجاح دون الآخر» .

وأثناء الحرب العالمية الأولى، قدم الحلفاء للقادة العرب وعوداً بالاستقلال، وهو ماتحقق فيما بعد لسوريا ولبنان والعراق . لكن عدداً من الزعماء العرب اعتقد أن من ضمن الوعود ضم فلسطين إلى «سوريا الكبرى». وفى ١٩٢٢، منح مجلس عصبة الأمم المتحدة بريطانيا حق الانتداب وأوكل إليها إدارة فلسطين وتنفيذ - من بين أشياء أخرى - تصريح بلفور. كان عدد اليهود المقيمين فى فلسطين وقت صدور التصريح حوالى ٨٥ ألف نسمة. وكان هناك نسبة منهم تعيش فى البلاد منذ قرون. بل إن اليهود ظلوا لما يزيد على المائة عام يشكلون الأغلبية بين سكان مدينة القدس. وفى ظل الانتداب البريطانى، أدت الهجرة اليهودية (برغم القيود التى فرضتها السلطات) إلى مضاعفة الرقم إلى حوالى سبع مرات، حيث وصل العدد فى ١٩٤٧، إلى مايزيد على ٦٠٠ ألف نسمة . وفى تلك الفترة، زاد عدد السكان العرب من بضع مئات من الآلاف إلى مايزيد على المليون، حيث جذب مستوى المعيشة المرتفع فى فلسطين - بفضل المهاجرين من اليهود - العرب من البلاد المحيطة. وكان الانتداب الممنوح لبريطانيا على فلسطين يشمل كامل منطقة شرق الأردن، على الضفة الشرقية لنهر الأردن، وكذلك الضفة الغربية. وفى ١٩٢٢، أسس «ونستون تشرشل»، وزير المستعمرات البريطانى، إمارة بشرق الأردن تحت حكم الأمير (والملك بعد ذلك) عبد الله، والتى صارت، فيما بعد، دولة الأردن المستقلة. وهكذا، فإن ٨٠٪ من منطقة الانتداب كان بمثابة منطقة حكم ذاتى لعرب فلسطين.

لكن البلاد شهدت، على مر السنين، العديد من الاضطرابات العربية (فى ١٩٢٢، و ١٩٢٩، و١٩٣٦) تلك الاضطرابات التى كان يقف وراءها مفتى القدس المتطرف الحاج «أمين الحسينى». وفى ١٩٣٧، توصلت لجنة ملكية بريطانية برئاسة اللورد «بيل» إلى استحالة التعايش بين اليهود والعرب بما يحقق أمانى كل من الطرفين القومية. ولذا فقد أوصت اللجنة بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية، مع استمرار الانتداب على القدس، وضم بقية فلسطين إلى شرق الأردن. وبينما كانت الطائفة اليهودية مستعدة للقبول بحل كهذا، كان موقف العرب هو الرفض .

على أن الحرب العالمية الثانية قد أحدثت فجوة فى النضال. فقد تطوع السكان اليهود بالقوات البريطانية، حيث التحق بصفوفها مايزيد على ٣٠ ألفا. كما شهدت الحرب محرقة أعدتها ألمانيا النازية راح ضحيتها ستة ملايين يهودى بغرف الغاز فى شرق أوروبا. وطالب من بقى حياً بمغادرة أوروبا والقدوم إلى الوطن بفلسطين، لكن الحكومة البريطانية كانت تنتهج سياسة متشددة تجاه الهجرة اليهودية إلى فلسطين وبيع الأراضى بغرض استيطان السكان اليهود. وهكذا وجدت حكومة العمال البريطانية الجديدة - التى جاءت بعد الحرب- نفسها فى موقف الصدام مع اليهود فى فلسطين .

وفى عام ١٩٤٥، وبعد رفض الحكومة البريطانية دعوة الرئيس «ترومان» للسماح بانتقال ١٠٠ ألف يهودى من أوربا إلى فلسطين، بدأ السكان اليهود بفلسطين معارضتهم المسلحة لسلطات الانتداب. وقاد هذا النضال جيش إسرائيل الوليد: الهاجاناه *. وتركز العمل بالأساس على كسر الحواجز أمام ماسمى بالهجرة غير المشروعة. كما كان هناك اثنان من التنظيمات السرية المنشقة

* الهاجاناه : المعنى الحرفى للكلمة هو الدفاع . وكانت تسمى «إرجون هاجاناه » أى « منظمة الدفاع» .

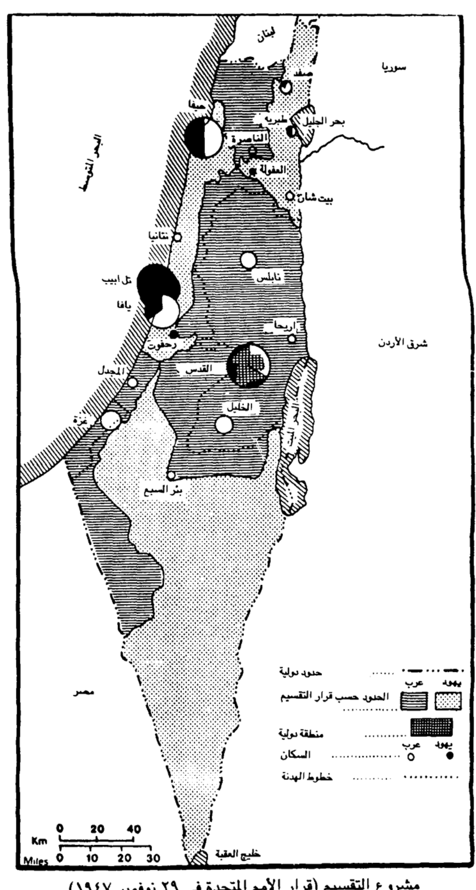
«إرجون زفاى ليومى» (المنظمة العسكرية القومية) والتى يطلق عليها عادة «إرجون» أو إتسل، بقيادة مناحم بيجن (الذى سيصبح بعد ذلك بثلاثين عاماً رئيس حكومة اسرائيل الذى يوقع معاهدة السلام مع رئيس مصر)، ثم منظمة «لوحامى حيروت يسرائيل» (المقاتلون من أجل حرية إسرائيل)، المشهورة باسم «ليحى» أو «مجموعة شتيرن»* وقد اتبعت هاتان الجماعتان سياسة أكثر فاعلية، بما فى ذلك الهجمات المباشرة ضد الوجود البريطانى .

وفى ابريل ١٩٤٦، أوصت لجنة مشكلة من قبل الحكومتين البريطانية والأمريكية بالسماح لـ ١٠٠ ألف من المهاجرين اليهود بالدخول إلى فلسطين وإلغاء القيود التى تفرضها حكومة فلسطين منذ ١٩٣٩ على شراء اليهود للأراضى. لكن توصيات اللجنة، التى أقرت بالإجماع وصادق عليها الرئيس «ترومان»، لم تلق قبول الحكومة البريطانية. وتصاعد الصراع فى فلسطين: أعدت الهاجاناه عملية لتدمير جميع الجسور والطرق المؤدية إلى البلاد العربية المجاورة، بينما ضاعف البريطانيون من إجراءاتهم المضادة وقبضوا على جميع قيادات الهاجاناه المعروفة. ومع تصاعد المقاومة اليهودية، كان على بريطانيا أن تزيد من تواجدها العسكرى فى فلسطين. ووجدت الحكومة البريطانية، التى خرجت من الحرب العالمية الثانية منهكة مادياً واقتصادياً فى انتظارها مهمة إعادة البناء بعد قتال عنيف، فى ظل موارد متناقصة وامبراطورية إلى زوال، وجدت نفسها متورطة فى صراع عسكرى كبير على أرض فلسطين، صراع يفرض عليها الاحتفاظ بحوالى ١٠٠ ألف من قواتها هناك فقررت أن تعيد الانتداب إلى المجتمع الدولى. وفى ١٨ فبراير ١٩٤٧، أعلن وزير الخارجية البريطانى «إرنست بيفن»، أمام مجلس العموم قرار بريطانيا بإحالة المسألة برمتها إلى الأمم المتحدة.

فى الوقت نفسه، تصاعدت الأعمال العدائية: «إرجون» تنسف فندق الملك داوود، ومقار القيادة البريطانية فى القدس، مع وقوع خسائر كبيرة فى الأرواح؛ وصدرت أحكام بالإعدام بحق من يحمل سلاحاً بدون ترخيص، وأعدم عدد من أعضاء الجماعات السرية من اليهود. وردت «إرجون» بشنق اثنين من البريطانيين برتبة الرقيب. وفى أغسطس ١٩٤٧، منعت الحكومة البريطانية السفينة (اكسودس) التى تحمل مهاجرين غير شرعيين، وأمام أعين العالم المشدوهة، أعادت المهاجرين (ضحايا النازى ممن لاوطن لهم) إلى الأرض الألمانية. وبعد إحالة الحكومة البريطانية الموضوع إلى الأمم المتحدة، عين مجلس الأمن لجنة خاصة لفلسطين، انتقلت إلى المنطقة والتقت بالسكان المحليين وتشاورت مع الأطراف المعنية، واقترحت اللجنة، بعد مشاهداتها، تقسيم البلاد إلى دولتين، إحداها عربية والأخرى يهودية، مع وضع القدس تحت الإشراف الدولى. وقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذا، وفى النهاية صدر قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧. وفى الوقت الذى رحب فيه السكان اليهود بالقرار، رفضته الدول العربية رفضاً تاماً، وأقسمت على تدمير أية دولة يهودية فى مهدها. وهكذا بدأت حرب الاستقلال، والتى تبلورت خلالها الأهداف السياسية المتعارضة لكلا الشعبين، وليُفتح الستار على تراجيديا الشرق الأسط .

---

* سميت هكذا بعد مقتل قائدها «إفراهام شتيرن» على يد البوليس البريطانى خلال إحدى الحملات فى عام ١٩٤٢ .



مشروع التقسيم (قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧)

الباب الأول

حرب الاستقلال

(١٩٤٨ - ١٩٤٩)

١

المواجهة فى فلسطين

فى الوقت الذى كانت تعد فيه بريطانيا لسحب قواتها فى مايو ١٩٤٨، وتعد فيه الطائفة اليهودية نفسها لمواجهة الانقضاض العربى المحتوم، برز عامل أثر على أوضاع اسرائيل العسكرية خلال الطور الأول من حرب الاستقلال. فقيادة القوات البريطانية كانت على عداء سافر لنضال السكان اليهود فى الوقت الذى تسيطر فيه هذه القيادة على الشرايين الرئيسية والنقاط الحصينة. فالسفن البريطانية تخفر شرق المتوسط والساحل، وسلاح الجو الملكى يسود سماء فلسطين. كما كانت تلك القوات تضم اثنتين من الوحدات العربية، هى «الفيلق العربى» و«قوات حدود شرق الأردن». وقد لعبت هاتان الوحدتان دوراً كبيراً لصالح القوات العربية أثناء القتال .

القوات الاسرائيلية وأوضاعها

كانت خطوط المواصلات الواهنة بين المستعمرات هى أضعف نقطة فى الموقف الاسرائيلى، وكان محتماً أن تكون تلك الطرق من أوائل أهداف الهجمات العربية. فقد كان السكان يتركزون بالأساس فى شرائط طويلة من التجمعات الزراعية شرقى الجليل، ووادى جزريل وأسفل السهل الساحلى إلى الجنوب من تل أبيب. وفى العديد من المدن والمناطق لم يكن هناك خط فاصل بين السكان العرب واليهود، وكانت المؤسسات ومكاتب الحكومة والمرافق العامة الرئيسية، مثل الكهرباء ومعامل تكرير البترول، مشاعاً بين الطرفين. وكان الضعف كامناً، بصفة خاصة، فى طرق المواصلات بين المستعمرات المعزولة فى غربى الجليل والنقب وبين المائة ألف من يهود القدس والسهل الساحلى (ناهيك عن الانقطاع التام للاتصال بين مستعمرات القدس النائية والكتلة الأساسية من السكان اليهود بالمدينة). كما أن الحدود الرسمية لم تكن آمنة. فقد كانت واقعة، بالأساس، تحت سيطرة وحدات الفيلق العربى وقوات حدود شرق

الأردن، الأمر الذى لم يكن ممكناً معه إحكام غلق الشريط الحدودى الطويل أمام دخول القوات والإمدادات العسكرية العربية إلى فلسطين. كان تعداد الفيلق حوالى ٨ آلاف رجل، بينما يصل عدد قوات الحدود إلى حوالى ٣ آلاف من الرجال الأشداء، بالإضافة إلى ٤ آلاف رجل ضمن «البوليس البريطانى بفلسطين». وكانت القوات البريطانية مسئولة، تحديداً، عن الأمن والنظام فى البلاد، ولكن كلا من العرب واليهود الخارجين كانوا يعملون بحرية داخل المناطق التى يسيطرون عليها. وبمرور الأعوام، نمت القوات المسلحة أو الميليشيا الإسرائيلية، أحياناً بتستر البريطانيين ودعمهم، وأحياناً أخرى «بشكل سرى» رغما عن البريطانيين. وفى البداية تكونت وحدات الدفاع المنظمة محلياً فى أرجاء البلاد من أجل الدفاع عن المستعمرات اليهودية، لكن هذه الوحدات اندمجت بالتدريج فى إطار تنظيم قومى، هو الهاجاناه . وكان التمرد العربى فى ٣٦ - ١٩٣٩ هو الذى أظهر إلى الوجود سرايا الميدان التابعة للهاجاناه، التى كانت أول وحدات تعمل باتساع البلاد على أساس قومى لمواجهة التمرد وحماية أنابيب البترول المارة بوادى «جزريل»، فى طريقها من العراق إلى حيفا. وصاحب الفكرة هو «أورد وينجت»، أحد قادة الجيش البريطانى (الذى ذاع صيته فيما بعد كقائد للـ «شينديت» فى بورما أثناء الحرب العالمية الثانية) الذى نظّم «داوريات ليلية خاصة» لقتال الفدائيين العرب الذين كانوا يسعون إلى تفجير خطوط أنابيب البترول. كذلك، فقد كانت هناك قوات مساعدة عرفت باسم «بوليس المستعمرات اليهودية»، كانت تساعد فى الدفاع عن المستعمرات اليهودية وحماية خطوط المواصلات فيما بينها. وقد بلغ تعداد هذه القوات حوالى ألفى رجل، يقودها البريطانيون ومقسمة إلى أقسام، ويتسلح أفرادها بالأسلحة الصغيرة وحدها .

وفى مايو ١٩٤١، أنشأت الهاجاناه قوة عسكرية متفرغة، عرفت باسم «البلماح» (من «بلوجوت ماحتس» أو «القوات الضاربة»). وكانت هذه القوة تعمل تحت السيطرة الكاملة للهاجاناه، وتولى قيادتها فى البداية «اسحق ساديه»، أحد قادة الهاجاناه المبرزين، الذى كان بشخصيته وتقديمه المثال قوة دافعة لقيامها. (فيما بعد، وعند تأسيس جيش الدفاع الاسرائيلى، لم يكن سجله كقائد عسكرى لعميات خارقة مما يفى بطموحات تلك الأيام) . فقد جمع حوله مجموعة من الشباب قدر لهم أن يصبحوا فيما بعد قادة القوات الإسرائيلية؛ إذ تلقى عدد من الرجال الذين قدر لهم أن يقودوا جيش إسرائيل تدريبهم الأولى فى صفوف البلماح. رجال من أمثال: «اسحق رابين» (الذى أصبح فيما بعد رئيساً للأركان، ورئيساً للوزراء)، وحاييم بارليف» (رئيس الأركان ثم وزير بالحكومة الاسرائيلية)، «دافيد اليعازر»

(رئيس الأركان فى حرب يوم كيبور ١٩٧٣) وكثيرون غيرهم. وفى إحدى العمليات الأولى للقوة، عندما كانت تعمل مع البريطانيين لطرد حكومة «فيشى» الفرنسية من سوريا، فقد «موشى ديان» (الذى أصبح فيما بعد رئيساً للأركان ووزيراً للدفاع والخارجية فى عدد من الحكومات الإسرائيلية، والذى قاد الجيش الاسرائيلى فى حملة سيناء ١٩٥٦) إحدى عينيه. ففى أثناء قيادته لإحدى وحدتى الاستطلاع المختارة من البلماح لتأمين أحد الكبارى على نهر الليطانى أصابته رصاصة أحد القناصين الفرنسيين وهو يعاين الكوبرى. وكان على رأس الوحدة الأخرى، فى تلك الأيام «ييجال اللون»، الذى صار فيما بعد قائداً للبلماح، ونائباً لرئيس الوزراء ووزيراً فى عدد من الحكومات الاسرائيلية .

أثناء الحرب العالمية الثانية، تطوع عدد من اليهود للخدمة فى صفوف القوات المسلحة البريطانية، سواء كأفراد أو ضمن وحدات فلسطينية . وفى ١٩٤٤، تشكلت مجموعة من اليهود بقوة لواء للعمل ضد الألمان فى إيطاليا. وكانت الخبرة القتالية التى اكتسبها ٣٠ ألفاً من المتطوعين فى جميع أسلحة الجيش البريطانى ذات قيمة عظيمة عند قيام جيش الدفاع الإسرائيلى * فيما بعد، سواء على المستوى التنظيمى أو التدريب والكفاءة التكنيكية، تلك الخبرات التى كانت الهاجاناه فى حاجة إليها فى ذلك الحين. وفى الوقت الذى كانت فيه جيوش «روميل» – التى كانت تهدد بغزو مصر ودخول فلسطين – تلقى الهزيمة على يد البريطانيين فى ١٩٤٢، كانت قوة البلماح تحت قيادة «اسحق ساديه» تقدر بما يزيد على الثلاثة آلاف رجل، منهم حوالى ألفين من الاحتياط . وفى ١٩٤٧، عند صدور قرار التقسيم، بلغت قوة البلماح مايزيد على ثلاثة آلاف رجل وامرأة، إضافة إلى حوالى الف من الاحتياط النشط قيد الاستدعاء. (فى ١٩٤٤، تشكل داخل تنظيم البلماح وحدة بحرية (بليم) وأخرى جوية .) .

وفى منتصف ١٩٤٧، بدأ «دافيد بن جوريون»، رئيس الوكالة اليهودية لفلسطين (والتى كانت، فى الواقع، حكومة السكان اليهود بفلسطين) إعداد الهاجاناه لحرب متوقعة. وفى خلال ستة شهور، قبل اندلاع الحرب، أقام مناطق وقيادات عسكرية باتساع الخطوط المحتمل غزوها من قبل الجيوش العربية، وكون الألوية على أسس مناطقية ووضع التوجيهات الخاصة بالأسلحة وتدريب القوات. وهكذا ، كان لواء «جولانى»، بحلول فبراير ١٩٤٨، يعمل فى وادى الأردن وشرق الجليل؛ ولواء «كرملى» يغطى حيفا وغرب الجليل؛ ولواء «جعفاتى» فى

---

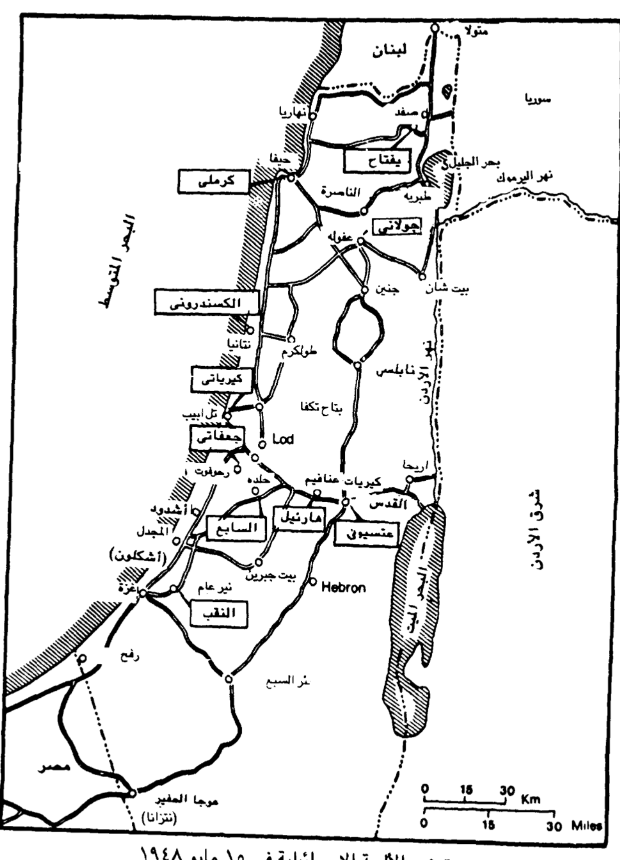
* يستخدم المؤلف كلمة (IDF) Millitary Defence Forces أى قوات الدفاع الإسرائيلية ، لكننى آثرت استخدام «جيش الدفاع الإسرائيلى» الأكثر شيوعاً (المترجم) .

المنخفضات الجنوبية؛ ولواء «الكسندرونى» بمنطقة «شارونه» الوسطى؛ ولواء «عتسيونى» بمنطقة القدس؛ بينما يغطى لواء «كرياتى» مدينة تل أبيب وضواحيها. وعلى مدى الشهور الثلاثة التالية، تشكلت ثلاثة ألوية من كتائب البلماح المستقلة : لواء «النقب» فى المنخفضات الجنوبية وشمال النقب؛ ولواء «يفتاح» بالجليل؛ ولواء «هارئيل» بمنطقة القدس .

ويجب أن نلفت النظر إلى أننا عندما نتحدث عن ألوية ووحدات عسكرية، فإننا لانعنى كياناً عسكرياً تقليدياً. فنشاط الهاجاناه كان سرياً، وكان تنظيمها العسكرى وانتشارها يجرى فى ظل الرقابة اليقظة للقوات البريطانية، مع العلم بأن حمل السلاح كان جريمة عقوبتها الإعدام. هذا بالإضافة إلى قيام الجنود البريطانيين، من حين لآخر، بالإغارة على القرى والمدن اليهودية بحثاً عن المخازن السرية للأسلحة. وكان الحذق والمراوغة فى نقل وتخزين السلاح أحد المهارات الأساسية للهاجاناه. لم يكن العرب يعانون من نقطة الضعف هذه، فمواجهتهم مع القوات البريطانية لم تكن بنفس الحدة وغالباً ماكانوا يتنقلون داخل المناطق التى يسيطرون عليها بحرية، يحملون السلاح علناً. وقد استفادوا فى هذه النقطة استفادة كبيرة من وحدات الفيلق العربى، التى كانت جزءًا من القوات البريطانية .

وقد قامت صناعة حربية متواضعة أمكن بواسطتها تصنيع الأسلحة الصغيرة، مثل بنادق «شتين» والقنابل اليدوية، لكن موقف الضعف الذى كانت عليه القوات الإسرائيلية يتضح إذا ماعلمنا أن إجمالى تسليح الهاجاناه فى ١٩٤٧ كان يتكون من ١٠ر٥٠٠ بندقية، و ٣٥٠٠ رشاش، و ٧٧٥ مدفع خفيف، و ٣٤ مدفع هاون عيار ٣ بوصة، و ٦٧٠ هاون عيار ٢ بوصة، مع نخيرة لاتكفى إلا لثلاثة أيام فقط من القتال، وحتى القوة الثابتة (البلماح) لم تكن تستطيع تسليح سوى أثنين من كل ثلاثة من مقاتليها. وفى تلك المرحلة، كانت المدفعية والأسلحة المضادة للدبابات مجرد حلم؛ فلم يكن بيد القوات اليهودية أياً منها .

كانت القوة اليهودية الممكن حشدها من بين إجمالى تعداد السكان اليهود البالغ ٦٥٠ ألف نسمة، هو حوالى ٤٥ ألفاً، بينهم ٣٠ ألفاً من الرجال والنساء كان عملهم قاصراً على الدفاع المحلى، خصوصاً فى القرى المنتشرة بامتداد البلاد، ولم يكن من الممكن ضمهم مطلقاً إلى قوات الميدان. وهكذا كانت القوة الفاعلة الممكن حشدها من بين السكان اليهود عند اندلاع القتال تبلغ حوالى ١٥ ألفاً. وكانت القوة الجوية للبلماح تتكون من ١١ طائرة خفيفة ذات المحرك الواحد، يعمل عليها ٢٠ من طيارى «البايبركب»، بالإضافة إلى عشرين طياراً مقاتلاً آخرين سبق لهم العمل بسلاح الطيران الملكى. ولم يكن تحت تصرف هذه القوة مطار أو



توزيع الألوية الإسرائيلية فى ١٥ مايو ١٩٤٨

ممرات هبوط وإقلاع، إذ لم يكن هناك بالبلاد سوى مطارين، هى حيفا واللد (ليدا)، المعدان لاستقبال الطائرات المدنية. وكانت المجموعة البحرية تضم ٣٥٠ بحاراً سبق لهم العمل بالبحرية الملكية وفى عمليات الهجرة غير المشروعة، بجانب عدد من القوارب البخارية والضفادع البشرية .

وكان هناك، بفلسطين، إلى جانب الهاجاناه تنظيمين يهوديين منشقين، لم يقبلا بالانصياع للقيادة اليهودية. فقد ظل مابين ٢٠٠٠ – ٤٠٠٠ من أعضاء «إرجون» بقيادة «مناحم بيجن»، يمارسون نشاطهم المعادى للبريطانيين، حتى عندما كانت السياسة اليهودية تنهى عن مثل هذه الأنشطة. ونظراً لتبنيها الثابت لسياسة مهاجمة مقار الشرطة البريطانية والمواقع الحكومية والعسكرية، فقد كان تدريب «إرجون» يقوم فى الأساس على عمليات الوحدات الصغيرة وغارات الكوماندوز، ولم تحقق خبرة كبيرة فى القتال المكشوف الواسع النطاق. كما كانت مجموعة «ليحى» أو شتيرن»، البالغ عدد أفرادها مابين ٥٠٠ – ٨٠٠ ، أكثر تشدداً فى موقفها الانشقاقى ، وظلت على خطها الثابت فى العداء للانجليز طوال الحرب. ولم يكن الدمج الكامل لهاتين الوحدتين فى إطار الجيش الإسرائيلى ليتحقق دون اقتتال داخلى رهيب .

القوات العربية وأوضاعها

كانت الكتلة الأساسية من السكان العرب بفلسطين تأتمر بإمرة الحاج «أمين الحسينى»، مفتى القدس المنفى. وكان هدفه المعلن صراحة هو القضاء على الطائفة اليهودية بفلسطين عن آخرها أو إلقائها فى البحر. وهو من مواليد ١٨٩٣ بالقدس، ويعود انخراطه فى الحركة الوطنية العربية إلى عام ١٩١٩ تقريباً، وفى ابريل من العام التالى قاد الاضطرابات المعادية لليهود فى القدس، والتى حوكم بسببها على أيدى السلطات البريطانية. وحاول «هربرت صمويل»، المندوب السامى البريطانى فى ذلك الحين، أن يهدئ من خواطر الوطنيين، وأن يحقق قدراً من توازن القوى بين العائلات العربية المتنافسة، فقام بتعيينه مفتياً للقدس فى ١٩٢١. لكن «الحسينى» استغل منصبه الجديد فى تشجيع سياسة متطرفة. فقد لعب دوراً نشطاً فى تنظيم الاضطرابات المعادية لليهود فى ١٩٢٩، ورأس اللجنة العربية العليا التى قادت عصيان ١٩٣٦. وفى ١٩٣٧، قام البريطانيون بطرده وحل لجنته، لكنه هرب إلى دمشق، حيث كان يقود العصيان من هناك . وفى ١٩٤٠، انتقل إلى العراق حيث لعب دوراً فى ثورة ١٩٤١ الموالية للألمان، والتى هرب بعد فشلها إلى ألمانيا. وفى نهاية الحرب، توجه إلى القاهرة، حيث بدأ من

هناك تنظيم عرب فلسطين مرة أخرى. (بعد الهزيمة العربية فى ١٩٤٨، لم يكن أمامه إلا الإقامة فى المنفى، فى مصر ولبنان بصفة خاصة، وأخذ نفوذه فى التدهور السريع حتى وفاته فى المنفى فى أواخر السبعينيات من عمره .) .

كان معظم الفلاحين العرب يحملون السلاح، ويمكن حشدهم بواسطة «الفزعة»، وهو نظام عربى كان باستطاعة كل شيخ – عن طريق هذا النظام – أن يستدعى الذكور فى منطقته للعمليات، سواء للدفاع أو للهجوم، على الأسس الصرفة لحرب العصابات. وكان عرب فلسطين يملكون تنظيمين شبه عسكريين: «النجادة» و «الفتوة»، اللذان يعملان علناً كحركة كشفية. وفى إطار هذين التنظيمين، كان الأعضاء يتلقون تدريبات خاصة بحرب عصابات المدن، وإن كانت لاتبارى الهاجاناه فى ذلك . وكان بإمكانهم، بالطبع، الاستفادة من مساندة السكان العرب المحليين، وكذلك من التعاون المرن مع الفيلق العربى وقوات حدود شرق الأردن. كذلك كان بإمكان القوات العربية الاستفادة، من حين إلى آخر، من عدد من الهاربين من صفوف الوحدات البريطانية. فهؤلاء الهاربون، بهيئتهم كجنود بالخدمة العاملة بالقوات البريطانية النظامية وتحركهم بمركبات الجيش البريطانى المسروقة، كان بإمكانهم العبور إلى المناطق اليهودية ذات الكثافة السكانية العالية بالمدن، وخاصة القدس، وبث القنابل التى كانت تحدث أضراراً كبيرة وتصيب الكثير من الضحايا. وهكذا، فإن العمليات الثلاث الكبيرة التى نفذت بنجاح فى القدس، تم تنفيذ اثنتين منها – نسف مبنى بريد فلسطين، والهجوم على شارع بن يهودا الذى أسفر عن مقتل خمسين شخصاً وتدمير معظم المنطقة – بأيدى أمثال هؤلاء الفارين. أما الهجوم الثالث فقد استهدف مقر الوكالة اليهودية واستخدمت فيه سيارة أحد مستشارى الأمم المتحدة، التى أمكن إدخالها حتى ساحة المبنى. (من ناحية أخرى، التحق عدد غير قليل من الهاربين من بين صفوف القوات البريطانية بصفوف الهاجاناه، خلال الحرب، وفى إحدى هذه الحالات أحضر أحد الهاربين أول دبابة تدخل القوات المسلحة الإسرائيلية، وكانت من طراز كروميل .) .

كانت وحدتا الفدائيين التابعتين للمفتى ، والمعروفتان باسم «جيش الإنقاذ»، والتى تضم كل منها ألفاً من الرجال الأشداء، تحت قيادة ابن عمه «عبد القادر الحسينى» و«حسن سلامة»، اللذين تلقيا قدراً من التدريب العسكرى على أيدى الالمان أثناء الحرب. وعند حضوره إلى فلسطين للشروع فى «الجهاد»، بدأ عبد القادر عملياته فى منطقة القدس، بينما نشط سلامة فى قطاع اللد – الرملة. وللمزيد من إيضاح الوضع العسكرى العربى، فقد كانت هناك فى

جنوب فلسطين مجموعة من الفدائيين المتطرفين وغير المنظمين إلى حد ما تتبع جماعة «الإخوان المسلمين» بمصر – المتطرفة فى تعصبها – والتى كانت على صلة غير واضحة بأحزاب أخرى. وكان يظاهر تلك القوات الإمكانيات العسكرية للعالم العربى، والتى كانت تقدر ببضع مئات من الطائرات بالقوات الجوية المصرية والسورية والعراقية، إضافة إلى المدفعية والدبابات البريطانية والفرنسية. هذا إلى جانب امتلاكهم الفعلى لفائض من الأسلحة والذخيرة وقطع الغيار، بعكس ماكان مفروضاً على القوات اليهودية من حظر .

عندما اقترب الموعد الذى حددته بريطانيا للانسحاب من فلسطين، كانت الجامعة العربية قد اتخذت قرارها بتدخل دولها الأعضاء عسكرياً . لكن الإعداد للحرب فى مواجهة دولة إسرائيل الوليدة تم على أرضية الخلافات العربية المتعذر تجنبها، ومكائد ومناورات العديد من الحكام العرب ضد بعضهم البعض . وفى ابريل ١٩٤٨، اتفقوا على تنصيب الملك عبد الله، ملك شرق الأردن، قائداً أعلى للجيوش الغازية. ولم يكن الملك يسيطر فحسب على أكثر القوات العربية فعالية – الفيلق العربى – وإنما كان يتمتع أيضاً بميزة أساسية تتمثل فى تواجد جزء من قواته بالفعل داخل فلسطين، ضمن الجيش البريطانى. وقد زاد ذلك من شكوك الزعماء الآخرين فى نواياه؛ إذ كان هناك بعض الشك فى طموحه إلى إعادة توحيد الضفة الغربية والشرقية لنهر الأردن وإقامة مملكة فلسطينية – أردنية. وباختصار، فإن الدول العربية كانت منقسمة أكثر منها موحدة، وانحسرت قضيتهم المشتركة فى مقاومة الاستيطان اليهودى فى فلسطين ومنع قيام دولة يهودية . وهو منطق استمر على مدى السنين.

كان «الفيلق العربى»، إلى حد بعيد، هو أفضل القوات العربية تدريباً وأكثرها فاعلية، ويتولى قيادته الليفتنانت جنرال «سيرجون بجوت جلوب» (المعروف بـ «جلوب باشا»)، أحد محاربى الحرب العالمية الأولى المحنكين. وبفضل إجادته للعربية، استطاع «جلوب» مع مجموعة من الضباط البريطانيين أن يحول «الفيلق العربى» من مجرد قوات للحدود إلى جيش حديث. فقد استطاع، بفضل معرفته الشخصية الوثيقة برجال القبائل ونفوذه الشخصى، أن يخلق قوة هائلة من خلال تطبيق النظم والقواعد الإنجليزية فى تجنيد نوعيات من البدو . وكان الفيلق يضم أنذاك أكثر من ١٠ آلاف رجل منظمين فى ثلاثة ألوية، وعدد من كتائب الدبابات وعناصر المدفعية. وكان الجيش المصرى، على وجه التحديد، هو أقوى الجيوش العربية، وقد أعد قوة من خمسة آلاف رجل، تنتظم فى مجموعة لواء مع عنصر مدرعات. وفى الشمال، كانت القوة السورية تتألف من ثمانية آلاف رجل، تنتظمهم اثنتين من ألوية المشاة وكتيبة آليات مسلحة

بدبابات فرنسية الصنع، وقوة جوية صغيرة. أما لبنان، فقد كان ممثلاً بأربع كتائب مشاة مع قوات محدودة من المدفعية والمدرعات، وبلغ إجمالى القوة الفى رجل. كما حشد العراق عشرة آلاف مقاتل: أربعة ألوية مشاة، وكتيبة مدرعات وقوات إمداد، إضافة إلى وحدة جوية.

لمواجهة الخطر - كما تصوروه - الناجم عن طموحات الملك عبد الله وإمكانياته العسكرية، قرر ملوك ورؤساء البلاد العربية إقامة «جيش إنقاذ عربى»، يعمل فى فلسطين، حتى من قبل أن ينسحب البريطانيون. وقد عينوا لقيادة هذا الجيش الجنرال «طه الهاشمى» من العراق، لكنه لم يكن أكثر من قائد صورى، أما القائد الحقيقى للقوة، والتى ارتبطت باسمه نهائياً فقد كان ضابطاً سورياً سابقاً من ضباط الجيش العثمانى التركى، هو «فوزى القاوقجى». وكان «القاوقجى» قائد العرب من غير النظاميين أثناء تمرد ١٩٣٦ فى فلسطين، كما سبق له قيادة قوات الفدائيين العرب المتمركزة بمنطقة نابلس. وعلى الرغم من أنه كان قائداًغير نظامى، إلا أنه أظهر شجاعة وقدرات قيادية، إضافة إلى ميول استعراضية معينة أشاعت صورته كمهرج بعض الشيء . (من وجهة النظر العسكرية الصرفة، فإن أقصى مايمكن أن يوصف به أداؤه فى حرب ١٩٤٨ هو أنه كان متواضعاً) .

هكذا كانت أوضاع الجيوش العربية التى كان عليها أن تغزو فلسطين، وإضافة إلى فيلق شرق الأردن العربى، وجيش الإنقاذ بقيادة القاوقجى، وجيش التحرير التابع للمفتى: جيوش لبنان وسوريا ومصر والعراق؛ كما كانت هناك وحدات من الجيش السعودى ملحقة بالقوات المصرية. ونسقت كل هذه العناصر المتعددة فيما بينها إلى حدما، وإن كانت مخلصة فى الوقت نفسه لولاءاتها المتحزبة، وهو موقف لم يكن يسمح دائماً بسيطرة عسكرية مؤثرة وتحقيق التعاون فيما بين القوة التى يزيد تعدادها على الـ ٣٠ ألفاً، المنوط بها الغزو. لكننا إذا قارنا هذه القوات المجهزة تجهيزاً جيداً بمقاييس ١٩٤٨، من حيث الأسلحة الصغيرة والمدفعية والمدرعات والعناصر الجوية، والمنظمة على الأسس التقليدية بالقوات الإسرائيلية، التى لايملك قطاع كبير منها سوى الأسلحة الصغيرة، وحيث لاتوجد مدفعية ولامدرعات أو قوات جوية من أى نوع، فسنجد التناقض صارخاً. تلك كانت الأوضاع غير المتكافئة للقوات المتبارية، والتى وقفت فى مواجهة بعضها الآخر فى البداية .

ويحاول المؤرخون العرب أن يصوروا الموقف على أنه كان فى *صالح اليهود* عسكرياً بسبب خطوط الإمداد الداخلية ومرونة نظام التعبئة. لكن الافتراض الأول يتجاهل حقيقة أن جميع خطوط المواصلات اليهودية كانت غير حصينة، بسبب التواجد السكانى الكبير المعادى والمسلح

حولها. أما الفرض الثانى فيتجاهل أن الجزء الأكبر من القوات العربية كانت قوات نظامية مسلحة بالأسلحة التقليدية الحديثة بمعيار ذلك الزمن. وربما كان فقدان السكان اليهود لواحد بالمائة من تعدادهم أكبر دليل على ضراوة الصراع وطبيعته الأحادية الجانب. لقد كان الهدف الصريح والمعلن للقوات العربية هو إلقاء السكان اليهود فى البحر. وقد وجدت الدولة اليهودية الجديدة نفسها تخوض حرباً من أجل مجرد البقاء، تلك الحرب التى صارت حرب استقلالها.

المواجهة العسكرية

اندلعت الحرب فى شكل سلسلة من اضطرابات المدن: مواجهات مدينية دموية، عمليات «اضرب واهرب» تخلف وراءها قتلى ومشوهين وجرحى من سكان المدن عند كلا الجانبين، هجمات على خطوط المواصلات بين المدن اليهودية، ومحاولات لقطع الاتصال بين المراكز اليهودية. وقد تم عزل العديد من المستعمرات اليهودية النائية. وعلى الرغم من أن المنطق العسكرى كان يرى تقصير خطوط المواصلات عن طريق هجر مثل تلك المستعمرات، إلا أن الهاجاناه اتخذت قراراً، من حيث المبدأ، بعدم هجر أياً منها طواعية. فقد كانت القيادة اليهودية تقدر جيداً أن ترك القرى، حتى ولو لأسباب استراتيجية بحتة، يمكن أن تكون له نتائج خطيرة على المدى البعيد، لأنه كان من الواضح أن الحدود النهائية للدولة اليهودية الجديدة سوف تتحدد، قبل أى شىء، على أساس التواجد الفعلى ومواقع السكان اليهود. وهكذا، وبرغم المخاطر الشديدة، لم تهجر مستوطنة يهودية واحدة حتى دخول الجيوش النظامية العربية الحرب .

جرت أول محاولة عربية كبيرة للاستيلاء على مستوطنة صهيونية فى يناير ١٩٤٨، عندما هاجم «جيش الإنقاذ العربى» كفار سولد، وهى قرية بالقطاع الشرقى من الجليل الأعلى، على بعد مئات قليلة من الياردات من الحدود السورية. فقد كان العرب يحكمون سيطرتهم على المنطقة كلها من منطقة مرتفعة، وقاموا بإرسال كتيبة «اليرموك الأولى» إلى القرية. فأرسل البريطانيون- الذين لم يكن بوسعهم أن يسمحوا بمثل هذا الغزو الوقح من جانب بلد مجاور لمنطقة فى نطاق سيطرتهم - وحدة مدرعة لمساعدة المستوطنين، فانسحبت القوة العربية الغازية .

وفى الشهر نفسه، شنت قوة قوامها الف رجل بقيادة «عبد القادر الحسينى»، هجوماً على «كفار عتسيون»، القرية الرئيسية بين مجموعة من أربع قرى يهودية، على مسافة ١٤ ميلاً

جنوبى القدس. فقد قامت الوحدات العربية بقطع طرق الإمداد من المدينة إلى تلك القرية، ولم يبقى من وسيلة للاتصال سوى كشافات طائرة «بابيركب» رابضة فوق مهبط مؤقت. وكان الهجوم الرئيسى ضد «كفار عتسيون» بقوة قوامها ٣٠٠ من المقاتلين العرب، بينما وُجهت الهجمات المضللة إلى «مسؤوت يتسحاق» و «عين تسوريم». وقد أمكن للقوات اليهودية رصد الهجوم مسبقاً، فقامت سرية احتياط تابعة للبلماح كانت متمركزة هناك بعمل كمين على الخطوط المحتمل اقتراب العرب منها فى طريقهم إلى قرية «عين تسوريم». وقد نجح المستوطنون، الذين حبسوا نيرانهم حتى أصبحت القوة العربية الرئيسية فى مرمى النيران، فى إحباط الهجوم العربى. كما قامت قوة البلماح باصطياد إحدى الوحدات العربية وإنزال خسائر كبيرة بها. واضطرت القوة بكاملها إلى الانسحاب. فى تلك الاثناء، كانت الهاجاناه بالقدس قد نظمت جماعة من ٣٥ رجلاً من رجال البلماح لنجدة القرى المحاصرة، وبينما كانت الجماعة تشق طريقها عبر تلال الخليل، حاصرتها القوات العربية، واشتبكت معها فى قتال مرير حتى أبيدت الجماعة عن آخرها .

وقامت قوات «القاوقجى» بمهمات مشابهة على قرية «يحيعام» المعزولة فى غربى الجليل وكيبوتز «تيرات تسفى» فى «وادى بيسان». وفى محاولة للتأثير على السكان العرب الفلسطينيين، أعلن «القاوقجى» بعنجهية زائدة عن انتصاره الوشيك على «ثيرات زفى»، ودفع بكتيبة اليرموك الأولى إلى القتال. لكن المدافعين كانوا على يقظة تامة واستعداد. ومرة أخرى، تم حشد قوة يهودية تحركت فى دائرة واسعة وهاجمت القوة العربية من الجانبين مجبرة إياها على الانسحاب غير المنظم، مخلفة وراءها ٦٠ من القتلى وكمية كبيرة من العتاد.

على التوازى مع هذه الهجمات على القرى، كثّف العرب هجماتهم الإرهابية مستخدمين الأوروبيين (البريطانيون الفارون، والبولنديون، والألمان واليوغوسلاف) لقيادة المركبات المحملة بالقنابل إلى المناطق المأهولة باليهود. وهكذا نشروا الدمار والموت فى المدن الرئيسية، خاصة فى القدس. ولم تتباطأ القوات اليهودية فى الرد، وفى تحرك واحد قامت بتدمير المقرات العربية فى يافا.

كان المجهود العربى الرئيسى موجهاً، فى تلك الأثناء، نحو تعطيل خطوط المواصلات اليهودية، فأصبح عدد كبير من المحاور الرئيسية بطول البلاد مغلقاً تماماً أمام التنقل اليهودى. وكان الضغط الأساسى يهدف إلى قطع الطريق الذى يربط القدس بالساحل، فى الوقت الذى أصبحت فيه المستوطنات اليهودية بالنقب، بحلول منتصف مارس، مقطوعة الاتصال أرضاً، والوسيلة الوحيدة للاتصال هى طائرتى «بابيركب» .

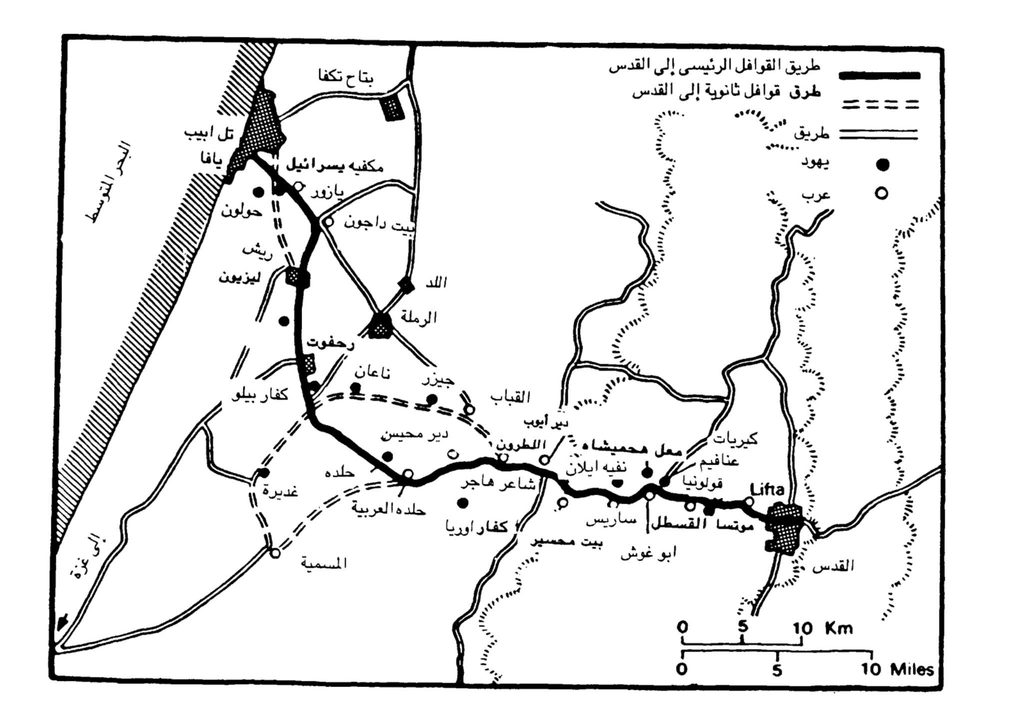
وشيئاً فشيئاً توصلت القوات اليهودية إلى نظام للحراسة بواسطة عربات مدرعة مصنعة محلياً، لكن الطبيعة المتعرجة للطريق الرئيسى المؤدى إلى القدس، وارتفاعه إلى مايقرب من ثلاثة آلاف قدم عند مرتفعات يهودا، جعل من الدفاع بأنظمة حراسة بطيئة مهمة صعبة. (الحل المنطقى لوضع كهذا، وهو بالتحديد - الاستيلاء على الأراضى المرتفعة التى تغطى جانبى الطريق والسيطرة عليها- كان مستحيلاً فى المراحل الأولى لأن القوات البريطانية كان ولابد أن تتدخل بالقوة ضد مثل تلك التحركات اليهودية). لقد أبقى على الحطام المحترق للمركبات والعربات البدائية، ولازالت قائمة حتى اليوم على جانبى الطريق المؤدى إلى القدس وسط التلال لتظل شاهداً على النضال العنيف والدموى الذى جرى هناك، ودليلاً على التضحيات الكبيرة التى قدمت من أجل الإبقاء على شريان الحياة للسكان اليهود بالقدس .

فى تلك الأثناء، كانت معارك مماثلة تدور على طرق الإمداد الرئيسية للمستوطنات اليهودية النائية. فمع حلول نهاية مارس، انقطع الاتصال نهائياً مع مجموعة قرى «عتسيون» بتلال الخليل، بينما حاول ٤٢ من أفراد الحراسة بالجليل إمداد قرية «يحيعام»، فكان مصيرهم القتل. وأصبح النقب والقدس وأجزاء من الجليل الغربى، معزولة عن المراكز اليهودية الرئيسية فى فلسطين. كان السكان يقاتلون قتالاً يائساً من أجل البقاء. لقد كسبت القوات العربية المنتصرة الجولة الأولى؛ كانت فى وضع الهجوم. وقد بلغت الخسائر اليهودية من الأرواح خلال المرحلة الأولى ١٢٠٠ قتيل .

لكن الكفاح ضد الجحافل فى تلك المرحلة لم يذهب سدى. لأنه عن طريق التضحية والتصدى للمحاولات العربية المتكررة للاستيلاء على مستوطنات القدس، حقق الجانب اليهودى واحداً من أثمن المكاسب، وأقصد تحديداً الوقت: الوقت لإعادة التنظيم ووضع حد للفوضى، الوقت للتعبئة، الوقت للتدريب، الوقت لتكثيف الجهد من أجل تهريب السلاح اللازم لاستمرار الكفاح. وشيئاً فشيئاً، بدأ الإعداد لخطط الهجوم .

الصراع يتصاعد

كان الحصار المفروض على الطائفة اليهودية بالقدس، وانقطاع وسائل الاتصال بها هما أكبر المشكلات العسكرية المطروحة على قيادة الهاجاناه. وقد أصبح من الجلى أن نظام الحراسة لم يكن فعالاً بحال وأنه ينبغى إيجاد وسيلة أخرى . وبينما كان يجرى وضع الخطط لفك الحصار عن القدس، بدأ «القاوقجى»، الذى كان قد عزز قواته فى نابلس، فى اتخاذ وضع

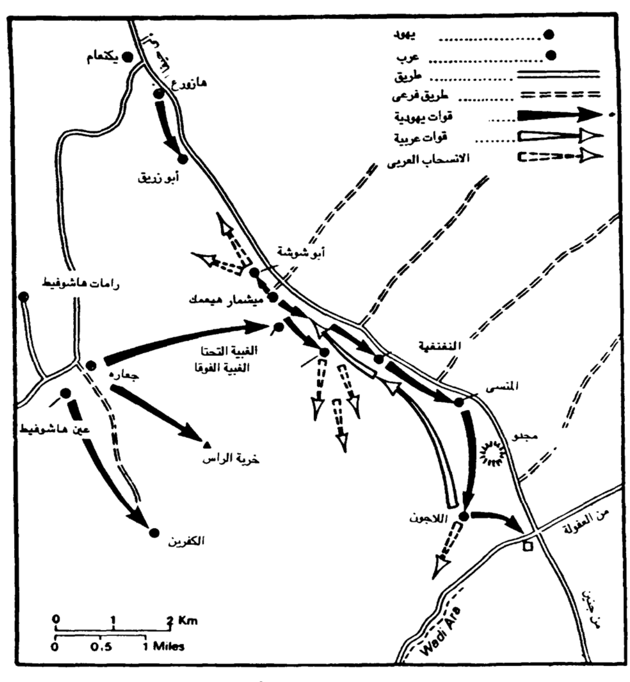


طريق القوافل الرئيسى إلى القدس
طرق قوافل ثانوية إلى القدس
طريق
يهود
عرب
البحر المتوسط
بتاح تكفا
تل ابيب
يافا
مكفيه يسرائيل
يازور
حولون
بيت داجون
ريش
ليزيون
اللد
الرملة
رحفوت
ناعان
جيزر
كفار بيلو
القباب
دير ايوب
دير محيسن
اللطرون
معل هحميشاه
كيريات
عنافيم
قولونيا
Lifta
حلده
شاعر هاجر
نفيه ايلان
غديرة
حلده العربية
كفار اوريا
ساريس
القسطل
موتسا
بيت محسير
ابو غوش
القدس
المسمية
إلى غزة
0 5 10 Km
0 5 10 Miles

الهجوم فى محاولة لقطع خطوط الاتصال اليهودية بين تل أبيب وحيفا والشمال . وجاء تحركه الأول ضد مستوطنة «مشمار هيعمك» الزراعية اليهودية، الواقعة على «تلال افرايم»، جنوبى جبل الكرمل، والمشرفة على «وادى جزريل». أما طريق الشمال - الجنوب الساحلى فقد أصبح مغلقاً أمام الانتقال اليهودى، ولكى ينجح هجوم «القاوقجى» كان عليه أن يتخذ موضعاً يمكنه من إغلاق «وادى الملك»، الذى لم يعد للتنقلات اليهودية بين تل أبيب وحيفا من طريق سواه.

فى ٤ إبريل ١٩٤٨، قامت قوة يزيد تعدادها على الألف رجل ، تضم كتيبة «القادسية» ووحدات من كتيبة «اليرموك الأولى» بقيادة «محمد صفا»، وكتيبة «حطين» بقيادة مدلول عباس، تدعمها سبع قطع مدفعية قدمها السوريون (أول مدفعية تستخدم فى حرب الاستقلال) باحتلال التلال المطلة على «قرية مشمار هيعمك» . وبعد قصف مدفعى تدعمه الأسلحة الصغيرة، قام المشاة بالتقدم، لكن الهجوم توقف أمام أسوار القرية تحت ضغط نيران المدافعين . وفى تلك الليلة، تمكنت سرية من لواء «جولانى» من التسلل عبر الحقول ودخول القرية لمساندة المدافعين عنها. وطوال اليوم التالى، أتمت القرية تحصيناتها، بعد أن وصلت أثناء الليل تعزيزات يهودية إضافية. وبعد وقف لإطلاق النار، توصل إليه البريطانيون لإجلاء النساء والأطفال عن القرية، كانت الكتيبة الأولى بلماح قد استعدت، فى قرية «عين هاشوفيط» المجاورة، للهجوم المضاد. وباستخدام قوات الميدان التابعة للهاجاناه التى كانت تتخذ من القرية وغابات «مشمار هيعمك» القريبة قاعدة ثابتة لها، قرر «إسحاق ساديه»، الذى كان يقود العملية، الاقتراب غير المباشر لقطع خطوط اتصال العدو. لم يكن هجوماً مضاداً تقليدياً واردا بحال، وذلك لتفوق العرب من حيث التسليح ولغياب المدفعية على الجانب اليهودى . وقد استمر القتال خمسة أيام بلياليها، استطاعت وحدات البلماح خلالها أن تستولى على عدد من القرى العربية والمرتفعات الواقعة خلف خطوط «القاوقجى» . وبعض هذه القرى تبادل الطرفان السيطرة عليها أكثر من مرة. والحقيقة أن العرب شنوا إحدى عشر هجوماً متواصلاً على أحد الحصون بالجبال: فى الليل تستولى القوات اليهودية على الحصن، وفى النهار تستغل قوات «القاوقجى» تفوقها فى العدد والسلاح لاستعادة الحصن، لكن مع تطور القتال الدموى صعوداً وهبوطاً فى الجبال المحيطة بميدان القتال استطاعت كتيبة البلماح أن تحسم الموقف لصالحها بالتدريج .

فى ١٢ ابريل، شن «القاوقجى» هجوماً كبيراً على «مشمار هيعمك»، لكن القوة وقعت فى كمين وسط الاحراش التى تغطى مدخل القرية. وفى الوقت نفسه، تمكنت قوات «الهاجاناه» من الاستيلاء على قريتين عربيتين واقعتين خلف وإلى الشرق من قوات «القاوقجى» . وفى وسط



معارك ميشمار هيعمك، ٤-١٢ أبريل ١٩٤٨.

المعركة، أدرك «القاوقجي» فجأة أنه معزول. وقد شنت قوات «القاوقجي» هجمات يائسة ضد قوات «الهاجاناه» المسيطرة على قرية «المنسى» الواقعة خلف قواته، بينما ضاعف من هجماته ضد «مشمار هيعمك» كي يسحب القوات اليهودية المتمركزة خلفه. ولكى لايقع فى المصيدة مرة أخرى، قرر «القاوقجى» أن يضع حداً لخسائره وينسحب إلى «جنين» .

أثناء الهجوم على «مشمار هيعمك»، وبناء على طلب من «القاوقجى»، قامت كتيبة الدروز فى جيشه بقيادة «شبيب وهاب» *، بالهجوم على قرية «رامات يوحنان» فى الشمال لتخفيف الضغط على قوات «القاوقجى» المنتشرة حول «مشمار هيعمك» . وعلى مدى يومين دار قتال عنيف أوشكت وحدات لواء «كرملى» خلاله على الهزيمة: ومرة بعد الأخرى، وموجة بعد موجة من هجمات الدروز** على القرية، سقط ضحايا كثيرون . لكن الكسرة كانت فى النهاية على الدروز .

وفشلت محاولات العرب لعزل حيفا، وتلقت قوات «القاوقجى» هزيمة مهينة أخرى برغم الإمكانات الكبيرة التى بحوزتها. وآن للمدّ أن ينحسر .

عملية « نحشون »

فى الوقت الذى كانت تجرى فيه أحداث «مشمار هيعمك»، وكانت «الهاجاناه» تقوم بأول عملياتها الكبيرة. فقد أصبح الموقف فى القدس ميئوساً منه، بعد أن تزايد الحصار العربى للمدينة، وأوشكت المؤن الغذائية على النفاد. وكانت المدينة تعتمد على السهل الساحلى فى الحصول على الماء، فى الوقت الذى كانت فيه محطات الضخ ضعيفة للغاية. وأصبح من الواضح أنه لابد من عملية كبيرة لفتح الطريق إلى القدس. إن أى فشل فى القدس يمكن أن

---

* يرد فى الرواية الرسمية الإسرائيلية باسم « شكيب » (المترجم) .

** طائفة قومية ودينية تتحدث العربية . ويرجع ظهور الدرزية كدين إلى القرن الحادى عشر فى إطار الاسماعيلية (جناح متطرف من الشيعة الإسلامية) ، لكنها تعتبر ، بشكل عام ، خارجة على الإسلام. وطقوسها سرية ، ولايلم بعقائدها الكاملة سوى الزعامات الدينية للطائفة . وتؤكد الدرزية على المبادئ الأخلاقية والاجتماعية أكثر من احتفائها بالطقوس والشعائر . ويبلغ تعداد الدروز حالياً حوالى ٣٥٠ ألفا فى سوريا ولبنان واسرائيل؛ و١٨٠ ألفا فى سوريا، أى ٣٪ من مجموع السكان؛ وحوالى ١٥٠ ألفا فى لبنان يمثلون ٦ر٣٪ من السكان ؛ ثم ٣٣ ألفا فى إسرائيل أو ١٪ من السكان . وقد وضعت تلك المعركة الشرسة نهاية لاشتراك الدروز فى الحرب إلى جانب العرب ، وأصبحوا فيما بعد شديدى الولاء داخل قوات الدفاع الإسرائيلية .

يحدث أثراً مميتاً على مسيرة الكفاح اليهودي. وعلى الرغم من تشاؤم ومعارضة العديد من أعضاء هيئة أركانه، أصر «بن جوريون» على القيام بعملية لم تشهد «الهاجاناه» مثيلاً لها من حيث حجمها وتأثيرها. فحتى ذلك الوقت، لم تتعد عمليات «الهاجاناه» مستوى السرية؛ فهى لم تكن قد قامت بعملية على مستوى كتيبة . وهاهو «بن جوريون» يصمم الآن على عملية على مستوى لواء، الأمر الذى يعنى سحب القوة البشرية من مناطق عديدة من البلاد، وتركيز السلاح، وترك جبهات عديدة مكشوفة أمام الهجوم العربى .

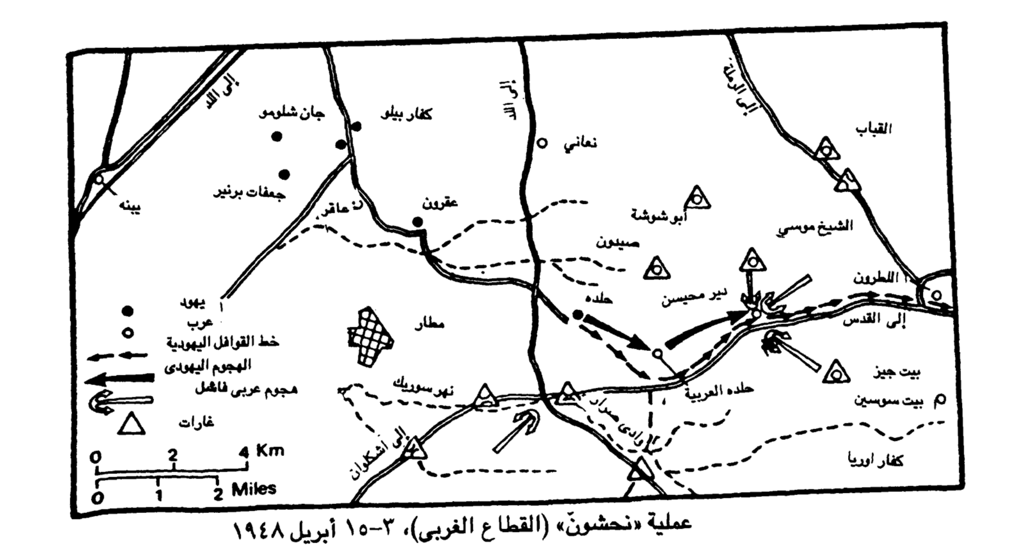
كانت الخطة ، أو «عملية نحشون» *، تقوم على فتح ثغرة بعرض حوالى ستة أميال فى السهل الساحلى، وبعرض حوالى ميلين فى الجبال. ويتطلب تأمين ذلك احتلال المرتفعات والقرى العربية المحيطة بالطريق، حتى يتاح للمقاتلين حرية التحرك على الطريق الرئيسى . ولتحقيق هذا الغرض، فقد تم إعداد قوة لواء بلغ تعدادها حوالى ١٥٠٠ رجل، مقسمة إلى ثلاث كتائب، كتيبة تتولى مسؤلية المنطقة من «خولده» إلى «اللطرون» فى السهل الساحلى، وأخرى للمنطقة من «اللطرون» إلى «كيريات عنافيم» (وتضم مرتفعا جبلياً على مبعدة حوالى عشرة أميال من القدس)، ثم كتيبة ثالثة كاحتياطى. وكان على رأس العملية «شمعون أفيدان»، قائد لواء «جعفاتى» (الذى سيصبح برتبة البريجادير جنرال فيما بعد) .

من حسن الطالع أن تصل أول شحنة أسلحة تشيكية مهربة إلى البلاد ليلة الأول من ابريل، تلك التى جرى تفريغها فى «بيت داراس»، وهو مهبط سرى بالجنوب. ولكى يتضح لنا الوضع الذى كان عليه تسليح « الهاجاناه» فى ذلك الوقت، يكفى أن نذكر أن المائتى بندقية والأربعين رشاشاً الخفيف التى جرى تفريغها من الطائرة كانت بمثابة تحسن كبير فى الموقف التسليحى للهاجاناه. وبعد ذلك بيومين، وصلت السفينة التشيكية الأولى محملة بالبنادق والرشاشات الخفيفة. وقد جرى تفريغ وتوزيع هذه الشحنة سراً على وحدات الميدان، دون إزالة الشحم عنها فى كثير من الأحوال .

هناك تحركان على درجة عالية من الأهمية سبقا عملية «نحشون». الأولى فى منطقة «الرملة»، عندما قامت وحدة كوماندوز من «الهاجاناه» بنسف مقر «حسن سلامة»، أحد قادة المناطق بجيش الخلاص التابع للمفتى. وقد راح عدد من القادة البارزين حول «سلامة»

---

* سُميت باسم « نحشون بن عميناداب » ، زعيم قبيلة يهودا أثناء الخروج من مصر ، والذى اشتهر بأنه أول من غاص فى البحر الأحمر عندما شقه موسى كى يعبر عليه أطفال إسرائيل . وهو بهذا يقدم المثل والقدوة لمن تبعوه .



عملية «نحشون» (القطاع الغربى)، ٣-١٥ أبريل ١٩٤٨

كضحايا لهذا الهجوم، كما تأثرت القوات تأثراً كبيراً ظهر فى التصدى لعمليات «الهاجاناه» بالسهل الساحلى . أما العملية الثانية فكانت الاستيلاء على قرية «القسطل» العربية القريبة من القدس، والمقامة مكان حصن رومانى وتتحكم فى الطريق الواصل بين القدس و«كريات عنافيم»

أما عملية «نحشون» نفسها فقد بدأت فى مساء الخامس من ابريل. تحركت وحدات الإعاقة لتغطى سبع قرى عربية، بينما قامت القوة الأكبر بالاستيلاء على قريتى «حلدة» و «دير محيسن» العربيتين بمنطقة اللطرون. فى نفس الوقت، قامت البلماح بالهجوم على قرية «بيت محسير» على مرتفعات منطقة «باب الواد»، والممر الجبلى الذى يمتد منه الطريق إلى القدس. وعند منتصف الليل، تحركت ٦٠ ناقلة محملة بالمدنيين والإمدادات العسكرية من «خولدة»، متجاوزة المقاتلين الذين كانوا يقاتلون من أجل السيطرة على التلال، قاصدة القدس، فوصلتها بعد عشر ساعات من السير البطئ. وفى ليلة ٧ – ٨ إبريل، قام العرب بهجومهم المضاد، وكان هجومهم الرئيسى فى منطقة «موتسا» أسفل «القسطل»، وكان «عبد القادر الحسينى» قد عاد سريعاً من دمشق، التى كان قد توجه إليها لتدبير الدعم المالى والمزيد من السلاح، ليقود الهجوم على «القسطل»، التى تبادلتها الأيدى عدة مرات خلال قتال شرس. وبعد ستة أيام من القتال المتواصل دون راحة أو توقف، أُجبرت بقايا القوات اليهودية على الانسحاب، ولم يبق على قيد الحياة من القادة سوى واحد فقط، هو قائد أحد القطاعات. ولكن فى اللحظة الأخيرة، انقلب الموقف بشكل مؤثر. فقد قُتل «عبد القادر» عندما اقترب من موقع ظن أنه أصبح بالفعل تحت سيطرة القوات العربية. وتقهقر العرب وهم فى حالة معنوية سيئة، وعلى قدر كبير من الارتباك. وفى اليوم التالى، اكتشفت إحدى وحدات الهجوم المضاد التابعة للبلماح أن القرية غير محتلة، وأن بالإمكان نقل الإمدادات إلى القدس .

كان نجاح عملية «نحشون» مهماً لعدد من الأسباب. فالإمدادات التى وصلت المدينة مكنت حامية المدينة وسكانها المحاصرين من البقاء لشهرين آخرين. ومن المنظور العسكرى، كانت العملية أول نجاح لقوة يهودية على مستوى التشكيل. فهى المرة الأولى التى تهاجم فيها «الهاجاناه» بهدف السيطرة على منطقة. لقد كان للعملية، فى حد ذاتها، أثرها السيكولوجى الكبير على القوات العربية، ذلك الأثر الذى سوف نشهد نتيجته خلال الأسابيع التالية من القتال. وفوق كل ذلك، فقد مهدت العملية الطريق أمام ماأطلقت عليه الهاجاناه (الخطة: د) الاستيلاء على النقاط الاستراتيجية المؤثرة فى سير القتال على المحاور المهددة بالغزو العربى.

على أن فرحة القدس لم تدم طويلاً. فحتى يوم ٢٠ ابريل، أمكن إدخال قافلتين كبيرتين من

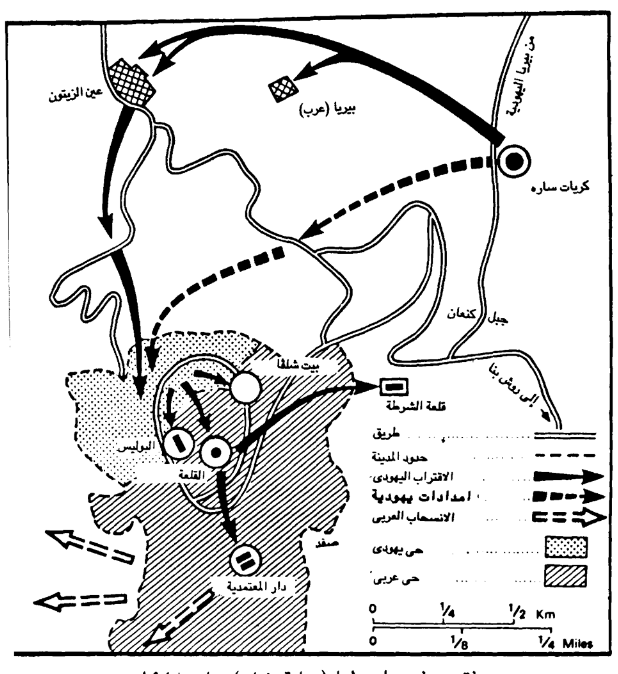
المؤن والعتاد إلى المدينة فى إطار عملية «نحشون»، بالإضافة إلى ثلاث من مثل تلك القوافل حسنّت من الموقف ومن وضع لواء هارئيل/ بلماح. لكن يوم ٢٠ ابريل، شهد انحساراً لهذا التدفق من الرجال والإمداد، إذ لم يتمكن سوى جزء من قافلة من الوصول إلى المدينة بينما اضطرت مؤخرتها إلى العودة. وأصبح الطريق إلى القدس، مرة أخرى، مغلقاً عند منطقة «باب الواد» . ويدأ حصار القدس .

فى الوقت الذى كان يتم فيه تنفيذ عملية « نحشون» ، كانت تجرى أكثر ملاحم الحرب إثارة للجدل. فقد شنت وحدة من «إرجون» مع بعض عناصر من «ليحى» هجوماً على قرية «دير ياسين» العربية، عند الحد الغربى للقدس. ويقدر أحد التقارير عدد القتلى من الفلاحين الذين سقطوا أثناء القتال بما يزيد على المائتى قتيل. وهناك العديد من التقارير المتضاربة حول الهجوم على «دير ياسين». وقد أصبحت الواقعة سلاحاً بيد العرب فى هجومهم على إسرائيل؛ إذ استخدموا كلمة «دير ياسين» مراراً وتكراراً لتبرير وحشيتهم. وتقول رواية «إرجون» أنهم دعوا القرية إلى الإستسلام، فلما فتحت النيران عليهم ووقع الضحايا من بينهم، وجدوا أنفسهم متورطين فى هجوم عسكرى. وقد عبرت الوكالة اليهودية والقيادة العليا للهاجاناه، فوراً، عن اشمئزازها وأسفها العميق .

خلال شهر ابريل ١٩٤٨، أخذت الكفة تميل لصالح «الهاجاناه»، ففى اثنين من العمليات الكبيرة، استخدمت الهاجاناه قوات لم يسبق لها استخدامها من حيث ضخامة حجمها: مجموعة لواء فى عملية «نحشون»، وقوات تعادل كتيبتين فى «مشمار هيعمك». وقد نجحت القوات اليهودية فى كلتا العمليتين. وكان الأثر المعنوى العكسى على القوات العربية كبيراً.

الخطة (د)

كان الاستراتيجية العربية خلال ابريل ومايو هى إنهاك اليهود: الاستحواذ على مواقع، مثل طريق القدس، لكن دون الدخول فى مواجهة عسكرية كبيرة . كانوا يفضلون الانتظار حتى تنسحب القوات البريطانية وينتهى الانتداب، حيث يصبح بإمكان الجيوش العربية وقتها غزو البلد. على الناحية الأخرى، كانت «الهاجاناه» مضطرة، أمام الانسحاب السريع للقوات البريطانية، إلى التعجيل بتنفيذ البنود الواردة بالخطة (د). وتدعو الخطة فى جانب منها إلى إعادة تنظيم «الهاجاناه»، وتشكيل قيادات مناطقية وألوية متحركة. وعندما انسحبت القوات البريطانية، كانت قوات الميدان التابعة للهاجاناه والبلماح تقدر بـ ٤٠ ألف مقاتل تحت السلاح.

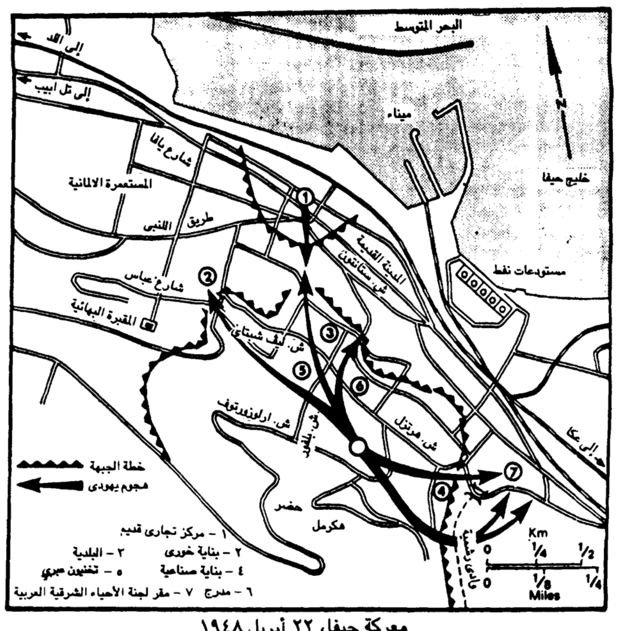


فتح صفد وما حولها (عملية يفتاح)، مايو ١٩٤٨

كانت قوات البلماح فى ذلك الحين تحت قيادة «ييجال الون»، ابن الجليل، المولود فى الشهر الأخير من الحرب العالمية الأولى فى ظلال «جبل طابور» التاريخى. وهو واحد من أوائل قادة البلماح، تمرس فى داوريات «وينجت» الليلية الخاصة وقاد وحدة استطلاع لإرشاد تقدم الحلفاء نحو نهر الليطانى للتصدى لقوات « فيشى» الفرنسية فى عام ١٩٤٢. كان شاباً بارعاً جسوراً وقائدا بالفطرة، مما جعله فى وقت من الأوقات قدوة للشباب اليهودى. وكقائد للبلماح، أثبت أنه أكثر القيادات العسكرية اليهودية كفاءة فى حرب الاستقلال. (عندما تأسست الدولة اليهودية حصل على رتبة الجنرال، ولكن نظراً لخلافاته السياسية مع «بن جوريون» لم يواصل الخدمة العسكرية، ولهذا السبب وحده لم يصل إلى أعلى المراتب العسكرية. انخرط فى العمل السياسى، وشغل مناصب وزارية فى عدد من الحكومات، بما فيها منصب نائب رئيس الوزراء فى حكومتى «جولدا مئير» و «اسحاق رابين»، وتولى كذلك وزارة الخارجية. توفى فى مارس ١٩٨٠، إثر اصابته بأزمة قلبية أثناء إدارته لحملته التى كان ينافس فيها على زعامة حزب العمل الإسرائيلى.)

كانت الخطوات الإجرائية للخطة (د) تدعو إلى تأمين كافة المناطق الآيلة للدولة اليهودية وفقاً لقرار التقسيم، إضافة إلى مناطق الاستيطان اليهودى خارج الحدود المقررة، ليكون اليهود فى وضع مناسب لمواجهة الجيوش العربية الغازية، بحيث يمكن نشر المدافعين على محاور تقدم حكم ذاتى، إما للعرب وإما لليهود. وهكذا أصبحت المنطقة مابين «تل أبيب» و«بتاح تكفا»، على سبيل المثال، أول مناطق الدولة اليهودية، تماماً كما حصل العرب على مناطق، مثل ذلك المثلث المرتكز على نابلس أو منطقة الخليل. وفى نطاق تنفيذها للخطة (د)، تقدمت، «الهاجاناه» للهجوم على مناطق مختلفة من البلاد. وفى منتصف ابريل، استولت وحدات لواء «جولانى» على مدينة طبرية . وعندمان قسمت القوات المدينة إلى نصفين، عازلة القطاع الأكبر من السكان العرب، اختار العرب الجلاء عن المدينة، وانتقلوا شرقاً بمعاونة الجيش البريطانى إلى شرق الأردن، وهكذا بدأت المأساة الكبرى للاجئين العرب، والتى ستصبح مصدر قلق لمنطقة الشرق الأوسط على مدى عدة عقود من انتهاء الحرب .

فى ٣٠ ابريل، قام «ألون» بعملية «يفتاح» للاستيلاء على مدينة «صفد» - ذات الأهمية الاستراتيجية بالجليل، وكان الحى اليهودى هناك (بسكانه البالغ عددهم حوالى ١٥٠٠ نسمة) تحت الحصار منذ فبراير، تجثم عليه مدينة عربية يبلغ تعدادها حوالى عشرة آلاف نسمة. وكانت البلماح قد سربت مجموعة من قواتها لتقوية حامية الهاجاناه المستنزفة، عشية انسحاب



معركة حيفا، ٢٢ أبريل ١٩٤٨

القوات البريطانية من صفد فى ١٥ ابريل. وبمجرد انسحاب القوات البريطانية، استولى العرب على أهم النقاط الحيوية بالمدينة: حصن للبوليس على جبل «كنعان»، وحصن قديم بالمدينة، ومبنى آخر ذو موقع استراتيجى هو مبنى «شلفاه». لقد أدرك «آلون» أن الفشل فى الاستيلاء على «صفد» يمكن أن يؤثر على مجمل الموقف العسكرى فى الجليل الشمالى، وكانت قلعة «النبى يوشع» الاستراتيجية المطلة على سهل «الحولة» بيد العرب، وأسفر الهجوم عليها فى ١٥ ابريل من جانب قوات البلماح والهاجاناه عن خسائر جسيمة فى الأرواح.

فى ٢٨ ابريل، استولت قوات الهاجاناه على قلعة للبوليس فى «روش بنا»، ومعسكر للجيش بالقرب منها . وعن طريق الالتفاف حول جبل كنعان، استطاعت قوات البلماح احتلال قريتى «بيريا» « وعين زيتون» شمالى صفد، ومن هناك فتحت ثغرة تقود إلى الحى اليهودى بصفد، وعن طريقها أمكن للجنود أن ينقلوا على أكتافهم أول الإمدادات للحى الجائع. وأصبحت القوات اليهودية بالمنطقة مدعمة الآن بكتيبة إضافية من البلماح .

فشل الهجوم الأول على قلعة الشرطة بجبل كنعان فى الخامس من مايو، فقرر «آلون» سحب قواته وإعادة تنظيمها. وفى ١٠ مايو، تم الهجوم على ثلاث نقاط استراتيجية بمدينة «صفد» فى وقت واحد: على قلعة جبل كنعان، ونقطة الشرطة المحلية بالحى القديم، ومبنى «شلفاه» . وبمساعدة أمطار غير موسمية شديدة، قاتلت قوات البلماح طوال الليل : تهجم فى موجات على شوارع المدينة المنحدرة، وتقاتل من شارع لشارع ومن غرفة لغرفة. وبحلول صباح اليوم التالى أصبحت النقاط القوية بأيد يهودية، وبدأ الجلاء الجماعى للعرب عن المدينة. لقد كان الاستيلاء على «صفد» ضرورياً فى ظل توقع غزو وشيك من جانب الجيوش العربية، وذلك للحفاظ على الموقف اليهودى فى شمال شرق الجليل .

امتدت العمليات الموضوعة وفقاً للخطة (د) نحو وادى الأردن الشمالى وتدعمت باستيلاء لواء «جولانى» على نقطتى الشرطة المنيعة فى «سمخ» جنوب بحر الجليل *، و«جيشر» إلى الجنوب منها على نهر الأردن. وإلى الجنوب، استولت قوات الهاجاناه على «بيت شان»، بالإضافة إلى عدد من القرى بالقرب من جبال الجليل الأدنى، لتعطى عمقاً للمنطقة الواقعة تحت السيطرة اليهودية والممتدة شمالاً وجنوباً بمحاذاة الأردن. وفى الوقت نفسه، قامت الهاجاناه بتأمين «جبل طابور» ومناطق الكرمل الجنوبى.

وفى ٢١ ابريل، أخلت القوات البريطانية مواقعها فى حيفا وتمركزت فى عدد من المعسكرات

---

* بحيرة طبرية (المترجم) .

وميناء حيفا . وبدأ لواء «كرملى» تنفيذ عملية «المقص» للاستيلاء على حيفا بكاملها. وفاجأت القوات اليهودية العرب بهجوم من على مرتفع الكرمل، ونجحت فى تقسيم سكان حيفا من العرب إلى ثلاثة أقسام، عند ذلك فرّ القائد العربى للمدينة إلى بيروت. وعقد الميجور جنرال «ستوكويل» ، قائد الفرقة السادسة البريطانية المنقولة جوا، اجتماعاً لأعيان المدينة من العرب واليهود. وكان المطلب اليهودى هو استسلام العرب وتسليم أسلحتهم وحثهم، فى الوقت نفسه، على البقاء والعيش بسلام فى المدينة. أما العرب فقد كانوا واقعين تحت تأثير تحريض أعوان المفتى و«القاوقجى»، الذين أقنعوهم بأن الغزو العسكرى العربى وشيك، وأن اليهود سوف يبادون وتصبح ممتلكاتهم «مغنما حلالاً» للسكان العرب، وأن بإمكانهم العودة إلى منازلهم بعد طرد اليهود. وكان الهدف من نصيحة المفتى المأساوية تلك هو أن تخرج طوابير اللاجئين إلى البلاد العربية المجاورة كى تشترك فى القتال، وهو أمر لم يكن وارداً على الإطلاق فى ذلك الحين. وبعد القرار العربى، تحدث العمدة اليهودى إليهم، ووعدهم بمواصلة حياتهم فى سلام جنباً إلى جنب مع جيرانهم من اليهود، لكن القادة العرب صمموا على موقفهم. كما حاول الجنرال «ستوكويل» وبعض المواطنين العرب القياديين إقناعهم، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل وقد تم الإتفاق على سريان هدنة لمدة خمسة أيام، وبدأ الرحيل الكبير. ولم يؤثر البقاء بحيفا سوى بضعة آلاف من المجموع الكلى للسكان العرب البالغ ١٠٠ ألف نسمة .

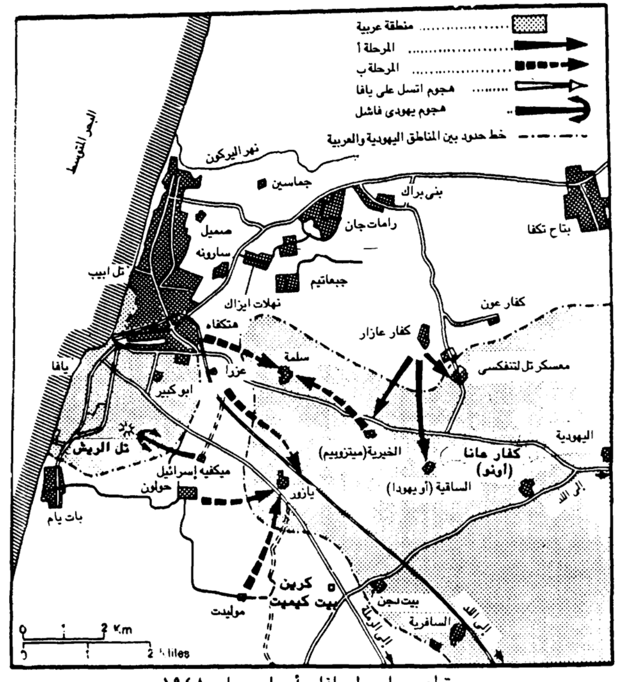
بعد تأمين حيفا، وفى إطار عملية «بن أمى»، شرعت وحدات لواء «كرملى» فى الاستيلاء على النقاط العربية الحصينة الواقعة شمال اللواء وشمال شرق عكا وعزل المدينة جزئياً. فى الوقت نفسه، تحركت الوحدات نحو الشمال الشرقى لإقامة اتصال مباشر مع المستوطنات اليهودية فى الجليل الغربى، مثل « يحيعام» «وحانيتا». (أثناء حصاره للمدينة فى ١٧٩٩، أقام «نابيلون بونابرت» موقفاً للمدفيعة على «تل نابيلون» إلى الشرق من عكا والمشرف على تحصينات المدينة). والآن تصل قوة اسرائيلية إلى «شيفى زيون» عن طريق البحر، وتستولى على التل لتتحرك جنوباً نحو عكا وفى ١٧ مايو، وبعد قصف مدفعى بالهاونات دام لبضعة ساعات، سقطت المدينة التى عجز نابليون عن الاستيلاء عليها – عندما كان يدافع عنها «السير فيليب سيدنى» – بأيدى قوات إسرائيل بعد ثلاثة أيام من قيام الدولة .

كانت مدينة «يافا»، بسكانها السبعين ألف من العرب، متاخمة لمدينة «تل أبيب اليهودية» وامتداداً لها، وقد وضعها قرار التقسيم ضمن الدولة العربية. ولم تكن الخطة (د) تستهدف

الاستيلاء على المدينة، وإنما تقليل عدد القرى العربية الواقعة إلى الشرق منها (الواقعة تحت سيطرة المتطوعين العراقيين) التى كانت بمثابة اسفين بين المنطقة اليهودية إلى الشمال الشرقى وتلك الواقعة جنوب شرقى «تل أبيب»، ومنع تعرض الطريق إلى القدس للخطر. هكذا كانت «يافا» شوكة فى جنب اليهود. فكانت الهجمات العربية تشن بانتظام على المناطق النائية من «تل أبيب»، وكان القناصة فوق بنايات «يافا» العالية يشرفون على الشوارع الرئيسية داخل «تل أبيب» مما يعرض المارة الأبرياء للقتل . ومع ذلك لم يكن فى نية الهاجاناه مهاجمة «يافا» فى حال إحجام الجيوش العربية عن غزو البلاد، والتزام العرب بقرار التقسيم التزاماً كاملاً. لكنهم لجئوا – بدلاً عن ذلك – إلى خلق موقف دفع قوات الهاجاناه إلى السيطرة على كافة مداخل المدينة. ولذلك، صدرت الأوامر بتأمين المنطقة المحيطة بيافا، بهدف عزلها، وابط المناطق التى يشرف عليها اللواء فى شمال وجنوب تل أبيب، وفتح الطريق إلى «اللد»، المطار الدولى للبلاد (الذى آل إلى الدولة اليهودية) . وفى الأسبوع الأخير من ابريل، وبينما كان لواء «كرياتى» يشغل المدافعين عن يافا بهجمات خادعة ومراوغة، بدأ لواء «جعفاتى» من الجنوب ولواء «الكسندرونى» من الشمال الهجوم على مداخل المدينة .

وفى الصباح الباكر من ٢٥ ابريل، ودون إخطار الهاجاناه ودون أى تنسيق مسبق، قامت «إرجون» بحشد قوة من ٦٠٠ رجل وشنت هجوماً على يافا بطول الشريط الساحلى، الذى يربط بين المدينتين الواقعتين بمنطقة «المنشية». لكن قوة المقاومة الصغيرة من العرب أجبرت قيادة «ارجون» على التقارب مع الهاجاناه والتوصل إلى اتفاق تخضع بمقتضاه كافة مواقع «إرجون» لقيادة الهاجاناه بالمنطقة. وتعهدت كذلك بألا تبادر بأية أعمال دون موافقة الهاجاناه. وبدعم محدود من الهاجاناه، أعادت «إرجون» الكرة ونجحت فى تقسيم منطقة المنشية إلى قسمين . وعند هذا الحد، تدخلت القوات البريطانية، التى حضرت بكتيبة دبابات وأخرى مدفعية، وهددت باتخاذ إجراء ضد «تل أبيب». وتم الاتفاق فى النهاية على أن تحل الهاجاناه محل قوات إرجون، وأن تتمركز القوات البريطانية فيما بين المدينتين. وهكذا، ظلت قوات الهاجاناه والقوات البريطانية فى مواجهة بعضها البعض على مشارف تل أبيب على مدى أسبوعين، عندما انتهى الانتداب البريطانى. وبعد ذلك استسلمت يافا، وفرّ الجزء الأكبر من السكان العرب، ولم يبق منهم سوى بضعة آلاف. وكانت الهاجاناه قد طهّرت المناطق المحيطة بالفعل، وأصبحت المنطقة الساحلية الوسطى فى فلسطين بأيد يهودية .

كان القتال بين اليهود والعرب شرساً للغاية، باستثناء بعض الأحياء التى استسلمت من



تطهير ما حول يافا ، أبريل – مايو ١٩٤٨

كلا الجانبين. وكان الزعماء العرب قد أعلنوا بوضوح أن هدفهم هو إلقاء السكان اليهود إلى البحر، وإبادتهم. وقد تأثرت الجماهير العربية بالهستيريا غير المكبوحة التى ميزت القيادة عندما واجهت الهزيمة، فجأة وعلى غير توقع، وكنتيجة لذلك، فقد أصابتهم صدمة نفسية جعلتهم ينتقلون من اليوفوريا الشديدة إلى التشاؤم والكآبة واليأس. فهم لم يتوقعوا أن يرتد عليهم المصير الذى توعدوا به اليهود. وفى كل مرة كان زعماؤهم يتخلون عنهم وكانوا أول الفارين، ناصحين الجماهير بأن تتبعهم واعدين إياهم بالعودة بعد غزو الجيوش العربية المنتصرة لفلسطين، وفى هذه الحالة فإنهم لن يستردوا ديارهم فحسب، وإنما سيغنمون ممتلكات اليهود كذلك.

لقد حاول اليهود، خاصة فى حيفا وأماكن أخرى، أن ينصحوا السكان العرب بعدم مسايرة زعمائهم، لكن العرب كانوا نهباً للشكوك ويحيطهم جو من الهلع والذعر، وبدلاً من أن يجازفوا بالتفكير فيما ينبغى عمله بعد النكسة التى أصابت المقاومة العربية، قرروا فى معظم الحالات أن يستفيدوا من وجود القوات البريطانية كى يرحلوا تحت حمايتها. وهناك جزء من السكان العرب (حوالى ١٥٠ ألف نسمة) قاوم التحريض على الرحيل أثناء الحرب، وقرر البقاء ليصبحوا مواطنين داخل إسرائيل. ويصل تعداد السكان العرب اليوم إلى مايقرب من ٥٥٠ ألفاً، بما يوازى حوالى ١٥٪ من إجمالى سكان إسرائيل.

لقد تناول كثير من الكتاب العرب، بصراحة ووضوح شديدين، مشكلة اللاجئين العرب الناجمة عن أحداث ١٩٤٨ . ففى مذكراته *، كتب «خالد العظم»، رئيس وزراء سوريا فى ٤٨ – ١٩٤٩ يقول: «منذ ١٩٤٨ ونحن نطالب بعودة اللاجئين إلى ديارهم . لكننا نحن أنفسنا الذين شجعناهم على الرحيل. ولم تمض سوى شهور قليلة بين دعوتنا لهم بالرحيل وبين مطالبتنا للأمم المتحدة بحل مشكلة عودتهم». وفى مجلة « فلسطين الثورة» (أحد الإصدارات الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية)، كتب «أبو ميزر» فى مارس ١٩٧٦ يقول: «دخلت الجيوش العربية فلسطين لحماية الفلسطينيين. .. ولكن بدلاً من ذلك تخلت عنهم، وأجبرتهم على الهجرة وترك ديارهم ** .

* Khaled al _ Azm , Memoirs , Vol I, P. 386 - 7 , Beirut.

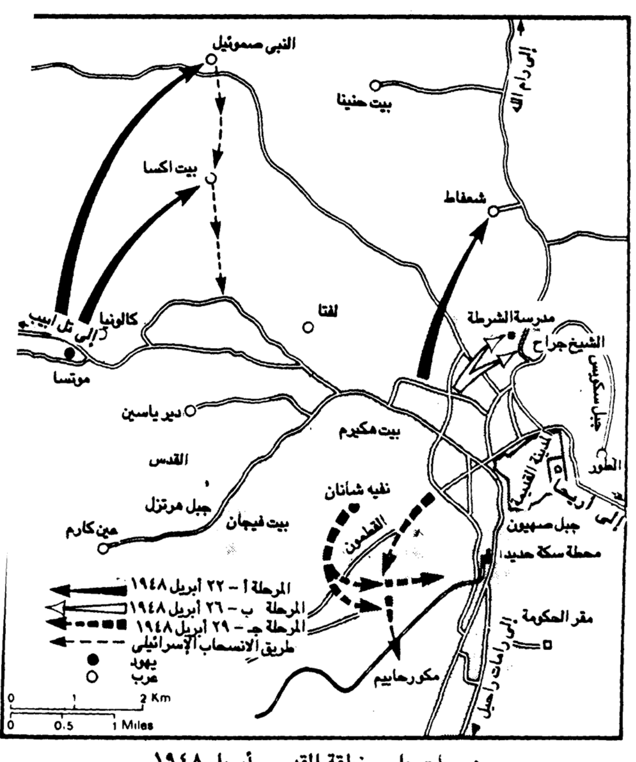
** أبو ميزر ، مقال بمجلة « فلسطين الثورة » مارس ١٩٧٦ .

معركة القدس

عندما اقترب موعد انتهاء الانتداب البريطاني، شهدت القدس قتال عنيف . فقد تحرك لواء «هارئيل» بلماح الحديث التشكيل، تحت قيادة «اسحاق رابين» قاصدا القدس مع ثلاث من قوافل الإمداد الكبيرة. كان «رابين» يدرس الزراعة، وهو خجول ذو شعر مموه، وواحد من حواريي «ييجال آلون» وخدم تحت قيادته بالعديد من المواقع. تدرج في الرتب بالبلماح، ويعكس وصوله إلى قيادة لواء وهو في العشرينات من عمره عملية الترقي السريع في الوحدات المقاتلة وبين القادة الصغار. وبرغم صمته وصرامته وقدرته المحدودة على إقامة الصلات مع زملائه، إلا أنه كان يتمتع بفكر ثاقب وقدرة شديدة على التحليل .

وقد شغل فيما بعد العديد من مواقع القيادة في جيش الدفاع الإسرائيلي، حتى وصل إلى منصب رئيس الأركان، ثم صار قائداً عاماً للقوات الإسرائيلية في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. عمل سفيراً لإسرائيل لدى واشنطن، وبعد استقالة وزارة «جولدا مئير» في ١٩٧٤، عقب حرب ١٩٧٣، أصبح رئيساً للوزراء واستمر يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٧٧.

كان كثير من المناطق اليهودية النائية يتم نقل الإمدادات إليها من مدينة القدس بواسطة القوافل، لكن الاتصال بها أخذ يضعف شيئاً فشيئاً . وكانت مجموعة «جبل سكوبس» من بين تلك المناطق. وكانت تضم مستشفى «هداسا» والجامعة العبرية والطريق الذى يمر عبر حى «الشيخ جراح»، وبه مواقع يديرها البوليس البريطاني . وفى ١٣ ابريل، وقعت قافلة تضم ٨٠ من المدنيين، معظمهم من الأطباء والممرضات في طريقهم إلى المستشفى، فى كمين . وعلى الرغم من تواجد القوات البريطانية على بعد ياردات قليلة من القافلة، إلا أنها رفضت التدخل برغم النداءات المتكررة الموجهة إليها. وقد حاول مراراً مؤلف هذا الكتاب، الذى كان مسئولاً عن الاتصال بين الوكالة اليهودية والهاجاناه، وإدارة الانتداب البريطانية والقيادة العسكرية، مراراً تحريك السلطات البريطانية لوقف المهاجمين وإنقاذ المحصورين داخل العربات المصفحة المصنعة محلياً، والتى أصبحت مصائد للموت، دون جدوى. ويصف الدكتور «دوف جوزيف»، الحاكم اليهودى للقدس آنذاك، تلك الجهود بقوله: «وقع الهجوم على مسافة أقل من مائتى ياردة من موقع الجيش البريطاني المسئل عن تأمين الطريق. لقد شاهد الجنود الهجوم، لكنهم لم يحركوا ساكناً. وقد مرت العربات العسكرية البريطانية مرتين، إحداها فى الساعة الواحدة والأخرى فى الثانية من بعد الظهر، ونادى عليها الدكتور «حاييم ياسكى» مدير المستشفى،



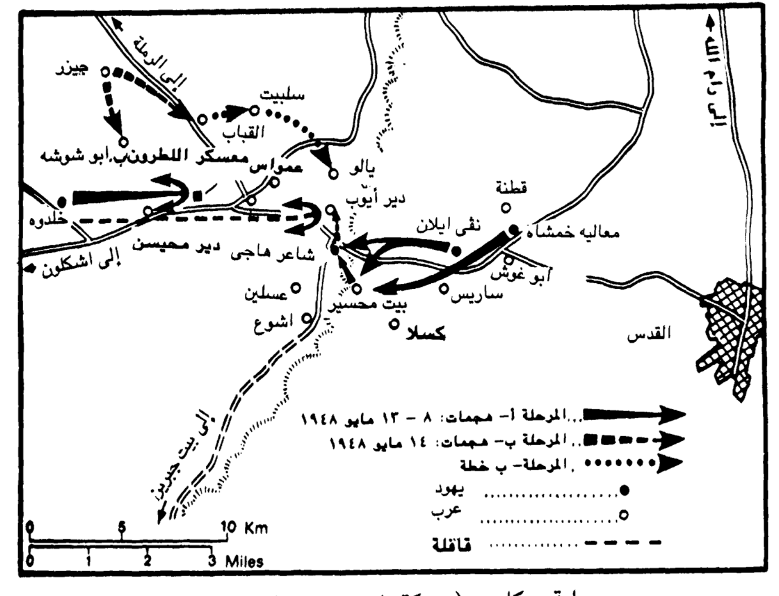
هجمات على منطقة القدس، أبريل ١٩٤٨

ولكن لم تتوقف أياً منها وعندما ناشد ضابط اتصال الوكالة اليهودية القيادة البريطانية أن تسمح بإرسال رجال من الهاجاناه إلى المكان، جاء الرد بأن الجيش يسيطر على الموقف وإنه سوف يطلق سراح القافلة. ولم يكن لتدخل الهاجاناه إلا أن يزيد الأمر سوءاً . فعندما حاولت اثنتان من عربات الهاجاناه، فى آخر الأمر، أن تصل إلى القافلة وقعتا فى الكمين، وأصيبت سيارتين أخريين فى انفجار لغم عندما حاولت الهبوط من «جبل سكوبس» للمعاونة، لكن جميع ركابها اشتبكوا مع المهاجمين العرب . وفى الصباح وصلت تعزيزات للعرب. وفى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة اتصل الدكتور «جاد مخنس»، رئيس الجامعة بالجنرال «مكميلان» يلتمس، يائساً، المساعدة. وكان الرد هو أن المركبات العسكرية تحاول الوصول للمنطقة، لكن الأمر تحول إلى معركة كبيرة. وفى الثالثة، أضرمت النار فى الأوتوبيسين، واحترق من تبقى من الركاب على قيد الحياة » * .

كان بإمكان سكان القدس المكلومين أن يشاهدوا من فوق أسطح المنازل المعركة التى دامت لحوالى سبع ساعات، والتى ذبح خلالها جميع أفراد القافلة واحداً وراء الآخر. وقد شجع هذا النجاح، العرب على الاستيلاء على المزيد من المناطق فى شمال القدس. وقد قدر لمنطقة مستشفى «هداسا» والجامعة العبرية بجبل «سكوبس» أن تظل محاطة بمناطق تحت السيطرة العربية على مدى الأعوام التسع عشر التالية، مع حامية شرطة يهودية صغيرة تتلقى التموين عبر الأمم المتحدة .

فى تلك الأثناء، كان «اسحاق ساديه» يقود قوات البلماح قاصداً شمال المدينة وقام بعملية الهدف منها الربط بين المناطق اليهودية واحتلال قرية «النبى صمويل» الاستراتيجية. لكن الهجوم أسفر عن خسائر كبيرة بسبب سوء التوقيت الذى اختارته قوات البلماح. (تكررت عملية إساءة تقدير أهمية اختيار التوقيت من جانب قوات الهاجاناه والبلماح، الأمر الذى أضرّ بعدد من العمليات التالية .) وكانت العملية التالية لـ «ساديه» تستهدف حى «الشيخ جراح»، الواقع على خط انسحاب القوات البريطانية شمالى المدينة وعلى الطريق إلى جبل «سكوبس». ونجحت البلماح هذه المرة، لكن القوات البريطانية أصدرت إليها الأوامر بالإنسحاب، فانسحبت رغماً عنها. كان العملية الوحيدة التى كتب لها النجاح، حتى ذلك الحين، هى عملية الاستيلاء على «القطمون»، وهو حيّ عربى كبير جنوبى المدينة يعزل الأحياء اليهودية بأقصى الشمال، إذ قامت الكتيبتان الرابعة والخامسة من لواء «هارئيل» بلماح بالهجوم على القوات

Dr. dov Joseph, The Faithful City, P. 77, 1962.*



عملية «مكابى» (معركة طريق القدس) مايو ١٩٤٨

العراقية التى تحتل الحى، وتمكنت من طرد قوات الجيش العراقى غير النظامية من دير «سان سيمون»، التابع للطائفة الأرثوذكسية اليونانية، بعد قتال عنيف. واضطرت قوات الهجوم المضادة اليائسة إلى الانسحاب عند وصول التعزيزات من لواء « عتسيونى » . وتتضح شراسة القتال إذا علمنا أن من بين الـ ١٢٠ مقاتلاً الذين هاجموا الدير لم يكن هناك سوى ٢٠ شخصاً قادراً على السير حتى القدس، بينما لقى ٤٠ حتفهم، وعاد ٦٠ منهم محمولين على النقالات .

فى ذلك الحين، كانت مستوطنتا «النبى يعقوب» و «عطروت» معزولتين، وكذلك القرى الأربع التى تضمها مجموعة «عتسيون» بجنوب المدينة ، بالإضافة إلى قرية «هارطوف» جنوبى «بيت لحم» . وكان طريق إمداد مدينة القدس من السهل الساحلى (الذى كان حتى الآن مسرحاً لمعركة كبيرة) مقطوعاً منذ ٢٠ إبريل، وكانت ضريبة البقاء تتصاعد كل يوم داخل المدينة الكبيرة، والمخزون اليهودى من الماء و الغذاء والسلاح والذخيرة فى تناقص. وكان من الضرورى فك الخناق عن طريق القدس – تل أبيب، ولهذا بدأت عملية «مكابى» . كان على لواء «جعفاتى»، الذى كان يقاتل حول يافا ومخططاً له التصدى للغزو المصرى على الطريق الساحلى، أن يقدم إحدى كتائبه للمشاركة فى العملية ، تتولى السيطرة على الطريق الواصل بين «حلدة» و «اللطرون» وتجهيز قافلة للقدس وتوصيلها إلى «باب الواد» عند مدخل الجبال. فى الوقت نفسه، صدرت الأوامر إلى الكتيبة الخامسة والسادسة من لواء «هارئيل» بالاستيلاء على المرتفع المطل على طريق الجبل المؤدى إلى القدس بين «باب الواد» و «أبو غوش» و «بيت محسير» . وعندما تمت هذه المرحلة وأعدت القافلة، كان على القوات اليهودية أن تستولى على «دير أيوب» الواقعة بين «باب الواد» و «اللطرون» .

بدأت العملية كما كان محدداً لها فى ٨ مايو، بعد إتمام لواء « جعفاتى» لمهمته على طريق «حلدة» – «اللطرون» . واستولت قوات « هارئيل » على المرتفع القائم شمالى الطريق ، ولكن وبسبب سوء التوقيت، لم تكن القوات فى موقف يسمح لها بالهجوم على «بيت محسير» – وهى نقطة حيوية تتحكم فى منطقة «باب الواد» – كما كان مخططاً . ولذلك، تأجلت العملية لأربع وعشرين ساعة. وفى محاول لصرف انتباه العرب عن العملية، انسحبت قوات «هارئيل» من المرتفع الذى سبق أن احتلته، لكن العرب لاحظوا ماحدث. وبمجرد انسحاب قوات «هارئيل»، تحركت القوات العربية فى هدوء، نحو المواقع التى أخليت . وفشلت هجمات تالية من قبل وحدات «هارئيل»، فى التاسع والعاشر من الشهر ، فى انتزاع «بيت محسير» . لقد ضاع عنصر المفاجأة .

وفى هجوم يائس ثالث، نجحت قوات «هارئيل» أخيراً فى الاستيلاء على «بيت محسير»،

لكن الخسائر كانت كبيرة بحيث لم تسمح بالانتقال إلى المرحلة التالية، أى احتلال «دير أيوب». وفى تلك الأثناء، تحول العرب إلى الهجوم، وبمعاونة مدفعية «القاوقجى»، حاولوا طرد قوات الهاجاناه. وفى حالة من اليأس، صدرت الأوامر إلى قوات «جعفاتى» بأن تقوم بمحاولة لإمرار القافلة عبر التلال، وتأمينها عن قرب . لكن قوات «القاوقجى»، بعرباتها المصفحة ومدفعيتها، استولت على المرتفع المطل على «اللطرون» وكبدت قوات «جعفاتى» الخسائر وأجبرتها على الانسحاب. فى نفس الوقت، قام رجال «القاوقجى» بهجوم على المواقع التى كان يسيطر عليها بالفعل لواء «هارئيل» فوق التلال المطلة على «باب الواد» .

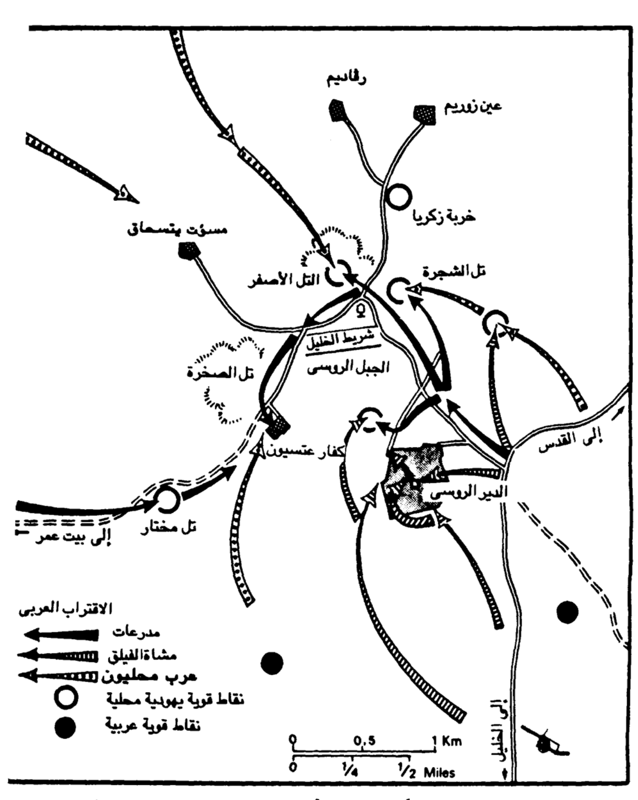
ودارت هناك واحدة من أشرس المعارك التى شهدتها حرب الاستقلال، وتبادلت القوات المتحاربة السيطرة على المواقع أكثر من مرة. ومرة أخرى تصدر الأوامر إلى «جعفاتى» بالاستيلاء على منطقة «اللطرون». على أنه بسبب سلسلة من سوء الفهم بين قوات «القاوقجى» وقوات «*الفيلق العربى*» ، *التى كان عليها أن تستولى على منطقة «اللطرون»*، لم تلق القوات اليهودية مقاومة ذات قيمة. وبحلول ١٦ مايو، أصبح الطريق من «حُلده» إلى القدس بكامله مفتوحاً أمام اليهود .

لكن الفرصة الذهبية ضاعت، فقد فشلت القيادة الإسرائيلية فى تجهيز قوة عسكرية والاستفادة من الموقف الجديد. فلو أن التطورات قد سارت سيراً صحيحاً، وإذا ما استُغل النجاح الذى تحقق فى «اللطرون» على الوجه الصحيح، لاختلف الموقف استراتيجياً اختلافاً تاماً، سواء بالنسبة للسكان اليهود المحاصرين فى القدس أو بالنسبة للوضع العربى فى تلال السامرا. إذ كان العجز عن استغلال النجاح الذى حققه «جعفاتى» فى منطقة «اللطرون»، فى ذلك الحين، خطأ فادحاً دفعت القوات الإسرائيلية ثمنه غالياً، حيث دخلت قوات عربية جديدة الساحة فى تلك الأثناء. ففى ١٤ مايو، عبر الجيش المصرى الحدود إلى جنوب فلسطين، وكان على قوات «جعفاتى» التى استولت على منطقة «اللطرون» أن تندفع جنوباً لصد هذا الغزو الجديد. فى الوقت نفسه، كان «جلوب» - الواعى بالأهمية الاستراتيجية لـ «اللطرون» - يحرك قواته المتقدمة بحذر نحو ذلك المكان عبر «الرملة»، وإلى أجزاء من السامرا. وبسبب الخطأ الإسرائيلى بترك منطقة اللطرون دون تحصين، كان باستطاعة الكتيبة الرابعة من الفيلق العربى، التى دخلت إلى فلسطين فى ١٥ مايو، أن تحتل منطقة «اللطرون» فى ١٧ مايو دون مقاومة تذكر، وأصبح الطريق إلى القدس مسدوداً مرة أخرى. وبانتشار الأنباء حول تقدم قوات الفيلق العربى من الشرق والشمال، بدأت القدس اليهودية تستجمع قواها لمواجهة الغزو.

كانت مجموعة مستوطنات «عتسيون» اليهودية، جنوب المدينة، فيما بين «بيت لحم» و«الخليل»، تحت الحصار منذ عدة أسابيع تتلقى الإمدادات بالباراشوت أو عن طريق طائرة «بايبركب» خفيفة . وكان الحامية المحاصرة تتألف من ٢٨٠ رجل وامرأة من المستوطنين، تعززهم مجموعة بلماح وسرية ميدان من الهاجاناه، ليصل إجمالى القوة إلى ٥٠٠ فرد تقريباً. وفى ٤ مايو، قامت سرية مستقلة من الفيلق العربى ملحقة على الجيش البريطانى فى منطقة الخليل ، تدعمها قوة مشاة غير نظامية من القرى العربية المجاورة، بمهاجمة الموقع القريب من «الدير الروسى» وبعض التحصينات اليهودية الأخرى بالقرب من طريق القدس الخليل ، فقتلوا ١٢ من قوات الهاجاناه، وجرحوا كثيرين غيرهم. وفى ١٢ مايو، شن الفيلق العربى هجومه الحاسم، ولم يبق من الاثنين والثلاثين المدافعين عن الدير سوى ثمانية من الجرحى أمكنهم الانسحاب. وفى ١٣ مايو، تمكن الفيلق من السيطرة على أحد المرتفعات، واستطاع أن يشق منطقة الدفاع الرئيسية عن قرى «عتسيون» إلى قسمين، بينما تمكنت قوة من الفيلق التغلغل داخل «كفار عتسيون». وقد تبع الفيلق الفلاحون العرب، الذين قاموا بقتل الأسرى، صفّوهم، رجالاً، ونساءا، وأطلقوا عليهم النار غيلة، ونجح ثلاثة رجال وفتاة فى الهرب تحت جنح الظلام، وكانوا هم الوحيدون الذين بقوا على قيد الحياة ليقصوا ماحدث .

عندما أصبح واضحاً أن المدافعين عن منطقة «عتسيون» فى موقف ميئوس منه، بدأت المفاوضات فى القدس، عبر وساطة الصليب الأحمر، من أجل استسلام المستوطنين. وفى ١٤ مايو، أخذ الفيلق العربى الباقين على قيد الحياة من « عتسيون» كأسرى، بينما تسلم الصليب الأحمر الجرحى لنقلهم إلى القدس. وقام العرب بنهب القرى وتدميرها، ولم تعد المنطقة إلى مستوطنيها إلا فى يونيو ١٩٦٧، عندما أعيد بناء المستوطنات اليهودية .

أثار تدمير قرى «عتسيون» العديد من الأسئلة داخل الطائفة اليهودية حول الحكمة من سياسة التصميم على الاحتفاظ بالمناطق حتى آخر رجل وامرأة. وكان المحبّذون لهذه السياسة يرون أن مثل تلك المخافر تهدد خطوط المواصلات العربية وتعوق الجيوش، لكن الدفاع عن تلك المواقع كان – على العكس – يستنفد جانباً كبيراً من المجهود اليهودى الذى كان من الأفضل استغلاله فى القتال من أجل القدس. ومن الوجهة الاستراتيجية، فقد وضح أن الجهد الذى استنزف على مدى شهور لإمداد «عتسيون» والحفاظ عليها، وفقد خمسمائة من المقاتلين المتمرسين، كان من الممكن أن يكون أعظم قيمة من الوجهة العسكرية فى القتال من أجل القدس وتوسيع نطاقات الهاجاناه فى تلك المدينة قبل غزو الفيلق العربى . والذى حدث هو أن



المعركة الأخيرة من أجل كتلة عتسيون، ١٢ مايو

النتائج التى تحققت لم تكن تتوازى مع حجم التضحيات التى قدمت. وعليه، فقد صدرت الأوامر، فور سقوط « عتسيون » بإجلاء قرى « هارطوف » غربى القدس «وعطروت» و «النبى يعقوب» فى الشمال . فقد أدركت قيادة الهاجاناه فى تلك اللحظة أنه فى الوقت الذى كانت فيه السياسة التى ترفض هجر أى موقع أو مستوطنة يهودية صحيحة تماماً أثناء فترة القتال ضد القوات غير النظامية، فإنه ينبغى إعادة النظر فى تلك السياسة فى ظل مواجهة السكان اليهود لجيوش نظامية. كما أدركت أن القرى المعزولة لايمكنها الصمود دائماً أمام هجمات تلك الجيوش المدعومة فى أحيان كثيرة بالمدفعية والقوة الجوية .

بانسحاب البريطانيين من القدس فى ١٤ مايو، أخذت القوات اليهودية والعربية داخل المدينة تتأهب لملء الفراغ. وبحلول ١٦ مايو، كانت القوات اليهودية قد أتمت سيطرتها على معظم المنطقة الواقعة خارج أسوار المدينة القديمة، باستثناء الأحياء الشرقية. ولكن فى صبيحة ١٥ مايو، عبرت الأفواج الأربع للفيلق العربى «جسر اللنبى» إلى فلسطين . وكان الفيلق، تحت قيادة البريجادير «ن . و . لاش»، مكوناً من لواءين، تمركز أحدهما بمنطقة نابلس والآخر بالرملة . وفى ١٧ مايو، قامت الوحدتان الأولى والثامنة من سرايا الحامية المستقلة التابعة للفيلق العربى باحتلال جبل الزيتون، المطل على القدس من ناحية الشرق . ففى ذلك اليوم حسب مايذكر «جلوب» * صدرت إليه الأوامر من الملك عبد الله فى عمان بالتقدم صوب القدس من جهة الرملة وقصف المدينة بالمدفعية .

وفى ١٨ مايو، نزلت السرية الأولى مشاة / فيلق من جبل الزيتون متجاوزة الجثمانية، عبر وادى «قدرون»، ومرت بقبر مريم العذراء الشهير، ثم صعدت المنحدر الذى يقال إن «سان ستيفان» تحصن به خارج أسوار المدينة. وبعد عبور القوات «بوابة سان ستيفان» **، دخلت مدينة القدس المسورة واشتبكت فى معركة من أجل الاستيلاء على الحى اليهودى بالقدس القديمة. وفى اليوم نفسه ، أصدر جلوب أوامره إلى قادة وحداته بالهجوم على «الشيخ جراح» فجر اليوم التالى، بهدف الاختراق والاتصال بالمدينة القديمة من هذا الاتجاه. وفى الوقت نفسه، صدرت الأوامر للسرية الثامنة مشاه بجبل الزيتون بالتقدم باتجاه المدينة القديمة. وفى صبيحة التاسع عشر، تقدمت العربات المصفحة نحو «الشيخ جراح»، واستولت على «التلة الفرنسية» المشرفة على المداخل الشمالية للمدينة، ومنها إلى مدرسة البوليس، التى كانت بأيدى قوات

---

* Sir Johm Bagot Glulb , A Soldier With the A rales , P . 110 , 1957 .

** تعرف فى المراجع العربية باسم « باب الأسباط » (الترجم) .

«إرجون» أنذاك. وسقطت المدرسة بأيدى الفيلق، الذى استغل هذا النجاح واحتل «الشيخ جراح» ليتصل، بذلك، بالعرب فى المدينة القديمة، ويقطع طريق الإمداد اليهودى الوحيد إلى «جبل سكوبس» (وظل الطريق مقطوعاً على مدى السنوات التسع عشر التالية، وحتى حرب الأيام الستة من ١٩٦٧) . وتقدمت داورية العربات المصفحة طابور الفيلق العربى إلى المدينة القديمة، ووصلت القوات إلى بوابة دمشق *، وتأهبت للانقضاض الأخير على القطاع اليهودى من المدينة. وأخذ الفيلق يقصف القدس قصفاً متصلاً، لتبدأ المعركة الأخيرة للاستيلاء على القدس .

كان قصف الفيلق موجهاً ضد ما اعتقده قادته أنه مراكز يهودية هامة، ومعسكرات حربية، مقر قيادة الوكالة اليهودية، ومحطات الكهرباء.. الخ. على أن كل تلك الأهداف كانت قائمة وسط السكان المدنيين، فلم يميز القصف بين هذا وذاك . وكان الهدف، بالطبع، هو تدمير الروح المعنوية للمدافعين من الأهالى، وبالفعل أصبحت الحياة متعذرة داخل القدس اليهودية المحاصرة . فقد قصفت المدينة بما يزيد على العشرة آلاف قذيفة من قذائف المدفعية والهاون، وظل وابل الطلقات متواصلاً ليلاً ونهاراً، تُصفّر فى الهواء وتتشظى بعد أن تصيب الأحجار الصلبة للمنازل. ولم يسلم منزل أو شقة فى القدس اليهودية من الطلقات والشظايا. وخلال فترات توقف القصف كان الناس يهرعون إلى الشوارع، فأصبح سقوط شخص أثناء سيره فى الطريق بفعل رصاصة طائشة مشهداً مألوفاً. ولذا فقد خلت الشوارع نسبياً معظم أوقات النهار. وقد تم نسف خط أنابيب المياه القادم إلى القدس من الساحل، وكان البديل هو توزيع مياه الآبار والصهاريج على البيوت بواسطة اللوريات : دلو واحد من الماء للأسرة فى اليوم. وكانت الأسر تجمع الأعشاب من حدائقها ومن الخلاء لتطهيها على النار المكشوفة، إذ لم يكن هناك وقود أو كهرباء. وازدحمت المقابر بسبب كثافة النيران، فكان الناس يدفنون فى المكان الذى يقتلون فيه وفى الحدائق الخلفية. كانت المدينة تحت إدارة الدكتور «دوف جوزيف»، وهو محام بارز وعضو نشط فى الوكالة اليهودية. وقد لعبت إدارته دوراً غير هيِّن فى إعداد المدينة للحصار وفى قيادتها فى تلك الأيام العصيبة. وكانت روح العزم والثبات التى ميزت المدن الأخرى الى عانت من الحصار تحت ظروف مشابهة (كلندن فى الحرب العالمية الثانية) تعكس نفسها على القدس المحاصرة .

* هى « باب العمود » فى المصادر العربية (المترجم) .

الانتداب ينتهى

فى تلك الأثناء، كان الجلاء البريطانى يتم حسب الخطة المقررة. فقد انسحبت القوات البريطانية تباعاً من عدد المناطق بالبلاد، دون أن تتمكن من نقل سلطاتها الإدارية إلى أية جهة أخرى، تاركة خلفها فراغاً وحالة من الفوضى الشاملة فى العديد من المناطق. فلم تعد هناك قوات للشرطة أو خدمات بريدية (لم تكن فلسطين قد أصبحت بعد عضواً باتحاد البريد العالمى) .

وبحلول الجمعة ١٤ مايو، لم يكن هناك سوى حامية بريطانية صغيرة بالقدس لحماية المندوب السامى، بالإضافة إلى محمية بحيفا. وفى ذلك اليوم، رحلت الحامية عن القدس، وطار المندوب السامى الجنرال «سير الآن كننجهام»، من مطار قلنديا (عطروت الآن) خارج القدس، متوجها إلى حيفا حيث استقل إحدى سفن البحرية الملكية. وأصبحت فلسطين محررة من القوات البريطانية والسلطة البريطانية، باستثناء محمية صغيرة بميناء حيفا، بقيت لعدة أسابيع حتى إتمام الانسحاب النهائى لبريطانيا .

وأرسلت لجنة فلسطين التابعة للأمم المتحدة، والتى تشكلت لتطبيق قرار التقسيم، طليعة لها برئاسة الدكتور «بابلو ازكرات» (الذى كان فيما سبق سفيراً لأسبانيا الجمهورية لدى بريطانيا العظمى). ورأت البعثة أن رفض حكومة الانتداب للتعاون معها فى نقل السلطة نقلاً منظماً على ضوء قرار التقسيم، قد حوَّل فلسطين إلى دولة تسودها الفوضى التامة. وقد شهدت الأمم المتحدة تحركات سياسية يائسة للحيلولة دون ما اعتبر كارثة وشيكة وحمامات دم، وقدمت الولايات المتحدة اقتراحاً بفرض الوصاية. وتشكلت لجنة استشارية للهدنة شارك فى عضويتها كل من الولايات المتحدة وفرنسا وبلجيكا، لكنها لم تكن ذات جدوى كبيرة. ولم تجد النداءات التى وجهت إلى بريطانيا كى تؤجل رحيلها، وسارت الأحداث فى فلسطين نحو غايتها المحتومة.

فى تلك الأثناء، كانت القيادة الإسرائيلية تناقش مسألة وجوب إعلان الاستقلال فى ١٤ مايو، موعد الانسحاب البريطانى، من عدمه. وموِرست ضغوط شديدة على ممثلى اليهود فى واشنطن وفى كل مكان آخر لتأجيل مايمكن أن يكون عملاً متهوراً، وتحاشى دفع الجيوش العربية لخوض حرب. لكن «بن جوريون»، الذى كان يرأس فى ذلك الوقت مايعرف بـ «مجلس الشعب» (الذى أصبح فيما بعد حكومة إسرائيل المؤقتة) قرر أنه ينبغى استغلال الفرصة التاريخية التى أتيحت، وانتصرت وجهة نظره على معارضيه فى «المجلس». وفى يوم الجمعة ١٤ مايو، جمع «بن جوريون » المجلس المؤقت (الذى سيصبح الكنيست أو البرلمان فيما بعد)

بالمتحف البلدى لتل أبيب بشارع روتشيلد (وكانت القدس، بالطبع، محاصرة ومعزولة تماماً). وأعلن «بن جوريون» قيام الدولة اليهودية فى فلسطين، واسمها دولة إسرائيل. وفى الصباح الباكر من اليوم التالى، أذاع على الولايات المتحدة أثناء حديث له، صوت طائرة مصرية وهى تقصف تل أبيب، حيث كان الصوت واضحاً للغاية.

بعد رفض العرب لفكرة إقامة دولة عربية على جزء من فلسطين، تكتلوا من أجل تدمير دولة إسرائيل الوليدة. وكان «بن جوريون» قد أرسل، قبل أيام قليلة من الجلاء، «جولدا مئير سون» (السيدة جولدا مئير) عضو المجلس التنفيذى للوكالة اليهودية بفلسطين (والقائد البارز بحزب العمل) لمقابلة الملك عبد الله. وكان برفقتها السيد «عزرا دانين»، الذى كانت مهتمه فى ذلك الحين إقامة علاقات بين الوكالة اليهودية وبعض الزعماء العرب، بما فيهم الملك عبد الله. وتخفّت السيدة «مئير سون» فى زى بدوية، وعبرت إلى الأردن من منطقة محطة الطاقة بنهاريا، عند التقاء نهر الأردن واليرموك .

وحاولت، خلال لقائها السرى بالملك عبد الله، أن تثنيه عن الانضمام إلى الغزو ووضع أسس لتعاون أردنى – اسرائيلى فى المستقبل، لكن الملك كان قد تورط بالفعل. وعادت إلى تل أبيب لتقدم تقريراً حول فشل مهمتها وحتمية وقوع الغزو. وفى ليلة ١٤ / ١٥ مايو، عبرت جيوش خمس دول عربية (مصر والأردن وسوريا ولبنان والعراق) الحدود، وبدأت غزو فلسطين.

كانت القوات الإسرائيلية آنذاك مترابطة، فى معظم المناطق، بما يسمح بنوع العمق من الدفاعى، وإن ظلت هناك نقطتى ضعف فى موقف إسرائيل الدفاعى .الأولى هى القدس، التى كانت تدكها مدفعية الفيلق العربى والتى تقاتل قتالاً باسلاً كحامية معزولة، لاتملك سوى الحد الأدنى من الأغذية والمؤن، وكان «النقب»، فى الجنوب، هى المشكلة الأخرى، حيث المستوطنات اليهودية هناك محاصرة .

فى الأسبوع الأول من مايو، وبعد إلحاح من اللجنة السياسية للجامعة العربية (التى اتخذت قراراً بغزو فلسطين فور انتهاء الانتداب فى ١٥ مايو)، اجتمع رؤساء أركان الجيوش العربية فى دمشق وأقروا خطة الغزو. وكان الملك عبد الله قائد الجيوش العربية ، لكن منصبه هذا كان صورياً . ففى التطبيق عزم كل جيش على أن يعمل وفق مصالحه الوطنية، وأن يتلقى الأوامر من قيادته العامة . والحقيقة أن الخطة لم تتجاوز تنسيق الهجوم وتقسيم فلسطين إلى أقسام تحتلها الجيوش العربية كل ما فيما يخصه. فكان على اللبنانيين أن ينطلقوا بطول الساحل الشمالى نحو نهاريا، وعلى السوريين أن يعبروا إلى شمال وجنوب بحر الجليل

والتقدم إلى «سمخ»، بهدف احتلال الجليل، وكان على العراقيين أن يعبروا الأردن جنوبي بحر الجليل، والتحرك خلال المثلث العربي، والتقدم نحو «نتانيا» على ساحل البحر المتوسط لشق الدولة اليهودية إلى قسمين. وكان الهدف المحدد للفيلق العربي الأردني هو الاستيلاء على «نابلس» ومنطقة «السامرا» بلواء واحد، بينما يستولي اللواء الآخر على «الرملة» عند مشارف «تل أبيب» بالسهل الساحلي الأوسط، ويظل اللواء الثالث كاحتياطي. أما المصريون فكان عليهم أن يتحركوا بقوتين : الكتلة الرئيسية تنطلق من العريش وتتقدم بطول السهل الساحلي لتستولي على غزة ثم تتقدم جنوباً نحو تل أبيب، وعلى القوة الأخرى، يدعمها متطوعو الأخوان المسلمين، أن تتوجه صوب الشمال الشرقي، مروراً بالعوجة وبئر سبع والخليل، ومنازلة القوات اليهودية المدافعة عن المداخل الجنوبية للقدس. إضافة إلى ذلك، أوكل إلى «جيش الانقاذ العربي» (القاوقجي)، بقواته البالغة حوالي عشرة آلاف رجل يظاهرها خمسون ألفاً من عرب فلسطين غير النظاميين، مهمة الدفاع المحلي. وكانت جميع تلك القوات العربية مزودة بالأسلحة الحديثة، وتتمتع ثلاث منها (مصر وسوريا والعراق) بغطاء جوي، واثنان منها (مصر وسوريا) مزودة بالدبابات، كما كانت جيوش الأردن ولبنان والعراق تضم وحدات للعربات المصفحة . وتمتلك الجيوش الخمسة جميعها مدفعية حديثة ومدربة على أيدي معلمين أوروبيين (بريطانيين وفرنسيين بالأساس) . وكان مع القاوقجي عناصر مدفعية وعربات مدرعة، بينما كان الجيش المصري يضم وحدات من الجيش السعودي. وأمام الهجوم العربي المتعدد، المتقدم على جميع الطرق الرئيسية باتجاه إسرائيل، كانت تقف قوات الدفاع الإسرائيلية الناشئة: قوات أشبه بالأنصار، مسلحة بخليط متنافر من أنواع مختلفة من الأسلحة، معظمها أسلحة صغيرة، ونظام اتصال بدائي، ولاتملك بصفة خاصة مدفعية أو مدرعات أو معدات ثقيلة، وتمتلك مجرد وحدة وليدة من طائرات الاتصال الخفيفة. لكن الجيوش العربية لم يكن لها قيادة مركزية فعالة. فقد كان التنسيق فيما بينها مهلهلاً وغير ذي جدوى. أما القوات الإسرائيلية فكانت تتمتع بالعمل على الخطوط الداخلية، وكانت قادرة – مع تطور القتال – على التنسيق بين الوحدات المقاتلة بحيث يمكن تحريك الاحتياط من جبهة لأخرى. وكان الإسرائيليون، فوق ذلك، على وعي بأنهم إنما يقاتلون حماية لأرواحهم وأرواح نسائهم وأطفالهم، ويتمتعون بقيادة بارعة يولونها ثقتهم .

كانت القوات الإسرائيلية تتكون، آنذاك، من تسعة ألوية للعمليات، موزعة كالتالي: ثلاثة ألوية بلماح. «يفتاح» في شرق الجليل، و «هارئيل» عند ممر القدس، ثم لواء «النقب» بالجنوب.

ويتمركز لواء «جولانى» بالجليل الأعلى، «وكرملى» بالجليل الغربى، و «الكسندرونى» بطول الساحل فيما بين حيفا وتل أبيب، ولواء «كرياتى» فى شمال وشرق تل أبيب، ثم لواء «جعفاتى» فى الجنوب، وكانت القدس تدخل فى نطاق عمل لواء «عتسيونى». وكان اللواء السابع قيد التشكيل عند الحد الجنوبى لمر القدس، بقيادة الكولونيل «شلومو شامير» . وكان «اسحاق ساديه» يتولى تكوين اللواء الثامن المدرع، بينما العمل يجرى فى الشمال لتشكيل لواء «عوديد»، أو اللواء التاسع. هكذا كانت أوضاع القوات اليهودية - والتى بلغ عددها حوالى ٤٠ ألف رجل - التى تصدت للغزاة العرب. وإذا مااستثينا الأسلحة الصغيرة، فإن أثقل ماكانت تملكه هذه القوات من أسلحة كان ١٩٥ قطعة هاون عيار ٣ بوصة، بينما كانت وحدات «المدفعية» مسلحة ببعض رشاشات «هسبانو سويزا» عيار ٢٠ مم وبعض مدافع «هاوتزر» عيار ٦٥ مم فرنسية بدون أجهزة تنشين ويعود تاريخ صنعها إلى أوائل القرن . وكان هناك بضع طائرات «ميسر شميت» لاتزال بالخارج. وكانت الوحدات المدرعة تشمل بعض عربات الاستكشاف، وبعض عربات مصفحة متخلفة محلية الصنع. هذا، وكانت المعركة من أجل بقاء إسرائيل توشك على البدء.

٢

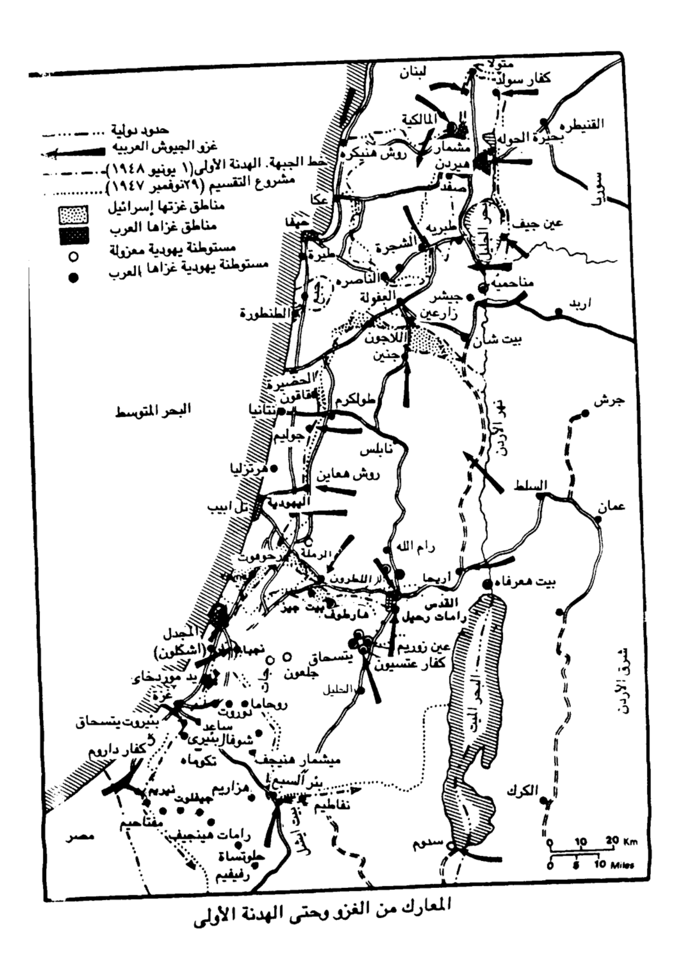
حتى الهدنة الأولى

(١٥ مايو - ١١ يونيو ١٩٤٨)

كانت إسرائيل تخوض حرب استقلالها على أكثر من جبهة فى وقت واحد؛ فى الشمال، ضد السوريين واللبنانيين وجيش الإنقاذ العربى؛ فى الوسط، ضد الجيش العراقى والفيلق العربى ووحدات من جيش الإنقاذ؛ وفى الجنوب، ضد المصريين وعناصر أخرى من القوات غير النظامية العربية. وكانت القدس لاتزال تحت الحصار، واستمرت المعركة من أجل إمداد المدينة البائسة. ومن حسن طالع اسرائيل أن التنسيق بين القوات العربية على العديد من الجبهات كان مفتقداً. كما توقفت الحرب نفسها عدة مرات فى إطار سلسلة من الهدنات ووقف إطلاق النار خلال يونيو ويوليو ١٩٤٨ ، ولذا فمن الأنسب أن نقسم رواية الأحداث وفقاً للهدنات، وأن نصف التطورات على كل قطاع خلال تلك الفترات .

الجبهة الشمالية

يعتبر الهجوم الذى قام به السوريون على منطقة الأردن - بيسان العليا أكبر هجوم عربى على منطقة تجمع استيطانى يهودى كثيف . وهناك ثلاث مزايا تكتيكية وراء اختيار السوريين لمفتتح كهذا: الأول وجود المرتفع المتحكّم فى ميدان المعركة المخطط لها داخل حدودهم؛ الثانى، أن عدداً من المستوطنات الزراعية اليهودية يقع شرقى نهر الأردن، الأمر الذى لايستدعى عملية خاصة لعبور النهر؛ الأمر الثالث هو أن اختراقاً فى تلك المنطقة يمكّن القوات السورية من الاتصال بالسكان العرب فى الجليل حول مدينة الناصرة العربية. كما أن هذا يمكن من إقامة قاعدة صلبة ونقطة انطلاق نحو حيفا، وهو ميناء رئيسى وأحد نهايات خط أنابيب البترول من العراق إلى البحر المتوسط. وقد بدأ القتال بمحاولات فاشلة من جانب الفيلق العربى، الذى تحرك من «شرق الأردن»، للاستيلاء على نقطة الشرطة فى «جيشر» . وفى ١٤ مايو ، هاجم الفيلق محطة القوى فى « نهرايم » واستولى عليها .



المعارك من الغزو وحتى الهدنة الأولى

تحركت قوات الحملة العراقية نحو «الضفة الغربية»، قاصدة القطاع المحدد لها فى الخطة العربية، وحاولت عبور النهر عن منطقة «جيشر». ولكن بعد سلسلة من المعارك الرهيبة دامت لأسبوع كامل مع المستوطنين ووحدات لواء «جولانى»، انسحب العراقيون، واتجهوا نحو الجنوب كى يعبروا من منطقة يسيطر عليها العرب .

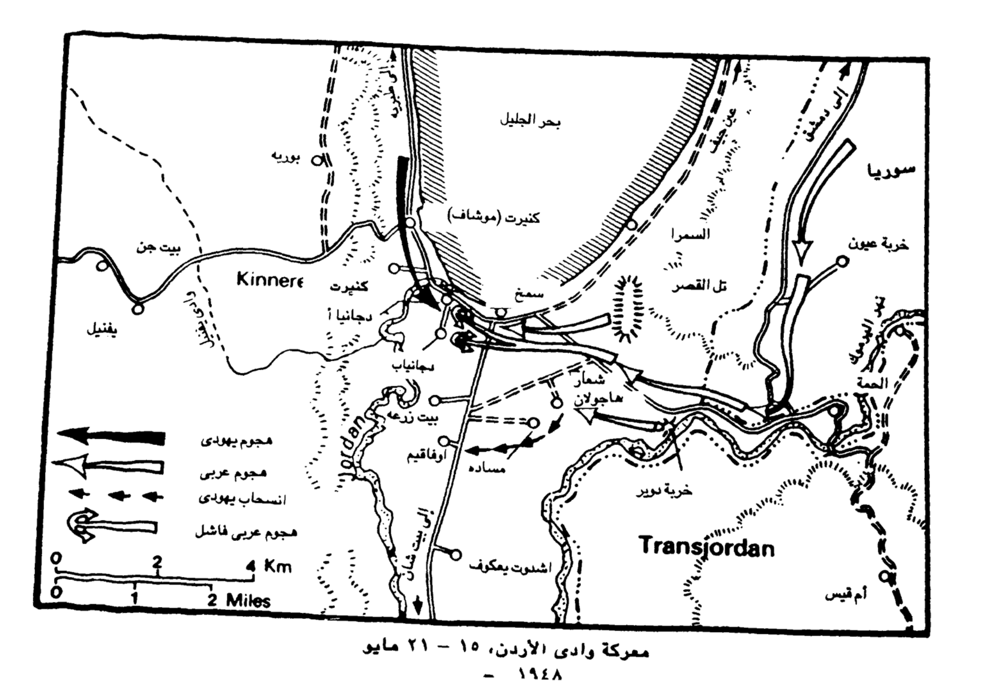
وبدأ السوريون هجماتهم فى ١٤ مايو بقصف شديد بالمدفعية على المستوطنات الواقعة جنوب بحر الجليل، وعلى مستوطنة «عين جيف». وكانت الوحدة الوحيدة– باستثناء الفلاحين – المتاحة للدفاع عن المنطقة هى الكتيبة الثانية من لواء «جولانى»، كتيبة واحدة عليها أن تتولى الدفاع عن وادى الأردن الأعلى فى مواجهة غزو من جانب جيشين عربيين . والأسوأ من ذلك، أن إحدى سرايا الكتيبة كانت مكلفة بمهام أخرى فى منطقة «جبل طابور»، على مسافة مايقرب من ٢٠ ميلاً إلى الغرب. وكان الهدف الأول لقوة الهجوم السورى، والمؤلفة بالأساس من لواء مشاه تدعمه سرية دبابات وكتيبة عربات مدرعة وفوج مدفعية، هو قرية «سمخ». وقامت اثنتان من سرايا المشاة باحتلال معسكر مهجور جنوبى القرية، بينما توجهت قوة مختلطة من المدرعات والمشاة نحو مستوطنتى «شاعر هجولان» و «مساده» . وبعد معركة يائسة، توقف الاندفاع السورى الأول، ولكن بعد إبادة جميع أفراد القوة المدافعة، باستثناء فرد واحد. ولكى يصيبوا السوريين بالحيرة والارتباك، ويكسبوا الوقت اللازم لإجلاء الأطفال والنساء عن المنطقة، لجأ المستوطنون إلى الحيلة . إذ قامو بحشد جميع لورياتهم وجراراتهم، تصعد الجبل غربى بحر الجليل ليلاً وهى مطفأة الأنوار، ثم تعود وهى مضاءة. وتكررت العملية على مدى عدة ليالى لخلق الانطباع بتدفق النجدات .

فى ١٨ مايو، قام اللواء السورى الأول، بقيادة الزعيم «حسنى الزعيم» (الذى قدر له، بعد ذلك بعام، أن يقود عدداً من الانقلابات العسكرية بسوريا) بهجوم حاسم على «سمخ» . وكان على المدافعين، المسلحين برشاشين ٢٠ مم م / د، أن يتصدوا لهجوم بحوالى ٣٠ سيارة مصفحة ودبابات « رينو » تولت قصف مواقع الهاجاناه وأصابتها إصابات مباشرة. فى الوقت نفسه، قامت قوة مشتركة من المشاة والمدرعات بتطويق «سمخ» . وعندما تعطل أحد المدفعين المضادين للدبابات بفعل القصف السورى، ترك جزء من القوة موقعه وانسحب من «سمخ»، مخلفين وراءهم عدداً من الضحايا: أبيدت معظم القوة المدافعة فى آخر الأمر. وبذلك نجحت القوة السورية فى فتح الطريق إلى وادى الأردن، وبدا الموقف بالنسبة للمستوطنين الاسرائيليين والقوات المدافعة عن المنطقة، ميئوساً منه. وأصبحت قريتا «دجانيا أ» و «دجانيا

ب» هى خط الجبهة الدفاعى. وبدأ تدفق التعزيزات من القرى المجاورة على المنطقة، إضافة إلى جزء من الكتيبة الثالثة / جولانى وسرية من لواء «يفتاح» / بلماح. وتم، أثناء الليل، إجلاء فلاحى قريتى «شاعر هجولان» و «مساده». وعندما استولى عليها السوريون، كانت قد نُهبت وخُربت من قبل أتباع المعسكر العربى. وفى تلك الأثناء، قام البلماح بمحاولة لاستعادة مقر الشرطة فى «سمخ»، لكنها باءت بالفشل .

وفى تل أبيب، حاول وفد من مستوطنى المنطقة أن ينقل إلى «بن جوريون» خطورة الموقف. وأجاب «بن جوريون»: «ليس لدينا الأسلحة أو الطائرات الكافية. هناك عجز فى الرجال على كل الجبهات. الموقف فى النقب خطير للغاية، وهو خطير أيضاً فى القدس والجليل الأعلى . البلد كلها جبهة قتال. لا إمكانية لدينا لإرسال تعزيزات». وقد أمَّن «ييجال يادين» رئيس عمليات الهاجاناه على قوله وأضاف: «ليس أمامنا من بديل سوى أن ندعهم يقتربون إلى مسافة ٢٠ - ٣٠ ياردة من بوابات «دجانيا»، حتى يكونوا فى المرمى المؤثر للنيران، والالتحام معهم فى قتال لصيق». بعد الحرب، خلف «يادين» الجنرال «يعقوب دورى» ليصبح ثانى رئيس لأركان جيش الدفاع الإسرائيلى. وقد اشتهر فيما بعد بأسلوبه المتميز فى تنظيم الجيش ونظام الاحتياط العالى الكفاءة الذى عرفته إسرائيل. (فى أوائل الخمسينيات، استقال من رئاسة الأركان بعد خلافات مع «بن جوريون» حول مسائل تتعلق بميزانية وحجم جيش الدفاع الإسرائيلى. وبعد عدة سنوات قضاها فى التنقيب عن الآثار والتدريس، انخرط فى العمل السياسى كرئيس لحزب وسط جديد، كما شغل منصب رئيس الوزراء.) كان شخصية محورية خلال حرب الاستقلال بوصفه مستشاراً لـ بن جوريون، وشغل قيادة الأركان بكفاءة.

بدأ الهجوم العربى على قريتى «داجانيا» فجر يوم ٢٠ مايو بقصف مدفعى مركز . وكان الهجوم الرئيسى منصباً على «دجانيا أ»، التى بلغ إجمالى المدافعين عنها سبعين رجلاً. واستخدم فى الهجوم سرية مشاة تتقدمها خمس دبابات ووحدة عربات مدرعة. وفتحت العربات المدرعة النار، بهدف إبادة المدافعين وتوفير غطاء من النيران للمشاة، بينما أطلقت الدبابات نيراناً مباشرة على معاقل المدافعين ومواقعهم لإجبارهم على الخروج منها ومن خنادق المواصلات. والآن، تندفع الدبابات إلى الأمام مخترقة السياج الخارجى غير الملغَّم: أصيبت إحدى العربات المدرعة السورية فى جانبها من طلقات المدفع ٢٠ مم المضاد للدبابات المتبقى، كما أصيبت دبابة «رينو» وانسحبت، لكن الهجوم استمر، وسرعان ما وصلت القوات العربية إلى الخنادق الإسرائيلية. وخاض المدافعون قتالاً يائساً دفاعاً عن ديارهم، واشتبكوا

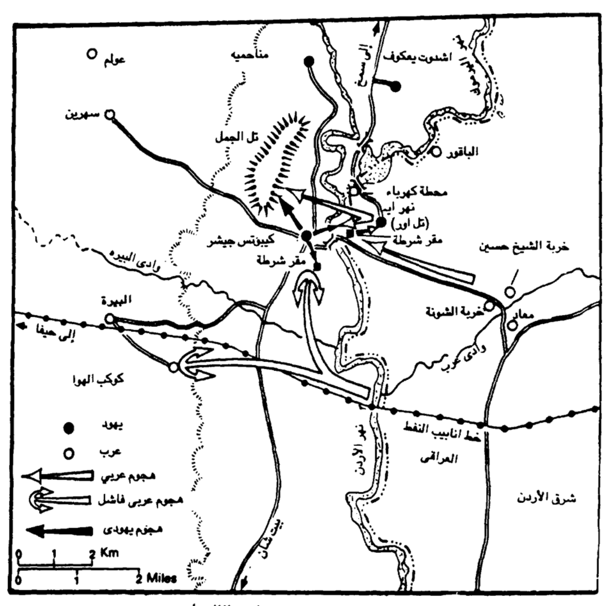


معركة وادى الأردن، ١٥ – ٢١ مايو ١٩٤٨ –

مع الدبابات بالكوكتيل مولوتوف وقذائف «بيات» المضادة للدبابات. وأصيبت دبابة القيادة بقذيفة مولوتوف وتوقفت فى مكانها، لكن مدفعها ظل يطلق نيرانه حتى دمرته عبوة مولوتوف أخرى. (لم تتحرك الدبابة من هناك على الإطلاق ، فهى تقف حتى الآن كنصب صامت تذكاراً لشجاعة وإقدام حفنة من المدافعين البواسل وتضحيتهم بالنفس.) ومن حسن حظ الإسرائيليين أن المشاة السوريين لم يتقدموا مع المدرعات. فقد حاولوا عبثاً اختراق الدفاعات، لكن النيران الإسرائيلية لم تمكنهم من ذلك. وواصل الإسرائيليون صمودهم، ولم يفرطوا فى بوصة واحدة. وعند منتصف النهار، انسحب السوريون من «دجانيا أ»، بعد أن خسروا سيارتين مدرعتين أخريين، وانتقلوا بالهجوم إلى «دجانيا ب» .

جاء الهجوم على «دجانيا ب» بثمانى دبابات وعربات مصفحة، تتقدمها هذه المرة سريتان من المشاة. ونجح المدافعون فى وقف تقدم المشاة، ومرة أخرى، تتقدم قوة مدرعة سورية كبيرة يساندها المشاة، لكنها رُدت على أعقابها. وشهدت ظهيرة ذلك اليوم أول ظهور مدفعية قوات الدفاع الإسرائيلية فى ميدان المعركة. ولم تكن الأطقم قد تدربت عليها على الإطلاق، فقد تم تفريغها قبل ذلك بأيام قلائل بتل أبيب، ونقلت على وجه السرعة إلى الشمال. ومن فوق التلال المطلة على بحر الجليل، أطلقت طلقات الاختبار الأولى فى الماء. أما الآن، فهى موجهة إلى المنطقة التى تحتلها الأسلحة السورية المعاونة وتمركز المدرعات . كان تأثير قذائفها الأولى على السوريين (الذين كانوا، حتى تلك اللحظة، يحتكرون استخدام المدفعية بميدان المعركة) فوريا، إذ انسحبوا، تاركين «سمخ» و «شاعر هجولان» و «ومسادا»، التى أعادت القوات الاسرائيلية احتلالها على الفور.

حسم الإسرائيليون معركة وادى الأردن فى ٢٣ مايو. ولم يحاول السوريون، على الإطلاق، غزو البلاد مرة أخرى من جهة الجليل الأدنى، وبدلاً عن ذلك، وجهوا مجهودهم الرئيسى نحو الشمال، عند منطقة «مشمار هايردين» . ولم تكن أهمية انتصار «دجانيا» عائدة إلى صد الهجوم العربى فى منطقة وادى الأردن، وإنما إلى ما أثاره من حماسة فى قلوب جميع السكان اليهود بدولة إسرائيل الوليدة. فدجانيا، الواقعة على نهر الأردن، عند نقطة تدفق المياه من بحر الجليل، هى «أم الكيبوتزيم»، فهى أول مستوطنة تعاونية من النوع المعروف بالكيبوتز تقام بفلسطين، وذلك فى عام ١٩١٠. واعتبر وقوع أولى المعارك الكبرى ضد جيش غاز عند «دجانيا»، فألا حسنا. ولم يحُل التباين فى العدد والعتاد دون رد حفنة من المستوطنين لهجوم جيش عربى نظامى . وكان الأثر المعنوى لهذا النصر حاسماً خلال الأيام العصيبة التى تلته .



وادى الأردن - جيشر، ١٥ - ٢٢ مايو
١٩٤٨

فى تلك الأثناء وعلى الجانب الغربى لـ «إصبع» الجليل، قام اللبنانيون بهجوم فى ٦ يونيو، واحتلوا قريتى «المالكية» و «قَدَس» . وكانت القوات الاسرائيلية قد احتلت نقطة شرطة «النبى يوشع»، لتغطية الطرق الواصلة بين لبنان والجليل الشرقى . وقام لواء «يفتاح» / بلماح، بقيادة الكولونيل «مولا كوهين»، بمفاجأة اللبنانيين من الخلف عبر الحقول بالعربات المدرعة . وانسحب العدو انسحاباً غير منظم، مخلفاً وراءه كمية كبيرة من السلاح والذخيرة، وعادت «المالكية» و«قدس» مرة أخرى لأيدى الاسرائيليين . وفى ليلة ١٩/١٨ مايو، قام لواء «يفتاح» بهجوم ناجح على قاعدة إمداد سورية عند «جسر بنات يعقوب»، حيث كان السوريون يحشدون الإمدادات لشن هجوم على ميسرة «إصبع» الجليل. وفى أثناء ذلك، كان الموقف فى ممر القدس يزداد سوءاً، فاندفع لواء «يفتاح»، فى الأسبوع الأول من يونيو، نحو الجنوب لملاقاة «الفيلق العربى» عند منطقة «اللطرون» فى طريقه إلى القدس، ثم استبدل بلواء «عوديد» (التاسع) الذى تشكل على عجل، يتبعه حشد من المستوطنين والمتطوعين الجدد. وكان اللواء تحت قيادة الكولونيل «أورى يوفى» .

عقب إعادة التنظيم بسوريا، وبعد أن أصبح «حسنى الزعيم» قائد عاماً، غيَّر السوريون – المستوعبون لهزيمتهم أمام «دجانيا» بوادى الأردن – استراتيجيتهم. وفى ٦ يونيو، قام العرب بهجوم ثلاثى على الجليل. تحرك السوريون باتجاه «مشمار هايردين» بهدف قطع طريق الشمال – الشرق الرئيسى بوسط «إصبع» الجليل. وقام اللبنانيون بالهجوم على «المالكية»، حتى يتحكموا فى المرتفعات المطلة على طريق الشمال – الجنوب الرئيسى من جهة الغرب. كما وجه «جيش الإنقاذ العربى» هجومه إلى «الشجرة» بالجنوب ، حتى يمكن قطع الطريق الوحيد المتبقى بأيدى الاسرائيليين، والذى يربط وسط إسرائيل بالجليل الغربى .

باغت الجيش اللبنانى المدافعين عن «المالكية» واستولى على القرية الهزيلة التحصين. وكانت القوة المهاجمة تتألف من لواءين تقريباً من الجيش اللبنانى وجيش الإنقاذ العربى. وتبع ذلك سقوط «قدس» وأصبح الطريق إلى الجليل الأوسط مفتوحاً أمام قوات «جيش الإنقاذ». لكن عندما حاول اللبنانيون الاستيلاء على «رامات نفتالى»، رُدوا على أعقابهم بعد معركة شرسة، دارت بالأساس حول السور المحيط بالقرية، وتواصلت ليوم كامل .

وفى ٦ يونيو، قامت قوة سورية مؤلفة من كتيبتى مشاة تدعمها وحدات من الدبابات والمدفعية، بالهجوم على «مشمار هايردين»، وهى واحدة من أقدم المستوطنات اليهودية، تأسست فى ١٨٨٤ على نهر الأردن قبالة جسر «بنات يعقوب». وقد تعرضت المستوطنات

اليهودية بالمنطقة لوابل من المدفعية والقصف الجوى. واستطاع المدافعون عن «مشمار هايردين» صد الهجوم السورى الأول، لكن السوريين سرعان ماستعادوا قواهم وعادوا إلى الهجوم فى ١٠ يونيو (فى الوقت الذى كانت فيه القوات الإسرائيلية تخوض قتالاً مستميتاً دفاعاً عن «رامات نفتالى» فى الغرب. وزيد حجم القوات السورية المهاجمة إلى لواءين، وأصبح الضغط شديداً على المدافعين من لواء «عوديد». وهاهم السوريون يعبرون نهر الأردن فى هجوم ثنائى، أحدهما باتجاه «محنايم» لعزل «مشمار هايردين» من الخلف، أما الآخر فتحرك للهجوم من شمال وجنوب المستوطنة. واستطاع هذا الهجوم المتعدد الاتجاهات والذى تتقدمه ثمانى دبابات أن يحدَّ، بفضل نيرانه المباشرة، من فاعلية المدافعين، ولم تتمكن إحدى كتائب لواء «كرملى» الاسرائيلى من الانتشار فى الوقت المناسب. وإثر هجوم جيد التنسيق نجح السوريون بفضل تفوقهم العددى، فى اجتياح الدفاعات الخارجية لمشمار هايردين، وفى ساعة متأخرة من النهار، سقطت المستوطنة فى أيدى الجيش السورى، بعد أن سقط معظم أفراد القوة المدافعة، ولم يقع فى الأسر سوى ٢٠ مقاتلاً. وتقدم السوريون صوب الطريق الرئيسى، لكن وحدات لواء «عوديد» مع الإمدادات التى وصلت حديثاً من لواء «كرملى» تمكنت من وقف التقدم السورى .

فى اليوم نفسه (١٠ يونيو)، قامت كتيبة سورية مدعمة بالمدفعية، بمهاجمة «عين جيف» المعزولة، على الشواطئ الشرقية لبحر الجليل*، والتى كانت قوة الدفاع عنها تتألف من مائة من الرجال والنساء والمسلحين. كان الهجوم على ثلاثة محاور. لكن المدافعين أمكنهم صد الهجوم، بعد ملحمة بطولية أسفرت عن خسائر فى الأرواح على الجانب الاسرائيلى .

عند هذا الحد، وافق الطرفان على الهدنة التى اقترحتها الأمم المتحدة. ونظراً لأن القتال كان عنيفاً وشرساً، فقد رحبت الجيوش الميدانية من الجانبين بفترة الاستراحة تلك. «شهر من الراحة دون مقابل» على حد تعبير «جلوب»**. وكان الاسرائيليون، بشكل خاص، أحوج ما يكونون إلى مثل تلك الفترة لإعادة التنظيم وتعويض الخسائر، وجلب واستيعاب سيل المعدات الذى تراكم فى الخارج . على أن وقف إطلاق النار، الذى بدأ فى ١١ يونيو، لم يحترم من جانب ثالث القوى العربية المقاتلة فى الجليل، أى جيش الإنقاذ العربى بقيادة القاوقجى .

فقد تنبه الفيلق إلى محاولة وحدات «جولانى» للاستيلاء على قرية «لوبيه»، الأمر الذى يعرض خطوط مواصلاته بين الناصرة والشمال للخطر. وفشل الهجوم الإسرائيلى، لكن

* أى بحيرة طبرية (المترجم).

** المرجع السابق .

القاوقجى قام – كى يمنع تكرار ذلك – بهجوم وقائى على قرية «الشجرة» القريبة من «لوبيه». وفى أثناء القتال، نجحت قوات القاوقجى فى قطع الطريق المؤدى إلى «كفار طافور»، ووقع اشتباك متلاحم عنيف فى «الشجرة». كانت خسائر كلا الجانبين كبيرة، وعندما أوشكت القوات الاسرائيلية على اليأس توقفت قوات القاوقجى وانسحبت فى نهاية الأمر. وتواصلت الهجمات العربية لما يقرب من اليومين بعد فرض الهدنة، بينما التزمت بها القوات الإسرائيلية. وبهذا تنتهى المرحلة الأولى من القتال فى الجليل. وحقق الإسرائيليون هدفهم الاستراتيجى بوقف الغزو العربى. ولم تكن انتصارات العرب فى «مشمار ها يردين» و«المالكية» تتناسب مع مابذلوه من جهد وما تكبدوه من خسائر، بينما كانت هزيمة جيش الإنقاذ العربى فى «الشجرة» حاسمة. كانت مرحلة امتلك فيها العرب زمام المبادرة بشكل كامل، وإن كانت النتائج النهائية التى حققوها محدودة للغاية. وفى تلك الأثناء، كان اليهود غير النظاميين يتحولون تدريجياً، فى أتون المعركة، إلى جيش .

الجبهة الوسطى

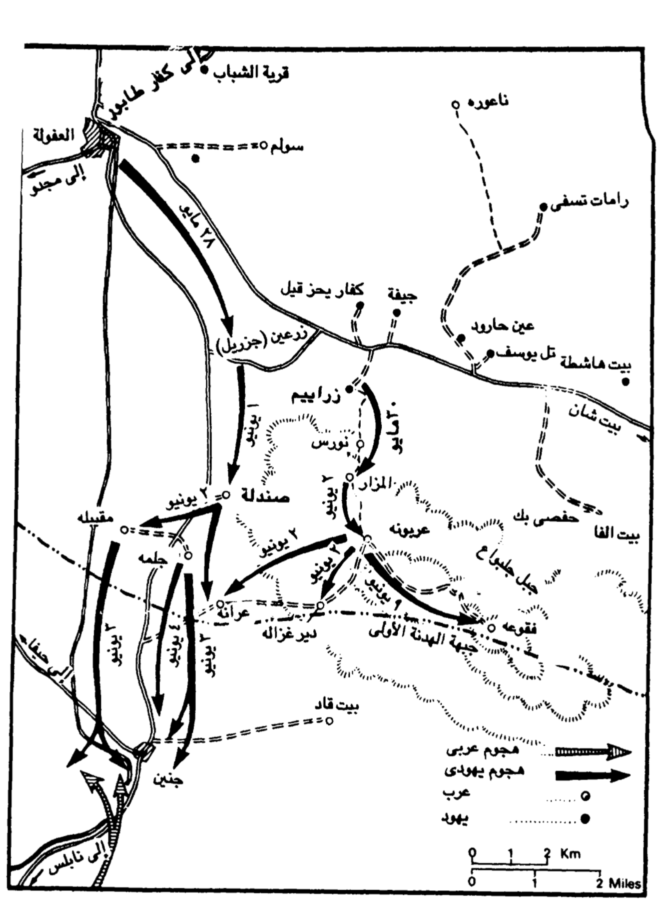
فى ذلك الوقت، كانت القوة العراقية بالجنوب، المؤلفة من لواء مشاة وكتيبة مدرعات، والتى عبرت الأردن بالقرب من «جيشر» فى ١٥ مايو، قد رُدت على أعقابها وانسحبت إلى شرق الأردن، وتحركت جنوباً نحو «داميا» وجسر اللنبى (الذى كان تحت سيطرة الفيلق العربى). ثم عبرت النهر إلى نابلس، حيث تمركزت انتظاراً للإمدادات التى وصلتها فى أواخر مايو، لتكتمل قوتها إلى لواءين من المشاة ولواء من مدرع. وفى ٢٥ مايو، انطلق العراقيون من جبال السامرا، مروراً ضم باتجاه البحر المتوسط، ليقسموا الدولة الإسرائيلية بذلك إلى قسمين. ونجحت القوة فى الاستيلاء على مستوطنة «جيئوليم»، وفى ٨ مايو وصلت طلائع مدرعاتهم إلى «كفاريونا» و «عين فيرد» فى طريقها إلى طريق طولكرم – نتانيا، كما أصبحت «كفار يعبتس» عرضة للهجوم. ولم تكن القوات العراقية تبعد أكثر من ستة أميال من نتانيا عندما التقت بوحدات «الكسندرونى»، الذى استعاد «جيئوليم».

لمواجهة هذا التهديد الذى استهدف «خط الخصر» الإسرائيلى، قررت القيادة الإسرائيلية القيام بعملية لتهديد مثلث نابلس والجناح الشمالى للقوات العراقية. وكانت الخطة تتضمن شن هجوم منسق بكتيبتين من لواء «جولانى» ومثلها من «كرملى»، على جنين (النقطة الشمالية فى المثلث)، فى الوقت الذى يقوم فيه لواء «الكسندرونى» بهجوم مضلل جهة الغرب عبر وادى

«عاره»، وبذلك تصبح طولكرم فى متناول القوات الإسرائيلية. وكان يقود الهجوم الشمالى الكولونيل «موشيه كرمل» ، قائد قوات الجبهة الشمالية، وقائد الهاجاناه الذى قاد قواتها عند الاستيلاء على حيفا فى إطار عملية «المقص». تلقى «كرمل» تدريبه وتمرس فى صفوف الهاجاناه، وعمل فى البداية كقائد للواء «كرملى» ثم تولى القيادة الشمالية. وبعد حرب الاستقلال، عمل بالسياسة وتولى لسنوات وزارة النقل فى عدد من الوزارات الائتلافية بقيادة حزب العمل. وبعد تعيينه قائداً للمنطقة الشمالية، خلفه فى قيادة لواء «كرملى» الكولونيل «مردخاى ماكليف». وعندما كان طفلاً فى التاسعة من عمره شهد ماكليف المذبحة التى نفذها العرب فى «موتسا» بتلال القدس عام ١٩٢٩، والتى قتلت أسرته بكاملها أثناءها، ولم يفلت من المذبحة سواه، عندما تمكن من القفز من إحدى النوافذ. عمل كضابط ضمن اللواء اليهودى بالجيش البريطانى، أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبعد حرب الاستقلال أصبح نائباً للجنرال «يادين» فى رئاسة الأركان ، ثم خلفه فى المنصب لمدة عام . واتجه بعد ذلك لاستغلال قدراته الإدارية المشهود له بها فى إقامة مشروعات البوتاس على البحر الميت، والتى تطورت لتصبح واحدة من صناعات إسرائيل التصديرية الرئيسية .

بدأ الهجوم الإسرائيلى ليلة ٣١ مايو – الأول من يونيو من طريق الجليل – السامرا، وهو الطريق التقليدى للغزاة على مر التاريخ . واستولت قوات «جولانى» على قرى جبال «جلبوع» إلى الشمال الشرقى من جنين، وكذلك «زرعين» . فى الوقت نفسه، قامت وحدات أخرى من اللواء باحتلال «مجدو» و «اللجون» ممهدة الطريق والمنطقة شمالى جنين وكان على قوات «كرملى» أن تعبر وسط خطوط «جولانى» من الشمال كى تحكم السيطرة على التلال المتحكمة فى مدينة جنين من الجنوب الغربى والجنوب الشرقى، حيث أن السيطرة على تلك التلال يضمن السيطرة على جنين . كانت المقاومة العراقية لهجوم «كرملى» شديدة للغاية تدعمها الطائرات، بينما كانت المدفعية الإسرائيلية من عيار ٦٥مم البدائية لايصل مداها إلى التجمعات العراقية التى كانت تعد لهجوم مضاد. وقد أضعفت النيران الكثيفة، وعدم قدرة الجنود على إقامة حفر للحماية الشخصية فى مواجهة الشظايا الصخرية، من فعالية الإسرائيليين المتحكمين فى المرتفع المطل على المدينة من جهة الغرب. لكن قوات «كرملى» ثابرت وتمكنت من احتلال المدينة فى الساعات الأولى من يوم ٢ يونيو .

فى ذلك الحين، تلقى العراقيون إمدادات، بدأ أثرها يظهر فى المعركة. كانت مرحلة حرجة، إذ لم يكن ممكنا أن يكتب النجاح مالم تقم قوات «الكسندرونى» بهجومها الخادع كما خطط



معارك الوصول إلى جنين، ٢٨ مايو- ٩ يونيو ١٩٤٨

له. لكن ذلك لم يحدث، وهو أمر لايغتفر. فقد كان من المقرر شق القوات العراقية بأى ثمن، لكن وحدات «الكسندروني» لم تقم بهجوم ناجح من الغرب، وأصبح موقف وحدة «كرملي» الغربية حرجاً، وارتفعت الخسائر مع تزايد الضغط العراقى واجتياح قواتهم لمواقع «كرملى» الأمامية. وكانت الحرارة الشديدة، وعدم إمكان توصيل المياه للمواقع الأمامية المكشوفة والواقعة فى مرمى المدفعية العراقية، وعدم فاعلية المدفعية الاسرائيلية، واشتراك الطيران العراقى والتحرك المنذر بالسوء لطابور عراقى جديد نحو أرض المعركة.. كان كل ذلك سبباً فى مضاعفة خطورة الموقف. وقد أوضح «كرمل» للقيادة بأن الصمود يمكن أن يستحق العناء فى حالة واحدة فقط، هى قيام لواء «الكسندروني» بجهد رئيسى فى الاستيلاء على طولكرم. وعليه، فقد سمح له بالانسحاب من مدينة جنين. وقد صحب ذلك خسائر كبيرة، لكن القوات الاسرائيلية استمرت فى سيطرتها على جميع المواقع شمال المدينة، بعد أن استعاد العراقيون جنين .

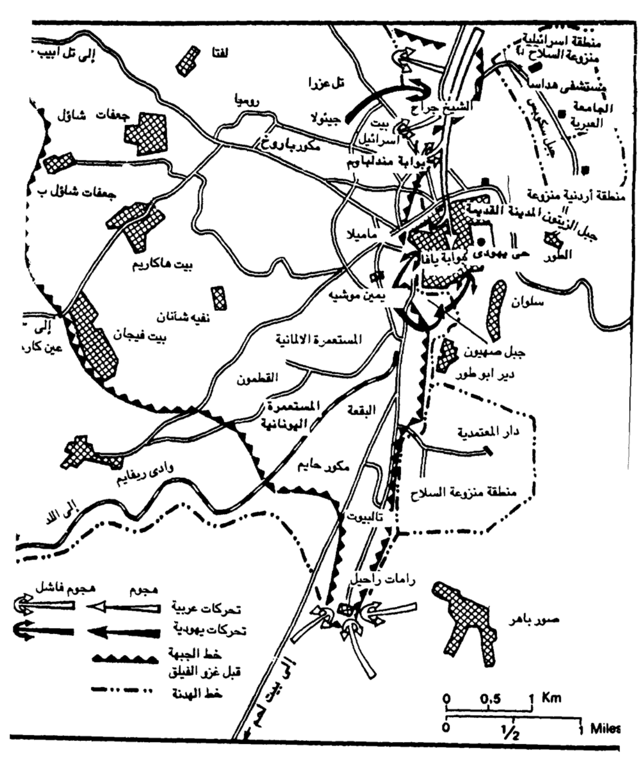
ضاعت فرصة كبيرة للفوز بموطئ قدم على سفوح السامرا، وربما لصد الجيش العراقى، وتوسيع «خط الخصر» الاسرائيلى على الساحل، بسبب فشل لواء «الكسندورنى» التام، والذى يبدو أن قيادته كان ينقصها القدرة على التخيل والإقدام. وكان هذا سبباً أساسياً لفشل القوات الإسرائيلية فى الاستيلاء على جنين، ومن ثم تهديد نابلس، والتصدى لأية محاولة من جانب المواقع العربية للتوغل على السهل الساحلى. ومع ذلك، فقد تمكن لواء «الكسندرونى»، فى ٤ يونيو، من الاستيلاء على قرية «قاقون» الكبيرة، إلى الشمال تماماً من طريق ناتانيا – طولكرم. وأحبطت محاولات عراقية متكررة للقيام بهجوم مضاد، وظلت القرية بأيدى الاسرائيليين .

معركة القدس

مع إعلان الغزو العربى لفلسطين، فى ١٥ مايو، افترض «القاوقجى» أن مهمته فى اللطرون قد اكتملت بغلق الطريق إلى القدس. وانسحب من مواقعه بغرض إعادة تنظيم قواته دون تنسيق مع الفيلق العربى، الذى لم يكتشف قائده - جلوب - ماحدث إلا بعد ذلك بأيام، فى ١٨ مايو، عندما دخلت الكتيبة السابعة من الفيلق إلى اللطرون. وهكذا ضاعت على القيادة الاسرائيلية فرصة لاتقدر بثمن. فقد ظلت هذه النقطة المحورية والحيوية فى الدفاع عن القدس بعيدة عن يد العرب ليومين أو ثلاثة، ولم تستغل الهاجاناه الموقف لتستولى عليها. لقد كان انعدام خبرة القادة الكبار، ونقص التنظيم على المستوى الإقليمى، والغياب شبه الكامل لمخابرات ميدان فعالة (ناهيك عن المخابرات على مستوى القيادة)، سبباً لأخطاء راح ضحيتها أرواح كثيرة فى الحرب .

ومع دخول الفيلق العربى إلى فلسطين، أصبحت المستوطنات اليهودية المعزولة بشمال القدس (عطروت والنبى يعقوب) مهجورة. ونفس الشىء بالنسبة لكيبوتز «بيت هعرفاه» ومشروعات البوتاس فى أقصى شمال البحر الميت، والتى تم إجلاء سكانها إلى «سدوم» بأقصى جنوبه . أما مجموعة قرى «عتسيون»، جنوب القدس، فقد سقطت .

وأصبح الفيلق العربى يركز الآن على إخضاع مدينة القدس. فمن فوق مرتفعات شمال المدينة، بما فيها التلة الفرنسية، ظلت مدفعية الفيلق تقصف المدينة المقدسة قصفاً متواصلاً. وكانت قوات «إرجون» قد طُردت من «الشيخ جراح». وفى المدينة القديمة، تمكنت القوات الأردنية من عزل الحى اليهودى. وقام العرب، فى الوقت نفسه، بهجوم كبير على المدينة اليهودية عند المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم «بوابة مندلباوم». وتواقت مع ذلك هجوم من «بوابة دمشق» عند سور المدينة القديم، باتجاه دير «نوتردام» . وتقدم الفوج الثالث من الفيلق العربى، مع عربات مصفحة، صوب حى «المصرارة» على الطريق الممتد من بوابة دمشق إلى دير نوتردام، مروراً بسور المدينة القديمة، والدير الذى قصفوه بالمدافع المضادة للدبابات. وفى أثناء القتال الشرس الذى أعقب ذلك، فى محاولة للاستيلاء على النوتردام ظهر ٢٣ مايو فقد الفيلق نصف رجاله المائتين بين قتيل ومصاب إصابات بالغة. وفقدت سرية القيادة جميع ضباطها وضباط الصف، باستثناء واحد فقط. لقد قاتل المدافعون اليهود، المسلحون بالكوكتيل مولوتوف وقذائف «بيات» المضادة للدبابات، باستماتة. وعندما وصلت طلائع عرباتهم المصفحة



المعارك فى القدس حتى الهدنة الأولى

بمحاذاة الدير المواجه للبوابة الجديدة بسور المدينة القديمة، انفجر سور الدير وانهار فوقها، لتنهال عليها قذائف المولوتوف. وقد غطى الحطام الطريق فيما بين الدير وسور المدينة القديمة بالكامل، فأغلقه، مما أعاق تقدم الفيلق العربى. وأثبتت الهياكل المحترقة للعربات المدرعة وحطامها فاعليتها كعوائق جيدة فى الشوارع الضيقة. وفى الخامسة من مساء ٢٤مايو، أمر «جلوب» بوقف الهجوم. لقد تكبد الفوج الثالث خسائر فادحة ورأى «جلوب» الذى كان احتياطيه قليلاً أو معدوماً، فى ظل الضغط الاسرائيلى على اللطرون وتهديد السامرا، أن من غير الحكمة التورط فى شكل من الحروب أكثر تعقيداً، ألا وهو قتال الشوارع. قرر جلوب تقليل خسائره ووقف أى مزيد من الضغط على القدس الغربية. وهكذا كان على الفيلق العربى أن يتوقف على بعد ياردات قليلة من قلب المدينة اليهودية بالقدس. وأُنقذت المدينة اليهودية بفضل الصمود العنيد لمدافعى نوتردام .

إلى الجنوب، توجه الفيلق العربى ليلتحق بقوات الإخوان المسلمين التى تقدمت عبر الخليل وبيت لحم قاصدة الضواحى الجنوبية من القدس، ضمن القوات الشرقية لجيش الغزو المصرى. وفى ٢١ مايو، جاء الهجوم الأول على كيبوتز «رامات راحيل» بالضواحى الجنوبية للقدس، وعلى مدى الأيام التالية تسقط القرية لثلاث مرات بأيدى القوات العربية وتستردها وحدات «عتسيونى» و «إرجون» و «بلماح» بعد معارك دموية رهيبة .

أصبح الهجوم الرئيسى للفيلق العربى موجهاً الآن ضد الحى اليهودى بالمدينة القديمة . وكان تمركز القوات بالجزء الجنوبى الشرقى من المدينة القديمة، يحدها شرقاً جبل المعبد والمسجد الأقصى ومسجد عمر (قبة الصخرة)، ومن الغرب الحى الأرمنى، ومن الشمال الحى الإسلامى. كما كان يحدها جنوباً سور المدينة القديمة فيما بين بوابة صهيون* وبوابة دانج **. وكان يجرى إمداد المدينة منذ مارس بالقوافل التى تحميها القوات البريطانية. فقد أعلن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة المدينة القديمة منطقة مفتوحة ومنزوعة السلاح . لكن العرب رفضوا القرار عند انسحاب القوات البريطانية، وطردوا الوحدات اليهودية المدافعة عن منطقة جبل صهيون .

وبعد دخول طلائع قوات الفيلق العربى إلى المدينة القديمة ، غيرت قيادة الهاجاناه من مهمة القوة المكلفة بالقيام بالهجوم المضاد على «الشيخ جراح»، وأصدرت إليها الأوامر بالهجوم على

---

* هى التى تعرف فى المصادر العربية باسم « باب النبى داوود » (المترجم)

** لم استدل على مقابلها العربى (المترجم) .

بوابة يافا * وذلك بهدف اختراق المدينة القديمة. وقد صدرت الأوامر إلى إحدى سرايا الكتيبة الرابعة من لواء «هارئيل»/ بلماح، بقيادة الكولونيل «عوزى نركيس»، للقيام بهجوم مضلل على جبل صهيون. (بعد ذلك بتسعة عشر عاماً، وفى أثناء حرب الأيام الستة لعام ١٩٦٧، سيتولى الجنرال «نركيس» القيادة الوسطى، التى اقتحمت قواتها المدينة القديمة بالقدس لتستولى عليها بعد مقاومة عنيفة من جانب الفيلق العربى). وكما حدث فى مناسبات عديدة، تأخر الهجوم على «بوابة يافا»، وكان الوقت الذى أُعطى للاستعدادات كافياً لتحذير القوات العربية. كما كان التنسيق بين الهجوم الرئيسى على «بوابة يافا» وبين الهجوم المخادع لقوات «هارئيل» المتمركزة فى «يمين موشيه»، ضعيفاً أو منعدما . فتكبد الهجوم الجبهوى على «بوابة يافا » خسائر فادحة ورُدَّ على أعقابه. لكن الهجوم على «بوابة يافا» نجح، على الأقل، فى صرف أنظار العرب عن قوة البلماح التى كانت تتسلق خلسة المنحدرات العالية لجبل صهيون ليلة ١٨/ ١٩ مايو. فقد فاجأت السرية المهاجمة، بقيادة «دافيد اليعازر»، العرب واستولت على جبل صهيون، ووصلت إلى «بوابة صهيون» فى الصباح الباكر، واجتازتها لتلتحم بالمدافعين عن الحى اليهودى. وكان من الضرورى إخلاء قوة البلماح المنهكة، والتى ظلت تقاتل بلا هوادة فى المرتفعات القائمة إلى غرب المدينة، فانسحبت إلى قاعدتها بخارج المدينة، وحل محلها قوة من لواء «عتسيونى» تقدر بثمانين رجلا . لكن القوة الجديدة لم تكن جيدة التدريب، وغير مؤهلة للقتال الشرس الذى كان يدور فى أزقة المدينة القديمة الضيقة. وفى اليوم التالى، دخلت إلى المدينة القديمة إحدى كتائب الفيلق لدعم الهجوم المضاد، وأمكن استعادة المنطقة التى كان البلماح قد استولى عليها عند بوابة صهيون. وأصبح الحى اليهودى محاصراً مرة أخرى .

قدم الجنرال «دافيد اليعازر» المعروف باسم «داود»، والذى قاد اقتحام البلماح الناجح لبوابة صهيون، إلى اسرائيل من يوغوسلافيا، أثناء الحرب العالمية الثانية، وهو طفل. وكان أبوه ضمن قوات الأنصار بقيادة «تيتو»، برتبة الميجور. تدرج «اليعازر» فى الترقى فى صفوف جيش الدفاع الاسرائيلى، وقاد عمليات القيادة الاسرائيلية الشمالية ضد القوات السورية فى مرتفعات الجولان خلال حرب الأيام الستة، ثم أصبح فى النهاية رئيساً لأركان جيش الدفاع الإسرائيلى. فى ١٩٧٣، قاد قوات الدفاع الإسرائيلية فى حرب يوم كيبور، وأثبت قدراته كقائد صلب، هادئ الأعصاب، مؤكداً كفاءته الفذة كجنرال . على أن ماعرف باسم «لجنة اجرانات» ص ٢٣٦ التى تشكلت بعد الحرب، أدانته، فقدم استقالته. ولم يلبث أن توفى بعد ذلك فى الثامنة والأربعين من عمره، إثر نوبة قلبية .

---

* هى « باب الخليل » فى المصادر العربية (المترجم) .

قاتل المدنيون، البالغ عددهم ١٥٠٠ فرد، مع قوات الهاجاناه وإرجون البالغ عددها ٣٠٠ مقاتل، قتالاً مستميتاً فى الأزقة الضيقة للمدينة القديمة. ووقع القتال المتلاحم من منزل لمنزل، ومن غرفة لغرفة وتكررت الهجمات من جانب القوات الموجودة بجبل صهيون بهدف اقتحام المدينة ، لكنها – شأنها شأن بعض تلك الهجمات التى وقعت بعد ذلك بأيام عند بوابة صهيون والبوابة الجديدة فى الشمال – انتهت بالفشل . ونفدت الذخائر، وبدأت المواقع تخلى الوحدة بعد الآخر، وتضاءلت المساحة التى تدافع عنها القوات اليهودية، حتى وصلت إلى ٢٠٠ ياردة مربعة حول معبد «نيسان بك » ومستشفى «مسجاف لاداخ»، التى اكتظت عنابرها بالجرحى. وبحلول ٢٨ مايو، لم يكن هناك سوى ٣٠٠ شريط ذخيرة، و٢٦ رجلاً، فاستجابت قيادة الحى لضغوط ومناشدة الحاخامات، وسمحت بالتفاوض مع الفيلق من أجل التسليم. وعندما تم التسليم ، لم يصدق ضباط الفيلق العربى ماراأوا ، واندهشوا : كيف استطاعت حفنة قليلة من الرجال أن تكبدهم كل تلك الخسائر؟! وقد أُخذ عدد من المقاتلين كأسرى حرب. وبعد ذلك، بدأ ١١٩٠ من المدنيين، يتقدمهم الحاخامات من كبار السن، حاملين أوراقهم وكتبهم، هبوطهم الشاق لمنحدرات جبل صهيون.. مسيرة طويلة حزينة: عجائز ونساء وأطفال وجرحى يسيرون، ونقالات يحملها جنود الفيلق العربى. وانطلق الغوغاء من العرب ينهبون ويحرقون الحى اليهودى، مدمرين فى طريقهم مايقرب من ٥٨ معبداً اليهودياً. وكان للأماكن اليهودية المقدسة بالمدينة القديمة أن تبقى مغلقه فى وجه السكان اليهود التسعة عشر عاماً، إلى أن استعيدت المدينة فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، حيث فتحت الأماكن المقدسة للديانات الثلاث أمام الجميع .

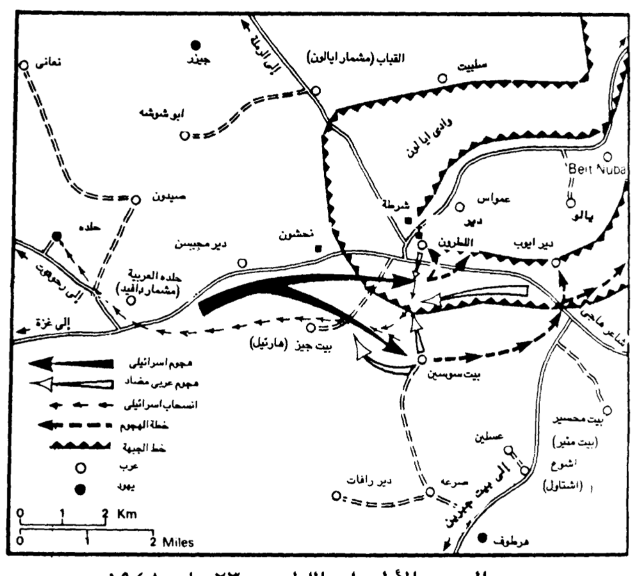
كان الاستيلاء على الحى اليهودى بالمدينة القديمة هو النجاح الوحيد الواضح للفيلق العربى. وكانت الخطوط اليهودية قد ترسخت. ولإدراكه لحجم الخسائر التى يمكن أن تنجم عن توريط قواته فى قتال متلاحم من بيت لبيت، قرر «جلوب» أن يركز على تجويع المدينة اليهودية حتى الاستسلام، وذلك بإحكام قبضته على طريق القدس، وخاصة عند منطقة «اللطرون». وقد تضاءل إمداد المدينة بالكهرباء إلى ساعات قليلة من النهار، كما أغلق العرب محطات رفع المياه اعتباراً من ١٢ مايو. وانقطعت الأنباء لتوقف البث الإذاعى. وانتشر الجوع والعطش، وسادت الليل ظلمة حالكة. واستمر القصف المدفعى للمدينة طوال الأربع والعشرين ساعة. وخلت المحلات من الأغذية. وكان جميع السكان يعيشون وينامون فى العنابر والمخابئ، ولم يكن ممكناً القيام بأية إجراءات صحية بسبب نقص المياه. ومع نفاد المؤن، أصبح واضحاً أمام الجميع أن القدرة على الاحتمال صارت هى الأخرى عرضة للانهيار، مالم يرتفع الحصار.

عكست روح اليأس التى كانت تحفز المدافعين عن القدس نفسها على قرارات قيادة الأركان

الاسرائيلية . وخلال الأسبوع الذى سبق قيام الدولة، تشكَّل لواء جديد: اللواء السابع، بقيادة الكولونيل «شلومو شمير»، ابن الهاجاناه. عمل «شمير» كضابط مشاة فى صفوف «مجموعة اللواء اليهودى» مع الجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية. (عمل المؤلف كضابط عمليات ونائب له خلال مايو ويونيو ١٩٤٨.) كان اللواء السابع متمركزاً حول كتيبة مدرعات مزودة بعربات نصف جنزير. دخلت البلاد لتوها، وعدد من العربات المدرعة تم الاستيلاء عليها أثناء القتال مع العدو. وكان يقود هذه الكتيبة المدرعة الكولونيل «حاييم لاسكوف». وهو أيضاً من رجال الهاجاناه، وخدم كضابط مشاه بمجموعة اللواء اليهودى بالجيش البريطانى، وهو الذى وضع نظام التدريب لقوات الهاجاناه والجيش الجديد.. وهو طويل، قوى البنية، نادراً مايفارق الغليون فمه، وشديد الولاء للتقاليد العسكرية البريطانية والتى سعى إلى نشرها قدر استطاعته. أشرف على إنشاء أول مدرسة للضباط بجيش الدفاع الاسرائيلى، واختار فى النهاية أن يصبح ضابط نظامياً يهب حياته بالكامل للحياة العسكرية. خلف «موشى دايان» كرئيس لأركان حرب القوات المسلحة ١٩٥٨ .

وتشكلت كتيبة أخرى من عناصر من عدة ألوية مختلفة، بينما وضعت كتيبة أخرى تحت قيادة أحد أجنحة المؤسسة التعليمية، وكان أعضاؤها من المهاجرين الجدد الذين وصلوا بالقوارب من معسكرات بقبرص، التى كانوا قد استقروا بها بعد فشل محاولتهم فى دخول فلسطين بطريقة غير شرعية قبل انتهاء الانتداب. كان تدريب هذه القوات محدوداً، أو منعدم: الحقيقة أنها كانت، فى كثير من الحالات، تتلقى تدريبا أولياً على السلاح قبل الإلقاء بها فى حمأة القتال بيوم أو يومين لاغير. فاللواء لم يمنح الفرصة للتنظيم أو التدريب السليم، وأُرسل إلى القتال بعد أسبوع واحد من تشكيله. وكان التسليح عند حده الأدنى. وكان هناك عجز كبير فى واحدة من أهم المقومات الحيوية : زمزميات المياه. وكان غياب تلك الزمزميات وسط رياح «الخماسين» اللافحة، التى تغشى ميدان المعركة، أمر مأساوياً .

وبرغم عدم تنظيمه وفقره فى التسليح، فقد أوكل إلى اللواء السابع المجهود الرئيسى فى فتح الطريق إلى القدس، وتوصيل قافلة الإمداد إلى المدينة المحاصرة. وكان الخطوة التالية، بعد الاستيلاء على اللطرون، هى التقدم نحو الجبال الممتدة بطول الطريق إلى رام الله، فقد كان مقدراً أن يؤدى هذا إلى تخفيف الضغط على شمال القدس . وقد استدعى الأمر التنسيق مع عمليات لواء «هارئيل» فى ممر القدس، المنطلق من «كريات عنافيم» و «باب الواد»، باتجاه الشمال نحو الرملة، ومع لواء «عتسيونى» فى القدس نفسها. وإدراكاً من القيادة العامة



الهجوم الأول على اللطرون، ٢٣ مايو ١٩٤٨

للضعف الشديد الذى كان عليه اللواء الجديد، فقد قررت إلحاق إحدى كتائب «الكسندرونى» عليه. وبحلول ٢٣ مايو، كان اللواء قد تمركز بمنطقة «ناعان» و «حلده»، بينما وقفت قافلة إمدادات كبيرة على أهبة الاستعداد عند «عقرون» للتحرك نحو القدس. لكنه، وبناء على طلب من قيادة اللواء، تأجل الهجوم لأربع وعشرون ساعة، أمكن للفيلق أثناءها تعزيز لوائه الرابع، بقيادة الليفتنانت كولونيل «حابس المجالى» (الذى أصبح فيما تلا من أعوام قائداً للفيلق). وأصبح الفيلق العربى الآن مسئولاً عن الدفاع عن اللطرون، ودفع بالكتيبة الثانية إلى منطقة «دير أيوب» و «يالو» .

كانت الخطة الإسرائيلية تهدف إلى قيام كتيبة «الكسندرونى» بالاستيلاء على مركز الشرطة وقرية اللطرون، التى كانت تقع خلف نتوء تتوّجه أطلال قلعة يعود تاريخها إلى عهد الصليبيين. وكان على كتيبة من اللواء السابع أن تتولى تغطية ميمنتها لتأمين طريق القدس. لكن، وكما حدث فى مناسبات كثيرة أثناء حرب الاستقلال، وبالنتائج المأساوية، جاء التوقيت خاطئاً. فقد تأخر لواء «الكسندرونى» المنوط به المجهود الرئيسى فى الهجوم، ولم يتحرك عند منتصف الليل- كما كان مقرراً - مستغلاً غطاء الظلام . ولم تصل الكتيبة إلى موقع الانطلاق إلا فى الرابعة من صباح الثالث والعشرين مع الشعاع الأول للفجر. وبمرور الوقت وصلت وحدات الهجوم إلى طريق اللطرون - القدس ، على مرأى من القوات المدافعة من الفيلق المتمركزة فوق الطريق عند منطقة اللطرون . ووقع الإسرائيليون فى مرمى النيران المهلكة، ولم تعد هناك أية إمكانية للهجوم. وبدأ انسحاب مأساوى، راح ضحيته المئات، فى أكبر خسارة من نوعها. وفى الوقت نفسه، أصبحت كتيبة اللواء السابع، على ميمنة كتيبة «الكسندرونى»، هدفاً للنيران الجانبية للفيلق العربى والمتطوعين العرب غير النظاميين الذين احتلوا قرى «بيت جيز» و «بيت سوسين»، عند مؤخرة القوات المهاجمة، والتى كان يعتقد أنها خالية . كان القيظ مستعراً، ولاإمكانية هنالك لتزويد القوات التى تحمل زمزميات بالماء، وهو أمر شديد الوطء على المهاجرين الذين لم يتأقلموا بعد مع الطقس والأوضاع الجديدة . وبينما كانت الوحدات تحاول تخليص نفسها، ظلت مدفعية الفيلق تقصف المنطقة بلا هوادة. وقد شهدت المعركة العديد من مواقف البطولة والتضحية. وتكاثف الانقضاض على المؤخرة والأجانب. ولم يكن ممكناً تخليص ماتبقى من القوة إلا بصعوبة بالغة، وكافحت الوحدات المفتتة، بجنودها المبعثرين والفوضى الضاربة أطنابها فى أوصالها، من أجل العودة إلى المرتفع الذى كان بمثابة قاعدة حصينة لإحدى سرايا كتيبة «الكسندرونى». كانت معركة اللطرون الأولى، التى خاضتها القوات

الاسرائيلية، بما كانت عليه من نقص في الإعداد والتدريب والتنسيق، هزيمة خطيرة لها على يد الفيلق العربى. ولو أن اللواء السابع قد أتيح له أسبوع آخر من التنظيم والتدريب، لربما اختلف الأمر .

كان النصر الذى حققه الفيلق العربى حافزاً له على مهاجمة النقطة الحصينة الرئيسية للهاجاناه شمال طريق القدس، فى ٢٦ مايو، وطرد حامية «عتسيونى» والاستيلاء على «تل الرادار» (عرف بهذ الاسم لأن القوات البريطانية أقامت عليه محطة رادار أثناء الحرب العالمية الثانية) بمنطقة «بدّو». وقد حقق ذلك للفيلق موقع مراقبة نموذجى يشرف على الطريق الرئيسى للقدس، الذى سيصبح من الآن فصاعداً موصداً بفعل نيران المدفعية .

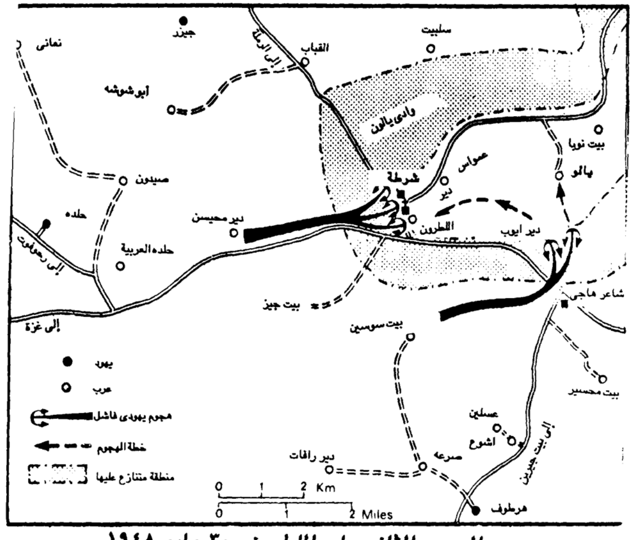
وبرغم خطورة الموقف على كافة الجبهات، قرر «بن جوريون» إعطاء الأولوية لجبهة اللطرون، وبعد أسبوع، صدرت الأوامر إلى اللواء السابع بالهجوم مرة أخرى . وفى الوقت نفسه، قامت بعض القطعات باحتلال «بيت جيز» و «باحتلال بيت سوسين» لتأمين الأجناب. وسحبت كتيبة «الكسندرونى» وحلت محلها كتيبة من لواء «جعفاتى». كانت الخطة الجديدة تتضمن أن تتخذ كتيبة «جعفاتى» من «بيت سوسين» قاعدة ثابتة لها ، تتحرك منها على طريق القدس وتستولى على «دير أيوب» ثم «يالو»، حتى يمكن قطع طريق اللطرون - رام الله، طريق الإمدادات الرئيسى لمواقع الفيلق العربى باللطرون. وكان على كتيبة «لاسكوف» المدرعة تتبعها كتيبة مشاة، أن تستولى، فى الوقت نفسه، على مركز البوليس وتقوم بتحييد «دير اللاترابيين» أسفل قرية اللطرون، عند سفح التل الواقع على طريق القدس. وكان من المقرر أن تساند الهجوم الإسرائيلى أربعة مدافع عيار ٦٥مم وعدد من الهاونات عيار ١٢٠ مم، وصلت البلاد لتوها.

سقطت «دير أيوب» أمام هجوم «جعفاتى» دون مقاومة . ولكن عندما تحركت القوة نحو «يالو»، وقعت فى مرمى نيران الأجناب، مما أسفر عن إصابة عدد من جنود فصيلة المقدمة. وأعقب ذلك هلع مفاجئ، وبدون استئذان، انسحبت كتيبة «جعفاتى» على حال من الفوضى، تاركة، كذلك، «دير أيوب». لم يعلم «لاسكوف» بفشل عملية جناحه الشرقى، وحاربت مدرعاته ببسالة، ووصلت حتى ضواحى قرية اللطرون، ودخلت ساحة مركز الشرطة. لكنّ المشاة عديمى التدريب والخبرة فشلوا فى المتابعة تحت النيران المهلكة لمدفعية الفيلق، وواصلت المدرعات هجومها بإصرار وسط النيران المباشرة للمواقع الدفاعية فوق سطح قلعة الشرطة. وقد استخدم فى الهجوم قاذفات اللهب، لكن وحدة المهندسين المكلفة بنسف حائط القلعة أصيبت وأصبحت عاجزة عن أداء مهمتها بسبب النيران التى انطلقت من موقع قريب من «عمواس»

(مسرح واحدة من أعظم المعارك التى خاضها المكابيون * منذ الفي عام مضت). ورأت قوة «لاسكوف»، المهاجمة دون دعم من المشاة أو الاستفادة من الهجوم المضلل الكبير على «يالو»، النصر وهو ينتزع من قبضتها فى اللحظة الأخيرة، واضطرت للانسحاب. وقد اتضح فيما بعد أن التحرك باتجاه «يالو» قد نبه الفيلق العربى، الذى كان قد ألقى حتى بالكتبة والطباخين فى أتون المعركة. وصدرت الأوامر سريعاً بالإعداد لانسحاب عربى من المنطقة لتفادى عزلهم عند «يالو». لكن اللطرون ظلت بيد العرب، وظلت القيادة الاسرائيلية على اهتمامها بأهمية المنطقة من الوجهة الاستراتيجية. ولذا، صدرت الأوامر بشن هجوم ثان بقيادة الكولونيل «دافيد ماركوس» (ويعرف كذلك باسمه الحركى «ميكى ستون»، تفادياً للتعقيدات فى الولايات المتحدة)، وهو ضابط أمريكى متقاعد من خريجى «وست بوينت»، حضر لمساعدة الجيش الاسرائيلى الجديد. كان شجاعاً ونشيطاً ومرحاً، وخبرته الميدانية قليلة، بسبب تدرجه فى مناصب قيادة الأركان فى معظم الأحيان. وتكمن فعاليته القيادية فى قدرته على التكيف مع جيش غير نظامى على غرار جيش الأنصار، كذلك الجيش الذى كان يجرى انشائه من قوات سرية وسط النيران. شارك بهمة فى عدد العمليات، مما أكسبه احترام القادة الاسرائيليين الذين كانوا ينظرون إلى الأجانب بقدر كبير من الشك. وقد حضر «ماركوس» إلى اللواء السابع مزوداً بتعليمات من «بن جوريون»، بأن يتولى – بعد أن تحقق قدر من التنسيق– مسئولية جبهة القدس بأكملها، وأن تكون الألوية «السابع» و «هارئيل» و «عتسيونى» تحت قيادته. وتضمن تقريره عن هجوم اللطرون الثانى، الذى رفعه إلى الجنرال «يادين» رئيس العمليات «الخطة جيدة، والمدفعية جيدة، المدرعات (كتيبة لاسكوف) ممتازة، المشاة سىء». على أنه بعد ذلك بأسبوعين، ومع بدء الهدنه الأولى، تحرك «ماركوس» نحو القدس لملاقاة التشكيلات التى سيتولى قيادتها، وقضى الليل مع قوة البلماح فى أبى غوش، وفى الظلام تدثر فى عباءة وغادر حدود المعسكر. وعند عودته تعثر فى حديثه بالعبرية مع الحارس، فاستخدم بالانجليزية ووثب من فوق الحائط الصخرى، فأطلق الحارس عليه طلقة واحدة من بندقية «ستن»، استقرت فى قلبه . وماتت بموته القدرات الفطرية والحماسة ومقومات القيادة التى كان يمكن أن تجعل من «ماركوس» واحداً من أهم قادة القوات الاسرائيلية. وقد رافق جثمانه اثنان من الضابط الاسرائيليين (أحدهما موشى ديان) إلى الولايات المتحدة، حيث دفن فى «وست بوينت» .

---

* أسرة معروفة فى تاريخ العبرانيين ، قامت بثورة ناجحة على السوريين (١٧٥ – ١٦٤ ق . م) وحكمت فلسطين حتى عام ٣٧ ق . م. راجع قاموس Webster New World مادة : maccabee (المترجم)



الهجوم الثانى على اللطرون، ٣٠ مايو ١٩٤٨

بعد الاستيلاء على «بيت سوسين»، تحركت داوريات من اللواء السابع للاستطلاع باتجاه تلال القدس، والتقت بداوريات من لواء «هارئيل» فى طريقها إلى الساحل. لم يكن هناك سوى شريط جبلى يفصل بين المناطق التى يسيطر عليها اللواءين، ولهذا أوصى اللواء السابع بإقامة «طريق بورما» للربط بينهما. (قام مؤلف الكتاب بإعادة الخطة إلى تل أبيب، بعد تشاور القادة: دافيد ماركوس وشلومو شمير ومهندس اللواء، والمؤلف، لاستطلاع رأى بن جوريون وتحديد الطريق الواجب اتباعه.) كما قدم اقتراح مشابه من «عاموس حوريف»، ضابط عمليات البلماح. وهو رجل نحيل البنية، ذو عزم، يتناقض مظهره الشاب مع سنه وخبرته. أصبح فيما بعد جنرالاً، ومسئولاً عن التسليح، ثم رئيساً للإمداد بجيش الدفاع الإسرائيلى. تولى رئاسة « التخنيون » معهد حيفا للتكنولوجيا .

أصدر «دافيد بن جوريون» تعليمات فورية بتجميع أكبر عدد ممكن من الجرارات ومعدات تقليب الأرض لشق الطريق المقترح. وعبرت الوحدات المنعزلة والأفراد المنطقة التى تفصل نطاقات اللواءين. وسرعان ما انتقلت المنطقة غير الصالحة للتنقل إلى شرقى «بيت سوسين»، حيث يوجد مرتفع صخرى شديد الانحدار وبارتفاع ٤٠٠ قدم. وعلى الفور، بدأ دفع قوافل كبيرة من الدواب حاملة الدقيق واللحوم والمواد الأخرى تحت غطاء الظلام إلى بيت سوسين، وهناك يقوم الحمالون بتحميلها على البغال للتوجه نحو طريق «هارطوف» . فى الوقت نفسه، كان المئات من المهندسين وعمال رصف الطرق وجميع البلدوزرات المتاحة تتجمع فى المنطقة. كانت السرعة مسألة جوهرية، فقد تحدد يوم ١١ يونيه موعداً لما سمى بالهدنة الأولى التى توصلت إليها الأمم المتحدة. وسوف يفرض ذلك تثبيتاً كاملاً للوضع القائم ، الأمر الذى يعنى عدم السماح بإدخال أية مؤن إلى القدس عبر الطرق التى سبق إغلاقها (مثل طريق اللطرون) إلاتحت إشراف الأمم المتحدة والعرب. ومن هنا كان من الضرورى أن يمتلك الإسرائيليون طريقاً مفتوحاً وصالحاً للاستخدام قبل سريان الهدنة. وهكذا، جاء أول استخدام لطريق بورما – بصعوبة بالغة والاضطرار، أكثر من مرة، لدفع عربات الجيب واللوريات بالأيدى فوق الصخور – فى ١٠ يونيه بواسطة قافلة انطلقت رأساً من تل أبيب إلى القدس، وفوق عرباتها عدد من المراسلين الأمريكيين .

قبل الهدنة مباشرة، تمت محاولة أخرى للاستيلاء على اللطرون، عندما تحرك لواء «يفتاح/ بلماح» من الجليل إلى ممر القدس. بدأت العملية فى ٩ يونيو، بعد أن تأجلت لعدة مرات، بالتنسيق الهجومى مع إحدى كتائب «هارئيل» بالمرتفعات المطلة على اللطرون من جهة الشرق.

وقد وقعت سلسلة من الأخطاء، إذ احتل لواء «هارئيل» موقعاً خاطئاً، وعندما تحرك لواء «يفتاح» نحو ماظنه موقعاً صديقاً، وقع تحت النيران المركزة للفيلق العربى . واستحال الهجوم إلى حالة من الفوضى. وفشل الهجوم الرابع على اللطرون. وفى ١٠يونيو قام الفيلق بهجوم مضاد واستولى على مستوطنة «جيزر»، وأصبح يهدد «حلدة»، قاعدة العمليات الإسرائيلية الرئيسية بالمنطقة. وقد نهبت القرية ودمرت، لكن قوات «يفتاح» تمكنت من استعادتها مساء اليوم نفسه . وفى العاشرة من صباح ١١يونيو بدأت الأمم المتحدة فى تطبيق وقف إطلاق النار.

لقد فشل الفيلق العربى فى الاستيلاء على القدس اليهودية، وفشل الإسرائيليون فى فك الحصار المضروب حول اللطرون، ولكن فى الدقيقة الأخيرة، وبمزيج من الارتجال والإبداع، نجحت القوات الإسرائيلية المواجهة للطرون فى شق طريق مكن من رفع الحصار عن القدس، وفتح الطريق أمام المؤن والإمدادات القادمة من السهل الساحلى إلى القدس اليهودية .

الجبهة الجنوبية

سلك الغزو المصرى طريقين تقليديين سبق لقوات الغزو القادمة من مصر إلى فلسطين أن عبرتها لأكثر من أربعين مرة عبر التاريخ: طريق سيناء الشمالية بطول الساحل فى اتجاه غزه، والطريق الشرقى المتجه إلى بئر السبع . وكانت قوات الإخوان المسلمين المصرية غير النظامية، بقيادة ضابط الفرسان النظامى الليفتنانت كولونيل «أحمد عبد العزيز» تعمل بالفعل جنوب فلسطين من قبل أن ينتهى الانتداب. وكان الملك «فاروق» قد توصل إلى استنتاج مؤداه أن القيام بمغامرة عسكرية كبيرة، فى ظل ماتخيله فرصة لصالحه لصرف الرأى العام عن المشكلات الداخلية للبلاد (التى أصبحت أكثر تعقيداً)، يمكن أن تسهم فى تدعيم مركزه. وأنه، بمساهمته بقوة كبيرة، يمكنه أن يفشل نوايا الملك عبد الله فى استغلال الموقف وإحكام سيطرته على فلسطين. وكان يؤيد الملك فى موقفه هذا رئيس وزارته، «النقراشى باشا»، الذى فضل أن يتجاهل المشكلات الناجمة عن الغزو، وسوء حال الجيش المصرى الذى يقوده الفريق «محمد حيدر» .

كانت قوة الغزو المصرى نفسها تحت قيادة اللواء «أحمد على المواوى»، وتتألف من خمس

كتائب مشاة، وقوة من دبابات «كروسيدر» البريطانية الصنع ومدفعية، مع قوة جوية تضم ثلاثة أسراب مقاتلة وسرب قاذفات تدعمها عدد من طائرات الاستطلاع * . أما القوات البرية، التى كان قوامها الفرقة الثالثة، فقد انقسمت إلى مجموعتى لواء: إحداها كبيرة، يبلغ تعدادها حوالى خمسة آلاف رجل، وسلكت الطريق الساحلى، والأخرى أصغر من سابقتها وتضم حوالى ٢٥٠٠ رجل، بالإضافة إلى وحدة الإخوان المسلمين، وتقدمت على الطريق باتجاه بئر السبع.

من بين المستوطنات اليهودية السبع والعشرين المتناثرة فى جنوب فلسطين وصحراء النقب ذلك الوقت، لم يكن هناك سوى خمس يزيد عدد المدافعين عنها على الثلاثين. وكان الدفاع عن المنطقة موكل إلى اثنين من الألوية الإسرائيلية. كان اللواء الجنوبى، أو لواء «النقب» بلماح يتكون من كتيبتين قوامها حوالى ٨٠٠ رجل (بعد بدء الغزو، تم تدعيم اللواء بقوة كوماندوز محمولة على عربات الجيب، صارت بعد ذلك نواة للكتيبة الثالثة للواء). وكان اللواء مسلحاً بالأسلحة الصغيرة والهاونات الخفيفة ومدفعين ٢٠مم وصلت لتوها إلى البلاد. وتولت إحدى الكتيبتين مسئولية المنطقة الواقعة جنوب طريق بئر السبع – غزة ، والأخرى المنطقة الواقعة شمالى الطريق. وكان الجميع مسلحين بالأسلحة الصغيرة وحدها. وكان اللواء تحت قيادة الكولونيل «ناحوم سريج»، الفلاح الصارم العنيد، وعضو الكيبوتز الذى تمرس فى صفوف البلماح . قاد «سريج» لواءه فى الصحراء خلال الأيام التى سبقت إعلان الدولة، فى ظل ظروف الحصار، بكفاءة واقتدار. (أثناء حرب يوم كيبور ١٩٧٣، فقد أحد أبنائه فى المعركة، بينما قاد ابنه الآخر أحد الألوية أثناء الهجوم المضاد على مرتفعات الجولان برغم إصابته، وهو الهجوم الذى وضع جيش الدفاع الإسرائيلى فى نطاق دمشق) .

أما اللواء الاسرائيلى الثانى فهو لواء «جعفاتى»، والذى كان يعتبر ضخماً، بالمقاييس الاسرائيلية، حيث تعدى مجموع رجاله ثلاثة آلاف. لم يكن تحت تصرف اللواء أية أسلحة ثقيلة، وكان يتولى الدفاع عن الجزء الجنوبى من البلاد، والواقع شمالى صحراء النقب مباشرة (بمعنى آخر، المنطقة الواقعة شمال الطريق من المجدل (اشكلون) إلى بيت جبرين). وكان يتولى قيادته واحداً من أعظم القادة اليهود أثراً خلال حرب الاستقلال، هو الكولونيل «شمعون

---

* كانت قوة مصر الجوية تضم ست طائرات مقاتلة وطائرة للاستكشاف والتصوير للخطين الأول والثانى وكذا خمس طائرات نقل داكوتا بالخط الثانى ، انظر : د. رفعت سيد أحمد ، وثائق حرب فلسطين (الملفات السرية للجنرالات العرب) القاهرة ١٩٨٩ ، ص ١٢٧ . (المترجم) .

افيدان» . وهو من مواليد المانيا، ورحل منها إلى كيبوتس «عين هاشوفيط» بفلسطين. التحق باللواء الدولى أثناء الحرب الأهلية الأسبانية. نحيل أشقر الشعر، ذو عزم وتصميم، يحمل شارباً يشبه فرشاة الأسنان، وكان قائداً بالفطرة . وبعد الحرب، التى أثبت فيها قدراته كقائد فذ، كان عليه أن يقدم استقالته بسبب عدم توافق فلسفته اليسارية المتطرفة مع سياسات «بن جوريون» .

فى ١٤ مايو، عبر الجيش المصرى الحدود وسط ضجة إعلامية كبيرة . وأصدر الملك فاروق طابع بريد خاص يخلد ذكرى مسيرة الجيش المصرى على الساحل باتجاه غزة، وظلت الصحافة والإذاعة المصرية تحيى يوميا انتصارات القوات المصرية المتقدمة، عندما تمكنت هذه القوات من دخول غزة والمجدل وبئر السبع دون أن تواجه أية قوة يهودية . وبدا سقوط تل أبيب مسألة أيام . وبينما هبطت قوة رمزية منقولة بحراً فى المجدل، تجاوز الطابور الرئيسى رفح وتقدم على الطريق الساحلى قاصداً غزة، فى الوقت الذى عبرت فيه قوة ثانوية الحدود عند «العوجة» وتقدمت نحو بئر السبع، وكان افتراض القيادة المصرية هو أن الاستيلاء على المراكز السكانية اليهودية الرئيسية فى الشمال، سوف يترتب عليه تلقائياً سقوط جميع قرى النقب. كان تخطيطهم يتخيل أن المعركة الرئيسية الأولى ستكون عند مشارف تل أبيب والقدس .

لكن، ولأنها تشكل تهديداً محتملاً لخطوط مواصلاتهم، هاجم المصريون فى البداية قرية «كفار داروم » المنعزلة إلى الجنوب، بين خان يونس وغزه. وكانت القرية، المعزولة لشهور مضت ويتولى الدفاع عنها ثلاثون شاباً، قد نجحت ، فى ١٠ مايو، فى صد هجوم كبير، تدعمه المدفعية، شنه الاخوان المسلمون . فقد حبس المدافعون نيرانهم حتى وصل المهاجمون إلى سور الأسلاك الشائكة الذى يحيط بالقرية، ثم بدأوا فى إلقاء القنابل اليدوية وإطلاق الأسلحة الصغيرة، فتراجعوا . وعندما نفدت القنابل اليدوية، لجأ اليهود الأتقياء من المدافعين- ضمن أشياء أخرى - إلى فك الأكياس المخملية الصغيرة التى يحفظون فيها تمائمهم، والتى يعلقونها فى صواتهم الصباحية، بمادة T. N. T وأخذوا يلقون بها على المهاجمين، كما لو كانت قنابل يدوية. وفى أثناء ذلك، أخطأت المدفعية المصرية التى كانت تدعم الهجوم، وبدلاً من قصف القرية سقطت قذائفها وسط المهاجمين محدثة حالة من الفوضى. وانسحب الإخوان المسلمون، مخلفين وراءهم مايقرب من السبعين بين قتيل وجريح. وكان للصمود الشجاع لتلك القرية المعزولة أثره العظيم على المستوطنين المعزولين بامتداد النقب. على أن المصريين نجحوا فى قطع الطريق على محاولة لإمداد المستوطنة، كان نتيجتها وصول القليل من الإمدادات وإضافة

عدد كبير جداً من الجرحى النقطة الطبية بالمستوطنة، والتى كانت تضم بالفعل مايفوق طاقتها من المصابين. وفى ١٥ مايو، قام الجيش المصرى بهجوم يتقدمه مجموعة من الدبابات ومجموعتين من العربات المصفحة، لكن المشاة فشلوا فى المتابعة خلف المدرعات. وفشل الهجوم: تعطل عدد من العربات المصفحة، وتقهقر المشاة بعد أن وقع بينهم إصابات كبيرة. عند ذلك، كف المصريون عن محاولة الهجوم على القرية، لكنهم قاموا باحتلال المرتفعات المحيطة بها، لمحاصرتها. (مع اقتراب نهاية الهدنة، وعندما أصبح من الواضح أن القتال على وشك أن يتجدد، أصبح واضحاً أمام الاسرائيليين أنه لاجدوى من الاحتفاظ بموقع منعزل وبعيد خلف الخطوط المصرية، فأخليت القرية، وبعد يوم من إخلائها خلسة، فتح المصريون سداً من نيران مدفعيتهم على القرية ثم شرعوا فى الهجوم ليجدوا «كفار داروم» خالية .) .

فى تلك الأثناء، شن المصريون كذلك هجوماً على «نيريم»، شرقى رفح . وقد هوجمت القرية مع المدافعين عنها الخمسة والأربعين، بكتيبة مشاة مصرية، ومجموعة من العربات المصفحة وعشرين من حاملات رشاش «برن»، تساندها المدفعية والهاون والقصف الجوى. وبعد معركة قصيرة، انسحب المصريون مخلفين وراءهم ٣٠ قتيلاً . وفى اليوم التالى تجدد الهجوم، وكان النتيجة شبيهة بالأمس . وبعد ذلك، ركز المصريون على قصف القرية عن بعد.

كان هذا الأداء المتواضع من جانب المصريين نموذجاً تكرر فى أكثر من مناسبة أثناء الحرب . فمما لاشك فيه أن الانتصارات الاسرائيلية لاترجع فقط إلى براعة الاسرائيليين ومرونتهم وشجاعتهم، وإنما تعود كذلك إلى عدم فعالية القوات العربية (مع الاستثناء البارز للفيلق العربى) فى كثير من الأحوال. فالقوات المصرية تقدمت وهاجمت حسب ماينص الكتاب التعليمى. ولكن عندما كان يتعرض قادتها لمواقف غير معتادة، بحكم طبيعة المعارك كانت تنقصهم المرونة للتكيف وفقاً للمستجدات. من هنا كان الأداء المصرى فى الهجوم يتسم بالالتزام الكامل بالكتاب، وقيادة ضعيفة غير قادرة على التكيف السريع مع الظروف المتغيرة، مترددة فى اتخاذ القرار فى المراحل الحاسمة بميدان المعركة. أما عند مستويات القيادة العليا، فقد كان هناك فشل ملحوظ فى التنسيق بين العناصر المختلفة، كالمشاة والمدرعات والمدفعية، مما نتج عنه عدم استفادة القوات من العون المتبادل. وعلى العكس (كما سنرى من مجريات الأمور خلال المراحل الأخيرة من الحرب)، عندما كان المصريون فى موقف الدفاع، فإن أداءهم كان جيداً . فهم عندما يقاتلون من خطوط ثابتة، حيث خطة نيران المدفعية موضوعة مسبقاً بوضوح وكذلك ميدان المعركة ، فإن القادة والجنود المصريين يقاتلون بشجاعة وفعالية كبيرة .

اقتنع المصريون بعد تجربتهم فى «كفار داروم» و «نيريم» أن اشتباكهم مع كل مستوطنة

من مستوطنات اليهود بدورها سوف يضعف من استراتيجيتهم، ومن ثم فقد اندفعوا بطول الطريق الرئيسي نحو مركز البلاد الأكثر اكتظاظاً بالسكان، مع تجنب القرى اليهودية على الطريق. على أنه لم يكن ممكناً تجاهل «ياد موردخاى» بسبب وقوع الكيبوتس على طريق غزه - اشكلون، مما يعوق التقدم المصرى شمالاً . ووقع الهجوم على القرية (التى تأخذ اسمها من «موردخاى انيلفيتس»، قائد انتفاضة جيتو وارسو عام ١٩٤٣) فى ١٩ مايو من جانب القوة المصرية الرئيسية بعد تعزيزها بمجموعة لواء إضافية. بدأت الكتيبة الأولى المصرية الهجوم، وبعد معركة شرسة استولت على المخفر الأمامى، مما اضطر المدافعون عنه إلى الانسحاب. وعندما حاول المصريون اختراق سياج المستوطنة، رُدوا على أعقابهم بعد قتال متلاحم . وفى ٢٠ مايو، استؤنف الهجوم، ونجح المدافعون فى صد أربع هجمات منفصلة، وتصاعد عدد الإصابات حتى بلغ ٣٨ بين قتيل وجريح فى اليوم الثانى. واستمر القصف المنقطع .

فى ٢٣ مايو، نجح المدافعون فى صد هجوم لاثنتين من كتائب المشاة المدعومة بالمدرعات، لكن القتال كان قد انتقل إلى المنطقة السكنية للقرية، وأصبحت الرشاشات الآلية بأيدى المستوطنين عديمة النفع، كما نفذت الذخيرة الاحتياطية، بل إن العديد من المواقع أصبح بلا ذخيرة. ومن هنا، فقد انسحب، مع الساعات الأولى لصباح ٢٤ مايو، وتحت جنح الظلام، الأفراد المائة والثمانون المتبقون من المستوطنين ورجال البلماح. وسقطت «ياد موردخاى» فى أيدى المصريين. ولخمسة أيام، ظلت قوة تزيد قليلاً على سرية مشاة تقاتل قوة من الجيش النظامى مؤلفة من كتيبتين مشاة وكتيبة مدرعات وفوج مدفعية، وتفقد مايزيد على الثلثمائة. رجل. على أن أعظم ماتحقق كان كسب الأيام الخمسة بحد ذاتها، خمسة أيام مفعمة بالجهد والحيوية، جرى خلالها حركة تحصينات محمومة فى الشمال حيث بدأت الجهود المستميتة لجلب العتاد والطائرات والمدافع من الخارج تؤتى ثمارها. فلو أن المصريين لم يتوقفوا عند «ياد موردخاى»، لأصبح استقرار خطوط المواصلات فى منطقة أشدود موضع شك إلى حد ما. وقد أصبح موقع المعركة حول «ياد موردخاى» مزاراً قومياً اليوم. فقد تُرك برج المياه تزينه الفجوات التى أحدثتها الطلقات والقذائف والقنابل بحالته التى كان عليها بعد المعركة، كتذكار للثمن الباهظ الذى دفعه المدافعون البواسل أمام الغزو المصرى .

فى تلك الأثناء، قامت القوة المصرية بهجوم مضاد على لواء «جعفاتى»، الذى كان يقوم بتطهير منطقة عملياته، واستولى على عدد من القرى العربية فى المنطقة مابين «بئير طوفيا» و«نجبا»، وكذلك معسكر الجيش البريطانى فى صرفند (بالقرب من تل أبيب). وكان

البريطانيون قد سلموا العرب حصن البوليس فى عراق سويدان (بالقرب من الفالوجا) الذى ظل لعدة أشهر شوكة فى ظهر الإسرائيليين، لأهميته على طريق المجدل - الفالوجا - بيت جبرين الجانبى الحيوى، والذى يربط بين جيشى الهجوم المصرى. وهو يتحكم فى الطرق التى تربط المنطقة الجنوبية بالنقب، فكان مهما كذلك بالنسبة لإمداد الاسرائيليين العاملين بتلك المنطقة. وهكذا كان حصن «عراق سويدان» حيوياً لكل من الجانبين، ومن هنا كان القتال الشرس الذى دار خلال الشهور التالية .

فى ٢٩ مايو، تحرك اللواء المصرى الثانى، بقيادة الأميرالاى «محمد نجيب» (الذى سيصبح بعد ذلك أول رئيس لجمهورية مصر) باتجاه الشمال . وتم إجلاء جميع اليهود غير المقاتلين عن القرى اليهودية الواقعة بالمنطقة المعروفة اليوم باسم أشدود *. فى الوقت نفسه، كانت الطائرات الأربعة المقاتلة الأولى من طراز «مسرشميت»، التى وصلت من تشيكو سلوفاكيا وجرى تجميعها قبل ذلك بيوم واحد، تتعامل مع الطوابير المصرية المتقدمة . وكان يقود إحدى تلك الطائرات «عيزر وايزمن»، المولود بحيفا، وابن أخت الدكتور «حايم وايزمن»، أول رئيس لاسرائيل. تلقى «عيزر» تدريبه بسلاح الجو الملكى أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد جعله حماسه والتزامه الصمت وعدم الحديث عن ذاته وغيرها من الصفات التى اكتسبها من سلاح الجو الملكى، شخصية من طراز فريد. وقد أثبت فيما بعد قدرته كقائد قدير للقوات الجوية الاسرائيلية. وبعد انتهاء خدمته العسكرية انخرط بالعمل السياسى وتولى وزارة الدفاع بحكومة الليكود برئاسة «بيجن» والتى تشكلت فى ١٩٧٧، وأقام علاقة شخصية وثيقة بالرئيس المصرى السادات. وفى الوقت الذى كان «وايزمن» يقصف فيه طابوراً عسكرياً مصرياً فى اشكلون، كان السادات ضابطاً صغيراً بالجيش المصرى خرج لتوه من السجن الذى وضعه فيه البريطانيون لتعاونه مع النازى .

بالرغم من أن الهجوم الجوى الإسرائيلى لم يكن ذا فاعلية بسبب عيوب فى الرشاشات والقنابل، إلا أن أثره النفسى على المصريين كان هائلاً . فالمصريون لم يكن لديهم أدنى فكرة عن امتلاك الاسرائيليين للطائرات. وتوقف التقدم المصرى عند الكوبرى المدمر، على مسافة ٢ ميل شمالى قرية اسدود، وصدرت الأوامر بالحفر. وقصفت المدفعية الإسرائيلية من عيار ٦٥

---

* كانت المنطقة التى تعرف اليوم بمدينة وميناء أشدود عبارة عن سلسلة من الكثبان الرملية القاحلة تذروها الرياح . وكان بالمنطقة قرية عربية تعرف باسم «إسدود»، لكن مدينة وميناء أشدود الاسرائيلية شيدت فى الستينيات والسبعينيات .

مع تجمعات المصريين من الأجناب، وقامت وحدات «جعفاتى» بغارات كوماندوز، وتحولت قوات الحملة المصرية من الهجوم إلى الدفاع. وفى ٢ يونيو، قام لواء «جعفاتى» بهجوم كبير على الحشود المصرية، وللمرة الأولى يدرك المهاجمون على هذه الجبهة تأثير النيران الدفاعية المركزة لجيش نظامى . كانت الخطة مبالغة فى طموحها، وكان التنسيق بين الطوابير الثلاثة المهاجمة خاطئاً، فكانت النتيجة فشل الهجوم مع خسائر كبيرة بين صفوف القوات الاسرائيلية، والتى بلغت أكثر من مائة قتيل وجريح وعدداً من الأسرى. ومع ذلك، فقد كانت تلك المعركة نقطة تحول حاسمة بالنسبة للجبهة الجنوبية، إذ قررت القيادة المصرية، التى كان على قواتها، أن تتقدم شمالاً صوب «يفنه»، أن تعيد ترتيب قواتها وتدعم الخطوط القائمة وتركز جهودها مستقبلاً على عزل القوات اليهودية بالنقب عن باقى أرجاء البلاد .

كان فى هذا القرار تحديد لمصير قرية «نيتسانيم» . فما أن قررت القيادة المصرية وقف التقدم شمالاً (وكانت القوات الاسرائيلية قد احتلت آنذاك قرية «يفنة» العربية) حتى شرعت فى التركيز على تحسين خطوط مواصلاتها. وفى ٧ يونيو، قامت قوة مصرية مؤلفة من كتيبة مدعمة وسرية عربات مصفحة وفوج مدفعية ميدان، يساندها الطيران، بالهجوم على «نيتسانيم» التى يدافع عنها ١٥٠ شخصاً ، نصفهم من المستوطنين ونصفهم الآخر من الجنود. وعندما بطل مفعول السلاح الإسرائيلى الوحيد المضاد للدبابات (قذائف بيات)، لم يعد هناك مايوقف تقدم المدرعات المصرية نحو باحة القرية، يتبعها المشاة. وسقطت «نيتسانيم» فى أيدى المصريين، وفشلت محاولات لاحقة من جانب وحدات «جعفاتى» لاستردادها، وتكبدت خلالها خسائر كبيرة . وتمكن هجوم مصرى مضاد من طرد سرية اسرائيلية من التبة (٦٩)، وهو موقع هام يتحكم فى الطريق المؤدى إلى اشدود، وحاول المصريون بعدها التقدم نحو «بئير طوفيا» . لكن المدافعين هناك صمدوا بقوة .

أصبح هدف المصريين الرئيسى الآن هو عزل النقب نهائياً عن الشمال والتركيز بشكل ثانوى على التقدم شرقاً عبر الجليل وبيت لحم بهدف الوصول إلى القدس. فبالإضافة للاعتبارات العسكرية، فقد طغت التناقضات العربية . فالمصريون من جانبهم عقدوا العزم على الاستحواذ على أكبر مساحة ممكنة من الإقليم ومنعها من الوقوع فى يد الملك عبد الله ملك الأردن. ومن هنا، أصبح طريق المجدل – الفالوجا – بيت جبرين ذات أهمية قصوى كمحور جانبى، يمكن عن طريقه عزل النقب عن الشمال وتمكين القوات المصرية من دعم مجهودها الشرقى على طريق بئر السبع – الخليل – القدس . وعليه، تقدم المصريون لتحصين القرى والمرتفعات المتحكمة فى طريق المجدل – بيت جبرين . وقد وضعهم هذا العمل فى مواجهة مع

كيبوتس «نجبا» . وكان قد سبق الهجوم على القرية فى ٢١ مايو ، و ٢يونيو (نفس اليوم الذى هاجمت فيه قوات «جعفاتى» المصريين فى أشدود). تقدم الهجوم إحدى كتائب اللواء الأول، الذى يقوده الأميرالاى «سعيد طه بك»، المعروف كذلك باسم النمر * .. الضابط السودانى الذى قاد فيما بعد الدفاع المصرى عن جيب الفالوجا .

وقد نجح الهجوم الذى تقدمته المدرعات فى الوصول إلى السياج الداخلى للقرية، لكن ظهور إحدى وحدات الكوماندوز المحمولة على عربات الجيب عند أجناب القوة المهاجمة كان سبباً لانسحاب المصريين . وقد فقد المصريون فى الهجوم، الذى قام به مايزيد على الألف رجل، فى مواجهة ١٤٠ من المدافعين، أكثر من مائة بين قتيل وجريح. لقد أصبحت تلك الوقفات البطولية أمام الجحافل الكبيرة، والتى تمثل نموذجاً لما يمكن أن يقدمه دفاع باسل، عنصراً حيوياً فى الكيان المعنوى للدولة الاسرائيلية الناشئة .

قبل بدء سريان هدنة الأمم المتحدة بيوم واحد، تمكن لواء «جعفاتى» من تحسين مواقعه بالاستيلاء على عدد من القرى التى تهدد الشريط الجنوبى الضيق؛ كما سيَّر لواء «النقب» كتيبته السابعة مرة أخرى نحو حصن البوليس فى «عراق سويدان» (لكن دون جدوى)؛ وفى الجنوب نجحت وحدات لواء «النقب» فى الاستيلاء على «بير العسلوج» على طريق العوجة – بئر السبع، بعد أن أخذت المصريين على حين غرة . على أن المصريين نجحوا تماماً فى ارتجال طريق بديل عبر عسلوج وتجديد الاتصال بين الحدود الدولية وسيناء وبئر السبع . كما بذل المصريون جهوداً جبارة لتحسين موقفهم قبل بدء سريان الهدنة . وتمكنوا من السيطرة على «المفصل» (نقطة التقاء طريق المجدل – الفالوجا بطريق كوكبة – جولس)، ليسدوا بذلك السبيل الوحيد إلى الجنوب. ونجحت قوات البلماح فى الاستيلاء على كوكبة والحليقات، جنوبى المفصل، بينما استولت قوات «جعفاتى» على التل ١١٣ القريب من المفصل . لكن ذلك لم يغير من حقيقة أن النقب أصبح معزولاً. وكان ذلك أمراً خطيراً بالنسبة للإسرائيليين . فطوال فترات القتال، ظل الطريق إلى النقب مفتوحاً، أما الآن، مع بدء الهدنة، فإن النقب صار معزولاً، وأصبح للمصريين السيطرة على طريق الشرق – الغرب الجانبى الواصل بين المجدل والفالوجا .

الهدنة الأولى

رحبت القوات الاسرائيلية المنهكة ترحيبا شديداً بالهدنة على اعتبار أنها فترة للراحة، وكان أشد الناس ترحيباً هم الموجودون بالقدس . فعندما بدأت الهدنة، لم يكن بالمدينة من المؤن مايكفيها لأكثر من ثلاثة أيام . ونظمت الأمم المتحدة قوافل تخضع لتفتيش الفيلق العربى،

* عُرف الأميرالاى « السيد طه » باسم الضبع الأسود وهو مصرى الجنسية (المترجم) .

الذى كان يسمح بدخول كميات محدودة من المؤن إلى المدينة، ولكن جرى، فى تلك الأثناء، تحسين «طريق بورما» المار باللطرون، فكانت المؤن المدنية والعتاد الحربى والتعزيزات تمر عبره بحرية ودون تفتيش .

لقد نجح الفريقان فى تجاوز القيود المفروضة عليهما فى إطار الهدنة، ودعموا مخزونهما من العتاد الحربى وعوضا خسائرهما . وقام الملك عبد الله بجولة فى العواصم العربية لتعزيز قيادته وتحقيق المزيد من الوحدة فى إدارة الحرب. والحقيقة أنه كان يسعى للحصول على موافقة عربية على ضم الأجزاء العربية من فلسطين إلى مملكته؛ ولاعجب أن فشل فى مسعاه، لدرجة أن الملك فاروق رفض السماح له بزيارة مقار قيادة الحملة المصرية بفلسطين، بوصفه القائد الأعلى، وأصرّ الملك فاروق على أن مثل تلك الزيارة ليست محل نقاش طالما لم يقم هو بزيارة قواته، وهى مغامرة اعتبرها على قدر كبير من الخطورة فى ذلك الحين. وهكذا، بينما أعاد كل جيش عربى على حدة تنظيم قواته وإعادة تسليحها ونال قسطاً من الراحة، فإن شيئاً ذا بال لم يتحقق على مستوى القيادة الشاملة .

وعلى جبهة جيش الدفاع الإسرائيلى جرى نشاط مماثل لإعادة التنظيم والتجمع. فقد أعيد تنظيم القوات ودخلت فى تدريب مكثف لاستيعاب العتاد الحربى الذى وصل من أوروبا (وبصفة خاصة من تشيكوسلوفاكيا) . وأضيفت وحدات مدفعية، وخليط من الدبابات والعربات المصفحة التى جاءت من مختلف بلدان العالم لتتجمع مكونة اللواء الثامن مدرعات. وكانت القوات الجوية التى لازالت تتلقى الطائرات، قد نجحت فى إسقاط عدد من طائرات «داكوتا» المصرية أرسلت لقصف تل أبيب، وصدّ قوة بحرية مصرية قامت بقصف المدينة .

خلال الهدنة، وقعت حادثة وضعت مسألة الانضباط على قائمة المشكلات. فقد كان «بن جوريون» يدرك خطورة التهديد الذى يمكن أن ينشأ من وجود الجيوش الخاصة على استقرار الأمة الناشئة، ولذلك، فقد أصدرت الحكومة المؤقتة، فى ٢٨ مايو، «الأمر رقم ٤» لإقامة جيش قومى، وهو ماعرف باسم جيش الدفاع الاسرائيلى، وحرم القانون بوضوح وجود أية قوة أخرى، لكن القانون لم يطبق دون صراع. فخلال الهدنة الأولى، حاولت إرجون ضم سفينة قادمة من أوروبا (اطلنطا) على متنها تسعمائة متطوع وأسلحة وذخيرة، وأمرهم «بن جوريون» بتسليم الأسلحة والذخيرة لجيش الدفاع الاسرائيلى، المسئول عن المتطوعين الجدد. وكانت النتيجة حادثة «كفار فتكين» والمواجهة مع جيش الدفاع الاسرائيلى: ظلت السفينة تتجول فوق المياه أمام تل أبيب؛ ورفضت إرجون الانصياع لأوامر جيش الدفاع الإسرائيلى، فاندلع القتال. وقتل ١٥ رجلاً، وأطلقت النيران على «اطلنطا» فغرقت. وفى ٢٨ يونيو، أقسمت جميع فصائل القوات المسلحة يمين الولاء، ولم يعد لإرجون وجود مستقل.

٣

حتى الهدنة الثانية

(١٨ يوليو - ١٥ اكتوبر ١٩٤٨)

فى أثناء تلك الفترة، اقترح «كونت برنادوت»، وسيط الأمم المتحدة- السويدى الجنسية - مشروعاً للسلام، مؤمّلاً أن تتحول الهدنة المؤقتة إلى هدنة دائمة وتؤدى فى النهاية إلى معاهدة للسلام. وكانت الخطة المقترحة تعطى الجليل بالكامل للإسرائيليين والنقب للعرب، مع بقاء القدس تحت إدارة الأمم المتحدة، والجزء العربى تحت إدارة شرق الأردن. وقد رفض الجانبان الاقتراح، واستعد الطرفان للصدام المحتم بانتهاء هدنة الثمانى والعشرين يوماً والمقرر له الجمعة ٩ يوليو. وباقتراب ذلك اليوم ، انتهى جيش الدفاع الإسرائيلى من وضع خططه على أساس المبادرة بالهجوم. فحتى تلك اللحظة، كانت تحركاته تأتى رداً على هجمات عربية . أما الآن، فعليه أن يأخذ بيده زمام المبادرة .

الجبهة الشمالية

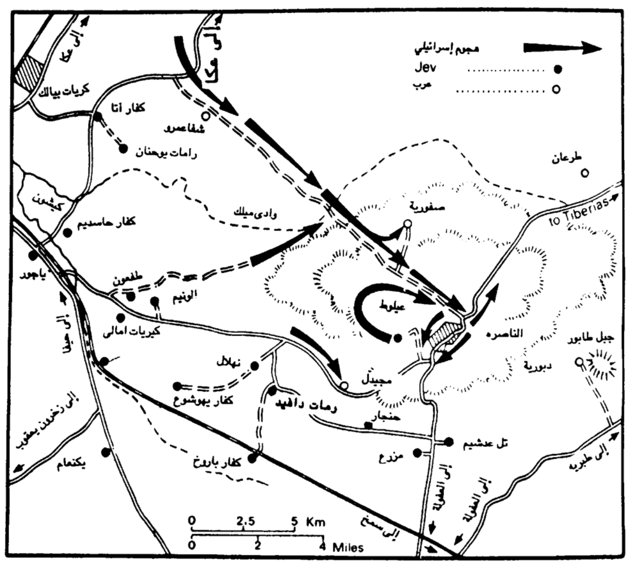
كانت قوة سورية مؤلفة من لواء مشاة، مدعم بالمدفعية والمدرعات، تحتل رأس جسر «مشمار هايردين». وكان لوآء آخر يسيطر على المرتفعات المشرفة على الضفة الشرقية لنهر الأردن. وكان الجيش اللبنانى ينتشر فى المنطقة الواقعة بين روش هنكين على الساحل وبنت جبيل بالقرب من المالكية إلى الشرق، وذلك لتأمين طرق التموين والإمداد لجيش الإنقاذ العربى (القاوقجى)، والتى كانت تتمركز فى الجليل الأوسط بشكل أساسى .

وقد انتشرت خمسة من ألوية جيش الدفاع الإسرائيلى بطول خطوط الهدنة شمال ووسط البلاد: الكسندرونى وجولانى وكرملى وعوديد، بالإضافة اللواء السابع، الذى سبق نقله من اللطرون إلى الجليل الغربى. وكانت الخطة الإسرائيلية ترتكز على عمليتين: عملية ديكل (النخلة)، وهى موجهة إلى أضعف حلقات السلسلة العربية، أى جيش الإنقاذ العربى والعملية

باروش (شجرة السرو) وهدفها الجيش السورى، الذى كان يشكل الخطر الأكبر، لأن رأس الجسر السورى لم يكن يبعد أكثر من ميل عن طريق الشمال - الجنوب الحيوى بالجليل الشرقى . وكان رأس الجسر هذا قد تم تدعيمه بقوة أثناء فترة الهدنة ، ولهذا وضعت الخطة على أساس تطويق رأس الجسر لقطعه عن مصادر إمداداته . وكان المجهود الرئيسى للعملية التى يقودها «موشيه كرمل» (وهو برتبة بريجادير جنرال الآن)، موكلاً إلى لواء «كرملى» بقيادة الكولونيل « مردخاى ماكليف » ، المدعم بقطعات من لواء « عوديد » والمكلف بالهجوم المخادع على رأس الجسر السورى من ناحية الغرب. وكان على القوة الرئيسية للواء «كرملى» أن تعبر نهر الأردن جنوب رأس الجسر، وتستولى على موقع بيت الجمرك المشرف على جسر «بنات يعقوب» . وبعد عزل رأس الجسر يأتى الهجوم الشامل .

بدأ الهجوم عقب هبوط ليل التاسع من يوليو. وتمكنت إحدى الكتائب من عبور نهر الأردن بصعوبة، لكن المهندسين فشلوا فى إقامة الكوبرى العائم الوارد بالخطة، بسبب نيران المدفعية السورية الكثيفة وتأخرت الكتيبة الثانية عن موعدها، وهنا وردت المعلومات بأن السوريين على وشك القيام بهجوم على «روش بينا». كانت القوات الإسرائيلية متأخرة عن التوقيتات المتفق عليها، وكان من الواضح أنها لن تتمكن من الاستيلاء على بيت الجمرك قبل طلوع النهار. فصدرت الأوامر بالانسحاب إلى الضفة الغربية للنهر وأُلغيت خطة تطويق المواقع السورية. وهناك انتقاد يوجه إلى هذا القرار، لأنه لو تم الاستمرار فى تطوير الهجوم الإسرائيلى على الضفة الشرقية لنهر الأردن، لتردد السوريون فى القيام بهجومهم على «روش بينا» فى وقت يهدد الاختراق الإسرائيلى فيه خطوط مواصلاتهم عبر النهر، وكانت حجة الانسحاب الاسرائيلى هى عدم إمكان وصول القوات الإسرائيلية إلى بيت الجمرك السورية بسبب قرب طلوع النهار. والعملية لو قدر لها الاكتمال لنجحت فى قطع خطوط المواصلات السورية .

وفى الفجر ، قامت القوة السورية بهجوم مضاد يسانده الطيران بقوة. فى الوقت نفسه، قام اللواء السورى المتمركز فوق المرتفعات الواقعة شرق النهر بمهاجمة القوات الاسرائيلية التى كانت لاتزال على الضفة الشرقية. وليومين ظلت تلك القوات تقاوم الهجمات السورية ببسالة قبل أن تجرى عملية الانسحاب إلى الضفة الغربية. ودار قتال عنيف حول عدد من المواقع بالمنطقة، ووقعت إصابات كثيرة عندما تقدم السوريون لتهديد «مناحيميا» و «روش بينا». وعلى مدى يومين، دارت الحرب سجالاً بين الطرفين، وهناك بعض المواقع تبادلتها الأيدى لأربع مرات. وفى ١٤ يوليو، قامت قوة «ماكليف» بمحاولة أخرى ضد رأس الجسر،



عملية «ديكل» - الاستيلاء على الناصرة، ١٦ يوليو ١٩٤٨

على الأجناب من جهة الجنوب هذه المرة، لكن هذه المحاولة فشلت هى الأخرى. وعندما بدأت الهدنة الثانية بعد تسعة أيام من القتال، كان الجيشان المنهكان فى موقف بالغ الحرج، يواجه أحدهما الآخر من نفس المواقع التى بدأت منها الهجمات المتتالية قبل عشرة أيام من هذا التاريخ .

بعيداً إلى الغرب، قامت القوات الإسرائيلية بعملية «ديكل» لإزاحة جيش الإنقاذ العربى (القاوقجى) عن المواقع الاستراتيجية التى يحتلها بالجليل الأوسط، عند قرية الشجرة، النقطة الحيوية على الطريق الإسرائيلى الرئيسى المؤدى إلى طبرية فى الشمال عبر «كفار طابور». وبينما كان الكتيبة الثانية/ جولانى تقوم بأعمال التحصينات، صمم القاوقجى على أخذ الشجرة بأى ثمن. فقام بتجميع الجزء الأكبر من قواته، وشن هجمات متكررة على دفاعات كتيبة جولانى العنيدة، التى لم يكن لديها أية أسلحة دعم معظم أيام المعركة (باستثناء الأيام الثلاثة الأخيرة لم يكن هناك دعم من الهاونات الثقيلة). وفى ١٤ يوليو بلغ الهجوم ذروته عندما قامت قوات القاوقجى بما لايقل عن ثمانى هجمات متتالية، تظاهرها العربات المدرعة والطيران العراقى. وقد صُدت الهجمات جميعها.

كان يقود لواء جولانى «ناحوم جولان»، عضو كيبوتس الجليل، الذى تربى عسكرياً فى صفوف الهاجاناه وحصل على بعض الخبرات من الجيش البريطانى. استطاع بهدوئه وتواضعه أن يقود لواءه بنجاح خلال العديد من المواقف الحاسمة أثناء حرب الاستقلال. ورايات هذا اللواء مرصعة بأوسمة الشرف للعديد من المعارك الكبرى التى خاضتها اسرائيل: فى حرب الاستقلال كان عليه أن يصل إلى خليج العقبة، وفى حملة سيناء كان عليه أن يخترق الخطوط المصرية عند رفح، وكان عليه أن يكتسح التحصينات السورية المنيعة فى مرتفعات الجولان فى حرب الأيام الستة، وأن يشن الهجمات الجريئة على «جبل حرمون» وأن يستعيد هذا الموقع الحيوى الذى ضاع فى بداية حرب يوم كيبور ١٩٧٣ .

حسمت النتيجة النهائية لمعركة الشجرة بالتهديد الذى نشأ عن تقدم القوات الإسرائيلية القادمة من الجليل الغربى قاصدة الناصرة. فبعد أن اتخذت من الطريق الساحلى وسهل الجليل الغربى شمالى حيفا قاعدة لها، تقدمت قوة مكونة من اللواء السابع وكتيبة من لواء «كرملى» تحت قيادة «حاييم لاسكوف» (الآن برتبة بريجادير جنرال) من عكا، عبر الطريق الداخلى، لتنسيق التعاون مع الفلاحين المدنيين من الدروز الذين يقطنون التلال الشرقية. وكان اللواء السابع، فى ذلك الحين، تحت قيادة الكولونيل «بن دنكلمان»، الذى قدم من كندا متطوعاً.

وهو حاصل على وسام الامتياز البريطانى لقيادته القوات الكندية في «هشوالد» على الراين خلال الحرب العالمية الثانية، حيث هبط بقواته على شواطئ نورماندى يوم الهجوم (٦ يونيو ١٩٤٤). قوى البنية، لطيف فى حديثه وإن كان حازماً كضابط، لقى قبولاً عند القيادة الإسرائيلية وبين القوات بعد اشتراكه فى العديد من العمليات، وخاصة دوره فى تنظيم مواقع الهاون الخاصة بالبلماح على تلال القدس. وبعد انتهاء الحرب، انصرف «دنكلمان» إلى شئونه العائلية بكندا. كان، بغير شك، واحداً من أبرز قادة الألوية بجيش الدفاع الإسرائيلى، وحقق من خلال اللواء السابع أبرز موقع قيادى يمكن لمتطوع من الخارج أن يناله.

بمجرد أن أصبح واضحاً من انتشار الجيش اللبنانى أن اللبنانيين لن يتدخلوا من جهة الشمال، قام «لاسكوف» بتوجيه قواته شرقاً باتجاه الناصرة، واستولى على «شفا عمرو» على طريق عكا – الناصرة فى ١٤ يوليو. وفى اليوم التالى تحركت مجموعة من لواء جولانى من قاعدتها فى «نهلال» باتجاه التلال لتطهير المنطقة من القوات العربية والاتصال بـ «كفار حاحورش» غربى الناصرة، والتى تمكن العرب من عزلها لعدة شهور. كانت الدفاعات الرئيسية عن الناصرة مركزة على المداخل من جهة وادى جزريل، وهى الجهة التى كان العرب دائماً مايتوقعون الهجوم منها. لكن التهديد من جانب «كفار حاحورش» وتقدم قوات «لاسكوف» (التى كانت قد استولت فى تلك الأثناء على قرية صفورية، على بعد أربعة أميال إلى الشمال الغربى من الناصرة) التى اخترقت ماكان يعتبره القاوقجى خلفية العرب الآمنة بالناصرة، أربك المواقع العربية. وفى ١٥ يوليو، أعاد القاوقجى، على عجل، ترتيب قواته واستدعى احتياطيه وسرية عربات مدرعة لمواجهة التهديد الاسرائيلى الجديد عند مؤخرته. واشتبك المدفع ٢٠ مم الفردى المحمول على عربة نصف مجنزرة من مدفعية اللواء السابع مع العربات المدرعة من مسافة ٥٠٠ ياردة، واستطاع أن يدمر ست من العربات الثمانى المهاجمة. وانسحبت القوات العربية، كما فعلت حامية الناصرة : فى صبيحة يوم ١٦، استسلمت مدينة الناصرة. وأجبر تقدم «لاسكوف» عبر الجليل، القاوقجى على تحويل اهتمامه عن الشجرة. وبدأ جيش الإنقاذ العربى ابتداء من يوم ١٨ يوليو انسحابه، تاركا الجليل الأدنى ومتوجهاً نحو الشمال الشرقى . وفى ١٨ يوليو، أعلنت الأمم المتحدة بدء سريان الهدنة الثانية، تاركة بأيدى جيش الإنقاذ منطقة محاصرة بالجليل الشمالى، ترتكز على الحدود اللبنانية وتمتد جنوباً حتى وادى «بيت نتوفا» .

الجبهة الوسطى والقدس

مع انتهاء الهدنة الأولى، كان الفيلق العربى، أقوى الجيوش العربية وأكثرها فعالية، هو

المشكلة العسكرية الرئيسية التى تواجه الإسرائيليين. فقد كان هذا الجيش يحاصر مدينة القدس، بينما كانت القوات العربية فى اللد (ليدا) والرملة تشكل تهديداً لتل أبيب، أكبر تجمع سكنى لليهود. وكان اللد، فوق ذل، الملتقى الرئيسى لخطوط السكك الحديدية، إضافة إلى وجود المطار الدولى الوحيد بها. وكانت اثنتان من كتائب مشاة الفيلق يدعمها المدرعات والمدفعية تتمركز فى قطاع اللطرون؛ وكانت اللد والرملة محصنتين جيداً، ويسيطر عليها القوات العربية المحلية بالأساس، والوحدات غير النظامية، وعدة مئات من رجال القبائل من شرق الأردن، وقطاعات صغيرة من الفيلق العربى .

كان جوهر عملية «دانى» هو توجيه ضربة للفيلق العربى. وقد خطط لتلك العملية لتكون الهجوم الرئيسى الذى تشنه القوات الاسرائيلية عندا استئناف القتال. وكان الهدف منها هو تخليص القدس وإبعاد التهديد عن تل أبيب. وتتضمن المرحلة الأولى الاستيلاء على اللد والرملة، وتستهدف المرحلة الثانية اللطرون ورام الله بهدف رفع الحصار عن القدس. وتقرر أن يتولى تنفيذ العملية «ييجال آلون» قائد البلماح، وتألفت قوات العملية من ألوية «هارئيل» و «يفتاح» و «كرياتى»، يدعمها اللواء الثامن/ مدرعات. كما ألحق على العملية عناصر من «الكسندرونى» و «عتسيونى». وصدرت الأوامر إلى اللواء الثامن، تدعمه كتائب من «الكسندرونى» و «كرياتى»، بالتحرك من الشمال والاستيلاء على مطار اللد ثم التقدم شرقاً نحو السفوح، عند منطقة المعسكر الحربى فى «بيت نبالا»؛ وكان على لواء «يفتاح» أن يشكل فك الكماشة الجنوبى .

وتحت قيادة الكولونيل «(مولا) كوهين»، الذى قاد اللواء باقتدار أثناء معركة الاستيلاء على صفد ومعارك الجليل، بدأ «يفتاح» تحركه من الجنوب مع هبوط ليل ٩ يوليو، وقام بتطهير عدد من القرى فى المنطقة. وإلى الشمال، وجه اللواء الثامن، مدرعات بقيادة الكولونيل «اسحاق ساديه»، كتيبة دبابات، أول دبابات يستخدمها جيش الدفاع الاسرائيلى، منها عشر فرنسية خفيفة من طراز هـ ٣٥، واثنتان من طراز «كرومويل» البريطانية جلبها الهاربون، وتقدمت هذه الدبابات وغيرها من العربات المدرعة مع لواء «كرياتى» و «الكسندرونى» للعمل على الأجناب، ونجحت فى الاستيلاء على المطار .

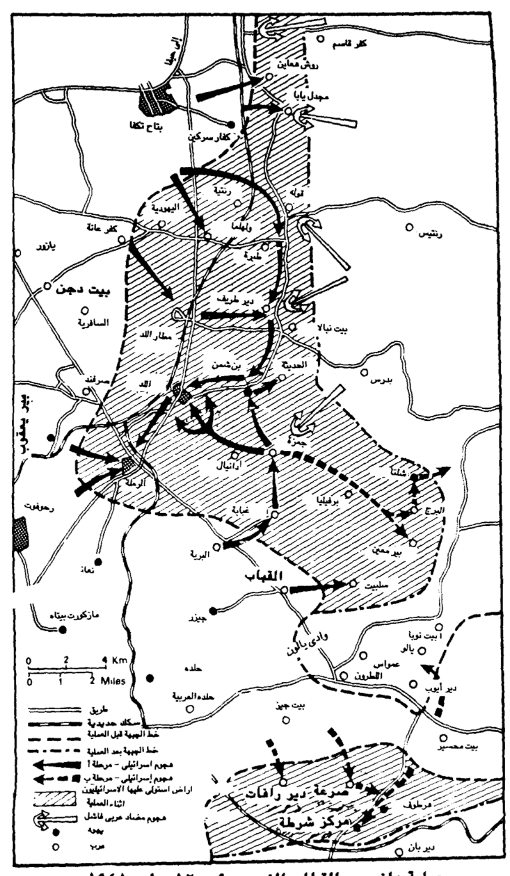
كان مقرراً أن يلتقى فكى الكماشة فى «بن شيمن»، وهى قرية أطفال يهودية ظلت معزولة لشهور خلت. ووصل لواء يفتاح إلى المكان قادماً من الجنوب، لكن اللواء الثامن القادم من الشمال صادف صعوبات جمة تعود إلى أسباب فنية، لم يتمكن جنوده غير المدربين على

التعامل مع الدبابات من التغلب عليها. وفى تلك الأثناء، وبينما فك الكماشة الشمالى يواجه المصاعب، كانت الكتيبة ٨٩ كوماندوز/ آلية بقيادة الليفنانت كولونيل «موشى دايان» تندفع نحو اللد، فى وقت كانت وحدات «يفتاح» تواجه فيه المتاعب. وانطلقت كتيبة «دايان»، المحمولة على عربات نصف مجنزرة وجيب ومعها عربة مصفحة استولت عليها من الفيلق العربى، عبر المدينة تطلق النار فى كل اتجاه ليتردد صدى جلبتها فى أرجاء المدينة. وأثارت هذه العملية الجريئة أعصاب المدافعين، واستغلت وحدات يفتاح حالة الهلع الناجمة عن ذلك، والذى هرع خلالها سكان اللد، وهربت جموعهم إلى خارج المدينة. واستسلمت المدينة أمام «يفتاح»، لكن السكان ظهروا مرة أخرى بأسلحتهم عندما قام الفيلق العربى بهجومه المضاد، الذى استطاع الاسرائيليون أن يردوه وقاموا بتأمين المدينة. وفى اليوم التالى، استسلمت الرملة واحتلتها وحدات «كرياتى»

فى ذلك الحين، كان «جلوب» قائد الفيلق العربى، يواجه ضغوطاً شديدة من أجل تعزيز اللد والرملة، ولم يكن أمامه من قوة يمكنها سجها سوى الكتيبتين الموجودتين باللطرون والفوج الرابع والثانى. كان فى حاجة إلى استخدام كتيبة بكاملها كى يكون لانتشاره أثر. وكان من رأيه أنه فى حالة نجاح الهجوم الإسرائيلى، فمن المستحيل منع القوات الاسرائيلية من اختراق اللطرون والتقدم صوب الرملة. وكان على قناعة بأن كتيبة واحدة لايمكنها التصدى لمثل ذلك التقدم. وقد عرضه قراره ذاك بعدم التعزيز لضغوط شديدة، وجعله موضع انتقادات مريرة فى أنحاء العالم العربى. وبعد سقوط اللد والرملة، تعرضت وحدات الفيلق العربى للإهانة وإلقاء الحجارة عليها فى شوارع الرملة ، واتُّهم «جلوب» نفسه بالخداع أثناء اجتماع لمجلس الوزراء الأردنى حضره الملك عبد الله. ولكن، بالنظر إلى القوات الى كانت متاحة لجلوب فى ذلك الوقت وتقديره لأهمية وحيوية اللطرون لموقف العرب فى غرب القدس، فلاشك أن قراره كان سليماً من الوجهة العسكرية .

كانت إحدى سرايا الفيلق العربى (السرية الخامسة المستقلة/ مشاة) موجودة بالفعل داخل نقطة بوليس اللد، وأثناء القتال أصدر جلوب أوامره بسحبها. وكان الهجوم المضاد الذى قامت به هذه الوحدة مع ظهور مجموعة لعربات الاستطلاع المدرعة التابعة للفيلق عند أطراف اللد سبباً لتمرد السكان العرب بالمدينة، لاعتقادهم أن الفيلق قد عاد بقواته .

وفى الوقت نفسه، نجح لواء «هارئيل» بقيادة الليفتنانت كولونيل «يوسف تبنكين» فى الاستيلاء على عدد من القرى حول القدس، تمهيداً لمهمته الرئيسية برفع الحصار عن القدس



عملية «داني» – القطاع الغربي، ٩ – ١٢ يوليو ١٩٤٨

والاستيلاء على الرملة. على أنه كان واضحاً من المناقشات داخل مجلس الأمن أن وقفاً لإطلاق النار سوف يفرض سريعاً. (تكرر هذا الموقف كثيراً فى مستقبل اسرائيل العسكرى، حيث كانت الأغلبية التى تحشد آليا داخل الأمم المتحدة، من العرب والكتلة الشيوعية، تقف دائماً فى وجه مصالح اسرائيل . فكما حدث فى العديد من المناسبات، عندما تكون القوات الاسرائيلية فى موقف حرج، فإن هذه الأغلبية ترفع يديها ولاترى عجلة فى انهاء القتال. أما عندما يكون للاسرائيليين اليد العليا، فإن جهاز الأمم المتحدة بكامله يسارع من أجل منع الاسرائيليين من جنى ثمار نصرهم .) وكانت التطورات داخل المنظمة العالمية تشير إلى أن القيادة الاسرائيلية ليس أمامها سوى بضعة أيام لإتمام مهمتها. ومن هنا تقرر استبعاد خطة الاستيلاء على رام الله، وتم حشد القوات للاستيلاء على اللطرون .

كما سبق وأشرنا ، فإن «جلوب» قرر بحكمته أن يحتفظ بقواته عند بدء عملية «دانى» وألا يبددها فى محاولة تعزيز حاميتى «اللد» و «الرملة» . ولوعيه بالأهمية الاستراتيجية للطرون، فقد قام بتجميع وتدعيم قواته فى هذه المنطقة والمنطقة الواقعة شمال ممر القدس، مستدعياً إلى اللطرون عناصر من الفوج الأول نجحت فى الاستيلاء على «قوله» لشىء إلا لتخسرها بعد ذلك فى هجوم اسرائيلى مضاد .

وقع الهجوم الرابع على اللطرون فى ليلة ١٦/١٥ يوليو. وقدنجح لواء يفتاح، تدعمه كتيبة مدرعة من اللواء الثامن وبعض عناصر من لواء «كرياتى»، فى الاستيلاء على المنطقة الواقعة شمالى اللطرون، بما فيها قرى «برفيليا» و «سلبيت» و «المرج» و «بير امعين»، لينفتح بذلك الطريق إلى رام الله عبر اللطرون. وتحسباً لاحتمال خطر كهذا، ردت قوات الفيلق بهجوم مضاد، ولإصراره على الاحتفاظ باللطرون بأى ثمن، ولعلمه التام بأن الخطة الإسرائيلية تقضى بعزلها أو تطويقها، فقد قام الفيلق بأعنف هجماته المضادة طوال الحرب. وقد سجلت تلك المعارك العديد من قصص البطولة. كانت إحداها قصة مجموعة العربات المدرعة التى كان يقودها شاب من البدو وتقاتل بقرية البرج. فبالرغم من إصابته بعدة جراح ظل هذا الشاب يقاتل حتى صارت عربته حطاماً لارجاء فيها، وفى المستشفى استخرجوا من جسده أكثر من مائة جسم معدنى. وعلى الجانب الاسرائيلى، كانت هناك سرية تنسحب عند تخوم اللطرون، مخلفة وراءها ثلاثة من الجرحى فى حالة خطيرة. لكن أحد أفراد الخدمات الطبية قرر مخالفة الأوامر ليبقى إلى جوارهم، وقد عثر على جثث الرجال الأربعة، فيما بعد، فوق التل .

فى أثناء ذلك، كان المجهود الرئيسى للواء «هارئيل» موجه ضد مرتفعات اللطرون التى تسيطر عليها إحدى كتائب الفيلق الثلاث (الأولى والثانية والرابعة) المتمركزة فى عموم منطقة

اللطرون. وكانت قوات «هارئيل» تواجه ضغطاً شديداً نتيجة لهجوم مضاد قامت به وحدات الفوج الثانى فى «البرج» و «بيت سيرا»، وفشلت المحاولة الإسرائيلية للاستيلاء على اللطرون.

واقتربت الهدنة الجديدة، ونجحت قوات «يفتاح» و «هارئيل» فى توسيع نطاقات المناطق الواقعة تحت سيطرتها. وأصبحت المسافة التى تفصل بين مواقع «يفتاح» غرب طريق اللطرون عن مواقع «هارئيل» المتمركزة فى تلال القدس شرقى طريق اللطرون، لاتزيد عن ميلين. وهنا، قرر «ييجال آلون» القيام بهجوم جبهوى على اللطرون، وقامت قوات «هارئيل» باحتلال المرتفعات الواقعة فوق «بيت نوبا»، بينما شنت قوات «يفتاح» هجومها من الغرب يساندها اللواء الثامن/ مدرعات. على أنه وبسبب خطأ فى الاتصال، انسحبت قوات الدعم – التى تكبدت خسائر كبيرة بسبب المدفعية المضادة للدبابات المنصوبة فوق سطح شرطة اللطرون – ولم يصمد المشاة. وكان ذلك آخر محاولة اسرائيلية للاستيلاء على اللطرون. وظلت تسد الطريق الرئيسى إلى القدس على مدى الأعوام التسعة عشر التالية، حتى سقطت بأيدى القوات الإسرائيلية خلال حرب الأيام الستة .

على الرغم من هذه النكسة، فقد عزز قتال الأيام العشرة، فى إطار عملية «دانى»، من موقف القوات الاسرائيلية بما لايقاس. فقد أصبحت الرملة واللد (بمطارها الدولى) فى أيدى الاسرائيليين؛ وابتعد التهديد المباشر عن تل أبيب، واتسع نطاق ممر القدس باتجاه الجنوب. وازداد النشاط أثناء الليلة التى سبقت الهدنة، فسقطت «هارطوف»، فاتحة طريقاً إضافياً إلى المدينة. إضافة إلى ذلك، فقد تم تطهير معظم خط السكة الحديدية الواصل إلى القدس.لكن التهديد الموجه لطريق القدس الرئيسى دام بدوام سيطرة الفيلق العربى على اللطرون.

وفى القدس نفسها، كانت تجرى العمليات بهدف توسيع القطاع الجنوبى من ممر القدس فى مناطق المالحة وعين كارم، بغرض إحكام السيطرة على خط السكة الحديدية بين تل أبيب والقدس. وفى ليلة ٩/ ١٠ يوليو، قاتلت إحدى سرايا «جادناع» (كتيبة شبابية تتألف من الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ – ١٧سنة) فى نطاق حصار القدس، واستولت على المنطقة التى عرفت بعد ذلك باسم «جيل هيرتسل»، التى تحتل مكان عين كارم. كما تم الاستيلاء على المالحة، إلى الجنوب أيضاً. ومن ناحيته، قام اللواء الأول/ فيلق تتقدمه وحدات من الفوج الثالث، بالهجوم على منطقة مندلباوم، واحتل عدداً من المبانى . وفى الليلة السابقة على الهدنة، وقع هجوم إسرائيلى إضافى على المدينة القديمة. وحاولت إحدى وحدات إرجون اختراق البوابة الجديدة، لكنها لم تتقدم إلا لمسافة قصيرة قبل أن تجبر على الانسحاب. وتواقت مع ذلك محاولة أخرى من جانب إحدى وحدات «عتسيونى» لعبور «بوابة صهيون»، لكنها فشلت هى الأخرى .

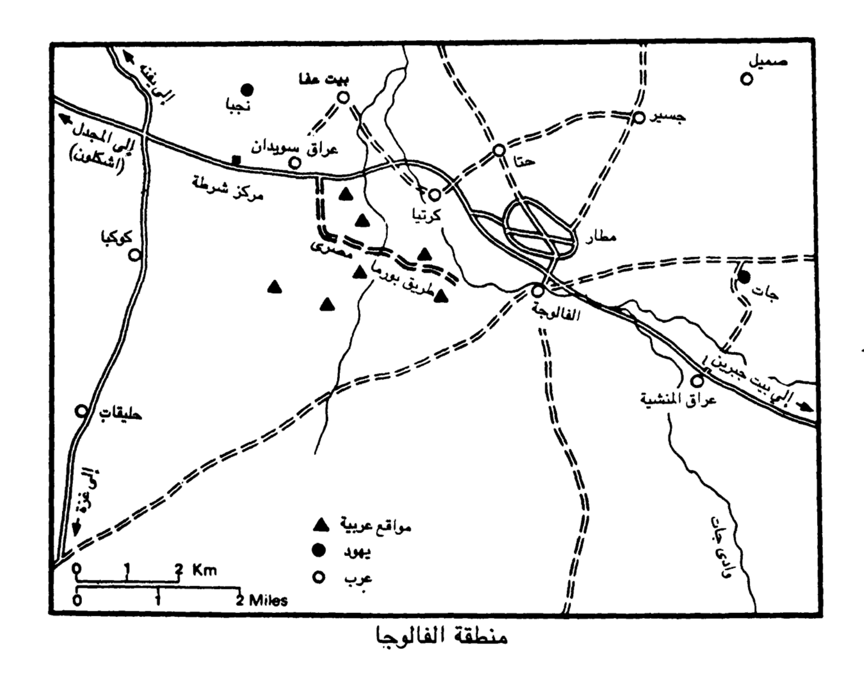
الجبهة الجنوبية

أثناء الهدنة، جرى تعزيز الحملة المصرية حتى صار قوامها أربعة ألوية. وكان اللواء الأول مسئولاً عن الطريق الساحلى من الحدود الدولية جنوباً وحتى المجدل مروراً بغزة؛ وتحدد للواء الثانى معظم القطاع الشمالى، ومنطقة أشدود؛ ويتمركز الرابع * فى الفالوجا، ويتحكم فى المحور الفرعى من المجدل إلى الخليل مروراً ببيت جبرين؛ بينما ينتشر اللواء الرابع، المؤلف من متطوعى الإخوان المسلمين على محور بئر السبع – الخليل – بيت لحم وحتى مشارف أقصى جنوب القدس.

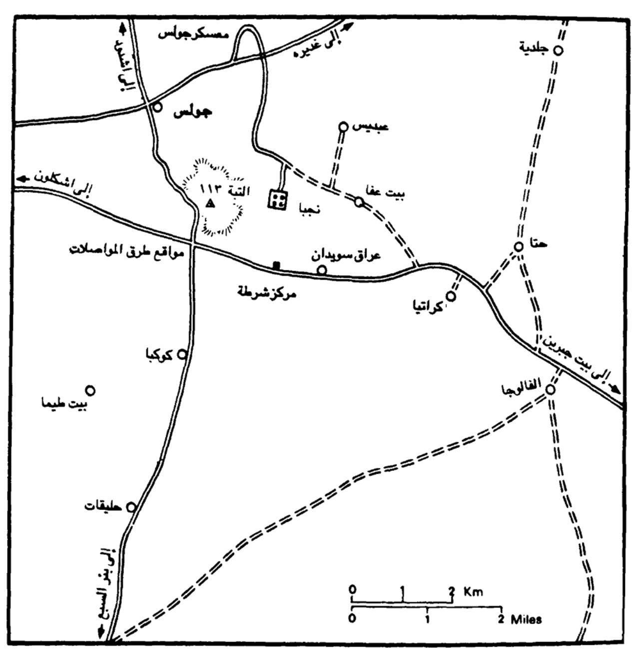
فى مواجهة هذه القوات كان هناك اثنان من الألوية الاسرائيلية، لواء «جعفاتى»، وتتحدد مسئوليته بالمنطقة الواقعة شمال طريق المجدل – بيت لحم، فقام بنشر اثنتين من كتائبه شمال وشرق أشدود على هيئة قوس يمتد من «جلوون» بالجنوب الشرقى قريباً من منحدرات تلال يهودا، إلى «يفنه» فى الشمال الغربى، واحتفظ بكتيبتين كاحتياطى. أما لواء «النقب»، بقيادة الكولونيل «ناحوم سريج»، فكان مسئولاً عن المنطقة الواقعة إلى الجنوب الغربى لطريق غزة – بئر السبع، إضافة إلى كتيبة كوماندوز تتولى تأمين طريق الإمداد إلى المستوطنات المختلفة المعزولة .

واستعداداً لاقتراب نهاية الهدنة الأولى، وضع كل من الطرفين خططه لبدء الهجوم فور استئناف القتال فى ليلة ٩/١٠ يوليو . وكانت خطة القوات الإسرائيلية، تحت القيادة العمومية للكولونيل « شمعون افيدان» (قائد لواء جعفاتى)، تهدف إلى فتح الطريق إلى النقب، وقطع طريق إمدادات القوات المصرية الجانبى وإجبار المصريين على الجلاء عن منطقة أشدود. وكانت الخطة المصرية، بالمقابل، تهدف إلى توسيع نطاقهم الشرقى/ الغربى، الأمر الذى يدعم خطوط مواصلاتهم، وتوسيع المسافة بين اللوائين الاسرائيليين واستمرار عزل المستوطنات الإسرائيلية فى النقب. وقد لاحظت القيادة المصرية الاستعدادات الاسرائيلية، فقررت أن تسبق الإسرائيليين، وشنت هجومها فى ٨ يوليو، قبل انتهاء الهدنة بيوم، لتمتلك زمام المبادرة

* يقصد الثالث . (المترجم).



منطقة الفالوجا



نجبا وما حولها

وتستفيد من عامل المفاجأة . ونجحوا، اثناء الهجوم، فى الاستيلاء على منطقة «المفصل»، * وكوكبة والحليقات والتل ١١٣. وتأهبت قوات «جعفاتى» وأعادت تنظيم نفسها على عجل وتقدمت للقيام بهجوم مخطط كان مقرراً له الليلة التالية .

وقامت وحدة من وحدات «النقب» بالهجوم على قلعة شرطة «عراق سويدان». لكن، ومرة أخرى، يتأخر الهجوم عن موعده. فمع بزوغ أشعة الشمس الأولى، كان المهندسون العسكريون ومعهم المتفجرات ونسائف «بنجالور» ** لايزالون يشقون طريقهم عبر السياج الخارجى. فانسحبوا، لكن القتال استمر وتمكنت قوات «جعفاتى» من تطهير عدة قرى عربية بمنطقة «المفصل»، وصد هجوم مصرى عنيد على «بيت داراس». وفى الهجوم النهائى على «عبدس» بقوة سرية مشاة إسرائيلية، لم يتبق من القوة سوى ١٨ رجلاً، أمكنهم نسف الموقع بالقنابل اليدوية، مما أدى إلى إحداث حالة من الفوضى فى صفوف المدافعين المصريين، فاضطروا إلى الفرار. وللمرة الأولى، نجح لواء «جعفاتى» من الاستيلاء على مدافع «برن» ومدافع مضادة للدبابات سليمة، وكانت إضافة لقوته. وقام المصريون بهجوم مضاد شرس، واستعادوا «بيت عفا»، وإن فشلوا فى استرداد «عبدس»، بالرغم من أن هذا كان أعنف هجوم تشهده الحرب. وكان نجاح «جعفاتى» فى التصدى لتلك الهجمات العنيفة نقطة تحول فى تاريخ اللواء. فلم يحدث بعد ذلك أن انسحبت أى من وحدات «جعفاتى» من موقع تسيطر عليه، وهو تقليد لازال سارياً حتى اليوم .

عند هذا الحد، قرر الجنرال «المواوى»، قائد القوات المصرية، أن يقوم بهجوم جبهوى شامل على «نجبا»، التى كان يعتبرها نقطة حيوية ومفتاح النظام الدفاعى الاسرائيلى عن عموم منطقة المفصل. وبعد توجيه سد نيران مدفعى كثيف، بهدف إرباك المستوطنة التى كان يتولى الدفاع عنها ١٥٠ مقاتلاً، قام بهجومه الذى ضم أكبر حشد تشهده القوات المصرية حتى ذلك الحين: ثلاث كتائب مشاة، وكتيبة مدرعة وفوج مدفعية. وتقدمت الكتيبة التاسعة/ مشاة الهجوم على «نجبا»، الذى جاء من أربعة اتجاهات فى وقت واحد. وانكسرت الهجمة الأولى عندما أصبح المصريون عند السور الخارجى تقريباً؛ وفشلت الثانية عندما وصل المصريون إلى السياج الداخلى بالفعل؛ وباقتراب المساء اضطر المصريون إلى الانسحاب، مخلفين وراءهم بميدان المعركة ٢٠٠ إصابة.

---

* Junction وترد فى بعض المراجع العربية (خطوط المواصلات) . (المترجم) .

** انبوب حديدى طويل يشتمل على مواد متفجرة يستخدم لنسف الأسلاك الشائكة وتفجير الألغام (المترجم)

فى الوقت نفسه، شن المصريون هجمات على «جلؤوم» عند الجناح الإسرائيلى الشرقى، وعلى «بئيروت يتسحاق» القريبة من غزة. كانت المستعمرة تحت سيطرة حوالى ٧٠من المستوطنين تساندهم فصيلة من لواء النقب. وقد رأت القيادة المصرية أنها تشكل تهديدا لخطوط مواصلاتها منذ فترة، وأنه ينبغى وضع حد لهذا. لكن ظهور كتيبة كوماندوز اسرائيلية تدعمها المدفعية، أفشل الهجوم المصرى على «بئيروت يتسحاق»؛ ومرة أخرى انسحب الغزاة تاركين وراءهم ٢٠٠ ضحية أخرى بميدان القتال .

ولخمسة أيام، شهدت الحرب بعض أعنف معاركها، عندما قامت القوات المصرية بشن الهجوم تلو الآخر على خطوط المواصلات (المفصل). واستولت الوحدات السودانية العاملة فى صفوف الجيش المصرى على التل ١٠٥ القريب من «نجبا»، لكنه استعيد بهجوم مضاد شنته «تعالب شمشون»، إحدى وحدات الكوماندوز التابعة للواء «جعفاتى». وكان لفشل المصريين فى «نجبا» و «بئيروت يتسحاق»، والخسائر الكبيرة التى تكبدوها فى كلا الحالتين أثره على معنويات المصريين . فكان على القوات المصرية منذ ذلك الحين أن تلتزم موقف الدفاع، وفى المقابل استغل الاسرائيليون ذلك النصر السيكولوجى الذى حققوه. فى الوقت نفسه، كان الطرفان قد بلغا حداً من الإنهاك التام، بعد أيام من القتال العنيف والخسائر الكبيرة. ومع اقتراب الهدنة الثانية، قامت قوات «أفيدان» مرة أخرى بهجمات غير ناجحة على الحليقات وكوكبة وبيت عفا، وإن نجحت هجمات أخرى على حته وكراتيا. ودار قتال عنيف حول كراتيا عندما قام المصريون بهجوم مضاد فاشل .

وبدأ سريان الهدنة مساء ١٨يوليو. وكان الاسرائيليون قد نجحوا فى فتح منفذ ضيق إلى النقب وأغلقوا طريق الشرق – الغرب بين المجدل وبيت جبرين؛ لكن المصريين نجحوا فى تخطى هذه العقبة باحتلال المرتفع القريب من كراتيا وإقامة «طريق بورما» لهم عبره .

الهدنة الثانية

عند مراجعة العمليات على مدى عشرة أيام من القتال خلال شهر يوليو، فإننا سنجد تقدما ملحوظاً من جانب القوات الاسرائيلية، مع نمو قدرات القوات الجوية بعد الحصول على عدد من مقاتلات «مسرشميدت» من تشيكوسلوفاكيا، وثلاث قلاع طائرة من طراز ب ١٧ (التى قصفت القاهرة ودمشق خلال تلك الفترة من القتال). وتدرب المشاة الاسرائيليون، بالتدريج، على القتال بالتنسيق مع المدرعات والمدفعية. كان هناك جيش يتخلق فى أتون المعركة، شيئاً فشيئاً، من أحشاء قوات أنصار .

فى تلك الأثناء، كان «كونت برنادوت»، وسيط الأمم المتحدة، يسعى لإقرار مقترحاته، التى

تسلب اسرائيل النقب وتعطيها الجليل الغربي بدلاً منه؛ وتعيد الرملة واللد إلى الحكم العربي؛ وتضع القدس ومطار اللد الدولي تحت إشراف الأمم المتحدة. وأدركت الحكومة الاسرائيلية أنه طالما ظل النقب معزولاً عن مراكز اسرائيل، فإنه من المستحيل مقاومة تلك المقترحات السياسية. وأصبح من الواضح أن الحلقة التي تطوق النقب (التي كانت - مع ذلك - على حالة من الضعف بحيث كان بمقدور الوحدات الاسرائيلية اختراقها كل ليلة متجاوزة المواقع المصرية) ينبغي كسرها وإعادة ربط المنطقة باسرائيل برباط قوي. وفي ١٧ سبتمبر، وقّع برنادوت على تقريره إلى مجلس الأمن، بعد أن أضاف إليه مقترحات جديدة من بينها منح ممثلي الأمم المتحدة «سلطات قوية»، وتوجه بعدها، عبر القدس، إلى مبنى دار الحكومة الذي كان قائماً في منطقة يعترف بها الجانبان كمنطقة منزوعة السلاح بحكم إعلان الأمم المتحدة، فتعرضت قافلته لهجوم عند حي القطمون. اعترضت سيارة جيب الطريق وقفز منها ثلاثة رجال وأخذوا يطلقون النار، فقتل برنادوت ومساعد فرنسي. وفر المهاجمون، المفترض أنهم من اليهود، ولم يقبض عليهم. لكن «دافيد بن جوريون» قرر أن يستفيد من الصدمة التي سببتها حادثة القتل، وأن يتصرف بقوة. فصدرت الأوامر بتسريح إرجون، التي استمرت ككيان مستقل في القدس (وتوزيعها على مناطق أخرى من اسرائيل) خلال ٢٤ ساعة، وتسليم أسلحتها إلى جيش الدفاع الإسرائيلي . وألقت القبض على مائتين من أعضاء «ليحي»، بما فيهم زعماؤها وقادتها .

وضع رد الفعل العالمي لمقتل «كونت برنادوت» اسرائيل في موقف سياسي صعب للغاية. فبمقتله، تحولت محتويات تقريره من توصيات إلى وصايا سياسية. كانت اسرائيل تواجه موقفاً حساساً. والحقيقة أنه كان من الممكن أن تغلّ اسرائيل يدها خوفاً من رد الفعل الدولي لحادث القتل لو لم يتدخل المصريون بطريقة أدت إلى حل مشكلة اسرائيل في النقب. فقد كان المصريون، على عكس شروط الهدنة، يرفضون رفضاً باتا السماح للقوافل الاسرائيلية بالمرور بحرية إلى النقب. ومن هنا أصبحت العمليات العسكرية الاسرائيلية مبررة. وهكذا كان سوء تقدير المصريين لصعوبة الموقف الذي وضعت فيه اسرائيل عقب مقتل برنادوت، سبباً لفتح الطريق أمام العمليات العسكرية الاسرائيلية، والتي أدت في نهاية المطاف إلى إزاحة الجيش المصري وهزيمته.

وفي ذلك الحين، كان جيش الدفاع الاسرائيلي يعيد تنظيم صفوفه في إطار أربع قيادات مناطقية: الجبهة الشمالية بقيادة البرجادير جنرال «موشيه كرمل»؛ والجبهة الوسطى تحت قيادة البريجادير جنرال «دان ابين»، وجبهة القدس والممر بقيادة البريجادير جنرال «تسفي ايلون»؛ والمنطقة الجنوبية بقيادة البريجادير جنرال «ييجال آلون» .

٤

الحســـم

الحسم فى الجليل

فى القطاع الشمالى من الحرب، كانت المنطقة التى يسيطر عليها جيش القاوقجى (جيش الإنقاذ العربى) عبارة عن جيب كبير، يرتكز فى الشمال على الحدود اللبنانية؛ وفى الشرق، يتجه نحو الجنوب بالقرب من «متولا» إلى نقطة لاتبعد أكثر من أميال قليلة من غربى بحر الجليل؛ ومن هناك يتجه غرباً عبر «عيلبون » ثم ينحرف شمالاً ليعود إلى الحدود اللبنانية، متجاوزا «مجد الكروم» و «ترشيحا». وكانت قوات القاوقجى قد تناقصت آنذاك حتى أصبحت مابين ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ رجل مقسمة على ثلاثة ألوية: لواء اليرموك الأول، المدعم بمتطوعين من لبنان ، ويعمل فى التلال الواقعة جنوب طريق عكا - صفد؛ ولواء اليرموك الثانى وينتشر فى مواجهة صفد فيما بين «ميرون» و «سعسع»؛ ولواء اليرموك الثالث الذى يحكم السيطرة على الجانب الغربى للجيب، متمركزاً فى «ترشيحا». وكان هذه القوات تمتلك عدداً محدود من مدفعية الميدان عيار ٧٥مم وبعض العربات المدرعة. وفى ٢٢ أكتوبر، قام القاوقجى بهجوم مفاجئ بقواته التى أعيد تنظيمها، فى منطقة «المنارة»، على التلال الغربية المشرفة على «إصبع» الجليل. ونجح فى الاستيلاء على نقطة الشيخ عابد القوية، وفى عزل قرية المنارة، وفى صد الهجوم الإسرائيلى المضاد. وكان الجيش اللبنانى فى تلك الأثناء، لايزال بحوزته أربع كتائب على الحدود، إضافة إلى سيطرة الألوية السورية الثلاثة على الحدود الشرقية جنوبى «الحمه» .

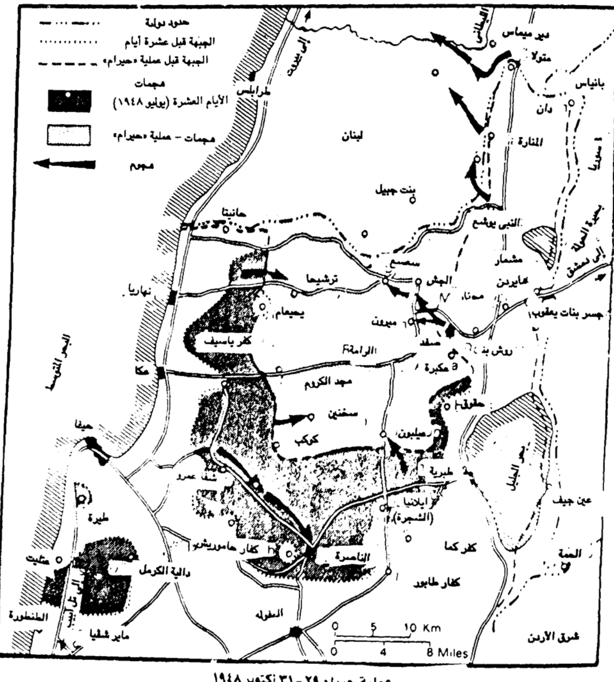
وقرر الاسرائيليون أن يطهروا الجليل من القوات العربية، وتدمير جيش القاوقجى وإقامة خط دفاعى اسرائيلى على الحدود اللبنانية الإسرائيلية الدولية. وكانت القوة المتاحة للجنرال «كرملى»، قائد الجبهة الشمالية، أربع ألوية: اللواء السابع، ولواء «عوديد» (الذى سبق سحبه من النقب)، ولواء «جولانى» ولواء «كرملى». وكانت هناك أربع بطاريات مدفعية عيار ٧٥مم

واشتتان عيار ٦٥مم. وقد أعطى الهجوم الاسرائيلي اسماً كودياً هو عملية «حيرام» نسبة إلى ملك طرابلس (حليف وصديق للملك داود والملك سليمان، والذى أرسل شجر الأرز لبناء المعبد بالقدس). وبدأ الهجوم ليلة ٢٩/٢٨ اكتوبر، واتخذ شكل حركة الكماشة، يلتقى فكاها فى «سعسع» بالقرب من الحدود اللبنانية لتصفية الجيب العربى فى الجليل. وكان على اللواء السابع أن يتحرك من صفد إلى «سعسع»، بينما يتحرك لواء «عوديد» من الغرب ويستولى على «ترشيحا» وغلق الطريق إلى «سعسع» وكان مقرراً لقوات «جولانى» أن تقوم بهجمات مضللة من الجنوب باتجاه «عيلبون» وكان على لواء «كرملى» أن يتولى شغل القوات السورية فى الشمال الشرقى.

كان اللواء السابع، بقيادة الكولونيل «بن دنكلمان»، يتألف من كتيبة مدرعات وكتيبتى مشاة، ويضم سرية من الشركس *. وتحركت القوات من صفد مساء ٢٨ اكتوبر، وخاضت وحدات المشاة معركة عنيفة عند «ميرون» انسحب على أثرها العرب مخلفين وراءهم ٨٠ قتيلا بميدان المعركة. وتقدم اللواء واستولت قواته على «الجش» (مكان جوش هلاف، أحد الحصون التى شيدت لمواجهة الرومان، أثناء التمرد اليهودى فى القرن الثانى الميلادى). واصطدمت كتيبة سورية، تحركت من لبنان على عجل لتعزيز الدفاعات العربية، بوحدات اسرائيلية قبل أن تستعد للهجوم، وانسحبت فى حال من الفوضى مخلفة وراءها مايزيد على المائتى قتيل. واندفع اللواء السابع نحو «سعسع»، وأتم مهمته كفك شرقى لحركة الكماشة. أما العملية الغربية لحركة الكماشة، والمنوطة بلواء «عوديد» فقد كانت أقل نجاحاً، إذ فشلت فى الاستيلاء على «ترشيحا»، ووقعت سرية درزية ملحقة عليه فى مأزق خطير. لكن أخبار استيلاء اللواء السابع على «سعسع» عند مؤخرة السرية، أثارت الاضطراب فى صفوف المدافعين العرب عن «ترشيحا»، فانسحبوا باتجاه لبنان، تاركين أسلحتهم الثقيلة. وفى اليوم التالى (٣٠ اكتوبر) قام لواء «عوديد» بهجوم جديد واستسلمت «ترشيحا»، ليمكن للفك الغربى من الكماشة أن يتصل بسعسع.

عند هذا الحد تكون المرحلة الثانية من عملية «حيرام» قد أنجزت. وتقدمت قوات «جولانى» من «عيلبون» باتجاه الشمال، ووصلت إلى طريق ترشيحا – سعسع مساء ٢١ أكتوبر. ولم يعد لجيش الانقاذ العربى وجود. وأمر «كرملى» قواته بالتقدم فى الحال. فصدرت الأوامر إلى

* أحد شعوب القوقاز. كانت أراضيهم فيما سبق جزءاً من الامبراطورية التركية. والشراكسة مسلمون منتشرون فى سوريا والأردن وفلسطين. وكانوا مستوعبين فى العرب بشكل جزئى.



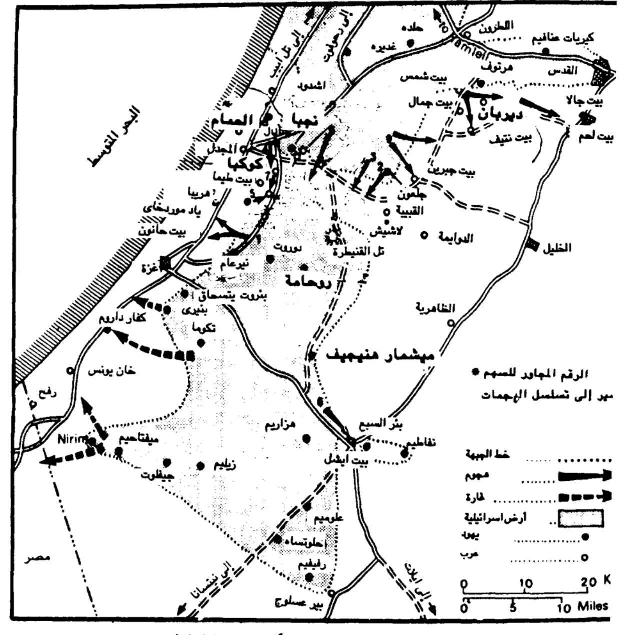
عملية حيرام ٢٩ - ٣١ أكتوبر ١٩٤٨

«عوديد» بالتوغل وتطهير المنطقة الواقعة بين نهاريا و «سعسع» جنوبى الحدوداللبنانية، بينما تحرك اللواء السابع سريعاً من سعسع باتجاه الشمال نحو المالكية، التى كانت مسرحاً لقتال عنيف فى بداية الحرب. وتقهقرت القوات العربية المدافعة وولت الأدبار. وأصبح جيش الدفاع الاسرائيلى يحكم سيطرته على الحدود اللبنانية بالكامل من النبى يوشع فى الشرق، إلى روش هنيكره على ساحل البحر المتوسط. وارتفع الحصار عن «المنارة»، وعبرت وحدات «كرملى» الحدود إلى لبنان، واستولت على ١٤ قرية لبنانية، ووصلت حتى نهر الليطانى. (أصبحت هذه المنطقة فيما بعد ورقة للمساومة أثناء مفاوضات الهدنة قبل أن تعود بشكل نهائى إلى اللبنانيين .)

عند فجر ٣١ اكتوبر، أوشكت عملية «حيرام» - أخر العمليات الحربية فى الشمال - على الاكتمال. وانهزم جيش القاوقجى هزيمة منكرة، ووقعت بقاياه فى الأسر أو طردت من الجليل. وقد بلغت الخسائر العربية فى العملية حوالى ٤٠٠ قتيل و ٥٥٠ أسير. وكان الجيش اللبنانى، فى حقيقة الأمر، قد خرج من الحرب، واستولت اسرائيل على شريط حدودى داخل لبنان يمتد من الليطانى إلى المالكية. واسترد السوريون رأس جسرهم عند «مشمار هايردين» ولكن، ماعدا ذلك، كانت منطقة الجليل بالكامل فى يد اسرائيل. وانتهت، عمليا الحرب على حدود اسرائيل الشمالية .

الجبهة الجنوبية : جيب الفالوجا

أعد «آلون» خطة لهجوم كبير فى النقب، تم، بناء عليها، تنفيذ عملية معقدة تحت بصر المصريين. فاخترق لواء «يفتاح» الخطوط المصرية باتجاه النقب لتخفيف الضغط على لواء «النقب» ، الذى تحمل وطأة القتال فى الجنوب على مدى الشهور التسع المنصرمة. أثناء فترة الهدنة، سعى كل من الطرفين إلى تحسين مواقعه، ونظراً لتصميم كل طرف على ذلك فقد اندلع القتال بينهما. وكانت العملية النموذجية هى تلك التى دارت فى منطقة خربة المجحز (المقحز) وهو تل يشرف على الطريق الرئيسى الواصل بين الشمال والجنوب عبر النقب، والذى كان يقع فى مرمى مدفعية مطار «بيرحمه»، وهو وسيلة إمداد حيوية للقوات الاسرائيلية بالنقب. وكانت المواقع الاسرائيلية قد تعرضت، قبل أن تتمكن قوة من «يفتاح» من احتلال منطقة خربة المجحز، لسبع هجمات فاشلة من جانب القوات المصرية، وخاصة من جانب الكتيبة السادسة مشاة، التى كان ضابط عملياتها فى ذلك الحين هو الصاغ جمال عبد الناصر. (عندما تولى



عملية «يوآف» ١٥ - ٢٢ أكتوبر ١٩٤٨

رئاسة مصر بعد اشتراكه فى ثورة الضباط الأحرار التى أطاحت بالملك فاروق فى ١٩٥٢، شرح عبد الناصر كيف نمت فكرة الثورة فى رأسه وزملائه من حركة الضباط الأحرار خلال الليالى الطويلة التى قضوها فى فلسطين، وخاصة عندما كانوا محاصرين فى «جيب الفالوجا».)

كان الاسم الكودى للهجوم الإسرائيلى على مصر فى الجنوب هو « عملية يوآف». وكان تحت قيادة «آلون» ألوية «جعفاتى» و «النقب» و «يفتاح»، بالإضافة إلى كتيبتين من اللواء الثامن/ مدرعات. (فى وقت لاحق، جرى دفع لواء «عوديد» من الجبهة الشمالية ليشارك فى العمليات.) وكانت خطة «آلون» تقوم على فتح ممر إلى النقب، وقطع خطوط المواصلات المصرية على الساحل وطريق بئر السبع – الخليل – القدس، وعزل وهزيمة القوات المصرية ثم طردها خارج البلاد .

وفى ١٥ اكتوبر، تحركت قافلة إمداد اسرائيلية تحت إشراف الأمم المتحدة (طبقاً للاتفاقات) فى طريقها إلى النقب، واجتازت الخطوط المصرية عند «ملتقى الطرق ». وكما كان متوقعاً، فتح المصريون نيران أسلحتهم على القافلة، لكن الحادثة كانت مجرد إشارة ملائمة لبدء «عملية يوآف». ففى ذلك المساء، بدأ قصف غزة والمجدل وبيت حنون، وإصابة عدد من الطائرات المصرية فى العريش. وقامت كتيبة الكوماندوز التابعة للواء «يفتاح» بنسف خط السكة الحديدية بين العريش ورفح وبعض الطرق فى منطقة رفح وغزة، وشُنت غارات على القواعد والمعسكرات المصرية. فى الوقت نفسه، قامت كتيبتان من «جعفاتى» بدق إسفين باتجاه الجنوب، إلى الشرق «من عراق المنشية»، قاطعة بذلك الطريق بين الفالوجا وبيت جبرين. وفى صباح ١٦ اكتوبر، قامت كتيبة من اللواء الثامن / مدرعات، تدعمها كتيبة مشاة من لواء «النقب»، بهجوم كبير على عراق المنشية فى محاولة لفتح ثغرة فى الممر الجنوبى الشرقى. وقد فشلت هذه المحاولة لنقص خبرة القوات الاسرائيلية فى التنسيق بين المشاة والمدرعات؛ فقد تعرض جزء كبير من القوة المدرعة الاسرائيلية للدمار عندما دخلت منطقة القتل المعدة مسبقاً من قبل المصريين، وأجبرت على الانسحاب. وأثناء العملية أصيبت واحدة من الدبابتين طراز كرومويل التى سبق الحصول عليها من الجيش البريطانى، وانشغلت الثانية فى سحبها من ميدان المعركة. لقد أسفر الهجوم عن خسائر كبيرة، وهو مايشير إلى حالة من التحلل ونقص التنسيق وضعف القيادة العمومية. ولم يفلح فى العودة إلى المواقع الاسرائيلية سوى ٥٠ رجلاً من إجمالى القوة. وبالإضافة إلى الإصابات الكثيرة، فقدت القوة الاسرائيلية أربع دبابات من طراز «هوتشكيس»، أما بقية الدبابات فقد أصابها العطب .

استخلص «آلون» الدروس المستفادة من هذه الهزيمة وقرر العودة إلى المنطقة القريبة من «ملتقى الطرق» بهدف الاختراق من منطقة «الحليقات». وكانت الدفاعات المصرية حول «ملتقى الطرق» تتركز فى حصن «عراق سويدان» وتتكون من التبة ١١٣ والتبة ١٠٠ المشرفة على ملتقى الطرق من الشمال، وموقعين للدعم المتبادل إلى الغرب تشغلها قوة قوامها سرية، وإلى الجنوب قريتي «الحليقات» و «كوكبا» الحصينتين على قم التلال، والتى كانت تحتلها سرية مدرعة سعودية. وقرر «آلون» أن يركز هجومه على التبة ١١٣ و «ملتقى الطرق» الحصين، وأوكل إلى إحدى كتائب جعفاتي مهمة الاستيلاء على تلك النقاط الحيوية. وقد تم الهجوم على المواقع بسرية تتقدم تحت غطاء من نيران المدفعية، بعد القيام بهجمات تضليلية لإعطاء الانطباع بأن الهجوم الرئيس سوف يأتى من النقب، جنوباً. وأُخذ المصريون على حين غرة عندما جاء الهجوم الرئيسى من الاتجاه المعاكس. وفى ليلة ١٦/١٧ اكتوبر، شنت القوات الإسرائيلية هجمات خاطفة على المواقع، وعند منتصف الليل، وبعد قتال متلاحم عنيف، سقطت التبتان ١١٣ ، ١٠٠. أما الهجوم على مواقع ملتقى الطرق فقد واجهته الصعاب، حيث كانت المقاومة المصرية أكثر استماتة ، لكن بحلول فجر ١٨ أكتوبر كان الموقعين قد سقطا بأيدى الاسرائيليين. وقام المصريون بأربع هجمات مضادة، لكن دون جدوى. وفى تلك الليلة، استغلت قوات «جعفاتي» النصر الذى احرزته واستولت على «كوكبا»، لكن هجوما قامت به الكتيبة الأولى / يفتاح على «الحليقات» باء بالفشل. وظل الممر المستهدف مغلقاً.

فى تلك الأثناء، قامت قوات «يفتاح»، التى نجحت فى قطع الطريق الساحلى عند «بيت حانون»، بتطويق القوات المصرية فى الشمال تطويقاً كاملاً . وبدأ المصريون الجلاء عن مناطق «أشدود» و «المجدل»، متخذين طريقاً بديلاً بطول الساحل، ونجحوا فى تجميع اللواء المنسحب فى المنطقة التى صارت تعرف فيما بعد باسم «قطاع غزة» . وأدى رد الفعل من جانب البلاد العربية الأخرى تجاه ورطة القوات المصرية المحاصرة والمنسحبة إلى تبادل الاتهامات بين العرب بعضهم البعض، مما أقنع القيادة الإسرائيلية بأن الجيوش المصرية العربية الأخرى لن تتدخل لمساعدة المصريين. فقام لواء «عوديد» بالتحرك من الجليل نحو الجنوب وقام بهجوم فاشل على القوات المصرية عند الطريق الجانبى لمنطقة «كراتيا» ذات التلال الكثيرة. ووسط الضغوط التى كانت تمارس داخل الأمم المتحدة من أجل فرض وقف جديد لإطلاق النار، قرر«آلون» أن يركز كل قواته لفتح ثغرة فى الممر من جهة الجنوب، وذلك بتحطيم «الحلقة الحاكمة» عند الحليقات. وبرغم الخسائر الكبيرة والإرهاق الذى كانت تعانيه القوات،

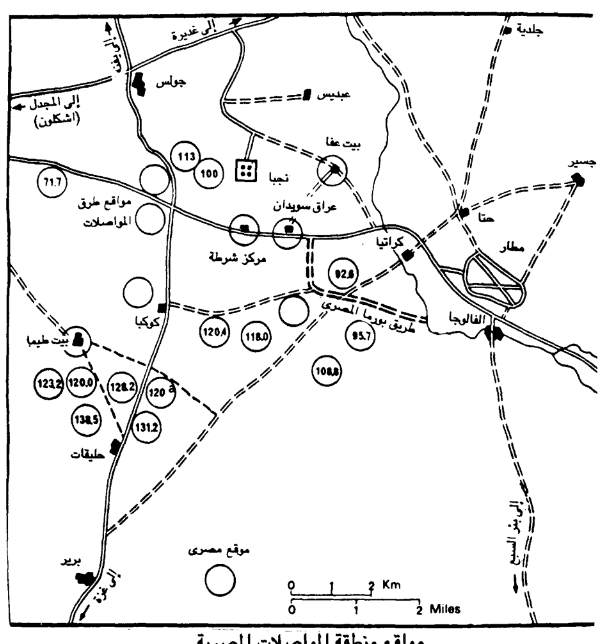
قرر «آلون» أن تتم المهمة ليلة ٢٠/١٩ اكتوبر على يد لواء «جعفاتي» الذى حنكته المعارك. وكانت النتيجة أشرس معركة تشهدها الحرب فى النقب .

كانت مهمة الدفاع عن الحليقات موكلة إلى كتيبة مصرية مدعمة تضم بين صفوفها سرية مشاة سعودية تظاهرها سرية أسلحة ثقيلة (مزودة بمدافع ماكينة وهاونات وحاملات برن). ولمواجهة هذا المجمّع، فقد جرى تعزيز الكتيبة الثانية من «جعفاتي» بسرية إضافية من الكتيبة الرابعة. كان قائد الكتيبة الثانية / جعفاتي والمسئول عن العملية هو «زفى تسور»، الذى سيصبح رئيساً لأركان جيش الدفاع الإسرائيلى فى ١٩٦١. (لقدراته الإدارية العالية أصبح الجنرال «تسور» المساعد الأيمن للجنرال «دايان» أثناء تولى الأخير وزارة الدفاع فى الفترة من ١٩٦٧ – ١٩٧٤.) كان للتلال الست التى يسيطر عليها المصريون خطة تنسيق تعاون فيما بينهما، وكانت المشكلة أمام المهاجمين الإسرائيليين هى عزل كل تبة وتصفيتها على حدة. وجاء الهجوم الأولىّ على الجزء الذى يحتله السعوديون بشكل جزئى، عاصفاً. وقد عثر هناك على كمية كبيرة من العتاد، من بينها حوالى ٣٠مدفع فيكرز، قامت القوات الاسرائيلية باستخدامها فور الاستيلاء عليها، وحولت التبة إلى قاعدة دعم مدفعى. وفى التباب الست كلها، اتسم القتال بالتلاحم والشراسة، وتطهير الخنادق عبر الهجمات المتكررة بالقنابل اليدوية والسناكى. وخلال القتال الذى دار من أجل تصفية التبة الأخيرة، نفدت الذخيرة من الجنود السعوديين وبلغ بهم اليأس حداً جعلهم يلجأون إلى عضّ مهاجميهم ! .

وهكذا، سقط مجمّع الحليقات تحت ضغط هجوم «جعفاتى»، وفى ٢٠ اكتوبر، تم فتح الطريق إلى النقب بشكل نهائى. ويقف اليوم بالقرب من الحليقات نصب يحمل شارة لواء «جعفاتى» منقوشا عليه: «كلما توجهت جنوباً، لاتنسانا» .

تواقت مع ذلك، فى ٢٠ – ٢١ اكتوبر، هجوم آخر للاستيلاء على قلعة الشرطة بعراق سويدان، وفشلت المحاولة للمرة الخامسة بعد أن تكبد المهاجمون خسائر كبيرة. ولكن، متابعة للنصر الذى تحقق فى الحليقات، أعد «آلون» على الفور قوة خاصة للتحرك نحو بئر السبع، بهدف عزل القوة المصرية الشرقية فى تلال الخليل وقطع خطوط اتصالها، حيث أن تفتيت القوة المصرية فى النقب يسهل التعامل معها كل على حدة .

وكانت القوة المتجهة نحو بئر السبع تتألف من العناصر الرئيسية للواء الثامن، وكتيبة الكوماندوز وكتيبتين أخريين من لواء النقب. وعند فجر ٢١ اكتوبر، وصلت القوات الاسرائيلية بئر السبع من ناحية الغرب، بينما جرت عملية تضليلية باتجاه الخليل إلى الشمال. وبعد قتال شرس انكسرت الحامية المصرية المؤلفة من ٥٠٠ رجل، وبحلول التاسعة صباحاً كانت بئر



مواقع منطقة المواصلات المصرية

السبع عاصمة النقب قد سقطت فى أيدى القوات الاسرائيلية. وأصبح الجزء الشرقى من الجيش المصرى مفكك الأوصال، وخطوط إمداده مقطوعة. والحقيقة أن الحملة المصرية أصبحت مقسمة فى ذلك الحين إلى أربع قوات معزولة عن بعضها البعض: لواء بمنطقة رفح وغزه، وأخر على وشك الانسحاب من منطقة المجدل باتجاه الجنوب؛ ولواء كامل يضم حوالى أربعة آلاف رجل، تحت قيادة البريجادير السودانى «سيد طه بك»، محاصر فيما يعرف بـ«جيب الفالوجا» ؛ وحوالى كتيبتين معزولتين عند منطقة الخليل – القدس .

وفى محاولة لفك حصار الفالوجا، اقترح «جلوب»، قائد الفيلق العربى الاردنى، عملية بحجم كتيبة، لكن الصراعات العربية طغت على الموقف. فعبد الله لم يكن فى نيته تخفيف الضغط عن المصريين. وفى ٢٢ اكتوبر، قامت قوات اسرائيلية بالاستيلاء على قرية «بيت حانون» وتشديد الضغط على خطوط المواصلات المصرية المتجهة إلى أشدود. وخلال الأسبوع التالى، أتم المصريون جلاءهم عن أشدود والمجدل، وانسحبوا إلى المنطقة التى صارت تعرف باسم «قطاع غزة» .

فى تلك الأثناء، واصلت القوات الاسرائيلية فى مرتفعات يهودا والخليل توسيع المنطقة الواقعة تحت سيطرتها عند ممر القدس، جنوبى «بيت جبرين»، لتتم بذلك تطويق جيب الفالوجا. وفى ٩ نوفمبر، سقط حصن «عراق سويدان» أخيراً بأيدى وحدات اللواء الثامن المدرع، بقيادة «يتسحاق ساديه» . لقد انتهت الآن أخطاء الماضى. وعند الأصيل، والشمس الغاربة تعمى أبصار المدافعين، كان حصن «عراق سويدان» ، الذى كان يعرف باسم «الوحش الرابض فوق التل»، والذى ظل صامداً أمام العديد من الهجمات وتسبب فى الكثير من الإصابات، قد لان، بفضل القصف المركز للمدفعية الاسرائيلية والتى استخدمتها إسرائيل للمرة الأولى خلال الحرب، ومنها المدفعية عيار ٧٥مم ، والهاونات الخفيفة والثقيلة والبنادق الآلية. وتم تطهير السطح بنيران البنادق الآلية، كما سلطت نيران المدفعية الكثيفة والمباشرة على كافة المنافذ. وبعد ساعتين من القصف المركز والمتواصل أمكن للمشاة والعربات نصف المجنزرة واثنتين من الدبابات الوصول إلى حائط الحصن واقتحامه. وأصاب الذعر رجال الحامية المصرية وبدأوا فى الاستسلام. وأخيراً انهار «وحش التل» وبنتيجة ذلك، تضاءلت منطقة جيب الفالوجا، وأصبحت محصورة فيما بين الفالوجا وعراق المنشية، والتى ظلت بيد اللواء المحاصر حتى توقيع اتفاق الهدنة بين اسرائيل ومصر، فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩.

حتى ماقبل ذلك، كان قائد جيب الفالوجا، البريجادير سيد طه بك، يرفض العروض المقدمة

للقاء القادة الاسرائيليين، أما الآن فهو يلتقى بقائد الجبهة الجنوبية، «ييجال آلون» عند قرية «جات». وقد قوبل عرض «آلون» بعودة المصريين الفورية وسط مراسم الشرف العسكرية والتقدير الكامل، بالرفض. وأكد «سيد بك» على أنه بالرغم من علمه بالوضع الميئوس منه، فإن مهمته هى إنقاذ شرف الجيش المصرى. وأجاب «آلون» بأن الحكومة المصرية لاتستحق ضابطاً فى مثل شجاعة «طه بك» .

وبهدف تعزيز موقف الوحدات الاسرائيلية على الجبهة الجنوبية، تم سحب لواء «جولانى» من فوق تلال الخليل الخضراء المزهرة إلى صحراء النقب القاحلة. أما لواء «جعفاتى» – الذى تحمل وطأة القتال فى شمال النقب وأبدى كفاءة عالية – فكان من حقه بعض الراحة، فحل محله لواء «الكسندرونى» الذى كان قد أوكل إليه، منذ منتصف نوفمبر، مهمة إحكام الحصار حول الجيب، وإحباط المحاولات المتكررة التى قام بها المصريون لجلب الإمدادات، سواء بواسطة المظلات أو قوافل الجمال. وقد تسربت عبر الخطوط خطة حملها أحد ضباط الفيلق الأردنى، هو الميجور «لوكهيد»، تهدف إلى قيام القوات المحاصرة باختراق تلال الخليل. لكن القيادة العليا المصرية رفضت الخطة لأنها غير عملية. كذلك فقد كان لدى المصريين شك متأصل تجاه أية خطة تأتى من جانب ضابط بريطانى، حتى ولو كان حليفاً. بالإضافة إلى أن الجيب كان مصدر استفزاز لقوات إسرائيلية كبيرة. وقد أحبط هجوم قام به لواء «الكسندرونى» ليلة ٢٧/٢٨ ديسمبر. ويرجع فشل هذا الهجوم إلى قوع عدد من الأخطاء وغياب التنسيق والاتصال الفعال وافتقاد القيادة الموحدة. وقد أبيدت بعض الوحدات الاسرائيلية المعزولة. وكان الهجوم كارثة أدت إلى رفع معنويات المصريين المحاصرين. وظل لواء الفالوجا، بعد ذلك، تحت الحصار دون أية محاولة اسرائيلية للهجوم وحتى انتهاء الحرب. .

الجبهة الجنوبية: هجوم «حوريف»

أعدت القيادة المصرية العدة للخروج من المأزق . فبعد انسحاب قواتها وإعادة نشرها فى المنطق الممتدة بطول الساحل، جنوبى «بيت حانون»، متمركزة بالأساس فى منطقة غزة – رفح، وضعت خطة لشن هجوم من غزة لنجدة جيب الفالوجا. وكاستهلال للعملية، احتلت الطوابير المصرية عدداً من النقاط الحاكمة، خاصة فى الجنوب الغربى. وقد وقع قتال عنيف، وخلال سلسلة من الهجمات المضادة نجحت القوات الاسرائيلية ، يوم ٥ ديسمبر، فى احتلال عدد من النقاط الاستراتيجية على خط جبهة غزة فيما عرف بعملية «اساف»، ونجحت قوات اللواء الثامن/ مدرعات و «جولانى» فى صد هجمات المشاة والمدرعات المصرية. وكنتيجة لذلك، تحسنت أوضاع الخطوط الاسرائيلية وصارت أكثر قوة .

وفى أواخر نوفمبر، مدت القوات الإسرائيلية سيطرتها كذلك إلى شرقى بئر السبع، وعبرت الصحراء باتجاه البحر الميت وأسفل وادى عربة الذى يمتد جنوباً بمحاذاة الحدود الأردنية، لتنقذ بذلك مشروع بوتاس جنوب البحر الميت فى «سدوم»، الذى ظل معزولاً لسنة أشهر تقريباً. (تضم هذه المنطقة من شواطئ البحر الميت «مسادا»، التى شهدت الوقفة البطولية الأخيرة لليهود أثناء هبتهم ضد الرومان فى عام ٧٢ ميلادية .) .

فى تلك الأثناء، شهدت الأمم المتحدة ضغوطاً سياسية من أجل إجبار إسرائيل على الانسحاب إلى خطوط ١٤ اكتوبر، الأمر الذى يعنى عزل النقب مرة أخرى. وأقنع هذا الضغط، الذى لعبت فيه بريطانيا دوراً رئيسياً، وضاعف من أثره التحركات المصرية حول الفالوجا (الأمر الذى أدى إلى سلسلة من المعارك على جبهة غزة)، أقنع القيادة الاسرائيلية بضرورة طرد المصريين خارج البلاد، وإبعاد الخطر الذى يمكن أن يشكله وجود تجمع مصرى فى منطقة غزة على أمن النقب والأمن الاسرائيلى عموماً. وفوق كل ذلك، كان الاسرائيليون على وعى برفض الحكومة البريطانية التورط فى مسألة دمج النقب فى اسرائيل؛ والحقيقة أن مشروع «برنادوت» بضم النقب إلى العرب مقابل الجليل، كان لايزال يستهوى بعض القوى الغربية. وعليه، قررت الحكومة الاسرائيلية القيام بعملية إضافية فى النقب بهدف تدمير القوات المصرية الغازية وخلق وضع عسكرى يجبر المصريين على الجلوس إلى مائدة المفاوضات .

كانت الألوية المصرية الخمسة المكونة للحملة المصرية منتشرة آنذاك كما يلى: لواء بقوة حوالى ٤ آلاف رجل محاصر فى «جيب الفالوجا»؛ لواءان مدعمان فى منطقة غزة؛ ثم لواء

بالمنطقة المحيطة بأبى عجيلة والعريش. وكان هناك كذلك حوالى الفى رجل من بقايا كتائب الإخوان المسلمين لازالو معزولين فى منطقة الخليل - بيت لحم. وهكذا كانت القوات المصرية فى فلسطين موزعة على قوس واسع، مع جناح غربى يمتد من غزة باتجاه الجنوب نحو العريش وأبو عجليلة، وجناح ينتشر باتجاه الشمال من أبو عجيلة إلى بير عسلوج. وكان مركز التجمع الرئيسى للقوات المصرية هو غزة، الذى كشفت القيادة المصرية عن حساسية كبيرة فى الدفاع عنها. وكان من الواضح أمام «آلون» أن القيام بهجوم مباشر على غزة سوف يكون مغامرة مكلفة وكان من رأيه أن السبيل لإحداث الانهيار فى صفوف القوات المصرية هو قطع طرق المواصلات الجانبية بين القوات الشرقية والغربية. وكان هذا فحوى عملية «حوريف»، من خلال العمل على طرد القوات الموجودة على الطريق الشرقى من بير عسلوج فجنوباً، ثم اكتساح سيناء، بجبهة واسعة لإغلاق العريش من جهة الجنوب، وبذلك تنعزل القوة المصرية بالكامل عن مصادر إمدادها وتعزيزها .

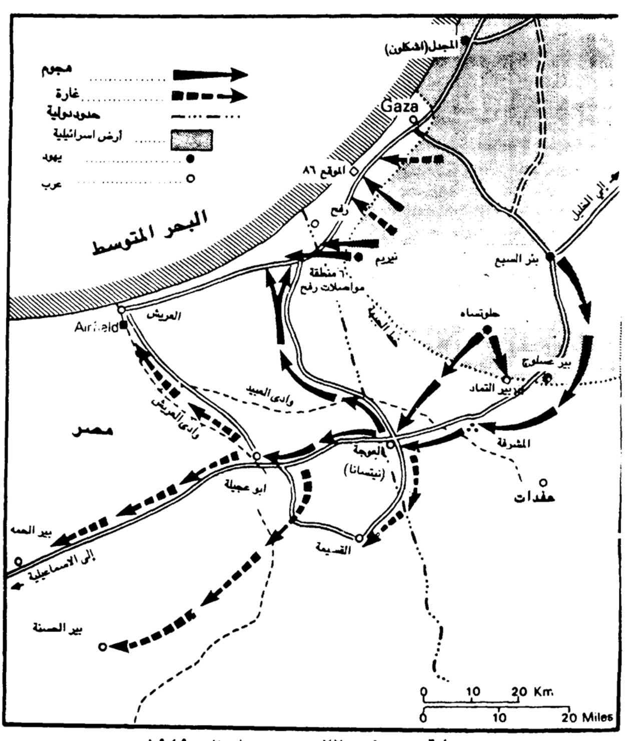
كانت القوات الموضوعة تحت إمرة قيادة المنطقة الجنوبية لتنفيذ عملية «حوريف» تتألف من خمسة ألوية: اللواء الثامن/ مدرعات بقيادة «يتسحاق ساديه»؛ وألوية «النقب» و«جولانى» و«هارئيل»، الذى تحرك من ممر القدس نحو الجنوب. واستمر لواء «الكسندرونى» فى حصاره لجيب الفالوجا. وقد سعت القيادة الاسرائيلية إلى تفادى الزج بالقوات فى عملية باهظة ضد كل موقع مصرى على حدة، حيث كان المصريون يتحكمون فى سلسلة من النقاط القوية فى منطقة بير عسلوج ، خاصة فى « بير الثميلة » و « المشرف » جنوبى بير عسلوج ، على الطريق إلى العوجه . وكانت القوات المصرية تنتشر بطول الطريق الرئيسى الواصل بين العوجة وبئر السبع ، لكن القيادة الاسرائيلية كانت على علم بوجود بقايا طريق رومانى قديم يمكن عن طريقه تجنب القوات المصرية والتقدم- كما حدث تقريباً - فى خط مستقيم من بئر السبع إلى العوجه . كان الطريق قد غطته الرمال، بمرور القرون، وفى حاجة إلى إصلاحات كبيرة حتى يصبح صالحاً للاستعمال، لكن استخدامه سيتفادى جميع المواقع المصرية فى منطقة بير عسلوج ويقطع خطوط اتصالها بالعوجة. ولصرف انتباه المصريين عن نشاط القوات المكلفة بإصلاح الطريق الرومانى، وتضليلها عن وجهة المجهود الاسرائيلى الرئيسى، قامت قوات «جولانى» بهجوم على منطقة غزة عند «خربة ماعين». وقد صدرت الأوامر إلى قوات «جولانى» بدق إسفين فى تلك المنطقة لمنع المصريين من استخدام الطريق الساحلى الرئيسى. وفى الشرق، كان على اللواء الثامن/ مدرعات، تدعمه كتيبة من لواء «هارئيل»، أن يستولى على

العوجه ثم التقدم فى شبه جزيرة سيناء باتجاه أبو عجيلة .إضافة إلى ذلك، كان على وحدات اللواء الثامن/ مدرعات أن تقطع الطريق الجانبى من رفح إلى العوجة، فى الوقت الذى تقوم فيه كتيبتان من لواء النقب بالاستيلاء على نقاط «بير الثميلة» و «المشرف» القوية على جانبى الطريق الرئيسى شمال العوجة. وكان للقصف الجوى والبحرى للقواعد والتجمعات المصرية أن يضاعف من الضغط عليها.

وفى ٢٢ ديسمبر، ووسط المطر الشديد على المناطق الساحلية والعواصف الرملية العنيفة على الصحراء جهة الشرق، بدأت عملية «حوريف». فقامت إحدى كتائب «جولانى» بهجوم مفاجئ واستولت على التبة ٨٦ المتحكمة فى طريق غزة - رفح. ورد المصريون بهجوم مضاد مركز بالمدرعات والمدفعية والعربات نصف المجنزرة الحاملة لقاذفات اللهب، وأجبروا قوات «جولانى» على الانسحاب. على أن الهجوم كان له أثره فى تركيز اهتمام المصريين على هذا القطاع. وقد شنت الغارات الجوية على المصريين فى القطاع الغربى فقط، وقامت الوحدات البحرية بقصف غزة. وأصبح المصريون الآن على قناعة بأن المجهود الإسرائيلى الرئيسى موجه ضد قواتهم الأقرب إلى الساحل . فى ذلك الوقت، كان المهندسون الاسرائيليون يعملون عملاً متواصلاً ليل نهار لإزاحة الرمال التى تراكمت على الطريق الرومانى القديم (والمعروف باسم ممر «روحيفا») وفرد شبكات السلك عليها. وبحلول ٢٥ ديسمبر، أصبح بمقدور قوة مدرعة أن تتحرك بحيوية على طول الطريق القديم. فى التوقيت نفسه، قامت وحدة كوماندوز بالاندفاع نحو الصحراء الشرقية، منطلقة من الشرق للاستيلاء على قلعة «المشرف»، لتقطع بذلك خطوط الاتصال بين القوات المصرية المتمركزة فى بير عسلوج. وقامت إحدى وحدات «النقب» بالاستيلاء على «بير الثميلة»، التى انسحب المدافعون عنها جنوباً إلى بير عسلوج.

حتى ٢٧ ديسمبر، لم تكن عملية اللواء المدرع ضد العوجة قد نجحت. وبالتوازى مع هذا تحرك لواء النقب لمواجهة بقايا المواقع المصرية بين بير عسلوج والعوجه، مما أدى إلى عزل بئر السبع عن العوجة. وبحلول ظهر ٢٧ ديسمبر، اكتمل الاستيلاء على تلك المواقع وتقدم لواء «النقب» على طريق بئر السبع - العوجه، ليتصل باللواء المدرع قبل أن ينصرم النهار. وأصبح طريق بئر السبع - العوجة بالكامل بأيد إسرائيلية، لتكتمل المرحلة الأولى من عملية «حوريف». وانهارت الجبهة الشرقية المصرية بكاملها، وصارت جميع القوات فى المنطقة بين فار أو أسير.

لم يكن حجم الهزيمة المصرية معروفاً بعد فى الخارج على الوجه الصحيح، لأن الحكومة المصرية عملت على تضليل شعبها ببيانات نصر زائفة . ولذلك، لم يكن الضغط السياسى على اسرائيل قد بدأ بعد. فى الوقت نفسه، كان من الواضح أنه ينبغى استغلال هذا الموقف الجديد

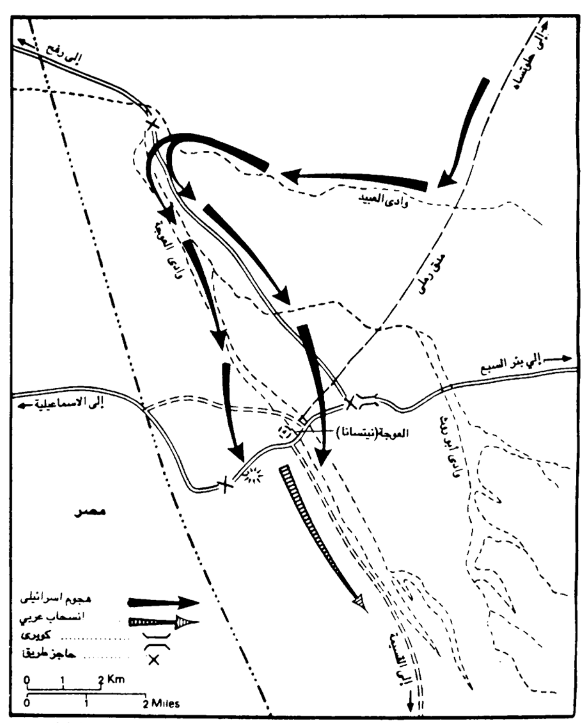


عملية «حوريف»، ٢٢ ديسمبر - ٨ يناير ١٩٤٩

للاستفادة من حالة الفوضى التى عمت المعسكر المصرى، ومنع استقرار القوات المصرية فى شبه جزيرة سيناء. وفى ليلة ٢٨ ديسمبر، قام لواء «النقب» تدعمه كتيبة دبابات، بعبور الحدود إلى سيناء بهدف الاستيلاء على أبى عجيلة. وبعد تصفية المقاومة فى «أم قطف»، دخلت كتيبة الكوماندوز التابعة للواء «النقب» أبو عجيلة دون مقاومة. وفى اليوم التالى، تحركت إحدى وحدات «النقب» جنوباً باتجاه العريش تتقدمها كتيبة دبابات لإنهاء المقاومة فى بير «لحفن» والوصول إلى مطار العريش، بينما وصلت وحدات «هارئيل» الجنوبية إلى قرية «القسيمة» وأعادت القوات الإسرائيلية المكلفة بضرب العريش من الجنوب تجمعها استعدادا للمرحلة التالية. وكان هدفها هو تهديد العريش ورفح، ومضاعفة الضغط من جانب لواء «جولانى» على جبهة غزة، لإجبار المصريين على سحب بقايا قواتهم من جنوب غربى فلسطين.

أثناء ذلك ، أمر مجلس الأمن، فى ٢٩ ديسمبر، بوقف آخر لإطلاق النار. وذهبت الاستغاثات المصرية إلى القوات العربية لشن هجمات خداعية على اسرائيل أدراج الرياح، لكن النجدة جاءت المصريين من حيث لايتوقعون. ففى أول يناير ١٩٤٩، تسلم السفير الأمريكى فى اسرائيل إنذاراً من الحكومة البريطانية : إذا لم تنسحب القوات الاسرائيلية من سيناء، فسوف تجد بريطانيا نفسها مضطرة إلى التدخل إلى جانب المصريين تنفيذاً لبنود المعاهدة الانجلو - مصرية لعام ١٩٣٦. (من الصدف الغريبة أن المصريين كانوا قد شنوا حملة من أجل إلغاء المعاهدة، وهو ماتحقق بعد ذلك بسبع سنوات على يد ناصر .) ولرغبته فى عدم الدخول فى مخاطر سياسية غير ضرورية، ولإدراكه لحالة الضعف الشديد التى تعانيها الدولة الجديدة، أصدر «بن جوريون» أوامره إلى الجنرال «آلون» بإرجاء الهجوم على العريش، ويسحب جميع القوات من سيناء اعتباراً من صباح ٢ يناير . ولولا ذلك الإنذار لوقعت القوات المصرية - التى كانت قد بدأت انسحابها بالفعل من غزة - فى الفوضى والهلاك .

بناء على ماتقدم، وضعت القيادة الاسرائيلية خططاًجديدة لتحقيق أهداف عملية «حوريف» دون العمل بشكل فعلى داخل الحدود المصرية. وقد تركزت الجهود على عزل القوات المصرية فى منطقة رفح، والاستيلاء على ملتقى الطرق بها. وتولى هذه المهمة «جولانى» و«هارئيل»، تدعمها كتيبة من لواء «النقب»، مع اللواء الثامن/ مدرعات والمتبقى من احتياط لواء النقب. وقامت قوة «جولانى» بهجومها ليلة ٣/٤ يناير ١٩٤٩، بهدف الاستيلاء على الجبانة القريبة والتبة ١٠٢، وقد نجحت فى الاستيلاء على الجبانة بينما عجزت عن الاستيلاء على التبة. وتحرك لواء «هارئيل» ووحدات من لواء «النقب»، تتقدمها الكتيبة الرابعة من «هارئيل»، من الجنوب نحو رفح. لم يكن استطلاعهم أو إعدادهم للعملية كافياً، لكن تقدمهم من موقع لموقع

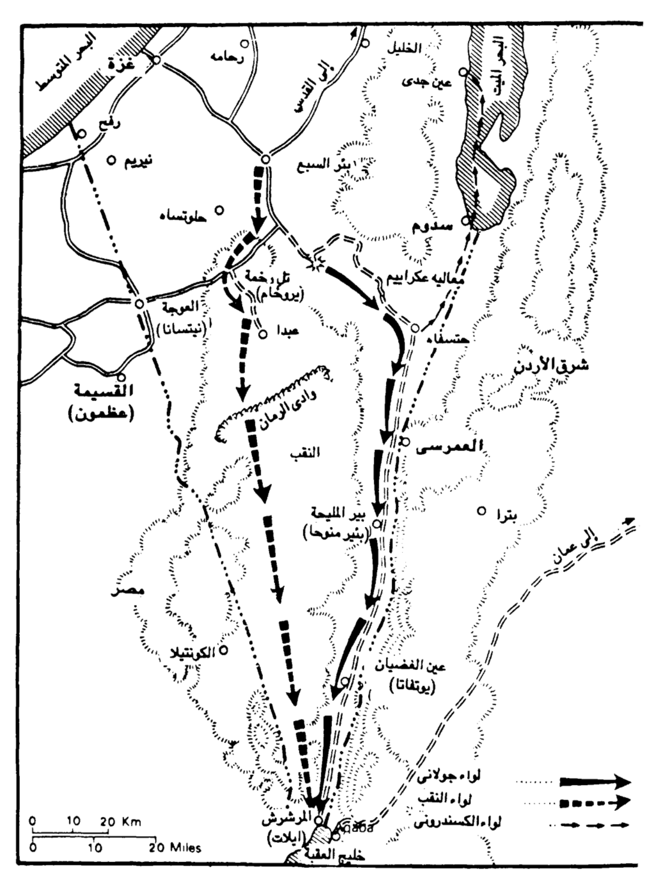


الاستيلاء على العوجة (نيتسانا) – عملية حوريف، ٢٧ ديسمبر ١٩٤٨

كان عنيداً واستطاعوا أن يستولوا على أربع من النقاط القوية، خلال الليل. كما وقع موقعان بأيدى الكتيبة الخامسة من اللواء بعد هجوم مباغت شرس. وقد دار القتال وسط عاصفة رملية شديدة، لكن اللواء المدرع المكلف باختراق معسكر رفح ، حتى تكتمل العملية، تأخر مرة أخرى ولم يصل فى الموعد المحدد. وفوق ذلك، وبسبب صعوبة الاتصال، فشل فى تنبيه قوات «هارئيل» التى كانت تحكم سيطرتها آنذاك على تقاطع الطرق، بالتأخير الذى حدث. وهكذا، عندما سمعت قوات «هارئيل» صوت المدرعات وهى تتقدم وسط العاصفة الرملية الكثيفة ظنوا أن ذلك إيذان بوصول التعزيزات من اللواء الثامن/ مدرعات. ولم يدركوا أنه هجوم مصرى مدرع إلا فى وقت متأخر للغاية . وبعد أن طُرد الاسرائيليين من الموقع ، قاموا بهجوم مضاد، لكنهم لم يتمكنوا من استرداد الأرض المفقودة .

فى أثناء ذلك، نجحت قوات جولانى فى توسيع المنطقة الواقعة تحت سيطرتها واتصلت اتصالاً شبه كامل بمواقع «هارئيل» لتطبق بذلك على معسكرات رفح. وباندماج القوات الإسرائيلية حول رفح واستعدادها للضربة النهائية التى ستؤدى إلى قطع خطوط المواصلات المصرية، أصبح مصير الجيش المصرى فى غزة فى كف القدر. وعندما انتشرت القوات الاسرائيلية للهجوم الأخير، ازدادت العاصفة الرملية حدة بحيث أصبح القيام بالعملية مستحيلاً. على أن القيادة المصرية كانت قد توصلت إلى استنتاج مؤداه أن القطاع الأكبر من الجيش قد هلك ، ولن تمضى ساعات قبل أن تقوم القوات الاسرائيلية بعزله عن مراكز إمداده وتدميره. ولإدراكها للقدر المحتوم، أعلنت الحكومة المصرية عن رغبتها فى الدخول فى مفاوضات من أجل التوصل إلى اتفاق للهدنة .

وتصاعد الضغط السياسى الدولى على اسرائيل فى الأمم المتحدة، وفى كل مكان. وأرسلت بريطانيا داورية من الطائرات المقاتلة للاستطلاع فوق سيناء وللتأكد من انسحاب اسرائيل من داخل الحدود المصرية. وقد اشتبك الطيارون الاسرائيليون، الذين كانوا يقومون بطلعاتهم فوق الحدود مع مصر، مع طائرات «سبتفاير» البريطانية، التى قامت (حسب تقارير الطيارين الاسرائيليين) بقصف خطوط المواصلات داخل اسرائيل. وقد وقعت سلسلة من المعارك الجوية عندما اعترضت المقاتلات الاسرائيلية الداورية البريطانية فوق المجال الجوى للنقب. وأسفرت الاشتباكات عن سقوط خمس طائرات بريطانية من طراز «سبتفاير»، أربعا منها فى اشتباكات جوية والخامسة بواسطة المدفعية الأرضية. وقد قتل اثنان من الطيارين البريطانيين ووقع آخران أسيرين فى أيدى الاسرائيليين ونجح الخامس فى الفرار إلى الخطوط المصرية. (أسقط طيار شاب كان يقود أول طائرة اسرائيلية من طراز «سكوادرون ١٠١» إحدى طائرت



عملية «عوفدا» ٦ – ١٠ مارس ١٩٤٩

سبتفاير، وهذا الشاب هو «عيزر وايزمن»، الذى سيصبح بعد ذلك بسنوات قائداً لسلاح الطيران ثم وزيراً للدفاع.) فى ذلك اليوم، قدمت داورية من سلاح الطيران الملكى، تتألف من طائرة طراز «موسكيتو» يرافقها عدد من طائرات «هوكرتمبستس»، للبحث عن طائرات «سبتفاير» المفقودة، واشتبكت أيضاً مع إحدى طائرات « سكوادرون» ١٠١، فسقطت طائرة «تمبستس». وكان رد الفعل البريطانى على هذا غاضبا وعنيفاً، ولم يجد الاسرائيليون أمامهم سوى القبول بوقف إطلاق النار، والذى بدأ سريانه فى ٧ يناير .

بمقتضى قرار التقسيم، آلت منطقة النقب برأسها عندالقمة الشمالية لخليج العقبة، حيث تصل المسافة بين الحدود المصرية والأردنية إلى حوالى ستة أميال، إلى دولة اسرائيل، لكنها لم تكن كلها تحت السيطرة الإسرائيلية الفعلية. وكان الأردنيون، الذين دخلوا فى محادثات مبدئية آنذاك، يتمتعون بشىء من السيطرة العسكرية فى الجزء الجنوبى من النقب، فطالبوا بضم تلك المنطقة إلى الأردن. وقد رأى الاسرائيليون فى ذلك الحين، أن أنسب وقت لإحكام السيطرة على المنطقة هو الفترة مابين توقيع اتفاق الهدنة مع مصر وبدء محادثات الهدنة مع الأردن. ومن هنا، قامت ألوية «النقب» و «جولانى» فى مارس ١٩٤٩، باستهلال عملية «عوفدا». وبسبب وقف إطلاق النار، صدرت أوامر مشددة بعدم الاشتباك مع القوات الأردنية فى النقب أو القيام بأية نشاطات عدائية ضدها. إذ كان التصور المطروح هو أن تتم العملية على شكل سلسلة من المناورات تتفادى الداوريات الأردنية الصغيرة فى المنطقة وتضع مواقعها فى موقف يتعذر معه الدفاع عنها. وتحركت القوة الرئيسية (لواء النقب) جنوباً عبر وديان وجبال النقب الأوسط، بينما تحرك لواء «جولانى» جنوباً على طريق «وادى عربة» بمحاذاة الحدود الأردنية.

وفتحت بعض الداوريات الأردنية نيرانها، لكن القوات الاسرائيلية التى كانت تفوقها كثيراً من حيث العدد والتى أقامت مطاراً مؤقتاً للإمداد وسط صحراء النقب، نجحت بسهولة فى تجنبها. وبحلول ١٠ مارس، انسحبت تلك المواقع الأردنية الصغيرة عبر الحدود، وأخليت «أم رشرش» (المرشرش)، وهى مخفر صحراوى على البحر الأحمر. وبعد ذلك بساعتين، وصلت القوات الاسرائيلية إلى الموقع، وتسلق الكابتن ابراهام (برن) ادان»، قائد إحدى كتائب النقب، أحد الأعمدة وعلق عليه علما مرتجلا – قطعة من القماش رُسم عليها بالحبر نجمة داود – معلناً سلطة اسرائيل على ماأصبح فيما بعد ميناء إيلات. و«أدان»، ذو الشعر القصير المجعد الجميل، واحد من أبناء كيبوتس «نيريم»، حيث حارب للمرة الأولى ضد قوات الغزو المصرية، وهو من المحنكين فى حروب النقب، قاد فيما بعد سلاح المدرعات الإسرائيلى وبالتالى إحدى الفرق التى عبرت قناة السويس أثناء حرب ١٩٧٣، لتطويق الجيش الثالث المصرى .

الخلاصـــــة

النصر الإسرائيلى

فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩، تم توقيع اتفاقية الهدنة مع مصر بجزيرة رودس. وأصبحت خطوط الجبهة وقت توقف القتال هى خطوط الهدنة، وظل الشريط الساحلى فى غزه بأيدى المصريين ولم تعد سيطرة اسرائيل على النقب محل نقاش. وخرج اللواء المصرى المحاصر فى الفالوجا بأسلحته مع كامل مراسم التشريف العسكرى من جانب الاسرائيليين، وعاد إلى مصر. ثم جاءت بعد ذلك اتفاقية الهدنة مع لبنان فى ٢٣ مارس، ومع سوريا فى ٢٠ يوليو، حيث انسحب السوريون من رأس جسر «مشمار هايردين»، الذى كان له أن يظل منزوع السلاح.

وانتهت حرب الاستقلال. وقامت دولة اسرائيل داخل حدود تقرها اتفاقات الهدنة. وكان لتلك الاتفاقات، التى أقرت لتكون مدخلاً لمعاهدة سلام توقع خلال ستة أشهر، إن تستمر لسنوات، بل وأن تسقط لأنها لم تحترم من جانب من وقعوا عليها من العرب. وكل اقتراح قدمه الاسرائيليون على مر السنين، بحل وسط للتوصل إلى السلام، رفضه العرب. وكانت النقطة الحاسمة فى المشكلة ولاتزال، هى رفض الدول العربية الاعتراف بحق الدولة اليهودية فى الشرق الأوسط بالبقاء .

لقد بذلت المحاولات من جانب عرب فلسطين، على مر الأعوام، لكى يفرضوا على الآخرين الاعتراف بحقوقهم، لكن دون جدى . ففى ١٩٤٩، حاول ممثلو اللاجئين الفلسطينيين عرض قضيتهم على لجنة التوفيق الخاصة بفلسطين والمنعقدة بلوزان، فى محاولة للوصول إلى حل وسط مع إسرائيل، لكن الحكومات العربية لم تقر هذا العمل من جانبهم. وفى العديد من المناسبات، عرض «بن جوريون» لقاء القيادة العربية (وهو، فى الحقيقة، نفس النهج الذى انتهجه رؤساء الوزارة الذين جاءوا بعده) من أجل التوصل إلى حل للمشكلة، لكن لم تكن هناك زعامة عربية مؤهلة لمثل تلك الخطوة، حتى جاءت زيارة الرئيس السادات التاريخية للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ .

نتيجة لهذا الصراع ، ظهرت إلى الوجود مشكلتى لاجئين كبريين ، يعانى من كل منها حوالى ٨٠٠ ألف شخص : مشكلة اللاجئ العربى الفلسطينى، ومشكلة اللاجىء اليهودى، وقد

نشأت المشكلة الأخيرة عندما قامت البلاد العربية بطرد السكان اليهود المقيمين بها كرد على قيام دولة اسرائيل. وقام الشعب اليهودى ودولة اسرائيل بحل مشكلة اللاجئ اليهودى سريعاً بإعادة توطين اليهود، فى اسرائيل بشكل أساسى. لكن الحكومات العربية فضلت أن تجعل من مشكلة اللاجئ العربى مشكلة مزمنة، وذلك لاستخدام اللاجئين العرب كورقة سياسية على مر الاعوام، بينما تترك اجيالاً منهم تولد وتشب داخل معسكرات اللاجئين البائسة بالشرق الأوسط، التى تدعمها المؤسسات الخيرية الدولية. (إن عوائد يوم واحد من النفط، حتى بمعدلات ١٩٤٩، كانت كفيلة بحل مشكلة اللاجئين بالكامل، لكن شيئاً من هذا لم يحدث.)

لقد صيغت الأمة الاسرائيلية فى أتون حرب دموية . وكان عليها أن تدافع عن نفسها فى مواجهة قوة عددية وحربية هائلة، وأن تفقد واحدا بالمائة من سكانها. ففى حرب الاستقلال فقدت اسرائيل ستة آلاف، أربعة منهم من القوات المسلحة (وهو مايعنى أن تفقد الولايات المتحدة فى معاركها ٥ر٢ مليون، وبريطانيا نصف مليون، أو ٣٥ ألف – وهو مجموع مافقدته أميركا تقريباً فى حرب فيتنام – تفقدهم اسرائيل اليوم .) .

كان انتصار اسرائيل حصادا للتضحية بالنفس، وتصميم شعب على القتال من أجل بقائه. وكانت الروح التى انبعثت والشجاعة التى لازمتها من إنجاز شكل نادر من الزعامة الملهمة العاقدة العزم. فـ «بن جوريون» ينتمى إلى طراز الرجال من أمثال «تشرشل» و«روزفلت» و «ديجول». قيادة قوية وتاريخية، تمتلك من الخيال مايجعلها ترى عدة خطوات إلى الأمام وتمسك بالقضايا الأساسية التى تواجه الأمة، مع الشجاعة الكافية للتقدم فى وجه المستحيل ومطالبة شعبه بأقصى درجات التضحية. وكان يتمتع، فوق ذلك، بما يكفى من قوة الشخصية والزعامة والقدرة على الجمع بين رؤى وفلسفات مختلفة لتحقيق غاية عامة واحدة. كان يتمتع بالفهم والرؤية التاريخية بما يكفى كى يقدر فى وقت مبكر (أواخر ١٩٤٥) أنه لايمكن الاتفاق على استقرار مع البريطانيين، ولذلك فإن على اليهود فى فلسطين أن يعدوا العدة لإقامة جيش وطنى ولحرب شاملة. ولو لم يدرك «بن جوريون» دلالة التطورات الجديدة، لباغتت الأحداث يهود فلسطين ووجدوا أنفسهم غير مستعدين على الإطلاق، سواء عسكرياً أو سياسياً. وبينما كان زملاء «بن جوريون»، وكذلك معارضيه، يفكرون من زاوية الغارات الفدائية وحرب الأنصار ذات الوحدات الصغيرة، أدرك «بن جوريون» أنه لاحلول وسط وأن عليه أن يقطع الشوط لنهايته. وفوق كل ذلك، فقد كان يعلم مايريد ولايعرف المساومة، ومن هنا جاء تصميمه، فى كل المراحل، على الإعداد لحرب شاملة وعلى الفهم الواضح لمعنى الدولة الذى اصطدم فى بعض الأوقات بالفوضى وتناقضات بعض الأيديولوجيات الصهيونية التى عفا عليها الزمن. صحيح

أنه وقع فى أخطاء، لكنها كانت أخطاء رجل عظيم. ولولا بصيرته، وخياله، وإصراره، لحلّت الكارثة .

إذا ما استعدنا الأحداث فسنجد أنه باستثناء عدد قليل من العلامات البارزة مثل «ييجال آلون» و «شمعون افيدان»، كان الجنرالات الاسرائيليون غير متمرسين ويفتقدون إلى الخيال. لكن «بن جوريون» أمكنه تعويض ذلك بقوة الشخصية ووضوح الرؤية والتمكن والخيال واستيعاب القضايا المطروحة ، وبالشجاعة الفائقة للقيادة العسكرية الإسرائيلية فى الميدان. لقد وقعت وطأة القتال أثناء حرب الاستقلال على الكتيبة والسرية. وكانت حرب الاستقلال هى التى أرست قواعد القيادة والقدوة الشخصية والتضحية بالنفس، تلك السمات التى أصبحت تميز الضابط وصف الضباط الاسرائيليين فى المعارك. وإن كثيرين من الجنرالات البارزين الذين قادوا جيش الدفاع الاسرائيلى فى أربع حروب أخرى، كانوا قادة للكتائب والسرايا والفصائل أثناء حرب الاستقلال. وفى معمعان القتال، تحول ماكان جيشاً للأنصار، قوامه الهاجاناه، التى أضيف إليها عناصر إرجون وليحى، إلى جيش نظامى. إن القوة، ذات الطابع المدنى بالأساس، والتى حاربت من أجل قرى ومنازل ومدن فلسطين، هى التى أرست نموذج المستقبل. فقد استمر جيش الدفاع الإسرائيلى كجيش مدنى يتألف من عناصر نظامية قليلة وقوة احتياط كبيرة. والذى وضع نظام الاحتياط العالى الكفاءة للجيش، بعد تأسيس الدولة، هوالجنرال «ييجال يادين»، ثانى رئيس لأركان القوات المسلحة. وقد أضفى الاعتماد على الاحتياط سمة التمهل، تلك السمة التى صارت تميز الجيش الاسرائيلى بعد ذلك. لقد تركت فترة التكوين، والقتال فى حرب دموية من أجل بقاء أمة، بصماتها بوضوح على جيش الدفاع الإسرائيلى. فقد كان للحرب والى استمرت لثلاثين عاما، بصورة متقطعة، قبل توقيع معاهدة السلام الأولى مع دولة عربية، أثرها على القوات المسلحة التى نأت بنفسها عن الزينات والأبهة العسكرية، ورسوخ النظرة إلى الجيش باعتباره آلة حربية وشر لابد منه لاأكثر .

ترتب على الظروف القاسية التى عمل فى ظلها الجيش الإسرائيلى أثناء حرب الاستقلال -ضعف قواه البشرية، ونقص التسليح الحديث، والقتال على أكثر من جبهة فى وقت واحد - نشوء فلسفة عسكرية ترتكز على المرونة والمفاجأة والابتكار. وأصبح القتال الليلى بمثابة الطبيعة الثانية - تقريباً - للقوات الاسرائيلية ، لأن الظلام كان يُفقد القوات العربية مزاياها، إلى حد ما. والحقيقة أن جميع الهجمات تقريباً، التى شنتها القوات الإسرائيلية أثناء حرب الاستقلال تمت ليلاً. السرعة، العمليات الخاصة، مناورات الالتفاف. اجتمع كل ذلك ليؤكد على

طبيعة عمليات القوات المسلحة الوليدة. يضاف إلى ذلك مرونة التفكير، التى جعلت القائد يتكيف مع المواقف العديدة وغير المتوقعة وسط القتال، والاستفادة من الظروف المتغيرة فى الميدان. إن التصلب فى الرأى والاعتماد المغالى فيه على القيادات الأعلى أمر لم يكن له مكان مطلقاً فى القوات الإسرائيلية. هكذا قام جيش الدفاع الاسرائيلى، الذى أصبح عنصراً عسكرياً كبيراً فى الشرق الأوسط، لاكقوة محلية فحسب، وإنما كعنصر استراتيجى هام فى المنطقة.

على الجبهة المقابلة، وقف الفيلق العربى بقيادته وضباطه البريطانيين، كجيش بارز. وحتى بعد أن تركه البريطانيون بعد ذلك بسنوات، ظل الفيلق أكثر الجيوش العربية كفاءة، فهو جيد القيادة وحسن التنظيم، ويتمتع أفراده بالشجاعة. وقد أثبتت الجيوش العربية كلها، باستثناء جيش الانقاذ العربى بقيادة القاوقجى، فعاليتها الشديدة فى الدفاع، وهو ماظل يميزها لسنوات تالية. وفشلها فى الهجوم ناجم من عدم قدرة القادة الصغار بالميدان على التكيف السريع حسب مستجدات القتال، عندما تصادف خطتهم الموضوعة عقبة ما. يضاف إلى كل ذلك أن المشاحنات فيما بين العرب – التى كانت تندلع بين حين وآخر، على مر السنين، فى شكل منازعات متبادلة حادة – أنزلت الكارثة بالقوات العربية. فبينما كانوا يحاربون جميعا اسرائيل، كان محتماً أن ينظر كل منهم، من فوق كتفه، إلى حليفه فى جو من عدم الثقة. وبذلك لم يكن بمقدروهم الاستفادة الكاملة من تفوقهم الكاسح، فى وقت كانت فيه القوات الاسرائيلية، التى تعمل على خطوط مواصلات داخلية، قادرة على الاستفادة من هذا الموقف، تنقل قواتها من جبهة إلى أخرى وتطور هجماتها على قوة عربية واحدة، وهى مدركة تماماً بأنها لن تتعرض لضغط عسكرى على جبهات أخرى .

فى حرب الاستقلال، كان مصير اسرائيل محفوفاً بالمخاطر. وقد أنقذته القيادة التاريخية والعظيمة لبن جوريون، الذى قاد أمة لديها الرغبة فى الحياة، ومستعدة للتضحية بكل شىء من أجل تحقيق غايتها. وقد قدمت تلك التضحيات فى حرب الاستقلال، وكان لها أن تستمر فى تقديمها فيما تلا ذلك من سنوات .

الباب الثانى

حملة سيناء (١٩٥٦)

حملة سيناء (١٩٥٦)

خلال السنوات السبع التى تلت توقيع اتفاقات الهدنة، وبدلاً من التوصل إلى اتفاق سلام كما كان متصوراً عند توقيع الاتفاقات، ازداد الصراع بين إسرائيل والدول العربية، وتدهورت الأوضاع على الحدود الاسرائيلية (باستثناء حدودها مع لبنان) . فالعرب مصممون على رفض وجود اسرائيل كدولة ذات سيادة، وعضو فى الأسرة الدولية ، وكيان مستقل. وبينما انتهت حرب الاستقلال كحرب، بالمعنى المادى ، فإن أسبابها ودوافع العداء من جانب الدولة العربية تجاه اسرائيل استمرت وتفاقمت. وخلال شهور من توقيع اتفاقات هدنة ١٩٤٩، أصبحت غارات الحدود والهجمات والحرب الاقتصادية وغيرها، من الانتهاكات المعتادة. وبحلول ١٩٥٤، أصبح من الواضح أن هجمات الفدائيين * لم تكن حوادث فردية معزولة، وإنما – مثلها مثل العقوبات الاقتصادية ضد المصالح التجارية والملاحية – عملية منظمة تتم بعلم وتنسيق الحكومات العربية .

أنظمة جديدة: صعود ناصر فى مصر

أدت الهزيمة العربية الكبرى فى ١٩٤٨، إلى تفاقم العديد من مشاكل العرب الداخلية، وصعود العناصر المتطرفة إلى مركز الصدارة، وظهور جو من عدم الاستقرار ونذر الثورة فى عدد من البلاد العربية. ففى يوليو ١٩٥١، اغتيل الملك عبدالله ملك الأردن، الذى كان قد توصل إلى اتفاق سرى مبدئى يهدف إلى تحقيق السلام مع اسرائيل.. قتله عملاء الحاج «أمين الحسينى»، مفتى القدس، على سلم المسجد الأقصى فوق جبل المعبد بالقدس. (كان إلى جواره حفيده، حسين، الذى نصب ملكاً على الأردن بعد ذلك بعام). وفى مصر، جرى اغتيال رئيس الوزراء «النقراشى باشا»، كنتيجة للحرب. كما أطاح الجنرال «حسنى الزعيم» بالحكومة السورية فى ١٩٤٩، وأُطيح به فى ١٩٥١؛ ومنذ ذلك الحين وسوريا عرضة للعديد من الثورات العسكرية. وفى مصر، قامت مجموعة عرفت باسم «الضباط الأحرار»، بقيادة البكباشى «جمال عبد الناصر» بالاستيلاء على الحكم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ونفت الملك فاروق . ولفترة،

---

* كلمة عربية للتدليل على الجماعات الانتحارية أو الكوماندوز ، نابعة من المفاهيم الإسلامية فى العصور الوسطى . ويتسع معناها فى العصر الحديث لتشمل الكوماندوز وجماعات التخريب، ورجال العصابات والإرهابيين ممن يمارسون الاغتيال السياسى .

نصَّب الضباط الجنرال محمد نجيب قائدا لهم، بعد أن عاد من حرب فلسطين كشخصية شعبية، ثم عزلوه وسرعان ماانتقلت السلطة الكاملة فى الجمهورية الجديدة إلى يد ناصر . (كان البكباشى أنور السادات أحد الأعضاء القياديين فى مجموعة الضباط الأحرار وشارك فى الثورة، وأصبح فيما بعد رئيساً لمصر، وهو أول زعيم عربى يوقع معاهدة سلام مع اسرائيل) . وفى الأردن، أدت تحركات الحكومة البريطانية، لحث المملكة على الانضمام إلى التحالف الغربى الشرق أوسطى المعروف بـ «حلف بغداد»، إلى اندلاع الاضطرابات فى ديسمبر ١٩٥٤. وكان رد الفعل المتطرف هذا سبباً فى إحداث تغيير فى توجهات الحكومة الأردنية، معادية للغرب ومؤيدة لناصر: سرعان ماسُرِّح جلوب باشا والضباط البريطانيون من الفيلق العربى، كما تعددت، منذ ذلك الحين، الإغارات الفدائية على الأهداف الاسرائيلية من الأردن .

فى بادئ الأمر، رحبت إسرائيل بصعود ناصر إلى السلطة فى مصر. والحقيقة أن أهداف الثورة والاتصالات الأولية مع نظام ناصر أحيت الأمل فى المستقبل. لكن خلط ناصر بين الراديكالية والقومية العربية المتطرفة، إضافة إلى طموحه لزعامة العالم العربى، وبروزه فى العالم الإسلامى، وإعطائه الأولوية لما عرف بمجموعة «عدم الانحياز» (التى أسسها مع الرئيس تيتو ونهرو)، أصبح، بالتدريج ، تعبيرا عن عداوة مريرة وعمياء لاسرائيل، وهو ماقاد مصر إلى المأساة .

وفى أواخر سنة ١٩٥٥، عُقدت صفقة أسلحة كبيرة بين مصر وتشيكوسلوفاكيا، حصلت مصر بمقتضاها على أسلحة حديثة. وكان هذا، حسب ماأعلنه ناصر، خطوة كبيرة على طريق المعركة الحاسمة للقضاء على اسرائيل. حصلت مصر على ٥٣٠ مركبة مدرعة (٢٣٠ دبابة، و ٢٠٠ عربة مصفحة حاملة جنود ، و ١٠٠ مدفع ذاتى الحركة)، وحوالى ٥٠٠ مدفع من أنواع مختلفة، ٢٠٠ طائرة بين قاذفة ومقاتلة ونقل، إضافة إلى مدمرات وزوارق طوربيد وغواصات. وهكذا حصل السوفييت على أكبر موطئ قدم لهم فى الشرق الأوسط. وكانت صفقة الأسلحة هذه مع الكتلة الشرقية بمثابة دعم كبير لطموحات ناصر. فقد ثبَّت أقدامه كزعيم للمعادين للإمبريالية الغربية فى الشرق الأوسط، وكعقبة كأداء فى وجه البريطانيين والفرنسيين فى المنطقة. وإلى جانب تأييده للحكومات الراديكالية فى أفريقيا ومساندة غارات الفدائيين على اسرائيل، نشط فى مساعدة ثوار جبهة التحرير الجزائرية ضد الحكم الفرنسى، وقد خلق هذا رابطة للمصالح المشتركة بين اسرائيل وفرنسا تمكن «شيمون بريز» (المدير العام النشط

لوزارة الدفاع الاسرائيلية آنذاك) من خلالها أن يقيم مجالات عديدة للتعاون بين البلدين. وأصبحت اسرائيل تتلقى شحنات من الأسلحة الفرنسية (بالرغم من أنها تسمح - بالكاد - بألا تزيد نسبة التفوق المصرى فى التسليح عن ٤ : ١، عشية حملة سيناء).

فى ذلك الوقت، قامت مصر بإغلاق الملاحة فى وجه السفن الاسرائيلية بالممرات الدولية للمنطقة، منتهكة بذلك اتفاقية الهدنة لعام ١٩٤٩، وكذلك القانون الدولى. فالسفن الاسرائيلية لكى تصل إلى البحر الأحمر وتحتفظ بصلاتها التجارية والملاحية مع الشرق الأقصى وأفريقيا، عليها أن تعبر مضايق تيران، التى قامت مصر بإغلاقها بوضع بطارية مدفعية ساحلية عند رأس نصرانى. كما منعت مصر مرور السفن الاسرائيلية عبر قناة السويس، بالرغم من أن قرار مجلس الأمن الصادر فى ١٩٥١، كان قد وجه الانتقاد لسياسة مصر فى هذه المسألة. ولكن، وحتى بعد صدور هذا القرار، قامت مصر، يساندها الاتحاد السوفيتى سياسياً، بتوسيع نطاق القيود الملاحية واحتجزت السفن والبضائع الاسرائيلية وكذلك الملاحين .

دخل ناصر فى مفاوضات مع البريطانيين حول انسحاب قواتهم من منطقة قناة السويس، التى ظلت تتمركز فيها لما يزيد على الثمانين عاماً وفقاً لمعاهدة . كذلك كان ناصر يتفاوض مع حكومة الولايات المتحدة والحكومة البريطانية من أجل الحصول على قرض من البنك الدولى للتعمير والتنمية لتمويل بناء سد على نهر النيل، عند أسوان. وكان ذلك بغرض توفير الطاقة الكهربائية، والتحكم فى فيضان النيل، وزيادة الرقعة الزراعية المروية لمصر زيادة كبيرة. فى الوقت نفسه، كان يقوم بمفاوضات موازية حول هذا المشروع مع الاتحاد السوفيتى. لكن محاولته للّعب على الغرب والشرق فى هذا الموضوع أثار حنق «جون فوستر دالاس» وزير خارجية الولايات المتحدة، فقام بسحب العرض الأمريكى بتمويل السد فى يوليو ١٩٥٦. وقد أثار ذلك غضب ناصر، فقام بتأميم قناة السويس فى ٢٧ يوليو ١٩٥٦ *، وذلك بإلغاء إدارة شركة قناة السويس لها، والتى كانت بريطانيا تمتلك غالبية أسهمها، وإلغاء المعاهدة الأنجلو - مصرية . ورأت كل من انجلترا وفرنسا فى تأميم القناة تهديداً لمصالحهما الاستراتيجية - بما فى ذلك طرق إمدادات النفط - فبدأت الدولتان تعد الخطط المحتملة. وتحركت القوات إلى مالطة وقبرص بالبحر المتوسط استعداداً لاستعادة منطقة القناة - وبشكل غير مباشر - إسقاط ناصر. وبينما تظل مثل هذه الحملة مستقلة من الوجهة الموضوعية عن المشكلات العربية الاسرائيلية المحلية، إلا أن تلك المشكلات كان لها أثرها فى هذا الصدد. وهو عامل أسهم ، دون شك ، فى اتخاذ القرار قبل بدء الحملة .

---

* أعلن قرار تأميم القناة فى ٢٦ يوليو وليس ٢٧ كما يورد المؤلف . (المترجم) .

فى هذا الوقت توصلت القيادة الاسرائيلية إلى استنتاج مؤداه أن ناصر ينوى شن حرب شاملة على اسرائيل. وكان هذا هو التفسير الوحيد لقيام قيادة عسكرية مشتركة بين مصر وسوريا فى اكتوبر ١٩٥٥ (اتسعت فى ١٩٥٦ لتشمل الأردن) . وكان إغلاق قناة السويس وخليج العقبة جزءاً من حرب اقتصادية شاملة موجهة ضد اسرائيل، فى وقت تزايدت فيه غارات الفدائيين على إسرائيل وتزايد عدد الضحايا زيادة كبيرة؛ إذ بلغ عدد القتلى والجرحى من الاسرائيليين على أيدى الفدائيين عام ١٩٥٥ حوالى ٢٦٠ مواطنا. كان على المصريين أن يستوعبوا سريعاً الأسلحة التى حصلوا عليها من الكتلة السوفيتية . وكان واضحاً أن اسرائيل لن تسمح لناصر بتنفيذ خططه دون عقاب . ومن هنا ، رأى بن جوريون ، فى يوليو ١٩٥٦، أنه لامفر من القيام بضربة وقائية، فأصدر تعليماته إلى قيادة الأركان الاسرائيلية العامة للتخطيط لحرب خلال عام ١٩٥٦، يركز هذا التخطيط بالأساس على فتح مضايق تيران .

وفى تلك الأثناء، كانت اسرائيل تقوم بجهود دبلوماسية للحصول على إمدادات عسكرية من فرنسا. وحسب رواية «موشى دايان»، رئيس الأركان فى ذلك الحين، فإن الملحق العسكرى الاسرائيلى بباريس، أبرق إليه فى أوائل سبتمبر ١٩٥٩ يخبره بالخطط الأنجلو – فرنسية المتعلقة بقناة السويس، ويعلمه بأن الأدميرال «بيير بارجو»، المقترح تعيينه كنائب لقائد القوات المشتركة، يرى ضرورة دعوة اسرائيل للاشتراك فى العملية . وكانت تعليمات «بن جوريون» هى أن يكون الرد بأن اسرائيل مستعدة، من حيث المبدأ، للتعاون . وبعد ذلك بستة أيام، عقد اجتماع استكشافى بين رئيس العمليات الاسرائيلى وبين ممثلين عسكريين فرنسيين، بينما كان «شمعون بيريز» يواصل محادثاته فى باريس مع «موريس بورج – مونورى» وزير الدفاع الفرنسى. وفى نهاية الشهر، التقى وفد اسرائيلى برئاسة «جولدا مئير» وزيرة الخارجية وعضوية «بيريز» و «دايان» بوفد فرنسى ضم وزير الدفاع الفرنسى ووزير الخارجية «كريستيان بينو». وتصاعدت اللقاءات الفرنسية الاسرائيلية ، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه الاستعدادات لضرب مصر. وفى ٢١ اكتوبر ، وبناء على دعوة فرنسية، توجه «بن جوريون» إلى «سيفر» بفرنسا، وبصحبته «شمعون بيريز» و «موشى دايان». وانضم إلى هذه المحادثات، التى شارك فيها «جى موليه» رئيس الوزراء الفرنسى، وفد بريطانى يضم «سلوين لويد» وزير الخارجية البريطانى ومسئول آخر كبير. وبعد مناقشات طويلة، كان «بن جوريون» خلالها متردداً بسبب عدم ثقته المتأصلة فى البريطانيين، تم الاتفاق على خطة لاتبدو تحركات اسرائيل الأولى فى إطارها كغزو، وبحيث يمكن للقوات الاسرائيلية الانسحاب فى حالة عدم وفاء الحلفاء الانجليز والفرنسيين بواجباتهم الواردة بالاتفاق. وهناك عامل آخر كان له أثره فى الموقف ألا

وهو انشغال كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (أو هكذا كان التقدير وقتها)، بصورة تحد من حرية الدولتين في الحركة. فالولايات المتحدة كانت تعيش معمعان معركة الرئاسة، والمفترض ألا يتخذ الرئيس «ايزنهاور» خلالها أي قرار دولي حيوي يمكن أن يؤثر على فرص إعادة انتخابه. وبالطريقة نفسها، كان الاتحاد السوفيتي، وعلى مدى ثلاثة شهور قبل الحملة، مشغولا في قمع حركة التحرر القومي الساعية إلى التحرر والتي بدأت تعلن عن نفسها في بولندا والمجر.

وبحلول شهر اكتوبر ١٩٥٦. بدأ التهديد المصري لاسرائيل يتخذ شكلاً نشطاً ومتصاعداً. فبلغت غارات الفدائيين ذروتها، سواء من حيث الكثافة أو العنف، ولم تفلح سياسة الانتقام الاسرائيلية في وضع حد لها وأمام هذا الوضع - إضافة إلى الموقف الدولي - كان على إسرائيل أن تستفيد من الظروف لوضع حد لتحكم مصر في خطوطها الملاحية ومناطق الحدود. وكان هناك أهداف ثلاثة إبعاد التهديد المصري. كلياً أو جزئياً، عن سيناء؛ تدمير شبكة الفدائيين؛ تأمين الملاحة عبر مضايق تيران * . وبهذه الطريقة وحدها يمكن لاسرائيل أن تصبح في موضع تفاوضي مريح خلال الصراع السياسي الذي لامفر منه بعد انتهاء العمليات.

ميدان القتال والقوات المتحاربة

شبه جزيرة سيناء عبارة عن صحراء قاحلة على شكل مثلث مقلوب، تقوم بدور كل من الممر الواصل والسد الفاصل بين مصر وإسرائيل. وهي تقدم لكل من الطرفين نقطة وثوب مثالية في حالة هجوم أي منهما على الآخر. ويبلغ طول حدّها الشمالي، على ساحل البحر المتوسط، ١٣٤ ميلا؛ وطول حدّها الغربي، بطول ضفاف قناة السويس وخليج السويس، ٢١١ ميلا؛ ويحدّها من الشرق خليج العقبة، وطول هذا الضلع ١٥٥ ميلا . وتتنوع الطبوغرافية فيها من الكثبان الرملية المتموجة والسلاسل الجبلية وبساتين النخيل والمسطحات الوعرة في النصف الشمالي، إلى سلسلة رأسية من القمم الجبلية التي يصل ارتفاعها إلى ٣٥٠٠ قدم في المنطقة الجبلية الوسطى. ولايوجد بالمنطقة سوى محاور قليلة للمرور. واستطاعت مصر أن تحول الممرات المهملة، فيما بين القمم العالية والوديان الرملية العميقة، إلى طرق رئيسية. وتنطلق هذه

* يستبدل «دايان» في مذكراته «الهدف الأول بهدف أخر هو «إسقاط جمال عبد الناصر» .
انظر : محمد حسنين هيكل ، ملفات السويس ص ٣٧٤ (المترجم) .

الطرق من قناة السويس باتجاه الشرق: من القنطرة إلى العريش فى الشمال، ومن الاسماعيلية إلى أبو عجيلة فى الوسط. وفى أقصى الجنوب، أقاموا طريقاً يربط بين السويس، المدينة الجنوبية للقناة، وبين قرية وقاعدة تدريب «نخل»، شرقى ممر متلا الشاهق الارتفاع. وقد شيدت إلى الغرب بمحاذاة الحدود المصرية الاسرائيلية، طرقاً تربط بين الشمال والجنوب، بين القسيمة والكونتيلا ورأس النقب وكذلك فى القطاع الأوسط، لربط العريش ببير الحسنة ونخل .

ويمثل النصف الأسفل من شبه الجزيرة أكثر أشكال طبوغرافية الصحراء صرامة، من قمم جبلية منشارية الحواف وشديدة الانحدار، إلى وديان عميقة قاحلة وطرق مشجرة مهملة. والحقيقة أن الطريق الوحيد الصالح للاستخدام بهذه المنطقة هو الطريق الساحلى الذى بناه المصريون والذى يربط بين السويس ورأس سدر والطور وشرم الشيخ .

وقد أملت طبيعة المنطقة سير الحرب فى سيناء، على مرالعصور: حرب ترتكز على الطرق المهملة والقمم الاستراتيجية المشرفة على تلك الطرق. فسيناء لايتخللها أنهار أو غابات أو أدغال، والقتال محكوم سلفاً بمتطلبات الصحراء، وهو ماظهر جلياً خلال المعارك التى دارت هناك فى ١٩٥٦ .

كان الوجود العسكرى المصرى فى سيناء حتى ١٩٥٢ ، وجوداً دفاعياً صرفاً، لايزيد عن كتيبة مدعمة، مهمتها الأساسية التصدى لعميات تهريب المخدرات، التى كانت تتم هناك على نطاق واسع. وقد انتهى هذا الوضع على نحو مفاجئ عندما مدّ ناصر الطرق.. لابغرض الاستخدام المدنى ، وإنما لضمان طريق جيد للنقل الحربى . وقد شيدت القواعد الجوية بسيناء كى تكون القوات الجوية المصرية على مقربة من الأهداف المحتملة، كما أقيمت المعسكرات الحربية فى مراكز استراتيجية على المحاور الرئيسية، وكذلك مستودعات الأسلحة، لضمان إمداد سريع وفعال .

وعشية الحملة (اكتوبر ١٩٥٦)، كانت القوة المصرية فى سيناء تتكون بالأساس من فرقتى مشاة : الفرقة الثامنة الفلسطينية المتمركزة فى منطقة غزة – رفح، والفرقة الثالثة / مشاة المنتشرة فى منطقة العريش – أبو عجيلة. وكان هناك لواء مدرع يتخذ من «بير جفجافة» قاعدة له، وله قاعدة تبادلية فى «بير الحما» غرب «أبو عجلية» على محور سيناء الأوسط، بينما يحتل لواء مشاة المرتفع الواقع إلى الغرب من ممر متلا، حول ميناء السويس. وهناك قطاعات قيادة أخرى من قوات الحدود المتحركة المحمولة على عربات الجيب وحاملات الجنود المصفحة، تقوم بأعمال الداورية فى الأجزاء الوسطى والجنوبية من شبه الجزيرة .

فى مواجهة هذه القوة، أنزلت اسرائيل إلى الميدان عشرة ألوية : ست من المشاة (الأول، والرابع، والتاسع، والعاشر، والحادى عشر، والثانى عشر)، واللواء ٢٠٢ مظلات، واللواء السابع/ مدرعات، واثنين من الألوية الميكانيكية (السابع والعشرين والسابع والثلاثين) .

الحرب - معركة متلا

عادة ماتبدأ الحرب بهجوم كبير: غزو بالمدرعات، غارات جوية، قصف مدفعى، قصف بحرى، تحرك سريع على عدد من الجبهات. لكن حرب سيناء لم تنح هذا المنحى التقليدى، وربما كان هذا هو السبب وراء إطلاق اسم «حملة سيناء» عليها. فقد بدأت، على عكس ذلك، بهدوء وتردد. حتى مصر نفسها ظلت، على مدى الأربع والعشرين ساعة الأولى، غير متأكدة مما إذا كانت تواجه حرباً حقيقية أم مجرد عملية انتقام رداً على غارات الفدائيين. وكان الهدف من بداية كهذه هو إعطاء الاسرائيليين الفرصة لوقف العملية وسحب قواتهم فى حالة عدم قيام حلفائهم الأنجلو- فرنسيين بالدور المحدد لهم فى الخطة .

ولتحقيق عنصر المفاجأة، ولتقديم مبرر لتعبئة الاحتياطى الاسرائيلى والتى سيشعر بها الآخرون دون شك، فقد أعطى الانطباع بأن إسرائيل تنوى القيام بهجوم كبير على الأردن لردع الأعمال الإرهابية التى تنطلق من الأراضى الأردنية. ففى ١٠ أكتوبر، وبعد مقتل اثنين من العمال الزراعيين الاسرائيليين بحديقة للموالح قريبة من الحدود، قامت قوات الدفاع الاسرائيلية بهجوم مكثف على مدينة «قلقيلية» الحدودية، هوجمت خلاله قلعة للشرطة تابعة للفيلق العربى الأردنى، وجاءت الخسائر الاسرائيلية فى هذا الهجوم كبيرة: ١٨ قتيلاً وأكثر من ٥٠ جريحاً. وتصاعد التوتر عندما طلب الملك حسين إلى قائد القوات البريطانية بالشرق الأوسط إرسال القوات الجوية الملكية للوقوف إلى جانب الفيلق العربى تطبيقاً لمعاهدة الدفاع المشترك بين الأردن وبريطانيا. وتحركت فرقة عراقية للتوجه إلى الأردن، وأبلغ القائم بالأعمال البريطانى «بن جوريون» بأنه إذا قامت إسرائيل بعمل عسكرى آخر ضد الأردن فإن بريطانيا سوف تتدخل لمساندتها. وكان رد «بن جوريون» هو أنه إذا دخل العراقيون الأردن، فإن اسرائيل ستحتفظ بحقها فى العمل. وهكذا أصبح مفهوماً أن الإعداد لحملة سيناء إنما المقصود منه هو الإعداد لعمليات عسكرية ضد الأردن، خاصة وأن الأردن كان قد انضم، قبل ذلك بأيام قليلة فقط، إلى المجهود الحربى المصرى، وذلك بانضمامه إلى المعاهدة العسكرية المصرية – السورية ضد اسرائيل .

المرحلة (أ) من الهجوم الإسرائيلي ٢٩ - ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦

بدأت الحملة فى الساعة الخامسة من مساء يوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦، بإسقاط مظلى جيد التخطيط فى عمق سيناء الوسطى عند المدخل الشرقى لمر متلا، على بعد ١٥٦ ميلا من إسرائيل و ٤٥ ميلا من قناة السويس. وقد قام بعملية الإسقاط إحدى كتائب اللواء ٢٠٢ قوامها ٣٩٥ مظلى، بقيادة الليفتانت كولونيل «رافاييل (رافول) ايتان». وتولى عملية نقل السرايا الأربع ١٦طائرة «داكوتا»، ترافقها عشر طائرات مقاتلة من طراز «متيور»؛ فى الوقت الذى كانت تتولى فيه ١٢ طائرة «مستير» أعمال الداورية فوق قناة السويس. وعلى عكس ماأوردته بعض التقارير، فإن طائرة فرنسية لم تشترك فى أى من مراحل العمليات بسيناء. وقبل ساعتين من إسقاط القوات عند ممر متلا، قامت أربع مقاتلات من طراز «موستانج»، من مخلفات الحرب العالمية الثانية، بعملية مثيرة لقطع خطوط الاتصال المصرية. إذ هبطت إلى ارتفاع ١٢ قدم فوق سطح الأرض، وقطعت بأجنحتها ومراوحها أسلاك التليفونات السطحية فى سيناء، والتى تربط بين كثير من مقرات القيادة والوحدات المصرية .

كانت تلك البداية الجريئة للحرب نابعة عن تقييم سليم للعدو. فمن الوجهة الاستراتيجية المحلية، أدت هذه العملية إلى فصل سيناء الجنوبية عن القطاع الشمالى، الذى يمثل التمركز الرئيسى للقوات المصرية بسيناء. وهى تغلق، بذلك، طرق النقل والإمداد الرئيسية من قناة السويس، عبر ممر متلا، وبطول العمود الفقرى لشمال شرقى سيناء إلى بير الحسنة والعريش وأبو عجيلة ، وشرقاً إلى نخل. ومن الوجهة الاستراتيجية العامة والسيكولوجية، فإن الإسقاط لم يكن يشكل بالضرورة تهديداً فورياً للانتشار الرئيسى للقوات المصرية فى سيناء. وكان من المتوقع ألا يعتبر المصريون ذلك استهلالاً لحرب، وإنما مجرد عمل انتقامى كبير كما أعلنت اسرائيل، وإن يكن فى عمق الأراضى المصرية. وعليه فلم يكن لآلة الحرب المصرية أن تتحرك سريعاً. ونظراً لضيق الوقت المتاح قبل حدوث رد فعل من جانب الأمم المتحدة والقوى العظمى ، فإن عنصر المفاجأة كان ضرورياً للغاية بالنسبة لاسرائيل. ومن المنطلق نفسه، فإن اسرائيل لم تقم بتوجيه ضربة جوية افتتاحية بهدف تحييد القوات الجوية المصرية إمعاناً فى تأكيد الانطباع بأنها مجرد غارة انتقامية كبيرة لا أكثر . ومن الوجهة الدبلوماسية، فقد كان واضحاً من عمق الغارة أن القصد هو تهديد قناة السويس تهديداً سافراً، لتقديم ذريعة للقوات الأنجلو – فرنسية كى تتدخل لحمايتها .

كان ذلك التحرك تطبيقاً كلاسيكياً لبعض مبادئ الحرب الأساسية. فالمفاجأة كانت كاملة، كاملة لدرجة أن المصريين ظلوا لأربع وعشرين ساعة يتساءلون: ماهو الهدف من وراء العملية؟ هل هى مجرد غارة انتقامية، أم حرب شاملة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أين سيتوجه

الهجوم الاسرائيلى الرئيسى؟. كان الاسرائيليون فى موقف يسمح لهم بالمبادرة والحركة بينما كانت قوات العدو لاتزال فى وضع لايسمح لها بإدراك مايحدث بالفعل .

مساء ٢٩ أكتوبر، انتشر مظليو «إيتان» فى موقع دفاعى، إلى الشرق من مدخل ممر متلا، يتلقون التعزيزات الإضافية بواسطة الإسقاط المظلى. وكان من بين تلك التعزيزات أربع مدافع ١٠٦ مم عديمة الارتداد مضادة للدبابات، ومدفعين هاون ثقيل عيار ١٢٠ مم، وثمانى عربات جيب للاستطلاع، وذخائر وتسليح شخصى. وكان لدى هؤلاء المظليين سبب معقول للثقة. فقد كان قائدهم من الشخصيات البارزة فى صفوف الجيش الاسرائيلى فى ذلك الحين . وهو مقاتل صارم شديد المراس، تشى كل بوصة فيه بعسكريته. و «ايتان» مزارع من قرية «تل عدشيم» بوادى جرزيل، متواضع، شديد البساطة، قصير ممتلئ، أنيق، شجاع، لايعرف المساومة، تركت الحروب ندوباً واضحة على جسده، قليل الكلام، عنيد، كثيراً ماتجده فى مقدمة جنوده وسط المعارك. فى حرب ١٩٦٧، وأثناء القتال العنيف فى قطاع غزه أصابته إحدى طلقات القناصة لتترك ندبة عميقة فى جمجمته؛ وفى حرب يوم كيبور، كان قائداً للفرقة التى تصدت للغزو السورى وأوقفته؛ وفى ١٩٧٨، عين رئيساً لأركان جيش الدفاع الإسرائيلى.

كانت المرحلة التالية، التى اتصلت مباشرة بالأولى- مع استمرار الإيحاء بأن مايتم إن هو إلا غارة انتقامية كبيرة - هى إقامة خط إمداد مباشر من اسرائيل إلى كتيبة المظليين. وقد تولى باقى اللواء ٢٠٢ / مظلات، بقيادة «أريل (أريك) شارون»، إنجاز هذه المهمة. وقد احتشدت بقية كتائب اللواء على الحدود الأردنية لتقوية الانطباع بقرب وقوع هجوم على الأردن.

وكانت الخطة تتضمن قيام وحدة المقدمة بعبور الحدود المصرية إلى سيناء، فى الوقت الذى يتولى فيه مظليو «ايتان» فتح ممر متلا. وهكذا، وقبل ساعة الصفر المحددة لايتان للهجوم على الممر بعشر ساعات، بدأ لواء شارون (٢٠٢ / مظلات) التحرك من منطقة تمركزه بالقرب من الحدود الأردنية ليقطع مسافة تزيد على الـ ٦٥ ميلاً، عبر فيافى صحراء النقب ووديانها. وعبر اللواء الحدود المصرية بعد الوقت المحدد له بثمانية عشر دقيقة، وتقدم مواصلاً سيره عبر سيناء على الطريق المار بالكونتيلا وتمادا ونخل. وكانت القوة تتألف من كتيبتى مظلات، واثنين من كتائب العربات نصف المجنزرة، وسرية دبابات خفيفة من طراز أ. ام. اكس، وكتيبة مدفعية ميدان عيار ٢٥ رطل، وكتيبة هاونات ثقيلة .

كان الطريق إلى متلا يمر بثلاث مواقع تتولى القوات المصرية الدفاع عنها. وأول هذه المواقع هو الكونتيلا، القريب من الحدود الإسرائيلية، وقد تولت مسئولية الهجوم عليه وحدة

استطلاع اللواء، فقامت طليعتها المتقدمة بالهجوم من جهة الغرب بحيث تكون شمس مابعد الظهيرة الغاربة خلفهم. وبعد إطلاق عدد قليل من القذائف قامت فصيلة المشاة، التى تتولى الدفاع عن الموقع، بإخلائه وعلى الرغم من المشكلات التنظيمية العديدة الناجمة عن طبيعة الطريق الصحراوى الرملى، كغرس المركبات وتأخر وصول إمدادات الوقود والأعطال الميكانيكية، واصلت الطليعة تقدمها نحو موقع تمادا الحصين، الذى تحيطه حقول الألغام والأسلاك الشائكة، وتتولى الدفاع عنه اثنتين من سرايا المشاة. وقد وصلت قوة «شارون» إلى تمادا، ولم يعد صالحاً من دباباتها الثلاثين سوء اثنتين. كان الموقع عبارة عن مجموعة من القمم العالية على جانبى الطريق، بكل قمة عدد من المواقع المزودة بالرشاشات والمدفعية . وقد جاء الهجوم فجر يوم ٣٠ اكتوبر، واستغل المهاجمون هذه المرة شمس الشروق المبهرة فى مواجهة المدافعين، إضافة إلى الدخان والغبار الذى كان يغطى الطابور المتقدم من جهة الشرق. وتقدم الهجوم الجبهوى بقايا دبابات أ. إم . إكس والعربات نصف المجنزرة والجيب، وانتهت المقاومة بعد قتال دام أربعين دقيقة. وكانت نخل، مقر قيادة كتيبة الحدود وقاعدة تدريب مجموعات الفدائيين الإرهابية، هى آخر النقاط الحصينة. وعقب التصدى لهجوم جوى من طائرات «ڤامبير» و «ميج» المصرية، أصدر «شارون» أوامره بعمل ساتر نيران فوق نخل، وبحلول الساعة الخامسة مساء يوم ٣٠ اكتوبر، سقط الموقع دون مزيد من القتال. وفى الساعة العاشرة والنصف من تلك الليلة، اتصلت وحدتا لواء المظلات لإقامة محور إمداد أرضى إلى ممر متلا .

كان الكولونيل «شارون» شخصاً مفعماً بالحيوية، تحول، بصورة أو بأخرى، إلى أسطورة فى جيش الدفاع الإسرائيلى. قوى البنية، مقدام، يتحدث بثبات وثقة، ولم تتعرض قيادته للانتقاد أو المعارضة. أنشأ وقاد، فى أوائل الخمسينيات، وحدة مظلات على طراز الكومندوز عرفت باسم «الوحدة ١٠١»، وقامت بالعديد من العمليات المثيرة عبر حدود اسرائيل رداً على هجمات الفدائيين والقوات النظامية العربية. فعقب تسريح أعداد كبيرة من الجنود والبدء فى خلق قوات مسلحة نظامية بعد حرب الاستقلال، بدأت تظهر أوجه القصور فى الكفاءة القتالية للجيش الاسرائيلى. ولم يكن الغرض من تكوين الوحدة (١٠١) هو مجرد القيام بمهام انتقامية، وإنما وضع مستوى قتالى نموذجى تحتذيه القوات الاسرائيلية، وتحويل الأنماط القتالية التى ميزت عمليات البلماح إلى تلك التى صارت تميز الجيش الاسرائيلى. وقد جمع شارون حوله قوة من الجنود الشبان الأقوياء، من المتطوعين بالأساس، الذين وهبوا حياتهم للجندية ممن يتحلون بالشجاعة والإقدام وروح التضحية. وشيئاً فشيئاً، شهدت القوات

الاسرائيلية مستويات فائقة من الكفاءة القتالية. وقد أوكل إلى «شارون» قيادة اللواء ٢٠٢ / مظلات، أول وحدة من نوعها بجيش الدفاع الاسرائيلي. وهكذا تحددت بشكل نهائي حياته العسكرية والسياسية. وبسبب استقلاليته في التفكير وطبيعته الحاسمة، أُتهم «شارون» خلال عمله السياسي، من جانب معارضيه، بالميول الديكتاتورية. وقداتُهم خلال هذه الحملة والحملات التالية بالعصيان والخداع. وأفضل مايمكن أن يوصف به هو أنه ضابط من نوعية الجنرال «باتون» * فشارون قائد مقدام، صعد وسط صفوف جيش الدفاع الاسرائيلي، وكشف عن حسٍّ غير معتاد بالقتال، وإن كان من أصعب الشخصيات في قيادته. وعندما يتعلق الأمر بالعلاقات الإنسانية والأمانة، فقليلون من قادته الأعلين، على مر السنين، الذين ذكروه بكلمة طيبة، بالرغم من أحداً لاينفى قدراته المتأصلة كمقاتل في الميدان. وربما لهذا السبب لم ينجح في تحقيق طموحه الكبير في أن يصبح رئيساً لأركان القوات المسلحة . وبعد أن ترك القوات المسلحة، انخرط «شارون» في العمل السياسي ليصبح شخصية هامة ومؤثرة في حكومة «بيجن» عام ١٩٧٧. وبعد فوز «بيجن» في انتخابات يونيو ١٩٨١، عين «شارون» وزيراً للدفاع. ومن الآن فصاعداً، سوف نلتقي به في معارك اسرائيل المتعددة .

مع حلول صباح ٣٠ اكتوبر، وبرغم الشعور غير الواضح بالنوايا الاسرائيلية في المعسكر المصري، وحتى قبل أن يقرر الجنرال عبد الحكيم عامر، وزير الدفاع والقائد العام للقوات المصرية، أن يعود إلى مصر بعد زيارته للأردن، تحرك اللواء الثاني المصري من السويس لمهاجمة المغتصبين عند ممر متلا. تقدمت الكتيبة الخامسة من هذا اللواء مع سرية من الكتيبة السادسة، مع تعزيزات من مدافع ماكينة ثقيلة ومدافع عديمة الارتداد وهاونات ثقيلة، من القناة قاصدة ممر متلا، وبرغم قصف الطائرات الاسرائيلية. وبعد أن فقدت الكثير من عرباتها وعتادها، نجحت الكتيبة في دخول الممر والانتشار في الكهوف الطبيعية المحفورة على جانبيه الشمالي والجنوبي. وكانت هذه الكهوف وأوضاع الأحجار الطبيعية التي تغطي الأجزاء الأكثر ضيقاً بطول الممر الشاهق الذي يصل لـ ١٩ ميلاً، ذي المنعطفات، غير المرئية للطيارين الاسرائيليين، فلم يتمكنوا من تزويد لواء شارون بصورة دقيقة عن الانتشار المصري .

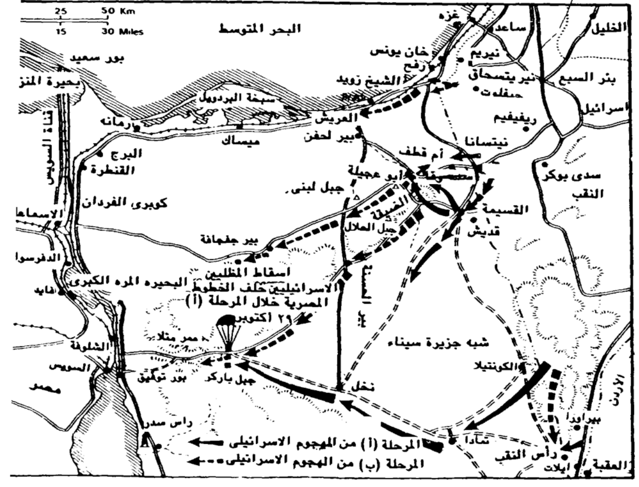
وفي ظل وضع دفاعي إسرائيلي قوي عند المدخل الشرقي لممر متلا، يغلق طرق الإمداد المصرية إلى سيناء، لم تكن هناك ضرورة في هذه المرحلة سواء من الناحية الاستراتيجية أو التكتيكية، للتقدم إلى الممر أو إلى أبعد من ذلك باتجاه الشرق طالما لم يسبقه تقدم مماثل على

---

* هو الجنرال الأميركي « جورج سميث باتون » (١٨٨٥ - ١٩٤٥) - المترجم .

الطريقين الشماليين الموازيين: طريق العريش – القنطرة، وطريق أبو عجيلة – الاسماعيلية الأوسط. وكان قد تحدد يوم ٣١ اكتوبر كموعد لبدء العمليات الكبرى على المحور الأوسط عند «أبو عجيلة». وكان عمل كهذا يستدعى حشد كل القوة الجوية المتاحة، الأمر الذى يحول دون القيام بأى عمل كبير آخر. وربما، لهذا السبب، ظلت المرحلة التالية من هذا الجزء من الحملة محل خلاف ، مؤكدة على المنطق التكتيكى فى ضوء الشجاعة الإنسانية المؤثرة. لم يكن المدخل الشرقى لممر متلا هو أكثر المواقع ملاءمة للسيطرة، من الوجهة التكتيكية. فالمنطقة لم تكن ملائمة للدفاع، خاصة فى ظل إمكان تعرضها لعدد متزايد من طلعات الطيران المصرى، وخطر الهجوم من الشمال (من اتجاه بير جفجافة) حيث تتمركز قوة مدرعة مصرية على مسافة ٢٠ ميل تقريباً. ومن هنا سعى «شارون» إلى تحسين موقفه وطلب الإذن بدفع قوة استطلاع إلى الممر. وبعد مناقشة الموضوع مع الليفتنانت جنرال «موشى دايان»، رئيس الأركان، تلقى الإذن بإرسال داورية شريطة أن تتفادى التورط فى الاشتباك مع الطائرات .

وعند ظهر ٣١ اكتوبر تقريباً، أُرسل فريق قتالى بقيادة الميجور « موردخاى (موتا)، جور» وكان الفريق مكوناً من ثلاث دبابات أ. إم . إكس، ووحدة استطلاع اللواء محمولة على عربات، وبطارية هاون ثقيلة عيار ١٢٠مم وبطارية مدفعية ميدان عيار ٢٥ رطل. وعند دخول الممر، واجهت الوحدات نيران مركزية كثيفة من جانب المواقع المنتشرة على الجانبين، لكنها استمرت مع ذلك فى تقدمها، مفترضة أن المقاومة سوف تخف حدتها. لكنها تورطت، بعد دقائق، فى قتال عنيف. وقد أصيب «جور» واثنتين من نصف المجنزرات كانت خلفه. واحتمى الجنود بجوانب الطريق، لكنهم أصبحوا غير قادرين على التقدم أو الانسحاب. واستطاعت بقايا الطليعة الأمامية، المكونة من دبابتين، أن تتقدم عبر الممر وسط النيران القاتلة بينما كان قطاع المؤخرة الذى وضعة «جور» عند المدخل (ويضم الهاونات الثقيلة ومستودعات الوقود والذخيرة) عرضة للهجوم الجوى المصرى. واشتعلت ناقلات الوقود. وعلى مدى سبع ساعات، مابين الواحدة ظهراً والثامنة مساء، خاض المظليون معركة يائسة. وأمر «جور» بتوجيه نيران الهاونات نحو القمم ، ودفع شارون بكتيبة مشاة لمعاونته وقد قام رجالها بتسلق أجناب الممر واستولوا على كل موقع وكهف بعد قتال متلاحم، وسط التراشق المتقاطع من مواقع القمم المتواجهة والمتجاورة. ولكى يسحب النيران المصرية بعيداً عن رفاقه حتى يتمكنوا من الخروج من المحنة، تطوع أحد الجنود، عند حلول الليل ، لقياد سيارة جيب، فأصيب بعدة جروح قاتلة. وكانت أعمال بطولية كهذه سمة مميزة لتلك المعركة التى قتل خلالها ٣٨ من المظليين الاسرائيليين وجرح ١٢٠ آخرين، كما سقط حوالى ٢٠٠ من الجنود المصريين. ونجح من بقى



المرحلة (ب) من الهجوم الإسرائيلى ٣١ أكتوبر أول نوفمبر ١٩٥٦

على قيد الحياة من الكتيبة الخامسة / اللواء الثانى المصرى فى الانسحاب والفرار عبر قناة السويس .

أدت هذه العملية المأساوية التى لم يكن لها مايبررها على الإطلاق، سواء من الناحية التكتيكية أو الاستراتيجية، إلى تبادل الاتهامات بين «دايان» و « شارون». فدايان يرى أن «شارون» قد ضلله عندما طلب إذناً بإرسال داورية إلى الممر وأجيب إلى طلبه . فهو يرى أن «شارون» قد قام بعملية «احتيال» عندما وصف العملية بأنها «داورية» كى يتلقى موافقة قيادة الأركان. كما وجهت إلى «دايان» انتقادات شديدة وقتها على عدم معاقبته لشارون.

كان على رأس قوة الاستطلاع فى ممر متلا «جور»، الذى قدر له بعد ذلك بعشر سنوات أن يقود اللواء ٥٥/ مظلات فى حرب الأيام الستة خلال عملية الاستيلاء على القدس، وقيادة رجاله فى الاستيلاء على المدينة القديمة والوصول إلى أكثر المزارات اليهودية قدسية، أى حائط المبكى. وأثناء حرب يوم كيبور كان يعمل ملحقاً عسكرياً بواشنطن . وبعد الحرب، واستقالة الجنرال «دافيد اليعاذر» من رئاسة الأركان، عين الليفتنانت جنرال «جور» رئيساً لأركان جيش الدفاع الإسرائيلى، وكان عليه أن يقود الجيش فيما سمى بـ «عملية الليطانى» ضد جنوب لبنان فى ١٩٧٨. وبعد انتهاء خدمته العسكرية، انخرط فى العمل السياسى. وهو طويل القامة ، قوى البنيان، واضح وشديد الثقة بنفسه، أصاب شهرة كذلك ككاتب للأطفال .

بعد أن لعق جراحه واستراح لأربع وثمانين ساعة استُدعى لواء شارون لأداء دوره فى المرحلة الختامية للحملة، أى الهجوم على شرم الشيخ وإعادة فتح مضايق تيران. وفى ليلة ٣/٢ نوفمبر، وبينما كان اللواء التاسع/ مشاة الاسرائيلى يشق طريقه على الطريق الساحلى الجبلى من رأس النقب إلى شرم الشيخ، تلقى «شارون» أمراً بتسليم المسئولية عن محور متلا – نخل إلى اللواء الرابع /مشاة، ودفع كتيبة عبر ممر متلا غرباً نحو «رأس سدر» على خليج السويس . وصدرت إليه الأوامر، فى الوقت نفسه، بإرسال اثنتين من سرايا المظلات للقيام بإسقاط على الطور، التى تقع على مسافة ١٢٠ ميل إلى الجنوب على خليج السويس وعلى مسافة ميل إلى الشمال من شرم الشيخ، والانضمام إلى اللواء التاسع وتدعيم الهجوم على شرم الشيخ، ليكتمل بذلك تدمير الوجود العسكرى المصرى شرقى قناة السويس. واستطاعت سريتا المظلات أن تستولى على الطور أثناء الليل، لتحكم بذلك سيطرتها على المطار، وتعده لهبوط كتيبة مشاة بكامل معداتها، قبل التقدم نحو شرم الشيخ.

معركة أبو عجيلة

كانت ثانية المعارك الكبيرة – وربما أكثرها حيوية وحسماً – هى معركة تحييد التجمع الرئيسى للقوات المصرية فى سيناء، أى مواقع القسيمة / أبو عجيلة وأم قطف الحصينة،

واجتياح المحور الأوسط من القسيمة إلى الاسماعيلية. وعند تعليقه على حملة سيناء، يطلق المعلق العسكرى الأمريكى الجنرال «س . ل . ا . مارشال» *، على هذه الجبهة الدفاعية اسم «الحاجز القنفذى» .

فقد كانت تتألف من ثلاث قمم رملية متتالية قوية التحصين، تتحكم فى مفارق الطرق الرئيسية المواجهة للشرق، تحميها خنادق عميقة ومخابئ، وتحيطها صفوف من السلك الشائك المتداخل وحقول الألغام، ومزودة بمدفعية الميدان والأسلحة المضادة للدبابات. وتغلق هذه الجبهة المحور الأوسط الرئيسى. ذلك المحور الذى يضمن – فى حالة فتحه – نجاح الحملة . كما أن إحكام السيطرة على تلك المواقع يمكن أن يفتح طريقاً بديلاً للنقل والإمداد من إسرائيل إلى لواء «شارون» المظلى عند ممر متلا. وقد أوكلت المهمة إلى المجموعة (٣٨) الفرقية ، المؤلفة من اللواء الرابع والعاشر مشاة واللواء السابع مدرعات، مع مجموعة مدفعية وكتيبة مهندسين. وكان يتولى قيادة هذه القوة الكولونيل «يهودا والاش»، الذى كان يقود لواء «جعفاتى» الذى حقق الشهرة أثناء حرب الاستقلال (أصبح فيما بعد أستاذاً للتاريخ العسكرى بجامعة تل أبيب) .

فى مساء ٢٩ اكتوبر، وبعد مسيرة شاقة لمسافة ١٢ ميلاً عبر النقب الاسرائيلى، بدأت كتيبتان من اللواء الرابع مشاة (وهو لواء احتياط يتألف بالأساس من قوات من منطقة تل أبيب تحت قيادة الكولونيل «يوسف حرباز») تقدمها باتجاه الموقعين القريبين من الحدود الاسرائيلية واللذين يشكلان المواقع الدفاعية الجنوبية الأمامية للفرقة الثالثة/ مشاة المصرية المتمركزة بالعريش، بقيادة العميد «أنور عبد الوهاب القاضى»، ومفتاح المحور الأوسط الحيوى. وكان يتولى الدفاع عن الجبهة المؤلفة من تبتين حصينتين وموقع القسيمة كتيبتين من قوات حرس الحدود المصرية، وسرية مشاة وسرية عربات جيب، وكانت القوة بكاملها تتبع قيادة اللواء السادس (العميد جعفر العبد) الذى يسيطر على حاجز أبو عجيلة / أم قطف «القنفذى». وعندما اكتشفت الكتيبة الأولى/ اللواء الرابع خلو التلين الأولين (مواقع الصابحة)، تحركت نحو موقع القسيمة على بعد حوالى ١١ ميل. وكان لتلك المنطقة العصيّة أن تحصل ضريبتها، ولم تتمكن الكتيبة من شن هجومها الفعلى إلا فى الصباح الباكر، وسط نيران الموقع الكثيفة. واكتمل الهجوم بكتيبتى قيادة اللواء وفور ذلك دفعت القيادة الجنوبية بقوة مدرعة خاصة من اللواء. السابع مدرعات، قادها الميجور جنرال «عساف شمعونى»،

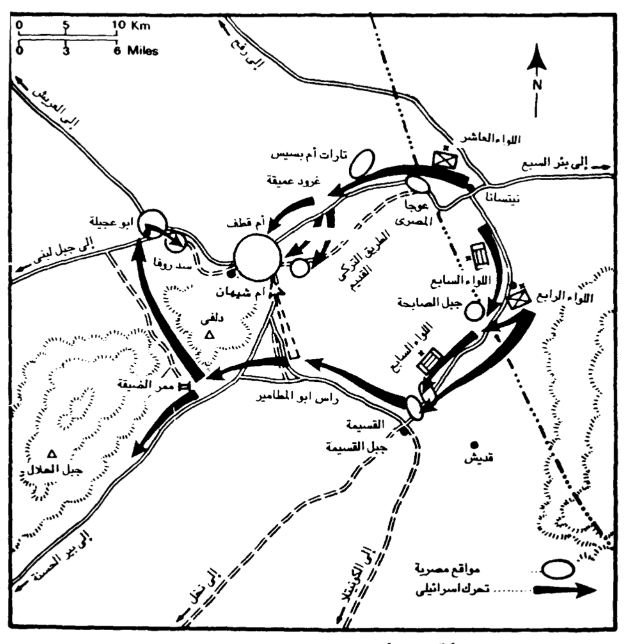
* General S.L.A Marshal, Sinai Victory, 1958.

لضمان سرعة إتمام الهجوم. لم تكن الخطط الأصلية تتضمن دفع قطاعات اللواء السابع/ مدرعات إلا بعد أن تدخل الحملة يومها الثانى عندما يبلغ الهجوم على «السد القنفذى» مرحلة متقدمة، لكن إضافة المدرعات فى تلك المرحلة المبكرة كان ضرورياً لدفع المرحلة الأولية من الحملة، ولضمان رسوخ قاعدة ثابتة تمثل خط انطلاق داخل الحدود المصرية .

والجنرال «شمعونى» فلاح أشعث الشعر، من أبناء الكيبوتس، وهو طويل القامة، فظ الطباع، كانت أمه من قيادات العمال البارزة. ترقى فى صفوف البلماح، وهاهو يصبح نجماً ساطعاً فى جيش الدفاع الإسرائيلى. وفى لحظة انتصاره، وبعد عرض عسكرى قدمه اللواء التاسع فى شرم الشيخ احتفالاً بالنصر بعد انتهاء الحملة، كان على «شمعونى» أن يطير جنوباً نحو قرية «كفار جعلادى» بالجليل الأعلى على متن طائرة خفيفة يصحبه ضابط اتصاله. وعند إقلاع الطائرة، هبت على الصحراء عاصفة رملية جعلت «شمعونى»، الذى كان يحتل مقعد الطيار، عاجزاء عن الرؤية، فانحرفت الطائرة إلى الشرق من خط سيرها وانفجرت وتحطمت فوق جبال الأردن، ومات ركابها. وقد أعاد الأردنيون الجثث إلى إسرائيل فيما بعد.

وفقاً للخطة الأصلية، دفع اللواء الرابع بطليعته من القسيمة إلى نخل، للاتصال بلواء «شارون»، وإقامة – من ثم – محور أرضى ثان للمظليين. وفى تلك الأثناء، وبتشجيع من التقدم الذى حققته العمليات، قرر الجنرال «شمعونى» تغيير الخطط الأصلية والاستفادة مما يمكن أن يقدمه اشتراك اللواء السابع/ مدرعات. وكان على رأس اللواء الكولونيل «بن آرى»، أحد ضباط البلماح البارزين أثناء حرب الاستقلال . (قدر له، فى حرب الأيام الستة، أن يقود اللواء العاشر «هارئيل» الذى نجح فى الاستيلاء على منطقة شمال القدس؛ فى حرب ١٩٧٣، كان رئيس أركان الجنرال «جونين» قائد الجبهة الجنوبية. وهو طويل القامة، قيادى، عسكرى المظهر؛ عمل فيما بعد كقنصل عام لاسرائيل بنيويورك .) .

والآن تتقدم حملة خاصة على الطريق من القسيمة إلى أبى عجيلة لاختبار الدفاعات الجنوبية للحاجز القنفذى. وهذه الحملة الخاصة جزء من كتيبة يتولى قيادتها الليفتنانت كولونيل «ابراهام (برن) ادان». وقد تعرضت للنيران المركزة من أسلحة مضادة للدبابات – خصوصاً قذائف «أرشر» – من أحد مواقع أبو عجيلة – أم قطف. وأصبح من الواضح أن أية محاولة لمهاجمة هذه الجبهة بشكل مباشر من جهة الجنوب، فى ظل القوة والتسليح المحدود المتاح لطليعة اللواء السابع/ مدرعات، سوف تبوء بالفشل ويترتب عليها خسائر فادحة. ومن هنا، قرر «ادان» ترك قوة من المشاة والمدرعات لأعمال الحفر، وبعد التشاور مع رئيس الأركان (موشى دايان) ورئاسة عمليات القيادة الشمالية، أصدر أوامره بدفع قوة أخرى باتجاه



معركة موقع أبو عجيلة الحصين، ٣١ اكتوبر ١٩٥٦

الغرب للبحث عن نقطة ضعيفة فى أسفل الضلع الجنوبى الغربى للحاجز القنفذى، تكون بعيدة تماماً عن الدفاعات المسيجة بالأسلام الشائكة فى الجهات الجنوبية والشرقية. ومع الصباح الباكر ليوم ٣٠ اكتوبر، عثرت مجموعة استطلاع الحملة المدرعة الثانية على ممر ضيق يجعل القوات خلف الجناح الغربى للمصريين. كان هذا الممر ضيقاً للغاية، لايسمح إلا بمرور المجنزرات. وكان المهندسون العسكريون المصريون قد نسفوا جسراً فوق واد يقطعه، فأصبح على مهندسى اللواء المدرع أن يمهدوا الأرض للعبور. ومع الساعات الأخيرة من المساء، أنهت وحدة الاستطلاع عبور الممر ووجدت نفسها على الطريق الرئيسى الواصل بين القناة وأبو عجيلة، إلى الغرب من الحاجز القنفذى، بعد أن قطعت، بالفعل، خطر الإمداد المصرى القادم من منطقة قناة السويس إلى المواقع .

وبينما اندفعت قوة ثالثة فى اتجاه جنوبى غربى لقطع أى تقدم مدرعات مصرى محتمل من بير الحسنة، عبرت بقية الحملة المدرعة الثانية الممر، مزودة بأوامر بالقضاء على دفاعات أبو عجيلة والتقدم نحو سد روفا *، وتغطيه أبو عجيلة وأم قطف . كانت تلك مهمة خطرة للغاية، خاصة إذا علمنا أن المجنزرات فقط هى التى يمكنها المرور عبر الممر الرملى الضيق، مخلفة وراءها العربات ذات العجلات المحملة بالإمدادت ومعدات المهندسين والذخائر والوقود. إن الاعتماد على خط إمداد ضعيف ، ومشكوك فيه، فى تلك المرحلة الحيوية من الهجوم على جبهة كهذه، يعد مقامرة. فلم يكن إسقاط الإمدادات من الجو ممكناً، حيث احتكرت احتياجات قوات «شارون» المظلية فى متلا طاقة القوات الجوية بالكامل. وكان الحل الوحيد لمشكلة إمداد «أدان» هو فتح طريق مباشر من الشرق . فصدرت الأوامر، مساء ذلك اليوم، إلى اللواء العاشر/ مشاة بعبور الحدود ومهاجمة النسق الخارجى الشرقى لدفاعات «الحاجز القنفذى»، والتى تتكون من موقعى عوجا المصرى وتارات أم بسيس. وقد سقط هذان الموقعان دون قتال، مفسحين الطريق أمام اللواء العاشر ليشق طريقه نحو الدفاعات الرئيسية فى أم قطف، على جانب «الحاجز القنفذى » .

عند الساعة الخامسة من صباح ٣١ اكتوبر، ومع انبلاج الفجر، وصلت الحملة المدرعة الثانية إلى أبو عجيلة. ولأن أبو عجيلة بمثابة منطقة قيادة مصرية، فقد كانت عبارة عن منطقة واسعة ومتداخلة من المعسكرات والمستودعات، تحيطها الأسلاك الشائكة وحقول الألغام ومنطقة قتل للمدفعية تمتد لسبعة أميال من كل جانب. ويتألف اللواء المدرع المسئول عن الدفاع

(*) بناه البريطانيون لتجميع سيول الأمطار الشتوية بوادى العريش كى يستخدمها البدو .

عن المنطقة من كتيبتى مشاة من اللواء السادس، وكتيبتين احتياط ولواء من الحرس الوطنى، وكتيبة مدفعية ميدان، إضافة إلى ٢٤ مدفعاً عيار ٢٥ رطلا، ومدفعية مضادة للطائرات وسرية من عربات الجيب و ٢٣ قاذفة من طراز «أرشر» المضادة للدبابات. لقد ضاع الآن عنصر المفاجأة، حيث كان المصريون على علم بما يجرى ولديهم من الوقت والإمكانيات كى يستعدوا لصد الهجوم. وعندما أصبحت العربات نصف المجنزرة التابعة للحملة المدرعة الثانية على مسافة ميلين من أبى عجيلة، فتحت الدفاعات المصرية سداً كثيفاً من نيران المدفعية، تعززها نيران إضافية من سد روفا، شملت ميمنة الهجوم الاسرائيلى. وواصل المشاة المدرعون تقدمهم فى العربات نصف الجنزير بينما تصدت الدبابات لنيران سد روفا وطليعة مدرعة مصرية، قادمة من الشمال على طريق العريش – أبو عجيلة . وفى خلال الساعة، سقطت أبو عجيلة. كانت طليعة القوات الاسرائيلية تتعرض لسد نارى متواصل من أم شيهان، وهو موقع حصين آخر داخل نطاق الحاجز القنفذى. وكان هذا يجرى بالتنسيق مع محاولات من جانب المدرعات المصرية للاختراق من جهة الشمال، وهى محاولات فشلت بفضل العمل المشترك بين المدرعات والطيران الاسرائيلى .

والآن، كان على الحملة الأولى المكلفة بحفر الخنادق جنوبى الحاجز القنفذى أن تنضم إلى قوات «ادان» لتعزيزها فى تحييد موقع سد روفا الخطير. لكن التقارير وردت بتقدم طابور مدرع من اللواء الأول/ مدرعات المصرى، بقيادة العقيد «طلعت حسن على»، على المحور الأوسط من بير جفجافة باتجاه السد القنفذى. وكانت القوة تتكون، حسب التقارير، من اثنتين من كتائب الدبابات من طراز تى ٣٤ السوفيتية الصنع، وسرية من قذائف إس . يو ١٠٠ المضادة للدبابات، وكتيبة مشاة ميكانيكى محمولة على عربات. وعلى الفور انطلقت الحملة الأولى لقطع الطريق على هذا القوة. لكن الحملة عثرت على الطابور بصعوبة، لأن الطيران الاسرائيلى كان قد سبق بالتصدى للهجوم، وأنزل بالقوة خسائر وأجبرها على الالتفاف والعودة إلى بير جفجافة وعبور القناة بعد أن تركت كمائن خلفية فى بير الحما وبير جفجافة. وقد تعقب «بن ارى»، قائد الحملة، الطابور حتى انسحابه عبر القناة، وبعد تطهير المحور الأوسط توقف عن المطاردة على بعد عشرة أميال من الممر المائى فى مواجهة الإسماعيلية.

بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة خطر الهجمات المدرعة المصرية وإغلاق المحور الأوسط أمام أى تقدم مدرع مصرى، تفرغت الحملة الثانية (اللواء السابع / مدرعات) لمواصلة الهجوم على «الحاجز القنفذى» . وفى مساء ٣١ اكتوبر، صدرت الأوامر بالاستيلاء على سد روفا . وكان هذا الموقع يمتلك أكثر من ٢٠ من المدافع المضادة للدبابات المستورة جيداً، عشر

منها من طراز أرشر، وست عيار ٢٥ رطلا، وسبع مدافع عيار ٧٥مم، واثنان من عيار ٣٢مم. وعند غروب الشمس بدأت الحملة الثانية هجومها الجبهوى على السد من جهة أبو عَجيلة، وتحركت الدبابات عند انسحاب الضوء وسط سحابة من الغبار، ودخلت مرمى النيران المركزة المضادة للدبابات والتى أثبتت فعاليتها، ونجحت بالفعل فى إصابة جميع دبابات الحملة. لكن القوة بفضل حماسة قائدها ، واصلت الهجوم، وبحلول الليل، تواصلت المعركة على ضوء النيران المنبعثة من مخازن الذخيرة والمركبات. وعندما اخترقت الدبابات والدبابات الإسرائيلية نصف المجنزرة المواقع المصرية، كان العديد من الدبابات قد أصبح بدون مدافع دبابات أو ذخيرة للمدفعية الثقيلة. لكن الاسرائيليين واصلو تقدمهم، يسحقون تلك المواقع بجنازير الدبابات، ويلقون بالقنابل اليدوية على المدافعين، ويطلقون على المصريين نيران أسلحتهم الشخصية من فتحات الأبراج . وأمام هذا الهجوم المستبسل، انهارت الدفاعات المصرية .

وما أن فرغ الجنود الإسرائيليون المنهكون من إصلاح دباباتهم وتزويدها بالوقود حتى تعرضوا لهجوم مضاد من أم قطف تعززه نيران أم شيهان. وفشل الهجوم المصرى، مخلفا حطام مدافعه الأربع من طراز «أرشر» مشتعلة، وكذلك ٣٧ قتيلا. ومع حلول صبيحة الأول من نوفمبر، وبعد إصلاح معظم الدبابات، صدرت الأوامر إلى قوات الحملة الثانية بمنع أية محاولة من جانب المصريين للخروج من المواقع المتبقية تحت سيطرتهم بالحاجز القنفذى: أم قطف، وأم شيهان، على المحور المحور الشمالى، إلى العريش .

أوكلت مهمة الاستيلاء على جيب أم قطف/ أم شيهان إلى اللواء العاشر/ مشاة ، الذى نجح قبل ذلك بيومين فى الاستيلاء على الجبهة الدفاعية الشرقية الخارجية من الحاجز القنفذى (عوجا المصرى وتارات أم بسيس) دون مقاومة. وكان الهدف هو استكمال تدمير الحاجز، وفتح محور مباشر لتسهيل نقل الإمدادات إلى اللواء السابع مدرعات، وهو أمر أصبح «دايان» نافد الصبر بشأنه. وكان اللواء العاشر، لسوء الحظ، عبارة عن وحدة احتياط غير مدربة على التعامل مع نقطة حصينة فى الصحراء، ولايسمح تسليحه بذلك، حتى بعد تعزيزه بجزء من اللواء ٣٧ / مدرعات من احتياطى القيادة العامة . وعندما قامت وحدة استطلاع اللواء العاشر، المدعمة بسرية مشاة وعشر دبابات نصف جنزير، بهجومها على أم قطف صباح الأول من نوفمبر، رد المدافعون المصريون بسد كثيف من نيران المدفعية، فارتدت على أعقابها. وفى أثناء الليل، فشلت محاولة ثانية، بعد أن ضلت كتيبتان طريقهما فى محاولة لها للوصول إلى الأجناب الشمالية والجنوبية لمواقع أم قطف. وفى الصباح، ارتدت إحدى الكتيبتين، والتى كانت قد وصلت أخيراً إلى أم قطف ، بفضل النيران القوية للقصف المدفعى، بينما نجحت الأخرى

فى الاستيلاء على موقع منعزل، يبعد مسافة حوالى ميل ونصف الميل عن منطقة الدفاع الرئيسية. فقد اجتمعت أخطاء مخابرات القيادة الجنوبية، مع ضعف فعالية خطط القتال، والعجز عن تركيز الإمكانيات، لإفشال اختراق اللواء العاشر (وكذلك اللواء ٣٧ بعد ذلك) الخطوط العدو . ورأى «دايان» أن اللواء العاشر لم يقدم المجهود القتالى الواجب، فاستبدل قيادته. وحضر اللواء ٣٧ بجميع دباباته إلى أرض المعركة متأخراً، وفشل فى التقدم. فلم يسفر هجوم شجاع، سيىء التخطيط، بالعربات نصف الجنزير بقيادة قائد اللواء الكولونيل «شموئيل جالينكا»، إلا عن خسائر فادحة، بما فيها موت «جالينكا» نفسه، غير أن المصريين كانوا قد أصبحوا فى ذعر من احتمال عزل قواتهم، فتسللوا خلال الليل. وفى صباح الثانى من نوفمبر، وبعد تطهير الطرق من الألغام، وجدت قوة من اللواء العاشر المكان خالياً .

باكتمال الهجوم على دفاعات أبو عجيلة / أم قطف، يكون الاسرائيليون قد استولوا على قلب الجبهة الدفاعية المصرية فى سيناء، وفتحوا طريق إمداد جيد إلى القوات الموجودة بممر متلا والمحور الأوسط ، ونجحوا فى عزل الحامية المصرية فى قطاع غزة. وتتبقى مهمة تطهير القوات المصرية فى الشمال الغربى عند رفح وغزة، ثم فتح مضايق تيران عند رأس القمة الجنوبية لسيناء. كل هذا تم فى ظل جدول زمنى سياسى ضيق، وقيود شديدة من قبل الأمم المتحدة، وضغوط الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، وخطة العمل العسكرى الانجلو - فرنسى ضد قناة السويس .

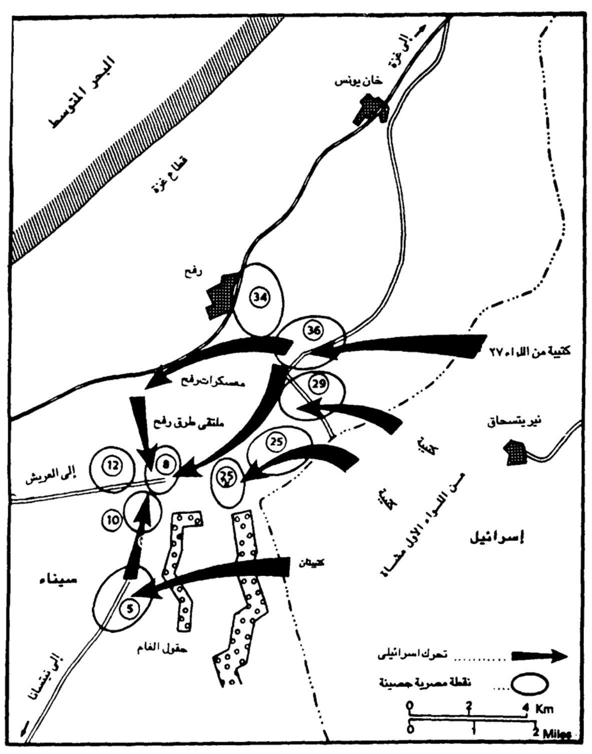
معركة رفح

عندما أتمت قيادة الأركان العامة الإسرائيلية استعداداتها للهجوم على منطقة رفح، فعلت ذلك وهى تعلم بأن القتال دائر فى متلا وأبو عجيلة. ومن هنا، لم يكن هناك إمكانية لعمل مفاجئ: فقد كان المصريون ينتظرون الهجوم المقبل خلف متاهة من حقول الألغام والدفاعات المتداخلة، مواقع تبادلية الدعم فوق قمم وأكام وعرة. وكان الموقع يحتله اللواء السادس/ مشاة، تحت القيادة العمومية للفرقة الثالثة المتمركزة بالعريش، إضافة إلى سرية دبابات وسريتين من حرس الحدود وكتيبة مدفعية ميدان عيار ٢٥ رطلا و ١٧ قاذفة «ارشر» ومدافع تشيكية مضادة للدبابات عيار ١٠٥ مم عديمة الارتداد، وأسلحة مضادة للطائرات ووحدات من المتطوعين الفلسطينيين (من اللواء ٨٧) .

وللتعامل مع هذه الجبهة، تم تكوين حملة فرقية بقيادة البريجادير جنرال «حاييم لاسكوف»، تتألف من اللواء الأول/ مشاة (جولانى) بقيادة الكولونيل «بنيامين چيبى»، واللواء ٢٧/ مدرعات بقيادة الكولونيل «حاييم بارليف»، مع مدفعية إضافية ووحدات مهندسين. وكان لواء «جولانى» يضم ثلاث كتائب مشاة بنادق وكتيبة هاون ١٢٠ مم و ١٢ مدفع مضاد للدبابات، إضافة إلى سرية دبابات من اللواء ٢٧/ مدرعات. وكان اللواء ٢٧ نفسه يتألف من كتيبة مشاة ميكانيكى وسريتى دبابات «سوبر شيرمان» وسرية دبابات «شيرمان»، وسرية دبابات خفيفة من طراز « أ. ام. اكس ١٣» .

كان الكولونيل «چيبى»، فيما سبق، مديرا للمخابرات العسكرية، وارتبط اسمه بما أطلق عليه «فضيحة»، عندما ألقى القبض على حلقة تجسس اسرائيلية تعمل فى مصر عام ١٩٥٤، حكم على معظم أعضائها بالسجن لمدد طويلة وأُعدم اثنان. وقد ثار الجدل عمن أعطى الأوامر للمجموعة للقيام بأعمال التخريب فى مصر، وترتب على ذلك مضاعفات سياسية خطيرة أدت إلى استقالة «بنحاس لافون»، وزير الدفاع آنذاك، وإبعاد الكولونيل «چيبى» عن أعمال المخابرات. وفى أوائل الستينيات تشكلت لجنة وزارية للتحقيق فى المسألة برمتها، بناء على طلب من «بن جوريون»، نتج عنها أكبر الأزمات السياسية التى واجهتها اسرائيل واستقالة «بن جوريون» وانشقاقه على حزب العمل الذى كان يتزعمه. (فيما بعد، ترأس الكولونيل «چيبى» مجموعة صناعية كبرى تتبع الاتحاد العام لنقابات العمال.)

أما الكولونيل «بارليف» فهو شخص هادئ، صارم يتحدث بتؤدة، وشديد البأس. كان قائد



معركة رفح، ٣١ اكتوبر- ١ نوفمبر ١٩٥٦

كتيبة بارزاً بلواء «النقب»/ بلماح خلال حرب الاستقلال. وهو من أصل يوغوسلافى، تولى قيادة لواء «جعفاتى» ثم قيادة سلاح المدرعات. تخرج فى جامعة كولومبيا بنيويورك (أدارة أعمال)، وتولى العمل كنائب للجنرال «رابين» فى قيادة الأركان خلال حرب الأيام الستة، ثم قيادة أركان جيش الدفاع الإسرائيلى فى ١٩٦٨. وأقام خلال فترة عمله الخط الذى ارتبط باسمه على قناة السويس، والمعروف باسم «خط بارليف» . انخرط بالعمل السياسى، فيما بعد، وتولى وزارة التجارة والصناعة، ولكنه استدعى للخدمة فى حرب يوم كيبور ١٩٧٣، ولعب دوراً هاماً فى استقرار الجبهة الجنوبية .

وضعت خطة الهجوم على رفح بدقة متناهية، وكانت فى حاجة إلى توقيت دقيق للتنسيق بين تحركات اللواءين. وقد اشتملت الخطة على ثلاث مراحل. فكان على قوة جنوبية من الكتيبتين الثالثة والرابعة/ جولانى أن تقوم بفتح فجوة فى حقول الألغام الكثيفة المتاخمة للحدود الدولية حتى تتمكن المدرعات من العبور خلالها والوصول إلى طريق رفح – نيتسانا، جنوبى تقاطع الطرق عند رفح. وفى الوسط، كان لقوة من الكتيبتين الأولى والثانية/ جولانى أن تتولى تطهير التلال الحصينة المتاخمة لطريق رفح – غزة، على أن تقوم قوة من اللواء ٢٧/ مدرعات باختراق معسكرات رفح *من جهة الشمال، ثم ملاقاة قوة «جولانى» عند ملتقى الطرق والتقدم جنوباً نحو العريش والقنطرة .

وكانت الكتيبة الرابعة أول من عبر الحدود، قبل منتصف ليلة ٣٠ نوفمبر مباشرة، عبوراً حذراً وسط حقول الألغام. وبعد أن لاقت صعوبة جمة فى تحديد موقعين مصريين يتوليان حراسة تلك الحقول، استطاعت الكتيبة أن تسيطر على مدخل الطريق، حتى تتمكن الكتيبة الثالثة المحمولة على العربات نصف الجنزير و العربات ٦×٦ والمدعمة بسرية من دبابات سوبر شيرمان، من اللواء ٢٧ / مدرعات، من العبور. لكن العربات نصف الجنزير اصطدمت بالألغام وسدت أية إمكانية للتقدم عبر حقل الألغام، مقدمة للمواقع المصرية المجاورة هدفاً ثابتاً لنيران المدفعية والدبابات. وتحت ساتر النيران الكثيفة، زحف المهندسون العسكريون الاسرائيليون على الطريق، ونجحوا فى تطهير منطقة للمرور، بينما احتمى جنود الكتيبة الثالثة بقيادة الليفتنانت كولونيل «مئير بعيل» (عمل فى السنوات التالية محاضرا فى التاريخ العسكرى بجامعة تل أبيب، وعضو فعال ونافذ الكلمة بالكنيست كنائب عن الجناح اليسارى لحزب شلى)

---

* كانت رفح مع عدد كبير من المعسكرات، مركزاً كبيراً من مراكز الجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية.

بالشجيرات والكثبان الرملية. وقد أعاق التقدم المزيد من الألغام التى حطمت اثنتين من دبابات سوبر شيرمان. ولم تعثر كتيبة « بعيل » على الطريق الرئيسى، الذى يصل بين رفح ونيتسانا، إلا بعد خمس ساعات من المناورة الشاقة وسط الرمال الناعمة وحقول الألغام، تعوقها الأضواء الكاشفة والقصف المدفعى الدقيق والمركز من جانب المصريين. وعند الخامسة والنصف صباحاً، قامت الكتيبة بهجوم ناجح على موقع كبير يشرف على الطريق، وبدأت التحرك نحو مفارق طرق رفح. وكان يتولى حماية المنطقة ثلاثة مواقع حصينة، أمكن الاستيلاء عليها بعد هجوم بالكتيبتين الثالثة والرابعة، حيث قامتا ببناء رأس جسر وحفر الخنادق انتظارا لوصول دبابات اللواء ٢٧/ مدرعات .

وفى المنطقة الوسطى، قامت الكتيبتان الأولى والثانية بالهجوم على مواقع أكثر قوة بالقرب من طريق غزة – العريش. وبسبب القصور فى معدات النسف، كان على الجنود أن يشقوا طريقهم خلال شبكات الأسلاك الشائكة وسط نيران المدفعية الثقيلة والمتوسطة. ولم يتمكنوا من التقدم عبر تباب المواقع الرئيسية الحصينة المتعددة، والاستيلاء على المعسكرات الحربية الشاسعة والمخازن والمستودعات التى تركها البريطانيون منذ الحرب العالمية الثانية، خلف ملتقى الطرق، إلا بعد الاستعانة بفصيلة دبابات من اللواء ٢٧/ مدرعات .

وفى الرابعة صباحاً، باشرت كتيبة المشاة الميكانيكى التابعة للواء ٢٧/ مدرعات، المؤلفة من أربع سريا بنادق ودبابات «أ. إم اكس»، العمل على الطريق الشمالى ضد اثنين من المواقع القوية المضادة للدبابات والمتمركزة فوق القمم المشرفة على الطريق. وبعد ساعتين من القتال الشرس المتلاحم فى الملاجئ وخنادق المواصلات، سقطت تلك المواقع، التى كانت تحتلها مجموعة مدعمة وسريتين بنادق و ١٧ مدفعاً مضاداً للدبابات. وقد استخدم فى القتال، بشكل أساسى، مدافع البازوكا التى نجحت فى تدمير المواقع المصرية السبعة عشر المضادة للدبابات. وعند العاشرة من صباح الأول من نوفمبر ، التقت قوات اللواءين «جولانى» و ٢٧/ مدرعات عند مفارق الطرق، بحضور رئيس الأركان، الجنرال «دايان»، الذى كان يرافق اللواء ٢٧ أثناء تقدمه. ويصف «دايان» * حماس القوات عندما التقى رجال المشاة المغبرين من لواء «جولانى» بالوحدات المتقدمة من اللواء ٢٧ بقوله: «تلقى بعضنا البعض بالأحضان بالطريقة التى نشهدها فى الأفلام الروسية الكلاسيكية». ولكن فى خلال نصف الساعة كانت وحدات اللواء ٢٧/ مدرعات تشق طريقها غربا نحو العريش. وكان يقود اللواء وحدة استطلاع من

---

*Moshe Dayan , Diary of the Sinai campaign , 1966.

سبع عربات جيب، يتبعها المهندسون والمشاة على العربات نصف الجنزير ومجموعتان من دبابات «آ. إم . اكس» الخفيفة، ثم مجموعة من أربع مدافع عيار ١٠٥ مم ذاتية الحركة. وعند الجراده، على بعد أميال قليلة من العريش، صادف اللواء مجموعة من المواقع الجيدة الحماية بقوة سرية مشاة مزودة بأسلحة مضادة للدبابات من طراز «ارشر» ومدفعية مضادة للدبابات وبطارية هاون عيار ١٢٠ مم. وقد تمكنت هذه القوة من إعاقة تقدم اللواء لمدة ساعة، تعرض الموقع خلالها لعملية على الأجناب من جهة الجنوب والمؤخرة، في هجوم مشترك من المدرعات والطيران .

قرر الجنرال «دايان» عدم دخول مدينة العريش في ذلك المساء، والانتظار على مسافة حوالى ثلاثة أميال شمال شرقى المدينة لحين طلوع الفجر. وكان تردده نابعا من عدم تيقن القيادة الجنوبية الاسرائيلية من حجم القوة العسكرية المصرية بالمدينة. وكان معلوما أنه بالإضافة إلى اللواء المصرى الرابع بقيادة العقيد «سعد الدين متولى»، التابع للفرقة الثالثة المتمركزة بالعريش، قامت القيادة المصرية بدفع تعزيزات من غرب القناة، برغم الغارات الجوية الاسرائيلية على الطابور المتقدم، حيث نجحت الفرقة الأولى الميكانيكية فى الوصول إلى المدينة. أما السبب الآخر لتأخر «دايان» فكان ضرورة تجميع اللواء وإعادة تنظيمه وانتشاره، بعد أن تبعثر على طريق رفح- العريش. ولاشك أن العلم بوجود لواء مدرع اسرائيلى يحوم حول ضواحى المدينة كان له أثره النفسى على المدافعين المصريين فى ذلك الحين. وعند ظهيرة الأول من نوفمبر، تلقت الحامية المصرية بسيناء أوامر بالانسحاب إلى الضفة الغربية لقناة السويس، وذلك عقب الهجمات الجوية الأنجلو- فرنسية الأولى على القواعد والمطارات المصرية .

ويصف «دايان» فى يومياته* المشهد الرهيب الذى شهده بالمستشفى العسكرى بالعريش، حيث جثث الجنود، الذين ماتوا أثناء العمليات والعلاج، مبعثرة فى أرجاء المبنى. وفى أثناء القصف المتواصل، وبينما «دايان» يقف خلف إحدى نوافذ المبنى المفتوحة ليلقى نظرة على الشارع، أطلق أحد الجنود المصريين دفعة من رشاشه قتلت جندى الإشارة الذى كان يقف إلى جانبه .

وهكذا، عندما دخل اللواء ٢٧/ مدرعات العريش صباح الثانى من نوفمبر، ليواصل تقدمه نحو الغرب، لم يجد مايعوق تقدمه سوى هياكل وحطام المدرعات واللوريات التى دمرها القصف الجوى المركز الذى شهدته الأيام السابقة. ومع حلول المساء، كانت حملة خاصة قد

---

* نفسه. .

اكملت تقدمها لمسافة مائة ميل باتجاه الغرب، حتى وصلت إلى رمانة لتقف على بعد عشرة أميال فقط من قناة السويس. وفى طريقها، جمعت الحملة كمية من العتاد تركتها القوات المصرية المتقهقرة بحالتها لم تمس : ٣٨٥ مركبة، منها ٤٠ دبابة « تى ٣٤» سوفيتية الصنع و٦٠ عربة مدرعة . وأصبح هناك اتصال مباشر باللواء السابع/ مدرعات على المحور الأوسط ومع اللواء ٢٠٢ /مظلات، الذى كان قد تقدم عبر متلا إلى ضفاف خليج السويس. ومع انكسار العمود الفقرى للقوات العسكرية المصرية المصرية فى سيناء، أصبح باستطاعة «ديان» أن يصدر أوامره بوضع المرحلة الأخيرة من الحملة موضع التنفيذ، أى تطهير قطاع غزة الممتد إلى ٢٥ ميل طولاً و ٦ أميال عرض وتحرير مضايق تيران، كل هذا فى ظل ضغط سياسى متصاعد من جانب الأمم المتحدة فى نيويورك .

معركة قطاع غزة

بالرغم من قوة المصريين فى القطاع- ١٠ر٠٠٠ رجل يشكلون الفرقة الفلسطينية الثامنة بقيادة اللواء «يوسف العجرودى» - فلم يكن من المتوقع أن يشكل قطاع غزة مشكلة عسكرية حادة بعد سقوط رفح. وكانت مهمة الدفاع عن القطاع منوطة باللواء ٨٦ الفلسطينى المتمركز فى خان يونس بالجزء الجنوبى من القطاع، واللواء ٢٦ / حرس وطنى المصرى (مع ثمانى قطع هاون ثقيلة عيار ١٢٠مم وفصيلتين حدود ميكانيكية) المتمركز شمالى مدينة غزة: تتولى هذه القوات تشغيل ١٤ موقعاً حصيناً بطول حدود القطاع وثلاث مواقع لكتائب دفاع حول خان يونس .

وأوكل إلى اللواء ١١/ مشاة الاسرائيلى بقيادة الكولونيل «أهارون دورون» (أصبح فيما بعد مساعداً للقائد العام للقوات المسلحة ثم نائباً لرئيس جامعة تل أبيب) مهمة الاستيلاء على قطاع غزة. وكان اللواء يتكون من كتيبتى مشاة وفريق قتالى مدرع من اللواء ٣٧ /مدرعات وسرية دبابات «شيرمان» متوسطة وسرية مشاة نصف مجنزرة. وكان اللواء يتولى، قبل ذلك، مهمة مقاومة غارات الفدائيين التى تزايدت بشكل مفاجئ .

صدرت الأوامر بشن الهجوم فى السادسة من صباح الثانى من نوفمبر، وهو نفس التوقيت الذى دخل فيه اللواء ٢٧ / مدرعات العريش. وبدأ الهجوم، من جهة الجنوب، بإطلاق مدافع الهاون عيار ١٢٠ مم وسدود نيران الدبابات على القمم الحصينة المشرفة على مدينة غزة. (اكتسبت قمة على المنطار الرئيسية شهرتها أثناء الحرب العالمية الأولى عندما فقدت قوات

اللنبى البريطانية حوالى عشرة آلاف رجل إثر ثلاث هجمات مشؤمة شنتها على المواقع التركية هناك). وعلى الرغم من أن القوات المصرية على المرتفعات ردت بنيران كثيفة، فإن سرية اسرائيلية من الدبابات والعربات نصف المجنزرة استطاعت أن تخترق الدفاعات الخارجية، وعبور الركن الجنوبى الغربى لقمة على المنطار والتحرك سريعاً نحو الحدود الشمالية لقطاع غزة عند «بيت حانون». وفى الوقت نفسه، دخلت كتيبة مشاة إلى المدينة للقضاء على جيوب المقاومة، تتبعها الدبابات التى سرعان مانجحت فى احتلال قلب المدينة. وعند الظهيرة، ومن خلال وساطة أحد أعضاء لجنة الهدنة المختلطة التابعة للأمم المتحدة، استسلم الحاكم العسكرى المصرى لمدينة غزة وأخذ فى إقناع بقايا الحامية المصرية للمدينة بتسليم أسلحتها. فقد كان يحاول بذلك تفادى قتال لامبرر له داخل المدينة التى تضم - إضافة إلى سكانها - حوالى ٢٠٠ ألف من اللاجئين يعيشون فى خيام بدائية تنتشر فى أحياء المدينة، ويتولى المصريون الإنفاق عليهم . وبسرعة ، سلم الجنرال «فؤاد الدجانى»، الحاكم المصرى للقطاع، المدينة، وأقيم حكم عسكرى اسرائيلى .

وفى الصباح الباكر، كان اللواء يتحرك باتجاه خان يونس. وهناك، وجد اللواء ٨٦ الفلسطينى نفسه محاصراً بالقوات الاسرائيلية، من جهة رفح جنوباً وغزة شمالاً. وبرغم حالتهم، اختار المدافعون فى مواقعهم فوق القمم الخارجية القتال. ومن هنا وجد، الفريق القتالى للواء المدرع الإسرائيلى نفسه فى مواجهة سد نارى كثيف استمر حتى فجر الثالث من نوفمبر. وقام الفريق بدفع مجموعة قتالية إلى الجناح الشرقى للموقع، بينما دخلت كتيبة مشاة معسكر اللاجئين المجاور، ومن هناك اخترقت الموقع. وعند الواحدة والنصف من بعد الظهر، اكتملت عملية التطهير، ووصل لواء المقدمة إلى النطاق الخارجى لدفاعات لواء «جولانى» شمالى رفح .

معركة مضايق تيران

كانت المعركة الأخيرة ملحمة للإبداع، والتحمل الجسدى، والعناد لمجموعة من «المحاربين القدماء» المتطوعون منذ حرب الاستقلال. وهى ملحمة تؤكد الأهمية القصوى للتخطيط الاستراتيجى- السياسى الذى أمكن بواسطته إنجاز واحد من الأهداف الكبيرة للحملة، فى ظل الجدول المحكم الذى أملته اعتبارات الضغوط السياسية الدولية .

إن خاتمة الحملة بدأت، فى حقيقة الأمر، منذ الليلة الافتتاحية عندما كان مظليو «شارون»

يشقون طريقهم من الكونتيلا قاصدين «تمادا»، وعندما كان اللواء الرابع فى طريقه إلى القسيمة. فعلى التوازى مع التحركات الشمالية بالقرب من الحدود عند القسيمة والكونتيلا، كانت هناك خطة لتحرك جنوبى تتخذ من رأس النقب، جنوب شرقى إيلات، نقطة انطلاق للهجوم النهائى على خليج العقبة ومضايق تيران. ففى مساء يوم ٢٩ اكتوبر نفسه، انطلقت سرية استطلاع من اللواء التاسع/ مشاة - وهو لواء احتياط من مزارعى وادى جزريل، بقيادة الكولونيل «افراهام يوفى» - من إيلات، وسيطرت على تقاطع الطرق الحيوى الواقع إلى الشرق تماماً من رأس النقب، والذى يربط بين الطرق القادمة من الكونتيلا وتمادا ورأس النقب، وذلك بعد تطهير حقول الألغام ونسف قلعة الشرطة فى رأس النقب نفسها والسيطرة عليها. وأصبح الطريق إلى سيناء الجنوبية مفتوحاً .

بعد ذلك، وصلت بقية اللواء إلى رأس النقب، ولكن ليس من طريق إيلات مباشرة، إذ أن ذلك كان يمكن أن يكشف عن نوايا القوات الاسرائيلية بالمنطقة فى مرحلة مبكرة. وبدلاً من ذلك، سلك اللواء طريقاً ملتوياً، قاطعاً صحراء النقب الاسرائيلية من جهة الشمال عبر الكونتيلا (التى كانت قد سقطت فى يد لواء «شارون» المظلى وهو فى طريقه إلى متلا) .

والكولونيل «يوفى» رجل طويل القامة، قوى البنية، صريح، يذكرك بشخصية «فالستاف»* سبق له الخدمة بالجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية، وشغل مناصب قيادية بالهاجاناه وجيش الدفاع الإسرائيلى. وهو فلاح ابن فلاح، من مواليد «جفنيل» بالجليل، ويعتبر مرجعا فى الحياة البرية. خدم فيما بعد كرئيس عمليات للقيادة الجنوبية، وفى حرب ١٩٦٧ قاد إحدى الفرق التى اخترقت جبهة سيناء الوسطى. اختير لفترة قصيرة عضواً بالبرلمان، ولكن تظل رئاسته لهيئة اسرائيل للحفاظ على البيئة أهم المناصب التى شغلها، والتى أنشأ خلالها حدائق للحيوانات والمتنزهات فى أنحاء البلاد .

كانت المهمة الموكلة للواء التاسع/ مشاة هى أصعب مهام الحملة من عدة أوجه. إذ كان عليه أن يتقدم عبر الطريق الساحلى الوعر على خليج العقبة، وسط منطقة من القمم المنشارية الحادة والتى تنحدر بشدة باتجاه البحر؛ منطقة تغطيها الصخور الضخمة والرمال العميقة والوهاد، فى ظل مناخ شديد الحرارة مع قلة المياه. وكان الطريق، فوق ذلك، مخصصا للجمال ولايصلح لمرور لواء مشاة ميكانيكى كامل. كان طول الطريق حوالى ١٥٠ ميلا من الأرض غير

---

* نسبة إلى « جون فالستاف » فى مسرحية « هنرى الرابع » و « زوجات وندسور المرحات» لشكسبير.. شخص سمين ، ذكى ، وفارس متباه ، ومرح وإن بفجور» . قاموس وبستر (المترجم) .

المطروقة الضيقة والوعرة. ومثل تلك الرحلة تحتاج إلى اكتفاء ذاتي من التعيينات والماء والوقود حتى تصل الوحدة، على الأقل، إلى نقطة يمكن عندها إمدادها من البحر. وكان اللواء يتكون من ٢٠٠ مركبة و ٨٠٠ رجل منظمين فى كتيبتى مشاة محمولتين على عربات نصف مجنزرة وعربات ٦×٦، ووحدة استطلاع، وبطارية مدفعية، وكتيبة هاون ثقيلة، ومجموعة مضادة للطائرات، ومهندسين، وعناصر صيانة وخدمات. وكان مقرراً نقل وحدة دبابات عن طريق العبارات البحرية، سبق نقلها بالسكة الحديدية والطريق البرى من حيفا إلى إيلات. وكان على هذه القوة أن تتصدى للحامية المصرية المدافعة التى تتألف من ١٥٠٠ رجل يشكلون كتيبتى مشاة تتمترس خلف التحصينات الحجرية، مع مجموعة مدفعية منتشرة، تتخذ من شرم الشيخ مركزاً لها وتتواجد مواقعها الخارجية فى رأس نصرانى.

وكما كان مقرراً، قام اللواء بتغطية الـ ٦٠ افصل بطول وادى وتير* منتشراً بفاصل سبعة أميال بين كل وحدة لتقليل الغبار وضمان حرية الحركة. وبعد عبور واحة عين الفرطاجة صادف اللواء، عقبة طبيعية كبيرة: مرتفع ضخم يقطع وادى سعل، مع أرض صخرية ورمال ناعمة، انغرزت فيها معظم العربات. وكان لابد من دفعها أو جرها أو نقلها بالأيدى. وعند الوصول إلى واحة «دهب» الساحلية الواسعة، فى ٣ نوفمبر، وجدت الطليعة المتقدمة نفسها أمام قسم من قوات الحدود «الآلية» المصرية من راكبى لجمال – شرطة الصحراء – تنصب كمينا هناك. وبسبب قلة الحذر، تكبد اللواء التاسع عددا من الخسائر .

بعد الراحة والتموين من عبّارة أرسلت من إيلات إلى دهب، انطلق اللواء فى السادسة من مساء ٣ نوفمبر، عبر وادى «كيد» الضيق، وهو ممر للماعز تحوطه حوائط مرتفعة ولايزيد عرضه فى بعض الأماكن على الياردتين. وهناك، وكما كان متوقعاً، وضع المصريون فصيلة من حملة البازوكا ومدافع الماكينة كى يقضوا على أية امكانية للتقدم بوحدات اسرائيلية صغيرة، كما قاموا بتلغيم الطريق. ولكن بعد تراشق قصير، انسحبت الوحدة المصرية المنعزلة، لتنتهى هذه العقبة، ويتقدم المهندسون العسكريون لتوسيع الممر حتى يتمكن اللواء من المرور. وبحلول ظهر ٤ نوفمبر، وصلت القوة إلى رأس نصرانى لتكتشف أن تلك القلعة الحصينة، بمخابئها القوية المعززة وخنادق موصلاتها وحقول الألغام والأسلاك الشائكة، قد أخليت من حاميتها المصرية التى انسحبت غرباً للتجمع مرة أخرى للدفاع عن شرم الشيخ. وربما كان ذلك راجعاً

---

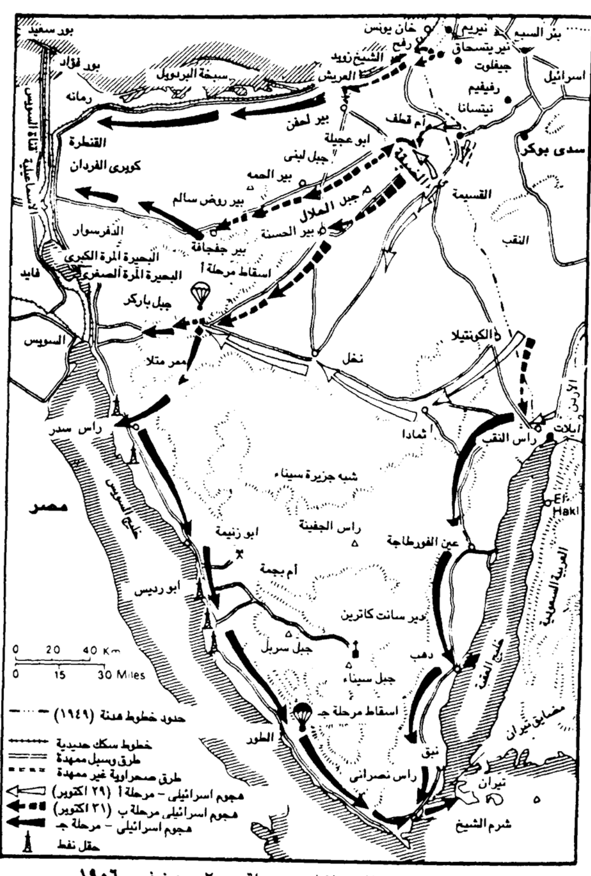
* يوردها الكاتب Watin (المترجم).

إلى أن عناصر من اللواء ٢٠٢/ مظلات كانت تتقدم فى تلك الأثناء من الطور فى الشمال، فأصبح تركيز القوات المصرية فى شرم الشيخ ضرورياً لخطتها الدفاعية من الوجهة الاستراتيجية. فشرم الشيخ كانت قاعدة خلفية للإمداد، مجهزة بالمستودعات الضخمة وتضم مطاراً، لكنها لم تكن معدة للصمود أمام هجوم بالمدرعات .

بدأ الهجوم على الدفاعات الخارجية لشرم الشيخ ، التى بنيت فوق سلسلة من المرتفعات، مع بداية ظهر ٤ نوفمبر، بالتنسيق مع كتيبة مظلات قادمة من جهة الشمال الغربى، ووقفت على مسافة ١٥ ميلاً شمالى شرم الشيخ لمنع القوة المصرية المتمركزة هناك من التحرك جهة الغرب. ووقعت الدفاعات الخارجية لمنطقة العاط بيد وحدة استطلاع اللواء التاسع بعد هجوم بالصواريخ ومدافع الماكينة . (لم تواجه المعاونة الجوية فى هذا التحرك الأخير مقاومة تذكر لأن نشاط القوات الجوية المصرية فى سيناء كان قد تم تحييده، سواء بسبب العمليات الاسرائيلية أو بسبب القصف الأنجلو - فرنسى للقواعد الجوية غرب قناة السويس). وفى الثالثة والنصف من صباح اليوم التالى، قامت الكتيبة ١٩ بالهجوم على الدفاعات الخارجية لشرم الشيخ من الجهة الغربية للموقع، دون أن يكون لديها تصور واضح لطبيعة الوضع الدفاعى للعدو. ولذا، كانت النيران المصرية الكثيفة لثلاثة مواقع حصينة، وحقل ألغام واسع، سبباً فى وقوع خسائر كبيرة. وانسحبت الكتيبة ١٩ تشق طريقها فى الظلام، تحمل جرحاها فوق العربات نصف الجنزير. وضلَّ جزء من القوة المنسحبة طريقه ووصل إلى مواقع المدفعية المضادة للدبابات التى سبق أن اشتبكت معها بنجاح، لالشئ إلا ليكتشفوا أن الموقع قد أصبح خالياً من القوات المصرية، والتى تركت وراءها أسلحة مضادة للدبابات وخطا تليفونيا مفتوحا على القيادة المصرية ! .

بعد ذلك بساعة، أى فى الخامسة والنصف، وبعد ساتر من نيران الهاون عيار ١٢٠مم والقصف الجوى، انطلقت سرية العربات نصف الجنزير ووحدة الاستطلاع، تتبعها وحدات من المشاة، إلى الجانب الغربى لتطهير المواقع، بينما تحركت الكتيبة ٩٢عبر الجانب الشرقى ووصلت إلى المطار. وأحكم اللواء سيطرته على الموقع، وفى التاسعة من صباح ٥ نوفمبر، تم الاستيلاء على مقر القيادة المصرية، والتقت وحدات لواء «شارون» (٢٠٢مظلات)، والتى كانت قد تحركت نحو الجنوب على خليج السويس من رأس سدر مروراً بالطور، بلواء «يوفى» التاسع فى شرم الشيخ .

وبحلول التاسعة والنصف من صباح ٥نوفمبر، كانت الحرب فى سيناء قد انتهت وفُتحت المضايق. وفى اليوم التالى، واستجابة لمناشدة الأمم المتحدة، بدأ سريان وقف إطلاق النار.



الهجوم الإسرائيلى ، مرحلة جـ ، ٢ – ٥ نوفمبر ١٩٥٦

الحرب الجوية والبحرية

فى ٢٩ اكتوبر، كانت القوة الجوية المصرية تتفوق على نظيرتها الاسرائيلية بنسبة ٦٠٪، وتمتلك عددا من المقاتلات النفاثة (ميج ١٥ وفامبير) أكبر مما تملكه اسرائيل من طائرات «ميستير٤» و«اوراجان» و «ڤوتور». ولكن على الرغم من التفوق الكمى والكيفى الذى تحقق لهم، إلا أن النشاط الجوى المصرى كان محدوداً. وربما يرجع ذلك إلى قيام الطائرات البريطانية والفرنسية، ابتداء من مساء ٣١اكتوبر، بقصف الأهداف داخل مصر، خاصة القواعد الجوية، تاركين للقوات الجوية الاسرائيلية حرية العمل بعزم وتصميم فى أجواء سيناء.

وخلال الساعات الثمانية والأربعين الأولى، وقعت حوالى ١٦٤ معركة جوية، كان معظمها بين طائرات الميج المصرية والميستير الاسرائيلية، وإن اشتركت كذلك طائرات الأوراجان والڤامبير: فى تلك المعارك. سقطت خمس طائرات ميج وأربع طائرات ڤامبير مصرية. وكانت الخسائر الاسرائيلية ناجمة بالأساس عن النيران الأرضية الكثيفة والمركزة، التى نجحت فى إسقاط طائرتين ميستير، وتسع طائرات بمحرك كباس .

وكانت البحرية الاسرائيلية تقل، كمياً وكيفياً ، عن القوة المصرية بالنسبة نفسهاالقائمة فى القوات الجوية، خاصة بعد أن تلقت البحرية المصرية اثنتين من المدمرات الروسية من طراز «سكورى» وعدداً من الغواصات. وقد تلقت اسرائيل فى ١٩٥٦، مدمرتين بريطانيتين يعود صنعها إلى ماقبل الحرب العالمية الثانية. والحادث البحرى الوحيد الجدير بالإشارة الذى شهدته الحملة، هو ذلك الذى وقع فى مساء ٣٠ اكتوبر، عندما دفع المصريون بالفرقاطة «إبراهيم الأول» (١٫٤٩٠ طن ، ٢٧ عقدة) لقصف ميناء ومعمل تكرير بترول حيفا بمدافعها الأربع عيار ١٠٢ مم. وقد وصلت الفرقاطة إلى حيفا فى الثالثة وأربعين دقيقة من صباح ٣١ اكتوبر، ومن مسافة ستة أميال أطلقت ١٦٠ قذيفة . وفى الخامسة والنصف وصلت الفرقاطات الاسرائيلية إلى الموقع، وبدأت فى مطاردة السفينة المصرية، بالاشتراك مع القوات الجوية. واصيبت الفرقاطة فى محركها التوربينى والدفة، وعند السابعة والثلث، أنزلت علمها واستسلمت للبحرية الاسرائيلية .

بريطانيا وفرنسا والأمم المتحدة

لم تتحرك الحملة الحليفة من ميناء «ڤاليتا» بمالطة إلا فى الأول من نوفمبر . ولاشك أن

النتائج كان يمكن أن تختلف لو أن رئيس الوزراء البريطاني، «انتوني ايدن»، قد أخذ بنصيحة الجنرال سير «شارلز كيتلي» والليفتانت جنرال سير «هف ستوكيل» (الذى كان قائداً للقوات البريطانية فى حيفا ١٩٤٨، والذى أصبح فى ١٩٥٦ قائد للقوات البرية الحليفة) بأن يكون أول نوفمبر هو موعد الإنزال كما كان مخططاً أصلاً. كان من الممكن أن يغير ذلك من مجمل التطورات التى حدثت ويتفادى العديد من التعقيدات السياسية. وكانت القوات البريطانية فى البحر تضم فرقة مشاة ومجموعة لواء مظلات ولواء كوماندوز من البحرية الملكية البريطانية، وكتيبة مظلات وفوجا ميكانيكيا خفيفا. كما كانت هناك أيضاً قوة بحرية كل من البلدين وقوات جوية تعمل من على حاملات الطائرات البريطانية والفرنسية، ومن قبرص . وبينما كانت هذه القوات تشق طريقها ببطء عبر المتوسط، لتلتقى فى الطريق بالوحدات الفرنسية القادمة من الجزائر والبريطانية القادمة من قبرص ، كانت الضغوط السياسية من جانب الروس وفى الأمم المتحدة تتزايد، وكذلك القيود السياسية المفروضة على البريطانيين والفرنسيين. وتزايد تردد القيادة السياسية، خاصة فى بريطانيا، التى تعرضت حكومتها لهجوم شديد من جانب المعارضة ومن أنصارها على حد سواء .

واعتباراً من ٣١ اكتوبر، وبعد أن أصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية إنذاراً يدعو لانسحاب القوات من على جانبى قناة السويس، بدأت قواتهم الجوية فى الهجوم على قواعد جوية فى مصر، وحطمت العديد من الطائرات المصرية. وكانت غارات الحلفاء موجهة حصراً ضد القواعد الجوية المصرية، فلم تشترك أىّ من الطائرات البريطانية أو الفرنسية فى مساعدة القوات الاسرائيلية التى كانت تتقدم عبر سيناء .

كان الهدف من الجهود المتصاعدة داخل مجلس الأمن هو التوصل لوقف لإطلاق النار، واستخدمت بريطانيا وفرنسا حق الفيتو مرتين فى مواجهة تلك التحركات. وفى تلك الأثناء، كانت القوة الأنجلو – فرنسية التى تبحر ببطء عبر المتوسط تخسر السباق مع الضغط السياسى. وتحت ضغط الأحداث ، اضطر «ستوكويل» إلى تقديم موعد الإسقاط المظلى على منطقتى بور سعيد وبور فؤاد يوما، أى إلى يوم ٥ نوفمبر. وبسبب تنامى الرأى العام المعادى فى بريطانيا وفى كل مكان، فرضت القيود على أنواع المدافع التى يمكن للبحرية أن تستخدمها فى قصف مناطق الإنزال لمعاونة القوات التى كانت فى طريقها آنذاك للبر. وفى ٦ نوفمبر، نزلت طلائع القوات البريطانية على شواطئ بور سعيد، بينما هبطت القوات الفرنسية فى بور فؤاد. ورفض القائد المصرى لبور سعيد، العميد «الموجى»، الذى وقع فى الأسر،إصدار

أمر عام بالاستسلام. ومن هنا، قرر الجنرال «ستوكويل» أن تتجه قواته بالهليكوبتر جنوباً وإسقاط المظليين فى الإسماعيلية وأبو صوير. ولكن عندما كانت هذه العمليات على وشك البدء، تراجعت الحكومة البريطانية تحت الضغط السياسى الدولى، ووافقت على وقف إطلاق النار منتصف ليلة ٧ نوفمبر. ولم يكن أمام الفرنسيين سوى أن يحذوا حذو البريطانيين على مضض. وهكذا انتهت حرب سيناء – السويس لعام ١٩٥٦ .

وبدأت مفاوضات مطولة، حاولت اسرائيل خلالها الحصول على ضمانات فيما يخص المسألتين اللتين أديتا إلى الحرب، أى إغلاق مضايق تيران، وعمليات الفدائيين التى تنطلق من مناطق خاضعة للسيطرة المصرية. واقترحت الحكومة الكندية تشكيل قوة طوارئ تابعة للأمم المتحدة، ووافقت المنظمة على ذلك. وبرغم محاولات اسرائيل لاستمرار سيطرتها على المناطق الحيوية فى شرم الشيخ وقطاع غزة، فإنها أجبرت، تحت ضغط الأمم المتحدة، على الانسحاب من تلك المواقع مقابل «ضممانات حقيقية» بالمرور فى مضايق تيران، واشتراك الأمم المتحدة فى إدارة قطاع غزة. وتقرر وضع كل من قطاع غزة وشرم الشيخ تحت إشراف قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة . وتم تنفيذ الانسحاب الاسرائيلى على مراحل .

وفى غزة، أدى انسحاب القوات الاسرائيلية فى مارس ١٩٥٧، إلى مرحلة من العنف تخللتها سلسلة من الإعدامات السريعة لأولئك الذين زُعم بأنهم «تعاونوا» مع قوات الاحتلال الاسرائيلى. وفقد جنود الأمم المتحدة سيطرتهم على عصابات الفدائيين المتجولة، بل وعلى الموقف كله فى الحقيقة . وفى خلال يومين من انتقال تبعية غزة إلى الأمم المتحدة، عين ناصر حاكماً عسكرياً للقطاع، وتوجه إلى مقر قيادته دون استئذان الأمم المتحدة، التى لم يصدر عنها حتى مجرد احتجاج. وكان هذا الضعف هو البذرة لحصاد من المشكلات سوف تشهده المنطقة فى المستقبل. وخلال فترة قصيرة، طُرد عمدة غزة وحل محله أحد الموالين لمصر. فى الوقت نفسه، وتحت ضغط المصريين، أمرت الأمم المتحدة قواتها بالجلاء عن القطاع والاكتفاء بدورية على حدوده. واتخذت قوة الطوارئ مواقع لها على الحدود بين مصر واسرائيل، وفى شرم الشيخ .

وأخيراً، بدأت الملاحة الاسرائيلية تتنقل بحرية، عبر مضايق تيران، إلى أفريقيا وآسيا وبالعكس. وشهدت الحدود الاسرائيلية – المصرية هدوءاً نسبياً، استمر لعشر سنوات تالية عندما نُسيت «الضمانات الحقيقية» للمرور فى مضايق تيران، حينما أمر ناصر قوات الأمم المتحدة بالخروج من سيناء. وبخروج القوات، كان لنذر الحرب أن تلوح من جديد .

الخلاصـــة

عمل من أعمال الفن

كانت حملة سيناء عملاً كلاسيكياً من عدة أوجه . وكانت المرحلة الاستهلالية منها تطبيق فذ لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر. ويرى الكابتن سير «بازل ليدل هارت» فى تحركات تلك المرحلة أكثر التطبيقات روعة لمثل ذلك الاقتراب فى تاريخ الحروب. إنه يعتبر خطة سيناء «عملا من أعمال الفن». لقد كانت المرة الأولى التى تتاح فيها الفرصة أمام جيش الدفاع الاسرائيلى ليثبت أن مابُنى منذ حرب الاستقلال كان قوة قتال مؤثرة، تحتفظ بأصالة الحركة والفكر الذى ساد القوات الاسرائيلية عندما كانت تحارب فى ٤٨ - ١٩٤٩ من أجل إقامة اسرائيل. وتتميز القرارات الرئيسية للمعركة كذلك بدرجة ملحوظة من المرونة، وبرهن القادة على قدرتهم على التكيف السريع مع متغيرات المعركة. وكان ذلك واضحاً بشكل خاص فى الطريقة التى تعاملت بها حملة اللواء السابع/ مدرعات عند اختراق أبو عجيلة. كما أثبت نظام الاحتياط كفاءته. فقد نجح هذا النظام فى تعبئة الجيش للعمليات ضد مصر فى سيناء والاحتفاظ بسرية أهداف العملية. فى الوقت نفسه، نجحت اسرائيل فى الاحتفاظ بالسيطرة الجوية، قبل أن يتضح أمام المصريين احتمال اشتراك القوات الجوية البريطانية والفرنسية. وربما كان أهم ماينبغى ملاحظته فى هذه الحملة هو استمرار سريان التقاليد التى أرسيت خلال حرب الاستقلال، حيث كان الضباط يقدمون دائماً القدوة .فنسبة الإصابات بين الضباط وصف الضباط كبيرة، وفى كل مراحل المعركة ترى كبار الضباط يتقدمون رجالهم وسط النيران .

كان بإمكان المصريين، الذين لاقوا هزائم عديدة خلال العمليات ضد اسرائيل، أن يدّعوا بأنهم لم يهزموا على أيدى الاسرائيليين لأنهم اضطروا للانسحاب بسبب التهديد الانجلو - فرنسى. والحقيقة أن صمود ناصر أمام الهجوم الضارى قد أكسبه مكانة سياسية كبيرة، تلك التى قدمها كانتصار هائل فى التحليل الأخير للحرب .

كذلك جاءت حملة سيناء كتدشين لقوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة باعتبارها أداة لحفظ السلام. فقد أدت القوة، على مدى عشر سنوات، مهمة ثمينة. ولم يكن الفشل فى ١٩٦٧ راجعاً إلى تلك القوة، بقدر مايعود إلى السكرتير العام للمنظمة، وإلى المنظمة نفسها. لقد ظهر عنصر جديد وهام، سوف يصبح جزءاً هاماً من مسرح الشرق الأوسط .

تعليق من المترجم:

ينضم المؤلف هنا إلى جوقة الدعاية الاسرائيلية التى بذلت قصارى جهدها لتحويل الجيش الاسرائيلى إلى اسطورة بعد حرب ١٩٥٦. لكن الجنرال «حاييم لاسكوف»، رئيس الأركان الاسرائيلى الأسبق، يورد فى تقريره حول هذه الحرب، والذى أحيط بسرية كاملة :

«إننا حاولنا بناء أسطورة حول الجيش الإسرائيلى وحول فكرة أنه جيش لايهزم وأردنا أن يكون لهذه الأسطورة تأثير ضخم على معنويات الجيش والشعب، ولكن الخطر يجئ إذا صدقنا هذه المقولة، وخلطنا بين الدعايات التى نقولها للآخرين والحقائق التى يجب أن نعترف بها لأنفسنا». وبعد أن يورد «لاسكوف» فى تقريره بعض الملاحظات والانتقادات على تنفيذ الخطة، يؤكد على أن حرب السويس على الناحية الاسرائيلية لاينبغى أن تؤخذ كدرس فى الأداء العسكرى لعدة أسباب يوردها التقرير .

كذلك، فقد كتب البريجادير «أ. ستيوارت»، الملحق العسكرى الأمريكى باسرائيل، تقريراً عسكرياً لوزارة الدفاع بواشنطن يتشابه كثيراً مع تقرير الجنرال «لاسكوف». وقد ورد فى التقرير مانصه:

«إن العيب الأساسى للعمليات الاسرائيلية سواء كان فى تنظيم أو تخطيط أو توجيه الحملة من جانب قيادة عسكرية لم يرتفع مستوى تقديرها إلى مستوى قادة جيش عصرى، فقد كان أقرب إلى أسلوب حرب العصابات منه إلى أسلوب الحرب الحديثة» ويشير التقرير إلى وقائع محددة، منها أن الطائرات الاسرائيلية أغارت على وحدات اسرائيلية» وأن «سرية من مدرعات اللواء السابع الاسرائيلى اشتبكت بمدافعها مع سرية من دبابات اللواء السابع والثلاثين الاسرائيلى»، ومنها «فشل اللواء العاشر/ مشاة و٣٧/ مدرعات الاسرائيليين فى هجومهما على موقع «أم قطف»، حيث حارب المصريون بأحسن مستوى من مستويات القتال، وذلك بسبب بطء اللواء العاشر، وتسرع اللواء السابع والثلاثين، وعدم التنسيق فى العمل بينهما، مما دعا الجنرال «دايان» إلى عزل بعض القادة أثناء سير العمليات»

لمزيد من التفاصيل راجع: محمد حسنين هيكل «حرب الثلاثين سنة، ملفات السويس»، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٦، ص ٥٣٦ وما بعدها.

الباب الثالث

حرب الأيام الستة ١٩٦٧

شهدت الفترة التى أعقبت حملة ١٩٥٦ هدوءاً نسبياً على طول الحدود الاسرائيلية – المصرية فى قطاع غزه وسيناء. ويرجع ذلك، إلى حد كبير، إلى وجود الأمم المتحدة. لكن ذلك لم يكن يعنى أن الشرق الأوسط ينعم بالهدوء، فالعكس هو الصحيح.

فعلى مدى عام من انتهاء الحرب وانسحاب اسرائيل من المناطق التى احتلتها فى ١٩٥٦، اجتاحت العالم العربى سلسلة شبه مستمرة من الجيشان. ففى ١٩٥٨، أطيح بالملك فيصل ملك العراق واغتيل بوحشية مع عمه عبد الإله وعدد من أفراد أسرته. وقام الرعاع المهتاجون بسحب جثثهم عبر شوارع بغداد. وفى ثياب امرأة، تخفى «نورى السعيد» رئيس وزراء العراق وأحد أبرز الشخصيات السياسية وأكثرها ذكاء فى العالم العربى، والذى قاد البلاد منذ قيامها كدولة مستقلة بعد الحرب العالمية الأولى. لكن أمره انكشف، ومزقه الرعاع إرباً. ومكّن نظام ثورى ضعيف، بقيادة الجنرال « عبد الكريم قاسم»، الاتحاد السوفيتى من الفوز بأول موطئ قدم له فى ذلك البلد الغنى بالنفط ، وتحقيق أولى خطواته فى محاولة خلق موقع له على الخليج الفارسى. واستمر الرئيس ناصر فى إثارة القلاقل فى أجزاء عديدة من العالم العربى، وفى لبنان والأردن بشكل خاص. وكنتيجة لهذه النشاطات، اندلعت الحرب الأهلية فى لبنان، وبناء على دعوة ملحة من الرئيس اللبنانى «شمعون»، أنزل الأسطول السادس الأمريكى قوة من مشاة بحريته فى لبنان لتثبيت الأوضاع وحماية النظام، بينما أرسل الجيش البريطانى قوات عبر اسرائيل (بموافقة اسرائيل) إلى عمان لمساندة نظام الملك حسين . وفى فبراير من العام نفسه، وبعد صعود حزب البعث إلى الحكم فى سوريا، توحدت مصر وسوريا وقامت الجمهورية العربية المتحدة من قطرين: قطر شمالى فى سوريا، وآخر جنوبى فى مصر. وأصبحت سوريا بذلك المركز الشمالى للنشاطات الناصرية المتزايدة الموجهة ضد اسرائيل، حيث كان تواجد قوات الأمم المتحدة على الحدود الاسرائيلية المصرية يعوق نشاطات ناصر على هذه الحدود. ومن سوريا، ضاعف ناصر أيضاً من جهوده من أجل إسقاط العرش

الهاشمى فى الأردن، وفى سبتمبر ١٩٦٠ نجح عملاؤه فى اغتيال رئيس الوزراء الأردنى «هزاع المجالى»، الذى كان يقف موقفاً متشدداً فى مواجهة ناصر: وضعوا قنبلة فى مكتب رئيس الوزراء، انفجرت فى وقت قريب من الموعد المحدد لزيارة الملك حسين لمقر رئيس الوزراء. وكانت تلك واحدة من محاولات سورية عديدة فى ذلك الوقت تستهدف الملك حسين شخصياً ونظامه، خطط لها الجنرال «فؤاد سراج الدين» * رئيس المخابرات السورية. وفى إحدى هذه المرات كان الملك حسين يقود طائرته عبر الحدود السورية، فتعرضت له طائرة مقاتلة سورية فى محاولة لإسقاط طائرته، ولم ينجح الملك فى الفرار – حسب وصفه للواقعة فى مذكراته – إلا بعد سلسلة من المناورات الاكروباتية. وقد أثار مقتل رئيس الوزراء استياء الملك حسين الشديد، الذى كان على صلة حميمة، وابنا لإحدى الأسر البدوية المعروفة والتى قدمت عدداً من قادة الملك العسكريين. وتحت ضغط شعور مفعم بالكراهية، قام حسين بحشد ثلاثة ألوية، هى عماد الجيش فى ذلك الوقت، على الحدود السورية بغرض الغزو والانتقام لمقتل رئيس وزرائه. وقد تمت فى ذلك الوقت اتصالات سرية بين الأردنيين والاسرائيليين بوساطة المؤلف، الذى كان يعمل وقتها رئيساً للمخابرات العسكرية الاسرائيلية، وطلب الأردنيون خلالها عدم انتهاز فرصة خلو خطوط الجبهة بين الأردن واسرائيل من القوات الأردنية فى حالة حدوث ذلك الغزو لسوريا. وفى النهاية، وبفضل جهود سفيرى الولايات المتحدة وبريطانيا، التى استغرقت عدة ساعات، اقتنع الملك حسين بالعدول عن هذه المغامرة (التى – بالنظر إلى القوة النسبية للجيشين – كان يمكن أن تكون فادحة الثمن) .

بعد سنوات قليلة من المعاناة تحت ماكان، فى واقع الأمر، احتلالاً مصرياً، كان المشير «عبد الحكيم عامر» خلالها أشبه مايكون بقنصل لناصر فى سوريا، تمرد السوريون على المصريين فى اكتوبر ١٩٦١، وعادت سوريا مرة أخرى أمة مستقلة .

وبينما كانت حدود اسرائيل مع مصر هادئة نسبياً، تطور مركز النشاط المعادى لاسرائيل بطول الحدود السورية، ثم الأردنية فيما بعد. وقام السوريون بقصف المستوطنات الاسرائيلية من مواقعهم المتميزة فوق مرتفعات الجولان، وبثوا الألغام وشنوا حرب استنزاف على طول الحدود. وفى الأول من فبراير ١٩٦٠، وبعد فترة هدوء طويلة منذ ١٩٥٦، قام جيش الدفاع الاسرائيلى بغارة انتقامية على المواقع السورية فى «خربة توفيق» على بحر الجليل. ومع ذلك واصل السوريون هجماتهم ضد قوارب الصيد بالبحيرة، وقصف قرى وادى الحولة وإطلاق النار على المزارعين بالمناطق المنزوعة السلاح على طول الجبهة

---

* يقصد المؤلف بالطبع السيد «عبد الحميد السراج» الذى تولى رئاسة المخابرات السورية اعتباراً من ١٩٥٥، وفى ظل حكومة الوحدة المصرية السورية ، عين نائباً لرئيس الوزراء ووزير للداخلية (المترجم) .

وفى ١٩٦٤، قرر مؤتمر للقمة العربية عقد بالقاهرة وحضره رؤساء تلك الدول تحويل مياه نهر الأردن؛ وتقرر فى المؤتمر نفسه قيام حركة فلسطينية تحت اسم «منظمة التحرير الفلسطينية». وفى هذا المؤتمر ومؤتمر الدار البيضاء الذى تلاه، تقرر تخصيص حوالى ٤٠٠ مليون جنيه (١١٠ مليون دولار) لوضع هذه القرارات موضع التنفيذ. واعترافاً منها بالحركة الفلسطينية، قررت الدول العربية منح «أحمد الشقيرى» رئيس المنظمة مقعداً رسمياً، وشرع بعد قرارات المؤتمر فى إنشاء جيش فلسطينى .

وفى ١٩٦٥، أعلن رسمياً فى مؤتمر بالقدس قيام منظمة التحرير الفلسطينية، كما أقر ميثاق فلسطين، الذى أصبح الوثيقة السياسية للحركة. وقد تم تنقيحه فى ١٩٦٨ بحيث لم تعد أهدافه قاصرة على دولة اسرائيل فقط، وإنما أردن الملك حسين كذلك بشكل ضمنى. فى ذلك الوقت كان الأردن يشرف على الضفة الغربية، بينما تشرف مصر على قطاع غزة. ولو كانت تتوفر الرغبة لدى العرب، لأقاموا دولة فلسطينية فى تلك المناطق. لكن هذه لم تكن رغبتهم ولا كان غرض المنظمة، التى لم تكن مستعدة لقبول أى حل وسط، سواء فى ذلك الحين أو بعد ذلك، لأن ميثاق فلسطين يدعو فى هذه النقطة إلى القضاء على دولة اسرائيل. والحقيقة أن منظمة التحرير كان عليها أن تسعى إلى خلق موقف على الحدود الاسرائيلية يمكن أن يجر الدول العربية إلى حرب مع إسرائيل. لكن هذه السياسة لم تكن تتفق فى كل الأوقات مع الدول العربية، ولذا فقد كانت هذه الدول تضطر إلى كبح جماح (م. ت. ف) من حين لآخر. لكن الحكومة السورية سرعان ما «تبنّت» (م. ت. ف)، الأمر الذى أدى إلى نمو المنظمة وتحولها إلى عنصر رئيسى .

سريعاً، بدأ العمل فى كل من لبنان وسوريا فى تحويل مياه نهر الأردن، وحفرت قناة لتحويل مياه الحصبانى فى لبنان وبانياس فى سوريا إلى نهر اليرموك بالأردن، لتحرم اسرائيل بذلك من ثلثى مياه نهر الأردن. وكان قد سبق لاسرائيل أن أعلنت فى أكثر من مناسبة أن إغلاق مضايق تيران أو تحويل مياه الأردن يعد بحد ذاته عملا من أعمال الحرب. وقد ردت اسرائيل على عمليات التحويل بسلسلة من القصف بالمدفعية بعيد المدى ونيران الدبابات على مواقع العمل، لوقف إتمام الحفر. وفى نوفمبر ١٩٦٤، قامت الطائرات الاسرائيلية بغارات على مناطق التحويل التى لم يصلها مدى المدفعية. على أن العرب لم يكونوا راغبين فى التورط فى حرب شاملة كنتيجة لهذه المبادرة السورية؛ والحقيقة أن النشاطات الاسرائيلية جعلتهم يترددون، حيث أصبح واضحاً أمام القيادة السورية أن الاستمرار فى التحويل سوف يقود حتماً إلى حرب مع اسرائيل، ولم تكن القيادة العربية تبدى حماساً كبيراً لها .

وضعت الاضطرابات الداخلية فى سوريا العناصر المتطرفة من حزب البعث فى الصدارة، واستمر السوريون فى إرسال المخربين إلى اسرائيل عبر الأردن ولبنان، وكان الملك حسين فى ذلك الوقت غير قادر - أو راغب - على السيطرة على حدوده ومنع الغارات على اسرائيل. وفى نوفمبر ١٩٦٦، وبعد عدد من هذه الإغارات، قام جيش الدفاع الاسرائيلى بالهجوم على قرية «السموع» بمرتفعات الخليل، التى كانت نقطة انطلاق للهجمات الإرهابية، وهى أول غارة انتقامية اسرائيلية تنفذ فى وضح النهار، وتستخدم فيها كل عناصر المدرعات والطيران. وعلى أثر هذا الهجوم، اندلعت الاضطرابات فى الأردن، وتعرض الملك حسين لنقد عنيف، وبدأت عناصر عديدة تتآمر عليه. وبدأ نظامه يترنح وتلقى معونة عسكرية من الولايات المتحدة، بناء على طلبه .

المواجهـة

تواصلت الهجمات السورية بطول الجبهة الشمالية، وكذلك التسلل داخل اسرائيل عبر الأردن ولبنان، انطلاقاً من قواعد موجودة بسوريا. وفى ابريل ١٩٦٧، تزايد قصف المشروعات الزراعية بالمنطقةالمنزوعة السلاح على بحر الجليل، وتضاعفت النيران الموجهة إلى القرى الاسرائيلية الحدودية. وفى ١٧ ابريل، وجُهت نيران عالية الكثافة من المدافع بعيدة المدى إلى القرى الاسرائيلية، فخرجت طلعات من الطيران الاسرائيلى لقصفها. وعندما هاجمت الطائرات الإسرائيلية مواقع المدفعية التابعة للجيش السورى تدخلت القوات الجوية السورية لاعتراض الطائرات الاسرائيلية المغيرة. ونشبت معركة جوية بين الطائرات الفرنسية الصنع التابعة لسلاح الجو الاسرائيلى وطائرات ميج الروسية الصنع التابعة للقوات الجوية السورية. وخلال سلسلة من معارك الطائرات، سقطت ست من الطائرات السورية. وفى مجال تعليقه على المعركة الجوية والانتهاكات السورية، حذر رئيس الأركان الليفتنانت جنرال «اسحاق رابين» الحكومة السورية، مشيراً إلى أن اسرائيل لن تقف مكتوفة اليدين أمام الهجمات والانتهاكات السورية، وأنه إذا ما استمر ذلك فإن الرد الاسرائيلى سوف يعرض وجود النظام فى دمشق ذاته للخطر. وأثار هذا التحذير، فى ظل سقوط الطائرات الست، مخاوف شديدة فى العاصمة السورية، فقد سرى الاحساس باحتمال انتهاز اسرائيل لفرصة مابدا من ضعف نسبى على الجانب السورى، وافتقاد العالم العربى أنئذ لوحدة الصف للقيام بهجوم.

وبدافع الخوف من الرد الاسرائيلى على انتهاكاتهم، حاول السوريون نقل مخاوفهم من هجوم اسرائيلى وشيك إلى المصريين. كما استداروا ناحية الروس، وحثوهم على أن يصبح لهم تواجد مثيل فى القاهرة. لكن ناصر كان يواجه، فى أوائل مايو ١٩٦٧، أصعب فترات

حكمه. فعلى مدى خمسة أعوام كان جيشه متورطاً فى الحرب الأهلية باليمن، دون أن يحرز نصراً على رجال القبائل الضعيفى التسليح، حيث كانت قواته هناك، بقيادة المشير «عبد الحكيم عامر»، تناصر ثوار الجناح اليسارى. وكانت هناك عناصر أخرى فى المنطقة (من العربية السعودية بالأساس، ومن القوى الغربية بشكل جزئى) تقدم العون للقوى الملكية فى اليمن. وكان ناصر فى صراع مع الملك حسين، الذى وصفه فى خطاب أول مايو بأنه «عميل وخادم للامبرياليين». وكانت علاقته مع السعودية تقترب من نقطة القطيعة، ولم يكن باستطاعته تصعيد نضاله ضد اسرائيل. فى ظل تلك الأوضاع، جاء الطلب السورى الملح بالمساعدة، عززه ظهور وفد سوفيتى فى القاهرة فى ١٣ مايو، أبلغ المصريين بأن اسرائيل قد قامت، بالفعل، بحشد ١١ لواء على الحدود السورية. واستدعى «ليفى اشكول»، رئيس الوزراء الاسرائيلى، السفير السوفيتى فى اسرائيل كى يصطحبه فى زيارة إلى المنطقة المجاورة للحدود السورية كى يرى بنفسه بأن المعلومات الخاصة بالحشود الاسرائيلية غير صحيحة تماماً. والحقيقة أن المنطقة لم يكن بها أكثر من ١١ سرية، لا ١١ لواء . لكن السفير رفض الدعوة. فقد كانت للروس مصلحة فى تصعيد الموقف لأسباب سياسية خاصة بهم ، حيث أن ذلك سوف يعطى للاتحاد السوفيتى أول موطئ قدم له فى الشرق الأوسط . وقد رأى الروس أن دفع مصر لتهديد اسرائيل من الجنوب من شأنه تقوية أمن سوريا ومن ثم نظام الحكم فى دمشق .

فى اسرائيل، لم يكن هناك إحساس بالتحفز. بل إن «اسحاق رابين»، رئيس أركان جيش الدفاع الاسرائيلى فى ذلك الوقت، تنبأ خلال مقابلة صحفية أجريت معه بأن اسرائيل سوف تشهد فترة طويلة من الهدوء. وقد جرى الاحتفال، فى ١٥ مايو، بالذكرى التاسعة عشر للاستقلال، وسط مشاعر الطمأنينة التى أشاعتها تكهنات رئيس الأركان .

على أنه بعد يومين، ووسط مظاهرة جماهيرية جيدة الإعداد، بدأ ناصر تحريك قوة كبيرة مرت بالقاهرة فى طريقها إلى سيناء. وخلال أيام قليلة، وبحلول ٢٠ مايو، بلغ عدد القوات المحتشدة على حدود اسرائيل الجنوبية الغربية حوالى مائة ألف جندى موزعين على سبع فرق (بالإضافة إلى مايزيد على الألف دبابة). وانتابت العالم العربى حالة من الهستيريا وبلغ ناصر مرة أخرى ذروة شعبيته، حيث تطوع النظام العربى إثر الآخر للتأييد واللحاق بموجة الحماس للحرب الوشيكة الوقوع. وفى ١٧ مايو، طلب ناصر سحب قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة، ووافق «أوثانت» السكرتير العام للمنظمة خلال يومين ودون تردد. وكان طلب ناصر مقصوراً على سحب تلك القوات من عدد من النقاط على الحدود. وجاء رد «أوثانت» بأنه لايمكن أن يقبل أية شروط؛ فإما سحب القوات بالكامل أو بقائها بالكامل. ودون أن يتشاور مع

مجلس الأمن أو الجمعية العامة، اتخذ «أوثانت» القرار الذى عجّل بنهايته: سحب قوات الأمم المتحدة.

ولمرة أخرى، بعد عشر سنوات، تواجه اسرائيل القوات المصرية مباشرة على الحدود المصرية . ففى ٢٢ مايو، أعلن ناصر إغلاق مضايق تيران فى وجه الملاحة الاسرائيلية والسفن المتوجهة إلى اسرائيل والقادمة منها. وكان هذا التصرف إعلانا للحرب فهمته اسرائيل بوضوح. وحاولت القوى العظمى إنشاء قوة بحرية لضمان التأكيدات التى قدمت لاسرائيل فى ١٩٥٧، لكن ذلك لم يتم . وفى ٢٦ مايو، أعلن ناصر أمام اتحاد نقابات العمال أن النية هذه المرة تتجه لتدمير اسرائيل. وقدمت القوات العسكرية من البلاد العربية، كالكويت والجزائر. وسرعان ماأصبحت اسرائيل محاصرة بقوة عربية قوامها حوالى ٢٥٠ ألف مقاتل، و ٢٠٠٠ دبابة و ٧٠٠ طائرة مقاتلة وقاذفة . ووقف العالم ينظر بارتياب إلى مااعتقده البعض محاولة لتدمير اسرائيل. لكن تحركاً دولياً لم يحدث. وبذل الاتحاد السوفيتى والوفود العربية كل جهد ممكن فى الأمم المتحدة لاحتواء أى مجهود يمكن أن يقوم به الغرب للتدخل وإعاقة الخطط العربية؛ فقد خاضوا معركة للتقليل من خطورة الموقف وترك الأمور تأخذ مجراها. وبذلت الحكومة الاسرائيلية، برئاسة «ليفى اشكول»، جهوداً مكثفة لحل الأزمة بالطرق الدبلوماسية، وطار «أبا ايبان» وزير الخارجية، للقاء رؤساء الدول الغربية الكبرى. لكن مهمته باءت بالفشل. وطرأ تحول مفاجئ فى السياسة الفرنسية، فاختفى التعاطف التقليدى من جانب الحكومة الفرنسية مع اسرائيل، وبدأ تقديم العروض الفرنسية لمساعدة العرب. فعلى مدى عشر سنوات، كانت فرنسا متورطة خلالها فى حربها فى الجزائر، وتلقى المتمردون الجزائريون خلالها مساعدات كبيرة من العالم العربى (خاصة مصر)، وتبلورت مصالح فرنسية–اسرائيلية مشتركة. ولكن بعد انتهاء الحرب فى الجزائر وانسحاب فرنسا من هناك، لم ير الرئيس «ديجول» أية مصالح أخرى مع اسرائيل، وأعلن أن مصلحة فرنسا فى الانحياز إلى جانب البلاد العربية، وتطوير العلاقات معها، خاصة فى المجالات التجارية والعسكرية. وهكذا رأت اسرائيل حليفتها، فرنسا، تدير لها ظهرها وقت المحنة، ودون سابق إنذار. وصار من الواضح أن على اسرائيل أن تعتمد على نفسها

ووجدت اسرائيل نفسها وسط الخضم، حيث استدعى الاحتياط، لتحرم البلاد من قوتها البشرية، وسط شكوك قوية فى قدرة حكومة «اشكول» على اتخاذ قرار الحرب وإدارتها. وأوشك الجنرال «رابين» رئيس الأركان على الانهيار. وظل غير قادر على العمل لمدة ٤٨ ساعة، وقيل إن سبب ذلك هو إصابته بتسمم من النيكوتين، مما أدى إلى تولية الميجور جنرال «عزرا

ويزمان» قائد القوات الجوية ورئيس العمليات العامة آنذاك محله *. وتصاعدت الضغوط السياسية فى وجه ما اعتبره الرأى العام، تردد من جانب الحكومة. وفى النهاية رضخ «اشكول» لضغط الرأى العام وشكل حكومة وحدة وطنية، وضم الجنرال «موشى دايان» إلى مجلس وزارئه كوزير للدفاع، و«مناحيم بيجن»، زعيم المعارضة، كوزير بدون حقيبة .

فى أثناء ذلك، احتشدت الجيوش العربية، وانضم إلى قوات ناصر قوات أخرى. وطارت اثنتان من كتائب الصاعقة المصرية إلى الأردن، واتجهت إلى منطقة اللطرون للعمل ضد شريان اسرائيل الرئيسى: طريق القدس – تل أبيب. ووسط تصاعد الهستيريا التى اجتاحت العالم العربى، توجه الملك حسين– الذى لم يمض سوى أسابيع قليلة على اتهام ناصر له بالعمالة للامبريالية – إلى القاهرة لتسوية الخلافات. وفيما بعد شرح الملك للدبلوماسيين الغربيين مابذله من أجل التوصل إلى سياسة لتأمين نفسه بعد حالة الهستيريا التى عمت العالم العربى. وبتوقيعه لمعاهدة للدفاع مع الرئيس ناصر، وافق الملك حسين على تعيين ضابط مصرى، هو الجنرال «عبد المنعم رياض» كقائد للقوات العربية المشتركة العاملة على الجبهة الأردنية. وفى ٣٠ مايو، وبعد ثلاثة أيام من وصول الجنرال «رياض» مع طاقمه لتولى قيادته الجديدة، عاد الملك إلى الأردن، يصحبه هذه المرة عدو لدود هو «أحمد الشقيرى»، الزعيم الغوغائى لمنظمة التحرير الفلسطينية .

أصبحت القوات العربية جاهزة للهجوم، وأوضح الجنرال «دايان» وزير الدفاع الجديد، أن كل يوم يمر دون أن توجه اسرائيل ضربة وقائية ضد مصر سوف يؤدى إلى وقوع خسائر كبيرة فى صفوف القوات الاسرائيلية. وإن كانت هناك شكوك حول ما إذا كانت مصر تنوى مهاجمة اسرائيل، وحول مايمكن أن يحدث فى حالة عدم قيام اسرائيل بإجراءات وقائية. وبالنسبة لاسرائيل، فإن الحرب من الوجهة الاستراتيجية، وسط حشد هجومى عسكرى متحالف يحيط البلاد على جانبين من حدودها على الأقل (الحدود المصرية والسورية)، فى ظل هستيريا جماهيرية، كانت حتمية. إن أحد العوامل الحاسمة التى جعلت «بن جوريون» يدخل حرب ١٩٥٦، لم يكن فقط تصرف الرئيس ناصر وإنما قيام حلف عسكرى كذلك ضد اسرائيل، ضم مصر وسوريا فى البداية، ثم الأردن قبل أسبوع من اتخاذ القرار النهائى بالهجوم. وقد شهد عام ١٩٦٧ تطورا مشابها، حيث انضم الأردن إلى الحلف الهجومى الذى كان قد تكون بالفعل من مصر وسوريا. وهذا الإجراء لم يترك لاسرائيل، من وجهة نظر قيادتها العسكرية، سوى خيارات محدودة للغاية. والأكثر من ذلك أن الحكومة الاسرائيلية

---

* فى ١٩٧٤ ، عندما اقترح تحالف حزب العمل، الذى جاء بعد استقالة «جولدامئير»، اختيار « اسحاق رابين» لرئاسة الوزراء الاسرائيلية ، أصدر الجنرال « ويزمان » بياناً جاء فيه أن سلوك الجنرال « رابين » أثناء أزمة ١٩٦٧ ، لايجعله الشخص المناسب لتولى منصب رئاسة الوزراء .

سبق أن أوضحت أكثر من مرة بأن إغلاق مضايق تيران سوف يفسر من جانبها باعتباره إعلانا للحرب من جانب البلاد العربية .

وبإمكاننا الآن، وعلى ضوء استعادة الأحداث، أن نقيم تقدير ناصر وخطته عندما تحرك باتجاه المواجهة، تقييماً صحيحاً. والحقيقة أنه كان من الممكن النفاذ إلى تفكيره وتكوين فكرة واضحة عن ذلك من خلال التحليل الدقيق لمقالات «محمد حسنين هيكل»، رئيس تحرير «الأهرام» وأقرب أصدقاء ناصر فى ذلك الوقت. وقد صاغ «هيكل» أفكار ناصر فى مقال له بالأهرام بتاريخ ٢٦ يوليو وكان واضحاً من ذلك المقال ومن تحليل البيانات التى صدرت فى مصر بعد ذلك أن ناصر، عندما أمر قوات الطوارئ الدولية بالانسحاب، إنما فعل ذلك من منطلقات ثلاثة :

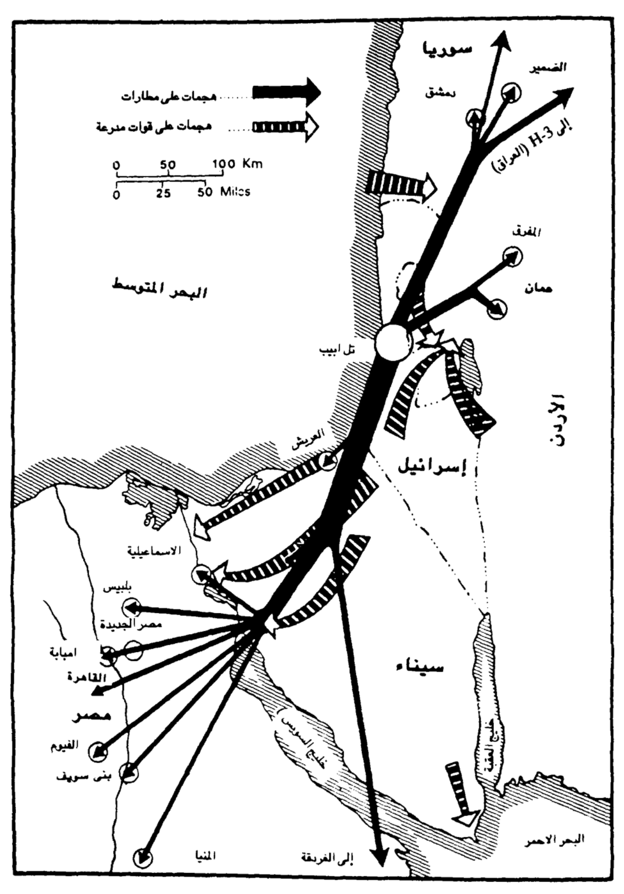
١ – أنه، وبعد انسحاب قوات الأمم المتحدة بناء على طلبه، سوف يقوم بإغلاق مضايق تيران فى وجه الملاحة الاسرائيلية .

٢ – أنه، بعد إتمام ذلك العمل، من المرجح أن يحاول الاسرائيليون فتح المضايق بالقوة وفك الحظر .

٣ – أنه، فى حالة اندلاع الحرب، فإن ميزان القوة وحالة استعداد قواته سوف يضمن لمصر نصراً عسكرياً. وكان ناصر على قناعة بانتصاره، عن طريق التنسيق بين العمل العسكرى والجهود السياسية التى ستعقبه .

الضربة الوقائية

فى صبيحة الخامس من يونيو ١٩٦٧، وجدت القوات المسلحة الاسرائيلية نفسها فى مواجهة جيوش عربية تحتشد حول حدودها. وكان جيش اسرائيل المدنى معبأ تعبئة تامة وجيدة منذ عدة أسابيع للدفاع عن البلاد فى مواجهة الهجوم العربى الذى كانت جميع وسائل الإعلام العربية تؤكد أنه قاب قوسين أو أدنى. وفى السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح الاثنين الخامس من يونيو، ولثلاث ساعات تلت، قامت القوات الجوية الاسرائيلية، بقيادة الميجور جنرال «موردخاى هود»، بهجوم وقائى بهدف تدمير القوة الجوية المصرية ومطاراتها. وكان عليها بعد ذلك أن تتعهد بالقوات الجوية الأردنية والسورية وتدمير طائرات سلاح الجو العراقى، ومعظمها على الأرض. وقد تم اختيار ساعة الهجوم الفعلى فى وقت يفترض أن يكون فيه معظم قادة القوات الجوية المصرية داخل سياراتهم فى الطريق من منازلهم إلى قواعدهم (وهو اختيار ثبت صحته فيما بعد). وخلال الهجوم الرئيسى، تمت الإغارة على ١٩ قاعدة جوية مصرية فى سيناء ودلتا النيل وواديه ومنطقة القاهرة بخمسمائة طلعة، جرى خلالها تدمير ٣٠٩ طائرة من أصل ٣٤٠ طائرة بالخدمة، منها جميع الطائرات الثلاثين القاذفة من طراز «تى يو ١٦» البعيدة المدى، و٢٧ قاذفة متوسطة من طراز «اليوشن إل ٢٨»، و ١٢ قاذفة مقاتلة طراز «سوخوى إس . يو ٧»، وحوالى ٩٠ مقاتلة «ميج ٢١»، و ٢٠، ١٩ ميج»، و٢٥ «ميج ١٧»، و ٣٢ طائرة نقل وهيليكوبتر.



الضربات الجوية الاسرائيلية، ٥ - ١٠ يونيو ١٩٦٧

في ذلك الصباح، ولجهلها بحجم الكارثة التي حلت بالقوات الجوية المصرية، وبسبب تصديقها للتقارير المتفائلة بالنصر الصادرة عن القاهرة، بدأت القوات الجوية الأردنية والسورية والعراقية القيام بعمليات معادية. فقامت القانفات السورية بقصف معامل تكرير البترول في ميناء حيفا ومطار بمجدو؛ وحاول الأردنيون قصف مطار صغير بالقرب من «كفار سركين»، كما هوجمت مدينة «نتانيا» على ساحل البحر المتوسط من جانب الطائرات العراقية. وهنا، كان على القوات الجوية الاسرائيلية أن توجه اهتمامها إلى تلك القوات الجوية. وبحلول مساء ذلك اليوم، كان سلاح الجو الأردني قد أبيد، بعد تدمير ٢٢ طائرة «هنتر»، وست طائرات نقل، وطائرتين هليكوبتر، وفقد السوريون ٣٢ مقاتلة من طراز «ميج ٢١»، و ٢٣ «ميج ١٥» و «ميج ١٧»، وقاذفتان «اليوشن ٢٨»، أي مايعادل ثلثي القوة الإجمالية؛ بينما دُمر عددا من طائرات القوات الجوية العراقية أثناء غارة على قاعدة (H3). وبحلول مساء اليوم الثاني من الحرب، بلغ مجموع ماتم تدميره من الطيران العربي ٤١٦ طائرة، ٣٩٣ منها على الأرض، وفقدت اسرائيل خلال العمليات ٢٦ طائرة. وهناك ٥٨ طائرة فقط من المجموع الإجمالي للخسائر من الطائرات العربية سقطت خلال معارك جوية .

أكدت هذه العملية البارعة سيادة اسرائيل الكاملة في الجو. وأصبحت القوات الجوية الاسرائيلية متفرغة تماماً، خلال الأيام المتبقية من القتال، لتقديم المعاونة القتالية للتشكيلات الأرضية. وعلى عكس الاثنين اللذين سبقاه في قيادة القوات الجوية (الميجور جنرال «دان تلكوفسكى» والميجور جنرال «عزرا ويزمان»)، لم يكن الجنرال «هود» من سليلي سلاح الجو الملكي. فقد خدم بالبلماح ، والتحق بالوحدة الجوية التابعة لها، والتي أصبحت نواة القوات الجوية الاسرائيلية في المستقبل. وسافر، مثل عديدين غيره ممن في وضعه، في بعثات تدريبية خاصة بأحد مطارات تشيكوسلوفاكيا، عشية حرب الاستقلال ، أثناء الفترات الأولى من تلك الحرب، عندما كان التشيك يقدمون السلاح لاسرائيل، ويدعمونها بهمة، ويقدمون التسهيلات لتدريب القوة الجوية الوليدة. والجنرال «هود» من أبناء كيبوتس «دجانيا»، وخريج الدفعة الأولى التي تلقت تدريبها في تشيكوسلوفاكيا، التي أمدت اسرائيل بأول طائرة من طراز «ميسر شميت»، التي لعبت دوراً هاماً أثناء حرب الاستقلال. وفي الخمسينيات، تلقى تدريباً بمدرسة سلاح الجو الملكي ببريطانيا، حيث برز وسط دفعته كطيار فذ. تدرج في رتب القوات الجوية، وحضر عددا من الدورات بالخارج، وقبل بضعة أسابيع من اندلاع حرب الأيام الستة، حل محل الميجور جنرال «ويزمان»، الذي انتقل إلى قيادة الأركان العامة ليصبح الرجل الثاني كرئيس للعمليات. وقد أثبت الجنرال «هود» أنه قائد ديناميكي وقوي للقوات الجوية. وعن طريق قدراته الكلامية، التي تأخذ شكل الحديث المتقطع، نجح (كما كان يفعل سلفه بحق) مراراً في فرض آرائه على القيادة العامة للفوز للقوات الجوية بالأولوية من حيث التمويل وغيرها من الميزات. كان مبتكراً ومقداما، وقد ظهرت هذه القسمات الواضحة لشخصيته في جرأة وعبقرية التخطيط للمرحلة الاستهلالية من حرب الأيام الستة.

١
حملة سيناء الثانية

لم يشهد مسرح الحرب فى سيناء أية تغييرات جوهرية منذ الحرب الأخيرة: المنطقة الشمالية الرملية بالطريق الساحلى الرئيسى والسكك الحديدية؛ المنطقة الوسطى الجبلية والوادى تقطعه الطرق والمدقات؛ ثم المنطقة الجبلية فى الجنوب. ولكن منذ حملة ١٩٥٦، أنفق المصريون أموالاً وجهداً فى إصلاح الطرق والتحصينات التى دمرت أثناء تلك الحملة، وفى تحويل كل شمال غرب سيناء إلى منطقة واحدة كبرى حصينة بحيث تكون قاعدة ثابتة للهجوم على اسرائيل. واستفادة من درس حملة ١٩٥٦، تم إنشاء طرق إضافية. فقد شُق ممر الجدى (الموازى لمر متلا) عبر سلسلة الجبال الموازية لقناة السويس، وذلك لضمان مرونة تحرك القوات. كما أضيفت طرق جديدة تمر من الشمال إلى الجنوب لربط شرايين سيناء. وأقيمت نقاط حصينة ضخمة، بما فيها القواعد الجوية ومعسكرات التدريب والمستودعات، تترابط جميعها لتكون شبكة حصينة متينة، وتمتد من الخلف عند الحد ود مع اسرائيل وحتى قلب سيناء الوسطى. وتحول قطاع غزة إلى قلعة، بخنادق للدبابات والمدفعية تغطى جميع المداخل. فالقوات المصرية عندما دخلت سيناء فى أواخر مايو وأوائل يونيو ١٩٦٧، ذهبت إلى قواعد سبق إعدادها جيداً، وكانت القوة كلها جاهزة لدخول المعركة من تلك المواقع السابقة التجهيز.

كانت القوة المصرية فى سيناء تتألف من خمس فرق مشاة وفرقتى مدرعات، قوامها ١٠٠ الف جندى ومزودة بأكثر من الف دبابة ومئات من قطع المدفعية. وانتشرت قوات المشاة على المحاور الرئيسية، بالقرب من الحدود مع اسرائيل، بينما كانت تشكيلات المدرعات بالمؤخرة، خاصة فى سيناء الوسطى والجناح الجنوبى للجبهة. وأوكل الدفاع عن المحور الشمالى إلى الفرقة ٢٠ الفلسطينية بقيادة اللواء «محمد حسنى»، المنتشرة فى قطاع غزة، والفرقة السابعة/ مشاة بقيادة اللواء «عبد العزيز سليمان»، المسئولة عن منطقة جنوب غربى القطاع، من رفح إلى العريش. وإلى الجنوب، على المحور الأوسط، انتشرت الفرقة الثانية/ مشاة

بقيادة اللواء «سعدى نجيب»، فى منقطة واسعة حصينة تغطى المنطقة الممتدة من «القسيمة» إلى «أبو عجيلة»، وتدخل فيها نقطة أم قطف الحصينة (وهى منطقة برزت أهميتها أثناء حملة سيناء ١٩٥٦). كما انتشرت الفرقة الثالثة/ مشاة بقيادة اللواء «عثمان نصار» غرب الفرق الشمالية والوسطى، فى منطقة جبل لبنى/ بير الحسنة، لتوفير العمق اللازم للانتشار. وإلى الجنوب، اتخذت الفرقة السادسة الميكانيكية بقيادة اللواء «عبد القادر حسن» مواقعها على محور الكونتيلا - تمادا - نخل، وهو المحور الذى استخدمه لواء المظلات الذى كان يقوده الكولونيل «اريك شارون» فى الاختراق الابتدائى لحملة ١٩٥٦.

كانت القبضتان المدرعتان للجيش المصرى فى سيناء تتمركزان فى عمق استراتيجى. فكانت تشكيلات الفرقة الرابعة/ مدرعات بقيادة اللواء «صدقى الغول» تنتشر فى وادى المليز بين بير جفجافة وبير التماد، وهو قاعدة جوية مركزية ومركز مركبات فى عمق سيناء، وكانت الحملة الثانية المدرعة، أو قوة الشاذلى (أخذت هذا الاسم بعد أن تقدم قائدها اللواء «سعد الدين الشاذلى» إلى قرب الحدود الاسرائيلية، فيما بين القسيمة والكونتيلا، تأهباً لدخول اسرائيل وعزل منطقة النقب الجنوبى وميناء ايلات عن بقية اسرائيل) بقوة فرقة كذلك .

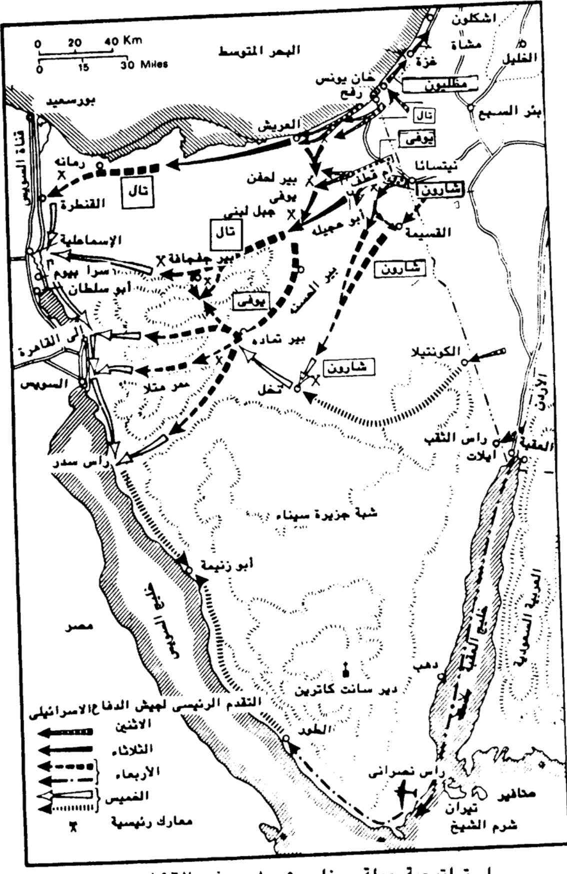
كانت القيادة الجنوبية الاسرائيلية، بقيادة الميجور جنرال «اشعيا هو جافيتش»، تتألف من ثلاث فرق يقودها على التوالى: الميجور جنرال «اسرائيل تال» و «افراهام يوفى» ثم «اريل (اريك) شارون». والجنرال «جافيتش» ضابط فذ وصارم، تخرج من مدرسة الحرب بباريس، وأصيب بالعرج من تأثير جرح ناله أثناء حرب الاستقلال. ويعتبر، بحق، واحداً من أبرز ضابط القيادة الاسرائيلية. كان خلال حملة سيناء ١٩٥٦ رئيساً لعمليات فرقة بالقيادة العامة، وكذلك ضابط الاتصال بين رئيس الأركان آنذاك، الجنرال «دايان» الذى صمم أن يكون فى مقدمة قواته أثناء النضال، وبين القيادة العامة. وبعد انتهاء حرب الأيام الستة كان أمل «جافيتش» كبيراً فى الفوز بمنصب رئيس الأركان بعد انتهاء فترة الجنرال «بارليف»، وكان الجنرال «موشى دايان» يفضله على الجنرال «اليعازر». ولكن على الرغم من أن «دايان» كان فى ذلك الوقت وزيرا للدفاع، إلا أنه لم يستطع أن يفرض رأيه على رئيسة الوزراء «جولدا مئير»، والجنرال «بارليف» رئيس الأركان المتقاعد، اللذين كانا يفضلان الجنرال «اليعازر». ولهذا استقال الجنرال «جافيتش» من القوات المسلحة ليصبح نائب المدير العام لمجموعة «كور» الصناعية، أكبر مجمع صناعى بالبلاد .

أما الجنرال «تال»، ذلك الرجل النحيل الحازم، فقد خدم بالجيش البريطانى ضمن مجموعة

اللواء اليهودى: حاسم ومنضبط. تدرج فى صفوف جيش الدفاع الاسرائيلى حتى وصل فى النهاية إلى قيادة سلاح المدرعات. درس الفلسفة بالجامعة العبرية، وسرعان ما أضحى شبه معجزة تكنيكية فى جيش الدفاع الاسرائيلى. حصل مرتين على جائزة اسرائيل لابتكاراته الهامة فى مجال الأمن، وهو مصمم دبابة القتال الاسرائيلية الأساسية ميركافا (شاريوت)، وهى من أكثر الدبابات تقدما فى العالم . (جاءت فكرتها من الدروس المستفادة من خبرات قوات المدرعات الاسرائيلية خلال حروبها المتعددة، وبخاصة حرب يوم كيبور.) وبعد حرب يوم كيبور، التى كان يعمل خلالها نائباً للجنرال «اليعازر» رئيس الأركان، ثار قدر من الجدل حوله. وقد عمل، فيما بعد، مستشاراً لوزير الدفاع لشئون التطوير والتنظيم، ويعتبر كاتباً دولياً فى شئون معارك الدبابات.

كانت الاستراتيجية العامة للقيادة الجنوبية تقوم على الاختراق الثلاثى على ثلاث مراحل أساسية. مرحلة أولى يجرى خلالها فتح المحورين الشمالى والأوسط عن طريق تدمير المرافق المصرية الحصينة على هذين المحورين، ومن ثم ضرب مؤخرة القوات المصرية فى سيناء؛ أما المرحلة الثانية فتتضمن الاختراق إلى عمق سيناء؛ بينما تركز المرحلة الثالثة على انتزاع الممرين الجبلين اللذين يقودان إلى قناة السويس لمنع الجيش المصرى من عبور القناة مرة أخرى. (لم يكن المصريون يتوقعون هجوماً جبهوياً مباشراً. والحقيقة أنهم كانوا يتوقعون حركة استهلالية شبيهة بتلك التى حدثت فى ١٩٥٦. وقد قرر قائد القوات المصرية فى سيناء، الجنرال «عبد المحسن مرتجى»، نشر حملة المدرعات الخاصة (قوة الشاذلى) بالقرب من الحدود فيما بين القسيمة والكونتيلا ، كى يصبح قادرا على اختراق الحدود ودخول اسرائيل.) وكان على فرقة الجنرال «تال» أن تتولى الهجوم على منطقة رفح- العريش الحصينة بالقطاع الشمالى. وفى الوسط، كان على الجنرال «شارون» أن يستولى على مجمع أم قطف/ أبو عجيلة، الذى تتمفصل حوله القوة الدفاعية المصرية. أما عناصر فرقة الجنرال «يوفى»، فكان عليها أن تكتسح المنطقة الرملية العصية على العبور والواقعة مابين المحورين الشمالى والأوسط، وذلك لعزل الموقعين الدفاعيين المصريين الرئيسيين، وقطع ممر الإمداد الفرعى، ومنع أية محاولة للتنسيق بين الفرقتين المصريتين: السابعة والثانية، فى حالة الهجوم .

كانت منطقة رفح/ العريش موقعاً دفاعياً محاطاً - كما فى ١٩٥٦ - بحقول ألغام مركبة عميقة وخطوط شديدة التحصين، تضم ألوية من المشاة بخنادقها، خلف مجمع من الأسلحة المضادة للدبابات، تعسكر بمواقع صلبة بطول السياج الخارجى. وخلف المواقع هناك



استراتيجية حملة سيناء ٥ - ٨ يونيو ١٩٦٧

-بالإضافة إلى المدفعية - مائة دبابة منتشرة فى تشكيل دفاعى. ونجحت القوات الاسرائيلية التى راحت تتحرك جيئة وذهاباً فى القطاع الجنوبى عند الحدود، فى تضليل المصريين بشأن اتجاه الهجوم الرئيسى المحتمل، إذ أعطت الانطباع بأن الهجوم سيأتى من الجنوب. وبنتيجة ذلك تحقق عنصر المفاجأة عندما جاء الهجوم الافتتاحى على المحور الشمالى عند منطقة رفح.

أنجز «تال» اختراقه للقطاع الشمالى، والذى بدأ فى الثامنة من صباح ٥ يونيو، عن طريق تجنب حقول الألغام المحيطة بالمناطق المحيطة بالمواقع الحصينة واختراق منطقة رفح من جهة الشمال الشرقى قريباً من مدينة خان يونس. وأتم اللواء السابع/ مدرعات هذه المهمة، بقيادة الكولونيل «صموبل جونين»، فى منطقة تقاطع طرق الفرقتين العشرين والسابعة المصريتين، وتم الاستيلاء على رفح بعد معركة شرسة بالدبابات. وعلى التوازى مع هذا، قام لواء مظلى مدعم بكتيبة دبابات، بقيادة الكولونيل «رافائيل ايتان» (وهو نفس اللواء الذى كان يتولى قيادته خلال إحدى معارك حملة سيناء ١٩٥٦)، باقتحام جنوبى واسع من الأجناب حول رفح، التى كان يتولى الدفاع عنها اثنان من الألوية المدعمة بالمدفعية الثقيلة، ثم التوجه شمالاً فوق الكثبان الرملية التى اعتبرها المصريون مستحيلة العبور. واستطاع لواء «ايتان» مفاجأة مواقع المدفعية المصرية، والتسلل إلى تمركزاتها ودكها الواحد تلو الآخر. وفى الوقت نفسه، كان لواء «جونين» السابع المدرع يتقدم غرباً نحو الموقع الدفاعى التالى بالشيخ زويد، الذى كانت مسئولية الدفاع عنه موكلة إلى لواء مشاة من فرقة الجنرال «سليمان» السابعة وكتيبة دبابات تى ٣٤ الروسية الصنع. وبينما تولت كتيبة من دبابات «سنتوريون» سحب النيران المصرية، قامت كتيبة من دبابات «باتون» بتطويق الموقع من الشمال والجنوب، ليسقط بيد قوات «جونين». وقبل العريش فوجئت قوات «جونين» بدفاعات الجرادة القوية التحصين، وأقوى المواقع المصرية المجاورة للعريش. وهاجم اللواء، وقهر هذه الدفاعات، ثم واصل اندفاعه باتجاه العريش. لكن القوات المصرية، التى تشتتت وسط الكثبان الرملية، أعيد تجميعها وقامت بهجوم مضاد على الموقع وأعادت احتلاله. وبينا كان «تال» يتقدم نحو العريش، اشتبكت قوات مؤخرته فى قتال من أجل السيطرة على مواقع الجرادة، التى تبادلتها الأيدى أكثر من مرة. ولذلك فقد قام الجنرال «تال» بحشد المزيد من القوات المتاحة، وتمكن فى النهاية من الاستيلاء على الموقع، بعد قتال متلاحم شرس. وبحلول الصباح الباكر من يوم ٦ يونيو، أصبح الطريق مفتوحاً أمام إمداد القوات الاسرائيلية التى صارت موجودة بالفعل فى العريش. كانت تلك طليعة فرقة «تال» التى واصلت تقدمها على المحور الشمالى، ووصلت العريش ليلة ٥/٦ يونيو.

وفى اليوم التالى، واصل جانب من قوات «تال» تقدمه عبر المحور الشمالى باتجاه «القنطرة» على قناة السويس، بينما تحرك الجزء الآخر منها، بقيادة الكولونيل «جونين»، نحو الجنوب قاصداً مطار العريش الذى سقط بعد معركة بالدبابات. وينفتح الطريق إلى بير لحفن، ليصبح هناك طريقان مفتوحان: طريق شرقى نحو الجنوب من أبى عجيلة، وآخر غربى جنوب جبل لبنى. والجنرال «جونين» ضابط صارم، خشن الحديث، كثيراً مايضع نظارة شمسية أو ملونة، خرج من هذه الحرب كشخصية مرموقة. من مواليد القدس، وابن لأبوين تقليديين، تلقى تعليمه وهو صبى بأحد المعاهد الدينية الصارمة بالقدس. تعمد فى نيران حرب الاستقلال، أثناء حصار القدس، وهو فى السادسة عشر من عمره. فى حملة سيناء، خدم كقائد سرية ضمن لواء «بن آرى» السابع، والذى يقوده الآن. تلقى تدريبه بمدرسة «فورت نوكس» للمدرعات بالولايات المتحدة (وهو ماتصادف حدوثه بالنسبة لمعظم كبار ضباط المدرعات الاسرائيليين) فى صيف ١٩٧٣، قدر له أن يخلف الجنرال «اريك شارون» كرئيس لعمليات القيادة الجنوبية وبعد أشهر قليلة اندلعت حرب يوم كيبور. وعند مثوله أمام لجنة «اجرانات»، وكذلك فى شهادات علنية لاحقة، أكد «جونين» على أنه ورث عن سلفه الجنرال «شارون» قيادة جنوبية يسودها الإهمال. وعلى كل، فقد تحول إلى ضحية تعسة لحرب يوم كيبور، وانتهت خدمته كجندى محترف حازم وشجاع وكفء، نهاية مفاجئة .

أوكل إلى فرقة الجنرال «اريك شارون» مهمة اختراق طريق نتسانيا - الاسماعيلية الأوسط. وكان ذلك أمراً حيوياً، فمن هذا الطريق تتشعب الطرق المؤدية إلى العريش فى الشمال ونخل فى الجنوب. وكان هناك مجمع حصين يسد الطريق، يرتكز على مجموعة من المواقع المترابطة تمتد من أم قطف إلى أبى عجيلة فى الغرب، وأم شيهان فى الجنوب، مع سياج خارجى بالقرب من الحدود الاسرائيلية عند تارات أم بسيس وأم طربة. وكان الفرقة الثانية / مشاة تتخندق بثبات فى هذا الموقع .

أسفر هجوم شارون الاستهلالى بالمدرعات والمشاة، فى ٥ يونيو، على تارات أم بسيس عن تدمير السياج الشرقى المصرى. وأصبحت قوات «شارون» تقف أمام المواقع الدفاعية الرئيسية للمنطقة، فقام بدفع مدفعية الفرقة لدكها بقصف متواصل. وفى تلك الأثناء، تحركت مجموعة استطلاع مدرع على الجناح الشمالى، عبر الكثبان الرملية التى اخطأ المصريون- كما فى أماكن أخرى - فى اعتبارها مناطق مستحيلة العبور. وبعد معركة عنيفة دُمر خلالها موقع لمدفعية مضادة للدبابات. وبعد المحاولة الثالثة، اخترقت المجموعة الموقع الحصين من جنوبه

ووصلت إلى ملتقى الطريق الواصل بين أبو عجيلة والعريش فى الشمال، وإلى جبل لبنى فى الجنوب الغربى. وهناك قامت بأعمال الحفر. وعلى التوازى مع ذلك، أرسل «شارون» إلى الجنوب وحدة استطلاع إضافية مع الدبابات وعربات الجيب ومدافع الهاون لسد الطريق الذى يربط بين أبو عجيلة والقسيمة .

وعند الغسق من يوم ٥ يونيو، صدرت الأوامر ببدء إطلاق نيران المدفعية المركزة. وطارت كتيبة مظليين بالهليكوبتر باتجاه مؤخرة المنطقة لتحييد المدفعية المصرية، حتى يمكن لوحدات الدبابات أن تتقدم من الشرق مباشرة، يرافقها المشاة كى يباشروا تطهير خنادق ومواقع العدو. وعندما وصل المشاة إلى الطريق من جهة الشمال، كانت وحدة الدبابات التى تسد خط إمداد وانسحاب القوات المصرية تقوم بالهجوم من المؤخرة. والتقت قوات المدرعات والمشاة الاسرائيلية فى وسط الموقع ، وبحلول السادسة من صباح اليوم التالى، وبعد أن شهدت المنطقة أكثر المعارك تعقيداً فى تاريخ الحروب العربية الاسرائيلية، وقع المحور الأوسط من أم قطف إلى أبى عجلية بأيدى الاسرائيليين. واستغرقت عمليات التطهير أربعا وعشرين ساعة أخرى، لكن أصبح الطريق مفتوحاً الآن أمام وحدات الميجور جنرال «يوفى» لتتوغل على المحور الأوسط باتجاه جبل النبى .

وبينما كانت الفرقتان المصريتان تخوض قتالاً يائساً ضد قوات «تال» على المحور الشمالى وقوات «شارون» على المحور الأوسط، كانت الفرقة الثالثة الاسرائيلية بقيادة «يوفى» تقوم بما اعتبره المصريون مهمة مستحيلة. إذ قام جزء من الفرقة بالتقدم بالمركبات والمعدات عبر كثبان الرمال الناعمة فيما بين المحور بين الشمال والأوسط، قاطعا مسافة ٣٥ ميلا فى تسع ساعات. وفى مساء اليوم التالى، ٦ يونيو، وصلت القوة إلى منطقة تقاطع طريق بير لحفن الذى يربط طرق جبل لبنى وأبى عجيلة القسيمة بالعريش. كانت مهمة القوة هى منع أى تحرك جانبى من قبل القوات المصرية بين المحورين، ومنع وصول أية إمدادات من التجمعات المصرية فى منطقة جبل لبنى. لكن الحقيقة أنه جرت محاولة للإمداد عند بداية المساء فى شكل دفع قوة مدرعة مصرية تتألف من لواء مدرع ولواء ميكانيكى، على المحور الأوسط الواصل بين الاسماعيلية وجبل لبنى. وقد تقابلت القوة بالصدفة مع لواء القيادة لقوات «يوفى» بقيادة الكولونيل «يزكا شادمى»، الذى كان ينتظر بمواقع منخفضة عند ملتقى الطرق ببير لحفن. وبدأت المعركة، ونشبت مواجهة بالمدرعات حول ملتقى الطرق، انتهت بالهزيمة الكاملة للقوة المصرية وفتح الطريق أمام بقية فرقة «يوفى» للتقدم جنوبياً باتجاه جبل لبنى .

مع اندلاع الحرب، أخذت الدعاية المصرية تنتشر قصصاً مطمئنة حول انتصارات مؤثرة أحرزتها القوات العربية. وقيل إن تل أبيب تتعرض لغارات جوية عنيفة، وأعلن أن محطة تكرير النفط بحيفا قد التهمتها النيران، وغيرها من الانتصارات الزائفة. وقداستقبل الشعب المصرى أنباء اليوم الأول من القتال بفرحة غامرة. وفى اليوم الثانى من الحرب، ومع تسرب الأنباء عبر أجهزة الإعلام، التى واصلت نشر القصص عن الانتصارات المتلاحقة، بدأت تسمع فى الشارع المصرى روايات أكثر اعتدالاً. و(شهد اليوم الثالث من الحرب تغيراً جذرياً، وبدأ الهلع والغم والحنق ينعكس فى ردود أفعال الشعب.) وفقد المشير «عامر» القائد العام للقوات المصرية – التى شاع الكثير من الروايات حول إدمانه للمخدرات- أعصابه، وبدأ يصدر أوامر متضاربة إلى ضباط الميدان بسيناء. وظل الرئيس ناصر طوال اليوم يتلقى التقارير المتفائلة الكاذبة من خط الجبهة. وفى محادثة تليفونية، جرت خلال ساعات الصباح، حث الملك حسين على دفع قواته إلى الجبهة الأردنية ، وأبلغه بأن المصريين فى طريقهم عبر النقب، وأن من المتوقع أن يلتقوا بالقوات الأردنية المنحدرة من تلال الخليل .

وطبقاً لخطابات لاحقة ألقاها ناصر ولشهادات العديد من القادة المصريين أمام المحاكم التى انعقدت بعد الحرب، فإن الرئيس لم يعلم بالكارثة التى حلت بالقوات الجوية المصرية فى الساعات الأولى من الصباح إلا فى الرابعة من بعد الظهر. وفيما بعد، ولكى يبرر الهزيمة الخاطفة التى حلت بالقوات الجوية المصرية على يد القوات الجوية الإسرائيلية، اختلق الرئيس ناصر مع الملك حسين قصة ادعيا فيها أن وحدات سلاح الجو الأمريكى شاركت فى الهجوم على القوات الجوية المصرية . وقد تمكن الاسرائيليون الذين التقطوا محادثة تليفونية بين الزعيمين العربيين وقاموا ببثها بعد ذلك بيومين ، من فضح هذه المحاولة المختلقة لتبرير هزيمة لاتمحى من جبين الزعماء العرب. وقد اعترف الملك حسين بعد ذلك بأن التسجيل الاسرائيلى للمحادثة كان حقيقياً، وبسحب الادعاءات التى كانت سبباً فى تصاعد موجة من المظاهرات المعادية للأمريكيين والبريطانيين فى الشرق الأوسط فى ذلك الحين .

أثارت الأوامر المتناقضة التى أصدرها المشير «عامر» إلى الوحدات فى سيناء حالة من الهلع بين كثير من القادة الكبار، الذين قرروا فى كثير من الأحيان الهروب بجلدهم، والتخلى عن تشكيلاتهم، والفرار عبر قناة السويس طلبا للنجاة. وقد مثل العديد منهم فيما بعد أمام المحاكم العسكرية، ونالوا أحكاماً قياسية. وقد انتحر المشير «عامر» نفسه عندما أصبح واضحاً أمامه أنه ماثل أمام المحكمة لامحالة .

عندما أصبحت علامات الارتباك واضحة فى المستويات العليا من قيادة الجيش المصرى، التقى الجنرال «جافيتش» بقادة فرقة الثلاث «تال» و«يوفى» و «شارون»، وحثهم على تنفيذ خطط مطاردة جديدة وسريعة لعزل القوات المصرية قبل أن تتمكن من الهرب عبر سيناء. على أن اليوم الثانى من القتال أنفق فى تثبيت مكاسب اليوم السابق. ووصلت قوات الجنرال «تال»، التى كانت قد غيرت اتجاهها نحو الجنوب، إلى بير لحفن عبر مطار العريش فى طريقها إلى جبل لبنى. وسقطت بير لحفن، بعد عبور كثبان رملية، كان من الجلى استحالة عبورها، وذلك لتطويق القوات المصرية. ويعتبر جبل لبنى أحد القواعد المصرية الرئيسية فى عمق سيناء، وهى تشتمل على عدد من المعسكرات الحربية الحصينة وقاعدة جوية، وتسيطر على ملتقى طرق مركزى يربط طرق الشمال بالجنوب والشرق بالغرب. وهنا وفى بير الحسن، التى تبعد حوالى ١٢ ميلاً إلى الجنوب، كان الجنرال «مرتجى» قد نشر الفرقة الثالثة / مشاة تدعمها وحدات من الدبابات. وكانت قوات كل من الجنرال «تال» فى الشمال والجنرال «يوفى» فى الشرق تهاجم، فى ذلك الوقت، هذا التمركز الممتد والكثيف التحصين. ومع غروب السادس من يونيو كانت معظم معسكرات جبل لبنى قد سقطت، وواصلت قوات «يوفى» تقدمها جنوباً قاصدة بير الحسن. فى الوقت نفسه، كانت قوات «شارون» تواصل دك منطقة أم قطف. وبعد ذلك انحرفت جنوباً باتجاه «نخل» كى تتصدى لحملة «الشاذلى» الفرقة المدرعة فى المنطقة الواقعة بين القسيمة والكونتيلا .

كان اللواء «سعد الدين الشاذلى» ضابط صاعقة يحظى بتقدير الرئيس ناصر. فى عام ١٩٦٠، كان يتولى قيادة إحدى كتائب الصاعقة المصرية ضمن قوات الأمم المتحدة بالكنغو. لم تبلى الكتيبة بلاء حسناً فى تلك المهمة، لكن العقيد الشاذلى ظل يتمتع بشعبية ومكانة كبيرة، وكان عليه أن يقود تلك القوات فى اليمن بعد ذلك. وفى ١٩٦٧، أوكل إلى قوته الدور الرئيسى فى الهجوم من أجل عزل النقب الاسرائيلى فى الجنوب وحتى شمال إيلات. وخلال الأسابيع التى سبقت اندلاع الحرب، خلال ماسمى بفترة «الترقب»، انهمك فى استعراضات قوة المدرعات أمام الصحافة العالمية، مقللاً من شأن القوات الاسرائيلية. وهو ممن اشتركوا فى التخطيط لحرب يوم كيبور ١٩٧٣، كرئيس لأركان القوات المسلحة المصرية. ومن الواضح أنه فقد أعصابه فى تلك الحرب بعد إقامة رأس الجسر الاسرائيلى بمصر عبر قناة السويس، وتعارك مع الرئيس السادات أثناء أحد الاجتماعات عندما أصرّ الشاذلى، وهو فى حالة من الهستيريا - حسب رواية الرئيس السادات- على سحب القوات المصرية من الضفة الغربية لقناة السويس. ورفض الرئيس السادات العمل بتوصياته، وأعفاه نهائياً من منصبه. وقد أُرسل إلى «المنفى» كسفير لدى بريطانيا العظمى، ثم البرتغال، لكنه استقال بعد ذلك، ودعا

إلى الثورة على الرئيس السادات. وانضم بعد ذلك إلى الرئيس الليبى العقيد «القذافى»، لتجميع القوى المناهضة للرئيس السادات .

بانتهاء قتال اليوم الثانى، كانت الدفاعات المصرية الرئيسية التى تتولاها الفرق الثلاث قد قضى عليها، وأخذت القوات الإسرائيلية تتقدم فى عمق سيناء باتجاه تمركزات المدرعات الرئيسية فى الوسط، والتى كانت تعتبر آخر عقبة كبيرة قبل الوصول إلى قناة السويس .

وعلى المحور الشمالى، تحركت قوات «تال» بسرعة يوم ٧ يونيو قاصدة القنطرة على قناة السويس، ولم تصادف مقاومة تذكر إلا بعد عشرة أميال تقريباً من غربى القناة، حيث كانت الدبابات المصرية والمدافع المضادة للدبابات وعدد من الطائرات تنصب كميناً للطوابير المتقدمة والتى خاضت قتالاً باسلاً . وقامت قوة المدرعات المصرية المتمركزة بالقنطرة شرق بهجوم على الحملة الاسرائيلية المتقدمة، التى كانت تتقدم من العريش على الساحل الشمالى، بقيادة الكولونيل «اسرائيل جرانيت». وكانت قوته قد انضمت إلى جزء من لواء مظلى بقيادة الكولونيل «رافول» ايتان. وبعد تقدير سريع للموقف، قام قائد الحملة بتنفيذ تكتيك الضرب من الحركة، وقام جزء من قوة «جرانيت» المدرعة بإغلاق الطريق الرئيسى بالنيران، واشتبكت مع المدرعات المصرية من مسافة بعيدة، بينما قام المظليون المحمولون على العربات نصف الجنزير والجيب مع مدافعهم عديمة الارتداد بتطويق القوة المصرية التى كانت مشتبكة مع قاعدة النيران الإسرائيلية. ودُمرت القوة المدرعة المصرية، ونجحت حملة «جرانيت» فى دخول القنطرة. ومع حلول صباح اليوم التالى، الثامن من يونيو (رابع أيام الحرب)، كانت القوات قد وصلت إلى ضفاف قناة السويس .

بعيداً عن هذا التقدم الشمالى المستقل، اتجه المجهود الرئيسى للقوة الاسرائيلية المشتركة فى سيناء نحو تدمير حشود المدرعات المصرية الضخمة المتبقية بسيناء الوسطى. ولهذا الغرض أصدر الجنرال «جافيتش» أوامره بتشكيل قوتين فرقيتين مع التنسيق فيما بينهما: تتوجه فرقة «تال» مباشرة نحو الغرب إلى القاعدة الرئيسية بجفجافة، بينما تتقدم فرقة «يوفى» جنوبياً نحو بير الحسن وبير التماد. ومن هناك يشق «يوفى» طريقه غرباً فى مسار مواز لـ «تال»، باتجاه ممر متلا. أما فرقة «شارون»، التى كانت تدك أم قطف فى تلك الأثناء، فقد اندفعت جنوباً إلى «نخل»، كى تجبر قوة الشاذلى ودبابات الفرقة السادسة على التحرك ناحية المصيدة التى أعدها «تال» و «ويوفى» عند ممر متلا، الطريق الوحيد للخروج من سيناء. ودفع تحرك قوات «شارون» قوة «الشاذلى» المدرعة والوحدات المدرعة للفرقة السادسة إلى التحرك السريع، لتفادى اشتباك مدرع يمكن أن يعطل انسحابها.

اكتسحت قوات «تال» قاعدة مشاة بير الحما، ثم اتجهت غرباً لتستولى على موقع بير روض سالم. ونجحت مدرعات «تال» سريعاً فى إغلاق الطرق القريبة من التمركز الرئيسى

للمدرعات ببير جفجافة، والتى تربط بين بير جفجافة فى الغرب والمناطق الجنوبية، وهى (الطرق المحتملة للإمداد والتموين). والتقت قوات «تال» بتجمع مدرعات مصرى يكافح من أجل الخروج من سيناء باتجاه مصر، وحاولت وحدة مدرعة اسرائيلية صغيرة سحب المدرعات المصرية وشن هجوم مضاد عليها، والإيقاع بها فى كمين معد من قبل القوات المحاصرة لها. لكن القوات المصرية لم تستجيب، مما حدا بالاسرائيليين القيام بهجوم جبهوى نجح بعد معركة دامت حوالى الساعتين.

فى ذلك الوقت، كانت قوات «يوفى» قد انتهت من قصف جبل لبنى وبدأت التحرك جنوباً نحو بير الحسن كى تعرقل انسحاب قوة الشاذلى المدرعة. وبفضل التهديد الناجم عن التقدم المزدوج لقوات يوفى وشارون، انسحبت المدرعات المصرية المتبقية ناحية ما اعتبرته مخرجاً آمناً ومباشراً إلى القناة أى ممر متلا. وأثناء الانسحاب قام الطيران الاسرائيلى بقصف الطوابير المنسحبة دون توقف، مثيراً الرعب والدمار بين القوات المصرية فى الكهوف الضيقة للممر .

وتحركت قوات «يوفى» سريعاً إلى ممر متلا لإغلاق مدخله وتدمير حشود المدرعات التى كان من المتوقع أن تحاول التقهقر عبره. وأخذت طرق العودة من سيناء والتى تلتقى عند ممر متلا، تزدحم تدريجياً بالوحدات المصرية المنسحبة من الفرقة الثالثة/ مشاة والسادسة/ مشاة، وحملة «الشاذلى» الفرقية، وبعض عناصر الفرقة الرابعة / مدرعات. وفى تلك الأثناء، بذلك الجنرال «الغول»، قائد الفرقة الرابعة المصرية، قصارى جهده لفرض بعض النظام وسط تلك الفوضى التى انتشرت على طول الطريق .

فى أثناء ذلك، كانت وحدات الكولونيل «شادمى» الأمامية تكافح من أجل الوصول إلى الفتحة الشرقية لمر متلا لعمل كمين للقوات المصرية المحتشدة هناك ومنع مرورها إلى الغرب باتجاه قناة السويس. وكان يوماً مشهوداً للقوات الجوية الاسرائيلية التى قامت طائراتها بحصد وقصف التجمعات الضخمة للمركبات المصرية التى تزاحمت على الممر. واشتعلت النيران فى المئات ، ثم الآلاف ، من العربات بالمنطقة ، لتعوق مجال المناورة أمام الوحدات. وفى طريقها إلى الممر، نفد وقود الحملة الأمامية التى يقودها «شادمى» والمؤلفة من تسع دبابات، ولم تصل إلى هدفها إلا بعد أن قامت خمس دبابات بسحب الدبابات الأربع الأخرى. وشرعوا فى أعمال الحفر وإغلاق المداخل، وواصلوا هذا فى مواجهة قوات مصرية تحاول مستميتة شق طريقها عبر الممر، بالرغم من أن قوات «شادمى» كان معزولة ولاتتلقى أية نجدات. (كان لقوات «شادمى» أن تُلحق آخر المطاف على قوات «يوفى»، ولم تنجح سوى دبابة مصرية واحدة فى الإفلات من تلك المصيدة، ودمرت بقية الدبابات عن آخرها) .

وسط الفوضى التى أعقبت ذلك عند مداخل الممر، حيث كانت القوات الإسرائيلية تصارع

من أجل الوصول إلى وحدة «شادمى» الصغيرة، والقوات المصرية تحاول محاولة يائسة للوصول إلى الممر واختراقه كى تصل إلى قناة السويس، تورطت سرية دبابات اسرائيلية فى القتال مع طابور من الدبابات المصرية. وحلّ الظلام، وصارمن المستحيل تمييز الدبابات الاسرائيلية من المصرية. واكتشف الاسرائيليون أنهم قد دخلوا، خطأً، وسط طابور مصرى، لكن المصريين، الذين كانوا يندفعون فى فرار مذعور نحو الغرب، لم يكونوا على علم بهوية الدبابات التى التحقت بهم فى الظلام. وأمر القائد الاسرائيلى وحدته بأن تواصل السير مع الطابور طالما أن شيئاً غير طبيعى لم يحدث على الطريق، على أن تنحرف بحدة إلى يمين الطريق عند صدور الأمر بذلك، وهنا تضىء الدبابات أنوارها الكاشفة، وتطلق نيرانها على أية دبابة تبقى على الطريق. وهذا ماحدث بالفعل، وأسفرت العملية عن تدمير كتيبة الدبابات المصرية بالكامل. وفى تلك الأثناء، كانت قوات «شادمى» تخوض معركة ضد أسلحة ثقيلة طوال الليل، ولم ينقذها سوى الوقود والذخيرة التى نجحت فى تجميعها من الدبابات المصرية التى هجرها جنودها .

فى الوقت نفسه، واصلت قوات «شارون» اندفاعها جنوباً باتجاه نخل. وتصدت للواء مدرع مصرى كامل هو اللواء ١٢٥ مدرعات من الفرقة السادسة الميكانيكية، الذى ترك معداته كلها بحالتها وفى مكانها. وبدون علم «شارون»، قامت وحدات فرقة الجنرال «يوفى» بأسر قائد اللواء، العميد «أحمد عبد النبى»، وبعض رجاله . وعندما سئل عن سبب تركه للدبابات سليمة، أجاب بأنه تلقى الأمر بالانسحاب. ولم يتلق أمراً بتدمير الدبابات. وخارج نخل، كان على قوات «شارون» أن تواجه لواء مشاة وآخر مدرعات من الفرقة السادسة المصرية. وقد أسفرت المعركة عن تدمير حوالى ٦٠ دبابة، وأكثر من ١٠٠ مدفع، ومايزيد على ٢٠٠ مركبة. وبالقرب من بير التماد أعيد تجميع قوة «شارون» لتنضم إلى فرقة «يوفى» .

وفى طريقها من بير جفجافة إلى الغرب نحو قناة السويس، التقت قوات «تال» بإمدادات مدرعة مصرية قادمة من الاسماعيلية للقيام بهجوم مضاد لإعاقة التقدم الإسرائيلى باتجاه القناة. وقد اشتبكت دبابات المقدمة من طراز AMX الخفيفة التدريع فى قتال شرس ضد مابدا كفرقة مدرعة مصرية من دبابات «تى ٥٥» المتوسط الروسية الصنع. وعندما وصلت الإمدادات الاسرائيلية اشتبكت مع اللواء المصرى من مسافة بعيدة (حوالى ٣٠٠ ياردة)، وذلك لضعف إمكانية المناورة فى منطقة كثبان رملية. وانتشر اللواء المصرى بعمق حوالى أربعة أميال، وبعد معركة دامت حوالى ست ساعات اندحر اللواء. وبعد نشر لواء المقدمة على جبهة واسعة ، تقدم «تال» باتجاه قناة السويس .

شهد اليوم الأخير من القتال استكمال تدمير القوات المدرعة المصرية بسيناء، والتقدم النهائى صوب القناة. وتلاحمت قوتا «تال» على الطريق الممتد على الضفة الغربية لقناة

السويس، ولكن بمجرد إتمام ذلك واقتراب القوات الاسرائيلية من القناة، قامت القوات المصرية بمنطقة الاسماعيلية بمهاجمتها عبر قناة السويس من تمركزات المدفعية الثقيلة ونيران الصواريخ المضادة للدبابات. ووقع تبادل فعال للنيران فوق القناة .

وعلى المحور الأوسط، نجحت قوات «يوفى» فى اختراق ممر الجدى بعد أن واجهت مقاومة من حوالى ثلاثين دبابة مصرية تعاونها بقايا القوات الجوية المصرية. وفى الوقت نفسه، اندفعت قواته متجاوزة التجمعات الهائلة من الدبابات والعربات المدمرة قاصدة القناة. وتحركت إحدى وحداته باتجاه الجنوب الغربى نحو «رأس سدر»، على خليج السويس. وبمعاونة إسقاط مظلى، استولت القوات المشتركة على المنطقة وتقدمت على الفور جنوباً على الساحل نحو شرم الشيخ. وفى هذه المرة لم تكن هناك، من ايلات وحتى شرم الشيخ، أية عقبات مؤثرة كتلك التى صادفت لواء «يوفى» التاسع/ مشاة فى حملة ١٩٥٦ (والتى كانت شبيهة بتحركه عبر الكثبان الرملية باتجاه ملتقى طرق بير لحفن ليلة ٥/٦ يونيو من هذه الحرب). وقد اكتشفت الحملة البحرية، المكونة من ثلاث زوارق طوربيد اسرائيلية والتى أرسلت من إيلات بحراً كجزء من الهجوم الثلاثى (المظلى، والجوى، والبحرى) فى ٧ يونيو، أن شرم الشيخ قد أخليت، وأن الحظر البحرى المصرى فى مضايق تيران، الذى أقلق بحريات القوى الغربية من احتمال اضطرارها للقيام بعمل لفتحها، لا وجود له. وهبط المظليون بمطار شرم الشيخ، وتقدموا شمالاً بطول خليج السويس للالتقاء بقوات «يوفى» المتوجهة من رأس سدر نحو الجنوب .

فى تلك الأثناء، كانت هناك معركة شرسة تدور من أجل الاستيلاء على قطاع غزة. وقد حُسمت المعركة على هذه المنطقة الصغيرة (طولها ٢٥ ميلاً وعرضها ٨ أميال) الكثيفة السكان، خلال اليومين الأولين من القتال، عندما كان «تال» و «ويوفى» يخططان للهجوم على جبل لبنى. فعندما قامت القوات المدرعة باختراقها الاستهلالى قبالة خان يونس، فى الخامس من يونيو، انحرفت جنوباً باتجاه رفح، تحرك لواء مظلى تدعمه المدرعات شمالاً عبر القطاع نحو مدينة غزة، وظل يقاتل خلال القرى ومعسكرات اللاجئين، التى كان معظم سكانها يؤيدون الفرقة الفلسطينية، ويحملون السلاح. وفى أثناء ذلك، وقع الهجوم على غزة من الأراضى الاسرائيلية الواقعة غربى المدينة، والقريبة من مراكز الحدود المصرية إلى الغرب من مرتفعات على المنطار. وفى مساء ذلك اليوم، استولت القوات المتقدمة من خان يونس نحو الشمال على قمة على المنطار، ثم هبطت منها وسط النيران الكثيفة. وفى اليوم التالى، وبعد قتال متلاحم شرس ، سقطت مدينتا خان تونس وغزة، وتحققت السيطرة الكاملة على القطاع مع الساعات الأولى من صباح اليوم الثالث للحرب.

ويقدر الاسرائيليون الخسائر المصرية فى حرب الأيام الستة بحوالى ١٥ ألف قتيل. ويذكر المصريون رقماً أقل إلى حد ما هو عشرة آلاف قتيل. وقد أسر الاسرائيليون مايزيد على

الخمسة آلاف جندى، وأكثر من خمسمائة ضابط. واستولى الاسرائيليون على حوالى ٨٠٠ دبابة مصرية فى سيناء، أصيب ثلثاها على الأقل. إضافة إلى ذلك، فقد تم الاستيلاء على عدة مئات من مدافع الميدان والمدافع ذاتية الحركة الروسية الصنع، إلى جانب أكثر من عشرة آلاف مركبة متعددة الأنواع. وبعد ذلك بشهور، صرح الرئيس ناصر بأن حوالى ٨٠٪ من العتاد العسكرى للجيش المصرى قد ضاع فى معارك سيناء. وقد بلغت الخسائر الاسرائيلية على هذه الجبهة حوالى ٣٠٠ قتيل وما يزيد على الألف جريح .

كانت سفينة التجسس الالكترونى الأمريكية (ليبرتى) تقف خارج مسرح العمليات قبالة ساحل سيناء، ترسل ببخارها بطيئاً على مسافة حوالى ١٤ ميلاً شمالى غرب العريش. ولم يخطر الأمريكيون أياً من الأطراف بغرض السفينة أو مهمتها، أو حتى بوجود سفينة تعمل بالمنطقة. وجدير بالذكر أنه فى الوقت الذى كانت قوات الجنرال «تال» تتقدم فيه على المحور الشمالى باتجاه العريش، أعادت القوات المصرية تجميع نفسها واستعادت بعض المواقع التى كانت قد وقعت بأيدى القوات الاسرائيلية. وقد أسفر هذا العمل عن حالة من الفوضى. وفى ٨ يونيو، أطلقت النيران على القوات الاسرائيلية فى عموم منطقة العريش. وأشارت تقارير القوات الإسرائيلية إلى تعرضها للقصف، وأن البحر هو أحد المصادر المحتملة لتلك النيران. وقد تم رفع حالة الاستعداد بين القوات الجوية التى رصدت سفينة بحرية تبحر فى مواجهة ساحل سيناء عند المنطقة التى تعرضت للقصف المدفعى. وكان شبح السفينة شبيهاً - خاصة أمام طيار يطير بسرعة كبيرة فى طائرة مقاتلة - بالسفن الموجودة بخدمة البحرية المصرية. وبدون تردد، قام الطيران الإسرائيلى بالهجوم على هذه السفينة البحرية الغريبة، التى لم تسجل كهدف صديق، فقتلت ٣٤ من بحارتها وأصابت ١٦٤ آخرين، واستطاعت السفينة أن تشق طريقها إلى مالطة. وبعد تحقيق عسكرى، عبرت اسرائيل عن أسفها، وعرضت دفع تعويضات إلى حكومة الولايات المتحدة وأسر القتلى والمصابين. ولم تصمد المحاولات التى بذلت لتصوير الأمر باعتباره عملا مدبرا من قبل القوات الاسرائيلية خاصة فى ظل العلاقات الوثيقة التى كانت قائمة آنذاك بين الحكومتين الاسرائيلية والأمريكية، والاتفاق غير المكتوب الذى عبر عنه الرئيس «لندون جونسون» بطريقة غير مباشرة للحكومة الاسرائيلية، بأنه سوف يتفهم موقف إسرائيل إذا لم تجد بداً من شن الحرب .

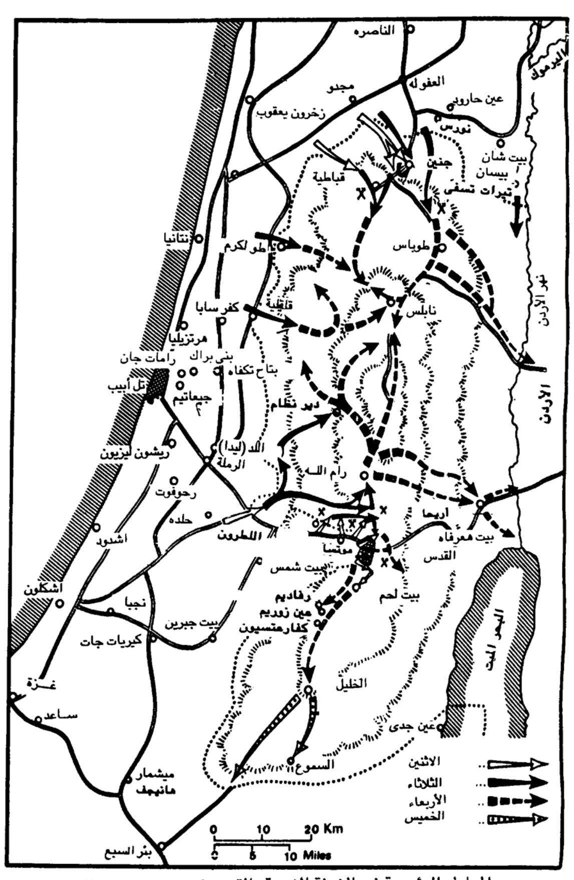
وإذا كان لابد من اللوم، فينبغى أن يوجه إلى السلطات الأمريكية بالأساس، لأنها هى التى اختارت ارسال سفينة تجسس أمام سواحل أمة صديقة فى زمن حرب، دون أى تنبيه مسبق، أو إعلام بموقع سفينتهم.

٢

الحرب مع الأردن

على عكس الحال فى ١٩٥٦، فإن حملة سيناء ١٩٦٧ لم تكن سوى مسرح واحد للصراع ضمن حرب تدور على ثلاث جبهات. وكانت الحرب مع الأردن تدور على أرض مختلفة للغاية فى طبيعتها عن سيناء، وفى مدن وبلاد ذات مكانة دينية وتاريخية عند اليهود والمسيحيين والمسلمين. فتركيب الأرض فى منطقة الضفة الغربية يتميز بوجود مجموعة قمم جبلية مركزية تمتد من الشمال إلى الجنوب، وإلى الشرق منها توجد وهاد منحدرة نحو نهر الأردن، وإلى البحر الميت فى أقصى الجنوب. وهنا وهناك، توجد طرق قليلة تمر من الضفة الغربية إلى النهر ثم ساحل البحر المتوسط. والطبيعة الجبلية للأرض تجعل الأمر صعباً على جيش يواجه مقاومة مستبسلة. وإلى الغرب من هذه القمم هناك سهل خصب مأهول بالسكان، يسيطر الأردن على اجزاء منه تمتد إلى أكثر من ثمانية أو عشرة أميال من الساحل، عند النقطة التى يبدأ منها السهل الساحلى تسلقه الهادئ للقمة الوسطى. والمرور عبر هذه المنطقة الغربية سهل نسبياً، بينما تتمركز مواقع المدفعية فوق التلال والقمم المواجهة لمناطق الاستجمام الساحلية ويصل مداها إلى المراكز السكانية، مثل نتانيا وهرتزليا وتل أبيب. وإلى أقصى الجنوب، هناك نتوء من الأرض الاسرائيلية داخل المنطقة التى يسيطر عليها الأردن، أى ممر القدس. وهذا الممر محاط بقمم عالية، قام الأردنيون بتحصينها.

كانت تحصينات الجيش الأردنى ترتكز على قطاعين دفاعيين رئيسيين، القطاع الشمالى ويشمل اقليم السامرا، ويرتكز على المدن الرئيسية: نابلس وطولكرم وجنين. والقطاع الجنوبى ويشمل اقليم يهودا ويمتد بطول سلسلة تلال يهودا، من رام الله جنوباً، ويمر عبر القدس والخليل. وكانت العناصر الأمامية للقوات فى كلا الاقليمين تنتشر بطول الشريط الساحلى المؤدى إلى خط الخصر الضيق لاسرائيل. وكان الجيش الأردنى يضم ثمانية ألوية مشاة ولواءين مدرعين تحت قيادة المشير حابس المجالى. وقد قام أمير اللواء «محمد أحمد سالم»،



المعارك الرئيسية في الضفة الغربية والقدس ٥-٦ – ٧ يونيو ١٩٦٧

القائد العربى للجبهة الوسطى، بنشر قواته فى الميدان على الوجه التالى: ست ألوية مشاة للدفاع عن الضفة الغربية: ثلاث منها تسيطر على السامرا، ويتمركز اثنان داخل وحول القدس، بينما ينتشر اللواء السادس فى مرتفعات الخليل جنوبى بيت لحم. وقد أضيف لواء مشاة آخر بالقرب من اريحا، إلى الغرب تماماً من نهر الأردن، بينما تمركزت القوة الضاربة للجيش الأردنى (اللواءان ٤٠ ، ٦٠ مدرعات) بمنطقة وادى الأردن، بحيث يكون اللواء ٤٠ بقيادة العميد «عماد الغازى»، مسئولاً عن الجزء الشمالى من الضفة الغربية، وأن يتوجه اللواء ٦٠ بقيادة العميد «الشريف زيد بن شاكر» نحو القدس والمنطقة الواقعة جنوبها. (كان العميد «زيد بن شاكر» واحداً من الضباط البارزين فى الجيش الأردنى، ويقدره ابن عمه، الملك حسين، تقديراً عالياً. وقد أصبح فيما تلا ذلك من أعوام القائد العام للقوات المسلحة الأردنية) وقد نُصبت بطاريات المدفعية ١٥٥ مم (لونج توم) لتغطى تل أبيب فى الجنوب، ومطار «رامات دافيد» فى الشمال. وعندما حرك ناصر قواته إلى سيناء، ووقع حلفاً مع الملك حسين، دفع الأردنيون بمدفعية الميدان إلى القمم التى تغطى المدن الساحلية والقدس، وأصبحت مدرعاتهم بوادى الأردن فى وضع الاستعداد، ونُشر لواء منها بالقرب من اريحا والآخر عند جسر داميا، وكتيبة إلى الشمال، فى منطقة نابلس. وبالإضافة إلى ٢٧٠ دبابة أردنية و١٥٠ قطعة مدفعية، تمركز لواء مشاة عراقى بالأردن، وكان مقرراً أن تصل قوته إلى ثلاثة ألوية مشاة ولواء مدرع خلال أسبوع .

فى مواجهة تلك القوات، كانت هناك عناصر قيادتين من قيادات جيش الدفاع الاسرائيلى. القيادة الوسطى، بقيادة الميجور جنرال «عوزى ناركيس»، والمؤلفة من لواء القدس (اللواء ١٦) بقيادة الكولونيل «اليعازر عميتاى» ويتمركز بالمدينة، ولواء مشاة احتياط تحت قيادة الكولونيل «زيف شاحام» بمنطقة نتانيا. وتحت قيادة الكولونيل * «دافيد اليعازر» الشمالية، كانت هناك سبعة ألوية، مسئولة عن الحدود مع ثلاث دول، هى: سوريا والأردن ولبنان. وقد شمل هذا الانتشار تخصيص لواء لتغطية الحدود الأردنية، ولواءين بالجليل الشرقى فى مواجهة سوريا وآخر فى مواجهة السامرا، عند منطقة الناصرة. واستبقى لواء مدرع كاحتياط للجبهة السورية. وكذلك فرقة مدرعة بقيادة الميجور جنرال «بليد»، تضم لواء مدرعا، كاحتياط بالجليل الأوسط. وكان احتياط القيادة العامة يتألف من لواء «هارئيل» الميكانيكى، بقيادة الكولونيل

---

* يقصد المؤلف ، فى الغالب، « الميجور جنرال دافيد اليعازر » ، حيث أن الكولونيل غالباً ما يكون قائد لواء وليس قائد منطقة . (المترجم)

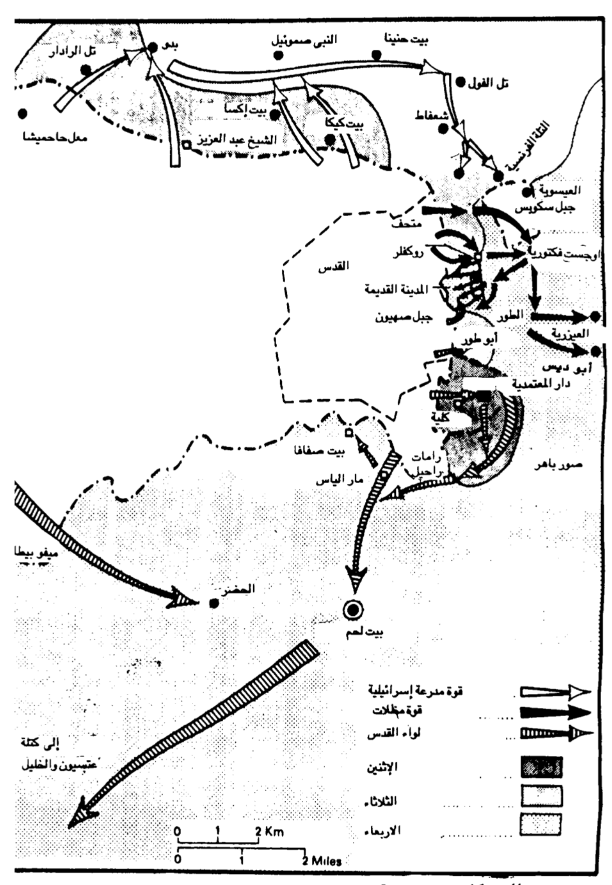
«أورى بن ارى»، الذى قاد اللواء السابع/ مدرعات بنجاح أثناء حملة سيناء ١٩٥٦، ثم جزء من اللواء ٥٥/ مظلات، بقيادة الكولونيل «موردخاى (موتا) جور»، الذى اتخذ وضع الاستعداد لإسقاط جوى على العريش أو شرم الشيخ.

لم تكن الحرب من جانب الأردن ضد إسرائيل بالشىء المتوقع. ففى صبيحة الخامس من يونيو، أرسل رئيس الوزراء الاسرائيلى، «اشكول»، رسالة إلى الملك حسين، عبر الجنرال «أود بول» كبير مراقبى الأمم المتحدة، يؤكد فيها أن اسرائيل لن تبدأ من جانبها الاشتباكات طالما ظل الأردن بعيداً عن القتال. لكن تصريحات الملك، فى ظل التحالف الجديد مع مصر، وجو الهستيريا فى العالم العربى الذى جعل من تدمير إسرائيل حقيقة فى العقل العربى، أدت إلى تورط الملك. فهو، وإن ارتبط بحلف مع الرئيس ناصر، فقد كانت تساوره الشكوك. فالملك لم يكن راغباً فى الدخول فى التحالف، وفى الوقت نفسه، يخشى العزلة، وهو موقف يمكن أن يصنفه كخائن للأمة العربية. وفيما بعد، وافق الملك على تعيين الجنرال المصرى «رياض» قائداً عاماً لقواته. وكان يتصرف بقدر من التردد لأنه لم يكن على يقين تام من حكمة الخطوة التى أقدم عليها؛ وقد عبر هذا التردد عن نفسه فى أكثر من مناسبة خلال الحرب. لكن مثل تلك الشكوك التى كانت تساور الملك تراجعت بعد التأكيدات تلقاها من الرئيس ناصر، عبر مكالمة هاتفية بينهما فى ذلك الصباح (٥ يونيو)، حول إسقاط الطائرات الاسرائيلية (فى وقت كانت فيه القوات الجوية المصرية – دون علم ناصر – قد صارت حطاماً مشتعلاً)، وتقدم المدرعات المصرية، عبر النقب، لتنضم إلى القوات الأردنية فى تلال الخليل. فأمر الملك حسين قواته بالهجوم .

تطويق القدس

فى الحادية عشر من صباح ٥ يونيو ١٩٦٧، فتح الجيش الأردنى سداً من نيران المدفعية والأسلحة الصغيرة، من مواقعه الممتدة بطول خط الهدنة، ضد أهداف داخل اسرائيل، منها تل أبيب والقدس، وعبرت قواته الحدود عند جنوب القدس لتحتل مقر قيادة مراقب الأمم المتحدة بدار المعتمدية*، والتى تعتبر منطقة منزوعة السلاح.

* كانت مقر الإقامة الرسمى للمندوب السامى البريطانى على فلسطين . وتوجد فوق ما يسمى بتل الشيطان جنوبى المدينة القديمة . وقد أعلنت المنطقة ، خلال حرب الاستقلال ، كمنطقة منزوعة السلاح . واعترف بوضعها هذا ، منذ ذلك الحين ، من جانب كل من العرب واسرائيل . وقد أخذتها الأمم المتحدة أثناء حرب الاستقلال وأقامت فيها مقرا المنظمة الهدنة التابعة لها . وهى مقر للأمم المتحدة حتى اليوم.



التحركات الإسرائيلية الرئيسية فى منطقة القدس، ٥ – ٧ يونيو ١٩٦٧

كان المسئول عن القيادة الوسطى الاسرائيلية هو الميجور جنرال «عوزى ناركيس». وقد سبق له الخدمة فى صفوف البلماح، وكان القائد الفعلى للكتيبة التى سبق أن اقتحمت المدينة القديمة عند بوابة صهيون فى حرب الاستقلال ١٩٤٨. وكان الميجور «دافيد (دادو)، اليعازر» يقود السرية التى قامت بالاقتحام الفعلى. والجنرال «ناركيس» من خريجى مدرسة الحرب بفرنسا، وهو قصير القامة، نحيل البنية، يتمتع بعقل تحليلى حاد، وفهم عسكرى صارم. سبق له العمل كنائب لمدير المخابرات العسكرية وكملحق عسكرى بفرنسا .

أصدر «ناركيس» أوامره إلى المدفعية الاسرائيلية بالرد على القصف الأردنى، وتحركت قوة من لواء القدس السادس عشر لطرد جنود لواء حطين من «دار المعتمدية». واقتحمت وحدات اللواء ١٦ المنطقة، وأخلت رجال الأمم المتحدة الذين كانوا قد انعزلوا داخل المدينة، وتقدم الهجوم نحو قرية «صورباهر» الواقعة على طريق الخليل - القدس الرئيسى، والذى يربط، فى الواقع، جبال الخليل ومنطقة الجليل بباقى المملكة الأردنية. ولم يعد للأردنيين بجبال الخليل من سبيل للاتصال بمنطقة القدس وباقى أجزاء الضفة الغربية سوى طرق ثانوية وممرات جبلية. وبهذا، عزل تحرك لواء القدس منطقة جبال الخليل، التى كانت نقطة انطلاق القوات الأردنية نحو بئر السبع والنقب، الأمر الذى يحول دون التحام تلك القوات بالقوات المصرية التى كان من المفترض أنها تتقدم آنذاك عبر النقب.

ولما أصبحت القدس، مرة أخرى، هدفاً لمدفعية الفيلق العربى، ورامات دافيد ووسط مدينة تل أبيب عرضة للمدفعية الأردنية بعيدة المدى، فقد صدرت أوامر قيادة الأركان الاسرائيلية إلى الجنرال «ناركيس» بالانتقال إلى الهجوم. ولما كان جانب من الخطة يقضى بعزل القدس عن تجمع الجيش الأردنى فى الشمال، فقد صدرت الأوامر إلى اللواء العاشر (هارئيل) الميكانيكى، بقيادة الكولونيل «بن ارى» بالتحرك إلى ممر القدس لاختراق الحدود الأردنية عند منطقة «معل حاهاميشا» والاستيلاء على قمة الجبل والطريق الذى يربط القدس برام الله. وهذه المنطقة هى مفتاح التحكم فى مرتفعات يهودا والقدس، لأنها تشرف على المنحدر المؤدى إلى أريحا، كما تتحكم فى كافة مداخل المدينة. (كانت هذه هى المنطقة التى اعتبرها «جوشوا» هدفه الأول بعد عبور نهر الأردن، أثناء حملته لاحتلال مرتفعات يهودا، وكانت أيضاً المنطقة التى احتلتها الفرقة ٩٠ البريطانية فى الحرب العالمية الأولى، قبل أن يسيطر «اللبنى» على القدس.) وتقدم لواء «هارئيل» بقيادة «بن ارى»، الذى أحرز شهرته عند قيادته للواء السابع مدرعات فى حملة سيناء ١٩٥٦، باتجاه الإقليم الأوسط، مخترقاً ثلاث قمم جبلية تشكل حدود ممر القدس عند «معل حاهاميشا» - تل الرادار والشيخ عبد العزيز وبيت اكسا. والحقيقة أن الكولونيل «بن ارى» كان يحارب فى منطقة معلومة له تماماً. ففى ١٩٤٨، كان قائد سرية بلواء هارئيل/ بلماح الذى حارب فى المنطقة الواقعة شمال ممر القدس. وكان تل الرادار

الاستراتيجي قد وقع آنذاك بيد الفيلق العربي بعد قتال شرس. وعبثاً، قام «بن اری» مع سريته بخمس هجمات مضادة. ولتسعة عشر عاماً تلت ذلك ظل هذا الأثر الطاغي، الذى يتحكم بالفعل فى طريق القدس إلى الساحل، بأيدى الفيلق العربي .

كانت المنطقة التى اختارها «بن اری» ذات طبيعة جبلية وعرة، إضافة إلى قوة تحصينات الفيلق العربى التى تغطى طرق الاقتراب. وتحركت قوات «بن اری» على طريق القدس الرئيسى من جهة الساحل، ودون توقف، انحرفت شمالاً على المحاور الثلاثة المتوازية، واكتسحت مواقع الفيلق العربى، وتولت الدبابات تحييد الخنادق العربية بينما تمكن مهندسو المدرعات والمشاة من التغلب عليها. بدأت هذه العملية عند ظهر الخامس من يونيو، وعند الليل، بعد ساعات من القتال العنيف، نجح الاختراق، وفى صباح السادس من يونيو استقر لواء «بن اری» فوق القمة الاستراتيجية (المواجهة للجبل عند تل الفول المشرف على القدس، والذى كان يجرى فوقه إنشاء قصر للملك حسين). وأصبح اللواء يحكم سيطرته على منطقة بطرق مواصلات إلى اريحا فى الشرق ، وإلى اللطرون فى الغرب، وإلى رام الله فى الشمال والقدس فى الجنوب. وعلى التوازى مع هذه العملية، وفى التوقيت نفسه، نجحت وحدات لواء «يوتفات»/ مشاة، من منطقة اللد، فى احتلال مجمع اللطرون وإجبار الكوماندوز المصريين، الذين كانوا قد بدأوا العمل ضد أهداف اسرائيلية، على مغادرة المنطقة. وهكذا وللمرة الأولى بعد معارك دموية فاشلة شهدتها حرب الاستقلال، أصبحت اللطرون بأيدى الاسرائيليين، ووقع طريق اللطرون- رام الله تحت السيطرة الاسرائيلية .

وفى ذلك الصباح، قامت قوات الملك حسين الجوية، فى الساعة الحادية عشرة، بالهجوم على أهداف فى داخل اسرائيل، وكان هدفها الرئيسى مطارا صغيرا فى «كفار سركين» بالقرب من «بتاح تكفا». ولم يكن الملك بهجومه هذا ضحية لغبائه الشخصى وحده، وإنما لنفاق وزيف تقارير حلفائه العرب كذلك . فقد تلقى معلومات زائفة، أرسلها المشير عامر من مصر إلى الجنرال المصرى « رياض » فى الصباح الباكر، يبلغه بأن ٧٠٪ من القوة الجوية الاسرائيلية قد دمرت؛ كما أبلغه ناصر بفشل الهجوم الاسرائيلى وبتقدم المدرعات المصرية عبر النقب باتجاه تلال الخليل *. أما السوريون، الذين تركوه يسقط، كما شرح بوضوح فى

---

* وضعت إسرائيل خطة لإخراج « العمل الإسرائيلى ضد الضفة الغربية والقدس ». كان المؤلف أحد المشاركين فيها . وكان من مهام تلك الخطة اعتراض الرسائل المتبادلة بين القاهرة وعمان ، وتحويل معانيها ثم إعادة إرسالها مرة أخرى . والبرقية التى يتحدث عنها المؤلف بالذات هى واحدة من البرقيات التى تعرضت لعملية « الطبخ» هذه راجع : محمد حسنين هيكل ، الانفجار ١٩٦٧ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ١٩٩٠ ، ص ٧٤٠ . (المترجم)

مذكراته عن الحرب، فقد أعلنوا أن قواتهم الجوية ليست جاهزة للعمل بعد. وأبلغه العراقيون بأنهم قد تحركوا بالفعل وقصفوا تل أبيب، محدثين أضراراً بالغة هناك – وهو إدعاء زائف تماماً. وعليه، قام الملك من جانبه بإرسال طائراته فى هجوم فاشل على اسرائيل. وهنا، وبعد أن قضت على معظم سلاح الطيران المصرى، قامت القوات الجوية الاسرائيلية بتوجيه اهتمامها نحو القوات الجوية الأردنية، مهاجمة قواعدها فى المفرق وعمان. وقد تم تدمير القوات الجوية الأردنية، وعددها ٢٢ طائرة من طراز «هوكرهنتر»، ليظل الأردن دون غطاء جوى بقية أيام الحرب.

وسمح هذا للقوات الجوية الاسرائيلية أن تركز جهودها فى المعاونة الأرضية اللصيقة. وحيث أن الأوامر صدرت بعدم القيام بأية طلعات جوية فى نطاق القدس، فقد تركزت الضربات الجوية الاسرائيلية على الاحتياطيات الأردنية فى وادى الأردن، وإعاقة القوات المنقولة على طريق اريحا – القدس لإمداد القوات الأردنية التى تقاتل بالقدس. وقد أجبرت الهجمات الجوية الاسرائيلية القيادة الأردنية للضفة الغربية على الانسحاب إلى شرق نهر الأردن. وازدحم الطريق من اريحا إلى القدس بدبابات اللواء ٦٠ الأردنى المبعثرة هنا وهناك، والذى كان يحاول عبثاً الوصول إلى منطقة القدس.

وأصبح لواء الكولونيل (مُوتا) (اللواء ٥٥ / مظلات) الآن تحت القيادة الكاملة للجنرال «ناركيس». وتركزت مهمته فى اختراق المنطقة المعمورة شمالى المدينة القديمة عند الشيخ جراح، ومدرسة البوليس وتل الذخيرة، وهى منطقة تتحكم فى الطريق الصاعد إلى تخوم جبل «سكوبس»، حيث تعيش قوة صغيرة من ١٢٠ من رجال البوليس الاسرائيلى معزولة منذ سنوات (لا تصلها المؤن إلا تحت إشراف الأمم المتحدة). وكان من شأن هذه الحركة أن تكمل كذلك عملية «بن ارى» وتضاعف من أثر قطع الطريق بين رام الله وشمال القدس، المؤدى إلى المدينة القديمة. كان الفيلق على دراية تامة بقوة المعارك التى دارت فى ١٩٤٨ من أجل السيطرة على هذه المنطقة، وبالأهمية الاستراتيجية للأحياء الواقعة شمال القدس. ولذا، فقد قام الفيلق على مدى التسعة عشر عاما ببناء أكثر أعمال الدفاع فعالية لضمان عدم انقطاع الاتصال بين رام الله والقدس القديمة فى حال وقوع هجوم إسرائيلى. وقد شيدت مواقع تلك المنطقة على هيئة مجموعة متداخلة (خلية النحل) من الدفاعات المبنية، التى تصل لعدة طوابق فى بعض الحالات، وكلها متصلة بخنادق عميقة وتحميها حقول الألغام والأسلاك الشائكة.

بعد انتهاء معارك ١٩٤٨، قُسمت القدس بين اثنين من العناصر المتحاربة: أسلاك شائكة

غزيرة، تحصينات، خنادق واسوار ذات فرجات تخترق المدينة، وكل جانب يترقب الجانب الآخر فى قلق. وكانت معظم السيادة على الجانب الغربى من المدينة لليهود، مع مايزيد على المائة الف من السكان، وكذلك اللسان الناتىء الذى يربط الساحل بممر القدس. وكانت المدينة نفسها محاطة من ثلاثة جوانب بالمواقع العسكرية الأردنية التى تتحكم فى المداخل من مرتفع على كل جانب. وكان الفيلق العربى الأردنى يهدد الممر عند اللطرون بصفة خاصة، والتى كان يسيطر عليها منذ معارك ١٩٤٨، وكذلك من منطقة المرتفع الواقع شمالى الممر والذى يغطى الطريق الذى يربط القدس بالسهل الساحلى. وكان الفيلق العربى يسيطر على القطاع العربى من القدس ويتمركز بصفة خاصة فى المدينة التاريخية القديمة، بمزاراتها وأماكنها المقدسة التى تجلّها الديانات الثلاث الكبرى، كذلك كان الجزء الشرقى من القدس يضم أغلبية عربية. وكان بالقدس اثنان من الجيوب أضافت المزيد من التعقيدات العسكرية أمام القادة هناك: أولها، جبل سكوبس، وهو جيب إسرائيلى عند موقع الجامعة العبرية ومستشفى هداسا؛ وكان محاصراً بالكامل فى ١٩٤٨، ولكنه صمد بنجاح أمام جميع الهجمات العربية. أما الجيب الثانى فكان منطقة دار المعتمدية، الذى كان مقرا للمندوب السامى البريطانى فى فلسطين وظل بعد الانسحاب البريطانى كمقر لهيئة الاشراف على الهدنة، التابعة للأمم المتحدة، بعد انتهاء الحرب وتوقيع الهدنة. وكان يقع جنوبى المدينة القديمة على بروز يعرف باسم تل الشيطان، يبرز باتجاه الشرق، ويتحكم فى الطريق الواصل بين القدس وبيت لحم، والذى كان الأردنيون قد بنوه .

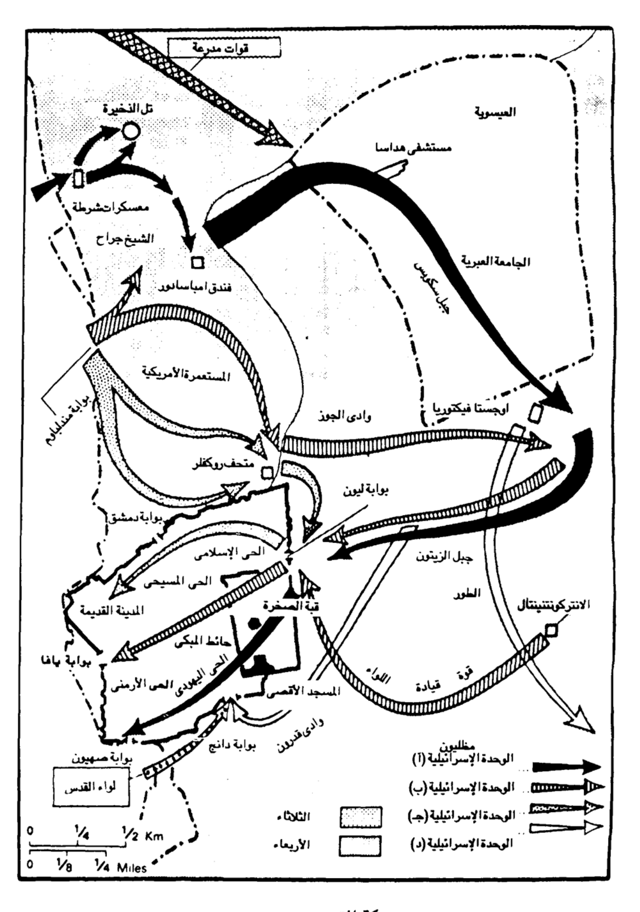
كان يتولى الدفاع عن القدس تمركز كثيف من القوات الأردنية. وكانت مسئولية الدفاع عن المدينة القديمة موكلة إلى اللواء ٢٧/ مشاة من الفيلق العربى، بقيادة العميد «عطا على». وكان لواء «الهاشم»، يتولى الدفاع عن منطقة رام الله شمالى القدس، وينشر بعض قواته بالضواحى الشمالية للمدينة. كما كانت هناك كتيبة من اللواء ٦٠/ مدرعات تتمركز خارج القدس، فى وادى «قدرون». وخصّص لواء «حطين»، الذى كان مسئولاً عن منطقة الخليل، بجنوب القدس، كتيبة للدفاع عن المنطقة الواقعة فيما بين القدس وبيت لحم .

عندما تلقى الجنرال «ناركيس» تصريحاً ببدء القتال، بعد أن فتحت القوات الأردنية النار واستولت على دار المعتمدية، تأهب لتنفيذ خطط طوارىء جيش الدفاع الاسرائيلى. وكان ذلك يستدعى تحرك لواء القدس، بقيادة الكولونيل «عميتاى»، للاستيلاء على منطقة جنوب المدينة، كى يقطع الاتصال بين بيت لحم والقدس ويهدد المواصلات الأردنية بين القدس واريحا. وكان

على لواء بن ارى (هارئيل) الميكانيكى أن يستولى على المرتفع والقمة الواقعة بين القدس ورام الله، وبهذا يعزل القدس عزلاً تاماً عن كل من اريحا ورام الله. وكان المجهود الرئيسى على الجزء الشرقى من المدينة والمدينة القديمة منوط بلواء الكولونيل «جور» المظلى. وقد تأكدت واحدة من أبرز مزايا جيش الدفاع الاسرائيلى فى المرونة التى ابداها لواء «جور»، الذى كان على وشك التحرك للإسقاط فوق العريش أو شرم الشيخ، فتغيرت مهمته عند ساعة الصفر، وفى خلال ساعات كان يتحرك باتجاه القدس. وتقدم قادته لاستطلاع المنطقة المعمورة البعيدة عن الصحراء الرملية، حيث سارعوا إلى العمل والتخطيط للتغلب على المواقع القوية التحصين فى واحدة من أصعب العمليات الحربية، أى القتال فى منطقة مأهولة.

وخلال ظهر الخامس من يونيو، وبعد تدمير القوات الجوية الأردنية، تعددت الطلعات الجوية الاسرائيلية على المواقع الأردنية المحيطة بالقدس، وبخاصة الإمدادات على الطريق الواصل من نهر الأردن باتجاه المدينة عند اريحا. وتم تدمير كافة خطوط المواصلات الأردنية، وبحلول المساء كان قد تم تعطيل محطة الإرسال برام الله. فى الوقت نفسه، أجبرت النشاطات الجوية الإسرائيلية قيادات قوات الضفة الغربية على الانسحاب من المنطقة، والتحرك نحو الضفة الشرقية لنهر الأردن. وأخذ العميد «عطا على»، الذى كان يقود اللواء ٢٧ الأردنى فى منطقة عموم القدس، يلح يائساً فى طلب الإمدادات لتعزيز قواته التى كانت تقاتل آنذاك ضد قوات متفوقة، وسرعان ما بدأت عناصر من اللواء ٦٠/ مدرعات وكتيبة مشاة التحرك، بعد حلول الظلام، على طريق اريحا - القدس . لكن القوات الجوية الاسرائيلية أضاءت الطريق بالمشاعل ثم تقدمت لقصف طابور النجدة. كان الأردنيون على علم بوصول قوات « جور» إلى القدس، وأدركوا أن هجوماً كبيراً سوف يقع . ومن ثم بُذلت جهود كبيرة لإرسال تعزيزات من المشاة عن طريق الدروب الصحراوية والطرق الجانبية لتفادى الهجمات الجوية.

وقبل ساعة من حلول منتصف ليلة ٥/٦ يونيو ١٩٦٧، بدأت المعركة التاريخية من أجل الاستيلاء على القدس. وقد تم تنفيذ خطة معدة مسبقاً للمدفعية والهاونات، فكانت الأضواء الكاشفة فى الجزء الغربى من القدس وجبل سكوبس تسلط أنوارها على الهدف تلو الهدف حيث تقوم تجمعات النيران الاسرائيلية بصب نيرانها عن قرب وتدمر المواقع العربية، الواحد تلو الآخر. وبعد الساعة الثانية صباحاً بقليل، تحرك مظليو «جور»، تتقدمهم المدفعية ووحدات الاستطلاع من لواء القدس وتظاهرهم دبابات اللواء نفسه، عبر منطقة منزوعة السلاح بين بوابة مندلباوم ومدرسة البوليس. وقامت إحدى الكتائب بمهاجمة مجموعة التحصينات القوية



معركة القدس ٥ - ٧ يونيو ١٩٦٧

لمدرسة البوليس وتل الذخيرة، بينما قامت كتيبة أخرى، من جهة الشمال، بالتقدم نحو حى الشيخ جراح . وقاتلت القوات الأردنية قتالاً شرساً. وبعد أن نجحت قوات «جور» فى التغلب على حقول الألغام التى بثها الأردنيون أمام مداخل مواقعهم، نشبت سلسلة من الاشتباكات من مسافات قريبة عندما بدأت القوات الاسرائيلية تشق طريقها عبر خنادق المواقع ، منتقلة من حجرة إلى حجرة ، تطهر المخابىء الواحد تلو الآخر، وتحارب فوق الأسطح وداخل العنابر. وعلى مدى أربع ساعات، دارت الحرب سجالا بين الطرفين، الذى أبدى كل منهما شجاعة واسبتسالا فى القتال. ولقد أصبحت معركة تل الذخيرة أحد الملاحم الحربية فى تاريخ إسرائيل .

ومع اقتراب الفجر، ألقى «جور» بكتيبة ثالثة إلى القطاع الجنوبى عند الشيخ جراح، مع دبابات لواء القدس. وقد شقت القوة طريقها نحو منطقة متحف روكفلر المواجهة للقطاع الشمالى من حائط المدينة القديمة، عند بوابة دمشق وبوابة هيرودس *. ومع انتصاف الصباح، كانت المنطقة قد طُهرت وأصبحت القوات الاسرائيلية تسيطر على المنطقة الواقعة بين سور المدينة وجبل سكوبس. وأُعيد الاتصال مع الجيب المحاصر، وثبّت المظليون مواقعهم فى الوادى أسفل جبل سكوبس وتل اوجستا فيكتوريا المواجهة لسور المدينة القديم.

على التوازى مع هذه العمليات، نجح لواء «هارئيل»، بقيادة «بن ارى»، فى الاستيلاء على النبى صموئيل وتعزيز تواجده على طريق القدس – رام الله. وقامت إحدى كتائب اللواء ٦٠/ مدرعات الأردنى المتمركز بمنطقة القدس بشن هجوم مضاد. وبعد قليل، نشبت معركة شرسة بالقرب من تل الفول فقد خلالها الأردنيون عدة دبابات، وانسحب الأردنيون. وواصلت قوات «بن ارى» تقدمها نحو جبل شعفاط شمالى القدس.

وهكذا، مع انتصاف صبيحة السادس من يونيو، كانت وحدات لواء القدس (١٦) تسيطر على صور باهر جنوبى القدس، عازلة تلال الخليل عن القدس؛ وقوات «جور» تنتشر فيما بين جبل سكوبس والمدينة القديمة ؛ وقوة «بن ارى» المدرعة تسيطر على المداخل الشمالية للمدينة من جهة رام الله. وأصبح لواء العميد «عطا على» منقسماً إلى ثلاث وحدات منعزلة: فى المدينة القديمة، وشعفاط، وعموم منطقة أوجستا فيكتوريا، الواقعة على قمة ما بين جبل سكوبس وجبل الزيتون. كذلك كان هناك وحدة صغيرة بمنطقة ابو طور، إلى الجنوب تماماً من أسوار المدينة القديمة، وتشرف على محطة سكة حديد القدس . وقد أخبره الملك حسين شخصياً بأن

* هى « باب الساهرة » فى المصادر العربية (المترجم) .

جهوداً تبذل لنجدة القدس، وعليه فقد قرر الصمود والاستمرار فى القتال. وفى تلك الأثناء، بدأ لواء القادسية/ مشاة، الذى كان متمركزا فى اريحا، التحرك نحو القدس عبر الطريق الجبلى والدروب. لكن القوات الجوية الاسرائيلية سلطت عليه الأضواء الكاشفة، وأعاقته هجماتها المتكررة، وأنزلت به إصابات كبيرة. وهكذا تأخر طابور الإنقاذ، وعندما اقترب من القدس، كان وصوله متأخراً، ولا جدوى منه للقوات الأردنية بالمدينة القديمة .

الضفة الغربية: السامرا

فى مواجهة القطاع الشمالى من الضفة الغربية، كان الميجور جنرال «إيلاد بيليد»، على رأس فرقته المدرعة، التى تتألف من لواءين مدرعين، يترقب الهجوم الأردنى الرئيسى. لكن هجوماً سريعاً لم يقع، سواء من جانب السوريين أو الأردنيين .

كانت القوات الأردنية فى قطاع السامرا تتألف من ثلاثة ألوية مشاة: أحدها مدعم بالمدرعات، وكتيبتان مستقلتان من المشاة وكتيبتان مدرعات مستقلتين. وكان اللواء ٢٥/ مشاة، الأردنى، المدعم بكتيبة مدرعات، يسيطر على مدينة «جنين» الرئيسية فى الشمال، تلك التى دار حولها قتال شرس أثناء حرب الاستقلال. وكان اللواء مسئولاً عن المداخل الجنوبية المؤدية إلى وادى الأردن من ناحية طوباس فى الشمال. وكان لواء «الأميرة عالية»، المتمركز فى نابلس، مسئولاً عن الدفاع عن السهل الساحلى عند منطقة طولكرم. وكان هناك لواء آخر، يتخذ من رام الله مقراً لقيادته، يتولى الدفاع عن اللطرون والجزء الشمالى من ممر القدس. وكان اللواء ٤٠/ مدرعات، المتمركز عند جسر داميا على نهر الأردن، يمثل احتياطى المدرعات الرئيسى.

ويمكننا تشبيه يهودا والسامرا بدرج عملاق يصعد من البحرإلى سهل الشلال المركزى ثم ينزل ثانية إلى وادى الأردن. فى الدرجة الأولى من السلم، والممتدة من الساحل إلى البحر المتوسط، يهبط المرء عبر السفوح (الشفيلا فى التوراة) إلى الدرجة الثالثة (المنحدرات السفلى) ثم تقود الدرجة الرابعة (المنحدرات العليا) إلى السهل. وعند الصعود، فإن الدرجة السفلى (من المنحدرات إلى وادى الأردن) عبارة عن منحدر شديد، جرف شبه عمودى متنوع الارتفاع. ومن الجو، فإن تضاريس الجزء الأوسط من سلسلة الجبال يشبه عظام سمكة ضخمة: عمودها الفقرى هو الشلال، وتنحدر الوديان (قيعان النهر) من الشلال إلى البحر المتوسط، مثل الضلوع تنبثق عن العمود الفقرى. وكانت نابلس وجنين هما المدينتان الرئيسيتان اللتان تؤثران

فى استراتيجية القوات الاسرائيلية فى تلك الحملة، وكانتا كذلك مفترقى طرق رئيسيين. وتقع جنين عند قدم جبال السامرا، وتتحكم فى مداخل وادى جزريل فى الشمال. وإلى جنوب المدينة هناك وادى دوتن، الذى ينفتح غرباً على السهل الساحلى. وعبر التاريخ، كان هذا الوادى هو الطريق الرئيسى للأعداء الذين غزوا السامرا من جهة الشمال. أما نابلس، التى تبعد ١٨ ميلا جنوبى جنين، فتقع فى واد بين الجبلين المذكورين بالتوراة، جبل جرزيم وجبل عيبال. وهناك طريقان يصلان بين نابلس وجنين: الطريق الشرقى عبر جبال طوباس ، والغربى عبر سيلة الظهر ودير شرف .

وعند ظهيرة الخامس من يونيو، أصدرالجنرال «اليعازر» قائد المنطقة الشمالية، أوامره إلى الميجور جنرال «بليد» بالهجوم على الأردنيين، بهدف التحييد الفورى لوحدات المدفعية فى وادى دوتن، تلك التى تهدد قاعدة «رامات دافيد» الجوية. كان «بليد» ضابطاً شابا بالبلماح عندما ذاع صيته أثناء القتال الذى دار من أجل الاستيلاء على صفد خلال حرب الاستقلال، الذى أصيب خلاله بجروح بالغة. تخرج فى مدرسة الحرب الفرنسية، وتولى قيادة لواء مشاة «جولانى» المجدد، وبعد تقاعده من الجيش، عمل كمدير عام لوزارة التعليم تحت رئاسة قائده السابق بالبلماح «ييجال يادين»، الذى كان يتولى وزارة التعليم . وفى مرحلة تالية، التحق بميدان السياسة المحلية، وانتخب نائباً لتيدى كولك عمدة القدس .

عبرت قوات بليد خط الهدنة فى الخامسة من بعد الظهر. ورافق الهجوم قصف مركز من جانب القوات الجوية الاسرائيلية ضد تجمعات وادى دوتن الأعلى، غربى جنين. وتقدم لواء مدرع بقيادة الكولونيل «موشى باركوخفا»، يتبعه لواء مشاة بقيادة الكولونيل «اهارون افنون»، على محورين: واحد باتجاه يعبد غربى وجنوبى جنين؛ والثانى باتجاه جنين من جهة الغرب. فى الوقت نفسه، كان هناك هجوم مخادع من المشاة من وادى بيت شيان باتجاه الجنوب، يستهدف جسر داميا: كان من شأن هذا أن يشكل خطراً على مجمل الانتشار الأردنى، وذلك بمنع الأردنيين ابتداءا من تركيز قواتهم للتصدى للهجوم الاسرائيلى الرئيسى على جنين. وكانت الخطة الاسرائيلية للهجوم على جنين تقوم على التطويق الواسع من الجنوب، مع أخذ الاستيلاء على المرتفع المشرف على المدينة فى الاعتبار .

وصل المشاة المدرع الاسرائيلى، بقيادة الكولونيل «باركوخفا»، إلى تجمعات المدفعية الأردنية. وبعد معركة شرسة، نجحوا فى الاستيلاء على المنطقة، ثم واصل طابور دباباته التقدم للسيطرة على ملتقى طرق قباطية ليعزل، بذلك، جنين عن نابلس ومعظم الضفة الغربية.

وقامت المدرعات الأردنية بهجوم مضاد، فى محاولة لتشديد القبضة على قوات «باركوخفا»، ونشبت معركة بالدبابات أثناء الليل. لكن القوات المدرعة الاسرائيلية، بمدافعها من عيار ١٥٠ مم المركبة على دبابات «شير مان» القديمة، أثبتت انها أكثر من ندٍّ لدبابات «باتون» الأردنية الأمريكية الصنع: قام «باركوخفا» بهجوم مضاد على القوات الأردنية التى تطوقه، وأجبرها على الفرار. وبالاشتراك مع وحدات لواء «أفنون» / مشاة ، أخذت قوات «باركوخفا» تتقدم نحو جنين فى مواجهة مضادات المدرعات الأردنية الجيدة التمويه والتى يظاهرها ٣٠ من دبابات «باتون». وبعد إحباط الهجوم الأردنى المضاد، الذى حاربت القوات الأردنية خلاله بشجاعة كبيرة، تحركت قوات «باركوخفا» لاحتلال التلال المتحكمة فى جنين من جهة الجنوب الشرقى، بينما قامت وحدات أخرى من اللواء باحتلال التلال الواقعة إلى الجنوب الغربى.

فى تلك الأثناء، وفى الوقت الذى وصلت فيه القوات الاسرائيلية إلى مركز الشرطة شمالى جنين، تمكنت وحدة استطلاع اللواء من رصد قوة أردنية قوامها حوالى ٦٠ دبابة «باتون» تتقدم من طوباس باتجاه الشمال. وحرّك «باركوخفا» قواته نحو الجنوب إلى ملتقى طرق قباطية استعداداً لملاقاة القوة، بينما واصل مشاة «أفنون» تطهير المدينة لتصبح تحت سيطرتهم التامة عند الواحدة ظهراً. ودخلت وحدات المدرعات الأردنية المتقدمة فى معركة مع كتيبة استطلاع «باركوخفا»، ونجحت فى تطويقها ومحاصرتها. وكانت قوات «باركوخفا»، التى واصلت السير على مدى أربع وعشرين ساعة واشتبكت فى قتال عنيف، فى حاجة ملحة لإعادة التجميع والإمداد. لكنها أصبحت الآن تقف فى مواجهة قوة مدرعات أردنية تحتفظ بنشاطها وتتمترس خلف موقع دفاعى ثابت داخل قباطية وحولها، وتحاصر، فى الوقت نفسه، كتيبة استطلاع «باركوخفا». وأرسل «بليد»، عن طريق الجو، بتعزيزات لتخفيف الضغط عن «باركوخفا» واعطائه الفرصة لإعادة التجميع والتنظيم. وقد خاضت القوات معركة قباطية ضد قوة أردنية تتألف من وحدات من اللواء ٢٥/ مشاة، بقيادة المقدم «عواد محمد الخالدى»، مع تعزيزات من المدرعات. وقد نجح الأردنيون فى صد هجمات اسرائيلية متكررة، بينما تواصل القتال العنيف لاثنتى عشره ساعة عند منطقة ملتقى الطرق. وبعد حلول الظلام، نجحت سرية دبابات اسرائيلية، كانت تحوم حول القوات الأردنية من الأجناب، فى فتح ثغرة فى الدائرة الأردنية التى تحيط بكتيبة الاستطلاع. وخرجت القوات المحاصرة من منطقة الحصار، والتحقت بالكتلة الأساسية من القوات الاسرائيلية، بينما استمرت معركة الدبابات من مرمى قريب. وتدريجيا، تغلبت قوات «باركوخفا» على الأردنيين فى قباطية، وقامت بالتوغل من الشمال نحو نابلس .

وبينما كان لواء «باركوخفا» يقاتل فى جنين وقباطية، دفع «بليد» بلواء مدرع ثان، بقيادة الكولونيل «يورى رام»، نحو شرقى جبل جيلبواع، وجنين وقباطية بهدف الهجوم على طريق جنين - طوباس، للتقدم نحو نابلس من جهة الشرق. وبعد التغلب على التجمعات الأردنية الأمامية المضادة للدبابات، اخترقت قوات «رام» تلفيت، ثم دخلت فى قتال بالمدرعات من وضع الثبات من مرمى بعيد، دام طوال اليوم. واشتبك الأردنيون مع وحدات «رام» الأمامية من فوق مرتفع قريب من الزبابدة، الذى كانت نيران مواقعه الميدانية تغطى الطريق ومجمل الوادى. وانتشر الكولونيل «رام» فوق المرتفعات الواقعة على الجانب الشرقى للوادى. وأرسل وحدات مدرعات صغيرة إلى الوادى لسحب النيران الأردنية، حتى يمكن تحديد مواقعها على ضوء نيرانها. واستمرت المعركة حتى الغسق. وعند اقتراب الليل، تحركت سرية دبابات أردنية، فقامت الطائرات الاسرائيلية بالهجوم عليها. وعندما ساد الظلام، وباستخدام الدبابات الأردنية المشتعلة كنقاط إشارية، قام «رام» بهجوم ووصل إلى قرية عقابه. وتقدم اللواء وباغت طوباس واستولى عليها. وترك رام الجانب الأكبر من قوته عند ملتقى الطرق لتغطى الطريق القادم من جسر داميا، تحسبا لإمكان اقتراب اللواء ٤٠/ مدرعات الأردنى من ذلك الاتجاه، ولعلمه كذلك بوجود وحدات مدرعة أخرى، دون تفسير واضح، خلفه بمنطقة طوباس. وعليه فقد تقدم نحو نابلس مع كتيبة الاستطلاع وسرية دبابات.

جاءت تقارير قوة الاستطلاع تفيد بأن مدينة نابلس هادئة، فأمر «رام» بدخول المدينة. ولدهشة القوات الاسرائيلية التامة، قوبلت بالتحية من مواطنى نابلس الذين اصطفوا على جانبى الطريق، يهللون ويصفقون - ظناً منهم أن القوات الاسرائيلية هى القوات المدرعة العراقية المنتظرة والمتوقع قدومها من اتجاه داميا للدعم. وعندما حاول جندى اسرائيلى نزع سلاح أحد المواطنين العرب بدأ إطلاق النار، إذ سرعان ما أدرك مواطنو نابلس خطأهم، فبدأ إطلاق النار متقطعاً. وعلى مدى ست ساعات، دارت معركة تسودها الفوضى، داخل المدينة وحول مداخلها الغربية. وكان التخطيط الأردنى يضع فى اعتباره دائماً أن الخطر الرئيسى على نابلس يأتى من القوات الاسرائيلية التى تهاجم من الساحل لا من الغرب. ولذا فقد انتشرت القوات المدرعة الأردنية على الطريق القادم من الساحل، بينما انتشر المشاة الأردنيين شرقى المدينة. ومن هنا ، كانت معركة قوات «رام» عند المداخل الشرقية مع المشاة، بينما اشتبكت القوات مع الدبابات الأردنية عند المداخل الغربية. وقد دارت معركة بالدبابات من مدى قريب عندما دخلت وحدات «جولانى»/ مشاة، التى كانت تتقدم مع قوات مدرعة إلى وسط المدينة، واستمر القتال من بيت لبيت حتى استسلمت المدينة مساء السادس من يونيو.

سقوط القدس

فى تلك الأثناء، وبعد أن طهرت مداخل المدينة القديمة وانتشرت فى الوادى بين جبل سكوبس والمدينة القديمة، أصبحت قوات «جور» جاهزة للهجوم النهائى، وهو عمل يحمل دلالة تاريخية ودينية كبرى فى تاريخ الشعب اليهودى. وكان من الضرورى، أولاً وقبل أى شىء، تأمين السيطرة على الحافة التى تشرف على القدس من جهة الشرق، وجبل سكوبس وتل اوجستا فيكتوريا وجبل الزيتون. (من فوق هذا الجبل، أمكن لحشود الرومان بقيادة «تيتوس» يعاينوا فى عام ٧٠ ميلادية، أى قبل ذلك بحوالى الفى عام، أن أسوار القدس قبل أن يشنوا هجومهم على المدينة والمعبد اليهودى .) وكان الوقت ضيقاً فى ظل الضغوط التى تمارس داخل مجلس الأمن من أجل فرض وقف إطلاق النار.

أصبح «أنور الخطيب»، الحاكم الأردنى للقدس، يائساً. وكان على اتصال بالملك حسين، الذى وعده (كما سبق أن وعد العميد «عطا على» قائد اللواء ٢٧/ مشاة المسئول عن الدفاع عن منطقة القدس) بإرسال التعزيزات. وكانت هذه التعزيزات قد تحركت بالفعل، لكنها لم تصل أبداً بسبب غارات سلاح الجو الاسرائيلى عليها على طريق أريحا. وكان «الخطيب» قد سبق أن اعترض - ولم يؤخذ برأيه - على استخدام منطقة قبة الصخرة، حيث جامع عمر والمسجد الأقصى، كمخزن للعتاد، وهو يخشى الآن من امتداد القتال إلى هذه المؤن، الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى تدمير مجمل المنطقة ذات القداسة عند الديانات الثلاث. وعندما فشلت الإمدادات فى الوصول من أريحا، أدرك «عطا على» أن الموقف ميئوس منه، فقرر أن يسحب قواته، إنقاذا لها. وشيئاً فشيئاً، انسحب الجزء الأكبر من القوات الأردنية انسحاباً بارعاً. لكن حاكم القدس رفض أن يرافق القوات: بعد يومين من ذلك، كان عليه أن يسلم نفسه فى القدس لكاتب هذا الكتاب، الذى عين كنول حاكم اسرائيلى للضفة الغربية، وليروى القصة المؤثرة والمثيرة لمعركة القدس كما رآها الجانب الأردنى. (تصادف أن نُقل بعد ذلك بأيام العتاد العسكرى والمتفجرات والذخائر من منطقة المساجد) .

وفى الثامنة والنصف من صباح ٧ يونيو، قامت كتائب «جور» الثلاث بالهجوم. فقامت اثنتان منها، تدعمها نيران المدفعية المركزة والطلعات الجوية، بهجوم ذى شقين على جبل أوجستا فيكتوريا: اتجهت كتيبة مدعمة بالدبابات نحو المواقع الأردنية من ناحية جبل سكوبس. بينما صعدت الكتيبة الثانية، من الوادى فيما بين الجبل والمدينة، نحو المواقع الأردنية على

منحدرات أوجستا فيكتوريا. فى الوقت نفسه، اندفعت كتيبة ثالثة من متحف روكفلر متجهة إلى سور المدينة عند بوابة «سان ستيفان»، حيث كان مقرراً دخول المدينة القديمة والوصول إلى جبل المعبد. وفى إطار هذا الهجوم ذى الشقين، اندفع المظليون تدعمهم الدبابات، عبر جبل اوجستا فيكتوريا وجبل الزيتون، ثم انحدروا عبر السفوح إلى نهاية وادى «قدرون» من جهة الشمال حتى أسفل أسوار المدينة. واتخذ جزء من القوة مواقع دفاعية لإغلاق الطريق القادم من اريحا. وكان لواء مشاة أردنى قد بدأ تحركه على هذا الطريق أثناء الليل لتعزيز القوات الأردنية فى القدس، ولكنه اشتبك، مع أول ضوء، مع الطيران الاسرائيلى والمدفعية الموجودة بمنطقة القدس. وتبعثرت القوة وأُجبرت على الانسحاب، حتى من قبل أن تتمكن من الانتشار.

أصبح «جور» الآن، فى عربته نصف المجنزرة، يقود الكتيبة الثالثة المدعمة بفصيلة من الدبابات، عند مشارف بوابة «ستينفان» المؤدية إلى المدينة القديمة، وسرعان ماتبعته كتائب لوائه الثلاث. ومن المنطقة الواسعة المفتوحة (جبل المعبد) انتشرت وحدات «جور» لتصفية مناطق المقاومة المحتملة المتبقية، ولم تقابل بمقاومة كبيرة، باستثناء أعمال قنص عرضية. وكان الجزء الأكبر من القوات الأردنية قد انسحب. وهكذا وصلت القوات الاسرائيلية، بحلول العاشرة، إلى أقدس المزارات اليهودية.. حائط المبكى. وبهذه المناسبة التاريخية، جرى احتفال قصير احتفاء من الاسرائيليين بواحدة من أعظم اللحظات على مدى تاريخهم القومى الطويل. وعند ذلك، قام القادة العرب المستسلمون بتسليم أنفسهم للكولونيل «جور»، وأبلغوه بأنه لن تكون هناك مقاومة منظمة. وفى الوقت الذى دخلت فيه قوات «جور» المدينة القديمة، كانت وحدات لواء القدس (١٦) بقيادة الكولونيل «عميتاى» تقصف جنوب المدينة، من جبل صهيون وحتى سلوان وبوابة دنج. ثم تقدم اللواء جنوباً لإسكات مواقع مارالياس، ودون كبير مقاومة نجح فى الاستيلاء سريعاً على بيت لحم وعتسيون والخليل على التوالى. وبالاندفاع جنوباً من الخليل، التحمت قوات القدس، فى ٨ يونيو، بوحدات القيادة الجنوبية الاسرائيلية .

إلى وادى الأردن

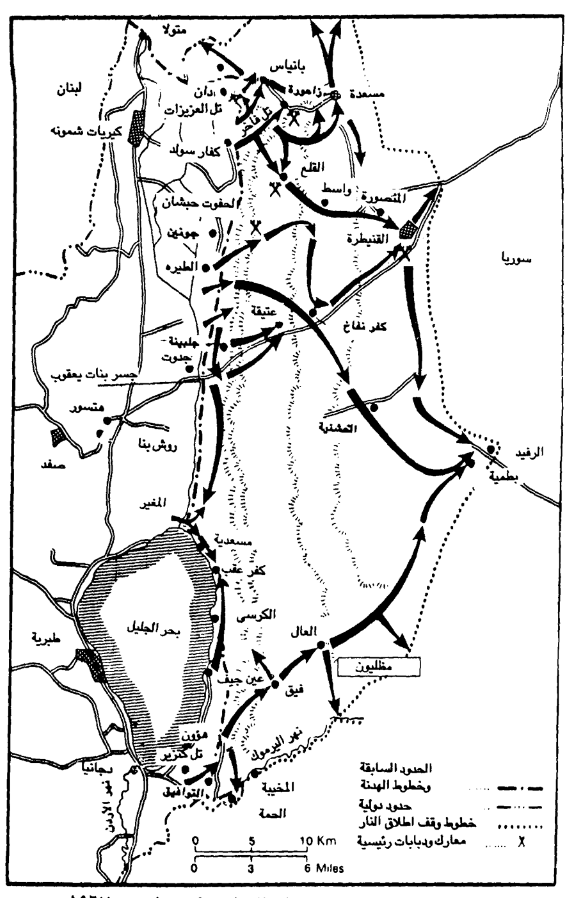
بينما كانت القوات الاسرائيلية تقوم باحتلال المدينة القديمة، وتستولى على مرتفعات الخليل، كان «بن ارى» يقود لواءه نحو رام الله. وسرعان ما خفّ الضغط على قواته بفضل وحدات من لواء الكولونيل «يوتفات» التى تقدمت من اللطرون. والآن، أصبحت هناك اثنتان من كتائب «بن ارى» تتحرك على الطريق المنفصلة لتهبط وادى الأردن باتجاه اريحا، حيث دخلت المدينة وسط الطلقات وبقايا مقاومة متناثرة. ومن هناك، أخذت القوة تتحرك فى شكل مروحة نحو الجسور الأردنية، ثم إلى الشمال عبر وادى الأردن لتلتقى بقوات القيادة الشمالية المتوجهة نحو الجنوب. واندفعت كتيبة «بن ارى» الثالثة شمالاً نحو نابلس حيث التقت بقوات

القيادة الشمالية، التى استولت على المدينة. وحاولت الوحدات المدرعة الأردنية المنسحبة من جبال الخليل الوصول إلى الجسور القائمة شمالى البحر الميت، عبر دروب صحراء يهودا، لكن الجنود هجروا دباباتهم فى النهاية وفروا على أقدامهم.

وفى صباح السابع من يونيو ، وإلى أقصى الشمال، جدّد الكولونيل «باركوخفا» هجومه على مفارق طرق قباطية، تدعمه غارات كثيفة من الطيران الاسرائيلى. واستمرت المعركة حوالى أربع ساعات. وبعد خسارة ٢٥ دبابة أخرى فى المعركة (الأمر الذى يعنى أن اللواء ٤٠/ مدرعات الأردنى قد خسر أكثر من نصف دباباته داخل نابلس وحولها)، فى وقت أصبح فيه مهدداً من جهة الغرب نتيجة اقتراب لواء الكولونيل «شاحام» من نابلس قادماً من قلقيلية، بدأ الأردنيون الانسحاب باتجاه جسر داميا. وفى الوقت نفسه، دفع «بليد» ببعض قواته نحو الجنوب من نابلس إلى رام الله، حيث التقت بلواء «بن ارى» المتقدمة نحو الشمال، بينما كانت وحدات من لواء «باركوخفا» تتجه نحو وادى الأردن، وتحكم سيطرتها على جسر داميا. وهكذا أصبحت القوات الاسرائيلية تسيطر على الجسور الثلاثة القائمة على نهر الأردن، وتحكم سيطرتها على الضفة الغربية.

وعلى شاشة التليفزيون، ظهر الملك حسين قلقاً ومضطرباً، بذقن لم يحلق لعدة أيام، ليناشد أمته يائساً «القتال حتى النفس الأخير ولآخر نقطة من الدماء». لكنه كان قد قرر فى الحقيقة أن يقبل نداء الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار: فى الثامنة من مساء ذلك اليوم، السابع من يونيو، قبلت كل من اسرائيل والأردن رسمياً وقف إطلاق النار.

واكتمل غزو الضفة الغربية. وفقد الملك حسين نصف مملكته، لأنه سمح للأردن بالتورط فى الحرب بفعل موجة الهستيريا التى اجتاحت العالم العربى، ووقع مع مصر معاهدة عسكرية، وعبر بعد ذلك بعشرة أيام، عن أسفه العميق لتوقيعها. وكانت الفرصة أمامه كاملة لكى لا يتورط فى الحرب، ووصله تحذير واضح من مغبة ذلك التورط عندما وجه إليه «ليفى اشكول» رئيس الوزراء الاسرائيلى، فى ٥ يونيو رسالة عبر هيئات الوساطة التابعة للأمم المتحدة. وقد اختار الملك تجاهل هذا التحذير، والأخذ بتقارير المخابرات الزائفة التى قدمها له المصريون. والأكثر من هذا أن الملك قد أضعف من وضعه الدولى بتواطئه مع الرئيس ناصر، فى تلفيق قصة حول الدعم العسكرى الأمريكى والبريطانى لاسرائيل. لقد ضلله حلفاؤه المصريون، وخانه حلفاؤه السوريون. فبرغم نداءاته اليائسة، لم يكن هناك وجود للواء الذى وعده به السوريون. والعراقيون برغم تمركزهم بالأردن لم يشتركوا فى القتال. وقد عبر الملك عن مشاعره بمرارة فى كتابه «حربى مع اسرائيل» (١٩٦٩). وتقدر الخسائر الأردنية فى القتال، حسب المصادر الأردنية، بأكثر من ستة آلاف قتيل ومفقود؛ بينما بلغت الخسائر الاسرائيلية حوالى ٥٥٠ قتيلا و ٢٥٠٠ جريح.



المعارك الرئيسية فى مرتفعات الجولان، ٩ - ١٠ يونيو ١٩٦٧

٣

مرتفعات الجولان

مرتفعات الجولان عبارة عن سهل واسع يبلغ طوله حوالى ٤٥ ميل، ويمتد من جبل حرمون فى الشمال، حيث يصل ارتفاعه إلى حوالى ٩ آلاف قدم ، ويبلغ هذا الارتفاع فوق وادى اليرموك ٦٠٠ قدم. وإلى الشرق، تتهادى جلاميد سطحه البركانية الخشنة المتناثرة بانسيابية صوب سهل دمشق. وإلى الغرب، يهبط الجرف- الذى يصل ارتفاعه إلى ما بين ١٥٠ - ٢٥٠٠ قدم، ويشمل وادى الحوله وبحر الجليل وكامل، «الاصبع» الشمالى لإسرائيل، والممتد حتى الحدود اللبنانية - فجأة نحو وادى الأردن. والمنطقة مرصعة بالمرتفعات البركانية التى تسمى «تلال»، وأكثرها ارتفاعاً هو «تل ابو الندى»، الذى يبلغ ارتفاعه فوق القنيطرة ٣٦٠٠ قدم. وعلى مدى ١٩ عام، حوَّل السوريون مرتفعات الجولان إلى منطقة دفاع عميق، فأقاموا الخنادق وبشم الدبابات والمدفعية فوق المرتفعات المشرفة على خط وقف إطلاق النار مع اسرائيل. وتمتد هذه الدفاعات الحصينة للغاية إلى الخلف بطول المحاور الرئيسية المؤدية إلى دمشق. وخلال تلك الأعوام، كان الموقف ينفجر من حين لآخر، حيث كان باستطاعة السوريين - استفادة من مواقعهم فوق المرتفعات - قصف المستوطنات الاسرائيلية الواقعة بالوادى، أسفلهم، بنيران الدبابات والمدفعية .

وعند اندلاع حرب الأيام الستة، كان سلوك السوريين - الذين كانوا، فى الحقيقة، السبب الرئيسى وراء حشد القوات المصرية وانتشارها بسيناء - منضبطاً للغاية. فقد أرادوا، من خلال حرب إعلامية طنانة، أن يظهروا بمظهر المتورط، لكنهم بذلوا قصارى جهدهم كى لا يتورطوا بشدة. وقد حاولت القوات الجوية السورية قصف معامل تكرير البترول بحيفا، فتصدت لها القوات الجوية الاسرائيلية ودمرت الجانب الأكبر من الطيران السورى. وخلال الفترة التى كانت فيها القوات الاسرائيلية تقاتل فى سيناء والضفة الغربية، واصلت المدفعية السورية قصفها المستمر والشديد للقوات الاسرائيلية فى الجليل الشرقى. واستمرت القصف

المدفعي لمتبادل على طول الجبهة. وفي ثلاث مناسبات مختلفة أرسل السوريون وحدات استطلاع بحجم سرية إلى اثنين من الكيبوتزات الاسرائيلية ، لكنها رُدت على أعقابها. وكما كانوا يفعلون على مدار السنوات الماضية، اشتبكت وحدات المدفعية والمدرعات السورية مع القرى الاسرائيلية أسفل مرتفعات الجولان. لكن تحركا كبيراً للقوات السورية لم يحدث. ويصف الملك حسين، في يومياته، سلوك السوريين بالخداع الصريح. وهو يوضح كيف أنه؛ برغم مناشداته للسوريين بإرسال التعزيزات، وبرغم وعودهم، فإن لواءاً سورياً واحداً لم يذهب إلى الأردن حتى انتهاء الحرب. وبعد أن وضحت الصورة الحقيقية للانتصارات الاسرائيلية على المصريين والأردنيين، اقتصر عمل السوريين على قصف الوحدات والقرى الاسرائيلية عبر الحدود، وإرسال عدد من وحدات الاستطلاع المدعمة إلى منطقة كيبوتس «دان» وقرية «شعايشوف» .

كانت القوات السورية منظمة في إطار ثلاث مجموعات فرقية. وكان هناك ثمانية ألوية تتمركز فوق مرتفعات الجولان غربي القنيطرة، أمامها ثلاثة ألوية مشاة وخلفها ثلاثة أخرى. هذا بالإضافة إلى تحريك القوة الضاربة للجيش السوري، والمؤلفة تحديداً من لواءين مدرعين وآخرين ميكانيكيين: جزء منها إلى الطريق الموصل بين القنيطرة وجسر بنات يعقوب، والجزء الآخر بالقنيطرة ذاتها. وكان كل لواء مدرع يضم كتيبة دبابات بالإضافة إلى مدافع هجومية ذاتية الحركة. وفي مواجهة هذه القوة كانت هناك قيادة الميجور جنرال «دافيد اليعازر» الشمالية، التي تتكون من ثلاثة ألوية مدرعات وخمسة مشاة (بما في ذلك احتياطي القيادة العامة)؛ وتتولى هذه القوات، إضافة إلى الجبهة السورية، حماية الحدود الشمالية مع الأردن ولبنان.

كان وزير الدفاع الإسرائيلي، الجنرال «دايان»، متردداً في شن هجوم على سورياً، الأمر الذي يمكن أن يجر الروس للتدخل في هذا الصراع العسكري؛ ولكن، مع تطور الحرب، تزايدت ضغوط القرى الواقعة شمال اسرائيل للرد بقوة على القصف السوري واحتلال مرتفعات الجولان التي يأتي منها هذا القصف. ولم يصدر «دايان» أوامره إلى الجنرال «اليعازر» بالهجوم إلا بعد دحر المصريين في سيناء وإخراج الأردنيين من الضفة الغربية. ففي صباح الجمعة، التاسع من يونيو، قامت القيادة الشمالية الاسرائيلية بهجومها، حيث بدأت القوات الجوية الاسرائيلية قصفها، بينما كانت المواقع الأمامية السورية يجرى تدميرها، الموقع وراء الآخر، وفق خطة قصف بالدبابات من تشكيل مفتوح. وكان المجهود الرئيسي في الجزء

الشمالي من القطاع موجها ضد منطقة تل العزيزية/ القلع/ زاعوره، بهدف فتح طريق عبر بانياس عند قدم جبل حرمون، الأمر الذى يتيح الاقتراب من مدخل طريق القنيطرة – مسعدة القادم من الشمال. وقد اختيرت هذه المنطقة لأنها شديدة الانحدار، بحيث اضطر السوريون لأن يحصنوها بتحصينات مضادة للمدرعات خفيفة نسبياً، بل إن انحدارها لم يكن يسمح بالمرور، مثلما هو الحال إلى أقصى الجنوب: من الواضح أن السوريين كانوا يعتمدون فى حساباتهم الدفاعية على استغلال صعوبة التضاريس. فى الوقت نفسه، قامت وحدة من احتياط المشاة بشن هجمات ثانوية على مجمع دردرة/ تل هلال/ الدرباسية، المتاخم لجسر بنات يعقوب من الشمال.

وعهد الجنرال «اليعازر» بالقطاع الشمالي من مرتفعات الجولان إلى حملة فرقية خاصة بقيادة البريجادير جنرال «دان لانر»، رئيس أركانه بالقيادة الشمالية. وكان «لانر» من ضباط البلماح البارزين، ورفيق سلاح لأليعازر فى العديد من المعارك الشرسة أثناء حرب الاستقلال. (طويل القامة، جذاب، ذو مظهر قيادى، ينتمى لأحد الكيبوتسات، قضى فترات قصيرة بالجيش النظامى لكنه لم يكن ضابطاً نظامياً. أثبت كفاءته كقائد فرقى فى معارك الجولان ١٩٧٣، عندما قاد أحد الشعب الرئيسية التى شاركت فى الهجوم المضاد، وتقدمت نحو دمشق). كانت قوته تتألف من لواء مدرع بقيادة الكولونيل «البرت ماندلر» ولواء «جولانى» / مشاة بقيادة الكولونيل «يونا إرڤات». (مات الكولونيل «ماندلر» فى حرب ١٩٧٣، أثناء قيادته للفرقة التى تقدمت حتى خط قناة السويس).

تحرك لواء «ماندلر» للهجوم من منطقة كفارسولد عبر محور مفرد يؤدى إلى القلع/ زاعوره، وسط نيران سورية كثيفة. وعلى التوازى مع تقدم «ماندلر»، أو كل إلى وحدات مشاة «جولانى» مهمة تطهير كافة المواقع السورية فى مثلث كفارسولد/ زاعوره/ بانياس. وكانت المداخل إلى الخطوط السورية تسيطر عليها بالكامل تحصينات صلبة ومواقع تل العزيزيات، التى تغطى نيرانها المنطقة الشمالية الشرقية لوادى الحولة بالكامل. وكان السبيل الوحيد للتغلب على هذا الموقع هو تطويقه؛ أى الاستيلاء على المواقع السورية الواقعة خلفه، ثم التقدم نحوه من المؤخرة. ولإتمام ذلك، كان من الضرورى دحر موقع آخر فى المؤخرة هو تل فهر. وبينما كانت قوة المشاة تشق طريقها حول التلال السفلية لجبل حرمون، جرت سلسلة من المعارك الباسلة من أجل الاستيلاء على التحصينات العديدة التى تكون موقع تل فهر، أبدى خلالها رجال لواء جولانى شجاعة نادرة. فقد كان الموقع، بشبكة مخابئه ومدافع الماكينة

والمدفعية المضادة للدبابات، محاطا بثلاثة سياجات من الأسلاك الشائكة المزدوجة والعديد من حقول الألغام والخنادق . ولم يكن ممكنا تطهيره إلا بعد قتال متلاحم شرس. وعند الهجوم على التحصينات سقط الموقع الأول، ولكن بعد أن أصيبت القوة بكاملها ماعدا ثلاثة أفراد! وعند الهجوم على الموقع الثانى أصيب قائد الهجوم ومعظم ضباطه وضباط الصف. وتحت النيران المهلكة، ألقى بعض الجنود الاسرائيليين بأنفسهم على لفائف السلك المدبب كى يصنعوا جسرا بشريا يعبر عليه رفاقهم، فمات منهم الكثير. وبينما المعركة تدور بين مد وجزر، دخلت وحدة استطلاع اللواء العمل، وبحلول السادسة مساء نجحت وحدات «جولانى» فى الاستيلاء على تل فهر فى واحدة من أشرس المعارك التى خاضتها هذه القوة المتميزة من المشاة. وواصلت قوة إضافية من لواء «جولانى»، يظاهرها عدد قليل من الدبابات، هجومها من المؤخرة على تل العزيزية. ومع حلول الظلام، كان ذلك الموقع الرئيسى قد انتقل إلى أيدى الاسرائيليين، الذين بدأوا التحرك نحو بانياس. فى تلك الأثناء، كان لواء «ماندلر»، تتقدمه وحدات البلدوزر والمهندسين، يصعد المنحدر تحت وابل من نيران المدفعية المركزة. كان الطابور كله يسير على محور مفرد، تتقدمه وحدة مهندسين مع سرية بلدوزر. وقد أصيبت جميع البلدوزرات، وفقد كل بلدوزر عددا من أفراد طاقمه فيما ثبت أنه أكثر العمليات كلفة: برغم ذلك استمر التقدم بشكل أو بآخر. كانت الخسائر الاسرائيلية كبيرة، وتكبدت كتيبة مدرعات المقدمة بالذات خسائر جمة. على أن وحدات «ماندلر» استطاعت التقدم، واستولت على نعموش واكتسحت السوريين فى مواقعهم. ثم تحركت القوة جنوبا نحو الجنوب الشرقى باتجاه القلع. وقد قاد الكتيبتين الأخيرتين حتى الهجوم النهائى ملازم شاب وهو ينزف دما. وكان دفاع السوريين مستميتا. وانضم الجنود المتبقين من الدبابات المعطوبة إلى كتيبة المقدمة ليحاربوا كمشاة. وتجاوزت بقايا لواء «ماندلر» هجوم كتيبة المقدمة على القلع وتقدموا نحو زاعورة. وعندما تقدمت هذه القوة من زاعورة إلى القلع انسحب السوريون بسرعة. وهكذا أصبح لواء «جولانى» و «ماندلر» يشكلان، فى نهاية اليوم الأول من القتال، خطايمتد بطول القمة الأولى لمرتفعات الجولان الشمالية.

بعيدا الى الجنوب، وعبر الأردن عند «مشمار هايردن»، قام لواءان من المشاة بالهجوم والاستيلاء على الدرباشية وجلالون ودردره. واستولوا كذلك على بيت الجمرك الأعلى، كى تتمكن الوحدات من شق طريق للمدرعات. وبمجرد إتمام ذلك، اندفعت وحدات لواء الكولونيل «يورى رام» المدرع، التى انتقلت من القتال ضد الأردنيين بالضفة الغربية، لتصعد الجبل

وتستولى على قرية رويّة. وفى الوقت نفسه، نجحت وحدات المظليين فى الاستيلاء على المواقع السورية شرقى الدرياشية، لتتيسر عملية اختراق مدرع إضافى يمكن أن يصل إلى الطريق الرئيسى الواصل بين القنيطرة وجسر بنات يعقوب .

وفى صبيحة اليوم التالى، العاشر من يونيو، التحق لواء الكولونيل «باركوخفا» المدرع، الذى وصل كذلك من الضفة الغربية، بلواء «جولانى» فى الهجوم على بانياس، وتحرك نحو عين فيت ومسعدة على المنحدرات الجنوبية لجبل حرمون. بموازاة هذا العمل، تحرك لواء «ماندلر» من القلع باتجاه القنيطرة، كما اشترك فى الهجوم على القنيطرة لواء «رام» الذى كان يتقدم فى طريقه إلى كفر نفاخ . وهكذا، أصبحت القوات الاسرائيلية فى النصف الشمالى من مرتفعات الجولان تتقدم نحو القنيطرة على شكل قوس: لواء جولانى ولواء «باركوخفا» عبر المنصورة؛ ولواء «ماندلر» عبر ملتقى طرق واسط.

وعند منتصف الصباح من العاشر من يونيو، بدأت القوات السورية تنهار وتنسف مواقعها. وساد الذعر عندما بدأ سلاح الطيران الاسرائيلى يكثّف من طلعاته، وأخذ السوريون يفرّون من مواقعهم. واصطدم الاسرائيليون فى تقدمهم بالعديد من الدبابات المهجورة. واحتلت قوات «ماندلر» القنيطرة فى الساعة الثانية من بعد الظهر دون قتال يذكر. وفى أثناء ذلك، جرى نقل جزء من قوات «جولانى» بواسطة الهليكوبتر إلى القمة السفلى بجبل حرمون، التى يصل ارتفاعها إلى حوالى ٧٠٠٠ قدم، وتم لها احتلال ذلك الموقع الاستراتيجى.

وفى صباح العاشر من يونيو، وبالتوازى مع تلك العمليات، كان الجنرال «إلادبليد» يقود فرقته، التى صارت تتألف آنذاك من لواء الكولونيل «افنون»/ مشاة ولواء الكولونيل «جور»/ مظلات القادم من القدس، مع بعض وحدات المدرعات. وقد شن هجومه على المنطقة الجنوبية من مرتفعات الجولان عند التوافيق ووادى اليرموك. وبعد قصف جوى مركز، هاجمت قوات المدرعات والمظلات ودمرت التوافيق؛ وعن طريق الانتقال فى وثبات بواسطة الهليكوبتر استولى المظليون على فيق والعال، ثم تحركوا شرقا نحو بطمية ومفترق طرق الرفيد. وانطلق خلفهم وحدات المشاة والمظليين، وانتشروا كذلك فى المنطقة الممتدة بطول الشاطىء الشرقى لبحر الجليل. وعندما حل موعد تنفيذ وقف إطلاق النار الذى حددته الأمم المتحدة بالساعة السادسة والنصف مساء، كان هناك خط قد استقر شيئا فشيئا، فوق مرتفعات الجولان يلقى قبول قيادة الأركان الاسرائيلية ويشرف على سهل دمشق. وكان الحد يمتد من القمة الغربية لمرتفعات

الجولان ويمتد إلى الشرق من مسعده والقنيطرة وملتقى طرق الرفيد، ويدور غربا نحو وادى اليرموك ثم وادى الأردن.

الخلاصة

تتويج

بعد حرب الأيام الستة، تغير الموقف الاستراتيجى لصالح إسرائيل تغيرا جذرياً. فلأول مرة فى التاريخ أصبحت إسرائيل تتمتع بعمق دفاعى. ففى الجنوب، أصبحت صحراء سيناء بمثابة عازل. وترتب على سيطرة إسرائيل على الضفة الغربية إبعاد القوات المعادية المحتملة من الشريط الساحلى و«خط الخصر» الضيق لإسرائيل والمناطق المحيطة بالقدس، وإضافة عازل آخر للدفاعات الإسرائيلية. وفى الشمال، أصبحت المدفعية والمدرعات الإسرائيلية هى التى تهدد دمشق، على عكس ما كان قائما من تهديد سورى للجليل الشمالى. وأصبحت الأوراق بيد إسرائيل، فى شكل المناطق التى كانت تستخدم كنقاط انطلاق للهجوم على إسرائيل، والتى كان يعتقد بأنها يمكن أن تفتح الباب امام مفاوضات للسلام إذا أجيد استخدامها.

جاءت نتائج الحرب تتويجا لسنوات من الجهد الشاق قدمه قادة القوات المسلحة الاسرائيلية، وللتخطيط الحربى الفعال، الذى وضعته قيادة الأركان العامة الإسرائيلية. وقد أفادت الفترة الطويلة نسبيا من الانتظار لعدة أسابيع، وسط حالة من التوتر، فى حشد جيش الدفاع الاسرائيلى بفاعلية وإعداده للضربة الاستهلالية. (فى حرب ١٩٦٧، لم تحدث الأخطاء التى وقعت فى ١٩٧٣.) فى الوقت نفسه، وبسبب النصر المذهل الذى تحقق، كان هناك اتجاه للتغاضى عن العديد من أوجه القصور التى يعانى منها جيش الدفاع الاسرائيلى، وعدم التعرض لها. (كان لهذا أيضا أثره فى ١٩٧٣) وبشكل عام، فإن الانتصار فى حرب الأيام السته كان مذهلا إلى حد أن القيادة الاسرائيلية كانت أميل، فى بعض الأحيان، لأن تنسب لنفسها بعض الإنجازات التى تحققت نتيجة للتراخى ونقص التنسيق وضعف القيادة فى المستويات العليا على الجانب العربى، أكثر مما تعود إلى الفعالية الاسرائيلية.

وكانت الضربة الجوية الاستهلالية هى أبرز أحداث حرب الأيام الستة. فقد فاجأت القوات الاسرائيلية، بقيادة الميجور جنرال «موردخاى جور» القوات الجوية المصرية والعربية الأخرى

بالهجوم، وبعد ثلاث ساعات من النشاط المكثف، وفقا لخطة جيدة الإعداد، استطاعت أن تحقق سيادة جوية تامة فوق جميع الجبهات، لقد مهدت هذه الحركة طريق النصر أمام القوات البرية. أما العنصر الحاسم الآخر فقد كان شجاعة الجنود الاسرائيليين فى مثل تلك المعارك التقليدية، مثل نضال المظليين فى شرق القدس، وخاصة عند تل الذخيرة، ضد عدو شجاع مستبسل، ومثل تلك الهجمات التى لاتصدق للمدرعات والمشاة على مرتفعات الجولان، وخاصة فى الجزء الشمالى من القطاع. ويمكننا أن نتبين مدى كفاءة جيش الدفاع الاسرائيلى وقدرته على تقديم القدوة إذا ما علمنا أن ٢٣٪ من خسائر الجيش كانت بين الضباط وضباط الصف: أحد المفاتيح الرئيسية للنصر الاسرائيلى، كان يكمن، ولا يزال، فى تصدر الضباط والصف لجنودهم وقت القتال فى كثير من الأحيان. فيما يتعلق بمستويات القيادة العليا، كان التفوق الاسرائيلى ـ مرة أخرى ـ حاسما.

«ناصر» رئيس مصر، هو الذى أشعل هذه الحرب. وقد وقع فى عدد من الأخطاء تعود إلى سوء تقديره لإمكانيات مصر، وطريقته فى إدارة الحرب، خاصة فى بدايتها. فهو كان مقتنعا، فى المقام الأول، بمقولته التى لم يمل من تكرارها بأن الاسرائيليين نجحوا فى حملة سيناء ١٩٥٦ بفضل التدخل البريطانى والفرنسى، فكان أميل بذلك، عند تخطيطه للحرب، إلى التقليل من قدرة جيش الدفاع الاسرائيلى. أما خطؤه الثانى فيكمن فى مبالغته فى تقدير قوته وقوة الجيوش العربية. وكما أوضح «دايان»، فيما بعد، فقد أعمته كميات العتاد الضخمة التى تلقاها من الاتحاد السوفيتى. والحقيقة أن نجاح الجيش المصرى والجيوش العربية فى استيعاب الطائرات المتقدمة والمعدات الالكترونية والجحافل المدرعة، جعلته يبالغ فى التعويل على المعدّات لا على الرجال الذين يقودونها. وهناك خطأ آخر، هو نظرته إلى الحروب فى مرآة الحرب العالمية الثانية، أو ماانعكس فى خبرته أثناء حصار الفالوجا فى حرب ١٩٤٨. فناصر لم يتخيل إمكانية حرب مناورة خاطفة سريعة فى الصحراء، بل كان يميل إلى التعامل معها (كما يوحى بذلك انتشار قواته وتحصيناتها) كحرب طويلة الأمد. وأخيرا، فهو لم يقدِّر الأهمية الحاسمة للضربة الأولى، ويستشف ذلك من بدء القوات العربية للاشتباكات بدءا تدريجيا، وعدم استفادتها من القوة الكامنة فى الضربة الأولى. وقد اجتمعت كل هذه الأخطاء لتؤدى إلى التقييم الزائف والمضلل الذى سيطر على ناصر، سواء فى التحركات التى أدت إلى الحرب أو فى إدارتها.

كان على القيادة المصرية، فيما بعد، أن تحلل هذه الأخطاء. وقد أثبتت المراحل المخططة

والأطوار الافتتاحية لحرب ١٩٧٣، أن الرئيس السادات وجنرالاته قد استوعبوا أخطاء ناصر، ووعوا دروس حرب الأيام الستة.

وفوق كل ماتقدم، ومن المنظور السياسي، فقد كان تورط الاتحاد السوفيتي المباشر عاملا رئيسيا في نشوب الحرب، وهو الذي سارع زعماؤه بعد الحرب إلى عرقلة أي تحرك من جانب الدول العربية، حتى بعد أن أعلن الرئيس «ناصر» استقالته (التي سحبها بعد ذلك نزولا على رغبة الجماهير)، للدخول في مفاوضات مع اسرائيل من أجل التوصل لحل سلمي للصراع. وفي ١٩ يونيو ١٩٦٧، صوّت مجلس الوزراء الاسرائيلي بالاجماع على إعادة سيناء بالكامل إلى مصر مقابل السلام ونزع السلاح، مع ترتيبات خاصة بشرم الشيخ، وإعادة مرتفعات الجولان كاملة إلى سوريا مقابل السلام ونزع السلاح. كما جرت كذلك تحركات من أجل الدخول في مفاوضات مع الملك حسين ملك الاردن حول الضفة الغربية. لكن الاتحاد السوفيتي وقف في وجه كل هذه المحاولات: قدم الرئيس «نيكولاي بود جورني»، مع طاقم عسكري كبير، إلى الشرق الاوسط، وشرعوا فورا في مهمة إعادة بناء الجيشين المصري والسوري. وقد تبنى مؤتمر القمة العربي بالخرطوم في الأول من سبتمبر ١٩٦٧، قرار «اللاءات الثلاث»: لاتفاوض مع اسرائيل، لا اعتراف باسرائيل، لا صلح مع اسرائيل. وهكذا، مهد الخداع السوفيتي والعناد العربي الأرض لحرب أخرى بالمنطقة.

الباب الرابع

حرب الاستنزاف

كان من نتيجة انتهاء حرب الأيام الستة، وما أعقبها من صدمة أصابت العالم العربى، أن ساد اسرائيل بوجه خاص جو يوحى بأن حروب إسرائيل مع بعض الدول العربية قد انتهت. وكما سبق أن أشرنا فى الفصل السابق ، فقد كان هناك تخيل بأن محادثات للسلام قد تبدأ قريبا. ومن الوجهة العسكرية، أصبحت اسرائيل فى موقف لم تشهده من قبل، ورأى الكثير من الاسرائيليين فى هذه الحقيقة تعزيزا لإمكانية التفاوض. فقد أصبح من الممكن أن تتفاوض اسرائيل، هذه المرة، من موقع القوة.

نتيجة لحرب الأيام الستة، زادت مساحة الأراضى التى تسيطر عليها اسرائيل إلى ما يقرب من الأربعة أضعاف، ففى الشمال، فوق مرتفعات الجولان، أصبحت اسرائيل تسيطر على منطقة بعمق حوالى ٢٠ ميلاً، الأمر الذى أبعد تهديد المدفعية السورية للقرى الاسرائيلية وزاد، فوق ذلك من سيطرة اسرائيل على واحد من المصادر الرئيسية الثلاثة لنهر الأردن. وفى الضفة الغربية للأردن، كان خط الجبهة يقطع القدس العاصمة فى الوسط ويجعل تل ابيب، مركز اسرائيل التجارى وأكثر المناطق كثافة بالسكان، فى مرمى المدفعية المنصوبة فوق خطوط الهدنة. وكان هذا سببا فى وجود منطقة خصر بعرض عشرة أميال عند نتانيا. أما الآن، فقد أصبحت القوات الإسرائيلية تنتشر بطول الحدود الطبيعية لنهر الأردن. وأصبح على أى هجوم أردنى على اسرائيل أن يأخذ فى حسبانه لا عبور النهر وحده، وانما كذلك قمة بارتفاع ٣ آلاف قدم عبر مسافة حوالى ٤٠ ميلاً نحو جبال يهودا وسط أرض قاحلة، قبل أن يصل إلى أى من التجمعات السكانية. وفى الجنوب، سيطرت اسرائيل على صحراء سيناء، التى يوجد عند طرفها الجنوبى مضايق تيران ذات الموقع الاستراتيجى عند خليج العقبة. وتضم المنطقة حقول بترول خليج السويس التى يمكن أن تمد اسرائيل بنسبة كبيرة من احتياجاتها النفطية. والأهم من كل ذلك، فإن هذه الأرض القاحلة الممتدة تمثل عازلا مثاليا لضمان أمن اسرائيل أمام أى هجوم محتمل من جانب مصر. فقد تضاعفت فترة الإنذار الالكترونى المتاحة أمام

إسرائيل، ضد أى هجوم مصرى، إلى أربع مرات، أى إلى ١٦ دقيقة. (وقد ظهرت الأهمية الحيوية لسيناء كمنطقة عازلة عندما قام المصريون بهجومهم عبر قناة السويس فى ١٩٧٣.)

سرعان ماتبدد إيمان اسرائيل بأن الحرب قد انتهت وأن السلام سوف يسود الحدود. فبعد ثلاثة أسابيع من توقف الاشتباكات، شهدت قناة السويس أول الحوادث الكبيرة. وهكذا بدأ ما يعرف بـ «حرب الاستنزف» . وعلى الرغم من أنها لا تشبه الحرب التقليدية (وبالتالى لم تلفت انتباه العالم) فقد استمرت من ١٩٦٧ وحتى وقف إطلاق النار بين اسرائيل ومصر فى اغسطس ١٩٧٠. وقد شهدت هذه الحرب من الابتكارات، بمعنى الكلمة، مالم يشهده تاريخ الحروب. فقد اختبر نظام الدفاع الجوى الذى يحمى الامبراطورية السوفيتية، من جانب الطائرات الغربية التى يستخدمها سلاح الطيران الاسرائيلى، وثبت ضعف كفاءته. وتحول ميدان المعركة حول قناة السويس إلى أرض لا ختبار العتاد العسكرى للقوتين الأعظم. ومن عدة جوانب- من منظور تطور المعدّ ة والعلم العسكرى ـ فلربما كانت حرب الاستنزاف أكثر أهمية من صراعات أخرى خاضتها اسرائيل منذ ذلك الحين.

فى اوائل يوليو، ١٩٦٧، عقد مجلس الأمن جلسة حول الصراع فى الشرق الأوسط. وأكد السوفيت للمصريين، وإحدى عينيهم على المناقشات الدائرة فى الأمم المتحدة، أن من المهم خلق الانطباع بأن الحرب لم تنته، ومن هنا يمكن الضغط على اسرائيل من أجل الانسحاب حتى يتمكن المصريون من فتح قناة السويس أمام الملاحة الدولية. وقد انطلقت الطلقات الأولى يوم السبت الأول من يوليو ١٩٦٧. وفى أكثر من مناسبة كمنت القوات المصرية للدوريات الاسرائيلية التى كانت تتحرك عبر الشريط الضيق المكشوف لقناة السويس؛ فى مناطق لايزيد عرضها على عدة ياردات، ويربط هذا الشريط بين القنطرة فى الجنوب وبور فؤاد فى الشمال. وقد اختارت مصر هذه المنطقة- ذلك العنق الضيق من الأرض والذى يبلغ طوله حوالى ١٨ ميلا تحده قناة السويس من الشرق والمستنقعات من الغرب ـ لتشتبك فيها مع القوات الاسرائيلية وهى مكشوفة وبدون إمكانية للردع.

ففى الأول من يوليو، تحركت سرية مشاة مدرعة، بقيادة الميجور «أوريل منوحين»، على الشريط باتجاه الجنوب للتصدى لكمين مصرى اتخذ موقعه على الضفه الشرقية لقناة السويس عند منطقة رأس العش، إلى الجنوب من بورسعيد بحوالى عشرة أميال. وعلى الرغم من تعرض القوة الاسرائيلية لقصف المدفعية والمدرعات من الضفة الغربية للقناة، فقد واصلت تنفيذ مهمتها وكبح القوة المصرية. لكن الميجور «منوحين» أصيب خلال اشتباك وقع بعد ذلك.

وبرغم إصابته، فقد استمر فى قيادة القوة، واشتبك مع الوحدات المتمركزة على الضفة الأخرى من القناة، التى كانت تطلق النيران على دباباته. وقد أصيب أثناء هذه العملية للمرة الثانية. وفى مساء اليوم الثانى، وبينما القوة الاسرائيلية تنسحب بعد أن أتمت مهمتها، تعرضت العربة نصف الجنزير التى تحمل قائد السرية المصاب للقصف مرة أخرى، فمات. وأسفر هذا العمل عن مقتل واحد، هو قائد السرية، وإصابة ١٣ آخرين .

وهكذا بدأت الحرب، بدأها المصريون فى صورة اشتباكات متقطعة مع الدوريات الإسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة بالنيران السطحية للدبابات والمدفعية الساحلية من بور سعيد ومدفعية الميدان. وفى بعض الأحيان، كانت الأحداث تتطور ويضطر سلاح الطيران الاسرائيلى للعمل ضد مصادر النيران المصرية. وخلال أحد هذه الاشتباكات، حاولت قوة مصرية، مؤلفة من ١٢٠ جنديا، العبور بقوارب مطاطية عند الطرف الشمالى للقناة، لكن القوات الاسرائيلية ردت القوة على أعقابها. وقد شمل القتال، الذى اندلع فى هذه المنطقة، عمليات بحرية على ساحل سيناء أمام رمانه، اشتبكت خلالها البارجة «ايلات» واثنين من زوارق الطوربيد مع زوارق الطوربيد المصرية. وقد غرق اثنين من زوارق الطوربيد المصرية فى أحد تلك الاشتباكات .

وفى ١١ يوليو، وافقت اسرائيل ومصر على وضع نقاط مراقبة للأمم المتحدة على جانبى القناة. وأكدت اسرائيل على أن خط وقف إطلاق النار يمر بوسط المجرى المائى. وبناء عليه، قامت البحرية الاسرائيلية فى ١٤ يوليو بإنزال زوارق إلى القناة، جنوبى القنطرة، لمعرفة ما إذا كانت مصر قد قبلت بالتحديد الإسرائيلى لخط وقف إطلاق النار، أم لا. وفتح المصريون النار عليها، وأعقب ذلك اشتباك كبير بالدبابات والمدفعية، كما اشتركت القوات الجوية الاسرائيلية فى المعركة. وأصيبت زوارق وقطع اسرائيلية. وخلال المعركة لجوية التى أعقبت ذلك، أسقطت القوات الجوية الاسرائيلية أربع طائرات مصرية من طراز ميج ١٧ وثلاثا من طراز ميج ٢١. وبلغت الخسائر الإسرائيلية تسعة قتلى و ٥٥ من الجرحى. وقد انتهت هذه المرحلة فى منتصف يوليو، فلم ينزل أى من الطرفين إلى القناة بعد ذلك.

وشيئاً فشيئاً، أخذت الحياة على القناة شكلاً روتينياً، وبدأت العلاقة تتطور بين القوات على الجانبين المتعارضين. وكان الزوار، فى ذلك الوقت، يتعجبون لرؤية جنود الجيش وهم يجلسون فى سلام، كل على جانبه من القناة، يصطادون الأسماك. وفى حالات كثيرة، كان الجنود يتبادلون الحديث، بتحفظ فى البداية، ثم أخذوا بعد ذلك يتبادلون المزاح، عبر القناة.

«إعادة التأهيل الدفاعى»

فى مؤتمر قمة الخرطوم، أقرت السياسة العربية تجاه اسرائيل. ففى الأول من سبتمبر ١٩٦٧، وضع هذا المؤتمر الأساس لسياسة عربية، تمثلت فى قرار «اللاءات الثلاث»: لا اعتراف بإسرائيل، لا تفاوض مع إسرائيل، لا صلح مع إسرائيل. وأمام مظاهرة جماهيرية، احتشدت بالميدان القائم أمام مجلس الشعب بالقاهرة، أعلن الرئيس ناصر أن كل ما أُخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، وأضاف «لاءً» أخرى إلى لاءات الخرطوم الثلاث: لا تفريط فى الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى. وطرح سياسة عسكرية مصرية ترتكز على مراحل ثلاث: مرحلة إعادة البناء الدفاعى، ومرحلة الدفاع الهجومى، ثم مرحلة التحرير. وأعلنها واضحة صريحة، لكل ذى أذنين، أن الهدوء على القناة هو أمر مؤقت، وأن المصريين سوف يستأنفون القتال عندما يصبحون على استعداد لذلك.

وفى سبتمبر ١٩٦٧، بدأ الاشتباك الكبير الثانى، عندما فتح المصريون نيرانهم من الجزيرة الخضراء الحصينة، فى شمال خليج السويس، على السفن الإسرائيلية أثناء ابحارها فى المياه الداخلة فى نطاق القطاع الاسرائيلى. لقد أراد المصريون أن يؤكدوا على التزامهم بقرارات مؤتمر الخرطوم، وإصرار الرئيس ناصر على تنفيذ هذه السياسة. وانتشرت النيران، واندلعت المعارك بالمدفعية الثقيلة على قناة السويس، وامتدت إلى أقصى الشمال حتى القنطرة التى أصبحت، مع السويس والاسماعيلية، تحت القصف المباشر. ومع تطور القتال بمرور الشهور، هجر آلاف المواطنين منازلهم، مما خلق لمصر مشكلة مهاجرين، وصل عددهم إلى حوالى ٧٥٠ ألف شخص.

وساد الهدوء مرة أخرى. فبعد هذا الانفجار القصير، ظلت المدافع صامتة حتى خريف ١٩٦٧، عندما وقع حادث جذب انتباه العالم إلى الجبهة المصرية. ففى ٢١ أكتوبر ١٩٦٧، كانت المدمرة الاسرائيلية «ايلات» تقوم بأعمال الداورية على مسافة ١٤ ميلاً بحريا من بور سعيد. وفى الساعة ٣٢ر٥ مساء قام زورق صواريخ مصرى من طراز «كومار»، يرسو بميناء بور سعيد، بإطلاق صاروخ سطح/ سطح من طراز «ستيكس». ولم يكتشف رادار «ايلات» أى نشاط غامض أو حركة غير عادية لأن زورق الصواريخ المهاجم كان راسياً داخل الميناء. وبرغم صدور أوامر قبطان السفينة بالمراوغة، عند رصد الصاروخ، إلا أن الصاروخ أصاب السفينة عند منطقة الغلاية، فقُتل وأُصيب عدد من الضباط والجنود، وانقطع التيار

الكهربائى. وبدأت السفينة تميل. وبعد دقيقتين من ذلك، أصاب «ايلات» صاروخ ثان، أدى إلى المزيد من الإصابات والتلفيات. وازداد ميل السفينة، وسارع الأحياء من الجنود لمساعدة زملائهم من الجرحى والقيام بأعمال الإنقاذ والإصلاح لحين وصول قطع البحرية الإسرائيلية، التى كانت فى الطريق لإنقاذهم. وبعد ساعتين من انطلاق الصاروخ الأول، ووسط محاولات الإنقاذ، انطلق صاروخ ثالث وانفجر وسط السفينة. واندلعت النيران وهز السفينة سلسلة من الانفجارات أنزلت بها خسائر فادحة. وبعد قليل من ذلك غرقت .

كانت «ايلات» هى سفينة صاحبة الجلالة بالبحرية الملكية البريطانية وتحمل اسم «زيلوس»*، وهى مدمرة يبلغ حجم إزاحتها ١٧١٠ طن، خدمت خدمة فعالة أثناء الحرب العالمية الثانية قبل أن تباع لاسرائيل فى ١٩٥٦. ومن بين بحارتها البالغ عددهم ١٩٩، كان هناك ٤٧ قتيلا ومفقودا و٩٠ جريحاً. وقد أثار الحادث اهتماماً عالمياً ، فقد كانت تلك هى المرة الأولى فى التاريخ التى تغرق فيها سفينة حربية بنيران صاروخ. لقد بزغ عصر الصواريخ البحرية. وكان هذا الصدام بمثابة تدشين لمعارك الصواريخ البحرية بين البحريات الاسرائيلية والمصرية والسورية فى حرب ١٩٧٣. ومع ذلك، لا ينبغى إعطاء الحادث المزيد من الأهمية، فأجهزة الرادار الخاصة بايلات لم تتمكن من رصد قوارب الصواريخ المصرية بسبب بقائها ساكنة داخل ميناء بور سعيد، أما الاهتمام الشديد الذى ثار آنذاك فمرجعه إلى أن ما حدث كان شبحا لأشياء بحرية على الطريق .

كان الهجوم مخططاً ومتعمداً. ولم تخف دلالته على اسرائيل، سواء بسبب الخسائر التى نجمت عنه أو السياسة العسكرية التى يعكسها الحادث بوضوح. ومن المؤكد أن التحرك المصرى قد أخذ فى حسبانه رد فعل اسرائيلى عنيف ، واحتمال تجدد القتال العنيف بطول خط وقف إطلاق النار. والحقيقة أن رد الفعل الاسرائيلى على هذا العمل كان عنيفاً، لكنه جاء غير متوقع. فقد تأهب المصريون للرد فى منطقة بور سعيد، عند الطرف الشمالى للقناة. ومن هنا، ردت القيادة الاسرائيلية عند الطرف الآخر. فبعد أربعة أيام، وفى ٢٥ أكتوبر ١٩٦٧، فتحت

---

* يقول أمين هويدى « .. وكانت « ايلات » هذه عبارة عن المدمرة المصرية « إبراهيم » التى أسرها العدو يوم ٣٠ / ١٠ / ١٩٥٦ أثناء العدوان الثلاثى على مصر بعد تأميم عبد الناصر لقناة السويس فى عملية سيئة الحظ إذ دفعتها القيادة العامة للقوات المسلحة لضرب حيفا دون غطاء جوى أو حماية بحرية فتصدى لها الاسطول الفرنسى الذى كان يرسو هناك وتم أسرها بعد معركة غير متكافئة » . انظر : ادجار اوبلانس ، حرب اكتوبر . العبور والثغرة ، دار سينا للنشر ، ١٩٨٨ ، صـ٧ (المترجم).

المدفعية الإسرائيلية نيرانها المركزة والكثيفة على الطرف الجنوبى لقناة السويس: أصابت النيران معامل التكرير المصرية فى السويس ومستودعات البترول ومصنع البتروكيماويات واندلعت فيها السنة النيران. ولعدة أيام، فشلت جميع محاولات الإطفاء، حيث احترق البنزين والأسفلت، ليأكل معه المصانع والمنشآت. وقدر المصريون أنفسهم الخسائر فى المنطقة بما يزيد على الـ ٣٦ مليون جنيه (١٠٠ مليون دولار) وأعلنوا عن مقتل ١١ وإصابة ٩٢. كان الردع الاسرائيلى ثقيلاً، أكبر بكثير مما راهن عليه المصريون . واعتبر المصريون الثمن باهظاً، ومن هنا شهدت القناة فترة من الهدوء النسبى، فترة استمرت لمدة عام تقريباً، حتى صيف ١٩٦٨، وشهدت اشتباكات متقطعة للمدفعية ونشاطات الداورية ومعارك جوية عرضية .

شهد شهر سبتمبر ١٩٦٨ انتهاء المرحلة الأولى التى أعلنها ناصر، أى مرحلة «إعادة البناء الدفاعى». وخلال تلك الفترة، نجح السوفيت فى إعادة تنظيم الجيش المصرى واستكمال تسليحه. وخلال فترة قصيرة نسبياً، استعاد الجيش المصرى كامل قوته التى كان عليها قبل اندلاع الحرب فى يونيو ١٩٦٧، بل أصبح أكثر قوة بفضل إمداده بمعدات أحدث. فقد تحسن موقفه العسكرى كثيراً بعد إحلال المقاتلات ميج ٢١ محل ميج ١٧ و ١٩، ودبابات تى ٥٤ وتى ٥٥ محل تى ٣٤ وتى ٥٤ التى استولت عليها إسرائيل أثناء حرب الأيام الستة. وترتب على عملية إعادة تسليح الجيش هذه المزيد من التدخل السوفيتى فى مصر. فى البداية، خُصص للجيش المصرى المئات من المستشارين العسكريين، لكن عددهم أخذ يتزايد تدريجياً حتى بلغ الآلاف. وقد انصب اهتمامهم، فى البداية، على تقديم المشورة فى مجال التنظيم والتدريب، لكنهم سرعان ما صاروا يتدخلون فى جميع مجالات القوات المسلحة المصرية، بما فى ذلك العمليات. ولإدراكه لقصور القوات الجوية المصرية، ولتوقه إلى توريط القيادة السوفيتية بأكبر قدر ممكن فى الدفاع عن مصر، بلغ الأمر بناصر حداً جعله يقترح على الروس أن تتولى القوات الجوية السوفيتية قيادة عموم الدفاع الجوى عن مصر. لكن الروس، إدراكاً منهم لما يمكن أن يسفر عنه عمل كهذا على الساحة الدولية، رفضوا الاقتراح. وفى تلك الأثناء، تدفقت على مصر كميات كبيرة من العتاد السوفيتى، مكنت الجيش المصرى من استعادة قوته بعد ما أصابه من نكسات فى حرب ١٩٦٧ . وأصبح الوضع ملائماً لاستهلال المرحلة الثانية من خطة ناصر .

«الدفاع الهجومى» وخط بارليف

كانت الأضرار الاقتصادية التى حاقت بمصر، كنتيجة للحرب، فادحة. فقد اجتمع إغلاق قناة السويس، والدمار الذى أصاب مدن القناة، ناهيك عن استمرار التعبئة الكاملة لواحد من أكبر جيوش العالم، اجتمع كل ذلك ليصيب الاقتصاد المصرى بالشلل. وتقدر الخسائر الاقتصادية خلال الفترة الأولى بحوالى ٢٥٠ مليون جنيه (٧٥٠ مليون دولار). لكن المساعدات السوفيتية الضخمة لمصر، وكذلك مساعدات دول النفط العربية الغنية، التى بلغ إجماليها حوالى ٩٠ مليون جنيه (٢٥٠ مليون دولار) سنوياً، مكنت مصر من تخطى مصاعبها الاقتصادية .

استُهلت المرحلة الجديدة فى اوائل سبتمبر ١٩٦٨ . فى ذلك الحين، كان هناك حوالى ١٥٠ ألف جندى مصرى يتمركزون بطول القناة. ورأى القادة المصريون والمستشارون السوفيت أن الوقت قد حان لرفع الروح المعنوية للجيش وإزالة الآثار النفسية لهزيمة ١٩٦٧ . وتواقت التحرك مع حملة ناصر، من أجل رفع المعنويات فى البلاد ككل ولتعزيز مكانة الجيش . وساد شعور بضرورة إدخال روح جديدة - حيث كانت المعنويات فى الحضيض - فى القوات المصرية ذات العقلية الدفاعية. (تعكس أعداد الفارين من المصريين عبر القناة وتسليم أنفسهم للقوات الإسرائيلية الحالة المعنوية التى كانت عليها القوات المصرية فى ذلك الوقت.)* وفى ٨ سبتمبر ١٩٦٨، اكتشفت داورية إسرائيلية لغما شمال بور توفيق تماماً، عند الطرف الجنوبى للقناة، وقامت بتفجيره. وكان ذلك إشارة البدء لخطة نيران مصرية منسقة، بطول ٦٥ ميلا من قناة السويس. فقد قام ما يزيد على الألف من قطع المدفعية المصرية مع مدافع الهاون والدبابات بفتح سد نارى شديد التركيز على الأهداف الاسرائيلية على القناة. وبلغت خسائر اسرائيل فى هذا الهجوم المفاجىء ٢٨ بين قتيل وجريح. وعلى الجانب الآخر، اعترف المصريون بمقتل ٢٦ وإصابة ١٠٤، برغم التحذير المسبق للمدنيين ودعوتهم لالتجاء إلى المخابىء. وكان الهجوم منسقاً مع حملة إعلامية ضخمة من جانب المصريين، الذين اعتبروا الهجوم «نصراً كبيراً». وتكرر الهجوم مرة أخرى بعد عدة أسابيع، عندما فتح المصريون سداً من نيران المدفعية بطول

---

* لم ترد هذه المعلومة فى مذكرات أى من قادة الحرب الإسرائيليين، سواء فى مذكرات «دايان» أو «ايتان» أو «شارون».. أو غيرهم ممن شاركوا فى هذه الحرب. (المترجم).

القناة. لكن هجومهم توافق هذه المرة مع إنزال قامت به وحدات الكومندوز المصرية على الضفة التى تسيطر عليها اسرائيل. وقد ارتفعت الخسائر الاسرائيلية إلى ٤٩ قتيلا وجريحا. ودشن الإعلام المصرى، مرة أخرى، نصراً كبيراً .

نشر المصريون نطاقاً واسعاً من المدفعية السوفيتية التقليدية . وفى مواجهتها كانت القوات المسلحة الاسرائيلية تستخدم مدافع الهاوتزر عيار ١٠٥ مم المركبة على شاسيهات الدبابات «أ. ام . اكس» الفرنسية، وهاوتزر عيار ١٥٥ مم المركبة على شاسيهات الدبابات «شيرمان إم ٤» الأمريكية، ومدافع الهاون الاسرائيلية الصنع عيار ١٦٥ مم المركبة كذلك على دبابات «شيرمان». لكن الاسرائيليين كانوا محرومين من التفوق المدفعى الكاسح الذى حققه المصريون بفضل المدافع الروسية. (كان عدم تأكيد القيادة الاسرائيلية على أهمية المدفعية خطأ فادحاً، دفعت ثمنه باهظاً فى حرب ١٩٧٣.) وبسبب التفوق المصرى الكبير على الوحدات الاسرائيلية فى منطقة القناة، لجأ الإسرائيليون إلى استراتيجية الاقتراب غير المباشر.

ففى ليلة ٣١ أكتوبر، قام الكوماندوز الاسرائيلى المحمول فى طائرات هليكوبتر طراز sud ٣٢١ الفرنسية باختراق قلب وادى النيل، على مسافة حوالى ٢٢٠ ميلاً من أقرب نقطة تسيطر عليها اسرائيل، وهاجمت ثلاثة أهداف: كبارى قنا، ونجع حمادى على النيل، ومحطة توليد الكهرباء بالقرب من نجع حمادى. كان ذلك على مسافة حوالى ٣٠٠ ميل إلى الجنوب من القاهرة، و١٥٠ ميلا إلى الشمال من أسوان. كانت العملية انتصاراً كاملاً، وأظهرت الوهن الذى يعانيه أسفل بطن مصر. كان التحذير واضحاً: مساحات واسعة من الأرض المصرية كانت مفتوحة على مصراعيها أمام الهجوم. وفى مصر نفسها، سرت موجة من الانتقاد وجهت إلى عدم كفاءة الترتيبات الأمنية. وفى الأول من نوفمبر، بعد يوم واحد من العملية، صدرت الأوامر فى القاهرة بتشكيل ميليشيا لحماية النقاط الحيوية بالبلاد. وتوصل المصريون إلى استنتاجاتهم الخاصة من هذه العملية، فأوقفوا العمليات على القناة. وعاد هدوء نسبى مرة أخرى .

أتاح هذا الهدوء لاسرائيل الفرصة التى كانت تسعى إليها لتحسين أوضاعها الدفاعية على القناة، وإقامة التحصينات اللازمة لمواجهة سدود النيران المدفعية الكثيفة التى كانت القوات الإسرائيلية هدفاً لها. ودارت نقاشات مكثفة داخل قيادة الأركان العامة الإسرائيلية حول نوعية نظام التحصين الذى يجب إقامته على القناة. وأوكل الليفتنانت جنرال حاييم بارليف، رئيس الأركان، إلى الميجور جنرال «افراهام (برن) ادان» رئاسة طاقم خدمة داخلية لتقديم

الاقتراحات إلى قيادة الأركان، حول إقامة نظام دفاعى فى سيناء. وقبل أن يتوجه هذا الفريق إلى سيناء، قام الميجور جنرال «اشعياهو جافيتش»، رئيس عمليات القيادة الجنوبية، وقائد القوات الاسرائيلية المنتصرة فى سيناء فى حرب الأيام الستة، بدراسة المشكلات التى تواجه الدفاع عن شبه الجزيرة. وبعد أخذ الخسائر التى وقعت نتيجة للقصف المصرى فى الاعتبار، كان من الواضح أمامه أن القوات الموجودة على الجبهة ينبغى أن يتوفر لها الغطاء الملائم فى نقاط قوية؛ وكانت المشكلة التى واجهته هى : أين ينبغى وضع هذه القوات؟ .. على خط الماء، أم فى العمق بعيداً عنه؟ فبينما يؤدى الاحتفاظ بخط الماء قوياً إلى خلق سلسلة من الأهداف الثابتة تحت المراقبة المستمرة من جانب المصريين، فإنه يعطى القوات الاسرائيلية فى الوقت نفسه، ميزة المراقبة والقدرة على التعامل الفورى مع أية محاولة للعبور من جانب المصريين. وتوصل «جافيتش» إلى أنه من الحكمة الإبقاء على المواقع الموجودة على جبهة الماء، خاصة فى المناطق المحتمل العبور منها، حيث أحس أنه لن تكون هناك مشكلة أمام المصريين للعبور بطول القناة، وأن على الاسرائيليين أن يتأهبوا للرد على ذلك .

شرع «ادان» فى التخطيط للخط الدفاعى على القناة. ووضع التخطيطات الأصلية للتحصينات ، والتى يجب أن تبنى بطريقة توفر أعلى درجة ممكنة من المراقبة (المراقبة بالنظر نهاراً والالكترونية ليلاً) فى الوقت الذى يتعرض فيه أقل عدد من القوات لنيران مدفعية العدو. وقد وضع تصميمات لتحصينات فردية تتسع لخمسة عشر جنديا، تبتعد الواحدة عن الأخرى مسافة سبعة أميال ، مع داورية متحركة بينها ووضع المدفعية والمدرعات المنتشرة بالمؤخرة فى وضع الاستعداد لتدمير أية محاولة للعبور. كانت هذه التحصينات بمثابة نظام لمواقع إنذار. ولم ينظر إليها كخط دفاعى، ومن هنا جاء تحديدها بخمسة عشر جنديا، وتحديد المسافة بينها وبين تسهيلاتها الدفاعية المحدودة .

قبل «جافيتش» بخطة «دان»، بشرط تغطية جميع نقاط العبور المحتملة عند الطرف الشمالى للقناة بمجموعة من التحصينات. وقد رُفعت خطة الدفاع الاسرائيلية المرتكزة على نظام الإنذار بالقناة إلى قيادة الأركان العامة للتصديق عليها، فعارضها الميجور جنرال «ارييل شارون»، مدير التدريب بقيادة الأركان، والميجور جنرال «اسرائيل تال»، الملحق بوزارة الدفاع. واقترحا الانتشار بالمدرعات فقط على مسافة معينة من القناة، والسيطرة عن طريق نشاطات مدرعة متحركة. وقد شرح «جافيتش»، فيما بعد، موقفه من هذه المشكلة بصورة علنية. فهو يرى أن الخط يعمل وقت الحرب كسلسلة من نقاط المراقبة والتحصينات تغطى كافة المحاور المحتمل التقدم عبرها، ويمكنها أن تعوق تقدم العدو، قبل أن يصل إلى سلسلة من مواقع لواء مشاة دفاعى بقوته من المدرعات المتمركزة بطول خط الممرات، من ممر متلا فى الجنوب إلى بالوظة فى الشمال. ويمكن لهذه التحصينات أن تكون، أثناء حرب الاستنزاف وفترات وقف

إطلاق النار، مواقع للمراقبة (توفر الحماية ضد نيران المدفعية فى البداية)، كما تعمل كمراكز للإنذار والتحكم الالكترونى، وكقواعد للداوريات المدرعة. وكجزء من الدفاعات على القناة، بدأ «جافيتش» فى وضع نظام للتجهيزات النفطية، يمكن تشغيله من من داخل التحصينات لإضرام النار فى القناة. كان «جافيتش» دائماً يرى أنه إذا اعتبرنا القناة عائقا طبيعيا، فإنه لامفر من إقامة تواجد جسدى عليها. وأحد الأخطار الرئيسية التى يمكن أن تواجه اسرائيل، فى رأيه، هو أن يتحرك المصريون تحركاً مفاجئاً كى يحصلوا على موطىء قدم، مهما كان ضيقه، على الضفة الشرقية للقناة، يتبعه محاولة لوقف إطلاق نار فورى فى إطار اتفاق دولى. وحيث أن المفهوم الاسرائيلى نادى أكثر من مرة بالقيام بهجوم مضاد على أرض العدو، فقد كان ضرورياً للاسرائيليين أن يتواجدوا فى مواقع قوية على القناة نفسها، وليس التمركز فى مواقع تحتاج إلى قتال قبل الوصول إليها .

وخلال النقاش الذى تلا ذلك، لم تعد هناك أية مقترحات بترك القناة، وإنما تركز الجدل حول نوع الانتشار، مع تحبيذ الجنرال «شارون» لإقامة نظام الدفاع المتحرك بطول القناة. ومال الجنرال «بارليف» إلى نظام التحصينات، وتقدم الفريق الذى يرأسه «ادان» للإشراف على الخط الذى انتهى بناؤه فى ١٥ مارس ١٩٦٩ .

وهكذا خرج إلى الوجود ما يعرف باسم «خط بارليف». وكان بناء هذا الخط أعظم عملية هندسية تشهدها إسرائيل. وقد بذل كل جهد ممكن للاستفادة من الهدوء الذى فرضته الغارات الاسرائيلية فى عمق مصر على المصريين. وحتى من قبل الانتهاء من بناء الخط (الذى ضم تحصينات بنيت لتلائم الأطقم القتالية من كافة الأسلحة، وتمكينها من الصمود فى وجه أعنف سدود النيران المدفعية، وتراقب، فى الوقت نفسه، الضفة الشرقية لقناة السويس) بدأ المصريون يدركون دلالته. وعليه، فقد شرعوا فى إعاقة العمل على الجانب الإسرائيلى بأعمال القنص والداورية، وزرع الألغام، وغيرها من النشاطات العدوانية. وفى مارس ١٩٦٩، أصبح من الواضح أن المصريين يعدون لاستئناف المعركة على القناة، وفى منتصف مارس تزايدت سدود نيران المدفعية. وأعلن ناصر، وسط هوجة دعائية، بدء الانطلاق نحو مرحلة التحرير. وكان لها أن تستمر، دون توقف، لمدة عام ونصف العام، حتى وقف إطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠ .

الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية

يستحيل علينا تقييم التطورات على قناة السويس وخط «بارليف» بدقة دون ربط ذلك بالتطورات على حدود اسرائيل الأخرى، وخاصة حدودها مع الأردن. والحقيقة أن عدد الأعمال العدوانية ضد اسرائيل، من جانب الجيش الأردنى والجيش العراقى (المتمركز بالأردن)

ووحدات منظمة التحرير الفلسطينية، بلغ المئات. فنصف مجموع النشاطات العدوانية الموجهة ضد اسرائيل خلال ٦٨ – ١٩٦٩ تقريباً، وقع فى وادى الأردن ووادى بيت شيان. وهكذا فإن جانبا كبيرة للغاية من مجهود اسرائيل الدفاعى استنفد فى نشاطات على هذه الحدود. لكن الكثافة النسبية للنشاط العسكرى على الحدود مع الأردن، مقارنة بالهدوء النسبى على قناة السويس، خلق قدرا كبيرا من التوتر فى العلاقات العربية .

وهكذا، ظل الاسرائيليون، ولعدة شهور، يحصنون مواقعهم على قناة السويس: ينزعون خطوط السكك الحديدية عبر سيناء إلى القنطرة كي يستخدمونها فى تحصين خنادقهم على القناة، وينقلون ملايين الأطنان من التربة لإقامة خط يحمي الجنود الاسرائيليين ويقلل الخسائر إلى أقل حد ممكن. فى الوقت نفسه، كانت الجبهة الأردنية تشتعل من حين لآخر، لتنشغل القوات الاسرائيلية على تلك الجبهة. وكانت البلاد العربية تمارس ضغطها على مصر التى – برغم شعارات الحرب التى يرفعها زعماؤها عن حرب الاستنزاف – تترك الاسرائيليين يحصنون أنفسهم على القناة فى هدوء نسبي وبدون عقاب .

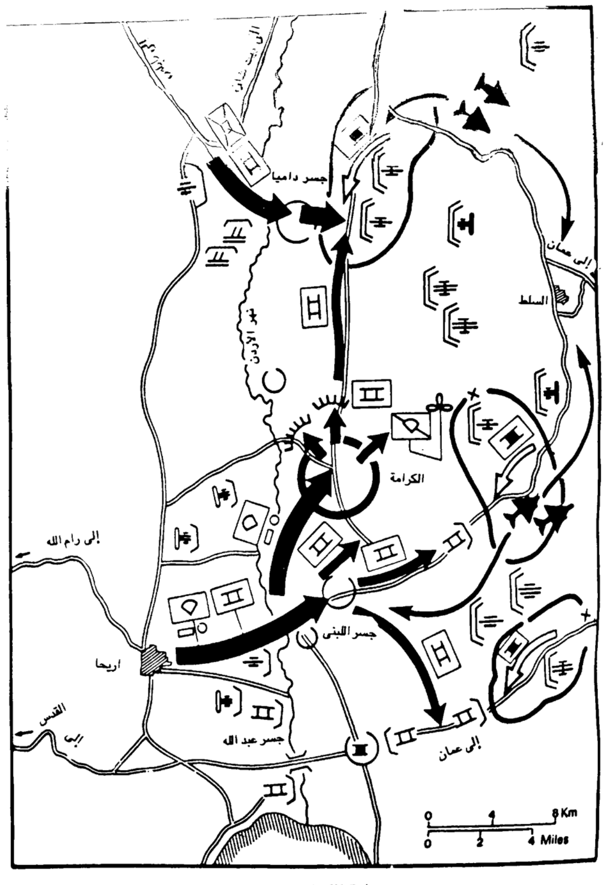
ازدادت النشاطات العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية على الحدود الأردنية. فعقب انتهاء حرب الأيام الستة مباشرة، رأت المنظمة أن الموقف أصبح مثالياً لها، وأن باستطاعة الفلسطينيين أن يعملوا من وسط كتلة سكانية تبلغ حوالى ثلاثة أرباع المليون من العرب فى الضفة الغربية، ويمكن أن تكون قاعدة لهم؛ وقدّروا فوق ذلك – نتيجة لنشاطاتهم – أنهم فى موقف يسمح لهم بتحريض السكان المدنيين بالضفة الغربية ضد الاحتلال الاسرائيلى وتوريطهم فى نشاطات معادية، والقيام بثورة فى نهاية المطاف. على أن فاعلية الحكومة العسكرية الاسرائيلية (التى كانت معتدلة) تاكدت من خلال السماح للعرب بحكم أنفسهم والعيش فى سلام وأمن، وحتى تثبت أنهم لا يؤثرون بأعمالهم على أمن اسرائيل. وقد أدت هذه السياسة، مع نظام رقابة أمنية كفء ونظام داورية فعال يتولاه جيش الدفاع الاسرائيلى فى الصحارى غير المأهولة والفراغات المكشوفة لوادى الأردن، إلى خلق موقف أصبحت منظمة التحرير معه فى وضع يتعذر الدفاع عنه. وقد تم القضاء على قواعد عملياتهم المتاحة بالضفة الغربية ، الواحدة تلو الأخرى. وهكذا لم يصبح أمام منظمة التحرير الفلسطينية إلا الرحيل عن الضفة الغربية، حيث لم يعد أمامهم أمل فى إقامة قاعدة، والانتقال إلى الضفة الشرقية للأردن. وهناك أقاموا قواعدهم، التى كانوا يشنون عملياتهم منها عبر النهر، ثم يعودون بعد الانتهاء منها .

أدت هذه العمليات، إضافة إلى تزايد الهجمات المدفعية على الداوريات الاسرائيلية فى وادى الأردن وعلى القرى الاسرائيلية والفلاحين العاملين فى حقول وادى الأردن الأعلى ووادى بيت شيان، أدت إلى خلق مشكلة عسكرية حقيقية لاسرائيل. وبعد تفجير أتوبيس مدرسة فى

مارس ١٩٦٨، قُتل وجُرح خلاله عدد من الأطفال، قرر جيش الدفاع الاسرائيلى شن هجوم على القاعدة الرئيسية التى أقامتها منظمة التحرير الفلسطينية فى منطقة الكرامة، شرقى نهر الأردن، وكذلك فى منطقة جنوب البحر الميت. وكانت قرية الكرامة قد أخليت اخلاء شبه تام من السكان المدنيين، وأصبحت مأهولة بالوحدات المتعددة التابعة للتنظيمات الإرهابية التابعة للمنظمة. هذا بالإضافة إلى تمركز العديد من مقرات القيادة بالمنطقة. وفى ٢١ مارس، انطلق جيش الدفاع الاسرائيلى نحو الكرامة. وتقدمت طلائع القوات الاسرائيلية، التى كان عليها أن تعبر نهر الأردن، بسرعة نحو الشرق : كانت مهمتها هى التصدى لأى تقدم أو رد فعل من جانب الجيش الأردنى. وعلى مدار اليوم، دارت معارك عنيفة بين القوات الاسرائيلية والمدرعات الأردنية. وكان الاستيلاء على الكرامة منوطا بقوة مظلات محمولة على عربات نصف جنزير تدعمها الدبابات. كما أُسقطت قوة مظليين إضافية بالهليكوبر لإغلاق السبيل أمام وحدات (م . ت . ف) المتقهقرة من الكرامة. وبحلول الساعة الثامنة صباحاً، كانت القوات الاسرائيلية تحكم سيطرتها على الناحية، التى وضح أنها قاعدة للمنظمة، أكبر بكثير مما كان متصوراً. وفى تلك الأثناء، كانت القوات الأردنية قد انسحبت إلى التلال، تخوض معركة ضد وحدات المدرعات الاسرائيلية، مستفيدة من تواجدها فوق المرتفعات. وابتداء من منتصف النهار، بدأت القوات الاسرائيلية انسحابها، واكتمل انسحابها من الضفة الشرقية بحلول الساعة الثامنة مساء. كانت المعركة شرسة، ارتكبت القيادة الاسرائيلية خلالها عدداً من الأخطاء التكتيكية؛ إلا أنه، بالرغم من ذلك، تم إنجاز الهدف من وراء العملية.

على التوازى مع هذه العملية، كانت هناك عملية أخرى تدور جنوبى البحر الميت ضد قرية الصافى الأردنية وبعض المواقع القريبة منها. وخلال عمليات ذلك اليوم (٢١ مارس) فقد الجيش الأردنى ٤٠ قتيلا وفقدت (م . ت . ف) حوالى ٢٠٠ قتيل، غير ١٥٠ آخرين نقلوا إلى إسرائيل لاستجوابهم للاشتباه فى انتمائهم للمنظمة . وقد بلغت الخسائر الاسرائيلية ٢٨ قتيلا و ٦٠ جريحاً، وفقد أربع ودبابات وعربتين مدرعتين وسقوط طائرة، فى الوقت الذى نجح قائدها فى الهبوط بالمظلة سالماً.

كشفت عملية الكرامة عن ضعف وحدات (م .ت .ف) المنتشرة على نهر الأردن، فقامت المنظمة بنقل تجمعاتها إلى الجبال. وقد زاد هذا من القيود المفروضة عليهم، وجعل عملياتهم فى الضفة الغربية أكثر صعوبة عن ذى قبل. وقامت القوات الجوية الاسرائيلية بقصف تمركزاتهم بمنطقة «السلط»، مما أجبرهم على تحريك قواعدهم بعيداً نحو الشرق، وإلى أعلى نحو الجبال، للانتشار فى قواعد أكثر عدداً والاحتماء من الهجمات الاسرائيلية بمحاولة التمركز وسط تجمعات السكان المدنيين الأردنيين. وقد أدى هذا فى النهاية إلى تزايد الاحتكاك



عملية الكرامة، ٢١ مارس ١٩٦٨

بين الإرهابيين والأردنيين، وكان له أن يؤثر على مجرى الأحداث التى أدت إلى وقوع الانفجار بين وحدات (م . ت .ف) فى الأردن، وبين القوات المسلحة الأردنية.

كان لنجاح نشاطات القوات المسلحة الاسرائيلية فى منع اختراق الوحدات الإرهابية عبر نهر الأردن، وكذلك العمليات الهجومية للقوات الاسرائيلية ضد تلك التجمعات التابعة للمنظمة أثرها، فتناقصت العمليات التى تقوم بها وحدات المنظمة إلى حد كبير. لكن القصف والإغارات بالمدفعية وصواريخ كاتيوشا استمرت. وتحولت العديد من هذه الأعمال إلى اشتباكات متبادلة كبيرة، حيث قامت المدفعية الاسرائيلية بقصف مراكز سكانية بعيدة، مثل «مدينة إربد» بشمال الأردن. وعند أواخر عام ١٩٦٨ ، اشتركت مدفعية الحملة العراقية البعيدة المدى أيضاً فى قصف مراكز سكانية مدنية داخل اسرائيل. وتوالت المبارزات المدفعية، وفى النهاية قام الطيران الاسرائيلى بالإغارة على القوة العراقية، وأسفر الهجوم عن مقتل ثمانية وجرح ١٤ من العراقيين، مع إصابات بالغة فى المعدات والمركبات .

ويمكن قياس حجم هذه الأعمال العدوانية ضد اسرائيل على حدودها المتعددة إذا علمنا أنه فيما بين سبتمبر ١٩٦٨ - مارس ١٩٦٩، وقع حوالى ٥٣٤ من مثل تلك الأعمال؛ منها ١٤٩ من جانب الأردن و١٢٣ بقطاع غزة. وهناك ٢٩ فقط بالضفة الغربية، و ٤٧ على قناة السويس.

على أن (م . ت . ف) قامت فى الوقت نفسه، بهجمات إرهابية على أهداف اسرائيلية بالخارج، بدأت باختطاف طائرة شركة العال، وإنزالها فى الجزائر فى يوليو ١٩٦٨. وهكذا بدأ شكل جديد نسبياً من إرهاب دولى محدود، وبمرور الوقت، لم يعد قاصراً على أهداف اسرائيلية فقط، فقد تبنته منظمات إرهابية على مستوى العالم. (وهو تطور ظل يمثل تهديداً حقيقياً للمجتمع فى أنحاء العالم الحر). وكان على منظمة التحرير الفلسطينية أن تعمل كقوة مركزية عملياتية لتدريب وتدعيم العديد من المنظمات الإرهابية التى ابتلى بها العالم الحر، فيما تلى ذلك من أعوام. وقد قام بتمويل هذه النشاطات الإرهابية ، بالأساس، نظام العقيد معمر القذافى فى ليبيا .

كانت هذه الأنشطة تتم على الأرضية السياسية التى أوجدتها الموافقة على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧. فهذا القرار يؤكد، ضمن أشياء أخرى، على أن الالتزام بمبادىء ميثاق الأمم المتحدة يستوجب إقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط، الذى ينبغى أن يشمل تطبيق المبدأين التاليين :

١ - انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراض احتلتها أثناء الصراع الحالى .

٢ - إنهاء كافة مظاهر وأشكال حالة الحرب، والإقرار بالسيادة والحدود الاقليمية،

واحترام الاستقلال السياسى لجميع دول المنطقة، وحقها فى العيش فى سلام ضمن حدود آمنة، ومعترف بها، متحررة من التهديد أو أعمال القوة .

والقرار يكلف الأمين العام للأمم المتحدة بتعيين ممثل خاص لتطبيق مواد القرار؛ ووقع الاختيار على دبلوماسى سويدى هو «جوناريارنج»، الذى ظل يتنقل، على مدى العامين التاليين، بين عواصم الشرق الأوسط المختلفة لتنفيذ القرار. وذهبت جهوده سدى، لكن القرار نفسه، والذى قبلته كل من مصر والأردن من الجانب العربى، واسرائيل، قدم فى النهاية الأساس لإنجاز أول معاهدة سلام فى الشرق الأوسط، وذلك فى عام ١٩٧٩.

مرحلة « التحرير »

فى مارس ١٩٦٩ ، انفجر الهدوء النسبى الذى ساد قناة السويس منذ أكتوبر ١٩٦٨. فقد قامت عدة طائرات مصرية بانتهاك المجال الجوى الاسرائيلى للاستطلاع، فأُسقطت إحداها. وأعقب ذلك تبادل القصف المدفعى المركز، شمل القناة بطولها فى اليوم الثانى، حيث قتل رئيس الأركان المصرى، الجنرال «عبد المنعم رياض»، وبعض ضباط أركانه الذين كانوا يشرفون على الهجوم الجديد من موقع متقدم. ومرة أخرى، يتكبد الطرفان الخسائر، وتتعرض المدن المصرية والسفن الراسية بخليج السويس لدمار كبير. وبعد هدوء قصير لعدة أسابيع، واصل المصريون حرب الاستنزاف فى ١٠ أبريل ١٩٦٩، والتى استمرت على مدى ١٦ شهراً دون توقف .

عند هذا الحد، أعلن الرئيس ناصر أن مصر لم تعترف أو تلتزم بوقف إطلاق النار الذى كان سارياً منذ ١٩٦٧. وقد سبق لناصر أن أكد فى خطاب أول مايو أن ٦٠٪ من خط «بارليف» قد دمرته النيران المصرية، وأن الجيش المصرى ينتقل الآن من مرحلة الدفاع النشط إلى مرحلة التحرير. ومن جديد تواصلت حرب الاستنزاف بشكل عنيف .

كانت السياسة المصرية ترتكز على ما اعتبره المصريون مواطن ضعف أساسية فى الشخصية القومية الاسرائيلية والمنظور العسكرى الاسرائيلى. فقد كانوا على قناعة بأن القوة الحقيقية للقوات المسلحة الإسرائيلية تتبدى دائماً فى القتال المتحرك، التى تعد السرعة والقدرة على المناورة من أسسه الجوهرية، وتوصل المصريون إلى أن جيش الدفاع الاسرائيلى يفقد تفوقه فى حرب استنزاف استاتيكية، تفقد فيها القدرة على المناورة قيمتها، وتحقق مصر فيها تفوقا ملحوظا على إسرائيل فى السلاح الرئيسى لهذه الحرب، أى المدفعية. وكان المصريون على علم كذلك بالحساسية المفرطة للشعب الاسرائيلى لفقد القوة البشرية. وأدركوا أنه بواسطة النزح المستمر للقوة البشرية عن طريق حرب الاستنزاف، من الممكن إصابة إسرائيل فيما اعتبروه كعب أخيل. ومن هنا، كان هدفهم هوإنهاك جيش الدفاع الإسرائيلى عن طريق

الهجمات المتواصلة، والتأثير، بالتالى، فى الروح المعنوية لكل من القوات المسلحة والمواطنين فى الداخل؛ وتدمير أكبر قدر ممكن من عتاد اسرائيل الحربى، وتحميل الاقتصاد الاسرائيلى أكبر قدر ممكن من الأعباء. كان لهذا الوضع - فى اعتقادهم - أن يضعف من قوة اسرائيل إلى الحد الذى يمكن أن يؤدى، إن آجلاً أو عاجلاً، إلى موقف يصبح من الممكن معه لقوات مصرية منتقاة أن تعبر القناة وتقيم رأس جسر على الضفة الشرقية. وفوق ذلك، كان هناك اعتبار آخر هو أن استمرار الحريق على القناة يجعل القضية حية فى الأمم المتحدة، فيتزايد، من ثم، *الضغط السياسى على اسرائيل.*

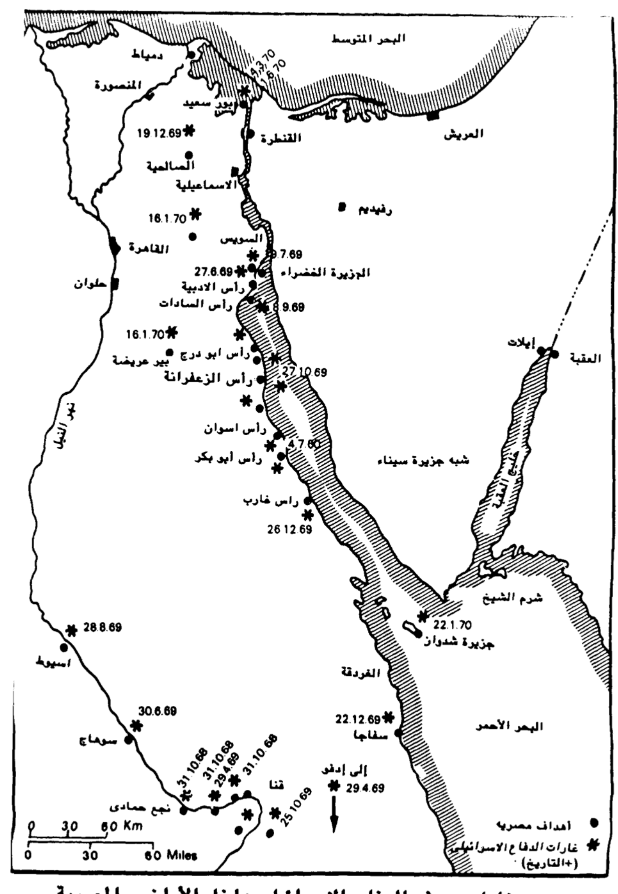
فى مواجهة ذلك، أعلنت اسرائيل عن سياستها، والتى كانت النفقات الباهظة التى أنفقتها على «خط بارليف» على القناة - بنظامه المعقد من التحصينات وتسيير الداوريات والحوائط الرملية والمداخل ومراكز التحكم السرية ومواقع الدبابات والمدفعية المقامة على أساس تحقيق التعاون المتبادل - خير تعبير عنها. وكان المبدأ الأساسى فى الدفاع الاسرائيلى هو ضمان السيطرة الكاملة على خط الماء بطول القناة، والتواجد فى موقع يمكن منه صد أى محاولة مصرية لعبور القناة، أو إقامة رأس جسر. وكان الغرض الثانى من وراء مثل ذلك النظام الدفاعى هو التقليل من حجم الخسائر التى يمكن أن تتكبدها اسرائيل إلى أدنى حد ممكن. ولهذا الغرض، فقد أقيمت التحصينات الاسرائيلية بحيث تتحمل أعنف سدود النيران المصرية المحتملة. وفوق ذلك فقد جاء الانتشار الجديد بحيث يمكن لاسرائيل أن تشن «حرب استنزاف مضادة» ضد المصريين وإجبارهم على العودة إلى قبول وقف إطلاق النار . لكن ، وكما تنبأ المصريون، فإن هذه السياسة جعلت ألاسرائيليين يتحولون إلى استراتيجية للدفاع الاستاتيكى لم يعتادوها، بدلاً من التكتيكات القائمة على السرعة والقدرة على المناورة التى أهلُوا أنفسهم عليها من حيث المبدأ. وهكذا استمر البناء فى خط القناة. وقد شمل ذلك بناء ساتر رملى، صُمم لمنع المصريين من مراقبة التحركات والاستعدادات الاسرائيلية على القناة. وقد أزعج المصريون قوات *المهندسين الاسرائيليين، التى كانت تحاول استكمال الحائط*، بغارات متكررة، مما اضطر الاسرائيليين إلى جرّ سلسلة من عربات السكك الحديدية إلى الموقع وملئها بالأتربة واستخدامها كأساس للساتر. وفى هذه المرحلة، تبنى كلا الطرفين سياسة نشطة، فكان كل طرف يرسل الداوريات إلى الطرف الآخر. وقد أحبطت محاولة قام بها الكوماندوز المصريون للاستيلاء على أحد التحصينات الاسرائيلية.

استمر تبادل القصف المدفعى على القناة ، ووقوع الخسائر فى صفوف الجانبين . وبسبب قوة تحمل التحصينات الاسرائيلية، فشلت المدفعية المصرية فى اختراق أو تدمير أياً منها.

ومن هنا، لجأ المصريون إلى سياسة القصف المستمر لكل ما ينبىء بالحياة أو الحركة على القناة، بهدف جعل حياة القوات الاسرائيلية صعبة قدر الإمكان ، وإحداث أكبر قدر ممكن من الأضرار. ولذا، فقدد عادت اسرائيل إلى سياسة الاقتراب غير المباشر، لتنفذ غارات كوماندوز جزئية فى عمق الأراضى المصرية. فقطعوا خطوط الضغط العالى بين أسوان والقاهرة، وقاموا بهجومهم على قناطر نجع حمادى، وأحد الكبارى القريبة من ادفو، وعلى قواعد بحرية مصرية فى رأس الأدبية على الساحل الغربى لخليج السويس. وقد قتل فى إحدى تلك الغارات ٢٩ جندياً مصرياً .

تبنى المصريون، بالمقابل، استراتيجية نشطة للعمليات الهجومية، كانت تنفذ بمعدل متزايد على الجانب الشرقى من القناة الذى تسيطر عليه اسرائيل. وقد بُثت الألغام وعبرت الوحدات لعمل الكمائن للداوريات والتحركات الاسرائيلية على طريق الشمال – الجنوب الموازى للقناة. وفى يوليو، نجحت إحدى هذه المحاولات المصرية المتكررة فى اختراق معسكرات اسرائيل للدبابات جنوبى بور توفيق، وأحدثت إحدى عشر إصابة . وفى خلال تلك المرحلة، وفى ٢٤ مايو ١٩٦٩، أُسقطت طائرة ميج ٢١ مصرية كانت تطير على ارتفاع ٢٢ ألف قدم بواسطة صاروخ اسرائيلى أرض – جو من طراز «هوك». وكانت هذه هى المرة الأولى فى صراع الشرق الأوسط التى يستخدم فيها صاروخ «هوك» فى إسقاط طائرة معادية؛ وهذا الصاروخ، الذى تستخدمه إسرائيل منذ ١٩٦٤، أدخل إلى نظام الدفاع الجوى الأمريكى للمرة الأولى فى ١٩٥٩.

بحلول يوليو ١٩٦٩، أصبح واضحاً أمام القادة الإسرائيليين أن خطتهم المضادة لم تحدث الأثر المطلوب منها، ومن هنا تقرر اتباع نهج جديد. وكان هذا يتضمن الردع الجوى الواسع النطاق مع مضاعفة عدد الطائرات بصورة غير مسبوقة. وفى ١٩ يوليو، قامت القوات الاسرائيلية بالهجوم على الجزيرة الخضراء، وهى جزيرة اصطناعية حصينة شمال خليج السويس، بنيت فى الأصل لحماية مداخل السويس. وهى مبنية كقلعة قوية التحصين، وكان يتولى الدفاع عنها حوالى مائتين من الجنود المصريين، وتظهر تحصيناتها من الواجهة. ونجح الكوماندوز الاسرائيليون فى الهبوط فوق الجزيرة، ومن خلال عمل يتصف بالجرأة الشديدة – واحد من أكثر الأعمال جرأة وصعوبة فى تاريخ جيش الدفاع الإسرائيلى، مفعم بأعمال البطولة – أمكن الاستيلاء على الحصن. وقد تكبد المدافعون المصريون خسائر كبيرة، مقابل ١٦ قتيلاً وجريحاً من الجانب الإسرائيلى؛ وقد نجحت القوة المهاجمة فى تفجير القلعة ومنشآتها ثم انسحبت.



غارات جيش الدفاع الاسرائيلى داخل الأراضى المصرية

«المدفعية الطائرة»

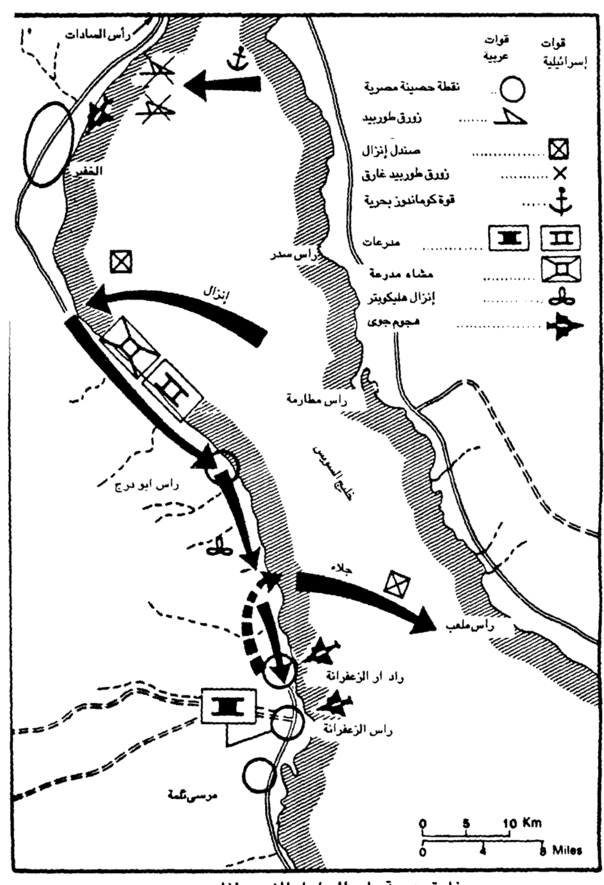
كانت أكثر التغيرات فى السياسة الاسرائيلية دلالة، من منظور عسكرى، هو القرار الذى اتخذ بالدفع بالقوات الجوية إلى المعركة واستخدامها كـ «مدفعية طائرة»، بدلاً من تقوية المدفعية الأرضية *. وقد ثبت فيما بعد الخطأ الفادح لهذه السياسة، فالتصورات المسبقة التى أعطت اهتماماً كبيراً للمدرعات والطيران بدلاً من إقامة قوة متوازنة، أسفرت عن نتائج دفعت اسرائيل ثمنها غالياً فى حرب يوم كيبور ١٩٧٣. وبينما كانت هذه السياسة غلطة كبرى فى الحسابات الاسرائيلية، من المنظور الاستراتيجى، وعلى المدى البعيد، فقد حققت على المدى القصير نجاحاً تاماً. لقد أدت، على المدى البعيد، إلى إحداث اختلال فى التوازن بين عناصر جيش الدفاع الاسرائيلى؛ وعدم الاهتمام الكافى بأسلحة الدعم، مثل المدفعية والمشاة المدرع. واستمر التفوق المصرى فى المدفعية كعامل أساسى فى توازن القوى .

كان من المحتم أن تؤدى العمليات الجوية الإسرائيلية إلى رد فعل جوى مصرى، واشتباكات جوية فوق القناة . وفى خلال شهر يوليو ١٩٦٩، تم إسقاط خمس طائرات مصرية: اثنتان ميج ٢١ وواحدة سوخوى إس يو ٧ واثنتان ميج ١٧ (الاثنتان الأخيرتان بالمدفعية المضادة للطائرات). وكانت الأهداف الإسرائيلية الرئيسية هى مواقع المدفعية المصرية وقواعد صواريخ سام ٢ أرض – جو التى تحميها. وخلال أقل من شهرين من بدء الهجوم الجوى الاسرائيلى، قامت القوات الجوية الاسرائيلية بما يزيد على الألف طلعة على مصر، مقابل مائة طلعة مصرية فى نفس الفترة، فقد الاسرائيليون خلالها ثلاث طائرات مقابل ٢١ طائرة خسرها المصريون .

فى تلك الأثناء، كانت الحرب محتدمة على طول القناة. وشهدت الضفتان أعمال القنص والداوريات والكمائن والقصف المتقطع، والخسائر المتبادلة. وفيما بين ٨ – ١١ سبتمبر ١٩٦٩، قام الاسرائيليون، مرة أخرى، بعملية غير عادية فى حجمها وطبيعتها. وقد بدأت العملية بإغراق رجال الضفادع البشرية الاسرائيلية لاثنين من زوارق الطوربيد المصرية بمرساها برأس السادات على خليج السويس. وفى اليوم التالى، أبحرت حملة خاصة مكونة من كتيبة

---

* كانت الطائرة الأساسية التى استخدمها الإسرائيليون فى هذا الدور هى الطائرة سكاى هوك ٤ .أ. ماكدونالد دوجلاس .



غارة مدرعة على الساحل الغربى لخليج السويس، ٩سبتمبر ١٩٦٩.

مدرعات عبر خليج السويس على زورق لإنزال الدبابات، قاصدة الساحل المصرى فى واحدة من أبرع العمليات التى قام بها جيش الدفاع الإسرائيلى: غارة مدرعة فى عمق مصر . فعند فجر يوم ٩ سبتمبر ١٩٦٩، نزلت الحملة المدرعة عند «الدير»، على الشاطىء الغربى لخليج السويس، لتفاجىء المصريين مفاجئة تامة. ولم يصدر عن الوحدات المصرية أى رد فعل، لأن آخر شىء تتوقعه هو أن تلتقى بقوات إسرائيلية على ناحيتها من الخليج. وقد ثبت ضعف السيطرة والتنسيق بين القوات المصرية على الخليج، وهى حقيقة استغلها المهاجمون الإسرائيليون إلى أقصى حد. وبحلول الصباح الباكر، بلغت القوة هدفها الرئيسى، وهو معسكر حربى يعرف باسم «رأس أبو درج» وفى مجرى الهجوم، الذى كان يظاهره هجوم جوى اسرائيلى، واصلت القوة سيرها جنوباً نحو رأس الزعفرانة، حيث قامت بتدمير المزيد من مواقع الرادار. وبعد ذلك نزلت القوة الاسرائيلية إلى الصندل، وعادت إلى قاعدتها فى سيناء بسلام .

أحدثت هذه الغارة صدمة شديدة للمصريين ، وأكدت من جديد على ضعف النظام الدفاعى المصرى، وعلى أن اسرائيل لا تلتزم بالقتال من خطوط ثابتة. فعلى مدار ما يزيد على عشر ساعات، عملت القوة المدرعة الإسرائيلية داخل الأراضى المصرية، بعد أن عبرت حوالى ٣٠ ميلا ودمرت ١٢ موقعاً ومحطة إنذار، وكبدت القوات المصرية فوق المائة إصابة . لقد كانت أكثر العمليات جرأة، جيدة التخطيط، مع درجة عالية من التنسيق بين الأسلحة المشاركة. وعندما بدأ المصريون يدركون ما حدث على حقيقته، كانت القوة الاسرائيلية المنتصرة فى طريق عودتها إلى سيناء. وأصيب ناصر نفسه بنوبة قلبية بعد هذه العملية، وجرت تغييرات كبيرة فى القيادة المصرية، شملت إبعاد رئيس الأركان وقائد البحرية.

مع استمرار حرب الاستنزاف، زاد عدد المعارك الجوية. وفى ١١ سبتمبر، فقد المصريون ١١ طائرة (سبع من طراز ميج ٢١، وثلاث سوخوى إس . يو ٧ إس، وطائرة ميج ١٧)، مقابل طائرة اسرائيلية واحدة. وواصل المصريون هجمات الكوماندوز عبر القناة، والاشتباكات المدفعية، وقام الاسرائيليون بعدد من الغارات طويلة المدى على صعيد مصر .

ولاشك أن أكثر عمليات تلك الفترة إثارة هو الهجوم على محطة الرادار برأس عرب *، لا بهدف تدمير الموقع، وإنما الاستيلاء على المعُدة التى تزن سبعة أطنان، ونقلها. فقد كان الحصول على أحدث الرادارات الروسية، من طراز بى ١٢، شيئاً ثميناً بالنسبة للإسرائيليين والقوى الغربية فى مجال الحرب الالكترونية المضادة. وقد عبرت القوة الإسرائيلية خليج

* هكذا يكتبها المؤلف ، والمقصود رأس غارب (المترجم) .

السويس إلى مصر، على متن طائرات هليكوبتر «إتش. سى ٥٣»، وبلغت منطقة محطة الرادار. وقامت القوة الجوية بضرب أهداف بمنطقة مجاورة للتضليل، بينما شقت القوة المغيرة طريقها نحو موقع الرادار. وتغلبت القوة المهاجمة على الحامية المصرية، فقتلت البعض، وأسرت البعض الآخر. ثم، وفى سباق مع الزمان، انهمكت المجموعة فى تخليص الكرافانات المحمل عليها الرادار، والتى كان جزء منها مدفوناً فى الأرض؛ ورُبطت المقطورة الرئيسية بحبل خاص من الصلب إلى إحدى طائرات الهليكوبتر، ورُفعت المقطورة الثانية بواسطة طائرة أخرى. ونجحت الطائرتان بصعوبة كبيرة فى نقل المعدّة الثقيلة إلى الشواطىء الشرقية لخليج السويس. وللمرة الأولى، تحظى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية (وعدد من البلدان الغربية) بنظرة قريبة على محطة رادار روسية من طراز «بى ١٢» .

قدمت الأيام الأولى من عام ١٩٧٠، دليلاً واضحاً على أن الاستراتيجية الاسرائيلية للاستنزاف المضاد قد بدأت تحدث أثرها فى المصريين. وقد أفقدت الغارات الاسرائيلية الشجاعة القيادة المصرية توازنها إلى حد ما، وبدأ الاستخدام الكثيف للطيران يؤتى ثماره. ونشّط المصريون من نظام صواريخهم أرض – جو، من طراز سام ٢ السوفيتية، ولكن، ولثلاث مرات خلال الفترة ما بين بدء الهجوم فى يوليو ١٩٦٩ ويناير ١٩٧٠، نجحت القوات الجوية الاسرائيلية فى تدمير جانب كبير من نظام الدفاع الجوى المصرى. وكانت الطائرات الاسرائيلية قد أخذت فى التوغل طولاً وعرضاً داخل مصر، وضرب أهداف مصرية فى العمق. وكان أثر ذلك على الرأى العام ملحوظاً، وأصبح التأثير الداخلى على نظام ناصر موضع اهتمام منه. وفى الكرملين وفى كل مكان من أرجاء الامبراطورية السوفيتية، بدأوا يراقبون بمزيد من الاهتمام عمل المعدة الغربية، التى يقودها طيارون اسرائيليون، ضد نظام دفاع جوى شبيه بذلك الذى يحمى الكتلة الشيوعية فى مواجهة الغرب، ويفلتون دون عقاب. وكان تأثير الضربات التى توجهها القوات الاسرائيلية إلى نظام الدفاع الجوى المصرى، السوفيتى المصدر، موضع مراقبة المؤسسات العسكرية فى الكتلة السوفيتية. لقد ضرب الاسرائيليون مواقع القناة بعنف. وخلال الفترة موضع الحديث، فقدت مصر ٤٨ طائرة، مقابل خمس طائرات اسرائيلية. وأمسك الاسرائيليون بزمام المبادرة. ومع استمرار الهجوم الاسرائيلى، أصبح رد الفعل اليائس من جانب الرأى العام المصرى ملحوظا، حتى فى التقارير المصرية إلى الاتحاد السوفيتى .

حقق الهجوم الاسرائيلى المضاد، فى مواجهة حرب الاستنزاف التى شنها المصريون

والبلاد العربية الأخرى - انتهاكاً من جانبها لاتفاق وقف إطلاق النار - نجاحاً كبيراً في مرحلته الأولى، وبالتحديد في الفترة من يوليو إلى سبتمبر ١٩٦٩. وخلال تلك الفترة، حقق الاسرائيليون، بعد عدد من المعارك الجوية الحاسمة، سيادة جوية مطلقة. وقد تبع ذلك المرحلة الثانية، التى استلزمت تدمير أنظمة الرادار والصواريخ المضادة للطائرات، لإعطاء اسرائيل تفوقا نسبيا في المجال الجوى المصرى. وكانت المرحلة الثالثة مرحلة نفسية بالأساس، تستهدف نقل حقائق الموقف إلى المواطن المصرى العادى، عن طريق الهجوم على المحطات العسكرية القريبة من القاهرة والمدن الأخرى، والأهم من ذلك، نقل تلك الهجمات إلى الخط الثانى للقوات المصرية، بما في ذلك تشكيلات الاحتياط والوحدات التى لم تتأثر تأثيراً مباشراً بالقتال الدائر على القناة. وقد بدأت هذه المرحلة في ٧ يناير ١٩٧٠.

كانت تطورات القتال على قناة السويس، حيث أصبح الطيران الاسرائيلى طليقاً نسبياً في الأجواء المصرية، وحيث نظام الدفاع الجوى المصرى يعانى قدراً كبيراً من الدمار، وحيث صار لاسرائيل، تدريجياً، اليد الطولى في حرب الاستنزاف، كان كل ذلك خافياً على الرأى العام المصرى بفضل صحافة وإعلام موجه. وكان هدف الهجوم الاسرائيلى الجديد هو إعلام الرأى العام المصرى في الداخل بالحقائق، ومن ثم تصعيد الضغط على النظام من أسفل لإعادة العمل بوقف إطلاق النار. وقد شنت الطائرات الاسرائيلية غارات على أهداف في عمق مصر، بما فيها مستودعات إمداد وذخيرة، ومقرات قيادة، ومراكز تدريب عسكرى، وكلها في نطاق ٢٥ ميل من القاهرة. وقد هوجمت هذه الأهداف المرة تلو الأخرى، وتكرر تحذير المواطنين في عاصمة مصر من الغارات الجوية. وشيئاً فشيئاً، أدرك الرأى العام المصرى أن القوات الجوية الاسرائيلية تعمل بحرية في سماء مصر.

وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الغارات تدور في عمق مصر، كانت المعركة على القناة وخليج السويس تسير بصورة متقطعة. وفى ٢٢ يناير، قامت وحدات القوات الاسرائيلية بالهجوم على جزيرة شدوان، التى تبعد عن شرم الشيخ بحوالى ٢٠ ميلاً عند المضايق التى تربط خليج السويس بالبحر الأحمر، واستولت عليها. وقُتل أثناء المعركة ٣٠ جندياً مصرياً وأسر عديد غيرهم، بينما غرق اثنان من زوارق الطوربيد المصرية من طراز بى ١٨٣. وبعد احتلال الجزيرة لثلاثين ساعة، انسحبت القوة الاسرائيلية، حاملة معها جميع المعدات العسكرية بالجزيرة، بما فيها محطة الرادار بعد تفكيكها، و٦٢ أسيراً. وكانت الخسائر الاسرائيلية ثلاثة من القتلى وستة من الجرحى. والحقيقة أن تلك الهجمات كان لها أثرها المؤكد

على كافة المستويات، وانخفضت خسائر القوات الاسرائيلية على الجبهة فى شهر يناير ١٩٧٠، مقارنة بأى شهر آخر منذ بدء حرب الاستنزف: ستة قتلى فقط. وبدأت تظهر نغمة اهتمام متزايد فى البيانات العامة المصرية، واستنجد ناصر بالاتحاد السوفيتى .

السوفيت وصواريخ سام

فى ديسمبر ١٩٦٩، وصل رئيس أركان القوات المضادة للطائرات السوفيتى لتقصى الموقف المعقد، إلى حد ما، والناجم عن فشل الأسلحة السوفيتية فى صدّ الغارات الجوية الاسرائيلية. وفى يناير ١٩٧٠، قام ناصر بزيارة سرية إلى موسكو، ليؤكد على خطورة ما وصل إليه الموقف، وطلب المزيد من المساعدة السوفيتية؛ وطرح خلال تلك الزيارة، المعضلة العسكرية التى يواجهها المصريون، وكذلك المشكلات التى يمكن أن يتعرض لها نظامه إذا ما قدر للهجمات الاسرائيلية أن تستمر. وكانت الاستجابة السوفيتية فورية وبلا تردد. والحقيقة أن السوفيت استغلوا الوضع اليائس لناصر فى دفع خططهم الخاصة من أجل المزيد من التدخل فى المنطقة. وبحلول منتصف فبراير، وصل حوالى ١٥٠٠ سوفيتى مع أحدث معدات الدفاع الجوى ، بما فيها صواريخ سام ٣ الجديدة. وكان السوفيت، لا المصريون، هم الذين يتولون تشغيل هذه الصواريخ العالية القدرة، ووضعت فى منطقة القناة والعمق المصرى. وقد تزايد عدد القوات السوفيتية فى مصر وبلغ ١٥ ألفا، يعملون فى الدفاع الجوى، وتشغيل الصواريخ والقواعد الجوية، وأوكلت إليهم مسئولية حماية العمق المصرى الاستراتيجى، بالصواريخ، فى البداية، ثم بالطائرات التى يقودها الروس بعد ذلك . وهكذا نشأ موقف جديد يحيل الاختراق الاسرائيلى للأجواء المصرية إلى اشتباك مع قوات سوفيتية. وكان الصاروخ سام ٣ مصمما بالأساس للعمل ضد الطيران المنخفضة؛ ويمكن حمله على قاعدة متحركة أو فى مخابىء تحت الأرض قوية التحصين. ولأنه متمّم للصاروخ سام٢، الأبعد مدى، فقد نجح فى سد العديد من ثغرات نظام الدفاع الجوى المصرى، وصعّب كثيراً من مهمة القوات الجوية الاسرائيلية .

وخلال هذه الفترة من أوائل عام ١٩٧٠، اشتدت المعارك وأعمال الداورية على الجانبين، وزرع الألغام والإنهاك المدفعى فى جميع القطاعات، وخلال شهر فبراير نجح رجال الضفادع المصريين، المنطلقين من العقبة بالأردن، فى إغراق سفينة وإصابة زورق آخر كان راسياً بميناء «ايلات» بجنوب اسرائيل؛ كما نجحت داورية مصرية، كانت تدارس نشاطها فى العمق، فى

أسر اثنين من الموظفين العاملين بالمخازن الاسرائيلية، وقامت وحدة اسرائيلية بعبور القناة عند الكاب، جنوب بور سعيد، وهاجمت بطاريات ودشم مدفعية. وفى أوائل الشهر، تعرضت داورية اسرائيلية مشتركة من المدرعات والمشاة، كانت تعمل على الضفة الشرقية لقناة السويس، لكمين من داورية مصرية اتخذت مواقعها على الجانب الاسرائيلى من القناة. وقد قتل قائد القوة الإسرائيلية وأربعة من رجاله، وأعقبت ذلك معركة قصيرة. وبعد ذلك بأيام، اشتبكت داورية إسرائيلية مع وحدة استطلاع مصرية توغلت حتى ممر متلا: وقع جميع أفراد المجموعة المصرية بين قتيل وأسير. وفى الوقت نفسه، قام الطيران المصرى بغاراته «الخاطفة» عبر القناة، وفى إحدى هذه الغارات أصيب ١١ إسرائيلياً. وقد أدى النشاط المتزايد فوق منطقة القناة إلى عدد من الاشتباكات الجوية، خلال شهر فبراير، سقط خلالها ثمانى طائرات مصرية واثنتين إسرائيليتين. وشهد شهر مارس تزايد حدة القتال، وفقد المصريون ١٢ طائرة فى معارك جوية.

فى تلك الأثناء، نشطت عملية «السفيتة» *، مع وصول قوات سوفيتية إضافية إلى مصر، وتزايد نشاط وفاعلية نظام الدفاع الجوى الجديد. وكانت هذه التطورات نتيجة طبيعية للسياسة السوفيتية التقليدية، التى قادت إلى حرب الأيام الستة، ووقفت فى وجه أى حل وسط يقدمه العرب للتفاوض مع اسرائيل. كان الاتحاد السوفيتى يحقق أحد أهدافه الاستراتيجية: تواجد قواته فى البحر المتوسط والممر الاستراتيجى الحيوى، ليتحكم بذلك فى الوصلة الرئيسية بين البحر المتوسط والمحيط الهندى. ولقد أدت التطورات فى مصر إلى خلق أوضاع ملائمة يمكن فى ظلها تحقيق الهدف الاستراتيجى السوفيتى، وخاصة فى ظل المواجهة مع الصين، التى أضفت على المحيط الهندى أهمية إضافية فى إطار النمط الاستراتيجى العام. وفى محاولة للضغط على المصريين، وحثهم على قبول وقف إطلاق النار، اقترح «موشى دايان»، وزير الدفاع الاسرائيلى، أمام اللجنة الوزارية للدفاع أن تقوم اسرائيل بغارات جوية على قواعد الجيش فى داخل مصر. وحسب ما يورد «ديان»، فقد أدت هذه الغارات، التى تمت خلال يناير وفبراير ومارس ١٩٧٠، إلى خفض الروح المعنوية، ووضعت ناصر فى مأزق، إذ أدرك، من ناحية، أن جيشه ليس فى وضع يمكنه من منع العمليات الاسرائيلية، كما أنه غير مؤهل، من ناحية أخرى، لإعلان وقف إطلاق النار، والدخول فى مفاوضات سلام مع إسرائيل. وفى مذكراته، يشير «دايان»** إلى أن ناصر طار بعد ذلك إلى موسكو، وطالب الروس

Sovietization **

Moshe Dayan , The Story of My Life , P 449 , 1976 . *

بإرسال قوات سوفيتية . وهو بذلك يؤكد على أن القصف الاسرائيلى للعمق المصرى كان السبب وراء دخول القوات السوفيتية إلى مصر بأعداد كبيرة .

من المنظور القريب، كان للقصف الاسرائيلى فى العمق منطق ما محدد؛ لكنه كان، فى المنظور البعيد، خطأً كبيراً. فقد فشل فى تحقيق أهدافه السياسية، لأن نفوذ ناصر لم يتأثر بحال. وبرغم الدمار الذى كان يصيب المنشآت المصرية فى بعض الأحيان، فقد واصل المصريون هجماتهم على القناة. وإذا كان من الصعب إثبات أو نفى أن المجرى الطبيعى للأحداث قد أدى إلى تزايد «سفيتة» مصر، إلا أنه لاشك فى أن القرار الاسرائيلى بضرب مصر فى العمق كان نقطة تحول كبيرة فى الشرق الأوسط، وخلق وضعا شجع ناصر على فتح مصر، لا أمام الخبراء السوفيت وحدهم، وإنما أمام وحدات مقاتلة سوفيتية كذلك. ففى ابريل ١٩٧٠، بدأت الطائرات ميج ٢١ إس، التى يقودها طيارون سوفيت، تشترك فى عمليات الدفاع عن مصر الوسطى للدفاع عن تلك المناطق وحمايتها من الغارات الجوية الاسرائيلية. وأصبحت أصوات الطيارين الروس مألوفة عبر أثير الشرق الأوسط. والحقيقة أن الغارات الاسرائيلية فى العمق المصرى قد توقفت فى أبريل ١٩٧٠، تحاشياً لخطر الاحتكاك بالقوات السوفيتية. وقد أدى الشعور المتجدد بالأمان، الذى غرسه الوجود المتزايد للسوفيت عند حلفائهم المأزومين، إلى تزايد نشاطهم الجوى فوق سيناء. وبينما أخذ المصريون فى شن سلسلة من الغارات الخاطفة على أهداف اسرائيلية، تطورت المعارك الجوية فوق سيناء. وخلال أحد الاشتباكات الأولى، سقطت ثلاث طائرات مصرية من طراز سوخوى إس يو ٧ إس، أثناء إغارتها على أهداف اسرائيلية .

أدى تجدد الهجوم المصرى، الذى بدأ بعلم السوفيت ودعمهم الجوى الفورى فوق السماء المصرية، إلى تخلخل ميزان المعركة: خلال الشهور الثلاثة من مارس إلى مايو ١٩٧٠، قتل ٦٤ جندياً اسرائيلياً وأصيب ١٤٩، بينما كبدت الكمائن المصرية على الضفة الاسرائيلية للقناة اسرائيل ١٨ قتيلاً وستة جرحى ومثلهم من الأسرى. وبينما تصاعدت حدة القتال، بدأت القوات الجوية الاسرائيلية تكيف أوضاعها لمواجهة الموقف الناجم عن الانتشار السوفيتى الجديد فى مصر، وذلك باتباع تكتيكات جديدة للتعامل مع نظام الصواريخ أرض - جو، فقامت بشن أعنف هجماتها، التى استمرت لإحدى عشر يوماً بدءاً من ٣٠ مايو، على المواقع المصرية بطول القناة. وخلال أسبوع واحد، ألقى أكثر من أربع آلاف قنبلة على تلك المواقع، وفى اليوم السابع من القصف المتوالى للقطاع الشمالى، قامت القوات الجوية الاسرائيلية

بهجوم متصل دام أربع عشرة ساعة ونصف الساعة. وفى ١٢ يونيو، عبرت القوات البرية الاسرائيلية القناة. واستولت على جبهة بطول ميل ونصف الميل جنوبى بور سعيد، ودمرت المواقع المصرية بالمنطقة، ثم انسحبت بعد ذلك .

أصبح الصراع على قناة السويس على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للاتحاد السوفيتى. وكانت القيادة السوفيتية تتابع عن كثب تطورات القتال، لأن نظام الدفاع الجوى برمته الذى يعتمد عليه الاتحاد السوفيتى، بل والامبراطورية السوفيتية، أصبح فى موضع الاختبار أمام قوات جوية اسرائيلية صغيرة تستخدم العتاد الغربى. والحقيقة أن الخبرات المكتسبة من تلك المعارك أثبتت أهميتها بالنسبة لكل من الروس والقوى الغربية، على حد سواء، خاصة الأمريكيين، الذين كانوا يراقبون، عن كثب، الدروس المستفادة من المعارك الدائرة فى سماء مصر وفوق القناة. وقد قدم «محمد حسنين هيكل» رئيس تحرير «الأهرام»، وموضع ثقة ناصر، وصفاً حياً لاجتماع عقد بالكرملين، دار خلاله نقاش بين «ليونيد بريجنيف» وناصر حول عدد الطائرات التى أسقطت نتيجة لاستخدام التكتيكات السوفيتية الجديدة. ولما حدث تضارب، أمر «برجنيف» الماريشال «جريشكو» وزير الدفاع، بغلظة، بتوضيح الأمر. وعلى الفور قدم «جريشكو» من جانبه تقارير تصف بإسهاب شديد قصة إسقاط طائرة اسرائيلية خلال اليوم السابق على اللقاء. فقد أصبحت المسألة مهمة بما يكفى لأن تحتل مكانة مركزية فى اهتمام مركز القوة فى الامبراطورية السوفيتية .

مع تصاعد الهجمات الاسرائيلية، قرر السوفيت وضع استراتيجية جديدة للدفاع الجوى. وخططوا لنظام دفاعى جديد تماماً لمواجهة الهجمات الاسرائيلية. وفى نهاية يونيو، جرى إعادة انتشار كبير للدفاعات الجوية السوفيتية المصرية للدفاع عن أجواء القناة وما حولها. وجاء الأثر فورياً: فى ٣٠ يونيو، أسقطت طائرتين إسرائيليتين خلال هجوم على منطقة القناة؛ وأنقذ أحد الطيارين من الأراضى المصرية بواسطة الهليكوبتر، وأسر ثلاثة من أفراد الطاقم الجوى. وفى ٥ يوليو، سقطت طائرة أخرى وأسر طاقمها. ومنذ ذلك الحين، انتشر الدفاع الجوى المصرى بطول مائة ميل على قناة السويس. وأقام الروس صندوقاً بعمق حوالى ٢٠ ميلا وبطول ٤٥ ميل يغطى القطاعين الأوسط والجنوبى. وقد نشرت الصواريخ بحيث تعطى نيراناً تبادلية، وزُود النظام كله بتمركزات كثيفة من الأسلحة المضادة للطائرات التقليدية. وقد توصلوا إلى حل لقابلية سام ٢ للإصابة، حيث كان موضوعاً فى مواقع أسمنتية ثابتة تسهل رؤيتها: أقاموا مواقع رملية جرى حفرها سريعاً بآلات الحفر، أما الصواريخ نفسها فكانت

تنقل إلى موقع الهجوم المنتقى تحت جنح الظلام فى أقرب وقت ممكن من الموعد المقرر للهجوم. وأصبح فى مقدورهم الآن إطلاق عدد من الصواريخ على عدة أهداف، على عكس الوضع الذى كان قائماً، حتى ذلك الحين، فى مصر وفيتنام، حيث كان يطلق صاروخ واحد أو اثنين على طائرة واحدة. وفوق ذلك، فقد كان صاروخ سام ٢ الموجه ذا مدى أبعد وأكثر دقة من سابقه. وكانت كل بطارية سام ٢ تتألف من ستة قواذف ومتصلة بنظام رادارى للإنذار المبكر والرصد. كما نشر مع البطاريات عدة دست من مدافع عيار ٢٣ مم زد . إس . يو الرباعى الماسورة، والتى أثبتت فاعليتها. (الحقيقة أن ثلاث من الطائرات الإسرائيلية التى سقطت فى ذلك الأسبوع يرجع الفضل فى سقوطها إلى هذه المدافع أكثر مما يعود إلى صواريخ سام ٢.) وبينما كان سام ٢ يستخدم فى الهجما ت المتوسطة الارتفاع (مع تطوير مداه حتى ٦٠ ألف قدم)، فقد كان مدى الصاروخ سام ٣ چى . أو . أ بين المتوسط والمنخفض، وينقسم إلى بطاريات تتألف كل منها من ثمانية صواريخ على أربعة قواذف زوجية، يمكن تحريكها أو تثبيتها، بمدى انحراف ١٨ ميلا ويستخدم معه نوعين من الرادار .

عندما أصبحت سماء القاهرة مسئولية طائرات الميج ٢١ إس التى يقودها السوفيت، أصبح بإمكان المصريين نشر عدد أكبر من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات على القناة لكن، وبرغم الخسائر التى وقعت، استمر الطيران الاسرائيلى فى الإغارة على هذا النظام، وتمكن من تدمير خمس بطاريات سام فى أوائل يوليو .

لم يكن الانتشار الجديد لمضادات الطائرات فى مصر مجرد استجابة للمشكلات التى يواجهها المصريون فى الهجمات التى يتعرضون لها على القناة، وإنما كانت تعبيرا عن تطور استراتيجى لن ينال التقدير الكامل إلا بعد ثلاث سنوات، فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، عندما بدأ الهجوم المصرى فى يوم كيبور. وقد تم تنظيم نشر التمركز الكثيف للأسلحة المضادة للطائرات بالقطاع الأوسط، على شكل قطع ناقص ضلع بعمق حوالى ١٨ ميلاً، بحيث يكون أبعد صاروخ فى هذا التجمع على مسافة ٣٠ ميلاً شرق القاهرة وأقربها على بعد حوالى ١٢ ميلاً من القناة. وكان واضحاً أن المرحلة التالية هى الوثوب باتجاه القناة، وهو تحرك يضع الصواريخ فى موقع فعال فوق الجبهة وخارج مرمى المدفعية الاسرائيلية؛ وهو أمر كان له دوره فى مواجهة هجمات إسرائيل ضد تجمعات المدفعية المصرية. وأصبح من الواضح أن كفاءة الأسلحة المضادة للطائرات التى تملكها القوات المصرية أصبحت - إضافة إلى ما تحققه من توازن جوى مع إسرائيل - عاملاً حيوياً فى تطوير استراتيجية الهجوم المصرى فى المستقبل.

وكان لزيادة مدى نظام الصواريخ أن يجعل الفضاء فوق خط الجبهة الاسرائيلية فى مرمى الصواريخ المصرية. وبهذا القدر من الاهتمام بالدفاع المضاد للطائرات، كان لمرحلة التمهيد للعبور النهائى لقناة السويس من جانب المصريين، أن تبدأ .

مع نمو التدخل السوفيتى، ازداد تورط السوفيت فى معارك الدفاع الجوى بشكل كبير. وظهر تحسن ملموس فى نظام الدفاع الجوى المصرى. وزاد عدد المعارك الجوية، واشتبكت طائرات يقودها طيارون روس مع طائرات اسرائيلية يومى ٢٥، ٢٧ يوليو. وفى ٣٠ يوليو، دارت معركة جوية بين طائرات اسرائيلية وطائرات «ميج ٢١. إس» يقودها سوفيت. كما تعرضت داورية استطلاع جوى اسرائيلية، فوق القطاع الشمالى لخليج السويس، لهجوم بثمانى طائرات ميج ٢١. إس تطير فى تشكيلين؛ وسقطت خمس طائرات سوفيتية ولم تحدث خسائر على الجانب الاسرائيلى. واعتقد الطيارون الاسرائيليون – حسب رواية «ديان» * – أن الطيارين السوفيت تنقصهم الخبرة والمرونة؛ فقد تصرفوا خلال المعركة حسبما تعلموا فى الكتب والتدريبات، بأن يطيروا أزواجاً متقاربة، وألا يبتعدوا عن بعضهم البعض كثيراً. وهبط الطيارون الخمس بالمظلات على الجانب المصرى من الخليج. وعندما عثر عليهم فى النهاية كان بينهم اثنان من الجرحى وآخران من القتلى وطيار واحد سليم . ولتحاشى التصعيد، لم يصدر أى بيان حول هذا الهجوم الجوى، ولم يذكر أى من المصريين أو الروس شيئاً علنيا بشأنه. وقد سرى ذعر شديد فى الاتحاد السوفيتى، لكن المصريين لم يخفوا شماتتهم فى السوفيت، فهم يمقتون حلفاءهم من كل قلبهم، أولئك الذين خلق سلوكهم الفج وغير اللبق نفوراً شديداً، فالضباط الروس كانوا يحقرون من شأن الضباط المصريين، ويعاملونهم بازدراء وترفع. وفى ذلك اليوم، هرول إلى مصر قائدا الدفاع الجوى والطيران السوفيتيين .

وقف إطلاق النار

فى تلك الأثناء، كانت المفاوضات تجرى حول ما سمى بـ «مشروع روجرز»، المقدم من الولايات المتحدة الأمريكية. وتضع هذه الخطة، التى اقترحها فى الأصل «وليم روجرز» وزير الخارجية الأمريكى، تصورا لمعاهدة سلام بين مصر وإسرائيل والأردن، وتقضى بالانسحاب الاسرائيلى الكامل من أراض محتلة، مع ترك المجال مفتوحاً فيما يتعلق بقطاع غزة وشرم الشيخ. وكان قبول هذا المشروع يقتضى قبول وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة شهور. وفى يوليو،

* نفس المرجع .

عاد ناصر من موسكو رجلاً مريضاً ومحبطاً. وبدأ يدرك حجم الثمن السياسى للتورط الروسى فى مصر. فقد أخذت مساوىء وتكلفة حرب الاستنزاف فى الظهور، وكان على قناعة بإمكانية الاستفادة من وقف إطلاق النار فى تطوير خطته العسكرية. وأعلن عن عزمه القبول بمشروع «روجرز»، ولحق به الأردن فى قبول وقف إطلاق النار. وفى ٣١ يوليو ١٩٧٠، قبلت اسرائيل كذلك المبادرة الأمريكية، ووافقت على وقف إطلاق النار، الذى أصبح سارياً اعتباراً من ١٨ أغسطس ١٩٧٠ .

كان قبول ناصر للمقترحات مفاجأة للكثيرين. وشعر د . هنرى كيسنجر * بأن ناصر ربما كان يخشى من ضربة إجهاض إسرائيلية. وربما اشتم ناصر وخبراؤه السوفيت فى بيانات البيت الأبيض، الصادرة عن الرئيس نيكسون و الدكتور كيسنجر، خطر التدخل الأمريكى. لكن الأقرب إلى الصحة – كما اتضح بعد ذلك – هو أن ناصر والسوفيت قرروا منذ البداية أن يستخدموا العرض بوقف إطلاق النار لاستكمال مجمع الصواريخ بأقل مخاطرة ممكنة. وبالنسبة لإسرائيل، فقد كان تجميد الأوضاع جانباً حاسماً فى اتفاق وقف إطلاق النار، ولم يكن لأى من الطرفين الحق فى الاستفادة عسكرياً بتقديم الصواريخ. فعندما كان تبادل النيران يجرى عبر القناة، لم يكن بمقدور المصريين إقامة أية مواقع صواريخ جديدة بالقرب من القناة. وإذا أصبح بإمكانهم الآن القيام بذلك تحت غطاء وقف إطلاق النار، فسوف يكونون فى وضع أفضل لاستئناف الحرب بنجاح بعد انقضاء فترة الشهور الثلاثة .

كان لتخوف الإسرائيليين من ازدواجية المصريين والسوفيت أسبابه. فمن الواضح أن الروس والمصريين قاموا بتحركات واسعة النطاق لإقامة مواقع للصواريخ فى الفترة ما بين قبول ناصر لوقف إطلاق النار والتنفيذ الفعلى للقرار. وخلال الفترة التى سبقت سريان وقف إطلاق النار مباشرة، وكذلك التى تلته مباشرة، تقدمت اسرائيل بشكاوى إلى الأمم المتحدة بشأن الانتهاكات العديدة للاتفاقية، لكن المنظمة كانت تشكك فى تلك الشكاوى وعلى ضوء ما ظهر بعد ذلك من أدلة، صرح الدكتور كيسنجر بأن «من الممكن أن تكون استجابتنا الأولى المترددة سبباً فى تشجيع ناصر على الإسراع فى دفع صواريخه إلى الأمام».. وهذا أكثر التحليلات دقة. فمن كل الدلائل التى تراكمت منذ ذلك الحين، اتضح أن هدف ناصر، بالفعل كان الدخول إلى المرحلة الثانية من خطته – أى الاستيلاء على جزء من الضفة الشرقية لقناة السويس تحت مظلة من الصواريخ. فقد كان واضحاً تماماً أنه ينوى استغلال فترة الشهور

Henry Kissinger , White House Years , P . 582 , 1979 . *

الثلاثة من توقف الاشتباكات لنشر الصواريخ، بحيث تسهل لقواته الأرضية عبور القناة وتحييد القوات الجوية الاسرائيلية فوق منطقة القناة. ولكن فى ٢٨ سبتمبر مات ناصر، وأثر ذلك تأثيراً فورياً على الموقف العسكرى والتطورات فى المنطقة. فعلى عكس ما كان يخطط له ناصر وينتويه فى الأصل، ظل وقف إطلاق النار سارياً حتى دفع خليفته بالقوات المصرية عبر قناة السويس فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

وهكذا ينتهى صراع قاس ومرير، اشتدت المواجهة خلاله بين الجيشين الاسرائيلى والمصرى على مدى حوالى ثلاث سنوات. لقد كانت حرباً حاسمة قدمت أرضاً لاختبار أسلحة جديدة، وأساليب واستراتيجيات جديدة فى العديد من المجالات. والحقيقة أن استراتيجية الدفاع الجوى برمتها ونظرية الدفاع الجوى الحديث تم اختبارها فى ظل مواجهة شرسة، وتوصل الروس إلى سياسة جديدة قدر لها الصمود فى الاختبار خلال حرب ١٩٧٣. فانطلاقاً من النظام الجديد الذى أثبت كفاءته على قناة السويس ، فى يوليو ١٩٧٠، أقام الروس نظاماً أكثر تطوراً وتعقيداً فى كل من مصر و سوريا، أضيف إليه صاروخ سام ٦ العالى الحركية. فعلى عكس سام ٢ و سام ٣، صمد هذا الصاروخ أمام العديد من الإجراءات الالكترونية المضادة التى استخدمتها القوات الاسرائيلية.

ومن جانبها، صمدت اسرائيل فى المعارك، بالرغم من الخسائر الكبيرة التى تكبدتها، خلال الفترة من يونيو ١٩٦٧، وحتى اغسطس ١٩٧٠، أكثر من خمسين قتيلاً وألفى جريح على جميع الجبهات. وكان على إسرائيل أن تتكيف، منذ ذلك الحين، وفقاً لنوع مغاير من الحرب. وعندما بدأ سريان وقف إطلاق النار، الذى قدر له أن يستمر لتسعين يوما، قررت القيادة الاسرائيلية أن تستغل هذه المهلة لإعادة بناء تلك الأجزاء من خط «بارليف» التى أصابها الدمار أثناء حرب الاستنزاف، وتقوية الخط. وكان الجنرال «اريك شارون» قد تولى القيادة الجنوبية، خلفاً للجنرال «جافيتش»؛ وبناء على اقتراح منه، أقيم خط ثان من التحصينات، خلف «بارليف» بحوالى ٥ - ٧ أميال. وقد بذل جهد شاق وأعمال مكثفة لإقامة المرافق اللازمة، بلغت تكاليفها حوالى ٢٠٠ مليون جنيه (٥٠٠ مليون دولار) .

وكان هناك البعض ، مثل الجنرال «اسرائيل تال»، غير سعداء بهذه الانشاءات المتضاعفة. فقد كانوا يشعرون بأن التحصينات أصبحت سلسلة من الأهداف الثابتة، تخضع للمراقبة الدائمة، مع خطوط إمداد مرئية معرضة للهجوم، وهى تعتبر - فى أحسن الأحوال - مجرد مخبأ، ليس بإمكان المدفعية الاسرائيلية دعمه. كذلك ، فإنها لا يمكن أن تحول دون العبور

المائى، نهاراً أو ليلاً، لأنها كانت منعزلة، ولا يتحقق لها الدعم المتبادل. ومرة أخرى، قُدم اقتراح بتقسيم المنطقة إلى قطاعات يوكل الدفاع عنها إلى قوات مدرعات متحركة تدعمها المدفعية والطيران، مع إقامة نقاط مراقبة بالدبابات على خط الماء. لكن هذه التحفظات لم يؤخذ بها، واستمر العمل فى البناء المعقد لخط «بارليف». ومع تعيين الجنرال «دافيد اليعازر» (دادو) رئيساً للأركان فى يناير ١٩٧٢، خلفاً للجنرال «بارليف»، أثير الموضوع مرة أخرى. وبينما كان الجنرال «اليعازر» يميل إلى نظام التحصينات، ظهر شكل من أشكال الحلول الوسط. فقد كانت القناة تشهد غياباً تاماً للنشاطات العسكرية، وأدى هذا الهدوء إلى التخفيف من أثر أية تحفظات يمكن أن تثار بشأن تخفيض عدد التحصينات أو حجم القوات هناك. وقد توافق ذلك مع الإحساس المتنامى بالأمان والتعبيرات العلنية حول العبء الثقيل لميزانية الدفاع، وضرورة ضغط الإنفاق. وأصبح هناك موقع واحد، من بين كل مجموعة من المواقع، الذى يعمل وبأقل عدد من الجنود؛ فمن بين ٢٦ موقعاً، أصبح هناك عشرة مواقع تسدها الرمال بحيث تحتاج إلى عدة أسابيع لإعادة تشغيلها. ونتيجة لهذا التوفيق، أصبح الخط الفاصل لخط بارليف، الذى يعمل كنظام إنذار أو كنظام دفاعى لصد العدو، أصبح بالتدريج غائماً وغير واضح الملامح: كان علينا أن ندفع ثمن عدم الوضوح هذا خلال الساعات الأولى للقتال على القناة عام ١٩٧٣.

لقد أدت فترة الهدوء، التى سادت القناة من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٣، وقرار خليفة ناصر (أنور السادات) المثير بطرد الروس فى يوليو ١٩٧٢، إلى عدم قراءة تقارير المخابرات قراءة صحيحة، وعدم التحلى بالمرونة الكافية فى التقييم، وتبدد مفهوم خط «بارليف»، وأهملت تطبيقاته إلى حد كبير. وطوال الوقت، كانت الاستعدادات المصرية تتقدم بإصرار، وفى تكتم.

خاض الإسرائيليون حرب الاستنزاف على جبهات ثلاث. وكان شمال وادى الأردن هو أحد تلك الجبهات، حيث اشتعلت الحرب مع وحدات منظمة التحرير الفلسطينية، التى كانت تعمل بحصانة من الأراضى الأردنية ضد إسرائيل، وتتلقى دعم الوحدات الأردنية فى بعض الأحيان. وقد شهد هذا القطاع بعض العمليات الكبيرة، مثل العملية الاسرائيلية التى استهدفت معسكر التدريب والعمليات الرئيسى التابع للمنظمة فى الكرامة بوادى الأردن. ولم تهدأ هذه الجبهة إلا بعد أن أدرك الملك حسين، بعد نجاته من محاولة لاغتياله على يد المنظمة، أن المنظمة قد أقامت «دولة داخل الدولة» وأن عرشه أصبح مهدداً بقوة، فقام بهجوم شامل على الفلسطينيين فى أغسطس وسبتمبر ١٩٧٠. وهنا قامت الوحدات السورية، تحت عباءة الفلسطينيين، بغزو الأردن. وعندما تطور الغزو السورى للأردن وتصدى الجيش الأردنى للغزاة فى محاولة لوقف تقدمهم، صدرت إشارات واضحة لا لبس فيها، إلى كل من السوريين والسوفيت، بأن لا الولايات المتحدة ولا إسرائيل يمكن أن يقفا رابطى الجاش أمام أى غزو سورى للأردن. وفى مرحلة من المراحل أشارت الولايات المتحدة، التى كانت تتعاون تعاوناً وثيقاً مع اسرائيل، إلى أنها سوف توافق على تدخل عسكرى اسرائيلى لإنقاذ قوات الملك حسين. وكان هناك تفكير فى القيام بتدخل جوى وتحريك القوات الأرضية. وفى تلك الأثناء، رصد السوفيت تعبئة إسرائيلية، ونشرا للقوات الأمركية فى أوروبا وكل مكان، وتحركا للأسطول السادس الأمريكى نحو ساحل Levant*، وانتقال عدد من طائرات الأسطول إلى المطارات الإسرائيلية. وكانت هذه التحركات والمؤشرات على إمكان تدخل اسرائيل كافية لأن ينصح الروس والسوريين بالانسحاب. وينبغى أن نضيف إلى هذا، الصمود الباسل للجيش الأردنى، وخاصة اللواء ٤٠/ مدرعات، الذى سبق أن أبلى بلاء حسناً فى الجزء الشمالى من الضفة الغربية أثناء حرب الأيام الستة .

انتهت منظمة التحرير فى الأردن كقوة عسكرية. وانتقلت المنظمة من الأردن إلى لبنان. وبرحيلها، انتهت حرب الاستنزاف على الجبهة الأردنية، لتنطلق من الأراضى اللبنانية. وبدأت مرحلة تقويض الدولة اللبنانية على يد منظمة التحرير الفلسطينية، ثم احتلال القوات المسلحة السورية لهذا البلد .

* هى مجموعة دول شرق البحر المتوسط ، من اليونان وحتى مصر . (المترجم)

وخلال هذه الفترة أيضاً، تعددت الأعمال العسكرية على الجبهة السورية. على أن الجبهة المصرية كانت هي المسرح الرئيسي للعمليات، والذى شهد معارك كبرى تخطت آثارها المجال المحلى. ومن هنا، فقد تعمدنا الإسهاب فى وصف حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية دون بقية الجبهات. لكن من المهم أن نذكِّر بأنه بينما كانت الحرب تدور رحاها فى منطقة القناة، كانت إسرائيل تخوض المعارك من حين لآخر، على الجبهة الأردنية أو السورية أو اللبنانية .

كان ناصر يخطط لاستغلال فترة الشهور الثلاثة لوقف إطلاق النار لالتقاط الأنفاس، ونشر وحدات الصواريخ المضادة للطائرات بمنطقة القناة، بحيث يمكنه الاستفادة من الوضع الجديد للقيام بعبور مثير بعض الشىء للقناة. وكان يأخذ فى اعتباره، بالطبع، إمكان تحييد القوات الجوية الإسرائيلية بعد الانتشار الجديد للمعدات السوفيتية المضادة للطائرات التى حصل عليها. لكنه توفى قبل أن يضع خطته موضع التنفيذ. وقد خلفه الرئيس أنور السادات، الذى اعتبر مجيئه بشكل عام أمراً انتقالياً حتى يتمكن رجل قوى من إزاحته. لكن السادات سرعان ما أثبت أنه رجل مناور وشجاع، وهو ما أدركه العالم، شيئاً فشيئاً، فيما بعد. فقد كان أول زعيم عربى، على الإطلاق، يتحدث عن إمكان السلام مع إسرائيل. على أنه بدأ، فى الوقت نفسه، فى وضع الخطط للقيام بعملية كبرى عبر القناة، رآها ضرورية لكسر الركود السياسى الذى ساد المنطقة حقاً، وأدى إلى استحكام الأزمة بين مصر واسرائيل .

وبعناية، وضع السادات خططه وأعد مصر للحرب. وعند حد معين، أدرك أنه فى حاجة إلى حرية كاملة للعمل كى يدخل الحرب، فقرر أن يتخلص من الرقابة والعقبات الروسية: فى يوليو ١٩٧٢، قام بطرد العسكريين الروس من مصر (لكنه سعى بعد ذلك فى إصلاح ما بينه وبين الروس كى يضمن مصادر عتاده الحربى.) وتحرك السادات باتجاه الحرب على كافة المستويات: التخطيط السياسى، والتخطيط العسكرى، ووضع خطة تمويه وخداع بارعة. وتضمنت الخطة الالتزام التام بوقف إطلاق النار على طول قناة السويس، وهو موقف صحيح تماماً من جانب الرئيس السادات، كان له أن يخلق نوعاً من الاسترخاء على الجانب الاسرائيلى. وفى الوقت نفسه، بدأ فى تدريب وحدات الجيش المصرى على مهام وعمليات عليهم أن ينفذوها عند عبور القناة. وعلى مدى ثلاث سنوات تقريباً، ظلت العديد من الوحدات تتدرب يومياً على ما سوف تقوم به يوم بدء حرب أكتوبر، أو يوم كيبور .

وركنت اسرائيل إلى إحساس زائف بالأمان. وفعلت القيادة المصرية كل ما أمكنها لتشجيع الاسرائيليين على الاستغراق فى معتقداتهم المسبقة من أجل تقوية إحساسهم بالأمن. وهكذا، بينما حل الهدوء تدريجياً على قناة السويس، وعادت القوات المصرية والاسرائيلية تدريجياً إلى الجلوس بأمان، أو الصيد فى مواجهة بعضهم البعض على ضفاف القناة، إلى حد نشوء صداقات قوية بين الجيشين المتعاديين فى بعض الأحيان، كان الرئيس السادات يعد العدة لحرب الشرق الأوسط التالية .

الباب الخامس

حرب يوم كيبور ١٩٧٣

* يوم كيبور هو يوم عيد الغفران أو التوبة ، وهو يوم عطلة يمتنع فيه اليهود عن القيام بأى عمل ، وهو يوم حزن يمتنعون فيه عن الاستحمام والغسيل والمسح بالزيت ولبس الأحذية الجلدية . انظر : أوبلانس ، مرجع سابق ، صـ ٩ (المترجم).

مدخل

يمكننا أن نرد جذور حرب يوم كيبور إلى نهاية حرب الأيام الستة فى ١٩٦٧. فدروس تلك الهزيمة المروعة لم تغب عن الزعماء العرب، لكن الرئيس السادات هو الذى تبنى استراتيجية طويلة المدى لاستعادة سيناء والمناطق التى فقدها العرب فى حرب ١٩٦٧، استراتيجية تربط بين التحركين السياسى والعسكرى. وقد توصل إلى أنه، مهما كانت محدودية العمل العسكرى الذى يمكن أن تقوم به مصر، فإن الرد الإسرائيلى سوف يكون عنيفاً. ومن هنا، لم يكن ثمة بديل أمام المصريين سوى القيام بأكبر هجوم ممكن .

وكان التقييم الاسرائيلى يرى دائماً إمكانية وقوع هجوم مصرى عبر القناة، وإن كان يفترض ، إنطلاقاً من دروس حرب ١٩٦٧، أن المصريين لن يشنوا حرباً جديدة إلا إذا شعروا بقدرتهم على ضرب المطارات الاسرائيلية وتحييد سلاح الطيران الاسرائيلى. ولهذا، فقد كانوا فى حاجة إلى تشكيلات من القاذفات المتوسطة والقاذفات المقاتلة (مثل الجاجوار والفانتوم وميج ٢٣) القادرة على قصف المطارات الاسرائيلية فى وقت واحد. وبمعنى آخر، كان من المعتقد أن المصريين لن يشنوا حرباً جديدة حتى يحصلوا على عدد كاف من تلك الأنواع. ولهذا السبب، واعتقاداً منها بأنه الطيران المصرى لن يتلقى الإمدادات قبل ١٩٧٥، افترضت المخابرات الاسرائيلية بأن لن يكون هناك خطراً حقيقياً قبل عام ١٩٧٥ تقريباً. لكن الرئيس السادات، تحت ضغط المشكلات السياسية الداخلية، لم يمكنه الانتظار حتى ذلك الحين، فأخذ يسعى إلى حل بديل .

وخلال رحلة قام بها الجنرال «أحمد اسماعيل على»، وزير الدفاع المصرى، إلى موسكو فى فبراير ١٩٧٢، اقترح الروس ذلك البديل. وكان على القوات الجوية الاسرائيلية أن تتعامل مع واحد من أكثر «حوائط» الصواريخ كثافة فى العالم. حوائط تضم خليطاً من أنواع الصواريخ السوفيتية أرض – جو من طراز سام٢ وسام ٣ وسام ٦، بالإضافة إلى الأسلحة المضادة للطائرات التقليدية التى تقدم مظلة فعالة لمنطقة العمليات بطول قناة السويس. وكان لهذا أن يؤثر تأثيراً كبيراً على السيادة الجوية الاسرائيلية فوق المجال الآنى للمعركة .

وكانت المشكلة الثانية التى تواجه مصر فى حال اندلاع القتال هى قدرة القوات الجوية الاسرائيلية على ضرب مصر فى العمق. ولمواجهة هذا الاحتمال كان على مصر أن تحصل على صواريخ «سكود»* أرض – أرض السوفيتية، ذات المدى ١٨٠ ميلاً، التى يمكن أن تهدد المناطق المأهولة بالسكان داخل اسرائيل. وكان المفترض أن يعوق توفر هذه الإمكانية بأيدى المصريين غارات اسرائيل فى العمق .

وبعد ذلك مباشرة، وصلت إلى مصر بعثة سوفيتية ، وتسلمت مصر أول دفعة من صواريخ «سكود» فى أبريل ١٩٧٣ تقريباً. وكان هذا هو آخر عامل عسكرى حاسم فى قرار الرئيس السادات بدخول الحرب؛ والحقيقة أنه عبر عن هذا وعن قراره المبدئى بدخول الحرب علنا أثناء مقابلة صحفية تمت فى أبريل ١٩٧٣. وكان قد أقنع الرئيس السورى، فى مرحلة مبكرة، بالانضمام إليه فى تخطيط الهجوم، الذى سوف يأخذ شكل هجمات متزامنة على كل من حدود اسرائيل الشمالية والجنوبية. وقد بدأ التخطيط المشترك مبكراً، فى يناير ١٩٧٣، وبعد حصول مصر على صواريخ «سكود»، بدأ برنامج عاجل لتزويد سوريا بصواريخ سام أرض – أرض. وتم تقديم حوالى خمسمائة بطارية لتغطية دمشق .

فى مايو ١٩٧٣، لم تكن اسرائيل غافلة عن مظاهر الاستعدادات المصرية للحرب. لكن المخابرات الاسرائيلية رأت فى ذلك نوعاً من التحرك مرة أخرى نحو حافة الحرب، وأن شيئاً لن يحدث. على أن الجنرال «دافيد اليعازر»، رئيس الأركان، لم يقبل بهذا التفسير وأمر بإجراء تعبئة جزئية. ولم يحدث شىء. وكان الرئيس السادات قد قرر تأجيل الحرب حتى الفترة التالية من المدّ فى قناة السويس، والتى تحل فى سبتمبر أو أكتوبر ١٩٧٣. وكان رد الفعل العام فى اسرائيل هو أن المخابرات كانت على حق فى تقديرها. ومن هنا، فعندما تم تحليل ومراجعة تطورات شهر مايو، كان هناك اتجاه للدفاع مرة أخرى عن التقييم الذى قدمته المخابرات. ووسط هذا الجو من الرضا عن النفس، تجاهلوا الدلائل المتاحة التى تشير إلى أن الحرب تأجلت فقط حتى الخريف. وأصبحت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية – وخاصة الجنرال «دايان» وزير الدفاع وإدارة المخابرات – أسيرة تصور مسبق بأن المصريين لن يدخلوا الحرب قبل أن يتهيئوا لذلك سلفا، والميل إلى تفسير التطورات المرصودة على الحدود على ضوء هذا الفهم. وهكذا، عبر الجنرال «ديان»، فى منتصف الصيف، عن اعتقاده بأن الحرب مع مصر

---

* يعرف الصاروخ السوفيتى R 17 E فى الغرب باسم Scud marder. وكانت القوات المسلحة المصرية تمتلك لواءا كاملاً منه . انظر : الفريق سعد الدين الشاذلى ، حرب أكتوبر (مذكرات) ، صـ١٦٦ـ (المترجم).

ليست وشيكة. (كان هذا التقييم نقيضاً لتعليماته، التى أصدرها إلى القيادة العامة فى مايو بعد الإنذار الزائف، بضرورة التخطيط لمواجهة حرب محتملة تشنها مصر فى خريف ١٩٧٣.) كانت خطة التضليل المصرية تقوم على تشجيع مثل هذه المفاهيم الاسرائيلية الخاطئة، وحرص المسئولين المصريين، فى لقاءاتهم مع الصحافة الأجنبية، وفيما كانوا يسربونه من حين لآخر من انطباعات، على تأكيد هذا الفهم الاسرائيلى.

والحقيقة أن المصريين أداروا حملة «تضليل» تقليدية أثبتت فاعليتها. وكانت هذه الحملة قائمة على التحليل الدقيق للأفكار المسبقة التى يتبناها الاسرائيليون، والتى كانت القيادة العسكرية الإسرائيلية تعبر عنها من حين لآخر. وهكذا، تكاثف تركيز وسائل الإعلام على بيانات الجنرال «دايان» حول نقص استعدادات المصريين، وتحليل الجنرال «رابين» فى التقليل من شأن مظاهر الحرب. وفى مقال له من القاهرة، يتحدث «كلير هولنجوورث»، المراسل الحربى لـ «ديلى تلجراف» اللندنية، عن فقر صيانة المعدات فى الجيش المصرى، وأثر ذلك فى الاستعداد. لقد كانت هناك مجموعة متخصصة، شكلت لهذا الغرض، مهمتها مراقبة العملية وتوجيهها بطريقة تؤكد على تلك المفاهيم المسبقة، لا فى اسرائيل وحدها وإنما فى واشنطن كذلك، وفى كل مكان كانت هناك مظاهر مثيرة للاستعدادات المصرية للهجوم، لكن خطة الخداع نجحت فى تثبيت المفاهيم المسبقة.

فى تلك الأثناء، كان المصريون يدرسون ويستخلصون الخبرة من دروس حرب الأيام الستة. وتوصلوا، مع الروس، إلى أن باستطاعتهم التغلب على مشكلة القوات الجوية الاسرائيلية فوق ميدان المعركة عن طريق بناء «حائط» صواريخ كثيف على القناة أكثر كثافة من ذلك الذى استخدم فى فيتنام الشمالية. أما مشكلة المدرعات الاسرائيلية، فقد رأوا حلها عن طريق حشد تجمع كبير للأسلحة المضادة للدبابات، على كافة المستويات، ابتداء من صواريخ «أر. بى. چى» المحمولة على الكتف عند مستوى الفصيلة وحتى صواريخ «ساجر» (مداها حوالى ٣ آلاف ياردة) والعربات المدرعة حاملة الصواريخ من طراز «بى .أر دى . إم» عند مستوى الكتيبة واللواء. لقد وضعت خطة دفاعية محكمة لمواجهة القوات المدرعة الاسرائيلية. ولحل مسألة التعبئة السريعة، فقد تقرر استخدام سلاح المباغتة. ومن الناحية السياسية، كان الاتحاد السوفيتى يضمن استغلال مجلس الأمن فى استصدار قرار بوقف إطلاق النار فى حال تعثر الهجوم، ومنع أى تدخل فى حال سير الأمور سيراً حسناً. وكانت الإمدادات السوفيتية مضمونة، عن طريق السفن المتلاحقة تبحر بالعتاد من الموانىء السوفيتية قبل اندلاع

الحرب، ثم عن طريق الجسر الجوى بعد أيام قليلة من اندلاع القتال. وفوق ذلك، أقنع الرئيس السادات «فيصل»، ملك العربية السعودية، بأن الحرب ضرورية لتنشيط سلاح النفط. بمعنى آخر، وعلى عكس الرأى السائد، فإن سلاح النفط لم يستخدم بسبب الحرب، بل إن أحد أسباب الحرب هى أنها سوف تؤمن قدراً من الوحدة داخل العالم العربى لا يمكن تنشيط سلاح النفط بدونها .

فى أغسطس ١٩٧٣، دخل التخطيط مراحله النهائية. وقد اختير يوم كيبور – السادس من أكتوبر – يوم الغفران عند اليهود – على أساس أن درجة الاستعداد الإسرائيلى تكون عند أدنى درجاتها فى ذلك اليوم، كما أن حالة المد والجزر وشدة التيار فى قناة السويس يمكن أن تكون مناسبة فى يوم كهذا .

وفى منتصف سبتمبر، دارت معركة جوية بين طائرات اسرائيلية وسورية فوق البحر المتوسط، سقطت خلالها ١٣ طائرة سورية. وهكذا فُسرت التعبئة السورية وحشد القوات فوق مرتفعات الجولان، كتحسُّب لرد إسرائيل على المعركة الجوية. وفى مصر، كانت هناك مناورات كبيرة، لكن المخابرات الاسرائيلية لم تر فيها أكثر من مجرد مناورات. وكانت مناورات من هذا النوع وحشد القوات كثيراً ما يجرى على القناة دون أن يتحول لشىء جاد. فقد كانت تلك المناورات المتكررة جزءاً من خطة التضليل المصرية، التى كانت محكمة لدرجة أنها لم تنجح فى خداع المخابرات الإسرائيلية وحدها وإنما نجحت أيضاً فى خداع أجهزة المخابرات فى كثير من بلاد العالم كذلك، وبينها مخابرات الولايات المتحدة الأمريكية. والحقيقة أن ٩٥ ٪ من الضباط المصريين الذين وقعوا فى أسر إسرائيل لم يعلموا بتحول تلك المناورة إلى حرب إلا فى صباح السادس من أكتوبر .

كان مفهوم الدفاع الإسرائيلى محكوماً بعجز البلاد عن الاحتفاظ بقوة دائمة كبيرة تحت الطلب. فقد كان دفاع البلاد قائماً على عناصر ثلاثة: المخابرات، التى كان عليها أن تعطى تحذيراً قبل وقت كاف بما يسمح بتعبئة الاحتياط؛ وجيش دائم، يمكنه تعطيل جيش العدو فى المرحلة الأولية؛ ثم قوة جوية جزء كبير من أفرادها من النظاميين. وكان لهذه العناصر الثلاثة أن تكسب الوقت، وتحافظ على الخطوط، لحين حشد الاحتياط وتولى مهامه. وفى هذا الموقف، تصرف أحد العناصر على نحو خاطىء: المخابرات .

وفى الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣، قام الجيشان المصرى والسورى بالهجوم فى وقت واحد. وهاجم الحدود الإسرائيلية ما يعادل إجمالى قوات حلف الاطلنطى فى

أوروبا. وكان هذا الحشد على الحدود الشمالية والجنوبية لاسرائيل قد أثار الاهتمام، خاصة من جانب الجنرال «دافيد اليعازر»، رئيس الأركان، برغم تقديرات المخابرات التى كانت تهون من شأنها وتميل إلى تفسيرها تفسيراً منطقياً. إلا أنه فى يوم الجمعة ، الخامس من أكتوبر، طلب الجنرال «اليعازر»، أمام اجتماع عاجل حضره عدد من أعضاء مجلس الوزاراء، الإذن للقوات المسلحة برفع الاستعداد إلى الدرجة (ج)، والتى تضع الجيش العامل فى أعلى درجات الاستعداد، وتسمح بتعبئة محدودة للاحتياط فى وحدات معينة من القوات الجوية، وتلقى الإذن بذلك. وعندما وصلت معلومات المخابرات، فى الصباح الباكر من ٦ أكتوبر ١٩٧٣، تؤكد على أن هجوماً على اسرائيل سوف يقع فى ذلك اليوم، عقد اجتماع بين الجنرال «دايان» وزير الدفاع، والجنرال «اليعازر» رئيس الأركان. وفى الاجتماع، طلب «اليعازر» الإذن بتوجيه ضربة وقائية ضد سوريا واستدعاء الاحتياطى العام. ورفض الجنرال «دايان» الاقتراح، ولكن بعد جدل طويل مع «اليعازر»، الذى كان يضغط باتجاه التعبئة الشاملة لشن هجوم مضاد فورى، وافق «ديان» على تعبئة بهدف الدفاع فقط. وقد رُفع القرار إلى «جولدا مئير» رئيسة الوزراء، لاتخاذ القرار، مع اقتراح «دايان» بألا تزيد التعبئة عن ٥٠ ألف رجل. واستمر «اليعازر» على موقفه. وأيدت رئيسة الوزراء موقف «ديان»، ورفضت اقتراح ضربة الإجهاض، وتوصلوا إلى حل وسط برفع التعبئة إلى ١٠٠ ألف رجل. (الحقيقة أن «اليعازر» استغل هذا التصريح وأصدر الأوامر بتعبئة عدد أكبر من القوات.)

وفى الثانية من بعد الظهر، ومجلس الوزراء الاسرائيلى منعقد لمتابعة التطورات، وردت المعلومات بأن الحرب قد بدأت. وقد سهل وقوع الهجوم المفاجىء فى يوم كيبور أمر استدعاء الاحتياطى الاسرائيلى، فقد كان معظمهم إما فى المعابد للصلاة وإما فى المنازل. وهكذا، انطلقت الأمة من الصلاة إلى الوحدات ومناطق التجميع، تستبدل فى الطريق شال الصلاة بعدة القتال. وكان على اسرائيل أن تحارب مرة أخرى من أجل وجودها .

١

الجبهة الجنوبية

فى الأول من يوليو ١٩٧٣، عُين الجنرال «شموئيل جونين» قائداً للمنطقة الجنوبية خلفا للميجور جنرال «اريل شارون»، الذى ترك الجيش النظامى وتحول إلى الزراعة والسياسة. وجونين ضابط حازم، من السابرا* الأقحاح، ولد فى القدس وقضى سنوات عمره الأولى بمعهد لاهوتى تقليدى (يشيفا). وفى حرب الأيام الستة، قاد اللواء السابع خلال سلسلة من المعارك التى شهدتها صحراء سيناء، جعلت منه واحداً من القيادات البارزة فى جيش الدفاع الاسرا ئيلى. وهو رام بارع ودقيق على عدد من الأسلحة الصغيرة ، أصيب أكثر من مرة ، ومعروف بانضباطه الشديد وقدرته على معاملة ضباطه بطريقة لا تطاق أحياناً ، ولكنه قادر ، مع ذلك ، على بث الثقة فى نفوس رجاله وقيادتهم فى المعركة. وكان يُنظر إلى «جودريش » ، اسم عائلته الأصلية، والذى ظل يعرف به فى الجيش، بخليط من الاحترام والكراهية . وهو شديد التمسك بأبسط مظاهر الانضباط، وقد أعلن الحرب على الإهمال الذى كان قد بدأ يؤثر على جيش الدفاع الاسرائيلى. وكان قريباً فى مرات كثيرة من الموت، ولم يعرف عنه الخوف وسط النيران .

كانت القيادة الجنوبية مسئولة عن الجزء الجنوبى من اسرائيل بالكامل – النقب وسيناء – حتى قناة السويس. ويعتبر «دايان» قناة السويس، التى يبلغ عرضها ما بين ١٨٠ – ٢٤٠ ياردة وعمقها ما بين ٥٠ – ٦٠ ياردة، «واحداً من أفضل الخنادق المضادة للدبابات**». وضفتها الشرقية عبارة عن صحراء تذروها الرمال. أما الضفة الغربية فتجرى بطولها ترعة

* المقصود بالسابرا هم الذين ولدوا بإسرائيل . والسابرا هى نوع من الكمثرى البرية، شائكة من الخارج حلوة من الداخل .

** بعد انسحاب القوات الاسرائيلية من منطقة قناة السويس فى ١٩٧٥ ، تطبيقاً للاتفاق المؤقت بين اسرائيل ومصر ، قام المصريون بتوسيع القناة وتعميقها حتى تتمكن السفن العملاقة من العبور خلالها .

للمياه الحلوة، تحيط بها الخضرة. والضفاف منحدرة ومدعمة بالأسمنت، وأعلى معدل للمياه بها ستة أقدام تحت مستوى الضفة. وتتراكم الرمال والأتربة الناتجة عن حفر القناة وعمليات تجريف القاع المتكررة على الضفة الشرقية، على شكل حاجز يبلغ ارتفاعه ما بين ١٨ - ٣٠ قدما. (قام المهندسون الاسرائيليون بتعلية هذا الحاجز فى المناطق الحساسة لارتفاع ٧٥ قدم). وحركة المد والجزر متغيرة، ويتراوح مستوى الماء فى أجزاء القناة المختلفة، بين قدماً واحد وستة أقدام، وهى حقيقة هامة للغاية عند تنفيذ عمليات العبور .

وأمام القناة، تأخذ الصحراء فى الارتفاع المتموج إلى مسافة خمسة أميال عند خط من التلال الرملية، حيث تتحول إلى حافة جبلية وتلّيه، يمتد خلالها عدد من الممرات، مثل ممر متلا والجدى فى الجنوب. والمنطقة الشمالية، من القنطرة تقريباً وحتى بور سعيد، عبارة عن مستنقعات مالحة يقطعها عدة طرق أقامها الجيش الاسرائيلى. وبمحاذاة قناة السويس، كان هناك طريق يحمل اسما كودياً على الخرائط العسكرية الاسرائيلية هو «لكسيكون». وبمحاذاته على مسافة حوالى خمسة أميال من شرق القناة يوجد طريق آخر يحمل اسم «طريق المدفعية». (تحمل معالم الصحراء المتعددة، وكذلك التحصينات الموجودة على القناة، اسماء كودية، وهى التى سنتستخدمها هنا). ويقطع المنطقة شبكة كبيرة من الطرق المتوازية والمتقاطعة .

عندما تولى «جونين» القيادة الجنوبية ، قام بتسليم قيادة فرقته الاحتياطية إلى سلفه فى القيادة الجنوبية، الجنرال «شارون». وكان «جونين» أكثر الناس استياء من كثير مما رآه فى القيادة الجنوبية، خاصة فى عمل الأركان ومستوى الانضباط، فبدأ فى إحداث عدد من التغييرات. وعند مراجعته لنظام الدفاع على القناة ، اقترح إعادة تشغيل ١٤ موقعا سبق إغلاقها، وتلقى الموافقة على تشغيل عدد منها .

وخلال الشهور الأولى لممارسة منصبه، أعطى جونين الأولوية لعمل ميزانية لقيادته تسمح، أول ما تسمح، ببناء نقاط انطلاق للدبابات على خط الدفاع الثانى، حتى يمكن للدبابات أن تشتبك فى العمق من خط ثان، عند أية محاولة لعبور القناة. وكان الميجور جنرال «ماندلر»، قائد الفرقة المسئولة عن خط القناة، يضغط منذ سنوات، من أجل وضع هذا الاقتراح موضع التنفيذ، لكن الموضوع صادفته العقبات فى وزارة الدفاع. وكانت الأولوية التالية هى إعداد المرافق اللازمة لعبور اسرائيلى محتمل للقناة .

وخلال زياراته للقناة، لاحظ جونين أن المصريين زادوا من ارتفاع الحاجز على ضفتهم حتى بلغ ١٣٠ قدما تقريباً، الأمر الذى يتيح لهم إمكانية النظر المستقيم إلى الحاجز

الاسرائيلى وإلى أسفل إلى التحصينات ومخابىء الدبابات الإسرائيلية. لم تكن هذه التحصينات مرئية للمصريين فى أول إنشائها. كما أن التعلية جعلت بإمكان المصريين رصد خط الدفاع الثانى على ما يعرف بـ «طريق المدفعية»، الواقع إلى الخلف على مسافة ما بين ٥ - ٨ أميال. ولمواجهة ذلك، أصدر «جونين» أوامره بالبدء فى أعمال أرضية تخفى نشاطات الخط الثانى عن أعين المصريين؛ كما أمر كذلك ببناء أبراج للمراقبة بعيدة المدى، بارتفاع ٢٣٠ قدماً، حتى يمكن للقوات الاسرائيلية مراقبة خط الجبهة المصرية. لكن ثبت أن الوقت كان متأخراً.

عندما كان الجنرال «جافيتش» يتولى القيادة، صدرت الأوامر ببناء خزانات للبترول تحت الأرض أسفل النقاط القوية، تخرج منها مواسير يمكن بواسطتها رشّ القناة بطبقة رقيقة من البترول، ويمكن إشعالها كهربائياً من داخل الموقع، وإحالة أجزاء من القناة إلى خندق مائى مشتعل. ولكن بعد بناء اثنين فقط من هذا النظام، فى ١٩٧١، اتضح أن سرعة التيار فى القناة قد تعوق فاعلية هذه الوسيلة، فتوقف بناء المزيد منها. على أن قيادة الأركان، عند ما قررت إلغاء المشروع فى السنة نفسها، تصدّق للقيادة الجنوبية باختبار موقع واحد فى القناة لإحداث تأثير نفسى فى المصريين. وبسبب هذا الأثر، أعطى المصريون الكثير من التفكير والتخطيط للتغلب على هذه «العقبة» .

ولسنوات، وضع المصريون الجهاز- الذى كان قد اندثر تدريجياً تحت الرمال - تحت المراقبة الشديدة. وفى ١١ يوليو ١٩٧٣، أصدرت مخابرات الفرقة الثامنة/ مشاة المصرية تعميماً حول الموضوع أهمل الاسرائيليون الجهاز، وتوقفت كافة أعمال الصيانة منذ أواخر ١٩٧١، حسب ما ورد بالوثيقة (التى وقعت بأيدى الاسرائيليين أثناء الحرب اللاحقة). وكان المصريون قد لاحظوا بناء عشرين من تلك التجهيزات على القناة، لكن الداوريات التى أرسلت للاستطلاع وجدتها جميعاً زائفة. فالأنابيب فى الموقع المحدد كانت مقطوعة أو ملتوية تحت ثقل ما تراكم عليها من رمال، بحيث لا يمكن لأى سائل أن يمر خلالها، وكان الصدأ يغطيها والرمال تغمرها، بينما غطت أعمال البناء فى التحصينات أجزاء كاملة من هذا النظام. وكان الاستنتاج النهائى - وهو صحيح - هو أن الاسرائيليين قد تخلوا عن الفكرة، ولكن تركوها لأغراض الحرب النفسية. على أن «أحمد اسماعيل»، وزير الحرب المصرى، والجنرال «الشاذلى» رئيس الأركان، تحدثا كثيراً، فيما بعد، عن البراعة التى أبداها المصريون لتحييد هذه المعدة على القناة. وأصبحت قصة تخطيط مصر للتصدى لهذه المشكلة، وكيف أمكن «فى

الحقيقة» التغلب عليها، موضوعاً لشروحات طويلة ومفصلة من جانب «إسماعيل» و «الشاذلى»، ولتقارير عدد من المحررين العسكريين .

عندما تولى «جونين» القيادة فى يوليو، حاول إحياء النظام مرة أخرى. فأصدر أوامره إلى رئيس مهندسيه باختبار الموقعين الموجودين وتنظيفهما وإصلاح الخزانات، وإيجاد بدائل أقل كلفة تؤدى نفس الغرض. وقد أوصى قائد المهندسين بوسيلة أبسط فاعلية جرى اختبارها فى سبتمبر، لكن لم يتوفر الوقت لوضعها موضع التنفيذ. وفى أكتوبر، وفى مجرى الاستعداد للحرب، أصدر «جونين» تعليمات بتشغيل هذين الجهازين. وفى صباح السادس من أكتوبر، وصل طاقم من المهندسين، بقيادة الملازم «شيمون تال»، إلى نقطة «هيزايون» القوية عند الفردان، وشرحوا لرجال الموقع كيفية تشغيل الجهاز. وحيث أن أجهزة التحكم من داخل الموقع كانت مغلقة ومعطلة، فقد أُبلغ الأفراد بأن عليهم الجرى لعدة مئات من الياردات على القناة لفتح المواسير يدوياً، وإلقاء قنابل فسفورية على الزيت الطافى فوق السطح. وبعد شرح الجهاز فى «هيزايون»، واصل «تال» طريقه جنوباً نحو «متزمد» عند الدفرسوار. وبينما كان يشرح كيفية تشغيل الجهاز هناك، انهال عليهم سد النيران المدفعى المصرى.

الخداع

كانت المخابرات الإسرائيلية فى موقع جيد يمكنها من تحليل التطورات التى تطرأ على العالم العربى، وكونت، عبر السنين، فريق عمل كفء. وبعد صعود السادات إلى حكم مصر، شهدت الساحة أربع فترات من التصعيد، لاحظت المخابرات خلالها تعبئة مصرية واستعدادات للحرب. وحدث رفع لدرجات الاستعدادت أكثر من مرة فى منطقة الجبهة، وفى كل مرة كانت القوات الاسرائيلية تتأهب وتتقدم نحو الخط، حسب خطط العمليات المقررة آنذاك. على أن التعبئة الشاملة للجبهة الداخلية المصرية كانت أقل حدوثاً .

وجاء أول تعبئة كبرى، خلال حكم السادات ، فى نهاية «عام الحسم» (١٩٧١)، عندما أعد المصريون لهجوم مفاجىء بخمسين قاذفة على شرم الشيخ (ألغاه السادات بسبب اندلاع الحرب الهندية - الباكستانية). وخلال هذا الإنذار، كانت هناك تعبئة عامة للاحتياط، وللمركبات المدنية، والدفاع المدنى؛ واشتركت قوات القيادة العامة وجميع قوات الميدان فى مناورات. وتقدمت تشكيلات الدبابات إلى القناة، وكذلك معدات الكبارى والعبور المائى. وحدثت تحركات ونشاطات أرضية على القناة، وأعدت المرابض للدبابات والمدفعية، وفتحت مهابط

القناة فى القطاع الجنوبى. وتمشياً مع البيانات العسكرية التى أصدرتها القيادة، أعلنت وسائل الإعلام المصرية أن الحرب آتية لا ريب فيها. وبعد ذلك بعام، جرت تعبئة كبرى ثانية، خلال شهر ديسمبر ١٩٧٢، عندما خطط السادات لعملية يقوم خلالها لواء من المظليين بالاستيلاء على منطقة بسيناء، ويسيطر عليها لحين تدخل الأمم المتحدة. وخلال هذه التعبئة أيضاً، اشتركت قوات الميدان فى مناورات، واستدعيت الأجازات وتضاعفت حركة البناء فى المواقع والتحصينات على القناة، وتمهيد مناطق مركبات العبور ومعدات نصب الكبارى. ونشرت أجهزة الإعلام جو الحرب، لكن هذه المرة، لم تجر تعبئة للاحتياط أو الدفاع المدنى فى المدن؛ ولا تقدمت الوحدات الأرضية نحو القناة بمعدات الكبارى والعبور. أما الفترة الثالثة والرابعة للتعبئة والتصعيد فكانت فى عام ١٩٧٣، فى أبريل - مايو، وسبتمبر - أكتوبر .

كانت إمكانية قيام المصريين بالهجوم على اسرائيل دون إنذار مبكر، قائمة. وخلال المناقشات التى دارت مع أعضاء من مجلس الوزراء الاسرائيلى، قبل أيام من اندلاع الحرب، اعترف الجنرال «زعيرا» ومدير أبحاثه، البريجادير جنرال «اريبه شالف»، بإمكان ذلك، وإن قلَّلا من إمكان وقوعها. فلم يكن مجرد التواجد القوى على القناة دليلاً، بحد ذاته، على حرب وشيكة، إذ أن الانتشار كان قائماً منذ ١٩٦٩ ؛ ولاتعتبر علامات التصعيد - كما قيل - إشارة حاسمة، فقد تمت ثلاث عمليات تعبئة منذ ١٩٧١ دون أن يعقبها ضربة هجومية. وأصبح المفتاح الوحيد للحصول على إنذار مبكر هو تقييم النوايا المصرية، الأمر الذى يعنى، فى التطبيق، تقدير ما يقرره رأس الدولة المصرية، الرئيس السادات. ومسئولية كهذه لا يمكن تحميلها لمدير المخابرات الحربية وحده. والخطأ الذى وقع فيه كل من العاملين فى المخابرات وصانعو القرار السياسى، هو عدم الربط بين تزايد القوة فى الجنوب والشمال، فى وقت واحد، وبين نوايا سوريا ومصر .

تابعت المخابرات الاسرائيلية باهتمام المناورة الكبرى فى مصر، واهتمت فى الوقت نفسه اهتماماً محدوداً بالحشد الكبير للقوات السورية، بالرغم من أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن سوريا كانت - ببساطة - عصبية بسبب احتمال قيام اسرائيل بالرد على أعمال الردع التى قامت بها سوريا، رداً على إسقاط ١٣ طائرة سورية فى ١٣ سبتمبر. وساد افتراض مؤداه أنه ليس هناك من خطر حقيقى من ناحية سوريا، التى لا يمكن أن تبادر من جانبها، على الإطلاق، بالهجوم. وعند النظر إلى مصر، فإن ما رأوه كان مجرد إعداد لمناورة، تحسبا لهجوم اسرائيلى وشيك. كانت هناك مؤشرات عديدة تستوجب المزيد من الاهتمام، لكنها ربما تعادلت مع ضعفها من الإشارات غير الموجبة للإنزعاج. على أنه مع اقتراب أواخر سبتمبر، وردت

معلومات من مصادر عديدة تشير إلى أن المصريين يعدون لحرب شاملة. وفى حالات كثيرة، كانت معلومات المخابرات تتعرض لتفصيلات الكثير من الأحداث الوشيكة الحدوث. ولكن عندما وقعت هذه التطورات بالفعل، تم تجاهل كل تلك التفصيلات .

ومع بدء المناورات المصرية ، لاحظت القوات الاسرائيلية على قناة السويس درجة متزايدة من النشاط. وأخذ سيل من المعلومات حول الاستعدادات المصرية على القناة، يتدفق يومياً من مواقعهم. وأفاد الليفتنانت «داود أبو درهم»، قائد أحد التحصينات المتطرفة شمالاً، عند «أوركال»، على مسافة حوالى خمسة أميال جنوبى بور فؤاد، بأن سفينة تفرغ شحنة من المدافع والمعدات والذخيرة فى الميناء. ووردت التقارير حول تحرك المدافع نحو المواقع ، وتشغيل مواقع الصواريخ أرض - جو وأرض - أرض التى كانت خالية، وتطهير حقول الألغام على القناة، وغوص الجنود المصريين إلى الماء لتفجير الألغام البحرية. وتحدثت التقارير عن أعمال تحسين تتم فى العديد من مهابط الماء، ونشاطات وتحركات أرضية، وإعداد مناطق للعبور ولكبار وقوارب مطاطية. لكن المصريين قاموا بتطهير الألغام فى سبعين نقطة على القناة بينما تركوا مواقع أخرى دون تطهير، وفتحوا بعض المنازل إلى الماء، بينما تركوا منازل أخرى مغلقة. ومن ناحية أخرى، فقد استمرت الحياة اليومية العادية، لكل من الجنود والمدنيين، دون أى تغيير؛ فقد واظب الجنود المصريون على صيد الأسماك والتسكع على ضفاف القناة دون خوذات؛ كما واصل المدنيون أعمالهم كما لو أن شيئاً منذراً بالسوء لن يحدث .

عندما بدأت المناورة المصرية، وُضعت القوات الاسرائيلية على القناة فى حالة الاستعداد، وأصدرت القيادة الجنوبية تعليماتها لضمان تنفيذ كافة الأوامر المستديمة فى حالة كهذه، وجرى اختبار جميع نظم التعبئة. وأُلغيت الأجازات. وقام الجنرال «جونين» بزيارة القناة، فى الثانى من أكتوبر، وأصدر عدداً من التعليمات لضمان أعلى درجات اليقظة. وطلب إذناً باتخاذ عدد من الخطوات الإنذارية، رُفض بعضها، وإن صدرت الأوامر بتشديد الحراسة حول جميع معسكرات سيناء، وتأمينها، والتأكد من معلومية كافة القوات بالعملية «شوفاش يونيم» * التى ينبغى تنفيذها عند تحرك العدو، والتى لم تكن قد اختبرت منذ فترة. كما صدرت الأوامر

* شوفاش يونيم (وتعنى بالعبرية عش الحمامة) هو الاسم الكودى لخطة انتشار المعركة للقوات النظامية بسيناء لمواجهة أى عمل عدوانى . وتتضمن وضع القوات فى أعلى درجات الاستعداد ، وتشغيل كافة المواقع على القناة ، والاستعداد لصد هجوم مدفعى ، ثم يتبع ذلك تحرك فرقة مدرعة كاملة باتجاه القناة ، كما تسمح بإلحاق عنصر مدرع على كل تحصين، وتمكين وحدات مدرعة من اتخاذ مواقعها على المنحدرات لتغطية الفواصل بين التحصينات .

بالإسراع بتجميع الكبارى السابقة التجهيز لاستخدامها فى حالة عبور اسرائيلى للقناة، وبنصب الكمائن على الساتر .

طبقاً لتقرير لجنة «اجرانات» * ، فقد سلم الليفتنانت «بنيامين سيمان توف»، ضابط تنظيم المعركة بمخابرات القيادة الجنوبية، وثيقة إلى الليفتنانت كولونيل «داڤيد جداليا»، ضابط مخابرات المنطقة الجنوبية، تحلل الانتشار على الجانب المصرى باعتباره مؤشراً على الإعداد لخوض حرب، وليس مناورة. وفى ٣ أكتوبر، سلم وثيقة أخرى تحدد عدداً من العوامل التى تؤكد على أن المناورة هى غطاء للاستعداد للحرب. والحقيقة أن الجنرال «زعيرا» مدير المخابرات، لم يعلم بتقييم «سيمان توف» إلا فى مارس ١٩٧٤، أثناء جلسات استماع لجنة «اجرانات» (وعندها استدعى «سيمان توف» – الذى كان قد أبعد عن مخابرات القيادة الجنوبية– إلى مكتبه، واستمع إلى قصته، ورقاه إلى رتبة كابتن) .

فى الخامس من أكتوبر، طلبت الفرقة تعزيزات، من بينها قوات إضافية لتشغيل النقاط القوية على القناة، وللانتشار فى الممرات الواقعة إلى الشرق منها، على مسافة حوالى ٢٠ ميلا. وجاء الرد على هذا إشارة من القيادة الجنوبية تكرر مضمون إشارة من القيادة العامة، بأن المناورة المصرية تقترب من نهايتها .

فى تلك الأثناء، أكدت الإذاعات السوڤيتية على أن الحشود الاسرائيلية تعتزم الهجوم على سوريا. وكان تقدير المخابرات الاسرائيلية هو أن توقع السوريين لهجوم اسرائيلى قد تزايد خلال الساعات الأربع والعشرين المنصرمة، وأن الانتشار السورى مرجعه اعتقاد السوريين بأن اسرائيل سوف تقوم بهجوم وقائى، وذلك لأسباب سياسية (تعود إلى عزلة اسرائيل فى العالم، ونمو التعاون بين دول خط المواجهة العربية). وعلى المنوال نفسه، كان هناك تأكيد على مخاوف مصرية من هجوم اسرائيلى، حيث كانت تجرى بالفعل، ولأول مرة منذ حرب الاستنزاف، مناورة بحرية كبيرة فى كل من البحرين المتوسط والأحمر .

عند فجر الخامس من أكتوبر، تلاحظ أن الجيش المصرى على قناة السويس قد بلغ درجةمن الترتيب وانتشار الطوارىء لم يسبق لجيش الدفاع الاسرائيلى أن لاحظها من قبل. فقد لوحظت إضافة ٥٦ بطارية مدفعية، ليرتفع الإجمالى فى المناطق الأمامية إلى ٩٤ بطارية.

---

* لجنة تحقيق علنية برئاسة « شموئيل اجرانات » ، رئيس المحكمة العليا الاسرائيلية، شكلتها حكومة اسرائيل للتحقيق فى بعض جوانب حرب يوم كيبور ، وإدارة الحرب فى مراحلها الأولى .

كما لوحظ، فوق ذلك، نشر خمس فرق مشاة كاملة، وحشد خمس مناطق لمعدات الكبارى والعبور بشكل جزئى، واحتلال فصائل الدبابات للمرابض المعدة على الساتر الرملى للقناة وذلك لقصف سيناء. *وقد رُصدت وحدات الزوارق الطاطية، وكذلك حركة أمامية لتجمعات إضافية من القوات. وفى أوائل الأسبوع،* وبعد فحص *الدلائل* المتعددة، أبلغ ضابط كبير *بالبحرية الاسرائيلية قائده، بأن الحرب* وشيكة الوقوع. لكن القيادة العامة لم تأخذ بتقديراته.

وفى ٣٠ سبتمبر، نوقش *الموقف فى* القيادة العامة. وأعرب الجنرال «تال» عن أسفه للتقديرات المهدئة التى تقدمها المخابرات، بينما أصر الجنرال «زعيرا» على أن احتمالات الحرب قليلة، مفسراً الحشود السورية بعلاقتها بحادث ١٣ سبتمبر، عندما أسقط الطيران الإسرائيلى طائرات سورية، وأن المصريين يعدون، ببساطة، لمناورة كبيرة. لكن «تال» كان قلقاً، فدعى «زعيرا» و «شاليف» إلى اجتماع أكد فيه مرة أخرى عدم قبوله بتقديراتهما. لكنهما لم يأخذا برأيه .

وكان هناك عنصر شرق أوسطى آخر متورط فى التطورات العسكرية للمنطقة، يمكن أن يقدم مؤشراً آخر على قرب نشوب الحرب: الاتحاد السوفيتى. فقبل الحرب بثلاثة أيام، أُطلق قمر استطلاع سوفيتى، اتخذ مداره فوق سيناء وقناة السويس ومنطقة الحدود الإسرائيلية – السورية، بالإضافة لمنطقة الجليل. وكان مداره يتغير كل يوم بحيث يغطى قطاعات مختلفة من خطى الجبهة الإسرائيلية. وفى صباح الأربعاء، الثالث من أكتوبر، استدعى الرئيس السادات «فينواجرادوف»، السفير السوفيتى. وفى الوقت نفسه تقريباً، استدعى الرئيس الأسد السفير السوفيتى فى دمشق لمقابلته. وأبلغ الرئيسان السفيرين بأن الحرب وشيكة الوقوع، دون أن يتطرقا للتفاصيل. وفى الرابع من أكتوبر، بدأت وحدات من الأسطول السوفيتى، الراسية بالاسكندرية وبور سعيد، فى الرحيل. وقد قَوى هذا الرحيل من شكوك مخابرات البحرية الإسرائيلية. وفى الوقت نفسه، وردت المعلومات بهبوط الطائرات السوفيتية العملاقة من طراز «انتينوف إن ٢٢» بكل من القاهرة ودمشق، وترحيل العائلات السوفيتية التى كانت تقيم بالبلدين. وكان تفسير المخابرات الإسرائيلية لهذه التحركات السوفيتية، أنه: إما أن السوفيت على علم بأن الحرب وشيكة الوقوع (وينبغى أن يكون الترحيل وانسحاب البحرية حركة سوفيتية المقصود منها إثناء المصريين عن عمل كهذا، حيث أنه فى أواخر عام الحسم (١٩٧١)، وأثناء تعبئة عامة سابقة فى مصر، أخلت السفن السوفيتية ميناء بور سعيد)؛ وإنما أن المصريين والسوريين قد قررا معاً، أخيراً، أن ينهيا الوجود السوفيتى فى مصر، وإن كان هذا لا يبدو معقولاً .

وفى يوم السبت، ٢٩ سبتمبر، شهدت الحدود النمساوية – التشيكية قيام اثنين من

المسلحين الفلسطينيين باختطاف قطار يحمل يهوداً روسا قادمين من موسكو إلى ڤيينا. واحتجز المختطفان خمسة من اليهود وأحد موظفى الجمارك النمساوية كرهائن، وطلبوا تسهيلات للتوجه برهائنهم إلى إحدى الدول العربية. وخلال المفاوضات، قدم «برونو كرايسكى»، مستشار النمسا (وهو يهودى) اقتراحاً بإغلاق المركز الانتقالى للمهاجرين اليهود فى «شيناو»، القريبة من ڤيينا. وأطلق سراح الرهائن وكذلك المختطفين. لكن الفزع والغضب سادا اسرائيل، وسيطر الحادث على اهتمام جميع أجهزة الإعلام. وانهمكت الحكومة الاسرائيلية كلها فى حل هذه المشكلة: طارت «جولدا مئير» إلى ستراسبورج للتحدث أمام المجلس الأوروبى ثم، وبرغم تشكك بعض أعضاء وزارتها ، توجهت إلى ڤيينا فى محاولة فاشلة لإقناع كرايسكى بالعدول عن قراره. وعادت إلى اسرائيل يوم الأربعاء، الثالث من أكتوبر، وفور عودتها عقدت اجتماعا لمجلس الوزراء لبحث تطورات الأزمة النمساوية. ومن غير الواضح، حتى يومنا هذا، ما إذا كانت هذه العملية جزءاً من خطة الخداع العامة لصرف انتباه اسرائيل عن أوضاع الجبهة أم لا *. لقد نفذ العملية تنظيم إرهابى فلسطينى غير معروف، وإن كان فى حقيقة الأمر على صلة بالصاعقة، التنظيم الفدائى الفلسطينى الذى يسيطر عليه الجيش السورى، الأمر الذى يقوّى من الاعتقاد بأن العملية جزء من خطة الخداع. وأياً كان أمر هذه العملية، وسواء كانت مدبرة أم لا، فقد أسهمت بالفعل فى صرف أنظار الحكومة والرأى العام عن التطورات المنذرة بالسوء على الحدود الاسرائيلية .

وفى مساء الخميس، وضع الجنرال «زعيرا» أنباء رحيل العائلات السوڤيتية من مصر وسوريا أمام رئيس الأركان؛ وكان «زعيرا» مريضاً منذ يومين مضيا، وأعطته هذه المعلومات الجديدة إحساساً بعدم الارتياح .

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة، أعطيت تعليمات للمراسلين الحربيين بالصحافة بألا يبالغوا بشأن التقارير الواردة من الخارج حول الحشود العربية الكبيرة على الحدود، وأن يكتفوا بالإشارة إلى أن جيش الدفاع الاسرائيلى يتخذ الإجراءات اللازمة لمواجهة التطورات.

---

* يقول إدجار اوبلانس : « وكان عمل آخر من أعمال الخداع ، وربما كان أنجحها جميعاً ولم يوافق عليه الرئيس السادات إلا على مضض ، يتضمن استخدام الصاعقة الفدائية السورية وتم تنفيذ خطة الخداع يوم ٢٨ سبتمبر ، حيث قام مسلحان من الصاعقة السورية باختطاف قطار فى النمسا، واحتجزا عدداً من الرهائن ، وطالبا بإغلاق مقر قلعة «شوناو» بالقرب من ڤيينا والذى كان يستخدم كمعسكر ترانزيت لليهود الذين يغادرون الاتحاد السوڤيتى » . انظر ادجار اوبلانس ، مرجع سابق ، ص ٧٢ (المترجم) .

على أنه، فى الصباح نفسه، قرر الجنرال «اليعازر» رفع درجة الاستعداد إلى الحالة (ج)، وهى أعلى حالة طوارئ فى الجيش العامل؛ وكانت المرة الأولى التى يعلن فيها «اليعازر»، مثل هذه الحالة منذ أن تولى رئاسة الأركان. فى الوقت نفسه، عُقد اجتماع مع وزير الدفاع. وتحدث «زعيرا» عن الجسر الجوى، موضحاً أنه يمكن أن يشير إلى قطيعة نهائية بين العرب والاتحاد السوفيتى، لكنه لا يعتقد بإمكان ذلك. وواصل حديثه قائلاً بأن من الواضح أن السوفيت كانوا على علم بإمكانية حدوث ذلك؛ وربما قبلوا بإدعاءات العرب بأن اسرائيل على وشك شن هجوم، وهو ما وجد صداه عرضاً فى إذاعاتهم. على أن هذا يبدو بعيد الاحتمال، لأنه فى حالة كهذه كان السوفيت سيفاتحون الأمريكيين، الذين سوف يتصلون بدورهم بالاسرائيليين لنصحهم بالاعتدال. وحيث أنه لم تكن هناك مداخلات أمريكية، فقد توصل «زعيرا» إلى أنه من المحتمل أن يكون السوفيت على علم باحتمال وقوع هجوم عربى، فخشوا على عائلاتهم فى حالة وقوع هجوم اسرائيلى مضاد. ومع كل ذلك، فقد كان إحساس المخابرات هو أن الهجوم العربى احتمال محدود للغاية .

كان الجنرال «اليعازر» مقتنعاً، على طول الخط، بأن باستطاعته أن يتلقى من المخابرات الحربية تحذيراً خلال وقت يتيح له التعبئة، وأن تحليل المعلومات التى تدفقت خلال الأيام الحاسمة من الأسبوع الأول من اكتوبر تبرر هذا الافتراض. وكان يصّر، حتى بعد الحرب، على أنه كانت هناك كمية كبيرة من المعلومات التى تشير إلى قرب وقوع الحرب، لم تصله. فقد كان هناك، على حد شهادة «اليعازر» أمام لجنة «اجرانات»، معلومات وردت يوم الجمعة تشير إلى أن الحرب وشيكة، لكن هذه المعلومات لم تصله حتى صباح السبت. وأكد أنه إذا كان قد تلقى هذه المعلومات، لأمر بالتعبئة صباح الجمعة. والحقيقة أن ورود التحذير بوقوع الحرب يوم الجمعة كان كافياً. فقبل ذلك بيومين، أى فى الثالث من اكتوبر، أعلن أمام الصحافة الاسرائيلية، التى سألته عما إذا كانت القوات الدائمة كافية لصد الهجوم فى حال نشوب الحرب، أن ذلك غير ممكن؛ وإنما تستطيع، فى أحسن الاحوال، وبعد انضمام الطيران، أن تمنع الانهيار فى حالة المفاجئة التامة. وكان مفترضاً، رغم ذلك، أن اسرائيل سوف يكون أمامها الوقت الكافى لتعبئة الاحتياط .

منذ مساء الخميس، كانت الشكوك تمزق «زعيرا»، لكنه كان يطمئن نفسه، بشكل أو بآخر، بأن الجيش الدائم كان فى وضع الاستعداد، وأن قوته كافية بما يسمح للقيادة العامة بصد هجوم أولى. وفى يوم الخميس، الخامس من أكتوبر ، عقد اجتماع بمقر قيادة الأركان العامة .

واستعرضت مرة أخرى صورة المخابرات ، وكان احتمال اندلاع الحرب أقل من القليل ، مرة أخرى . كما عقد اجتماع لقادة أركان القيادة الجنوبية ، فى الثالثة والنصف من بعد الظهر ، استعرض كافة الاستعدادات التى اتخذت ونوقشت خطط العمليات المناسبة . وتقرر أن يقوم نصف قادة الأركان بزيارة جبهة السويس فى اليوم التالى ، وأن يزور النصف الآخر بقية مناطق القيادة .

فى تلك الليلة، ذهب قادة اسرائيل العسكريين وزعماؤها السياسيون إلى مخادعهم يساورهم شعور بالقلق، لكن قليلين منهم حلم بالهجوم الوشيك المعرضة له البلاد. ولو كانوا استطاعوا أن يتخلصوا من أفكارهم المسبقة، لتغير تاريخ الأيام القليلة التى تلت. وعند الرابعة من صباح السادس من أكتوبر، استيقظ الجنرال «زعيرا» على صوت الرنين الحاد للتليفون المجاور لسريره . واستمع إلى الصوت القادم على الطرف الآخر ، وعلى الفور قام بطلب ثلاثة أرقام تليفونية ليوقظ وزير الدفاع ورئيس الأركان ، ونائب رئيس الأركان (الجنرال تال) . وأعاد على أسماعهم المعلومات التى تلقاها لتوه : سوف تندلع الحرب مساء اليوم على الجبهتين مع غروب الشمس .

الانقضاض

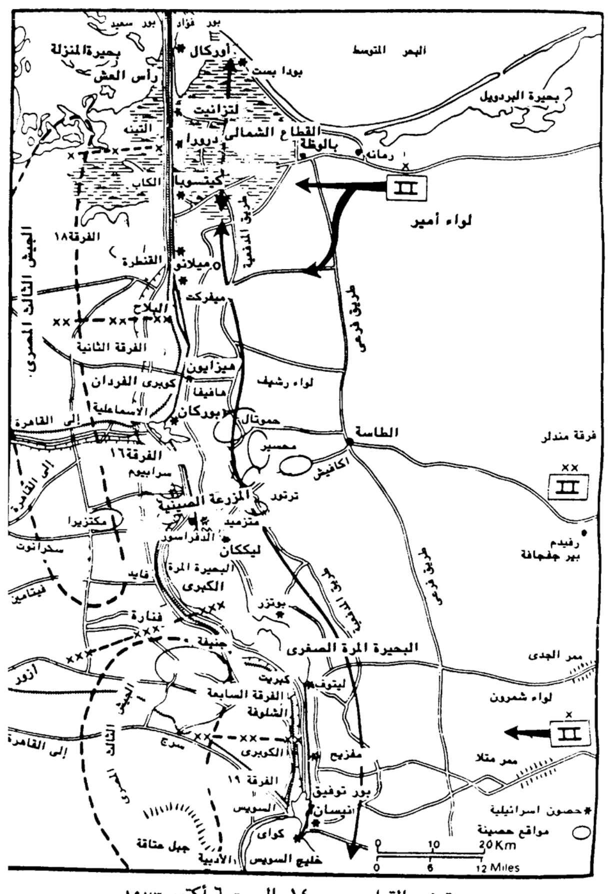
تتألف قوة الجيش المصرى (وهو من أكبر الجيوش النظامية فى العالم) من حوالى ٨٠٠ ألف مقاتل ، و ٢٢٠٠ دبابة ، و ٢٣٠٠ مدفع ، و ١٥٠ بطارية صواريخ مضادة للطائرات و٥٥٠ طائرة خط أول . وكان ينتشر على القناة بخمس فرق مشاة وعدد من الألوية المستقلة (مشاة ومدرعات) تدعمها ثلاث فرق ميكانيكية وفرقتا مدرعات. وتضم كل فرقة مشاة كتيبة دبابات بكل لواء من ألويتها الثلاثة ، ليصل مجموع الدبابات بكل فرقة مشاة إلى ١٢٠ دبابة. وتضم كل فرقة من الفرق الميكانيكية الثلاث اثنتين من الألوية الميكانيكية ولواء مدرعاً، ومجموع الدبابات بكل فرقة ١٦٠ دبابة. وكانت الفرقتان المدرعتان تتألف كل منها من لواءين مدرعين ولواء ميكانيكى. ومجموع دبابات الفرقة ٢٥٠ دبابة. كما كان هناك أيضاً ألوية دبابات مستقلة ، واثنتان من ألوية المظلات، وحوالى ٢٨ كتيبة صاعقة ولواء من مشاة البحرية .

كان الجيش الثانى المصرى مسئولاً عن النصف الشمالى من القناة ، بينما يتولى الجيش الثالث مسئولية النصف الجنوبى. وكانت جبهة الجيش الثانى تشغلها الفرقة ١٨ / مشاة من بور سعيد وحتى القنطرة وكوبرى الفردان؛ والفرقة الثانية / مشاة من كوبرى الفردان وحتى

شمال بحيرة التمساح ؛ وتحتل الفرقة ١٦ / مشاة من بحيرة التمساح إلى الدفرسوار، عند الطرف الشمالى للبحيرة المرة الكبرى. وكان يتبع الجيش الثالث : الفرقة السابعة / مشاة، وهى مسئولة عن قطاع البحيرات المرة، حتى منتصف الطريق باتجاه القطاع الجنوبى الأقصى من قناة السويس، ثم الفرقة ١٩ / مشاة حتى جنوب مدينة السويس، بما فى ذلك المدينة نفسها. وكانت كل فرقة من فرق العبور مدعمة بلواء مدرع، مكون فى جانب منه من الفرق المدرعة والميكانيكية .

كانت كل حركة من حركات المرحلة الأولى، التى استغرقت من ٦-٩ أكتوبر، مخططة ومعدة بشكل تفصيلى دقيق . فكان على عشرة ألوية أن تعبر القناة، ثلاثة عند منطقة القنطرة، وثلاثة فى منطقة الاسماعيلية - الدفرسوار، وأربعة فى منطقة جنيفة - السويس. وكان على إحدى الفرق أن تعبر من قطاع يصل عرضه إلى مابين ٤-٥ أميال. وكان منوطاً بالموجة الأولى الاستيلاء والسيطرة على الدشم الأرضية ، وعندما تلحق بهم الموجة الثانية، فإن على قوات الموجة الأولى أن تتقدم لمسافة ٢٠٠ ياردة، ثم تثبت فى مواقعها؛ وفى خلال ساعة من الهجوم تتقدم الموجتان الثالثة والرابعة لتلحق بالموجة الأولى والثانية. وبمجرد عبور وحدات دعم الكتيبة المهاجمة فإن على القوة بكاملها أن تتقدم. وكان على الموجات الأولى من فرقة المشاة المهاجمة أن تثبّت مواقعها فى مساحة بعمق ما بين ميل لميلين، حيث تتبعها وحدات مشاة خاصة مدربة على مهاجمة النقاط القوية والاستيلاء عليها. وكان عرض الفاصل بين كل رأس جسر خمسة أميال وبعمق ثلاثة أميال ونصف الميل. وكان على القوات أن تبقى فى مواقعها هذه لحين وصول الدبابات والمدفعية، فتتحرك لتوسيع قاعدة بعرض عشرة أميال وبعمق خمسة أميال.

وعند ساعة الصفر من يوم السادس من أكتوبر، قامت ٢٤٠ طائرة مصرية بعبور القناة. وكانت مهمتها هى قصف ثلاثة مطارات فى سيناء، وتدمير بطاريات صواريخ «هوك» أرض - جو الاسرائيلية، وكذلك تدمير ثلاثة مقار قيادة اسرائيلية، بالإضافة إلى محطات رادار ومواقع مدفعية، والمراكز الإدارية والنقطة الاسرائيلية الحصينة المعروفة باسم «بودابست»، على الضفة الرملية شرقى بور فؤاد. وفى الوقت نفسه، انطلقت نيران ألفى مدفع على طول الجبهة: مدفعية ميدان، ومدفعية متوسطة وثقيلة، وهاونات ثقيلة. وسقط على المواقع الإسرائيلية، فى الدقيقة الأولى، عشر آلاف وخمسمائة قذيفة، أى بمعدل ١٧٥ قذيفة فى الثانية الواحدة. وأطلق لواء صواريخ «فروج» أرض - أرض نيرانه، وتحركت الدبابات نحو مرابضها، المعدة على الساتر الرملى، لتدك بمدافعها ونيرانها القريبة النقاط الاسرائيلية الحصينة. ثلاثة آلاف طن من



توزيع القوات سعت ١٤، السبت ٦ أكتوبر١٩٧٣

الدمار المكثف على حفنة من التحصينات الاسرائيلية، أحالت الضفة الشرقية لقناة السويس بكاملها إلى جحيم ، على مدى ثلاث وخمسين دقيقة .

وفى الثانية والربع مساء، وبعد أن عادت الطائرات من مهامها، بدأت الموجة الأولى من ثمانية آلاف من المشاة المهاجمين، يتقدمون لاجتياح القناة. كانوا كمن تدرب على المهمة لعشرات المرات، أو (فى حالات كثيرة) لمئات المرات. وعبروا، فى معظم مناطق لا تغطيها نيران النقاط القوية الاسرائيلية أو غير مجهزة للعمليات؛ وكانوا، فى معظم الأماكن، يتحاشون تلك التحصينات، كانوا يتجاوزونها ثم يندفعون شرقاً. وفى الوقت نفسه، قامت وحدات الصاعقة والقوات المضادة للدبابات بعبور القناة، وقاموا بتلغيم المواقع، وأُعدت الكمائن المضادة للدبابات، وانتظرت تقدم المدرعات الاسرائيلية.

كانت المقاومة الاسرائيلية شديدة فى بعض المواقع ، وضعيفة نسبياً فى مناطق أخرى . وكان التقدير المصرى الأولىّ أن العبور سوف يكلفهم ما بين ٢٥ ألف - ٣٠ ألف إصابة ، منها عشرة آلاف قتيل . لكن خسائرهم الفعلية فى الهجمة الأولى، والتى بلغت ٢٠٨ قتيل فقط ، لم تخطر ببال أىّ من المخططين المصريين . (فى منطقة الجيش الثانى ، سار العبور طبقاً للخطة الموضوعة مع تعثرات طفيفة، أما فى منطقة الجيش الثالث فقد كانت هناك بعض المشكلات الناجمة عن تقدير المصريين لعرض الساتر الاسرائيلى بأقل من عرضه الحقيقى وكذلك بسبب طبيعة التربة عند الطرف الجنوبى لقناة السويس ، فبدلاً من أن تتفتت تحت الضغط الشديد للمياه، كانت تتحول إلى مستنقع من الطين.) وفيما بعد، أفاد قائد إحدى فرقتى الجيش الثالث، التى لاقت فرقته مقاومة شديدة، بأنه فقد ١٠٪ من قوته خلال الهجوم الأولىّ، بينما كان يقدر هذه الخسائر ، قبل الهجوم ، بـ ٣٠٪. وقد روى قصة دبابة اسرائيلية عزلاء، تصدت للقوة على مدى مايزيد على نصف الساعة ، وأنزلت بقوته خسائر كبيرة ، عندما حاولت القوة تدمير الدبابة . ويتحدث الجنرال المصرى عن دهشته البالغة عندما اكتشفوا- بعد التغلب على الدبابة - أن كل طاقمها قد قتل ما عدا جندى جريح ظل يواصل القتال. ويصف كيف تأثر ورجاله بهذا الرجل، الذى أدى التحية للجنرال المصرى وهو محمول على النقالة إلى عربة الإسعاف التى كانت تنتظره .

صادفت الصاعقة المصرية، التى هبطت فى العمق من منطقة بور فؤاد فى الشمال وحتى شرم الشيخ عند الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء، نجاحاً أقل. فقد كان هدف القوة سحق الهجمات المضادة السرائيلية المحتملة، وكانت الأوامر قد صدرت لوحدات اصطياد الدبابات

بالانتشار لمنع الدبابات الاسرائيلية من اتخاذ مواقعها بين النقاط القوية، حسب الخطة. وكانت إحدى العمليات الخاصة فى هذه المرحلة تقتضى عبور اللواء ١٣٠/ مشاة بحرية للبحيرة المرة الكبرى: حاولت مركباته البرمائية تجاوز القوات الاسرائيلية والاتصال بقوات الصاعقة فى منطقة ممرى متلا والجدى. لكن القوات الجوية الاسرائيلية تمكنت من إسقاط ١٤ طائرة هليكوبتر مصرية، كانت تحمل قوات من الصاعقة، وبسرعة استعدت القوات الاسرائيلية فى سيناء لمواجهة الخطر .

الدفاع عن خط «بارليف»

فى مواجهة الهجوم الأولىّ للجيش المصرى كانت هناك فرقة الميجور جنرال «ابراهام البرت ماندلر» . وهو شخصية لطيفة وحساسة ، عُرف كواحد من أكثر ضباط جيش الدفاع انضباطاً وحذراً . طويل القامة ، صموت ، متورد الوجنتين ، يبلغ من العمر ٤٥ عاماً، ذو عينين زرقاوين ثاقبتين. قاد اللواء المدرع الذى بذل المستحيل فى سبيل اختراق الخطوط السورية التى كانت تسيطر على مرتفعات الجولان فى ١٩٦٧ . الآن، ومع اندلاع الحرب لمرة أخرى، كانت تحت قيادته حوالى ٢٨٠ دبابة موزعة على ثلاث ألوية، مع قيادة خاصة بقوة لواء مشاة، يسيطر على المنطقة الشمالية من أراضى المستنقعات. على أن الجزء الأكبر من هذه القوات كان موجوداً كـ «احتياطى فورى» بسيناء الشرقية ، جاهزا للعمل كـ «سلك مصيدة» لخط بارليف.

كان يقف فى مواجهة الاحتشاد المصرى بطول الـ ١١٠ ميل من قناة السويس ٤٣٦ فرداً من القوات الاسرائيلية، موزعين على سلسلة من التحصينات يفصل بين كل منها ما بين ٧-٨ أميال ، وثلاث دبابات، موجودة بالفعل على خط الماء . وكانوا من رجال لواء القدس، يؤدون خدمتهم الاحتياطية السنوية، ويمثلون عينة نموذجية لأهل القدس. ولأن القدس كانت تضم نسبة كبيرة من المهاجرين الجدد، فقد كان خبرة عدد كبير ممن يخدمون فى التحصينات قليلة بمثل هذا العمل، أو منعدمة .

فى منتصف نهار السبت ٦ أكتوبر، أضاءت لمبات الإنذار بمقر القيادة الشرقى لمندلر بسيناء محذرة من قصف مدفعى وشيك، ولتبلغ جميع القوات لاتخاذ وضع الاستعداد. وضغط البريجادير جنرال «بينو»، نائب «مندلر»، على قائده مرة أخرى لإبلاغ جميع الوحدات بتنفيذ الخطة «شوفاش يونيم» والتقدم نحو القناة. وعند منتصف النهار، وافق «ماندلر» وصدرت الأوامر. وعند عودته إلى مقر قيادته فى الواحدة وخمسة واربعين دقيقة، بعد أن حضر اجتماع

لقيادة الأركان بتل أبيب، استدعى الجنرال «جونين» «ماندلر»، وراجع معه الأوامر العديدة التى صدرت. وفى النهاية أخبره بأنه يشعر بأن الوقت قد فات لتحريك لواءاته المدرعة نحو القناة. وأجاب «ماندلر» باقتضاب «نعم، اعتقد ذلك. فنحن عرضة الآن للقصف».

فى تلك الأثناء، كانت التقارير تترى من النقاط الحصينة على القناة، تصف القصف المدفعى الشديد والغارات الجوية وعمليات العبور والقتال. وكانت بعض التحصينات (خصوصاً تلك التى كان يتولى قيادتها ضباط) ترسل تقاريرها بصيغة واقعية؛ أما الأخرى، التى قتل ضباطها منذ البداية ، فكانت تقاريرها هستيرية فى بعض الأحيان . وفى بعض الحالات، تولى صف الضباط قيادة المعركة، وفى حالة واحدة تولاها أحد الجنود. وكان الجميع يطالبون بالمعاونة الجوية والمدفعية، والتعزيز بالمدرعات. وتلقى الجميع وعداً بأن ما طلبوه فى الطريق إليهم .

بحلول الثالثة من بعد الظهر ، كان واضحاً أمام «ماندلر» أن المصريين ينوون القيام بهجوم شامل على الجبهة . وبعد ذلك بساعة، أصبح من الجلى أن العبور هو عملية برمائية تشمل القناة بكاملها . وحاول «جونين»، من مقر قيادته ، أن يقرأ المعركة من التقارير المتدفقة ، وقدم نظام الاتصال الشديد التطور صورة واضحة لما كان يجرى فى كل نقطة حصينة على القناة. وعلى مدى ساعتين ، حاول أن يحدد المجهود الرئيسى؛ والحقيقة أن المصريين أنفسهم كان تقديرهم أن غياب مثل ذلك المجهود الرئيسى سوف يؤدى، بحد ذاته، إلى تأخر الهجوم الاسرائيلى المضاد. وبحلول الرابعة مساء، كان واضحاً أمام جونين أنه ليس هناك مجهود رئيسى، وأن العبور كان أكثر نجاحاً فى القطاع الشمالى من القناة عنه فى القطاع الجنوبى.

فى أثناء ذلك، واصلت التحصينات الستة عشر بخط «بارليف» صمودها أمام وطأة الهجوم. وارتد المصريون على أعقابهم أمام النقاط المزودة بوحدات الإشعال، لكن القوات المصرية نجحت فى اختراق تلك التى سبق أن صدرت الأوامر لرجالها بالاختباء، حيث كان الظن أن ما يتعرضون له هو مجرد قصف مدفعى. وقد عكست المقاومة فى كل تحصين ثبات القادة فى مواقعهم، وكان الضباط فى كثير من الحالات هم أول الضحايا.

إن قصة كل تحصين من التحصينات تعتبر ملحمة فى حد ذاتها. فقبل أن ترد الأوامر، صباح السابع من أكتوبر، بإخلاء التحصينات، كانت معظم الدبابات التى قاتلت فى السادس من اكتوبر وليلة السابع منه، فى محاولة لتعزيز التحصينات، قد دمرت. وانعزلت قوات التحصينات بسبب تطويق القوات المصرية لها. وقد نجح بعضها فى اختراق الخطوط المصرية بعد مغامرات مثيرة، وفقدت الأخرى معظم أفرادها، ووقع الباقون فى الأسر

وتعتبر قصة الوحدة التى كانت تحتل الحصن الذى يحمل الاسم الكودى «كتيويا»، فى

القطاع الشمالى من القناة ، نموذجاً لتلك الملاحم . فعندما وقع الهجوم المصرى، كان رجال الوحدة يؤدون الصلاة خلف ثلاثة من أبناء أحد معابد القدس ، وعندما جُرح القائد، تولى العريف « أورليفى » القيادة ونجح فى صد الهجوم المصرى ، وإغراق عدد من القوارب المصرية التى كانت تعبر القناة . ومرة أخرى ، وسط ظلمة الصباح الباكر من السابع من أكتوبر، اشتبك « اورليفى» - الذى لم يعد معه سوى ١٢ مقاتلاً ، منهم ثلاثة من الجرحى - مع فصيلتين من القوات المصرية ، وترك المكان قبل أن يعجّ الموقع بجثث الجنود. وعندما تناقصت قوته إلى سبعة أفراد، ممن أنهكهم القتال وارتطام القذائف ونفاد الذخيرة، وجد نفسه يواجه كتيبة مشاة تدعمها ست دبابات توشك على الهجوم، واستعد للوقفة الأخيرة . لكنه تلقى أمراً صريحاً بالانسحاب . وتحت النيران الكثيفة ، شق رجال « كتيوبا » طريقهم إلى خارج الموقع، يكومون جرحاهم داخل عربة نصف جنزير واحدة . واستطاعوا أن يصلوا ، فى نهاية المطاف، إلى الخطوط الاسرائيلية عبر مدق يمر وسط المستنقعات .

كان حصن «كواى»، المقام على حاجز الأمواج ببور توفيق، فى مواجهة السويس، يسيطر على الطرف الجنوبى للقناة. وكان يشغله ٤٢ من الجنود النظاميين تحت قيادة الليفتنانت «شلومو اردنست». وعندما بدأت المدفعية المصرية قصفها، تحركت قوة من القوارب المطاطية عبر القناة، فردتّها الحامية الإسرائيلية وأغرقت معظم القوارب. وسرعان ما أصبح «اردنست»، وهو من طلاب « اليشيفا »*، الضابط الوحيد الذى لم يُصب من بين ضباط الموقع . وفى ليلة الأحد، السابع من أكتوبر تمكنت وحدة مصرية من اختراق الحصن من ناحية الجنوب، بمساعدة قاذفات اللهب وإشعال خزانات الوقود بالنقطة الحصينة. واستطاع الحصن المدافع أن يبيد المهاجمين فى قتال متلاحم. ولثلاثة أيام، صمد الحصن، المحاط بالماء من ثلاثة اتجاهات ويتصل بالأرض بطريق مفرد بعرض ست ياردات فوق حاجز الماء، أمام سد مركز من نيران المدفعية وهجمات آلاف الجنود المصريين تدعمهم الدبابات. وقد أمكن اصطياد الدبابات المصرية بواسطة مدافع أربع دبابات اسرائيلية مدمرة كانت قد نجحت فى الوصول إلى الحصن فى اليوم الأول من القتال؛ إذ أمكن لأطقم الدبابات الاسرائيلية تحسين مدى تلك المدافع واصطياد الدبابات المصرية، الواحدة تلو الأخرى. وقد بدأ المورفين ينفد من الوحدة الطبية، ولم يعد هناك محاليل أو محاقن، وأوشكت الأربطة على النفاد .

بحلول صباح التاسع من أكتوبر، لم يعد بالموقع من القادرين على حمل السلاح المدربين

* معهد دينى تقليدى .

على القتال سوى عشرة أفراد، إضافة إلى عشر من الخدمات المعاونة بين طبيب وخدمات طبية وطهاة، واثنين من «اليشيفا» قدما لإقامة صلاة يوم كيبور. وقد أجرى الطبيب عملية بالقصبة الهوائية، لأول مرة فى حياته، دون أى وسيلة تخدير لجندى أصابته قذيفة بازوكا، ونجح فى إنقاذ حياته. وفى يوم الخميس، ١١ أكتوبر، استعلمت القيادة من «اردنست» عما إذا كان باستطاعته الصمود لأربع وعشرين ساعة أخرى. واقترح الطبيب، الذى لم يكن يملك من الوسائل آنذاك ما يمكنه من إنقاذ مصاب آخر، التسليم عن طريق الصليب الأحمر. لكن «اردنست» ورقيب الحامية لم يعيراه انتباهاً. وفى الحادية عشر من صباح السبت، وبعد الصمود لأسبوع أمام قوات الجيش الثالث المصرى، وعندما لم يعد بحوزة الحامية سوى عشرين قنبلة يدوية وبضع شرائط من ذخيرة الأسلحة الصغيرة، سُمح للحصن بالتسليم عن طريق الصليب الأحمر. فبعد أن أمر رجاله بالاغتسال بنقاط المياه القليلة المتبقية بالجراكن وتغيير ملابس القتال المغبرة، استعرض الليفتنانت «اردنست» رجاله وتقدموا نحو الأسر، يتقدمهم جندى يحمل نسخة من التوراة. ووقف آلاف المصريين المحاصرين للموقع يرقبون المراسم فى رهبة . وبعد الرحيل ، أخذ الضباط المصريون يبحثون فى كل مكان من الموقع عن المدافع الثقيلة التى لم يكن لها وجود، ولم يصدقوا أن الحامية صمدت لأسبوع بأربع رشاشات خفيفة فقط .

عند الطرف الشمالى للخط الاسرائيلى، وفوق الضفة الرملية على مسافة حوالى سبعة أميال شرقى بور فؤاد، كان هناك حصن يحمل اسما كودياً هو «بودابست». وكان يتولى قيادته ضابط احتياط، هو الكابتن «موتىَ اشكينازى» ، ويديره ١٨ رجلاً. وكان «بودابست» هو الموقع الوحيد على القناة المدعم بفصيلة دبابات، حسب الأوامر المستديمة. وبعد ظهر يوم السبت، قام المصريون بهجوم مشترك من المدرعات والمدفعية من اتجاه بور فؤاد، بقوة تضم ١٦ دبابة و١٦ حاملة جنود مدرعة، وعربات جيب تحمل مدافع مضادة للدبابات عديمة الارتداد، تتبعها حاملات الجنود. وفى أثناء المعركة التى دارت، احترقت ثمانى حاملات جنود مدرعة وسبع دبابات . لكن قوة من الصاعقة المصرية تمكنت من التمركز فوق الساتر الرملى، على مسافة ميل واحد من «بودابست»، لتعزل الحصن بذلك عزلاً تاماً عن الخطوط الاسرائيلية. وتعرض الموقع للقصف الجوى المركز ، وأعدت قوة الصاعقة كميناً لقوة نجدة اسرائيلية مدعمة بالمدرعات، ونجحت فى تدميرها . وتواصل القصف المدفعى الكثيف للموقع دون توقف. وفى تلك الأثناء، تزايد الضغط الاسرائيلى على قوة الصاعقة المصرية، وفى ليلة الثلاثاء التاسع من

اكتوبر، رحلت القوة المصرية بحراً. وقام الطيران الاسرائيلى بغارات يوم الأربعاء فى محاولة لتحرير الموقع، فسقطت سبع طائرات أثناء العملية. وفى اليوم نفسه، قاد البريجادير جنرال «ماجن»، قائد القطاع الشمالى للقناة، قوة تحمل الذخيرة والغذاء، نجحت فى الوصول إلى «بودابست». وفى يوم الخميس، نجحت القوات الصديقة فى تخليص وحدة «اشكينازى». لكن القوات الإسرائيلية لم تتعلم من الأخطاء السابقة، ونجحت قوة من الصاعقة المصرية فى عزل «بودابست» مرة أخرى، ولم يمكن فتح الطريق مرة أخرى إلا بعد قتال عنيف خاضته إحدى الوحدات الاسرائيلية. وظل «بودابست» الموقع الوحيد بخط «بارليف» الذى لم يقع بأيدى المصريين حتى انتهاء الحرب. (أصبح الكابتن اشكينازى، فيما بعد، من قادة حركة الاحتجاج ضد الحكومة، وحمَّل الجنرال «دايان» وزير الدفاع مسئولية ما حدث عند اندلاع الحرب وطالب باستقالته، التى قدمها بالفعل بعد ذلك بفترة وجيزة .)

اختلف أداء التحصينات المتعددة فى الدفاع باختلاف مستوى القيادة فى كل موقع. وبشكل عام، فإن القيادة المستبسلة المحنكة والتى توفر لها جنود مدربون، استطاعت أن تحتفظ بحصونها لعدة أيام. وقد أدت معظم المواقع أداء طيبا، إذا أخذنا فى الاعتبار التفوق الساحق فى المعدات على الجانب المصرى، والانخفاض النسبى لمستوى تدريب القوات على القناة، والقصف المتواصل للمواقع الاسرائيلية بالنيران القريبة للصواريخ المضادة للدبابات ومدافع الدبابات من الحاجز المصرى . وهناك مواقع قاتلت قتالاً شرساً حتى النهاية. ولم يُخلْ موقع واحد دون أوامر. وقد أبدى العديد من القادة براعة ومقدرة فى قيادة بقايا حامياتهم ونقل جرحاهم عبر الخطوط المصرية. وتعرض البعض منهم للنيران أثناء محاولتهم العبور إلى الخطوط الاسرائيلية .

بالرغم من كل هذه البطولات ، فقد ثبت أن التحصينات قابلة للاختراق. فمع مرور السنوات، أصبحت تلك التحصينات بمثابة حل وسط : بين النقاط القوية التى صممت للسيطرة على القناة فى مواجهة هجمات المصريين، وبين نقاط الإنذار والمراقبة . فبينما كانت الأولى ضعيفة للغاية ومتناثرة؛ كانت الأخيرة قوية للغاية . ولاشك أن المصريين كان يمكنهم الفوز بموطىء قدم حتى لو كان المفهوم الأصلى لخط «بارليف» (بما فى ذلك خطة اسرائيلية متكاملة لدفع قوات إلى خط الجبهة) متحققاً فى ذلك الحين، وكفاءة القوات على الجبهة عالية (فى حال وقوع أية احداث طارئة كما كان متخيلاً). لكن مهمتهم كانت ستصبح أكثر صعوبة، وكانوا سيتكبدون خسائر كبيرة، مع إمكان رد هجومهم فى نهاية المطاف. كما أن

المصريين، على الضفة الشرقية من القناة، لم يكونوا - فى حال كهذا - ليصمدوا أمام هجوم اسرائيلى مضاد. على أن أسوأ نتيجة للخطأ الاسرائيلى، فيما يتعلق بالتحصينات، هى غياب صورة واضحة عن الموقف على القناة حتى صباح الأحد، السابع من أكتوبر .

«شوفاش يونيم»

فى اجتماع عقده الجنرال «مندلر» لمجموعة العمليات، صباح السبت، تمت مراجعة جميع خطط العمليات، بما فى ذلك «شوفاش يونيم». وبسبب المعلومات التى وردت بأن الهجوم سوف يبدأ فى السادسة مساء، فقد كان على القوات - طبقاً لخطة شوفاش يونيم - ألا تتأخر فى الانتشار عن الساعة الخامسة، وألا يتم هذا الانتشار قبل الرابعة بأية حال، فى حالة ما إذا كان تقدم القوات الاسرائيلية يمكن أن يؤدى إلى تدهور أو تصعيد يدفع المصريين إلى فتح النار. على أنه قبل إتمام استعداد القوات الاسرائيلية للتحرك، بدأ الهجوم المصرى بالدبابات.

فى مقر قيادة «مندلر»، كانت صورة الموقف على القناة مشوشة. وكانت قواته تتحرك نحو القناة، لكن لم يكن هناك صورة واضحة عن موقفها. وكان التقدير العام يرى أن الثقل الرئيسى للهجوم سوف يتركز على القطاع الشمالى، ومن هنا فقد توجه اللواء المدرع، بقيادة الكولونيل «جابى امير»، نحو الشمال . وتحرك لواء الكولونيل «امنون رشيف» فى الوسط باتجاه الغرب، بينما صدرت الأوامر إلى لواء الكولونيل «دان شمرون» باختراق ممر الجدى واتخاذ موقعه جنوبى البحيرات المرة .

وفى القطاع الشمالى من الجبهة، تعرضت قوات «أمير» للهجوم أثناء تقدمها، فقسم قواته وحاول الوصول إلى حصن «ميفركت» عند الطرف الشمالى لجزيرة البلاح. وأثناء تقدمه، علم بتدمير قوات المنطقة. فتحرك جزء آخر من لوائه نحو شرق القنطرة للاتصال بالحصن المعروف باسم «ميلانو». ولثلاث مرات، خلال ليلة السبت، تتصل وحدات من قوته بنقطة «ميفركت» الحصينة. وفى الصباح الباكر من يوم الأحد، صرح الجنرال «كالمان ماجن» - الذى كان يتولى قيادة القطاع الشمالى للقنطرة - لأمير بسحب قواته مع خسائره وإخلاء حصن «ميفركت». لقد تكبد «أمير» فى محاولته الوصول إلى التحصينات، خسائر كبيرة، بحيث لم يبق بحوزة اللواء بأكمله سوى ٢٠ دبابة فقط. وشيئاً فشيئاً، نجح «أمير» فى تخليص ما تبقى من قوته، وانطلق إلى الخلف لإعادة تنظيمها .

كان لواء الكولونيل «امنون رشيف» يتولى مسئولية القطاع الأوسط للقناة، من جزيرة

البلاح وحتى رأس سدر في الجنوب. و «رشيف» طويل القامة، عادل، تشبه نظراته نظرات اليوم من خلف نظارته، وهو مشهور بشاربه المقوس والمشذب دائماً، وكان قد تولى قيادة لوائه منذ أكثر من عام . وحسب الأوامر ، اندفعت دبابات «رشيف» نحو مواقعها التى سبق الاتفاق عليها ، لتجد وحدات صائدى الدبابات المصرية قد احتلتها، وتصب عليها وابلا من قذائف آر. بى . جى . في الوقت نفسه ، ومن السد الواقع على الجانب المصرى المشرف على المداخل الاسرائيلية، كانت الدبابات الاسرائيلية مشتبكة مع الدبابات وصواريخ «ساجر» المصرية المضادة للدبابات. وقاتلت الدبابات الاسرائيلية وتلقت أولى خسائرها. وحارب المشاة المصريون بعزم وإصرار، وقتلت الدبابات المتقدمة المئات منهم، لكن موجة المشاة المصريين واصلت تقدمها. ولم يتبق من فصيلتى لواء «رشيف»، المتواجدة فى المنطقة المقابلة للاسماعيلية والفردان، سوى دبابتين فقط تواصلان القتال. وقد أمكنهما السيطرة على مفترق الطرق المواجه للفردان طوال الليل، فى مواجهة ٥٠ دبابة مصرية. وتواصل القتال طوال يوم ٧ أكتوبر، بينما أخذت مقاومة لواء «رشيف» تنهار تدريجياً .

إلى الجنوب من لواء «رشيف»، كان هناك لواء «دان شمرون». وهو قوى البنية، ذو نظرة مصممة، من أبناء الصابرا ومولود بالكيبوتس، سبق له قيادة كتيبة اقتحام مظلية. (بعد ذلك بسنوات، حقق هذا الضابط الشاب سمعة دولية عندما قاد العملية الشهيرة لتخليص الرهائن الإسرائيليين المحتجزين بمطار عنتيبى) وقد صدرت إليه الأوامر أيضاً بعدم دفع دباباته قبل الظهيرة، وعندما بدأت تتأهب للتحرك ، انقضت الطائرات المصرية على معسكره فى الثانية من بعد الظهر. فقام «شمرون» بتقسيم قوته، وأرسل كتيبة لعبور ممر متلا، وأخرى عبر الجدى، وثالثة فيما بينهما، تحسبا لإعاقة العدو لأى من الكتيبتين. وأصبح لواؤه مسئولاً عن جبهة بعرض ٣٥ ميلاً، تبدأ من نقطة التقاء البحيرتين المرة عند رأس مسلسة، على مسافة حوالى ١٢ ميل جنوبى السويس. وكان يتمركز فى مواجهة قطاعه: الفرقة ١٩ مشاة والسابعة / مشاة والسادسة الميكانيكية، وخلفها الفرقة الرابعة / مدرعات. ويصل العدد الإجمالى لدبابات هذه القوات، إلى حوالى ٦٥٠ دبابة ، إضافة إلى اللواء ١٣٠/ مشاة بحرية، الذى كان مكلفا بعبور البحيرات المرة بمركبات برمائية فى محاولة لإغلاق ممرى متلا والجدى . وبذلك كان المصريون يتفوقون على «شمرون »، فى الدبابات، بنسبة تزيد على ٦:١.

كان الهدف الأول لشمرون هو الاتصال بالتحصينات الاسرائيلية المتعددة الواقعة تحت حصار المصريين. وبحلول مساء السادس من أكتوبر، كانت وحدته قد وصلت إلى جميع

التحصينات، باستثناء تحصين واحد موجود بمرفأ بور توفيق كانت مداخله ملغمة وتحتشد حولها الكمائن المصرية المضادة للدبابات . وبينما كان يقاتل من أجل صد المحاولات المصرية للعبور من قطاعه، ناشد «مندلر»: إما إخلاء التحصينات وإنما تعزيزها، لكن تفويضاً لم يصدر بأى من القرارين. ويمكننا أن ندرك عنف المعارك التى خاضها «شمرون» إذا ما علمنا أنه عندما تحرك عبر ممرى متلا والجدى، عند الرابعة من مساء ٦ أكتوبر، كان يمتلك قوة تقدر بحوالى مائة دبابة ؛ لم يتبق منها ، بحلول الثامنة من صباح الأحد ٧ أكتوبر، سوى ٢٣ دبابة. وقد وقعت ثلثا خسائر لوائه، فى المركبات والأفراد، التى تكبدها طوال الحرب، خلال الليلة الأولى من القتال. وأصبح مخولا الآن بقطع اتصاله بالتحصينات، والتركيز على التصدى للتقدم المصرى. وكانت بحوزته ثلاث بطاريات مدفعية، فى مواجهة ٧٥ بطارية على الجانب المصرى .

ولإدراكه تفوق العدو عليه فى كافة الجوانب ، ركز «شمرون » بقايا لوائه فى قبضة مدرعة واحدة ، وقرر القيام بهجوم وقائى على التجمعات المصرية التى يتنامى اتساعها . وبالمزاوجة بين قواته بعناية، واستخدام نهج كلاسيكى للضرب من مدى بعيد ومن الحركة، لم يدع للمصريين الفرصة لبذل أى جهد لمواجهته . وفى الثلاثاء ٩ أكتوبر، قام المصريين بأول هجوم كثيف، باثنين من الألوية الميكانيكية، على «طريق المدفعية» باتجاه ممر متلا. وفى إطار معركة مناورة، قام «شمرون» بهجوم مضاد، دمر خلاله ٢٠ دبابة مصرية وعددا من حاملات الجنود المدرعة . وانسحب المصريون دون نظام .

مساء السبت، كان الانطباع فى مقر القيادة الفرقى، هو أن المدرعات قد وصلت جميع التحصينات، ما عدا تلك الواقعة على الممر الضيق شمالى القنطرة، وعند كوبرى الفردان، وعلى رصيف بور توفيق. وكان هناك خمس دبابات بالموقع الأخير، لكن الموقع نفسه كان معزولاً آنذاك .

وخلال الساعات القليلة الأولى من القتال، حاول البريجادير جنرال «بينو»، الذى أصبح منذ شهرين مضيا، قائداً ثانياً لمندلر، أن يكوّن صورة متماسكة عن الموقف. ولعدم قدرته على الحصول على هذا من خلال التقارير، استقل طائرة هليكوبتر طار بها على طول «طريق المدفعية»، باتجاه الجنوب حتى ممرى الجدى ومتلا. وكان على الطائرة أن تتفادى، أكثر من مرة، طائرات الميج والهليكوبتر المصرية من طراز مى ١٨، لكن القائد الفرقى عاد بما اعتقده أول صورة واضحة نسبياً عن الموقف . وبحلول الواحدة من صباح السابع من أكتوبر، كانت

الصورة، كما تلقاها جونين فى مقر قيادته، كالتالى: عادت القوات الاسرائيلية إلى خط الماء ماعدا منطقة القنطرة وحصنين بالقطاع الأوسط وموقع رصيف ميناء بور توفيق. ولم يشعر «جونين» أو «مندلر» بحاجة ملحة لإجلاء النقاط القوية على القناة فى هذا الوقت .

ويمكننا أن نتبين عدم دقة التقارير الخاصة بخط الجبهة، إذا علمنا أن صورة الموقف، كما تلقته مقر القيادة، وكذلك القيادة العامة، كانت مرضية. ومن هنا، لم يكن ثمة ضرورة لإصدار الأوامر بإخلاء التحصينات، حيث أن التقارير الإسرائيلية تشير إلى وصول الدبابات الاسرائيلية إلى القناة مساء السبت واتصالها بالمواقع. وفى السادسة من مساء السبت، تحدث الجنرال «اليعازر» إلى «جونين»، وأبلغه أن من حقه إخلاء التحصينات التى لا تتمكن من صد المجهود الرئيسى للعدو ، إذ لا معنى لتعريض أفرادها للخطر دون فائدة. وأكد على أنه لا يريد الدفاع عن كل القناة بهذه التحصينات، بل الإبقاء على النقاط القوية القادرة على إعاقة تطوير مجهود العدو الرئيسى. كان «اليعازر» يفكر ليومين قادمين. فهو مدرك لقدرته المحدودة فى التأثير على ما يمكن أن يحدث على الأرض فى أية لحظة. (باستثناء حالات خاصة) ، وعلى يقين بأن المعركة الدائرة هى معركة صعبة ، وأن المصريين سوف يلجئون إلى الاختراق فى بعض الأماكن. وكان للمعارك أن تتواصل يوم الأحد، وإن كان قد خطط بالفعل لشن سلسلة من الهجمات المضادة يوم الاثنين. وفى منتصف ليلة السبت، وبعد اطمئنانه على كفاءة الاتصال مع القيادات الأمامية، انتقل جونين من مقر قيادته فى بئر السبع إلى مقر قيادته الأمامية فى أم خشيب، بالمنطقة الأمامية من سيناء. وظل طوال الليل يتلقى التقارير التى تفيد استمرار قيام الدبابات بأعمال الداورية بين تحصينات القناة والاتصال بها. وفى القطاع الشمالى، وبالقرب من نقطة «مرفكت» القوية ، أفادت قوات «أمير» بأنها نجحت فى تدمير أحد الجسور المصرية .

طوال ليلة ٦/٧ أكتوبر، عملت وحدات الكبارى المصرية بهمة فى إقامة المعابر على القناة. وفى اليوم التالى تعرضت تلك الكبارى لنيران كثيفة ومتواصلة من الطيران الاسرائيلى، وأصيب عدد منها بأضرار بالغة. لكن التكوين المقطعى لتلك الكبارى وسهولة حملها كانت تسمح – كما أشار الجنرال «الشاذلى» فيما بعد – باستبدال المقاطع المصابة، وكذلك تمكين المصريين من تعويم الكوبرى فى القناة، ونقله إلى موقع بديل أو دفعه إلى إحدى الضفتين أثناء النهار، فى حال تعرض المنطقة لقصف شديد. وهكذا، فإن ادعاء الاسرائيليين بإصابة جميع الكبارى فى اليوم الأول كان صحيحاً، وكذلك ادعاء المصريين بأن قواتهم كانت تعبر على الكبارى دون توقف .

فى صباح الأحد، جدد المصريون هجومهم . وأصبحت النتائج الآنية لقتال الليلة الماضية

أمام القيادة الاسرائيلية كالآتى : « أمير » لم يعد بحوزة قواته سوى عشر دبابات، كما أفاد «مندلر» بأنه لم يعد يتبقى له بمنطقة القناة سوى ثلث عدد الدبابات التى بدأ بها القتال، والتى كانت تبلغ ٢٩٠ دبابة. وأخذ الضغط المصرى يتزايد ، فبعد أن فشلوا فى محاولتهم لفتح ثغرة فى الساتر الإسرائيلى بالقطاع الجنوبى عن طريق ضخ الماء، لجئوا إلى استخدام البلدوزرات، وكانت القوات الاحتياطية الاسرائيلية بعيدة ، بينما القوات النظامية منهكة. ورأى «جونين» أنه ليس هناك حل، فى ظل انعدام المعاونة الجوية ، إلا بوصول الاحتياط. وكرر «مندلر» طلب المعاونة الجوية ، وأفاده « جونين » بأن النجدة ستصله خلال عشرين دقيقة. وجاء رد «ماندلر» المنهك : «ليس أمامى عشرين دقيقة ». وفى الساعة ٦ر٤٥ صباحاً، قام الطيران الاسرائيلى بعدد من الطلعات التمهيدية ضد قواعد الصواريخ، قبل أن تدخل فى المعاونة الوثيقة ، وفجأة أبلغ الجنرال «بليد»، قائد القوات الجوية، «جونين» بأنه لن تكون هناك معاونة جوية بسبب الموقف فى الشمال. وخلال ساعات الصباح ، أبلغ «جونين» «بليد»: «إذا لم ترسل قواتك إلينا فلن يكون لدى ما أوقف به الهجوم». وفى التاسعة والنصف صباحاً، وبعد موافقة رئيس الأركان، سُمح لمندلر بإخلاء التحصينات عندما تسنح الفرصة .

فى تلك الأثناء، كانت التعبئة فى إسرائيل تكتمل بأسرع ما يمكن . وحيث تشكلت العديد من القيادات والوحدات، فقد اتسعت مسئولية الجنرال «جونين» على قناة السويس. فإضافة إلى قيادة «مندلر» الفرقية، دخل الخدمة فرقتين إضافيتين ، واحدة تحت قيادة الميجور جنرال «افراهام (برن) ادان»، والأخرى تحت قيادة الميجور جنرال «اريل (اريك) شارون». وبحلول الظهيرة، أصبح القطاع الشمالى تحت قيادة «ادان»، والأوسط لشارون، والجنوبى تحت قيادة «مندلر».

فى الحادية عشرة تقريباً من صباح ٧ أكتوبر، أصدر «جونين» أوامره إلى «ادان» بإخلاء التحصينات. وقام الجنرال «ديان»، وزير الدفاع، بزيارة مقر القيادة، وأوصى «جونين» بإلغاء التحصينات والمواقع الأمامية التى كانت تحتلها قوات القيادة الجنوبية ، والانسحاب إلى أرض مرتفعة تقطع جبلى المغارة ويعلق. ووافق «جونين» على إصدار الأمر بالانسحاب من التحصينات، لكنه لم يقبل بتوصيات « دايان » الخاصة بمدى الانسحاب. وفى تلك الأثناء، ومع وصول الاحتياط، انتشرت معظم القيادة الجنوبية على طريق المدفعية مع حلول مساء ٧ أكتوبر،

بعد انتشار الاحتياط على الطريق الفرعى. كان التقدم المصرى بطول الخط. وفى تلك الظهيرة، أوصى « دايان » رئيسة الوزراء بالانسحاب إلى خط جاهز للدفاع، وبالتحديد إلى ممرى متلا والجدى فى الجنوب (وعلى الجبهة السورية، الانسحاب من مرتفعات الجولان والتمركز عند الجرف المطل على وادى الأردن). ورفض الجنرال «اليعازر» العمل بتوصية وزير الدفاع، لكنه اعترض، فى الوقت نفسه ، على توصية «شارون» بالقيام بهجوم مضاد فورى وعبور قناة السويس .

فى منتصف نهار السابع من أكتوبر، عبرت الفرقة السابعة / مشاة المصرية بكامل قوتها جنوب البحيرات المرة، وكذلك اللواء ٢٥ / مدرعات. وحتى غروب الشمس، كانت القوات المصرية منظمة بحيث تتصدى للهجمات المضادة، والتقدم، فيما بعد، نحو سيناء، وتعميق رؤس الجسور لمسافات ما بين ٤-٥ أميال؛ وخلال هذه الفترة، عبرت جميع وحدات الفرقة المشاة ؛ وخلال الليل انضمت اليها الألوية المدرعة الملحقة عليها . وبحلول مساء الثامن من أكتوبر، كانت فرق المشاة (إضافة إلى لواء مدرع مع كل فرقة) مكتملة فى مواقعها على الضفة الشرقية للقناة. وبعد أن نجحت فى صد الهجمات الاسرائيلية المضادة، حاولت القوات - كل فى نطاقها - توسيع رأس الجسر، بعد أن صدرت إليها الأوامر بالانتشار على شكل مروحة، والالتقاء ببعضها البعض بعمق ما بين ٦-٨ أميال . وبعد ذلك، قام لواء من الفرقة السادسة الميكانيكية بالعبور إلى الجانب الجنوبى للفرقة ١٩ / مشاة (الموجودة بأقصى الجنوب) استعداد للتحرك نحو رأس سدر، وذلك لتطوير الهجوم باتجاه الشرق .

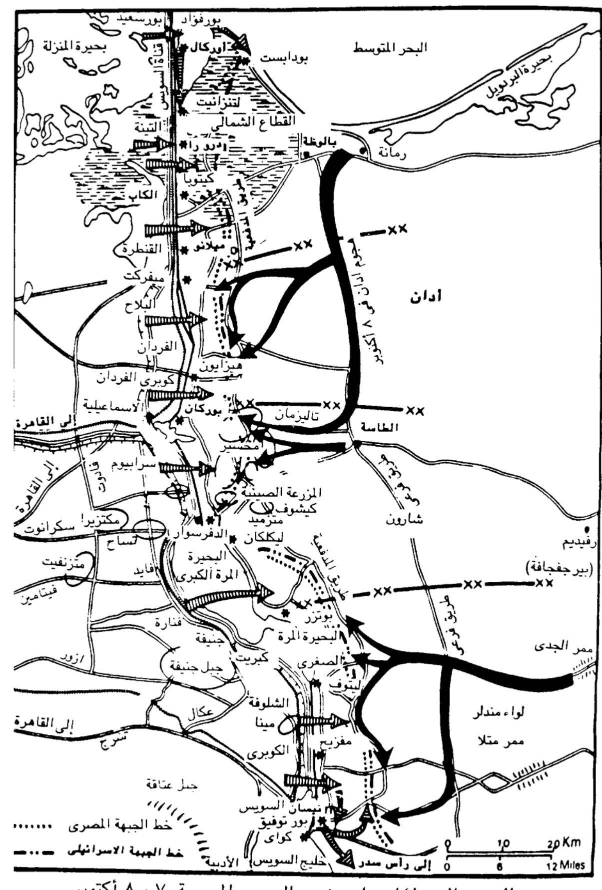
خصصت المرحلة التالية بكاملها، والتى تنتهى صباح الخميس ١١ أكتوبر، للدفاع، لإنزال أكبر قدر ممكن من الخسائر بالاسرائيليين عند قيامهم بالهجمات المضادة. وكانت خطة المصريين تتضمن الاندفاع - فى الوقت نفسه - أسفل ساحل سيناء نحو رأس سدر وشرم الشيخ. ثم كان على الفرقتين الرابعة والحادية والعشرين المدرعتين، خلال الفترة ما بين الخميس والاثنين ١٥ أكتوبر، أن تتجاوزا رأس الجسر وتشن هجوماً كبيراً، وهو المجهود الرئيسى، بهدف الاستيلاء على عصب «رفيديم» المركزى (بير جفجافة). وكان على الفرقة الرابعة/ مدرعات واللواء ٢٥/ مدرعات التقدم من منطقة الاسماعيلية والدفرسوار إلى رفيديم، عبر الطاسة، لتشكل الطرف الشمالى من الكماشة. كما كانت هناك مجهودات ثانوية أخرى .

الهجوم المضاد الأول

تحرك الجنرال « اليعازر » نحو القيادة الجنوبية مساء السابع من أكتوبر، مسلحاً بسلطات رئيسة الوزراء، وقدم خطة للقيام بهجوم مضاد على القوات المصرية فى الضفة الشرقية للقناة، فى اليوم التالى. وكان أمر القيادة هو شن هجوم فرقى مركز، يزحف بطول ضفة القناة الشرقية من الشمال إلى الجنوب، مع ترك مسافة حوالى ميلين بين القناة والجانب الأيمن للقوة لتفادى نيران المشاة المضادة للدبابات على السواتر الجانبية للقناة. وكانت الخطة تتضمن قيام فرقة «ادان» بهجوم على الجيش الثانى المصرى، يبدأ من منطقة القنطرة، مع بقاء فرقة «شارون» كاحتياطى بمنطقة الطاسة. وفى حالة نجاح هجوم «ادان»، كان على «شارون» القيام بهجوم على الجيش الثالث المصرى منطلقاً من منطقة البحيرة المرة الكبرى فجنوباً. أما فى حالة فشل هجوم « ادان »، فيُدفع بقوات شارون للتعزيز. وأكد «اليعازر» على أن تظل قوات «شارون» كاحتياطى لهجوم «ادان» الشمالى، وعلى أن تخضع تحركاتها لموافقة «اليعازر» الشخصية؛ وكذلك على ألا تصل القوات المهاجمة إلى القناة تحسبا لخطر نيران المشاة المضادة للدبابات على السواتر. وكان مفترضاً، فى حال نجاح الهجوم، إمكان القيام بعبور محدود إلى الضفة الغربية من الطرف الجنوبى لكل قطاع.

انتشرت فرقة «ادان» على أكبر الطرق الثانوية، أى طريق بالوظة – الطاسة. وكان على لوائه الأول (لواء أمير) التحرك جنوبا بين طريق القناة وطريق المدفعية، لتدمير العدو فى المنطقة والوصول إلى التحصينات المواجهة للفردان والاسماعيلية، على التوالى. وإلى الجانب الأيسر للوائه، إلى غرب «طريق المدفعية»، كان على لواء الكولونيل «ناتك نير» أن يتقدم جنوباً نحو حصون «=بوركان» المواجهة للاسماعيلية. وكان على لواء ثالث، بقيادة الكولونيل «اربيه كرن»، أن يتحرك شرقي طريق المدفعية باتجاه الجنوب نحو «متزميد»، عند الطرف الشمالى للبحيرة المرة الكبرى، لاحتمال القيام بعبور محدود للقناة عن طريق الكبارى المصرية، فى حال الاستيلاء عليها سليمة. وفى حال نجاح فرقة «ادان» فى تدمير قوات العدو، فإن على قوات البريجادير جنرال « ماجن » الحضور من الشمال وقصف الضفة الشرقية للقناة.

تحركت القوات من الشمال للجنوب حسب الخطة، ولكن مع تقدم الصباح، أصبح من الواضح أن قوات «ادان» تسير بعيداً جداً عن شرقى «طريق المدفعية» وبعيداً عن الكتلة الأساسية لقوات العدو. ولم يتم تصحيح هذا الخطأ فى حينه؛ وبدلاً من الزحف أسفل الجانب



الهجوم الإسرائيلى على رؤوس الجسور المصرية، ٧ و ٨ أكتوبر

الشمالى الضيق لرأس الجسر المصرى، وضرب المصريين عند نقطة خارج توقعهم، كانت فرقة «ادان» تتحرك على جبهة رأس الجسر المصرى. وهكذا، عندما استداروا نحو القناة، تطور هجومهم من الشرق إلى الغرب، تماما إلى حيث كانت تنتظرهم المواقع المصرية .

كانت قوة « أمير » هى أول قوة تدخل المعركة، وذلك فى منتصف النهار، عندما تعرضت لنيران المئات من الأسلحة المضادة للدبابات من على مسافة قريبة، تلك التى خرجت من الكثبان الرملية. وانسحبت كتيبة المقدمة ، مخلفة وراءها ١٢ دبابة محترقة .

فى تلك الأثناء، ولأن القوة الرئيسية كانت تتحرك بعيداً جداً جهة الشرق عبر جبهة القوات المصرية المتمركزة ، ولا تلقى مقاومة ذى بال ، فإن الانطباع الذى تكون فى مقر قيادة «جونين» هو أن كل شىء يسير على ما يرام. وهكذا، أصدر أمره إلى فرقة «شارون»، فى الحادية عشر صباحاً، بالتقدم جنوباً نحو منطقة ممر الجدى للزحف على الجيش الثالث المصرى.

وفى أثناء ذلك، أصدر أوامره فى الصباح الباكر ، بدفع لواءين («نير » « وأمير ») نحو كوبرى الفردان. وعلى مسافة ثمانمائة ياردة من القناة ، وجدت قوات « نير » نفسها محاصرة بالآلاف من المشاة المصريين، واشتعال النيران فى ١٨ من دباباتها وتدميرها . إن «نير» مثال فذ للدأب والشجاعة وسط المحن. فعندما كان يخدم كقائد كتيبة، خلال حرب الأيام الستة، أصيب بجرح بالغ فى قدميه، وأجريت له أكثر من عشرين عملية. ورفض التقاعد، وبفضل مثابرته أصبح – برغم عجزه – قائد ميدان للواء احتياط. ومثل الفرسان القدماء كان يحمل عند صعوده أو نزوله من الدبابة، لكن طبيعته المقدامة جعلت منه قائداً ميدانيا. وعندما سحب قواته من الجحيم التى وجدت نفسها وسطه، عند هجومها على القناة، لم يكن هناك سوى أربع دبابات باستطاعتها الانسحاب معه.

لم ينتشر أى من المشاة أو المشاة المدرع الاسرائيلى فى هذا الهجوم الذى لم يلق معاونة جوية، والذى لم يكن يظاهره سوى بطاريتى مدفعية. وفى مواجهة الهجوم، كانت هناك قوات الفرقة الثانية / مشاة المصرية، بقيادة اللواء «حسن ابو سعدة» بالتنسيق مع الفرقة ١٨ مشاة المدعمة باحتياطى الجيش الثانى المضاد للمدرعات .

فى الوقت نفسه، شن المصريون هجوما على قوات «كرين» فى الجنوب، عند منطقة الطرف الشمالى للبحيرة المرة الكبرى، واحتلوا عدداً من النقاط القوية الاسرائيلية. إضافة إلى ذلك، تعرضت قوات «ادان» لهجومين مضادين، يتألف كل منها من لواء ميكانيكى وآخر مدرعات، أحدها من منطقة كوبرى الفردان، والآخر من الجنوب (باتجاه طريق الاسماعيلية). وفوّض

«ادان» كل من «امير» و«دان» فى تحسين مواقفهما، والقيام بانسحاب تكتيكى، وفى الثانية بعد الظهر من يوم ١٨ أكتوبر، أدرك «جونين» أن هجوم «ادان» كان فاشلاً. ومن هنا، فقد أمر «شارون» بالعودة من القطاع الجنوبى إلى القطاع الأوسط. وهكذا قضت قوات «شارون» يوما حرجا، ترتحل من الشمال إلى الجنوب دون تأثير فعلى على ميدان المعركة. وفى تلك الأثناء، كانت فرقة «ادان» تقاتل من أجل صد الهجوم المصرى. وبعد غروب الشمس، التى كانت تعمى أبصار القوات الاسرائيلية، تحسنت الرؤية، وتكبد المهاجمون المصريون خسائر كبيرة فى أطقم دباباتهم وعرباتهم المدرعة. وانكسر الهجوم المصرى المضاد.

كان من الواضح أمام القيادة الاسرائيلية آنذاك أنه ينبغى الحفاظ على القوات وإتاحة الفرصة لجيش الاحتياط أن ينتشر بجميع أسلحته المعاونة. وقد أوضحت أحداث يوم ١٨ أكتوبر العديد من الأخطاء فى التفكير العسكرى الاسرائيلى، خاصة فيما يتعلق بقوات المدرعات. فقوات المدرعات الاسرائيلية كانت تقوم بما يشبه هجمات فرسان من الطراز القديم، دون دعم من المشاة، أو عون مدفعى معقول. ولم يكن لذلك تأثير يذكر أمام مجاميع الأسلحة المضادة للدبابات التى حشدها المصريون فى ميدان المعركة . وهكذا لم تتمركز قوات «ادان» فى أية مرحلة من المراحل، وإنما تشتتت بددا. ولو كانت القيادة الجنوبية قد قامت بهجوم مركز بفرقتين على منطقة كوبرى الفردان، مع الدعم المناسب ، لنجحت فى فتح ثغرة فى الخطوط المصرية كان يمكن للقوات الاسرائيلية عن طريقها الزحف على رأس الجسر المصرى من الأجناب. لقد تكبدت القوات الاسرائيلية فى ذلك اليوم خسائر فادحة، وفقدت عدداً من مواقعها الهامة. وعلى المستوى الشخصى، كشفت أحداث يوم ٨ أكتوبر عن العلاقة الشديدة الصعوبة بين «شارون» وبين قائد المنطقة الجنوبية الجنرال «جونين»، ناهيك عن انعدام الثقة غير الخفى والعداوة التى استفحلت بينه وبين قيادة الأركان العامة وزملائه من قادة الفرق. ففى ظهر الثلاثاء ٩ أكتوبر، قامت قوات «شارون» بالهجوم على المصريين لاستعادة أحد تحصينات الخط الثانى كان قد سقط فى أيديهم فى اليوم السابق. ولكن برغم تعليمات «جونين» إليه بوقف الهجوم، فقد أصرّ «شارون» على تطويره، مما حدا بجونين أن يطلب من رئيس الأركان إبعاده عن قيادته *

---

* « .. ولم يكن « ادان » أو « شارون » سعيداً للغاية بأن يوضع تحت قيادة « جونين » ، الذى كان مرءوسا لكل منهما حتى وقت قريب. وكان كل من الرجلين يعتبر نفسه أكثر خبرة وأكثر جدارة بتولى القيادة العامة، وكانت مواقفهما تعكس وجهات نظرهما . ولم يسهم ذلك فى توافر علاقة قيادة جيدة فى جبهة قناة السويس بين الاسرائيليين .» إدجار اوبلانس ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ (المترجم)

في أثناء ذلك، كان لواء « امنون رشيف » ، تحت قيادة « شارون »، أمام ما يعرف بـ «المزرعة الصينية» * (منطقة زراعية تجريبية كان يستخدمها الخبراء اليابانيون قبل حرب ١٩٦٧؛ ولما رأى الجنودالاسرائيليون الحروف اليابانية على الجدران، ولعدم معرفتهم الجيدة بأبجديات شرق آسيا، فقد أطلقوا على المكان اسم المزرعة الصينية). وواصلت وحدات «رشيف » ومجموعة استطلاع الفرقة، الملحقة عليها، سيرها حتى وصلت إلى شاطىء البحيرة المرة الكبرى، ثم انحرفت جنوباً، بمحاذاة البحيرة، قاصدة المزرعة الصينية. ولكن في صباح العاشر من أكتوبر، صدرت الأوامر إلى قوة الاستطلاع بالانسحاب من هذه المنطقة، حيث كشف هذا الاستطلاع أمام القيادة الاسرائيلية - على غير علم المصريين - أن هذه المنطقة هي الفاصل بين الجيشين الثاني والثالث المصريين. وهي منطقة أسفل بطن الجيش الثاني المكشوفة * * .

الأزمـــــة

في يوم الثلاثاء التاسع من أكتوبر، التقى الجنرال « ديان » بمحرري الصحف الاسرائيلية. وقد ساد حديثه روح التشاؤم ، وألمح إلى احتمال إقامة خط دفاعي بجنوب سيناء للدفاع عن شرم الشيخ فقط. وأعرب عن اعتقاده بأن من الضروري إقامة خطوط جديدة أقصر. وأشار كذلك إلى عزمه على التوجه إلى التليفزيون الاسرائيلي، في تلك الليلة، وإبلاغ الرأي العام بحجم الخسائر التي تكبدتها القوات الاسرائيلية، بما في ذلك سقوط خمسين طائرة، وتدمير مئات الدبابات خلال ثلاثة أيام. وقد أثار الجو الذي خلقه «ديان» اهتماماً كبيراً، لدرجة أن رئيسة الوزراء «جولدا مئير»، أرسلت في طلب الجنرال «اهارون ياريف» مدير المخابرات الأسبق، ليحل محله.

وفي التاسع من أكتوبر، طلب الجنرال «اليعازر» إلى الجنرال «حاييم بارليف»، الرئيس السابق للأركان، والذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب وزير التجارة والصناعة، التوجه إلى

---

* هي قرية الجلاء (المترجم) .

* * يرى اوبلانس أن هذه المعلومات مصدرها طائرتا الاستطلاع الأمريكيتين من طراز « إس . آر ٧١ » التي أكدت على وجود مساحة واسعة يصل عرضها إلى نحو ٤٠ كم تكاد أن تكون خالية من أية قوات على جانبي القناة جنوبي الاسماعيلية وعلى شاطىء البحيرة المرة الكبرى. ادجار اوبلانس ، مرجع سابق ص ٢٤٧ (المترجم)

القيادة الجنوبية، وتولى القيادة هناك كممثل شخصى لرئيس الأركان بسلطات كاملة على الجنرال «جونين». لكن بعد استطلاع الموقف على الجبهة الجنوبية، أصبح واضحاً أمام «بارليف» أن من الصعب فرض سلطته على الجنرال «شارون» ، وفى ١٢ أكتوبر ، اقترح على رئيس الأركان إبعاد « شارون » . لكن « دايان » اعترض على الاقتراح، من منطلق أن ذلك قد يخلق مشكلات سياسية داخلية لا مبرر لها. ولمرتين ، أثناء الحرب، يوصى «بارليف» بإبعاد «شارون» عن موقعه .

اعتباراً من ٩ أكتوبر، نجحت القوات الاسرائيلية فى تثبيت الخط، ووقف القوات المصرية، التى لم تنجح فى احتلال أراض جديدة خلال الفترة المتبقية من الحرب. وكان المصريون يشنون يومياً عدداً من الهجمات، وبدأت القوات الاسرائيلية شيئاً فشيئاً تجارى الجيش المصرى، بفضل التسليح الجديد، و التوصل إلى أساليب جديدة للتغلب على خطر صواريخ ساجر بصفة خاصة. فعن طريق استخدام ستائر الدخان المنسقة ونيران المدفعية المركزة، نجحت القوات الاسرائيلية فى الحد من تأثير تجمعات الصواريخ المصرية المضادة للدبابات.

مع تكرار هجمات المشاة المصرى، الهجمة تلو الأخرى، وتكبيد القوات الاسرائيلية خسائر فادحة، أخذ تقدير الاسرائيليين لتصميم وشجاعة أعدائهم يتزايد. وفى ٩ أكتوبر، قام المصريون بهجوم فرقى على لواء «أمير»، بعد أن اخترقوا الخطوط الاسرائيلية، لكن «ادان» حشد مدرعاته، واستطاع سحق المصريين عن طريق سحبهم نحو لواء «أمير»، ثم إطلاق لواءيه الآخرين، واحد على جناحهم الشمالى، والآخر على جناحهم الجنوبى. وفى يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر، قام المصريون بخمس هجمات منفصلة على فرقة « ادان »، وفى اليوم نفسه تعرضت فرقة « شارون » لهجوم قامت به وحدات الفرقة ٢١ / مدرعات المصرية. واستطاع «شارون»، بفضل مهارته فى مناورة الصحراء، أن يسحق الهجوم المصرى، الذى كلفهم حوالى ٥٠ دبابة تُركت بميدان المعركة. كذلك قام اللواء الميكانيكى الأول المصرى، فى العاشر من أكتوبر، بالتقدم جنوباً على خليج السويس، فتصدت له قوة مدرعة بقيادة الجنرال «اشعيا هو جافيتش»، الذى كان قائداً لسيناء الجنوبية. واشتبكت القوة المصرية المؤلفة من ٥٠ دبابة فى معركة مع الاسرائيليين عند منطقة رأس سدر، خارج مدى مظلة الصواريخ المصرية التى تغطى قناة السويس. ولذلك، فقد كان بمقدور القوات الجوية الاسرائيلية مهاجمة اللواء وتدميره بالكامل. وحسب قول الفريق «الشاذلى»، رئيس الأركان المصرى، عند وصفه للحرب فيما بعد، فقد استغل هذه الواقعة لمقاومة الضغوط التى فرضها عليه وزير الحربية، المشير «أحمد

إسماعيل» من أجل التقدم والهجوم على ممرى متلا والجدى. فقد كان «الشاذلى» يعارض دائماً خروج القوات المصرية بعيداً عن مظلة الصواريخ. وكان لهذا الاختلاف فى وجهات النظر أن يتحول فى النهاية إلى خلاف خطير للغاية.

شيئاً فشيئاً، بدأت القوات الإسرائيلية تحكم سيطرتها على ميدان المعركة، سامحة للمهاجمين المصريين أن يتحطموا بين شقى السندان الاسرائيلى. وتنامت الثقة. وتغير معدل الخسائر بصورة ملحوظة، إذ انخفضت معدلات الخسائر الاسرائيلية بينما تزايدت الخسائر المصرية. وكان الاحتياط الاسرائيلى يتوافد، ووحدات الصيانة تباشر إصلاح الدبابات. وأخذت القيادة الجنوبية تستجمع قواها.

كان من رأى القيادة الإسرائيليون أنه لا يمكن حسم المعركة مالم يعبر الجيش الاسرائيلى القناة إلى مصر، وتحقيق نزوعه الطبيعى للسرعة والمناورة. إذ لا ينبغى أن يقف عاجزاً عن التقدم فى حرب ثابتة لم يؤهل لها. وكان الإسرائيليون قد خططوا – منذ البدء – الطرق ومناطق التجمع، وكذلك معدات الكبارى، لمواجهة احتمال كهذا. وها هى القيادة تسترد منظورها الهجومى. وكان لابد من الهجوم بفرقتين على المفصل انهش بين الجيشين المصريين الثانى والثالث عند منطقة الدفرسوار وهى النقطة التى رأت قوة الاستطلاع – كما سبق أن ذكرنا– أن الاتصال فيها بين الخط المصرى ضعيف . وقد صدرت الأوامر بتجميع كوبرى سابق الإعداد لدفعه نحو الموقع. وقدم « جونين » خطته التى قبلها «بارليف» من حيث المبدأ. وقد اختيرت الدفرسوار كنقطة للعبور لأن أحد الأجناب سوف يكون محميا بالبحيرة المرة الكبرى؛ كما أن الضفة الغربية فى هذه المنطقة أكثر المناطق سهولة للمناورة. وفوق كل ذلك، فقد كانت هذه المنطقة هى المفصل بين الجيشين. وهى ضعيفة بطبيعة الحال.

لكن معضلة وقفت أمام الاسرائيليين. ففرق المدرعات المصرية كانت متمركزة على الضفة الغربية للقناة، الأمر الذى جعل الخطة غير قابلة للتنفيذ وكانت هذه القوات – قوات جديدة بكامل نشاطها، حضرت لتوها ولم تشترك فى أية معركة بعد – تضم فرقتى مدرعات وفرقتين ميكانيكيتين واثنتين من ألوية المدرعات المستقلة، مع حوالى ٩٠٠ دبابة. وأحس كل من «اليعازر» و «بارليف» أنه ليس من الحكمة القيام بالعبور قبل إحداث تدمير كبير بالقوات المدرعة المصرية.

على جانبى الخط، كان هناك انقسام حاد فى الرأى بشأن تجمعات المدرعات المصرية التى لازالت محتشدة على الضفة الغربية. فعلى الجانب الاسرائيلى، تزايد الضغط من أجل عبور

القناة بأسرع ما يكون وعدم انتظار عبور المدرعات المصرية إلى الضفة الشرقية؛ وفي مواجهة هذا الرأي، أحس «اليعازر» و «بارليف» أن من الضروري انتظار عبور تجمعات المدرعات المصرية إلى الضفة الشرقية، واستدراجها إلى القتال، وساعتها فقط يبدأ الهجوم، عبر القناة، على جيش مصري فقد معظم قوته. وعلى الجانب المصري، كان وزير الحربية، يسانده الرئيس السادات، يضغط على الفريق «الشاذلي» كي يدفع بمدرعاته إلى الضفة الشرقية، ويهاجم ممري متلا والجدي. ولثلاث مرات خلال أربع وعشرين ساعة، يصدر أوامره لتنفيذ ذلك، ولثلاث مرات يقاوم « الشاذلي» الأمر، موضحاً خطورة الموقف الذي يمكن أن ينشأ عن ذلك. وفي النهاية، صدر أمر مباشر بشن الهجوم المدرع في ١٤ أكتوبر.

عند العبور الأصلي للقناة، دفع المصريون بما يزيد على الألف دبابة من مجموع دباباتهم بخط الجبهة والبالغ ١٧٠٠ دبابة، مخلفين وراءهم ٣٥٠ دبابة بالقرب من الضفة الغربية، و٢٥٠ دبابة كاحتياطي استراتيجي: الفرقة ٢١/ مدرعات كاحتياطي خلف الجيش الثاني، والفرقة الرابعة/ مدرعات احتياطي الجيش الثالث. وقد وصف «الشاذلي» قرار عبور الفرقتين للقناة بأنه أكبر خطأ ارتكبته مصر أثناء الحرب. والحقيقة أن هذا التحرك لم يترك سوى لواء مدرع واحد لحماية الضفة الغربية للقناة.

في يوم الجمعة ١٢ أكتوبر، قدم الجنرالين «اليعازر» و «بارليف» خطتهما لعبور القناة إلى وزير الدفاع. واقترح « اليعازر » انتظار الهجوم المصري والتعامل معه، قبل العبور الاسرائيلي للقناة. وكان «ديان» متشككاً في العملية وغير متحمس لها، ولكنه أضاف بأنه غير مستعد لـ «إعلان الجهاد ضدها»: العبور الاسرائيلي للقناة لن يحسم شيئاً، ولا هو سيجعل المصريين يطلبون وقف اطلاق النار. كان خلافه مع «اليعازر» بشأن الخطة حاداً. وعرض «ديان» الموضوع على اجتماع رأسته رئيسة الوزراء، وحضره الأعضاء المختصون بالوزارة وعدد من الجنرالات. وخلال النقاش الذي أعقب تقديم « بارليف » للخطة، عبر الحاضرون عن كثير من الشكوك التي تحيط بالعملية وبدى للكثيرين أن ارتكاز عملية كتلك على خط إمداد واحد لا يتفق مع المبادىء العسكرية المقررة. وأثناء الاجتماع، وردت المعلومات بأن تحرك المدرعات المصرية عبر القناة، إلى الضفة الشرقية، قد بدأ. وهنا، اقترح «بارليف» تأجيل القرار حتى تتمكن القيادة الجنوبية من الاستعداد لملاقاة الهجوم المصري وصدّه. والحقيقة أن الدلائل كانت تتزايد على أن الهجوم المصري الذي طال انتظاره، أصبح – بعبور القوات المدرعة المصرية – وشيكاً. وقرر «اليعازر» تأجيل العبور حتى ما بعد معركة المدرعات «الرئيسية» وسحب أكبر عدد ممكن من المدرعات المصرية من الضفة الغربية إلى رؤوس الجسور.

كان وزير الحربية المصري قد تلقى تعليمات محددة من الرئيس السادات بتخطي الجنرال

«الشاذلى»، لكنه وافق على تأجيل الهجوم من يوم ١٣ إلى يوم ١٤ أكتوبر. ولكن فى يوم السبت ١٣ أكتوبر، قام المصريون بهجمات استكشاف على خط القتال. وكانت الفرقتان الرابعة و٢١ / مدرعات متمركزتين على الضفة الشرقية وتستعد – ضد نصيحة رئيس الأركان– للتقدم نحو الممرات، خارج مدى مظلة الصواريخ التى تغطى رءوس الجسور المصرية. وكانت خطتها هى التحرك نحو المركز العصبى لرفيديم (بير جفجافة) من خلال حركة كماشة واسعة، بفرقة مدرعة ولواء مدرع ينطلق من مفارق طرق الجدى إلى رفيديم، وتتقدم فرقة مدرعة أخرى من منطقة الاسماعيلية – الدفرسوار، عبر الطاسة، إلى رفيديم.

فى أثناء ذلك، قام جونين بنشر قوات القيادة الجنوبية، وأصدر تعليماته بأن تتولى المدرعات: أولا، مسئولية التصدى للعدو على ساحل البحر المتوسط فى الشمال وعلى خليج السويس فى الجنوب، ثم يأتى بعد ذلك دور القوات الجوية فى التعامل مع القوات المهاجمة خارج مدى الصواريخ المصرية أرض – جو. وبالنسبة للقطاعين الأوسط والجنوبى، إذا كان الهجوم جبهويا، فعلى «مندلر» و «شارون» أن يتولياه؛ أما إذا تواصل المجهود حتى «رفيديم»، فهناك فرقة «ادان» (إضافة إلى جزء من قوات «شارون») كاحتياطى لمواجهة هجوم مضاد من الأجناب. وقد تم دفع أحد ألوية «ادان» إلى «رفيديم».

وفى الصباح، توجه رئيس الأركان إلى المنطقة الجنوبية ثم طار إلى مقر لقيادة الأمامية لشارون لمراجعة خطط معركة الدبابات، التى بدت وشيكة، وعبور القناة المزمع. وتوجه «جونين» إلى هذا الاجتماع بطائرة هليكوبتر. وكان يجلس بجواره «عزرا وايزمان» (الميجور جنرال آنذاك، والقائد الأسبق للقوات الجوية الاسرائيلية، ثم رئيس فرع العمليات بقيادة الأركان العامة). وأبلغ «جونين» «مندلر» عبر الراديو بأنه سوف يزوره فى مقر قيادته بعد الانتهاء من «شارون»، واتفقا على مكان الاجتماع عن طريق التخاطب الكودى. وفجأة طار «مندلر» فى الهواء. فقد قتلته نيران صاروخ مصرى كان مصوبا إلى نقطة الملاحظة التى كان يتحدث منها إلى «جونين» بالراديو. وعلى الفور، أصدر «اليعازر» أوامره إلى البريجادير جنرال «كالمان ماجن»، الذى كان يقود القطاع الشمالى، بتولى قيادته.

وبموت «مندلر»، فقد جيش الدفاع الإسرائيلى ضابطاً غير عادى فى كماله. وكان أهم ما يميزه هو ذلك الإحساس بالولاء لمن هم أعلى منه، وكذلك لمن هم تحت قيادته. وبعد اندلاع الحرب، كان باستطاعة المقربين منه أن يدركوا إحساسه بقدر من المسئولية الشخصية، عن عدم تصرفه وفقاً لما أملاه عليه حدسه، الذى كان يحدثه بأن الحرب وشيكة. وكان على قناعة

بأن الموقف لم يكن ليتغير، حتى لو كانت قواته فى مواقعها طبقاً للخطة العامة. ومع ذلك، فقد كان واحدا من أكثر ضباط الجيش انضباطاً، ولم تصدر عنه كلمة لوم بعد اندلاع الحرب.

فى صباح الأحد ١٤ أكتوبر، قامت القوات المدرعة المصرية بهجومها بين السادسة والثامنة صباحاً. ففى القطاع الشمالى، بدأت الفرقة ١٨ / مشاة المدرعة بلواء من دبابات تى ٦٢، الهجوم من منطقة القنطرة بهدف الوصول إلى رمانة. ونُقلت وحدات الصاعقة بالهليكوبتر إلى الشرق عند بعض النقاط بالملاحات. وفى القطاع الأوسط، فى مواجهة «شارون»، خرجت الفرقة ٢١/ مدرعات، التى كانت قد أتمت العبور إلى سيناء ذلك الصباح، مع لواء دبابات من الفرقة ٢٣ الميكانيكية، عن رأس الجسر عند طريق مركزى يصل إلى الاسماعيلية. وفى قطاع «ماجن» الجنوبى، حاول لواءا دبابات، كل فى محوره، الاختراق شرقاً باتجاه ممرى الجدى ومتلا. وكان جزء من هذه القوات يسعى إلى التسلل إلى الوديان الموصلة إلى الممرات. وإلى الجنوب، تحركت حملة خاصة (تتألف من لواء مشاة من الفرقة ١٩ ولواء دبابات واللواء ١١٣/ ميكانيكى من الفرقة السادسة الميكانيكية) نحو رأس سدر، فى اندفاع جنوبى على خليج السويس. وكان اللواء «مأمون»، قائد الجيش الثانى، يقود، من مقر قيادته القريب من الاسماعيلية، ثلاث من الشوكات المصرية الست. وكان يقود الثلاث الأخرى اللواء «واصل» قائد الجيش الثالث، وكان على القوة الموجودة إلى أقصى الشمال أن تتوجه شرقاً نحو ممر الجدى ومقر القيادة الجنوبية الإسرائيلية فى أم خشيب. وكانت هناك قوة مدرعة مماثلة باتجاه ممر متلا، على مسافة حوالى تسعة أميال جنوب القوة السابقة، بينما توجهت الدفعة الجنوبية إلى الجنوب الشرقى، باتجاه رأس سدر

وهكذا بدأت واحدة من أكبر معارك المدرعات فى التاريخ (باستثناء معركة كورسك التى شهدتها الحرب العالمية لثانية) ، اشترك فيها ألفا دبابة على الجبهة. كان صباحاً مثيراً وثقيلاً. وبدأ المصريون بهجوم مدفعى كثيف. وكانت القوات الإسرائيلية قد استعدت بعناية لهذه المعركة، وكانت فى الانتظار. وفى الشمال، ضغط المصريون على الخطوط الاسرائيلية الممتدة طويلاً، وأمر «جونين» فرقة «ادان» بالتحرك وتولى مسئوليتها. ومع ساعات الظهيرة الأولى، تمكن «ادان» من رد المصريين إلى نقطة انطلاقهم بعد أن كبدهم حوالى ٥٠ دبابة. وفى القطاع الأوسط لم يكن حال المصريين أفضل أمام فرقة «شارون»: سمح الكولونيل «رشيف»، الذى كانت تتمركز دباباته فوق أرض مرتفعة، للمصريين بالتقدم فى هجوم متعجل على قاعدة نيرانه، وعندما اقتربوا من الدبابات الإسرائيلية، انطلقت النيران من مسافات لا تزيد على

المائة باردة. وفى الوقت نفسه، دفع بوحدة استطلاع الفرقة، معززة بسرية مدرعات. إلى الجناح الجنوبى للقوات المهاجمة. وعندما انتهت المعركة، كان اللواء الميكانيكى الأول المصرى قد دُمر؛ كما أمكن إحصاء ٩٣ دبابة مصابة، بينما لم يصب من لواء «رشيف» سوى ثلاث دبابات، كلها بواسطة الصواريخ.. لم تصب دبابة واحدة بنيران الدبابات المصرية. وعند الجناح الجنوبى لرشيف، نجح لواء اسرائيلى بقيادة الكولونيل «حاييم اريز» فى رد هجوم مصرى مواز. وبنهاية اليوم، فقدت الفرقة ٢١ المصرية، المصطفة أمام قوات «شارون»، ١١٠ دبابة.

إلى الجنوب من «شارون»، تصدت فرقة «ماجن» للدفعات المتقدمة نحو ممرى الجدى ومتلا، لتحتوى الهجوم المصرى بعد أن استسلمت بعض المواقع من البداية، وقبل القيام بهجوم مضاد، مخلفة وراءها حوالى ٦٠ دبابة. والتقى المجهود المصرى الجنوبى، الذى كان يهدف إلى القيام بحركة التفاف واسعة إلى الجنوب، ثم العودة شمالاً للوصول إلى ممر متلا ناحية الجنوب، بقوات مظلات اسرائيلية تسيطر على الممر عند رأس سدر. كما كانت دبابات «ماجن» تنتشر تحسبا لاحتمال حركة تطويق كهذه، وكذلك كان لواء «شمرون» ينتظر عند ممر متلا نفسه. وقد نشبت معركة شرسة بين القوات المصرية وقوات المظلات والمدرعات الاسرائيلية. وبعد ساعتين من القتال، أُبيد معظم اللواء الثالث من الفرقة الرابعة/ مدرعات المصرية. وبعد أن نجحت القوات الاسرائيلية فى إيقافها، أصبحت المدرعات المصرية، التى كانت تحاول التقدم جنوباً، خارج مدى الأسلحة المضادة للطائرات، بعيداً عن حماية الصواريخ أرض – جو. وهنا بدأ سلاح الطيران الإسرائيلى هجومه. وخلال ساعتين، اشتعلت النيران فيما يقرب من ٦٠ دبابة مصرية، وعدد كبير من حاملات الجنود المصفحة والمدافع. وبمرور الوقت، أخذ هذا الطابور يجرجر الخطى بعد أن فقد نصف دباباته، أى ٩٠ دبابة تقريباً.

أثناء النهار، اذاع المصريون تقارير متفائلة طيروها إلى انحاء العالم، نقلا عن تقارير تلقوها من مقار قيادة الجيشين الميدانيين. على أنه باقتراب المساء، أصبح من الواضح أمام المشير «أحمد اسماعيل»، وزير الحربية، أن هذه التقارير لا تعبر عن الموقف الحقيقى، وأن قواته أصبحت مكشوفة أمام الطيران الاسرائيلى دون حماية الصواريخ أرض – جو. وفى أحد لقاءاته الصحفية بعد الحرب صرح بأنه عندما أدرك حقيقة الموقف أمر بعودة التشكيلات إلى مواقعها الأصلية. وانتظرت القيادة الجنوبية الاسرائيلية – دون جدوى – هجوماً مصرياً لتطوير الهجوم بقوة أشدّ، والاختراق بعمق أكبر. لكن القوات المصرية كانت فقيرة القيادة تفتقد إلى

التكتيك البارع. لقد كان يوماً مشهوداً للقوات الاسرائيلية، إذ لم يسجل العدو مكسباً ثابتاً واحداً. وفى الشمال، قام الاسرائيليون بهجوم مضاد، وأعادوا الاتصال بحصن «بودابست»، الذى كان معزولاً.

كانت هذه المعركة بمثابة نقطة تحول حاسمة فى الحرب بسيناء: أمكن احصاء ٤٦٢ دبابة مصرية مصابة بميدان القتال، وسقوط أكثر من ألف من المهاجمين. ولم تتعد الخسائر الإسرائيلية فى ذلك اليوم عشر دبابات. وكان من نتائج هذه المعركة الكبيرة والحاسمة أن تعرض اللواء «سعد مأمون» لأزمة قلبية، وحل محله فى قيادة الجيش الثانى اللواء «عبد المنعم خليل». وأدركت القيادة المصرية خطورة الهزيمة وفى منشور وزع على جميع القادة، أفاد الفريق «سعد الدين الشاذلى»، رئيس القوات المسلحة المصرية، بأن القوات المهاجمة فوجئت، على جميع المحاور، بتقدم الدبابات الاسرائيلية والكتائب المضادة للدبابات المسلحة بالصواريخ الموجهة المضادة للدبابات من طراز إس.إس١١، والتى نجحت فى صد الهجمات وإحداث خسائر كبيرة فى الدبابات. وبعد تحليله للخسائر التى تكبدها الإسرائيليون فى هجومهم المضاد الاستهلالى على القناة وضد رءوس الجسور المصرية فى ٦ أكتوبر، والخسائر الكبيرة التى لحقت بالمصريين فى هجومهم يوم ١٤ أكتوبر، توصل إلى أنه لم يكن من الممكن ضمان أى نجاح – سواء بالدبابات أو المشاة المدرع – قبل تدمير أو إسكات دفاعات الصواريخ المضادة للدبابات.

فى صباح ١٥ أكتوبر، اقترح «الشاذلى» إعادة المتبقى من الفرقتين ١٢، والرابعة/ مدرعات مرة أخرى إلى الضفة الغربية للقناة وإعادة التجمع هناك، وذلك لتحقيق التوازن العسكرى المطلوب حسب ما تراءى له. وعارض وزير الحربية، الجنرال «احمد اسماعيل »، هذا التحرك، مؤكداً أن انتقال هذه القوات سوف يؤثر تأثيراً عكسياً على معنويات الجيش المصرى فى الضفة الشرقية، وأن الاسرائيليين يمكن أن يعتبروا تحركاً كهذا علامة ضعف، الأمر الذى قد يؤدى إلى المزيد من الضغط على القوات المصرية. وحتى يومنا هذا، يصرّ «الشاذلى» على أن القرار كان قراراً سياسياً، حيث كان مقرراً أن يلقى الرئيس السادات خطاباً سياسياً أمام البرلمان المصرى، مجلس الشعب، ويود أن يكون حديثه من موقع قوة.

كان «دايان» متشككاً فى احتمال قيام المصريين بهجوم كبير. وكان «شارون» يلح على عدم انتظار القوات الاسرائيلية للهجمات المصرية، بل أن تقوم بمهاجمة رءوس الجسور المصرية ومحاولة القضاء عليها. وفى النهاية، انتصر الموقف المشترك الذى اتخذه كل من «اليعازر»

«باراليف» و«جونين». وكان المصريين قد اتخذوا قرار الهجوم تحت ضغط السوريين، الذين كانوا يأملون فى أن يخفف مثل ذلك القرار من الضغوط الاسرائيلية التى تتعرض لها الجبهة السورية. لكن الهجوم عندما بدأ، انتشر بجبهة يزيد طولها على ١٠٠ ميل، على ستة محاور كبيرة. ولو أن المدرعات التى جاءت إلى شرق القناة قد تجمعت فى قوة واحدة أو اثنتين على الأكثر، فتوجهت قبضات قوية نحو واحد أو اثنين من الممرات، فمن المؤكد أن فرصة النجاح كان ستصبح أكبر منها فى حال التشتت التى كان عليها المجهود المصرى. هذا بالإضافة إلى أن المصريين لم يتعلموا من نجاحهم الاستهلالى فى عبور القناة، فلم يقدموا قوات كافية من المشاة لتدعيم هجومهم. وعند استعادة الأحداث ، فمن الواضح أن قرار الجنرال «اسماعيل على» ، النابع من تعليمات السادات المباشرة، كان أمامه فرصة طيبة للنجاح فى حالة واحدة، هى تجميع القوة المهاجمة فى قبضة مدرعة كبيرة. أما بالطريقة التى تم بها الهجوم، فقد أخطأ المصريون خطأ بينا، وانساقوا إلى المصيدة التى نصبها لهم «اليعازر» . لقد كان تقديره للأحداث التى ينبغى أن تشهدها الجبهة قبل العبور صحيحاً، ويعتبر قرار العبور من أهم القرارات التى اتخذها فى مجرى الحرب.

وهكذا، جاء الاستنتاج الذى خرج به الجانب الإسرائيلى من المعركة واضحاً، وأصدر «اليعازر» أوامره بأن يكون عبور القناة فى الليلة التالية.

الخطة الإسرائيلية

أُوكل إلى فرقة «شارون» تقدم عبور القناة بلواء مظلات مدعم بالدبابات. وتحدد له العبور من منطقة الدفرسوار، مع ترك ميسرته حرة، تحميها البحيرة المرة الكبرى، وإقامة رأس جسر بعرض ثلاثة أميال جنوب البحيرة، وبذلك يصبح الكوبرى السابق التجهيز، الذى يجب جره ونصبه فوق القناة، خارج مدى الهاونات والصواريخ المصرية المضادة للدبابات. وكان على الدبابات أن تسلك الشريط الزراعى الممتد بطول الترعة الحلوة والمحاذى للقناة، ثم البدء فى المرحلة الاستهلالية بضرب مواقع الصواريخ أرض - جو المصرية، حتى يصبح المجال الجوى فوق رأس الجسر نظيفاً أمام الطيران الاسرائيلى. وكان على فرقة «ادان» أن تظل فى وضع الاستعداد للعبور فور عبور «شارون»، بينما تظل فرقة «ماجن» مستعدة لحين صدور الأمر بذلك. وكان من المفترض أن يكون واحد، على الأقل، من ألوية القوارب المطاطية جاهزاً للعمل فى وقت مبكر من يوم ١٦.

وفيما بعد، صدرت الخطة بشكل أكثر تفصيلية. فبالإضافة إلى تنفيذ العبور الأول، صدرت الأوامر إلى فرقة «شارون» بأن تقوم فى الوقت نفسه بتوسيع نطاقها على الضفة الشرقية للقناة - بالاستيلاء على المزرعة الصينية والنقطة الحصينة التى تعرف كودياً باسم «ميسورى»- إلى نقطة تبعد ثلاثة أميال من خط الماء. وكان لهذا التحرك أن يفتح الطريقين المؤديين إلى القناة، «اكافيتش» و «ترتور» (والأخير طريق حاكم أُقيم بغرض سحب الكوبرى سابق التجهيز إلى القناة). وكان للعبور الاستهلالى أن يتم بلواء إسقاط مظلى فى قوارب قابلة للنفخ، تدعمه عشر دبابات، تعبر على عبّارات . وكان ينبغى تشكيل لواءين: لواء كبارى سابقة التجهيز وآخر للقوارب المطاطية. وكان على قوة الهجوم أن تقوم بتأمين رأس الجسر، ثم تتحرك جنوباً، بعد عبور قوات إضافية. وإذا ما صادف عملية توسيع النطاق على الضفة الشرقية أية مصاعب، فإن على فرقة «ادان» أن تعبر بعد وحدات الهجوم، وبعد ذلك فقط تعبر بقية قوات «شارون». كان على «ادان» أن يعبر الكوبرى فى الصباح بعد عبور قوات «شارون»، والاندفاع جنوباً، شرقى قوات شارون. وكانت مهمته هى تدمير بطاريات الصواريخ أرض - جو فى المنطقة، حتى تحقق للقوات الجوية الاسرائيلية السيادة الجوية فوق ميدان المعركة. وكان للهجوم أن يتطور بهدف عزل الجيش الثالث المصرى وتدميره. وفى توقيت العبور نفسه، كان على القوة الشمالية بقيادة البريجادير جنرال « ساسون» (الذى حل مكان ماجن) وفرقة «ماجن» الجنوبية، أن تشن هجمات على جبهاتها لشل قوات العدو.

على مدار السنين، أكملت القوات الإسرائيلية إعداد التجهيزات اللازمة لاحتمال عبور القناة، فى إطار تخطيطها العسكرى العادى. فقد أقامت الطرق، مثل ذاك الذى يحمل اسم «ترتور» عند منطقة الدفرسوار، لاستخدامه فى جر الكوبرى سابق التجهيز على اسطوانات. كما أعدت المنطقة المواجهة للنقطة التى اختيرت للعبور عند الدفرسوار كمنطقة تجمع بسواتر رملية، تشكل «باحة» محمية بعد إضفاء بعض التعديلات عليها فى آخر لحظة.

كان من الواضح تماماً أمام «شارون»، عند تأهبه للهجوم، أنه لن يتمكن من إتمامه وفقاً للجدول الزمنى للخطة. وكانت خطته تقضى بأن يقوم لواء مدرع، بقيادة الكولونيل «طوفيا رفيف» بهجوم حاسم على رأس جسر الجيش الثانى عند جناحه الجنوبى، بينما يقوم لواء «رشيف» بحركة التفاف جنوبية واسعة، عبر الكثبان الرملية، باتجاه القناة. وكان على قوة واحدة من لواء «رشيف» الاستيلاء على تحصين «متزميد» الذى يسيطر عليه المصريون، عند نقطة دخول قناة السويس إلى البحيرة المرة الكبرى؛ وأن تقوم قوة ثانية بتطهير طريق

«اكافيتش»؛ بينما تتجه قوة ثالثة جنوباً لتوسيع النطاق باتجاه المزرعة الصينية وتطهير طريق «ترتور». وكان على لواء مظلى بقيادة الكولونيل «دانى مات» أن يتبع لواء «رشيف» على طريق «اكافيتش»؛ بينما يتبع لواء آخر بقيادة الكولونيل «اريز» لواء«مات»، ويستكمل العبور الفرقى بلواء «رشيف». وكانت الخطة تفترض، بالأساس، وجود الكوبرى منصوباً فوق الماء فى صباح اليوم التالى. وبينما يتولى «رفيف» تأمين الانتشار على الضفة الشرقية، تقوم واحدة من لواء«اريز» بالعبور مع «دانى مات»، وتقوم قوة أخرى بدفع الكوبرى سابق التجهيز عبر طريق «ترتور» إلى ضفاف القناة. وفى الوقت نفسه، يقوم لواء «رفيف» بالهجوم بهدف سحب الثقل الأساسى للفرقتين المصريتين ١٦/ مشاة و ٢١/ مدرعات نحو الشمال، طريق الطاسة - الاسماعيلية، وتركيز انتباه القيادة المصرية على القطاع الشمالى من الجبهة.

فتح الثغرة

عندما بدأ «رشيف» تحركه، فى الرابعة مساء، كانت بحوزته أربع كتائب دبابات، وثلاث من المشاة على عربات نصف جنزير. وعندما حل الليل، هبط من الأرض المرتفعة متخذاً اتجاهاً جنوبياً غربياً (على الطريق الذى سبق لوحدة استطلاع الفرقة أن استكشفته وهى فى طريقها إلى البحيرة المرة الكبرى يوم ٩ أكتوبر). ووصلت قوته إلى «ليكسيكون»، على البحيرات المرة، دون أن تلقى مقاومة تذكر، ثم انحرف باتجاه الجنوب. وانقسمت وحدة استطلاع الفرقة التى تقود لواء «رشيف» إلى ثلاث وحدات فرعية: واحدة تجنبت الشاطىء الشرقى للبحيرة المرة الكبرى واتجهت نحو «متزميد»؛ وتحركت الثانية شمال الأولى كى تصل إلى القناة؛ بينما تحركت الثالثة شمالى الثانية كى تصل إلى القناة كذلك. وهكذا التحمت وحدة الاستطلاع على القناة فى تقدم بثلاث شوكات، مع شوكة جنوبية للاستيلاء على «متزميد».

واصلت الكتيبة السابعة طريقها غربى «لكسيكون»، مخلفة المزرعة الصينية إلى يمينها، وهاجمت باتجاه الشمال فى محاولة للوصول إلى الكوبرى المصرى، على مسافة ستة أميال شمالى «متزميد»؛ وتبعتها الكتيبة ١٨ على جناحها الشرقى حيث هاجمت باتجاه الشمال الشرقى نحو «ميسورى»، بينما هاجمت الكتيبة ٤٠ باتجاه شمالى شرقى، مع سرية عند «ترتور» وأخرى عند «اكافيتش»، لتفاجىء القوات المصرية المنتشرة على هذين الطريقين من المؤخرة. وتبعت وحدة استطلاع الفرقة ، الكتيبة ٤٢ / مشاة - مع نصف سرية دبابات - إلى غرب لكسيكون، لقصف المشاة المصرى. وتبعت الكتيبة ٤٠ / مشاة قوة مشاة إضافية (قوة

«شموليك») تتكون من فصيلتى مظلات نظامية ونصف سرية دبابات، وذلك لتطهير المزرعة الصينية شرقى لكسيكون؛ وبقيت كتيبة مشاة احتياط بقيادة الميجور «ناثان» كاحتياطى للقوة.

وصلت وحدة الاستطلاع الفرقية إلى «متزميد» والنقاط الواقعة شمالى القناة، حسب الخطة. وبعد أن تجاوز «رشيف»، مع الكتيبتين، تقاطع لكسيكون - ترتور متجهاً نحو الشمال، انطلقت النيران من المنطقة نفسها على الكتيبة ١٨ عند تحركها إلى الشرق من لكسيكون باتجاه «ميسورى». وبالرغم من نيران الدبابات والصواريخ والبازوكا التى أطلقت على الكتيبة والتى أصابت ١١ دبابة، واصلت كتيبة القيادة مهمتها بما تبقى من دبابات.

لكن قوة «رشيف»، ودون علم منه، تحركت نحو المنطقة الإدارية للفرقة ١٦ / مشاة المصرية، التى انسحبت إليها الفرقة ٢١ / مدرعات بعد أن تعرضت، يوم ١٤ أكتوبر، لقصف شديد. وفجأة، وجدت القوة نفسها وسط جيش جرار مع حشود من مئات العربات والمدافع والدبابات والصواريخ ووحدات الرادار وآلاف الجنود الذين يتحوطون بامتداد البصر. كانت القوة الاسرائيلية قد عبرت خلال الجانب الجنوبى غير المحمى للجيش الثانى المصرى عند التقاء هذا الجيش بالجيش الثالث المصرى - دخلت من «الباب الخلفى» - وفجأة وجدت نفسها وسط المناطق الإدارية لفرقتين مصريتين، وبالضبط، أمام مدخل قيادة الفرقة ١٦ / مشاة. واندلع الجحيم فى القوات المصرية. وفتحت آلاف الأسلحة من كافة الأنواع نيرانها فى جميع الاتجاهات، وبدا كما لوا أن المنطقة تشتعل عن آخرها. ووصلت الكتيبة ٤٠ / مدرعات إلى تقاطع طريق ترتور - لكسيكون وهاجمت، لكن الميجور «باتل، نائب قائدالكتيبة، أصيب فتعطل الهجوم؛ وتحركت سرية ثانية بقيادة الميجور «اهود» باتجاه اكافيتش، وقامت بتطهير الطريق. وأصبح الموقف كالتالى: وصلت وحدة استطلاع الفرقة إلى «متزميد» ، بينما كان «رشيف» عند شمال المزرعة الصينية يقوم بهجوم شمالى بكتيبتين؛ أما تقاطع طرق ترتور - لكسيكون فكان مغلقاً، وتقف بقية اللواء مع عدد كبير من الإصابات جنوبى التقاطع. وكانت قوات المشاة تعانى بشدة.

واصلت الكتيبة السابعة، الموجودة بين لكسيكون والقناة، تقدمها شمالاً حسب الخطة؛ لكن الكتيبة ١٨ تعرضت لقوة من دبابات العدو كانت متخندقة على مسافة نصف ميل شمالى المزرعة الصينية، واشتبكت معها. وقدم «رشيف» وصفاً للموقف إلى «شارون» و«مات» اللذين كانا يتبعانه، واقترح دفع لواء مات إلى طريق ناحال الموازى للشاطىء الشمالى الشرقى للبحيرة المرة الكبرى، مع إغلاق تقاطع الطرق الواقع إلى ميمنته والبالغة مساحته ٨٠٠ ياردة.

كانت الساعة آنذاك التاسعة مساء. وكانت هناك دلائل على أن العدو يعد لهجوم مضاد من الشمال؛ وازداد الضغط على الكتيبتين السابعة والثامنة عشر. ولم يكن من الممكن إخلاء الإصابات لأن تقاطع ترتور – لكسيكون كان مغلقاً، فتكوّن مركز إخلاء لكتيبة، ضم جميع الجرحى، بجوار دبابة «رشيف». وفى الساعة العاشرة مساء، أبلغ قائد الكتيبة السابعة، الذى كان آنذاك على مسافة ستة أميال من «متزميد»، بأن قوته قد تناقصت إلى الثلث. ولعلمه بانتشار اللواء على جبهة واسعة للغاية، أمر «رشيف» الكتيبة السابعة بالانسحاب لمسافة حوالى ميلين وتشكيل خط مع الكتيبة ١٨، الموجودة على مسافة نصف الميل من المزرعة الصينية. وبينما بدأوا يتحركون، أصيب الليفتنانت كولونيل «امرمان»، قائدالكتيبة، فى ساقه، وأُخلى إلى الدبابة التى كانت تلتقط المصابين من ميدان المعركة. (ظلت هذه الدبابة إلى جوار دبابة «رشيف» طوال الليل، وقائد الكتيبة المصاب يعمل من داخلها كحمّال وعامل لاسلكى.)

عند منتصف الليل تقريباً، ازدادت شراسة المعركة من أجل الاستيلاء على طريق ترتور عندما قام اللواء ١٤/ مدرعات المصرى بالهجوم من الشمال، فى وقت كانت فيه الكتيبة السابعة تقوم بانسحاب منظم. وساد الساحة فوضى شاملة: عربات الاسعاف المصرية تتسابق على طريق لكسيكون؛ وحدات المشاة المصرية تندفع فى كل اتجاه، وكذلك الدبابات. كان المشهد يوحى بأن أحداً لا يدرى ماذا يجرى أو ما الذى ينبغى عمله. وعلى جميع الجوانب، كانت اللوريات، والذخائر والدبابات، وصواريخ أرض – جو المحمولة على اللوريات، ومحطات الرادار، تشتعل فيها النيران في حريق هائل يغطى الصحراء. كانت مثل حادس.* وبعد ذلك بأيام، كانت المنطقة ما بين القناة و«ميسورى» بكاملها تبدو من الضفة الغربية كمقبرة كبيرة مخيفة. وفى خلفية هذا المشهد، كانت تجمعات المدفعية، من الجانبين، تقصف بكل أنواع الذخائر.

ومرة بعد أخرى، قامت كتيبة المظليين الاحتياطية، تحت قيادة «رشيف»، بالهجوم على تقاطع الطرق، ولم يكن المظليون على علم بأنهم يهاجمون قوة مصرية كبيرة، بقوة فرقة على الأقل. وأثناء الهجوم، وقع جزء من قوة المظليين فى كمين، قضى عليهم برغم المحاولات المتكررة لتخليصهم.

قرر «رشيف» أن يهاجم تقاطع الطرق من الخلف، بكتيبتين غرب المزرعة الصينية، وبقايا لوائه المتواجدة جنوب التقاطع، تخلى مصابيها وتعيد التنظيم. وقد فشل هذا الهجوم، والذى وقع فى الرابعة من صباح يوم ١٦ .

---

* مثوى الأموات فى الميثولوجيا اليونانية. (المترجم)

عند فجر يوم ١٦، انتقل «أمنون رشيف» إلى أرض مرتفعة لمعاينة موقع المعارك الليلية. كانت الصحراء مغطاة من جميع الجهات بقافلة من الدبابات والعربات والمدافع والناقلات المشتعلة والمتفحمة. وكان القتلى من المشاة ينتشرون فى كل مكان. ولم يكن هناك نوع من أنواع العتاد أفلت من التدمير: قوافل قيادة، ورش متنقلة، حاملات سام٢ الضخمة بصواريخها، مطابخ ميدان، وكانت هناك ايضاً بقايا القوات الإسرائيلية. وفى مواقع كثيرة لم يكن يفصل بينهم وبين المصريين أكثر من عدة ياردات قليلة.

بعد ذلك بقليل، قام «رشيف» بمحاولة أخرى للاستيلاء على تقاطع طرق «ترتور». وفى هذه المرة، لم يكتسح «رشيف»، ومعه سرية أو مايوازيها من الدبابات تقاطع الطرق، بل عمد إلى إنهاك القوة المصرية التى كانت تطلق عليه من مدى قصى، وذلك باتباع تكتيك تعاقب الضرب والحركة، على ضوء ما تجمع لديه من معلومات خلال المراقبة النهارية. ونظراً للإنهاك الذى أصابهم أثناء القتال الليلى وما حل بهم من خسائر كبيرة، لم يكن بإمكان المصريين الصمود أمام هذا الاستنزاف البطىء، فانكسروا فجأة وولوا هاربين. واحتل «رشيف» تقاطع الطرق. على أنه عندما حاول التقدم باتجاه الشمال الشرقى نحو طريق «ترتور» . أُجبر على التوقف عندما فتحت عليه نيران الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات من موقع «ميسورى»؛ وهبط «رشيف» عائداً إلى تقاطع الطريق. وكان لواؤه قد حل به الإنهاك وفقد ما يزيد على نصف قوته؛ وأصيب عدد كبير للغاية من ضباطه وقادة الدبابات. وكان طريق «ترتور» لايزال مغلقاً. وبالرغم من أن الاسرائيليين أصبحوا يسيطرون على تقاطع الطرق، إلا أن المصريين كانوا يضغطون من الشمال على القوات المسيطرة على الخط الواقع غربى المزرعة الصينية. وترك «رشيف» كتيبة للسيطرة على هذا الخط الشمالى، وسحب لواءه إلى «ليككان» على شواطىء البحيرة لإعادة تنظيمه. وخلال القتال العنيف الذى شهدته تلك الليلة، فقدت فرقة «شارون» أكثر من ٣٠٠ قتيل وأكثر من ربع دباباتها البالغ إجماليها ٢٨٠ دبابة. وقد أصيبت ١٥٠ دبابة مصرية.

فى تلك الأثناء، وفى التاسعة والنصف من مساء ١٥ أكتوبر، أبلغ «شارون»، الذى أخطأ الاعتقاد بأن القوات المصرية على وشك الانهيار، بأن طريق «اكافيتش» أصبح مفتوحاً. فقد كان له قوة شمالى المزرعة الصينية، لكن كانت هناك مناوشات مع مدرعات العدو عند تقاطع طريقى ترتور – لكسيكون، تكبدت قواته خلالها عدد من الإصابات. كان أساس التقرير الأول

المتقاتل هذا هو تقدم لواء «رشيف» واحتلاله لمتزميد وتأمين اكافيتش. إلا أنه بعد مرور قوة «رشيف»، أعاد المصريون التجمع مع أسلحتهم المضادة للدبابات - دون علم بتقدم الاسرائيليين - وأغلقوا «اكافيتش» مرة أخرى. وقد وردت التقارير إلى مقر قيادة «شارون» بأن القوات الموجودة عند «ترتور» والمزرعة الصينية تواجه مقاومة عنيفة بالأسلحة المضادة للدبابات، بينما التحرك الإسرائيلي الرئيسى نحو القناة يجرى على بعد عدة مئات من الياردات باتجاه الجنوب. وبرغم هذا الموقف الشديد الخطورة، أمر «شارون» «دانى مات» بالتقدم خلف قوات «رشيف».

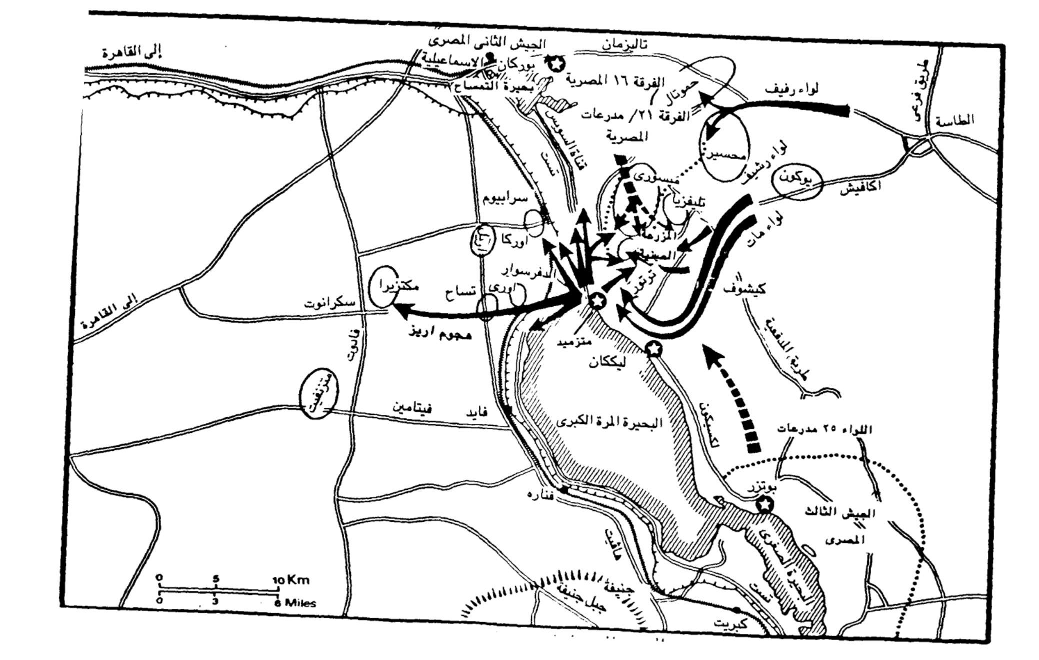
العبور

الكولونيل «دانى مات» طويل القامة، له لحية وشارب منسقين مميزين. أُصيب فى عدد من المعارك. فى حرب الأيام الستة، تولى قيادة لواء مظلى بسيناء تحت قيادة «شارون»، وهبط مرتين بالهليكوبتر فى سوريا قرب نهاية تلك الحرب. فى عام ١٩٦٨، قاد غارة الـ ١٢٠ ميلاً الجريئة على نجع حمادى بمصر. فى ١٩٦٩، تولى قيادة لواء المظلات / احتياط الذى نجح، تحت قيادة الجنرال «موردخاى جور»، فى احتلال مدينة القدس القديمة خلال حرب الأيام الستة. وفى سنوات لاحقة، صعد حتى رتبة الميجور جنرال، وعمل كرئيس للمحاكم العسكرية ثم كبير منسقى الأراضى التى تشرف عليها اسرائيل فى الضفة الغربية وغزة.

فى الصباح الباكر من ١٥ أكتوبر، تلقى «مات» تعليمات بتحريك لوائه، الذى كان متمركزاً بممر متلا، لعبور القناة فى تلك الليلة. وكانت الأوامر تقضى بأن تقوم سرية استطلاع اللواء وسرية المهندسين بقيادة قائد ثان اللواء بقيادة عبور القناة، وإقامة أول موطىء قدم على الضفة الغربية. وكان على سرية المهندسين أن تعبر، مع معدات التفجير، من أربع نقاط. كان كل شىء معداً للاختراق. وقد عين قائد ثان اللواء كى يتولى مسؤلية «الفناء»، وهو منصة من الطوب عند الطرف الغربى لطريق «ترتور»، على بعد ياردات قليلة إلى الشمال من النقطة التى تلتقى عندها القناة بالبحيرة المرة الكبرى، وإلى الجنوب الغربى تماماً من «متزميد». وكان «شارون»، أثناء توليه القيادة الجنوبية، قد اختار منطقة «الفناء»، بطول ٧٠٠ ياردة وعرض ١٥٠ ياردة، كنقطة مثالية للعبور، تحيط بها حوائط رملية واقية. وكانت تضم مواقع للوحدات تعمل كقواعد نيران للاشتباك مع قوات العدو على الجانب الآخر من القناة، بالإضافة إلى مقار قيادات القوات .

بعد الحصول على موطىء القدم الأولى على الجانب المصرى من القناة، كان على كتيبة بقيادة الليفتنانت كولونيل «دان» أن تتولى توسيع رأس الجسر باتجاه الجنوب، بينما تقوم كتيبة أخرى بقيادة الليفتنانت كولونيل «زڤى» بتوسيعه باتجاه الشمال. وكان المطلوب ألا يقل عرض رأس الجسر عن ثلاثة أميال إلى الجنوب، وكذلك عبور الترعة الحلوة واحتلال مساحة ما بين ميل إلى ميل ونصف الميل غربيها. وكان «مات» قد أُبلغ بأن ٦٠ من القوارب القابلة للنفخ سوف تسلم للواء فى العاشرة صباحاً، إلا أنه لم يتسلم حتى الظهيرة أيا من تلك الزوارق، كما لم يتسلم سوى نصف الـ ٦٠ عربة النصف مجنزرة التى وُعِد بها. ولم يعثر ضباطه على الزوارق والعربات نصف الجنزير إلا عند الظهيرة. وتحرك لواء «مات» باتجاه الموقع، لكن السيطرة الاسرائيلية على المواصلات اختلت تماماً: أُغلقت الطرق لأميال وأصبح الطريق إلى الطاسة غير صالح للمرور. وعلى مدى ساعتين لم تتمكن قوات «مات» من السير لأكثر من ثلاثة أميال. وكان السير قاصراً على الطرق وحدها، إذ كان من المستحيل الانحراف إلى الكثبان الرملية بعد أن ظلت المركبات ذات العجلات مغروسة هناك. وبعد كفاح طويل وسط ظروف صعبة للغاية، نجح جزء من قوات « مات » فى الوصول إلى مهبط « الفناء » . ولم يبلغ المفترض الزوارق القابلة للنفخ، والتى كان من المفترض أن يتسلمها فى الصباح، إلا فى التاسعة مساءا؛ وبسبب الحالة التى آل اليها الكثير من حاملات الجنود، اضطر «مات» إلى تعديل خطته فترك سرية استطلاع اللواء، التى كان عليها أن تهاجم رأس الجسر على الضفة الغربية مع كتيبة الليفتنانت كولونيل «دان»، فى الخلف. كذلك فقد اتضح أن المنصة القوية للفناء غير مكتملة عند إحدى النقطتين المفترض العبور منها، وأنه ليس أمامهم إلا استخدام النقطة الجنوبية فقط.

وعندما بدأ لواء « مات » التحرك، تتقدمه سرية دبابات ويتبعها قائد ثان الكتيبة مع قوة العبور الهجومية مع القيادة الأمامية للواء وكتيبة « دان » وما تيسر من اللواء، تعرض الطابور لقصف شديد من المدفعية والصواريخ ومدافع الماكينة الثقيلة من تقاطع «اكاڤيتش» - «ترتور»، من على مسافة حوالى ألف ياردة. ودُمرت القوة التى أرسلها «مات» للتمركز عند تقاطع الطرق لتقديم الحماية عند أية محاولة للتدخل من الشمال أو الشرق ، تدميراً كاملاً. وهكذا، واصل «مات» تحركه الحذر نحو القناة، من أجل العبور، فى ظل طريق تقدم واهن وخط إمداد معرّض لنيران العدو الكثيفة. وفى الثانية عشرة والنصف من صباح يوم ١٦، دخلت مجموعة الهجوم، بقيادة قائد ثان اللواء، إلى «الفناء» . وعند ذاك، أمر «مات» جميع المدافع المعاونة تحت إمرته



إلى القاهرة
الجيش الثانى المصرى
الاسماعيلية
بوركان
تاليزمان
بحيرة التمساح
الفرقة ١٦ المصرية
حوتال
الفرقة ٢١/ مدرعات
المصرية
لواء رفيف
الطاسة
طريق فرعى
محسير
لواء رشيف
يوكون
اكافيش
قناة السويس
مسورى
تليفزيا
المزرعة
المينيقة
لواء مات
سرابيوم
اوركا
الدفرسوار
اورى
تساح
مكتزيرا
سكرانوت
إلى القاهرة
هجوم اريز
ترتور
كيشوف
متزميد
ليككان
طريق الدفعية
فانوت
متزنفيت
فيتامين
فايد
البحيرة المرة الكبرى
لكسيكون
اللواء ٢٥ مدرعات
بوتزر
الجيش الثالث
المصرى
قناره
البحيرة الصغرى
جنيفة
جبل جنيفة
كبريت
0 5 10 Km
0 3 6 Miles

بفتح النيران على منطقة من الضفة الغربية تبلغ مساحتها ألف ياردة عرضاً وبعمق ٢٢٠ ياردة.

في تلك الأثناء، لم تتمكن العربات نصف المجنزرة التي تحمل قوات «مات» من مواصلة السير- كما كان مخططاً - على الطريق المتجه شمالاً وشرقاً لأن المصريين كانوا قد احتلوا الطريق بالفعل على بعد حوالى ٧٠٠ ياردة من مقر قيادة « مات »، وهكذا عاد طابور العربات نصف المجنزرة الفارغة من الطريق نفسه الذي كانت تتقدم عليه بقية العربات نصف المجنزرة محملة. وأصبح الموقف خطيراً للغاية. ولكن على الرغم من تواجد المصريين بالقرب من نقطة العبور والجحيم الذي يسود المنطقة، حث «شارون» فرقته على التقدم.

وفى الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة من صباح يوم ١٦، عبرت الموجة الأولى من القوات الاسرائيلية القناة، وحصلت على موطىء قدم على الضفة الغربية، بعد عشرة أيام من الهجوم المصرى الأول على الضفة الشرقية . وعبرت القوات المتقدمة حسب الخطة، بينما كانت المدفعية الاسرائيلية تقصف شريط الهبوط الضيق بأطنان من القذائف. وعبرت القيادة الأمامية للواء فى الثانية وأربعين دقيقة صباحاً، وبحلول الخامسة كانت جميع قوات المشاة قد أتمت عبورها؛ وفى السادسة وثلاث وأربعين دقيقة عبرت أولى دبابات لواء « اريز » على عبّارة؛ وبحلول الثامنة صباحاً، كانت قوات « مات » قد أقامت رأس جسر باتساع ثلاثة أميال من البحيرة المرة الكبرى، حسب الخطة. كانت المقاومة ضعيفة، وعندما كانت قواته تتحرك باتجاه الشمال، بمحاذاة الساتر المصرى، تعرضت القوة لثلاثين من الجنود المصريين يديرون موقعاً اليكترونياً على مسافة ميل باتجاه الشمال؛ وقد قُتل جزء من القوة وأُسر جزء آخر. وعندما ظهرت حاملات الجنود المدرعة المصرية، ضربتها القوات الاسرائيلية المتقدمة. وعندما كانت القوات المواجهة للشمال تنتظر بموقعها لاحظت قافلة من سبع عربات تحمل ١٥٠ جندياً تقترب بحذر، فقامت القوات بتدميرها، واستولت على المعابر الأربعة الإسرئيسية على الترعة الحلوة. وخلال الصباح، وبعد ترك أربع دبابات لحماية قوات «مات»، تحرك «اريز» مع ١٢ دبابة باتجاه الغرب بحثاً عن مواقع الصواريخ أرض - جو.

على أن مشكلة المزرعة الصينية ظلت تشكل سحابة سوداء فوق رأس القيادة الإسرائيلية، التى كانت تعلم تمام العلم أنه إذا لم يتم تأمين خطوط المواصلات على الضفة الشرقية، فإن العملية برمتها يمكن أن تبوء بالفشل . ولعلمه بضغط اللواء ١٤/ مدرعات المصرى من موقع «ميسورى » على لواء« رشيف » من جهة الشمال، أعطى « باراليف » إنذاراً مبكراً إلى فرقة

«ادان»، التى كانت على أهبة الاستعداد لعبور الكوبرى الأول، بأن عليها أن تتدخل فى المعركة من أجل فتح *الطرق إلى القناة*.

كان الموقف فى مقر القيادة الجنوبية متوتراً بالفعل. وعند استعراضه لما يجرى على الضفة الشرقية، ولعلمه بالقتال الشرس الذى يدور على الطرق، اقترح «موشى دايان» وزير الدفاع سحب المظليين من الضفة الغربية : «لقد حاولنا، وليس هناك ما يمكن عمله». واقترح إلغاء فكرة العبور : «سوف يذبحونهم على الجانب الآخر فى الصباح» . وكان رد «جونين» : «لو أننا عرفنا مسبقاً بما حدث، لربما تراجعنا عن العبور. لكن بما اننا عبرنا بالفعل، فعلينا الاستمرار حتى النهاية المرة. إذا لم يكن هناك رأس الجسر اليوم فسوف يكون غداً، وإذا لم يتحقق لنا ذلك غداً، فسيكون بعد يومين.» وسأل «بارليف»، بصوته الهادىء المميز، مخرجاً كلماته ببطء مبالغ فيه، عما كانوا يتكلمون. وعندما أخبره «جونين»، أجاب : «ليس ثمة ما يستوجب النقاش إطلاقاً» .

ومرة أخرى، يثور جدل حاد بين «شارون» والقيادة الجنوبية. فقد كان من رأى «شارون» الاستفادة، فوراً، من رأس الجسر الذى قام عبر القناة، بغض النظر عن إقامة الكوبرى من عدمه. وكان يرى كذلك نقل فرقة «ادان» على عبّارات إلى الجانب الآخر، ثم تتقدم القوات الاسرائيلية على الضفة الغربية. وفى ١٦ أكتوبر، رفض « بارليف » هذا الاقتراح، ورفضه مرة أخرى يوم ١٧ عندما أعاد «شارون » طرحه، مشيراً إلى أن الأمر ليس مجرد غارة عبر القناة. فقد كان من رأى «بارليف» أنه من غير المعقول الهجوم بقوة تقدر بمئات الدبابات عبرالقناة، دون خط إمداد آمن وكوبرى. وكان من رأيه أن الدبابات سوف تدخل فى حالة من الشلل خلال أربع وعشرين ساعة؛ وهو، فوق ذلك، لا يحبذ الاعتماد على أطواف ضيقة. وهو يرى أن على فرقة «ادان» أن تقوم أولاً بتطهير الضفة الشرقية للقناة، قبل الانتقال إلى الضفة الغربية.

أعيد إصلاح الكوبرى السابق التجهيز، الذى كان قد تعطل أثناء نقله، وتحرك كوبرى الزوارق المطاطية إلى الأمام، لكن كان كل شىء متوقفا على تطهير الطرق إلى القناة حتى يمكن إنزال الكوبرى. وعند ظهر ١٦ أكتوبر، عقد اجتماع حضره «دايان» و «بارليف» و«جونين»، وقال الأخير بأنه إذا لم يصل الكوبرى والزوارق إلى القناة فإنه ينبغى الانسحاب من الضفة الغربية. وإذا توفرت الزوارق دون الكوبرى، فعلى القوة أن تبقى هناك وحدها، لأن فرقة «ادان» لا يمكن نقلها فى هذه الحالة للالتحاق بها. ولكن بمجرد وصول الكوبرى إلى الموقع، أمكن لجميع القوات العبور حسب الخطة.

كان «ادان» قد بدأ دفع قواته بالفعل إلى الأمام كى تعبر على الأطواف عندما صدرت إليه الأوامر بفتح «اكاڤيتش» و «ترتور». وكانت القيادة الجنوبية قد أرسلت قوة من المظليين للتعامل مع القوات المصرية التى تغلق الطريقين، لكنها ظلت تقاتل طول الليل دون استعداد كاف، فنزلت بها خسائر كبيرة. وأصدر « ادان » أوامره إلى المظليين بمغادرة «ترتور» والتمركز على « اكاڤيتش »، لكن النيران كانت شديدة لدرجة لم يتمكن معها المظليون من الانسحاب. وبينما كان المظليون يقاتلون قتالاً يائساً بين الطريقين، قرر « ادان » أن يقوم بمحاولة أخرى. وأرسل قوة من حاملات الجنود المدرعة إلى « اكاڤيتش » لاستطلاع الموقف؛ وكان الطريق خالياً. فانتهز هذه الفرصة، وبدأ يدفع بمعدات الكبارى المطاطية تدريجياً نحو القناة. وكان يقوم بحماية معدات الكوبرى كتيبة مظلات، أدرك قائدها أن عليه أن يحتل الخط المواجه للخطوط المصرية بأى ثمن. فأقام خط على مسافة حوالى ٧٥ - ١٠٠ ياردة من الخطوط المصرية بمظلييه الذين كانوا يضحون بأرواحهم ويندفعون نحو الأرض الحرام لإخلاء الجرحى. وبرغم النيران المصرية المركزة المميتة، ثبت المظليون فى معركة دامت ١٤ ساعة، فى مواجهة قوة فرقية، بينما تواصل التحرك نحو القناة فى المؤخرة.

فى تلك الأثناء، تحرك لواءان مدرعان بقيادة «ادان» لتطهير منطقة «اكاڤيتش» و «ترتور». وانتشر لواء «ناتك نير» جنوبى «اكاڤيتش»، وسار على الطريق شمالاً باتجاه «ترتور». واندفع لواء « امير » من الشرق إلى الغرب. وانضم كذلك لواء «رڤيف»، وضغط «ادان» على القوات المصرية على الممر الإسرائيلى من الشرق بقوة مركزة بثلاثة ألوية مدرعة

معركة الممر

تلقت القيادة المصرية أنباء وجود القوات الاسرائيلية على الجانب الغربى من القناة، وهوّنت تلك الأنباء من شأن العملية، فلم تثر اهتماماً ذا بال. والحقيقة أن رد الفعل المصرى الأولى على العبور كان يميل إلى اللامبالاة وعدم التصديق، مع غرور أعمى أصاب القيادة على كافة مستوياتها منذ النصر الاستهلالى، الأمر الذى جعلها تنظر إلى العملية باعتبارها عملا من أعمال الإزعاج يمكن القضاء عليه. وكان الإحساس السائد أنها حركة قام بها الاسرائيليون بهدف التأثير فى المعنويات، ووصفها الرئيس السادات بأنها « عملية تلفزيونية » للاستعراض لا أكثر. وعند ظهر ١٦ أكتوبر، اجتمعت قيادة الأركان العامة المصرية، وقررت ضرب منطقة العملية الاسرائيلية فى صباح ١٧ أكتوبر. وهنا برز مرة أخرى الاختلاف الحاد فى وجهة

النظر بين وزير الحربية ورئيس الأركان. فقد صمم الجنرال «الشاذلى» على موقفه بضرورة سحب جزء من القوات من الضفة الشرقية إلى الغربية، وإن كان على وعى - على ضوء الموقف الجديد- بصعوبة سحب الفرقة ٢١/ مدرعات التى كانت مشتبكة مع القوات الاسرائيلية فى محاولة لتوسيع النطاق على الضفة الشرقية. ولذلك، فقد اقترح سحب الفرقة الرابعة/ مدرعات واللواء ٢٥ / مدرعات من الجيش الثالث، والهجوم بلوائين على الألوية الاسرائيلية المدرعة بالضفة الغربية للقناة من جهة الشمال الشرقى. لكن وزير الحربية عارض سحب أية قوات، بما فى ذلك الفرقة الرابعة، من الضفة الشرقية. وكان من رأيه كذلك أن الهجوم المضاد ينبغى أن يوجه ضد المر الاسرائيلى على الضفة الشرقية، وأنه من غير الممكن القيام إلا بهجوم ثانوى على الضفة الغربية. وعندما وصل الرئيس السادات إلى مقر القيادة، طرح عليه «الشاذلى» اقتراحه، فخرج السادات عن شعوره، وطلب إليه الكف عن الكلام، وصرخ فيه بأنه إذا تحدث مرة أخرى عن سحب القوات من الضفة الشرقية، فسوف يقدمه إلى المحكمة العسكرية.

وفى الثالثة من صباح ١٧ أكتوبر، نقل الجنرال «واصل»، قائد الجيش الثانى، إلى «الشاذلى» شكوكه، حول فكرة تحريك اللواء ٢٥/ مدرعات للقيام بهجوم مضاد على الضفة الشرقية. وحسب ما ذكره « الشاذلى» ، فإن كل من الجنرال « واصل » وقائد اللواء كان من رأيهما أن اللواء يسير نحو مصيدة خطيرة. وبعد مناقشة طويلة - حسب ما يذكر «الشاذلى» أيضاً - قال «واصل» مستسلماً : «سوف أنفذ التعليمات، لكن ينبغى أن أخبرك بأن هذا اللواء مصيره التدمير». وهكذا، كانت القيادة المصرية ، لاعتقادها أن القوات الاسرائيلية تقوم بمجهود كبير لفتح ممر شمالى البحيرة المرة الكبرى، غير مدركة أن القيادة الاسرائيلية تشن فى الوقت نفسه مجهوداً كبيراً عبر القناة دون طريق إمداد مؤكد.

وهكذا، قام الجيشان المصريان الثانى والثالث، فى ١٧ أكتوبر - حسب التعليمات- بجهد باسل لإغلاق المر الإسرائيلى وعزل القوات الاسرائيلية فيما بين « لكسيكون » والقناة. وواصل اللواء ١٤ / مدرعات القتال ليومين متواصلين ضد كتيبة مدرعات عزلاء، يقودها الليفتنانت كولونيل «امير چافى»، إلى الغرب من المزرعة الصينية. وبحلول مساء يوم ١٧، كانت الكتيبة قد أصيبت بتدمير شديد، فى الوقت الذى كانت فيه قوات الفرقة ١٦/ مشاة والفرقة ٢١/ مدرعات تقوم بهجومين كبيرين على قوات « ادان » عند « ترتور » و«اكافيتش» .

بدأ الهجوم المصرى المضاد من « ميسورى » والمزرعة الصينية باتجاه « اكافيتش ». وكانت

الدبابات المصرية فى تقدمها تغطى الكثبان الرملية. وكان الكولونيل « نير » والكولونيل « امير » يترقبان وصولها، ودارت معركة دبابات كبيرة، قام خلالها الليفتنانت كولونيل «امير چافى»، الذى كان إلى الغرب من القوات المصرية، بالانقضاض من المؤخرة . وشن المصريون هجومين كبيرين؛ وعندما انسحبوا فى نهاية المطاف خلفوا وراءهم عدداً كبير من الدبابات.. خسائر تكفى لتحديد مصير المزرعة الصينية. وعند هذه المرحلة ، قام الجيش الثالث المصرى بدفع اللواء ٢٥/ مدرعات من الجنوب لإتمام العملية المشتركة. وتقدم شمالاً على البحيرة المرة الكبرى باتجاه رأس جسر الفرقة ١٦ المصرية شمالى الممر الإسرائيلى، بهدف عزل الممر وتدمير القوات الإسرائيلية التى اخترقت رأس الجسر.

فى ذلك الصباح، عقد اجتماع بمقر قيادة «ادان» فوق التلال الغربية من «كيشوف»، حضره «ادان» و«اليعازر» و «بارليف» . وقد بدا التحسن فى الموقف مع فتح طريق «اكاڤيتش» وتطهير طريق « ترتور » وتخليص المظليين وإحباط الهجمات المصرية المضادة، ونُصب أحد الكبارى ليصبح جاهزاً للمرور خلال ساعات قليلة. ونشب خلاف حاد بين «شارون» و « دان »، إذ اقترح « شارون » أن تقوم فرقة « ادان » بالتعامل مع الممر والضفة الشرقية، على أن يعبر هو مع فرقته إلى الضفة الغربية. وعارض « ادان » هذا الاقتراح بشدة، مشيراً إلى أنه ظل يقاتل لثلاثين ساعة متواصلة لإنجاز مهام كان المفروض أن يقوم بها «شارون». وكان يشعر بأن فرقته تستحق بعض المجد الذى نالته قوات «شارون» التى عبرت بالفعل. وأيد «اليعازر» اقتراح «ادان»، وأمر «شارون» بتنظيف الممر وتوسيعه، وبعدها فقط يمكنه العبور. وكان على لواء «رفيف» أن يضم إلى «شارون» ويضغط على العدو، حتى يتمكن لواء «أمير» من اللحاق بأدان والعبور، وبينما كان الاجتماع مستمراً، أبلغ «رشيف» (الذى أعيد تنظيم لوائه فى منطقة «ليككان» على شاطىء البحيرة المرة الكبرى) بأن لواء مصرياً مدرعاً يقترب بسرعة من مواقعه مثيراً التراب. وأكد الاستطلاع الجوى على أن هذا كان طابورا من حوالى ١٠٠ دبابة من طراز تى ٦٢. وكان هذا هو اللواء ٢٥/ مدرعات المصرى.

غادر «ادان» المؤتمر ليتولى بنفسه قيادة وتوجيه المعركة الجديدة. وقبل أن ينصرف حصل على إذن من « بارليف » بإخراج لوائه الثالث، بقيادة «آرييه كرين»، من الاحتياط. وبدأت

المعركة عند منتصف النهار، عندما فتحت دبابات «رشيف» النيران من مسافة بعيدة وأصابت أول دبابتين في الطابور المصرى. وأثناء الاجتماع، ومع ورود تقارير «رشيف»، كان «ادان» قد أصدر أوامره بالفعل إلى «ناتك نير» بترك كتيبة واحدة في منطقة «اكافيتش» و «ترتور» وعمل كمين مدرع بباقى قوته شرقى « لكسيكون » أمام البحيرة المرة الكبرى. في الوقت نفسه، صدرت الأوامر إلى «أرييه كرين»، الذى كان يتحرك بقوته على الطريق الفرعى، بالالتفاف سريعاً والدخول إلى طريق ثانوى والانتشار شرقى «بوتزر» عند الطرف الجنوبى للبحيرة المرة الكبرى، ليصبح بذلك إلى شرق ومؤخرة اللواء المصرى المتقدم. وهكذا، تحرك اللواء المصرى ٢٥/ مدرعات المؤلف من ٩٦ دبابة وعدد كبير من حاملات الجنود المدرعة والمدفعية ولوريات الوقود والإمداد – ببطء نحو المصيدة قوة صغيرة من قوات « رشيف» تغلق الطريق عند «ليككين» في الشمال، ومن الغرب البحيرة؛ وبينها وبين الطريق حقل ألغام اسرائيلى؛ وإلى الشرق ، قوات « ناتك نير » ؛ وإلى الجنوب الشرقى، يسد لواء «أرييه كرين» المؤخرة المصرية.

كان لواء «نير» أول من فتح النار. واستدار جزء من القوة المصرية ليترك الطريق، وتحرك باتجاه البحيرة في محاولة للعودة عبر مدقاتها. فدخلت إلى حقل الألغام الإسرائيلى المزروع على البحيرة. واتجهت البقية نحو قوات «نير» التى كانت تنتظرها فوق الغرود الرملية. وبينما كانت القوات المصرية مشتبكة على مدى نصف الساعة مع قوات «نير»، تحرك لواء «كرين» من طريق الجدى في حركة التفاف واسعة نحو «بوتزر». وفتحت قوته النيران: أصبح اللواء المصرى في مأزق شديد، وصار شاطىء البحيرة عبارة عن خط من الدخان، حيث جرى اصطياد دبابات وعربات القوة المصرية، الواحدة تلو الأخرى.

وفى تلك الأثناء، كانت قوات «ماجن» تقدم العون المدفعى لهجوم كرين. واستدارت بعض الدبابات المصرية هاربة. وطاردتها دبابات كرين، فاندفعت نحو حقل ألغام اسرائيلى بالقرب من «بوتزر» . وفى الخامسة والنصف مساء، انتهت معركة كلاسيكية في نوعها، يحلم بها أى قائد مدرعات: تدمير ٨٦ دبابة من أصل ٩٦ من طراز تى ٦٢؛ أربع منها، بما فيها دبابة القائد، هربتن نحو حصن «بوتزر». كما تم تدمير جميع حاملات الجنود المدرعة، وكذلك قاطرات الإمداد. وبلغت الخسائر الإسرائيلية أربع دبابات، دخلت حقل الألغام القريب من «بوتزر» أثناء مطاردتها للمصريين.

في الرابعة مساء، وبينما كانت المعركة دائرة على البحيرة المرة الكبرى، اكتمل نصب الكوبرى القائم فوق القناة. وأعاد «ادان» تجميع فرقته، وتزود بالوقود تحت قصف شديد من

العدو، واستعد لعبور القناة. لقد تحمل وطأة قتال يومى ١٦، ١٧. وكان يوم ١٧ يوماً طيباً بالنسبة له: نجح فى تطهير معظم «ترتور» و «اكافيتش»، ودمر اللواء ٢٥/ مدرعات. وفى ليلة ١٨/١٧ أكتوبر، عبرت فرقته القناة.

فى تلك الأثناء، أعاد لواء «رشيف» تنظيم صفوفه، وفى ١٨ أكتوبر، وبناء على أوامر من «شارون»، قام بالهجوم على المزرعة الصينية من المؤخرة. وكفت القوات المصرية عن المقاومة بسبب شراسة القتال، وجاء الهجوم الإسرائيلى هذه المرة ناجحاً. وسقطت المزرعة الصينية. وانجلت الصورة أمام الاسرائيليين عن موقع دفاعى للمشاة والعناصر المضادة للدبابات، عالى التنظيم، مع تجمعات كبيرة للأسلحة المضادة للدبابات من المدافع وصواريخ ساجر، تركت على الأجناب. وبعد سقوط هذا الموقع، انطلق «رشيف» شمالاً ليوسع الممر إلى حوالى ثلاثة أميال. وعند الظهيرة، وصل وزير الدفاع مع «شارون» إلى أرض المعركة. وعندما رأى مشاهد الدمار وبقايا المعركة الوحشية المريرة التى دارت، انتابته رعدة. وقال له «رشيف»: «انظر إلى وادى الموت هذا» . وتمتم « دايان » فى دهشة: « يالهول ما صادفتم !».

على الضفة الغربية

فى صباح ١٧ أكتوبر – وبعد أن أمضى الإسرائيليون يوماً كاملاً وليلتين على الضفة الغربية– تعرض رأس الجسر لقصف مدفعى. وتلقى مقر قيادة «مات» ضربة مباشرة، وأصيب نائبه. ومنذ تلك اللحظة وحتى وقف إطلاق النار، سيظل رأس الجسر ومنطقة الكوبرى عرضة للنيران المركزة المتواصلة، حيث اجتمعت المدفعية والهاونات والكاتيوشا لتصب عشرات الآلاف من القذائف على منطقة العبور. وحاول الطيران الإغارة ظهر كل يوم، لكن الطيران الاسرائيلى– الذى كان يقوم بعمليات الاستطلاع فوق رأس الجسر – نجح مع المقاومات الأرضية، فى إسقاط عدد كبير من الطائرات. وقامت طائرات الهليكوبتر المصرية بعمليات انتحارية لصب النابالم على رأس الجسر والكوبرى؛ وأُسقط عدد كبير منها. وتم نشر صواريخ «فروج» أرض – أرض، لكن القوات الإسرائيلية سرعان ما تعلمت كيف تسقطها بالأسلحة المضادة للطائرات.

كانت قوات «مات» المظلية تتعرض، فى ذلك الحين، لهجوم الصاعقة المصرية التى دخلت المعركة. وكانت قوة اسرائيلية قد انعزلت عن الجسم الرئيسى للقوات، فتحلق حولها المصريون فى قتال متلاحم شرس. واستمرت المعركة لأربع ساعات. ونجح ضابط إسرائيلى برتبة كابتن وبذراع واحدة، هو «ازا كدمونى»، فى صد الهجمات ببندقية وقنبلة يدوية وقاذف مضاد للدبابات طراز L A W . وقد تمكنت قوة إسرائيلية من تخليص «كدمونى» * بعد أن أصابته سبع رصاصات.

«حاييم اريز»، ضابط نظامى، نشأ فى ظروف صعبة. هرب وهو صبى إلى الاتحاد السوفيتى عندما غزا الألمان بولندا، وفى عام ١٩٤٣، استطاع أن يصل إلى فلسطين عن طريق طهران. بعد أن عبرت قواته، المكونة من ٢٠ دبابة وسبع حاملات جنود، القناة يوم ١٥، انطلقت غرباً ودمرت قاعدتين للصواريخ أرض – أرض وعدد كبير من المركبات، وفى منتصف نهار ١٦، وصل إلى مسافة تبعد عن القناة بحوالى ١٥ ميلا. كانت قوته قد فاجأت المصريين، وكان يتحرك بحرية ونجح فى تدمير أربع قواعد للصواريخ أرض – جو و٢٠ دبابة و١٢ حاملة، ولم يتكبد سوى جريح واحد. على أنه فى صباح يوم ١٧، قام اللواء ٢٣/ مدرعات المصرى بشن هجوم مضاد. وتعرض لواء «إريز» للخسائر، لكن الهجوم المضاد انكسر، وانسحب المصريون مخلفين وراء هم عشر دبابات.

عبرت آخر قوات «اريز» فى الحادية عشر والنصف من صباح يوم ١٦، وبعد ذلك، وعلى مدى سبع وثلاثين ساعة، لم تعبر دبابة واحدة. وقد انتقد «شارون» ذلك بشدة. وعند هذا الحد، كان الكوبرى السابق التجهيز، البالغ طوله ١٩٠ ياردة، يجرى سحبه بدستة من الدبابات تحت قصف مدفعى مركز، فى الوقت الذى كان فيه الطيران المصرى يحاول كذلك قصف الكوبرى فيتصدى له الطيران الاسرائيلى ويسقط عدد من الطائرات. وبسبب سد النيران المدفعى الذى كان يعوق القافلة البطيئة، لم تصل القافلة المنهكة إلى القناة إلا فى مساء يوم ١٨؛ وبعد منتصف الليل بقليل أصبح الكوبرى جاهزاً للعمل؛ وبعد يوم آخر كان هناك كوبرى عائماً ثالثاً

* حصل كادمونى على وسام الشجاعة، وهو أعلى وسام إسرائيلى. لما قام به ولكنه رد فى أغسطس ١٩٧٥ هذا الوسام ذا الشريط الأصفر احتجاجاً على السياسة العسكرية لحكومته. انظر : ادجار اوبلانس، مرجع سابق، صـ٢٦١ (المترجم).

بالموقع. وقد أبدى الكولونيل «ايفين» أداء بطولياً في تنظيم الكباري. وقتل من رجال حملة «ايفين» مائة رجل – ٤١ منهم في ليلة واحدة – كما جرح عدد كبير أثناء العملية.

في تلك الأثناء، استمرت التقارير الواردة إلى القيادة العليا المصرية تحوى قدراً كبيراً من التفاؤل، مكررة القصة الأولى حول عدد صغير من الدبابات البر مائية، مقللة من حجم العملية، مؤكدة على أن الغرض منها هو مجرد رفع معنويات الشعب والجيش الاسرائيلي؛ وقد أعطى الانطباع بأن الأوضاع تحت السيطرة التامة، وأن القوات الاسرائيلية لن تستمر طويلاً على الضفة الغربية. ويروى الجنرال «الشاذلي» كيف وصل الرئيس السادات، ظهر يوم ١٨ أكتوبر، إلى القيادة العامة وطلب إليه أن يتوجه إلى الجيش الثاني لرفع المعنويات. وعند عودته يوم ١٩، كان «الشاذلي» قد كون صورة واضحة عن الموقف، مقدراً القوة الموجودة على الضفة الغربية للقناة بأربعة ألوية مدرعات، ولواء مشاة ميكانيكي ولواء مظليين. وكان أكثر ما يثير قلق المصريين – حسب رواية « الشاذلي » – هو نجاح الاسرائيليين في تحييد أو تدمير تجمعات صواريخ سام بعمق تسعة أميال إلى الغرب من القناة، والتفوق الاسرائيلي الجوى الكامل الذى يجد تعبيراً عنه في تقديم المعاونة الأرضية اللصيقة. وبسبب ما يصفه « الشاذلي» بالقرارات غير الموفقة للرئيس السادات، جاء انتشار القوات المصرية على جبهة واسعة، تفتقد إلى التماسك اللازم لشن هجوم مضاد حاسم . ويؤكد على أنه ضغط لمرة ثانية من أجل إعادة نشر القوات المصرية، لكنه لم يستطع إقناع الرئيس السادات أو وزير الحربية. كان تزايد القوات المدرعة الاسرائيلية على الضفة الغربية نذير سوء ، وخاصة بالنسبة للجيش الثالث، فضغط « الشاذلي » مرة أخرى من أجل سحب أربعة ألوية من الشرق إلى الغرب خلال أربع وعشرين ساعة. وأصرّ على حضور السادات إلى القيادة العامة. وحاول وزير الحربية، «أحمد اسماعيل»، إثناءه عن ذلك، لكن « الشاذلي » صمم على طلبه. وفي الواحدة من صباح يوم ٢٠ أكتوبر، عرض «الشاذلي» قضيته مرة أخرى؛ وبعد أن انتهى من ذلك، أجابه الرئيس السادات بأن جندياً واحداً لن ينسحب من الضفة الشرقية.

ووفقاً لبعض التقارير، فقد أصاب «الشاذلي» * ، في ذلك الحين، حالة من الانهيار التام،

---

* عين « الشاذلي » فيما بعد سفيراً بلندن . وبعد أن وجه بعض الانتقادات لنظام السادات، نُقل إلى سفارة لشبونة. واستقال بعد ذلك وعمل كمستشار للقيادة الليبية بطرابلس (ثم بالجزائر بعد ذلك) كزعيم للمعارضة المصرية لنظام السادات. وبعد اغتيال السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١، رحب بالحادث وألمح إلى اشتراكه فيه. لكن الدلائل تشير إلى عدم تورطه في الحادث .

وأصرّ على أن كارثة سوف تحل، وأن على المصريين أن ينسحبوا من سيناء. وعند هذا الحد، أعفى السادات «الشاذلى» من منصبه (برغم التغيير الشامل الشكلى الذى تم بعد ذلك بأسابيع) وعين مكانه الجنرال «عبد الغنى الجمسى». على أن السادات كان يدرك خطورة الوضع، وحث «اليكسى كوسيجين»، رئيس الوزراء السوفيتى الذى كان فى زيارة للقاهرة منذ ١٦ أكتوبر، على دعوة مجلس الأمن للانعقاد لوقف إطلاق النار.

فى ذلك الوقت، عدَّل «بارليف» خطته الخاصة بالضفة الشرقية، فأمر فرقة «ماجن» بالاندفاع إلى الغرب وتحريك فرقة «أدان»، فى الوقت نفسه، نحو السويس. واتخذ الاكتساح الاسرائيلى نحو الجنوب شكل المروحة، بحيث تكون قوات «ادان» إلى الشرق وقوات «ماجن» فى الغرب والمؤخرة، كى يكون هناك عمق للهجوم وقاعدة ثابتة فى حال حدوث أى تعثر على تلك الجبهة. وكان على «شارون» أن يبقى عند رأس الجسر ويندفع شمالاً نحو الجيش المصرى الثانى.

تقدمت قوة «رشيف»، التى سبق لها العبور يوم ١٩، بناء على تعليمات «شارون»، إلى الغرب من قوات «مات»، عند «سرابيوم»، لمهاجمة الموقع المعروف باسم «اوركا». وهناك قامت سرية مشاة مدرعة بمهاجمة فصيلة مصرية، وعندما سقط موقع «اوركا» فى النهاية، عثر فى خنادق التحصين على مايزيد على ثلاثمائة من القتلى المصريين، ويدل مصرعهم على وقفتهم العنيدة والشجاعة. ووصلت قوات « رشيف »، ومعها المظليون، إلى ضواحى الاسماعيلية، حيث تصدى لواء مشاة ووحدات من الصاعقة لقوات « شارون ». وعلى طريق القاهرة – الاسماعيلية. جهة الغرب، كانت تتمركز فرقة ميكانيكية للدفاع عن القاهرة.

فى ذلك الوقت، بدأ « شارون » يضغط من أجل القيام بعملية تطويق واسعة فى العمق باتجاه دمياط – بلطيم وعلى ساحل البحر المتوسط، وذلك لعزل الجيش الثانى بالكامل عن مصر. وأصرّت القيادة الجنوبية على ضرورة الاستيلاء على موقع «ميسورى» بالضفة الشرقية أولاً، حيث أنه لازال يشكل خطراً على ممر رأس الجسر الاسرائيلى. فانسحب «شارون» من تنفيذ العملية. وقد نجح الهجوم الذى قام به لواء « رفيف » فى تخليص ثلث «ميسورى».

اعتباراً من صباح ١٨ أكتوبر، بدأت فرقة «ادان» الهجوم جنوباً بلواءين على محورين. وكان يقف فى مواجهة قواته الفرقة الميكانيكية والفرقة الرابعة مدرعات المصريتين. وتقدمت القوات الاسرائيلية: لواء نير يهاجم غرباً، ولواء «امير» جنوباً. وخصص كل من اللواءين إحدى كتائبه لضرب وتدمير بطاريات الصواريخ أرض– جو. وفى صباح ١٩ أكتوبر، قام «ادان»،

بالتعاون الكامل مع الطيران الذى لم يعد يعوقه الصواريخ أرض- جو، بالهجوم والاستيلاء على منطقة مطار فايد، الذى سرعان ماتحول إلى رأس جسر جوى لتموين القوات الجوية الاسرائيلية المتقدمة.

فى المنطقة ما بين الاسماعيلية والسويس، كانت هناك ثلاث طرق رئيسية شمالية- جنوبية وست طرق شرقية - غربية كبيرة. وقريباً من القناة، بمحاذاة الترعة الحلوة والقناة وخط السكة الحديدية كان هناك الطريق الذى أطلق عليه الاسرائيليون الاسم الكودى «تست». وإلى الغرب من ذلك، كان هناك طريق رئيسى يخترق فايد وجنيفة يطلق عليه الاسرائيليون اسم «ڤالوت» . وعلى مسافة ستة أميال غربى هذا الطريق كان هناك طريق يحمل اسماً كودياً هو «هاڤيت». وكان هناك طريق آخر يقع غرب الاسماعيلية ويسير بمحاذاة السكة الحديدية الرئيسية والقناة، ويصل إلى القاهرة عبر الدلتا. أما طريق القاهرة- الاسماعيلية الرئيسى، فيمتد من الإسماعيلية باتجاه الجنوب الغربى عبر الصحراء. وكان هناك طريق يجرى مستقيماً من الدفرسور نحو الغرب، أطلق عليه الاسرائيليون الاسم الكودى « سكرانوت »، وهو يقطع طريق القاهرة - الإسماعيلية الرئيسى على بعد حوالى ٢٠ ميل غربى الدفرسوار. وعلى بعد سبعة أميال جنوبى هذا الطريق هناك طريق شرقى- غربى يمر من فايد يدعى «ڤيتامين»، وعلى مسافة ١٢ ميل أخرى إلى الجنوب يوجد طريق يطلق عليه اسم «ازور»، عند أقصى شمال الطريقين الرئيسيين الموصلين بين القاهرة والسويس؛ ويقطع «ازور» «هاڤيت» فى منتصف المسافة بين جنيفة والشلوفة تقريباً. وإلى الجنوب من هذا بحوالى خمسة أو عشرة أميال هناك الطريق الذى أسماه الاسرائيليون «سرج»، وهو طريق السويس - القاهرة الرئيسى. وقد أطلق الاسرائيليون على التلال الستة الهامة بتلك المنطقة الأسماء الكودية: «تساح»، «ارل»، «مكتزيرا»، متزنفيت »، والمنطقة التى تعرف باسم جبل جنيفة؛ وجبل عتاقة جنوب طريق «سرج» وغرب السويس.

كان «ادان» متمركزاً، آنذاك، فوق تلال جنيفة وانتشر «امير» شرقى «متزنفيت»، وصدرت الأوامر إلى «نير» و «كرين» بالتحرك عبر تلال جنيفة. وقد ضربوا عدداً من مواقع الصواريخ أرض - جو الموجودة فوق تلك المرتفعات ووصلوا إلى طريق «ڤيتامين» الثانوى المؤدى إلى البحيرة. وواصل لواء «نير» تقدمه جنوباً، وعبر الطريق الرئيس «ازرو»، وقام فى طريقه بتطهير مواقع الصواريخ، بينما واصل لواء «كرين» طريقه عبر تلال جنيفة الشرقية.

وفي يوم ١٩، تحركت فرقة «ماجن» عبر فرقة «ادان» وتوجهت غرباً نحو «مكتزير». وعند طريق القاهرة – البحيرات المرة اقتحمت الموقع الموجودعند تقاطع «تساح» من المؤخرة ثم انطلقت لتخليص قوات « امير » المواجهة لميتزنفيت، بينما تحرك « امير » شرقاً لفتح طريق الاسماعيلية – السويس الرئيسى (هافيت) . وواجه هذا الهجوم مقاومة مصرية عنيفة وتكبدت قوات «امير» الخسائر. وانضم تحت قيادة « ادان » كتيبتى مشاة ومهندسين، تحركت فى خطوط موازية لـ « تست » وطريق الترعة الحلوة و «هافيت». وسقط مطار فايد الحيوى، ليتيح للقوات الاسرائيلية رأس جسر جوى عظيم الأهمية، حيث أصبح بالإمكان إمداد القوات على الضفة الغربية.

كان اندفاع « ادان » نحو تلال جنيفة عاملاً هاماً فى تحقيق النجاح للضربة التى قامت بها القوات الاسرائيلية باتجاه الجنوب. ولو كانت هذه المرتفعات قد أُهملت واحتلتها وحدات الصاعقة المصرية، لأصبح الأمر غاية فى الصعوبة أمام أى تقدم اسرائيلى لاحق. وبينما كان «كرين» يخوض قتالاً عنيفاً فوق تلال جنيفة الشرقية، كان «امير» يتقدم ببطء نحو الجنوب على ثلاث طرق متوازية مجاورة للبحيرة. وقام الجيش الثالث المصرى بإعادة اللواء ٢٢ / دبابات، من الفرقة السادسة الميكانيكية، إلى الضفة الغربية. وفى تلك الأثناء، كانت ميسرة حملة «ادان» تتألف من كتيبة مدرعات، وكتيبة مشاة، وكتيبة مظلات وكتيبة مهندسين، تشق طريقها ببطء نحو الجنوب، على طريق «تست»، وسط تجمعات متتالية من المعسكرات المصرية، وتقاتل ضد قوات مصرية وفلسطينية وكويتية.

وإلى الغرب، كان « ماجن » يندفع، كما خطّط له، نحو طريق القاهرة – السويس، بعد أن وضع لواء « شمرون » لحماية جناحه الغربى عند جبل Um Katib *جنوبى «متزنفيت». ومع حلول ظهر يوم ١٩، كان «شمرون» على مسافة ١٧ ميلا غربى القناة. وفى اليوم التالى، تحرك جنوباً نحو جبل Um Katib وانتزع مواقع مواجهة لمتزنفيت، حيث خاض لواءه معركة استمرت لثلاثة أيام فى مواجهة لواء دبابات مصرى وكبده خسائر فادحة.

فى تلك الأثناء، كانت عناصر من الفرقة الرابعة / مدرعات المصرية تخوض معركة يائسة ضد لواء «نير» جنوبى طريق «ازور». وفى يوم ٢١، كان هذا اللواء قد أصبح على مسافة ميل واحد شمالى طريق القاهرة – السويس الرئيسى (سرج)، وفى مدى نيرانه. وهكذا، أصبح الجيش الثالث المصرى، اعتباراً من منتصف نهار ٢١ أكتوبر، معزولاً فعلياً عن قيادته الخلفية وقواعد إمداده الرئيسية، باستثناء الطريق المؤدى إلى الجنوب على خليج السويس.

---

* لم استدل على هذا الموقع سواء على الخرائط التى يوردها الكاتب أو الخرائط المصرية (المترجم).

وقف إطلاق النار

عندما اكتملت صورة الموقف العسكرى المتدهور أمام القيادة السوفيتية، أصبح واضحاً أمامها أن الوقت قد حان لوقف القتال والاستفادة إلى أقصى مدى من الإنجازات التى حققها المصريون حتى ذلك الحين. وأكد «كوسيجين» للسادات أن الاتحاد السوفيتى مستعد من جانبه لضمان وقف إطلاق النار. فقد بدأ السوفييت يدركون أن المقامرة بكاملها عرضة للخطر، وأنهم معرضون مرة أخرى لخطر انهيار عسكرى عربى كامل. وكان واضحاً أمامهم أن الحال إذا ما استمر على ما هو عليه لأيام قليلة تالية، فإن الجيش الثالث يمكن أن يهلك، الأمر الذى يؤثر تأثيراً مباشراً على فرص السادات فى البقاء. ومن هنا، قام السفير السوفيتى «دوبرينين» بتسليم رسالة من بريجنيف إلى «كيسنجر»، يطلب إليه التوجه إلى موسكو للتشاور العاجل. وخلال اجتماع بموسكو، وافق «كيسنجر» على ضرورة الوقف الفورى لإطلاق النار، لكنه أصرّ على أن ذلك ينبغى أن يرتبط، على عكس الحالات السابقة، بمحادثات للسلام. وفى التاسعة من مساء ٢٠ أكتوبر، رن جرس التليفون الموجود بجوار كرسى السادات بغرفة العمليات ليبلغه بأن السفير «فلاديمير فينوجرادوف» يطلب اجتماع عاجل لتسليمه رسالة من «برجنيف»، المجتمع فى تلك اللحظة مع «كيسنجر» فى موسكو. وخلال نصف الساعة، سلم «فينوجرداوف» إلى السادات الرسالة التى يطالبه فيها «برجنيف» بالموافقة على وقف فورى لإطلاق النار، وألحق بها القرار الذى أعدته القوتان الأعظم لتقديمه لمجلس الأمن، الذى كان على وشك الانعقاد. وتضمنت المذكرة كذلك تعهدا سوفيتياً بضمان وقف إطلاق النار فى حالة انتهاكه من جانب اسرائيل. وتعهد «برجنيف» بوضوح بإرسال قوات سوفيتية إلى مصر لتأكيد وقف إطلاق النار، وقد صدرت تلميحات بشأن هذا التعهد بعد أيام قليلة من جانب كل من السادات وهيكل *.

فى إسرائيل، كان هناك شك كبير حول وقف إطلاق النار. وكانت القلة تعتقد بأنه أمر وشيك الحدوث. وفى ٢٠ أكتوبر، وخلال مؤتمره الصحفى الذى كان يعقده كل يومين أثناء الحرب، مع رؤساء تحرير الصحف، لم ير «ديان» أى احتمال لوقف إطلاق النار. وأثناء زيارته لفرقة «شارون» يوم ٢١ أكتوبر، أكد «ييجال الون»، نائب رئيسة الوزراء، أن فى الوقت متسعاً ولا داعى للتعجل.

---

* محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير « الأهرام » والمستشار الرئيسى للسادات.

وبعد الموافقة من جانب كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة على نص القرار المزمع تقديمه إلى مجلس الأمن فجر، طار « كيسنجر » من موسكو إلى تل أبيب، وحصل على موافقة اسرائيل، وانعقد مجلس الأمن الاثنين ٢٢ أكتوبر، ووافق على القرار رقم ٣٣٨ الذى يدعو إلى وقف إطلاق النار خلال ١٢ ساعة، وعلى الا يتجاوز موعد هذا الوقف الساعة ٥٢ر٦ من مساء ٢٢ أكتوبر. وقبل سريان وقف إطلاق النار بقليل، انطلق ولأول مرة فى العالم السلاح الذى كان وصوله إلى الشرق الأوسط سبباً فى القرار النهائى بدخول الحرب. ففى ذلك اليوم – حسب رواية السادات – أطلق على إسرائيل * صاروخ من طراز «سكود». وقد سقط فى صحراء سيناء.

أصبح الاندفاع الاسرائيلى إلى الأمام، الآن، ضرورة ملحة. وتعرض مظليو « شارون » لمقاومة شديدة أثناء تقدمهم نحو الاسماعيلية، وتكبدوا خسائر أمام قوات المشاة والمدفعية. كان القتال يدور آنذاك على الترعة الحلوة وطريق الاسماعيلية – السويس الرئيسى (هافيت) جهة الغرب. وأعاقت قوات الصاعقة المصرية التقدم، وفقد لواء «رشيف» عدداً من دباباته أثناء معركة دارت عند مزرعة للصرف بضواحى المدينة. وعندما كانت تجرى محاولة للاستيلاء على الكبارى الموجودة على الطريق الرئيسى والترعة الحلوة، بدأ سريان وقف إطلاق النار، وصدرت الأوامر إلى فرقة « شارون » بالبقاء فى مكانها.

وإلى الجنوب، كانت قوات « ادان » تتقدم فى حركة كماشة لتطهير شواطىء البحيرة المرة الصغرى والطرق الموجودة بطولها. ونزل لواء «امير» من فوق تلال جنيفة إلى الطرق الموجودة على البحيرة، بينما تقدم « آريه كرين » من طريق « ازور » إلى طريق « هافيت » قاصداً «ليتوف». وكانت هناك رأس حربة جنوبية ثالثة، تمثلت فى لواء « نير »، الذى اندفع على طريق القاهرة الرئيسى (سرج) باتجاه السويس، ثم انحرف باتجاه شمالى – شرقى على طريق (اكال) ثم اتجه إلى « مينا »، فى منتصف الطريق بين البحيرتين والسويس على القناة. وكان الجيش الثالث المصرى يقاتل فى ذلك الحين قتالاً يائساً على الطريقين الرئيسيين (ازور وسرج)، الذان يصلان بين القاهرة والسويس، وشن هجمات مضادة على قوات «نير» «وكرين» عند تقدمها. وأصبحت السيادة الاسرائيلية على الجو آنذاك كاملة حيث زال ، إلى حد كبير،

---

* يقول الفريق « الشاذلى » أن ثلاث قذائف أطلقت على العدو فى منطقة الدفرسوار. انظر الفريق سعد الدين الشاذلى، مرجع سابق، ص ١٦٦ (المترجم).

خطر الصواريخ أرض- جو بعد تدمير مواقعها، وبذلك أصبح بمقدور الطيران الاسرائيلى ضرب الدبابات التى تعوق التقدم. وبناء على أوامر من «بارليف»، قام «ادان» بتجميع لواءين وقام بالهجوم على «ازور». وعند الظهر، أصدر أوامر إلى ألويته الثلاثة باجتياح قوات العدو والوصول إلى القناة قبل حلول السادسة مساء. وتخلت القوات عن حذرها، واندفعت إلى الأمام، واخترقت خط المعسكرات على البحيرة المرة الصغرى، ووصلت إلى القناة. وانهارت مقاومة المصريين، وانسحب الآلاف من جنودهم على حال من الفوضى.

جاء وقف إطلاق النار مساء ٢٢ أكتوبر والجيش الثالث المصرى معزول عن خطوط إمداده الرئيسية، إلى جانب فرار الآلاف من الجنود وسط حالة من الفوضى، وعزلة جميع التشكيلات والوحدات، وتعرض رأس الجسر على الضفة الشرقية من القناة لخطر كبير. وكانت قيادة الجيش الرئيسية معزولة عن القيادة الخلفية، وفى أماكن كثيرة ساد الذعر عندما حاولت بعض الوحدات الفرار؛ وفى أماكن أخرى أعد القادة المحليون وحداتهم للقتال؛ وفى نطاق الفرقة ١٩، قام القائد بنقل الوحدات إلى الضفة الغربية، وإلى مدينة السويس بصفة خاصة، إلى حيث كان عدد كبير من أفراد القوات المعزولة قد هرب بالفعل. وتوالت الطلبات بدفع قوات من القاهرة لمعاونة القوات المعزولة فى الثغرة.

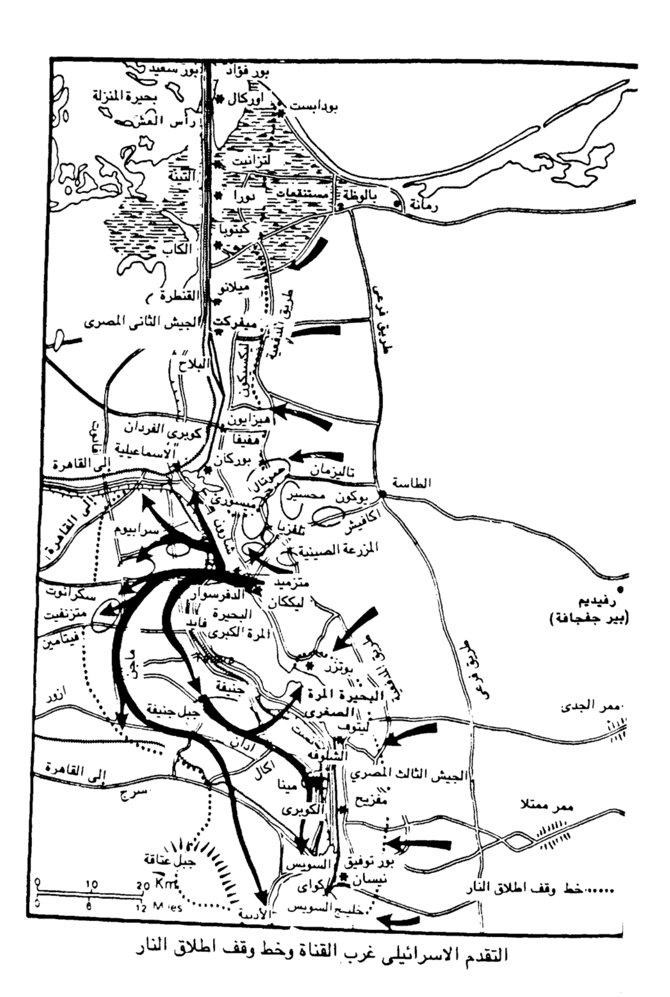
وعند انتصاف نهار ٢٢ أكتوبر، أبلغ قائد الفرقة ١٩ الجنرال «واصل»، قائد الجيش الثالث، أن قطع القوات الاسرائيلية لطريق القاهرة - السويس عند الكيلو ١٠٩ يعنى أن الجيش الثالث أصبح معزولاً. ومن جانبه، قام «واصل» فور ذلك بإبلاغ وزير الحربية بأنه أصبح محاصراً ومقطعا عن إمداداته، ومعرضا لخطر التدمير الكامل.

وهكذا، وفى مواجهة الجيش الثانى المصرى، حيث تجرى مراقبة وقف إطلاق النار، كان العديد من الوحدات المصرية فى منطقة الجيش الثالث، المعزولة عن بعضها البعض، تسعى جاهدة للاتصال ببعضها أو للاشتباك. ومع طلوع الفجر، بدأت الوحدات الموجودة على الضفة الشرقية تشتبك مع القوات الاسرائيلية المواجهة لها والتى تحتل التحصينات المصرية السابقة على الضفة الغربية. وكانت الأوامر الصادرة إلى القوات الاسرائيلية تقضى باحترام وقف إطلاق النار، أما فى حالة خرق المصريين للقرار فإن على القوات أن تتعامل مع الهجمات والاستمرار فى المهام. وعندما هاجمت القوات المصرية فى محاولة يائسة للفكاك من المصيدة الاسرائيلية، اندلع القتال على الجبهة. وأصدر «جونين» أوامره إلى «ادان» و «ماجن» بنشر قواتهما بطريقة تؤدى إلى إحكام الخناق على القوات المصرية.

بعد نشر لواءي «امير» و «كرين» على جبهة بعرض ٧٫٥ ميل غربي «ميناء»، اندفعت قوات «ادان» جنوباً نحو مدينة السويس، بالتنسيق مع هجوم مدرع. ومروا وسط منطقة تعجّ بعدد كبير من الدبابات، والآلاف من جنود المشاة، والوحدات الإدارية وقوافل الإمداد تدور حول بعضها في فوضى، وكان هناك كذلك الكثير من مواقع الصواريخ المضادة للدبابات وتجمع كثيف لبطاريات صواريخ أرض- جو. وكان لصدمة الهجوم المدرع الخاطف أثرها في كسر المقاومة المصرية، واندفعت قوات «ادان» جنوباً نحو مدينة السويس، لتعزلها عن الجيش الثالث عزلاً تاماً. وقد تم الاستيلاء على عدد كبير من مواقع الصواريخ أرض- جو، وسقط الآلاف من الأسرى بأيدى الاسرائيليين.

تحرك « ماجن »، بمحاذاة الجناح الغربي لادان، نحو السويس، تاركاً وحدة دبابات صغيرة عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة – السويس، لحماية جناحه الغربي في حال حدوث هجوم مضاد من اتجاه القاهرة. (فيما بعد أصبح الكيلو ١٠١ مقراً لمحادثات فض الاشتباكات بين القيادتين العسكريتين الاسرائيلية والمصرية، والتي أدت في النهاية إلى فصل القوات الاسرائيلية عن القوات المصرية وانسحابها بعد ذلك إلى الضفة الشرقية.) وتحركت فرقة «ماجن» عبر قوات «ادان» بمحاذاة طريق السويس الرئيسي، ثم دارت حول منحدرات جبل عتاقة، الذي يحتل المنطقة الممتدة جنوباً حتى ميناء الأدبية، وانطلقت على الطريق الممتد جنوبا وقاد لواء «شمرون» التقدم صوب الأدبية، وبالرغم من تناقص قوة لوائه من الدبابات إلى ١٧ دبابة، إلا أنه تمكن من تغطية مسافة تبلغ حوالى ٣٠ ميلاً في الفترة ما بين الثانية مساء ومنتصف الليل. وانطلق من الميناء اثنان من زوارق الطوربيد المصرية في محاولة يائسة للفرار وفتحت دبابات «شمرون» نيرانها، فأغرقتهما.

في صباح ٢٤ أكتوبر، ومع استمرار القوات المصرية في القتال، طلب « ادان »، بناء على نصيحة من «دايان»، إذنا بمهاجمة مدينة السويس. وكان رد «جونين» : «إذا كانت خالية فلك هذا، أما إذا كانت قوية التحصين، فلا .» وتقدم لواء « كرين » على طريق القاهرة المؤدى إلى السويس، واستولى على معسكرات الجيش الموجودة بضواحي المدينة. وكانت تتبع «كرين» كتيبة مظلات، وعند دخول الدبابات إلى المدينة، أطلقت عليها النيران من جميع البنايات. لم يُعدّ لهذه العملية، التي نظر إليها كعملية هجوم روتيني ضد عدو محطم، إعداداً جيداً. وبطريقة أو بأخرى، عملت قوة الدبابات على تخليص نفسها والخروج من المدينة من الطريق الساحلي، لكن مجموعتين من المظليين أصبحتا معزولتين بوسط المدينة. ونجحت وحدة مؤلفة من سبعين



التقدم الاسرائيلى غرب القناة وخط وقف اطلاق النار

رجلا فى التسلل تحت جنح الظلام، وشقت طريقها عبر الممرات المظلمة والشوارع الجانبية الضيقة، تتحرك دون أن يصدر عنها صوت، وهى تحمل الجرحى إلى الخطوط الاسرائيلية. وكان قائد الكتيبة نفسه أحد هؤلاء الجرحى. وفى المجموعة الثانية، أصيب قائد القوة وراح فى غيبوبة شبه كاملة. وحل محله قائد سرية رفض الإخلاء لأن المصريين كانوا يشرفون على الموقع. وعلى مدى أربع ساعات من الليل، وعبر حوار لا يصدَّق، حاول «جونين» شخصياً ملاطفة قائد السرية والتوسل إليه كى يترك موقعه ويخرج إلى الحرية. وكانت عملية مرهقة للإعصاب قد سبقت ذلك لتحديد موقع القوة المحاصرة عن طريق التصوير الجوى. وبعد فترة من المحاولة والخطأ، نجح « جونين » فى تحديد المبنى الفعلى. ثم قام بتخطيط صندوق مدفعى تتحرك وسطه الوحدة المحاصرة حتى يتم تحريرها. وبعد ساعات من التخطيط والمناشدة عبر الراديو، حزم قائد السرية فى النهاية أمره وقاد القوات المحاصرة بهدوء خارج الحصار، متنقلاً من شارع إلى آخر بفضل توجيهات «جونين» على ضوء قراءته للصور الجوية، حتى وصل إلى الخطوط الاسرائيلية. وقد ثبت أن الهجوم على السويس كان خطأ فادحاً، راح ضحيته حوالى ٨٠ قتيلاً.

أصبح الموقف، من المنظور المصرى، ميئوسا منه. فقد أتمت القوات الاسرائيلية عزل وحدات الجيش المصرى الثالث على الضفة الشرقية للقناة، وعزلته عن مقر قيادته على الضفة الغربية. والحقيقة أن الدبابات الاسرائيلية كانت قد دمرت مقر قيادة الجنرال «واصل»، الذى نجا بنفسه فى آخر لحظة. وبالإجمال، فقد كانت هناك قوة تقدر بـ ٤٥ ألف ضابط وجندى و٢٥٠ دبابة، مع مدينة السويس، معزولة عزلاً تاماً. وفوق ذلك، فإن جميع القوات لم تعد تتمتع بأية حال بحماية نظام الصواريخ أرض- جو، وصارت فريسة سهلة للغارات المستمرة للطيران الاسرائيلى. ويصف رئيس الأركان المصرى، الجنرال « الشاذلى»، كيف نجحت الهجمات المكثفة للطيران الاسرائيلى على الجيش الثالث، يوم ٢٤ أكتوبر، فى تدمير جميع معدات العبور المتروكة بمنطقة الجيش على القناة، لتعوق بذلك انسحاب القوات من الضفة الشرقية إلى الغربية.

كانت عناصر الجيش الثالث المحاصرة تتألف من الفرقة السابقة/ مشاة بقيادة العميد «أحمد بدوى»، وتحتل القطاع الشمالى من رأس جسر الضفة الشرقية، والفرقة ١٩/ مشاة بقيادة العميد «يوسف عفيفى»، وتشكل النصف الجنوبى لرأس الجسر بالإضافة إلى مسئوليتها عن مدينة السويس. كذلك كان رأس الجسر يضم اثنتين من ألوية الدبابات

المستقلة ومجموعة متنوعة من الوحدات الأخرى. وفى السويس نفسها، كان هناك خليط من الوحدات، تشمل عناصر من الفرقة الرابعة/ مدرعات والفرقة السادسة الميكانيكية. وعُهد إلى الجنرال «بدوى»، قائد الفرقة السابعة، بقيادة الجزء المعزول من الجيش الثالث على الضفة الشرقية، فأعاد تنظيم القوات التى تحت قيادته للدفاع، ونجح فى الحقيقة فى صد عدد من الهجمات الاسرائيلية فى الفترة ما بين ٢٠ - ٢٣ أكتوبر. بل إنه عمل على تنظيم خط إمداد ضعيف عبر خليج السويس الأعلى. لكن موقف الإمداد عنده، خاصة فى الذخيرة والماء والأغذية، كان خطيراً للغاية. (ظل «بدوى» يصعد سلم القيادة فى الجيش حتى أصبح وزيراً للحربية، خلفاً للجنرال «الجمسى» الذى كان قد تولى المنصب بعد وفاة الجنرال «اسماعيل على». وفى ١٩٨١، قتل الجنرال « بدوى » فى حادث مأساوى أثر تحطم طائرة هليكوبتر عندما كان يستعرض القوات على الحدود الليبية.)

أعد الاسرائيليون لهجوم شامل على قطاعى الجيش الثالث، وخاصة على عناصره بالضفة الشرقية. وبينما كان على القوات المصرية أن تخوض قتالاً عنيداً فى معركة دفاعية، فقد كان من الواضح - إذا ما أخذنا فى الاعتبار موقفهم اليائس فيما يتعلق بالإمداد والسيطرة الاسرائيلية الجوية التامة - أن بإمكان القوات الجوية الاسرائيلية تدمير الجيش الثالث خلال أيام معدودات.

وأصبح الموقف الآن رهنا بالروس والأمريكيين، الذين توصلوا إلى نتائج متشابهة، وإن لم يكن لنفس الأسباب. فقد أدرك السوفيت أن تدمير الجيش الثالث يعنى هزيمة حاسمة لبلد يؤيدونه. إذ يمكن أن تتأثر الهيبة الروسية إذا ما لقى ذلك البلد المسلح بأسلحة ومعدات سوفيتية، هزيمة عسكرية ساحقة. ومن جانبه، رأى «كيسنجر» أن إنقاذ الجيش يمكن أن يكون عاملاً مهماً فى التفاوض من أجل تحقيق ترتيبات نهائية بين الطرفين، مع احتفاظ كل طرف بورقة رابحة: مع الاسرائيليين الجيش الثالث المحاصر وتواجدهم على الضفة الغربية؛ ومع المصريين رأس جسر على الضفة الشرقية. ومارس «كيسنجر» ضغطه على اسرائيل عبر السفير الاسرائيلى فى واشنطن. وفى ٢٤ أكتوبر، صدر قرار ثان عن مجلس الأمن يدعو إلى وقف إطلاق النار. وهكذا، سرى الوقف الثانى لإطلاق النار فى ٢٤ أكتوبر، فى الوقت الذى كانت فيه فرقة «شارون» بضواحى الاسماعيلية، تتحكم فى اتصالها بالقاهرة؛ وفرقتا «أدان» و«ماجن» تحكم حصارها حول الجيش الثالث المصرى؛ والقوات الاسرائيلية تحتل معبرا بثلاثة

كبارى إلى الضفة الغربية، وتحتل منطقة تبلغ مساحتها ألف ميل مربع داخل مصر، أسفل ميناء الأدبية على خليج السويس.

وهكذا، بعد أن تعرضت قوات القيادة الجنوبية الاسرائيلية لظروف قاتلة، إذا بها تنجح فى قلب المنضدة، وذلك بقيامها بعملية على قدر كبير من الإقدام فى مواجهة جحافل وعتاد ضخم وسط محنة كبرى . لقد نجحت القوات فى تحقيق نصر كبير، كبير وفق أية معايير عسكرية وكانت على وشك تدمير الجيش الثالث المصرى، الذى أنقذه قرار مجلس الأمن. فالاتحاد السوفيتى لم يقدم جميع الاحتياجات اللازمة للهجوم المصرى فحسب، بل حال كذلك دون انهياره الكامل. والحقيقة أن الجيش الثالث المصرى عندما طالب السادات يائساً بالإمدادات، رفع الاتحاد السوفيتى حالة الاستعداد، وكانت فرقه المنقولة جواً على أهبة الاستعداد للتحرك إلى الشرق الأوسط.

سبق لنا أن قدمنا وصفاً لمنطقة مرتفعات الجولان في الفصل الخاص بحرب الأيام الستة. وهناك خمسة طرق رئيسية تصعد من اسرائيل عند «الخط الأخضر». الخط لأصلى لهدنة ١٩٤٩، والذى يمتد بطول الأردن والضفة الشرقية لبحر الجليل. وهذه الطرق، من الشمال إلى الجنوب، هى: الطريق الذى يبدأ من كيبوتز دان إلى مسعده وجبل حرمون؛ والطريق الواصل بين جونين وواسط؛ والطريق الرئيسى إلى دمشق، عبر جسر بنات يعقوب، إلى القنيطرة؛ وطريق اليهودية الصاعد من عندما يعرف باسم « جسر اريك » ويمر بالأردن حيث يدخل بحر الجليل؛ ثم طريق Gamla Rise والعال الصاعد من بحر الجليل.* وهناك طريقان هامان يقطعان مرتفعات الجولان من الشمال للجنوب. أولهما، الطريق الذى يسير بطول ما يسمى «الخط الأرجوانى»؛ وهو خط إطلاق النار لعام ١٩٦٧؛ والثانى هو طريق الصيانة، المعروف باسم طريق التابلاين الذى يسير بمحاذاة خط أنابيب البترول، الذى يبدأ من السعودية، ثم يعبر مرتفعات الجولان، ويستمر حتى البحر المتوسط، مروراً بلبنان.

وكانت القوات السورية المسيطرة على مرتفعات الجولان تتألف- من الشمال إلى الجنوب - من الفرقة السابعة/ مشاة (التى تضم قوات مغربية) بقيادة العميد «عمر أبرش»، والفرقة التاسعة مشاة بقيادة العقيد « حسن تركمانى» ** ، والفرقة الخامسة / مشاة بقيادة العميد «على اصلان». ***وكانت جميعها على النظام السوفيتى، وتضم كل منها لواء مدرعا (إضافة إلى عناصر مدرعة أخرى بالفرقة) ليصل مجموع دباباتها إلى ما بين ١٣٠ - ٢٠٠ دبابة. وخلف فرق المشاة الأمامية تلك كانت تتمركز الفرقتان المدرعتان الأولى والثالثة، الأولى تحت قيادة العقيد «توفيق جهانى» **** والثالثة يقودها العميد «مصطفى شرابه»، ويصل عدد

---

* لم اعثر على الاسم العربى لهذا الموقع على الخرائط السورية (المترجم) .

** يورد اوبلانس أن قائد الفرقة التاسعة / مشاة هو العميد جلال جهان. اوبلانس، مرجع سابق ص ١٥٤ (المترجم).

*** يورده اوبلانس « على اسلام ». نفسه (المترجم).

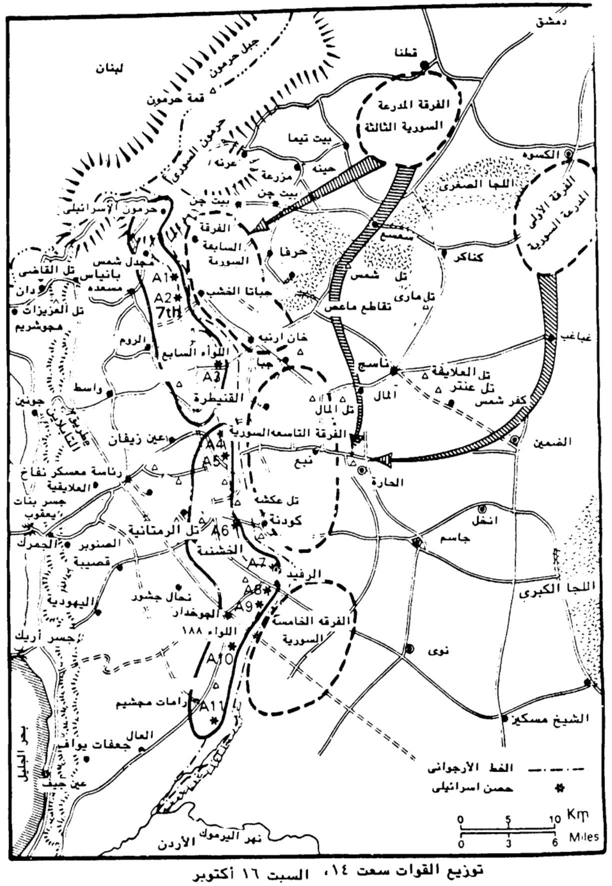
****العميد « توفيق جهنة ». اوبلانس، المرجع السابق، ص ١٦٠ (المترجم).

الدبابات بكل فرقة حوالى ٢٥٠ دبابة، وبعض الألوية المستقلة. وكان إجمالى القوة السورية المواجهة لاسرائيل تبلغ حوالى ١٥٠٠ دبابة، يدعمها حوالى ألف مدفع، من بينها الهاونات الثقيلة وقواعد الصواريخ أرض- جو للدفاع عن دمشق. وكانت الدبابات السورية روسية الصنع من طراز تى ٥٥ وتى ٦٢، وكانت الأخيرة أحدث الدبابات بالخدمة فى ذلك الحين، ومحمل عليها مدفع عيار ١١٥ مم أملس الماسورة.

أمام هذه القوة، كان هناك لواءان مدرعان اسرائيليان: السابع فى القطاع الشمالى، واللواء ١٨٨ فى القطاع الجنوبى، وقوتهما الإجمالية من الدبابات تصل إلى حوالى ١٧٠ دبابة، وحوالى ٦٠ قطعة مدفعية. وكانت القوات الاسرائيلية تستخدم دبابات أمريكية الصنع من طراز إم ٦٠ وبريطانية من طراز سنتوريون. وكان القطاع الشمالى، الذى ينتشر به اللواء السابع، يتبع قيادة فرقية يتولاها الجنرال «(رافول) ايتان»، وقاعدتها فى نفاخ. وعلى طول الجبهة البالغ ٤٥ ميلاً، كان هناك ١٧ حصناً اسرائيلياً – مواقع ذات دفاع جيد، يتولى كل منها حوالى ٢٠ رجلاً مع فصيلة من ثلاث دبابات – تتقدمها خنادق للأسلحة المضادة للدبابات.

كانت الخطة السورية ترتكز على محاولة الاختراق من الشمال بالفرقة السابعة / مشاة، تدعمها عناصر من الفرقة الثالثة؛ على أن الهجوم الرئيسى كان مقرراً له أن يتم جنوبى هذه النقطة عند منطقة ثغرة الرفيد. وقد عُهد بتنفيذ ذلك إلى الفرقة الخامسة/ مشاة والتاسعة/ مشاة واللواء الأول / مدرعات وعناصر من الفرقة الثالثة / مدرعات، كل هذا فى مواجهة اللواء ١٨٨ الذى لم يكن لديه أكثر من ٥٧ دبابة. وكانت الخطة السورية ترمى إلى اتمام احتلال مرتفعات الجولان بالكامل فى مساء الأحد ١٧ أكتوبر، ويعقب ذلك إعادة تنظيم القوات بمنطقة نهر الأردن على الجانب الاسرائيلى استعداداً لاختراق تال نحو الجليل.

كانت الحشود المتزايدة للمدرعات السورية تشغل بال الميجور جنرال «اسحاق هوفى»، قائد المنطقة الشمالية، منذ فترة. وقد عبر عن قلقه هذا لموشى ديان ، وزير الدفاع، فصدر الإذن لوحدات اللواء السابع / مدرعات، التى كانت على قوة احتياط القيادة العامة بالقطاع الجنوبى من اسرائيل، بصعود مرتفعات الجولان. وقد زاد هذا التحرك من عدد الدبابات فوق مرتفعات الجولان من ٦٠ إلى ١٧٠ دبابة.



توزيع القوات سعت ١٤، السبت ١٦ أكتوبر

الهجوم السورى

فى الثانية من بعد ظهر السبت ٦ أكتوبر، بدأ الهجوم السورى بقصف مدفعى كثيف استمر لحوالى ٥٠ دقيقة. وتحت غطاء هذا الهجوم، تقدمت جحافل المدرعات السورية، بينما توجه تحرك مستقل نحو الموقع الاسرائيلى بجبل حرمون بقوات سورية محمولة بالهليكوبتر. وكان الموقع ذا أهمية حيوية بالنسبة للاسرائيليين، فهو موقع مراقبة يغطى ميدان المعركة بالكامل وكذلك مداخل دمشق. كما كان الموقع محطة رادار مثالية ونقطة للإنذار الاليكترونى الحساس. وكان الحصن جيد البناء من أسفله، لكن تحصيناته العلوية لم تكن قد اكتملت. كان الموقع تعتريه مظاهر عديدة للإهمال: أصاب الدمار بوابته الرئيسية، ولم تكن مفاصلها قد اكتملت؛ ولم تُقَم خنادق للمواصلات أمام الحصن الرئيسى؛ وكان مجموع القوة المكلفة بحماية هذا الموقع الحساس عبارة عن ضابط واحد و١٣ جندياً. وكانت التحصينات مبنيّةً بحيث تصمد أمام نيران المدفعية والغارات الجوية، لكن نظام الخنادق الذى يتيح للمشاة الدفاع عن الموقع بنجاح لم يكن قد استكمل. واقتربت من قمة الجبل أربع طائرات هليكوبتر سورية تحمل كتيبة صاعقة، على مسافة حوالى الميل من الموقع. وقد انفجرت إحدى هذه الطائرات. وهبطت الثلاث الباقية وأفرغت حمولتها من القوات. وتقدم السوريون فى طابورين، واخترقوا الموقع الاسرائيلى الذى كان - بسبب الإهمال - غير مجهز بشكل جيد للدفاع. وفى تلك الظهيرة، سقط الموقع بأيدى السوريين. وبالنسبة للمستشارين السوفيت الذين وصلوا إلى الموقع بعد سقوطه بقليل، كان الجهاز الالكترونى الذى استولوا عليه لا يقدر بمال.

فى القطاع الشمالى، قامت الفرقة السابعة/ مشاة السورية، تدعمها عناصر من الفرقة الثالثة/ مدرعات ولواء مغربى، بالهجوم على اللواء السابع/ مدرعات الاسرائيلى. وفى الوقت نفسه، كان يجرى تطوير المجهود الرئيسى السورى عند ثغرة الرفيد، التى قام السوريون منها باندفاع كبير على طريق التابلاين. وتصدى اللواء ١٨٨، بدباباته السبع والخمسين، للمجهود الرئيسى الذى قذف فيه السوريون بحوالى ستمائة دبابة. فقد كان هجوم الفرقة الخامسة والتاسعة/ مشاة السورية مدعوماً بعناصر من الفرقة الأولى/ مدرعات. وقد قاتلت القوات الإسرائيلية قتالاً مستميتاً دفاعاً عن كل بوصة من الأرض، فى مواجهة قوة تفوقها عدداً وعدة.

تشبث اللواء ١٨٨ بموقعه بعزم وتصميم : تعثر اللواء السورى المتقدم على طريق التابلاين لحوالى ٢٠ ساعة أمام حفنة من الدبابات يقودها ملازم اسرائيلى شاب، هو «زفيكا

جرنيجولد»، الذى عاد من أجازته واندفع نحو ميدان المعركة، وأبعد جثث القتلى عن عدد من الدبابات وكوّن، على عجل، قوة محسّنة عرفت باسم «قوة زفيكا»، اندفعت بأربع دبابات نحو المعركة على طريق التابلاين لتلاقى الهجوم المقترب بقيادة اللواء ٩٠ / مدرعات السورى. وقد استغل « زفيكا» المرونة التى توفرها قوته الصغيرة فى الكر والفر أمام الطوابير ليلاً، فدمر ما أمكنه من دبابات العدو، وخلق الانطباع عند السوريين بأنهم أمام قوة أكبر بكثير، ونجح بذلك فى إعاقة التقدم السورى على طريق التابلاين. وواصل «زفيكا» اشتباكاته مع السوريين، وكلما أصيبت دبابة استخدم غيرها، مراوغاً السوريين ويتبدى المجهود النهائى لـ«قوة» زفيكا فى وقوف آخر دباباته خارج جنزيرها فوق مرتفعات الجولان، وهو الوضع الذى وجدتها عليه أول دبابة سورية تخترق دفاعات مقر القيادة الفرقى فى نفاخ يوم ٧ أكتوبر. وقد مُنح، فيما بعد، نوط الشجاعة، أعلى الأوسمة الاسرائيلية.

بحلول صباح الأحد، كان اللواء ١٨٨ قد دُمر تدميراً شبه كامل. وعندما تحرك قائد اللواء، الكولونيل «بن – شوحام»، ونائبه وضابط عملياته، من نفاخ، مع العدد القليل المتبقى من الدبابات، باتجاه طريق التابلاين فى محاولة أخيرة يائسة لملاقاة الهجوم السورى، ابيدت المجموعة عن آخرها فى المعركة. وبحلول منتصف نهار ٧ أكتوبر، كان ٩٠٪ من ضباط اللواء بين قتيل أو جريح، بما فيهم قائد اللواء ونائبه. وعند نهاية ظهيرة الأحد، كان ضابط المخابرات هو الوحيد القادر على العمل من بين كبار ضباط اللواء.

أتاحت هذه الشجاعة الفائقة فى القتال الوقت لحشد الاحتياط ودفعه إلى الجبهة. وفى ليلة الأحد، كان الميجور جنرال « دان لانر »، القائد الفرقى الذى أوكل الجنرال « هوفى » إلى قيادته الفرقية مسؤلية الجزء الجنوبى من مرتفعات الجولان، كان يقف عند جسر « اريك » تماماً، يوجه الدبابات والفصائل والسرايا، بمجرد وصولها، نحو الطريق الصاعد إلى الجبهة. وفى ذلك الأحد، وبعد ٢٤ ساعة من الضربة الأولى، أصبحت القوات السورية على القطاع الجنوبى، على مسيرة عشر دقائق بالدبابات من نهر الأردن وبحر الجليل. وفى وسط القطاع الجنوبى، وصلت هذه القوات إلى قيادة الجنرال « ايتان » فى نفاخ، الذى استطاع التسلل عبر أحد جوانب المعسكر عندما دخلت القوات من الجانب الآخر، ولم يتوقف التقدم السورى إلا عند منتصف المعسكر. وبعيداً إلى الجنوب، كان السوريون قد استولوا على قرية «رامات ماجشيم» الإسرائيلية، وتأهبوا للتقدم. ومن أجل وقف التقدم السورى، أخذت الوحدات الاسرائيلية تندفع الواحدة تلو الأخرى نحو خط الجبهة .

في تلك الأثناء، وفي القطاع الشمالي، كان اللواء السابع/ مدرعات الاسرائيلي، بقيادة الكولونيل «افيجدور بن جال» (يانوش)، مع قوة من حوالي ١٠٠ دبابة، يتخذ مواقعه في المنطقة الواقعة بين مسعدة والقنيطره، ويتصدى لهجوم الفرقة السابعة/ مشاة المدعومة بعناصر من الفرقة الثالثة/ مدرعات، بقوة هجوم تقدر بحوالي ٥٠٠ دبابة. وعلى مدى أربعة أيام بلياليها دارت المعركة بلا هوادة، بمعدل هجمتين إلى ثلاث نهاراً وهجمتين على الأقل ليلاً. وكانت المعركة قد بدأت في الثانية من مساء يوم السبت. وبحلول ظهر الثلاثاء، استطاعت الدبابات السورية اختراق الخطوط الاسرائيلية وكل مكان. وكانت أطقم الدبابات الاسرائيلية تقاتل دفاعاً عن حياتها. وعندما أخذت قوة « بن - جال » في التناقص حتى وصل عدد دباباتها إلى سبع، وأصبح موقف الذخيرة حرجاً، بدأ يعد للانسحاب.

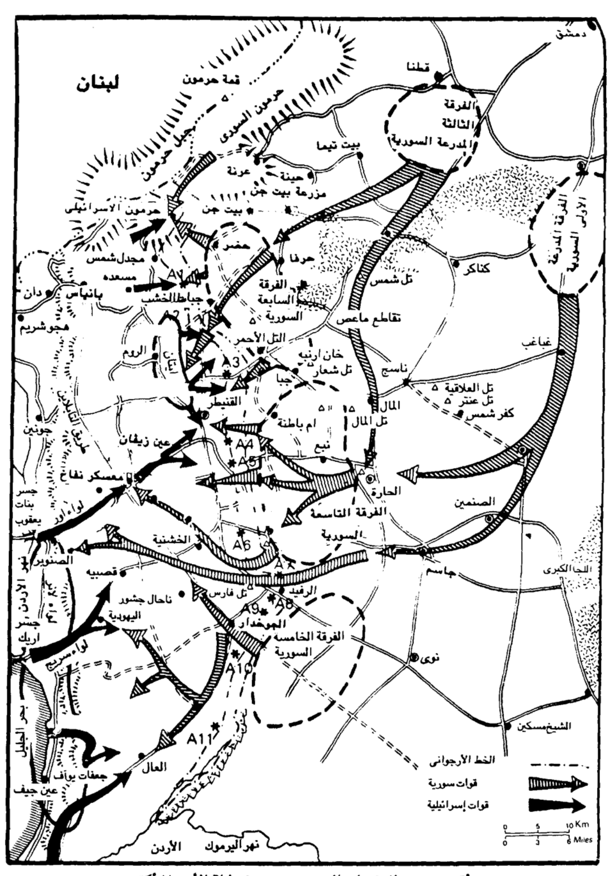
عندما اندلعت الحرب، قطع قائد الكتيبة الليفتنانت كولونيل « يوسي »، اجازة شهر العسل التي كان يقضيها بجبال الهيمالايا. وبعد مجهود إنساني فائق أمكنه العودة إلى إسرائيل وانطلق نحو ميدان القتال وارتجل قوة من ١٢ دبابة مصابة كانت قد سحبت للإصلاح. ونظم أطقما (ضمت العديد من الجرحى الذين صمموا على الخروج من المستشفى) وتحرك ظهر السابع على رأس قوته المؤقتة نحو قطاع اللواء السابع. وقد وصل إلى مسرح المعركة في اللحظة التي كانت فيها بقايا اللواء السابع على وشك الانسحاب. وانضمت الدبابات السبع الباقية من اللواء السابع إلى قوة الليفتنانت كولونيل «يوسي»، واتجهت لشن هجوم مضاد على السوريين. وأُخذ السوريون على حين غرة، وبعد أن كانوا يتوسعون أصبحوا في موقف الدفاع، وفقدوا حوالي ٥٠٠ دبابة وعربة مدرعة في أرض الموت التي أصبحت تعرف بـ «وادي الدموع»، وذلك قبل أن ينكسروا أمام مواقع اللواء السابع. وأفادت تقارير التحصينات الاسرائيلية، التي صمدت جميعها أمام التقدم السوري (باستثناء ثلاثة انسحبت قواتها بناء على أوامر) بأن قوافل الإمداد تتجه شرقاً، الأمر الذي يعني أن القوة على وشك الانسحاب. وانكسر الهجوم السوري، وانسحبت قواته أمام اللواء السابع، الذي تعقبهم حتى خط وقف إطلاق النار: « الخط الارجواني ».

في القطاع الجنوبي، تحركت فرقة مدرعة من احتياطي القيادة العامة، بقيادة الميجور جنرال « موشي بليد »، ليلة الأحد، نحو طريق «العال» على الميمنة الاسرائيلية، وشنت هجوماً مضاد على السوريين. والجنرال «بليد»، المعروف باللقب العربي «موسى»، ضابط ممتلئ الجسم، تربى في سلاح المدرعات، وتنقل بين عدد من المناصب القيادية حتى أصبح قائداً

فرقيا. وهو رجل حازم صارم، نشأ فى إحدى قرى وادى جزريل، وأصبح فى النهاية قائد سلاح المدرعات الاسرائيلى. نجح الهجوم، وتقدمت فرقة «بليد» نحو قوات الفرقة التاسعة مشاة السورية على طريق العال باتجاه الرفيد. وفى تلك الأثناء، تقدمت فرقة «دان لانر» على طريق اليهودية، وحررت نفاخ وأطبقت على الخشنية. وعند الظهر، وصل اللواء العشرين الاسرائيلى إلى ميمنة هجوم «بليد» بالقرب من تل فارس، بعد تمزيق اللواء ٤٦/ مدرعات السورى. لكن المقاومة السورية كانت شرسة، وواصلت قواتها المدرعة تحركها من سوريا عبر «الخط الارجوانى ». وكانت فرقة «بليد»، فى حقيقة الأمر، مشتتة على محورين من المحاور الثلاث لتقدم الفرقة الأولى / مدرعات السعودية (طريق كودنة – الرمثانية – الخشنية، وطريق التابلاين، وطريق الرفيد– الجوخدار – رامات ماجشميم) كما أصبح اللواء العشرون بمثابة اسفين يخترق حشود مدرعات العدو . عند ظهر الثلاثاء ٩ أكتوبر، أصبح موقف اللواء العشرين حرجاً.

على الجانب الآخر، كان العقيد « جهانى »، قائد الفرقة الأولى / مدرعات، يواجه فى تلك الأثناء مأزقاً حقيقياً. فالهجمات المتعاقبة للواء الكولونيل « يورى اور » التاسع والسبعين (فرقة لانر) أنهكت اللواء ٩١ السورى بقيادة العقيد «فياض» ؛ كما أن القوات الاسرائيلية فى شمال القنيطرة بقيادة الجنرال «رفائيل ايتان»، كانت تسيطر على الخط التى فشلت الهجمات السورية الشمالية فى اختراقه. وكان قد حشد إمداداته الفرقية فى منطقة الخشنية قبل تطوير هجومه على اسرائيل، لكن المنطقة بأكملها أصبحت مهددة بكماشات قوات «لانر» من الغرب والشمال وبقوات «بليد» من الجنوب – إذا لم تنجح قوات جهانى المدرعة ، التى كان يلقى بها يائساً أمام اكتساح «بليد»، فى الصمود، فإن مصير فرقته هو التدمير الكامل. إضافة إلى ذلك، فقد أصبح الطيران الاسرائيلى طرفاً فى المعركة، بعد تدمير العديد من مواقع الصواريخ أرض – جو التى كانت تهدد تحركه، ووقوع منطقة الخشنية تحت القصف الجوى المؤثر. أصبح الموقف خطيراً أمام العقيد جهانى. وأصدر أوامره إلى قوات جيب الخشنية أن تضغط باتجاه الشرق على قوات «بليد»، التى تطوقها، فى محاولة للخروج من الجيب، وكانت النتيجة أن وجدت فرقة «بليد» نفسها تواجه ضغطاً من اتجاهين معاكسين.

لم يكن «بليد» على علم بعد بورطة جهانى. فأمر لواء الرابع عشر بمواصلة التقدم شرقاً، والهجوم على وسط الجبهة الفرقية فى محاولة لتحقيق أكبر عمق ممكن، ليخفف بذلك الضغط على ميسرة اللواء الموجود إلى يمينه. وأسفر هجوم «بليد» عن الفوز بمرتفع تل فارس، الذى



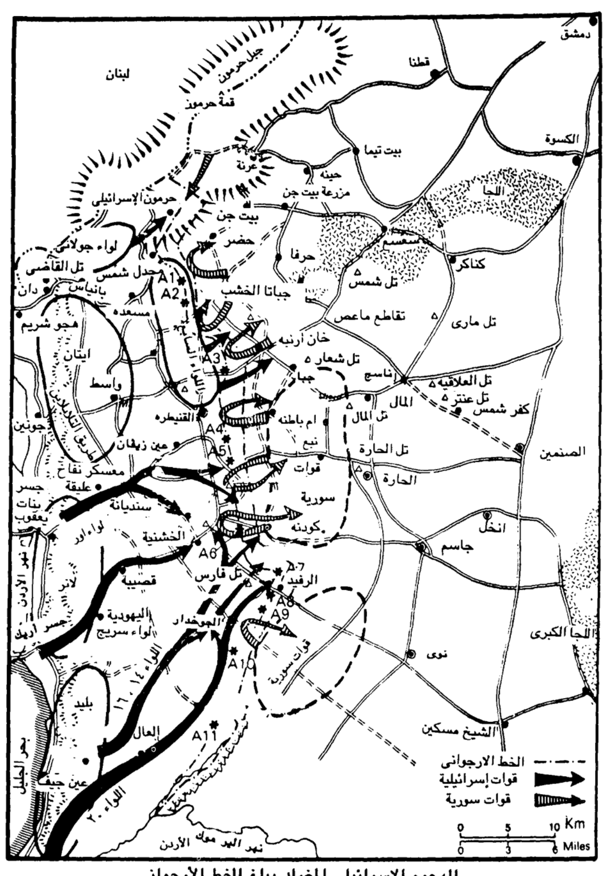
أقصى مدى للاختراق السورى، منتصف ليلة الأحد ٧ أكتوبر

كان نقطة مراقبة مدفعية عظيمة القيمة. (لكن وحدة سورية صغيرة مموهة ومختفية عن عيون الاسرائيليين ظلت تواصل عملها، من منحدرات التل، في توجيه النيران السورية، ولم تكتشف إلا في ١١ أكتوبر). وبالتعاون الوثيق مع الطيران، شرع لواء «بليد» التاسع عشر في الهجوم واشتبك مع اللواء ٤٠ الميكانيكي من الفرقة الأولى / مدرعات. وبعد نجاح ابتدائي للقوات الاسرائيلية، عاد السوريون تحت جنح الظلام باللواء ١٥/ ميكانيكي (فر ٣ مدرعات) في محاولة للاختراق وتخليص وحدات الفرقة الأولى/ مدرعات المحاصرة بجيب الخشنية.

في الصباح الباكر من يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر، أمر «بليد» جميع ألويته بالتقدم للاستيلاء على كودنه، حيث توجد مقرات القيادات الأمامية السورية. وقد تكبد في هذا الهجوم خسائر كبيرة، وصدرت إليه الأوامر من الجنرال « هوفي »، قائد المنطقة الشمالية، بالبقاء في مواقعه، بينما يقوم الجنرال « لانر » بدفع قواته (اللواء السابع بقيادة الكولونيل « اور » واللواء ١٧ بقيادة الكولونيل « ران سارج ») نحو الخشنية من ناحية الشمال. وبهذا أصبحت المنطقة الواقعة بين ملتقى طرق الخشنية وتل فازرة منطقة القتل للقوات الاسرائيلية. وشيئاً فشيئاً ، أمكن لقوات « لانر » تقليل مساحة جيب الخشنية، بينما صعدت قوات بليد بدباباتها نحو تل فازرة .

عند منتصف نهار الأربعاء ١٠ أكتوبر، وبعد أربعة أيام تقريباً من اختراق حوالي ١٤٠٠ دبابة سورية لـ« الخط الارجواني » في هجوم كاسح على اسرائيل، لم تكن هناك دبابة سورية واحدة تشترك في القتال غربي ذلك الخط. وأصبح جيب الخشنية، الذي شهد تدمير اثنتين من الألوية السورية، مقبرة كبيرة للمركبات والمعدات السورية. وتناثرت المئات من المدافع ومركبات الإمداد وحاملات الجنود المصفحة وعربات الوقود، وحاملات صواريخ ساجر « بي . آر . دي . ام » المدرعة، والدبابات، وأطنان الذخيرة حول التلال والمنحدرات المحيطة بالخشنية.

احترق كبرياء الجيش السوري، وظل ينبعث منه الدخان على طول محاور تقدمه الأمامية. وحققت كل وحدة اسرائيلية مجداً عظيماً. فقد نجح اللواء ١٧ بقيادة الكولونيل «سارج» (من فرقة لانر)، الذي يبلغ عدد دباباته ما بين ٤٠ - ٥٠ دبابة، في تدمير ما يزيد على المائتي دبابة سورية على طريق اليهودية. وقد خلف السوريون بالمنطقة الواقعة تحت السيطرة الاسرائيلية من مرتفعات الجولان ٨٦٧ دبابة، بعضها من أحدث انوع تي ٦٢، بالإضافة إلى آلاف المركبات، والمركبات المضادة للدبابات، والمدافع وغيرها من المعدات. وكانت أحدث أنواع الأسلحة والعتاد، التي لم يعطها الاتحاد السوفيتي لأي جيش أجنبي آخر، متناثرة فوق



الهجوم الإسرائيلى المضاد يبلغ الخط الأرجوانى
صباح الأربعاء ١٠ أكتوبر

الهضاب المتموجة لمرتفعات الجولان تذكاراً لواحدة من أعظم انتصارات الدبابات على عتاد متفوق وللروح التى لا تقهر للقوات الاسرائيلية التى ظلت تواجه كارثة ساحقة على مدى أربعة أيام، ثم استطاعت أن تستعيد زمام المبادرة، وترد القوة الغازية إلى خط انطلاقها فى واحدة من أعظم معارك التاريخ العسكرى الحديث.

الاقتحام الإسرائيلى

كان القرار الاستراتيجى لقيادة الأركان العامة الاسرائيلية يعطى الأولوية لمرتفعات الجولان. فهذه المنطقة – على عكس سيناء -- لا عمق لها، وأى اختراق سورى موضعى يمكن أن يهدد تجمعات السكان الإسرائيليين فى الجليل الشمالى. ومن هنا، كان من الضرورى إبعاد السوريين بأسرع ما يمكن، ثم تدمير الجيش السورى، حتى يبتعد خطر التهديد العسكرى لجبهة البلاد الشمالية. وبعد ذلك فقط من الممكن نقل ثقل القوة العسكرية الاسرائيلية نحو القوات المصرية. وكان هناك اعتبار إضافى هو أن المساعدات والإمدادات – من العراق بالأساس، وكذلك السعودية والكويت – كانت فى الطريق. وكان من الواضح أن حسين ملك الأردن، الذى كان يدعى حتى الآن الالتزام بعدم الاشتراك فى الحرب، يمكن أن تتأثر قراراته المستقبلية بمصير الجيش السورى. كان عامل الوقت حاسماً فى ظل المعلومات التى وردت بشأن تحرك القوات العراقية نحو سوريا. وفوق ذلك، فإنه لا ينبغى إعطاء الجيش السورى المنسحب الفرصة لاستعادة توازنه واستيعاب العتاد الذى بدأ يرد من الاتحاد السوفيتى.

وفى الثامنة من مساء الأربعاء ١٠ أكتوبر، عقدت قيادة الأركان العامة مؤتمراً لتقرير إما تعزيز المواقع على « الخط الارجوانى » أو مواصلة الهجوم على سوريا. ودخل وزير الدفاع أثناء المؤتمر، وقام « اليعازر » بتلخيص وجهتى النظر أمامه. وكان « دايان » متردداً بشأن التقدم نحو سوريا لإدراكه أن تقدما مثل هذا يمكن أن يؤدى إلى تدخل سوفيتى للدفاع عن دمشق. على أن الجنرال «اليعازر»، رئيس الأركان، كان مع قيام الاسرائيليين باختراق لمسافة حوالى ١٢ ميل فى العمق، الأمر الذى يضع القوات الاسرائيلية عند نقطة يمكنها أن تقيم عندها خط دفاعى قوى تستطيع منه تهديد دمشق بواسطة المدفعية البعيدة المدى. وكان من رأى «اليعازر» أن نشر القوات الاسرائيلية عند ذلك الخط سوف يؤدى إلى تحييد سورياً الأمر الذى يسمح بتركيز الضغط على مصر. واصطحب «ديان» «اليعازر» وعدداً من الضباط لمقابلة

«جولدا مئير». وبعد نقاش، فضلت رئيسة الوزراء استمرار التقدم نحو سوريا، وأصدر الجنرال «اليعازر» أوامره إلى القيادة الشمالية بذلك. وكان على الهجوم المضاد أن يبدأ يوم الخميس ١١ أكتوبر.

قرر «هوفى» أن يبدأ الهجوم عند أقصى قطاع فى شمال الجولان، واختار هذه المنطقة حيث تكون ميسرة القوة المهاجمة آمنة من جهة منحدرات جبل حرمون التى لا يمكن للمدرعات السورية التحرك خلالها. وكان محور التقدم هو أقصر الطرق إلى دمشق، التى تبعد ٣٠ ميلاً، وتهديدها يمكن أن يؤثر على الانتشار السورى. وكانت الأرض منحدرة، تقدم مراقبة جيدة لطريق القنيطرة - دمشق الرئيسى الذى كان على قوات «لانر» أن تستخدمه فى تقدمها. وكان على «رافول ايتان»، مع اللواء السابع فى المقدمة ،أن يتولى عملية الاكتساح. وكان على فرقة «لانر»، مع لواء «اور» (٧٩) ولواء «سارج» (١٧) تحت قيادته، أن تهجم بعد ساعتين من هجوم فرقة «ايتان» على طريق دمشق الرئيسى القوى التحصين. فإذا تعثرت فرقة «لانر»، فإن عليها أن تتبع فرقة «ايتان»؛ أما إذا نجحت على طريق دمشق، فعلى «ايتان» أن يقوم بتغطيتها، وتقديم الدعم لها من فوق المرتفع الكائن شمال الطريق. وتحددت الحادية عشر صباحاً كساعة للصفر (كان من الصعب على القوات الاسرائيلية أن تهاجم فى وقت مبكر عن ذلك لأن الشمس تكون فى عيون أفرادها). وكان على « لانر » أن يتحرك فى الساعة الواحدة.

فى تلك الأثناء، كان العمل يجرى على قدم وساق من أجل إعادة تأهيل اللواء السابع وإصلاح الدبابات واستيعاب المعدات التى استبدلت، وتعزيز الوحدات. وكنتيجة لذلك أصبح «بن - جال»، بعد يومين فقط من استنفاده لآخر احتياطياته فى المعركة، على أهبة الاستعداد لخوض المعركة بلواء أعيد تسليحه وإمداده.

كانت مهمة اللواء السابع هى الاستيلاء على تل شمس ومزرعة بيت جن. وكان حدُّه الجنوبى هو طريق القنيطرة - دمشق الرئيسى الذى يمر عبر خان أرنبه ومجدل شمس وسعسع. وقد ثبت فيما بعد أن اختيار نقطة الاختراق كان صحيحاً، إذ أنها كانت أضعف مناطق الشمال من الوجهة الدفاعية. وكانت إحدى المشكلات الرئيسية، كما رآها « بن - جال»، هى عبور حقول الألغام السورية بأسرع ما يمكن، لأن النجاح أو الفشل رهن بالسرعة التى سوف يتم بها نشر قواته فى المعركة. وكانت مناطق الاقتحام جبلية صخرية كثيفة الأشجار. وقام «بن - جال» بتقسيم لوائه إلى قوتين: قوة شمالية تتألف من كتيبة «افيجدور كهلانى» السابعة وكتيبة «عموس» وهى من الاحتياط الذى وصل حديثاً، عهد إليها الاستيلاء

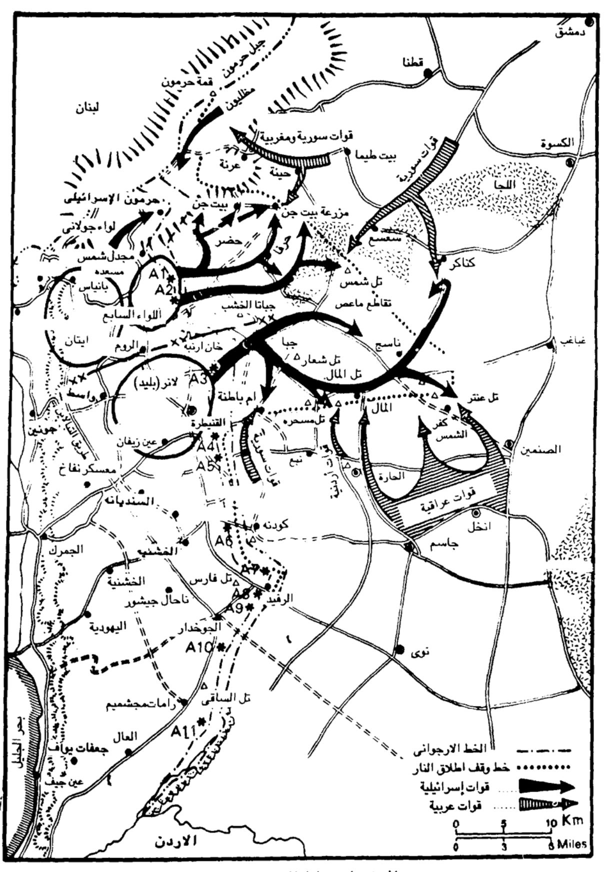
على حضر ومزرعة بيت جن. وقوة جنوبية، تتقدمها بقايا اللواء ١٨٨ بقيادة الليفتنانت كولونيل «يوسى»، وتتألف من كتيبتى دبابات مع قوات إضافية: الكتيبة الخامسة بقيادة الليفتنانت كولونيل «جوش»، وكتيبة تحت قيادة «يوسى»، ثم بقايا الكتيبة الرابعة. وكانت مهمة القوة هى الاستيلاء على جباتا والمرتفع الكائن شمالى خان أرنبه، ومعسكرات الجيش السورى فى Hales * وتل شمس.

مساء الأربعاء، وبعد إصدار تعليمات القيادة، تحدث « بن – جال » إلى ضباطه المجتمعين. نظر إليهم مسترجعاً الأيام الأربعة الماضية (حاول كثير منهم بصعوبة أن يجعل عينيه مفتوحتان): رجال يعلم أن البلاد مدينة لهم بالكثير، وكانت تدفعه عاطفة غريبة. كان يلقى خطبة مؤثرة. وفى سياقها المنطقى، تحولت عناصر العملية التى كانت بديهية بالنسبة لكل ضابط فى أى سلاح إلى بيان حى. كان يستلهم القوة من الضباط المنهكين، بعيونهم المحمرة والذين قادوا رجالهم فى معركة مصيرية. وأوجز خطة استغلال النجاح الذى تحقق فى دخول سوريا.

فى الحادية عشر من صباح ١١ أكتوبر، عبرت الوحدات المتبقية من اللواء ١٨٨ «الخط الارجوانى» تقود اللواء السابع نحو سوريا. وكان قد أعيد تنظيم الوحدات المتبقية من اللواء الذى هلك معظمه فى المعركة، وذهب ٩٠٪ من قادته بين قتيل وجريح ولم يتبق على قيد الحياة سوى قائد ثان سرية أصلى واحد فقط، واثنين من قادة الفصائل. وبرغم ذلك، فها هو اللواء يدخل العمل مرة أخرى، ويقود الهجوم الاسرائيلى. وكان يقف فى مواجهة قوات « بن – جال » الحملة المغربية بقوة لواء، يدعمها حوالى ٤٠ دبابة، وتغطى مداخل مزرعة بيت جن. وإلى جنوب هذه القوة، كان هناك لواء مشاة سورى مدعما بأسلحة مضادة للدبابات، مع حوالى ٣٥ دبابة. واستطاعت القوات المتقدمة أن تشق طريقها عبر حقول الألغام السورية تظاهرها المدفعية والعون الجوى.

قام المجهود الشمالى للواء السابع بالاقتحام من المنطقة المشجرة، وبعد قتال شرس أمكن للقوات أن تستولى، تدريجياً، على المرتفع وتقاطع طرق حضر، مجبرة اللواء ٦٨ السورى

* لم أعثر على هذا الموقع سواء على خرائط الكتاب أو على الخرائط السورية. (المترجم)



الاختراق، ١١ اكتوبر ١٩٧٣

والفرقة السابعة/ مشاة على الانسحاب. وبعد ذلك بعدة أيام أُعدم قائد هذا اللواء، العقيد رفيق حلاوى - وهو درزى - رميا بالرصاص بأحد المعسكرات عند أطراف دمشق، بعد أن جرد من رتبته العسكرية والدموع تملأ عينيه. وكان قد مثل أمام محكمة عسكرية بتهمة الانسحاب، وقد ضاعف من تهمته الشك القوى من جانب النظام السورى تجاه الشعب الدرزى. وتواصل التقدم الشمالى نحو مزرعة بيت جن. وبعد تعثر ابتدائى بسبب هجوم مضاد قامت به المدرعات السورية يدعمها الطيران، دخلت القوات الاسرائيلية القرية يوم الجمعة ١٢ أكتوبر. وقد شهدت القرية قتالاً عنيفاً دام لحوالى ست ساعات. وعند الخامسة من بعد الظهر، أصبحت مزرعة بيت جن والتلال المحيطة بها بأيدى الاسرائيليين. وتحرك مشاة جولانى، مع عناصر مدرعة، للسيطرة على المنطقة.

فى القطاع الجنوبى، استولت فرقة الجنرال «ايتان» المتقدمة على التل الأحمر، المشرف على خان أرنبه من الشمال. وأصبحت ميمنة «ايتان» تحاذى ميسرة «لانر». ومع حلول يوم الخميس كانت قرية حرفاً الدرزية قد وقعت بأيدى الاسرائيليين، كما سقط تقاطع طرق ماعص صباح الجمعة. وصدرت الأوامر إلى كتيبة المقدمة بقيادة «يوسى» بالهجوم والاستيلاء على المنطقة الحاكمة المواجهة للقوات المهاجمة على طريق دمشق، وتل شمس. ولثلاث مرات ترتد كتيبته على أعقابها بسبب النيران الكثيفة لوحدات صواريخ ساجر المضادة للدبابات، المتمركزة فوق الصخور وجلاميد السهل البركانى على جانبى الطريق - جعلت الطبيعة الصخرية للمنطقة من الصعب انتشار الدبابات على الطريق. وفشلت محاولة قام بها « بن - جال »، بكتيبتين، لاكتساح واسع عبر السهل القريب المتعذر مروره، بالرغم من إصابة حوالى ٢٠ دبابة سورية من مدى بعيد يصل لحوالى الميلين أثناء القتال.

بعد نشر كتيبتين على الطريق الرئيسى كقاعدة ثابتة مهمتها شغل تل شمس، قام «يوسى»، بحذر، بقيادة سريتين يصل مجموع دباباتهما إلى ٢٠ دبابة عبر الجلاميد والصخور، مستخدماً طريقاً سبق لهم اكتشافه. وكانت الخطة تستهدف تطويق تل شمس ومهاجمتها من المؤخرة. ومن مجموع قوته من الدبابات، وصل ثمانى فقط إلى المنحدرات الخلفية لتل شمس، لتفاجىء القوة السورية وتدمر عشر دبابات من مدى قريب. وتحت غطاء من القصف المدفعى الكثيف، قاد «يوسى» قوته الصغيرة واكتسح تل شمس بست دبابات فى الهجوم واثنتين للتغطية. وعندما اقتربوا من قمة التل، فتحت بطارية مدافع مضادة للدبابات مختبئة نيرانها، قدمرت أربعا من الدبابات المهاجمة. وانطرح «يوسى» نفسه خارج دبابته، ومكث جريحاً بين الصخور. وحاولت قوة التغطية، الموجودة على طريق دمشق الرئيسى، إخلاء «يوسى» لكنها فشلت. واخيراً، وتحت غطاء الظلام، نجحت وحدة من القوات المظلية الخاصة، بقيادة ضابط شاب يدعى «يونى»، فى التسلل عبر المنطقة التى يحتلها السوريون، وتمكنت من إخلاء «يوسى»

تحت أنف القوات السورية بتل شمس. (بعد ذلك بثلاث سنوات كان على «يونى» نفسه، بعد أن أصبح الليفتنانت كولونيل «جوناثان نتانياهو»، أن يقود القوات المهاجمة فى واحدة من أبرز عمليات الإنقاذ، وينقذ أكثر من مائة رهينة اسرائيلية احتجزوا بمطار عنتيبى؛ وفى تلك العملية قتل «يونى»، الضابط البارز وخريج جامعة هارفارد.) واعتبر الهجوم الفاشل على تل شمس خطأ، خاصة لأنه لم يتم تنسيق بين «بن – جال» و«ايتان». وهو يعتبر فى حقيقة الأمر مثالا كلاسيكيا على سوء استخدام المدرعات. وقد تأكدت هذه الحقيقة عندما أمر «ايتان» وحدات اللواء ٣١ / مظلات بالهجوم على تل شمس، ليلة السبت ١٣ أكتوبر. واقتحمت هذه الوحدات الممتازة من الجيش الاسرائيلى الموقع ليلاً، واستولت عليه ولم تتعد خسائرها أربعة من الجرحى.

فى تلك الأثناء، وإلى الجنوب من قوة « ايتان »، قامت فرقة «لانر» باختراق المواقع السورية على طريق دمشق الرئيسى. وكان يقود اللواء ١٧ الكولونيل « سارج »، الذى كان قد أصيب فى الهجوم الابتدائى على «الخط الارجوانى»، والذى خرج من المستشفى وهو ملفوف بأربطة كثيرة ليتولى القيادة. و«ران سارج» من مواليد الكيبوتز، وهو ابن «ناحوم سارج» الذى كان يقود لواء النقب خلال حرب الاستقلال. وعندما أصيب «ران» أثناء القتال، كان أخوه الأصغر الذى يخدم بالجيش، يرقد مصاباً بجرح خطير بعد تعرضه لإحدى حوادث الطريق. وقبل ذلك بأسبوع، قتل أخوهما الثالث، الضابط بأحد ألوية المظلات، أثناء التصدى لموجة الهجوم السورى الكاسح، وكان واحداً من الموسيقيين الاسرائيليين الشبان الواعدين.

عندما تقدم اللواء ١٧ للهجوم، تعرض لقصف مدفعى عنيف وأصيب ١٧ من دبابات استطلاع «سارج». وعندما رأى « لانر » الصعاب التى يتعرض لها « سارج »، دفع بوحدات اللواء ٧٩ لتخليصه. على أنه فى اللحظة التى بلغ فيها اليأس مبلغه، قامت الكتيبة المتبقية مع «سارج» بهجوم ثان، ووصلت دبابتان من قصيلة المقدمة إلى تقاطع طرق خان أرنبه. وعلى الفور غيرً «لانر» تعليماته وأمر اللواء ٧٩ بالاستفادة من النجاح الذى أحرزه «سارج» والتحرك عبر خان أرنبه، يتبعه اللواء ١٩ الذى كان قد انتقل من فرقة «بليد» إلى فرقة «لانر».

عندما تقدم اللواء التاسع والسبعين واللواء التاسع عشر جنوباً نحو «جبا» واستولى على تل شعار، قام السوريون بهجوم مضاد وقطعوا الطريق الرئيسى فى منطقة خان أرنبه ليعزلوا ويهددوا بذلك تلك العناصر من فرقة «لانر» التى اندفعت إلى الأمام. وتحت ستار الظلام، تحرك المشاة السوريون وسط صخور وجلاميد السهل البركانى، وأحالت قذائف البازوكا المضادة للدبابات المنطقة إلى مقبرة للدبابات الاسرائيلية. وفى مواجهة هذا الموقف، دفع «لانر» بكتيبة مظلات، قضت الليل فى قصف القوات السورية وإخلاء الجرحى الاسرائيليين.

المأزق السورى

بدأت دلائل اليأس تظهر على القيادة السورية. وأخذت نغمة هستيرية تحل محل رنة الانتصار الواثق التى ميزت الإذاعات العربية على مدى الأيام الخمسة الماضية. وكانت القوات الاسرائيلية تتقدم نحو سوريا فى مواجهة جيش سورى مستنزف للغاية. وأصبح الطيران الاسرائيلى يطير بحرية كاملة. فعن طريق المحاولة والخطأ، أمكن تحديد مواضع الضعف فى شبكة الصواريخ أرض - جو السورية، وتدمير جزء منها؛ وأصبحت طائرات سلاح الجو تنطلق عميقاً داخل سوريا لضرب أهداف استراتيجية، مثل خزانات الوقود ومحطات الكهرباء. وفى مرحلة من المراحل لم تجد الطائرات السورية العائدة من تنفيذ مهامها مطاراً سليماً يمكنها الهبوط فيه. (بعض هذه الطائرات هبطت باستخدام وسائل متحركة أعدت خصيصاً لهذا الغرض .) فقد كانت الطائرات الاسرائيلية باستمرار تترك المطارات السورية غير صالحة للاستخدام، الأمر الذى كان يعوق الجسر السوفيتى الضخم، الذى كان يستخدم عشرات من طائرات النقل الثقيلة يومياً، فى الوقت الذى كانت فيه الهجمات البحرية الاسرائيلية على الموانىء السورية تهدد خطوط الإمداد البحرى من الاتحاد السوفيتى. وكان الجانب الأكبر من الجيش السورى متمركزاً على مداخل دمشق، بينما أوكل إلى القوات العربية الحليفة، المؤلفة من وحدات من المغرب والسعودية والعراق ثم الأردن، فيما بعد، مهمة إعاقة التقدم الإسرائيلى. وقد صدرت بيانات مؤداها أنه حتى لو سقطت دمشق فإن سوريا سوف تواصل القتال.

صدر عن الحكومة السورية مناشدات يائسة بطلب العون. لكن قبل ذلك بأيام قليلة، عندما كانت القوات السورية على مسافة قصيرة من الأردن عند الجزء الجنوبى من مرتفعات الجولان، بعد القضاء على المقاومة الاسرائيلية الأولية، حاول الرئيس الأسد التوصل إلى وقف لإطلاق النار عبر المسئولين السوفيت، وذلك لإعاقة الهجوم المضاد الاسرائيلى، الذى تم فى نهاية الأمر، واستمرار السيطرة على مرتفعات الجولان. ولم يوافق الرئيس السادات، الذى كانت قواته قد نجحت فى عبور القناة وإقامة رءوس جسور للتقدم، على مثل وقف إطلاق النار هذا. والآن فقط، عندما أصبح الاسرائيليون فى وضع أفضل ويندفعون نحو سوريا، يدرك الرئيس الأسد فداحة خطئه فى عدم الضغط من أجل وقف إطلاق النار منذ البداية. والآن، بينما كانت سوريا تنزف وتقاتل دفاعاً عن مداخل عاصمتها، كان حليفها - الجيش المصرى - يقف رابط الجأش على الضفة الشرقية لقناة السويس، قانعا بتثبيت ما أنجز، يترددفى تهديد انتصاره بالتقدم. وناشد الأسد المصريين الضغط على القوات الاسرائيلية لتخفيف الضغط الذى تتعرض له جبهته. ووعد الجنرال «اسماعيل على»، وزير الحربية المصرى، بالتحرك. (أوضح فيما بعد أن الدافع لمعركة الدبابات فى ١٤ أكتوبر كان الرغبة فى تخفيف الضغط على

سوريا.) كما توجه السوريون نحو حلفائهم السوفيت، الذين قاموا بدورهم بتدعيم الجسر الجوى، وزيادة الإمدادات إلى القوات السورية المأزومة بشدة. ولإدراكهم للخطر الذى قد يصيب الجبهة السورية بالانهيار، وجهت موسكو تهديدات خفية، مثل الإعلان فى وسائل الإعلام السوفيتية بأن «الاتحاد السوفيتى لا يمكن أن يقف مكتوف اليدين أمام الأعمال الإجرامية للجيش الاسرائيلى». وقدم «اناتولى دوبرينين»، السفير السوفيتى لدى الولايات المتحدة، تحذيراً سوفيتياً إلى د. «هنرى كيسنجر» وزير الخارجية الأمريكى، مشيراً إلى أن القوات السوفيتية المحمولة جواً على أهبة الاستعداد للتحرك دفاعاً عن دمشق.

مع تصاعد الحرب فى الشرق الأوسط، تحركت وحدات إضافية من البحرية الأمريكية للانضمام إلى الأسطول السادس بالبحر المتوسط، بينما تحركت السفن الحربية السوفيتية لحماية موانىء اللاذقية وطرطوس بسوريا. وبدأ الاتحاد السوفيتى يحث البلاد العربية على الانضمام إلى زملائهم العرب فى المعركة. وأرسل « ليونيد بريجنيف » السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى، رسالة إلى « هوارى بومدين »، حاكم الجزائر، يحثه على «الوفاء بواجبه العربى» ؛ وشحنت الدبابات السوفيتية عبر يوغوسلافيا إلى وحدات جزائرية مخصصة للجبهة المصرية.

بعيداً عن هذه التطورات، كانت اسرائيل قد توصلت إلى قرار بعدم التورط فى الاستيلاء على دمشق. إذ أن تحركا كهذا كان يمكن أن تترتب عليه آثار خطيرة فى العالم العربى، كما أن قيمته العسكرية كان مشكوكا فيها. يضاف إلى ذلك أن التورط فى غزو مدينة يقطنها مليونا من العرب المعادين يمكن أن يكون أمراً مكلفاً، فى وقت تدرك فيه القيادة الاسرائيلية تمام الإدراك الخطورة الشديدة لانتشار القوات المحدودة فى الفراغ الواسع والمكشوف لسوريا. وعندما أضيف إلى ذلك الاهتمام السوفيتى بتأمين دمشق والتهديدات السوفيتية، أصبح من الواضح أنه ليس من مصلحة اسرائيل التقدم إلى نقطة تصبح فيها دمشق تحت تهديد المدفعية الاسرائيلية. ومن هنا، فإن الحكومة الاسرائيلية لم توافق إلا على غارات جوية محدودة على أهداف عسكرية محددة، منها الغارات الناجحة للغاية التى شُنت على مقر رئاسة الأركان العامة السورية. والحقيقة أن هذه الهجمات لم تقر إلا بعد أن أطلق السوريون صواريخ أرض - أرض من طراز «فروج» على أهداف مدنية فى الجليل، منها مدينة «مجدل هايعمك» للمهاجرين القريبة من الناصرة وكيبوتس «جيفا»، ولم تقع سوى أضرار طفيفة، لكن تأثير هذه الهجمات المشوشة ضد أهداف مدنية لم تكن خافية على الحكومة. لكن لم تفقد اسرائيل القدرة، فى أى مرحلة من المراحل، على قصف دمشق. فقد ظل مجرد التهديد قائماً على الدوام.

الهجمات العراقية والأردنية المضادة

فى صباح الجمعة ١٢ أكتوبر، تقدمت فرقة «لانر». واستولى اللواء ١٩ على قرية ناسج ثم انضم اليه اللواء ١٧، مع إسناد عملية المتابعة للواء ٧٩. وأقام «لانر» مقر قيادة له فى تل شعار. وهو موقع حاكم يتيح رؤية جيدة للسهل البركانى على مداخل دمشق. وأصدر أوامره إلى اللواءين ١٧ . ١٩ بالتقدم صوب كناكر، التى تحيط بالمواقع السورية فى سعسع، ووجه فرقة «ايتان» نحو طريق دمشق الرئيسى. ووصلت إحدى كتائب اللواء ١٩ إلى تل المال، لتعزز بذلك النطاق الجنوبى لفرقة « لانر » عند تحرك قواته فى اكتساح شمالى – شرقى نحو كناكر. وبالرغم من الخسائر الكبيرة التى وقعت، وصل اللواءان ١٧ ، ١٩ إلى مسافة تقل عن ثلاثة أميال من جنوبى كناكر، وكانت كل الدلائل تشير إلى انكسار القوات السورية. وضغطت قوات «لانر» بنشاط متجدد. ومن فوق مرتفع تل شعار الحاكم، تابع «لانر» من خلال منظاره التقدم الواضح لقواته على طريق كناكر – ناسج. وأثناء إحدى وقفات التقدم، بدأ يعاين السهل السورى بأكمله. وعندما نظر جنوباً، تجمد فجأة. فعلى مسافة حوالى ستة أميال كانت هناك قوة تقدر بحوالى١٠٠ – ١٥٠ دبابة، على مجموعتين كبيرتين، تنتشر وتتجه شمالاً نحو جبهته المفتوحة. وللحظة اعتقد أنها ربما تكون فرقة «بليد»، تتحرك بعد أن اخترقت سوريا، لكن القيادة الشمالية أكدت له أنها الفرقة السورية المسئولة عن قطاع الرفيد. ولإدراكه أنه أصبح معرضاً لهجوم وشيك على جناحه المكشوف فى وقت تتعقب فيه قواته السوريين الذين يتقهقرون سريعاً نحو الشمال الشرقى، أصدر «لانر» أوامره على الفور إلى لواء «أور» / ٧٩ بالكف عن التزود بالوقود والانتشار جنوب ناسج بأسرع ما يمكن. وصدرت الأوامر إلى قوة «سارج» واللواء ١٩ بوقف التقدم على طريق كناكر والانسحاب لتغطية جناحه الجنوبى. أذهلهم الأمر. وناشده قادة اللواء التراجع عن الأمر. إذ كيف، بعد كل ما قاموا به من أجبارا للسوريين على الفرار، يحرمون من اقتطاف ثمار النصر؟! لكنه رفض الاستجابة لمناشداتهم وأمرهم بالتحول فوراً نحو الجنوب.

فى تلك الأثناء، وبعيداً عن التطورات الدائرة عند جناح «لانر» الجنوبى، قرر «هوفى» تعزيز قوته وأمر بضم اللواء ٢٠ التابع لفرقة «بليد» إلى قوته. وهكذا، لم تمض سوى دقائق قليلة على رؤية «لانر» لقوة العدو، وهى تتقدم عبر السهل نحو جناحه الجنوبى، حتى أبلغ قائد اللواء ٢٠ مقر قيادة « لانر » الأمامية باستكمال استعداده لأداء الواجب. وقد صدرت إليه الأوامر بنشر لوائه فى منطقة تل مسحرة وتل المال.

طبقاً للتعهدات التى قدمت للجنرال المصرى «اسماعيل على»، أرسلت الحكومة العراقية فرقتها الثالثة/ مدرعات إلى سوريا عندما نشبت الحرب. فوصل لواءان فى الأسبوع الأول

(الذى ينتهى فى ١١ أكتوبر): لواء مدرع مع ١٣٠ دبابة، وآخر ميكانيكى مع ٥٠ دبابة. وكان مقرراً أن يلحق بهما لواء مدرع ثالث مع ١٣٠ دبابة بعد ذلك بأيام. وقبل فجر الجمعة ١٢ أكتوبر، وصلت الدبابات *إلى السهل البركانى* المعروف باسم *اللجا الكبرى* غربى دمشق، ونزلت الدبابات من فوق ناقلاتها، وتقدمت خلال السهل باتجاه الجناح الجنوبى للقوات الاسرائيلية التى كانت تتجه إلى كناكر وتهدد معسكرات الكسوة الحربية غربى دمشق. واتجه اللواء المدرع شمالاً، بينما اتخذ اللواء الميكانيكى اتجاهاً شمالياً غربياً نحو تل مسحرة. وفى ذلك اليوم، لاقت الدبابات العراقية مشقة فى مواجهة لواء « اور » (٧٩)، الذى اشتبك معها من مسافة ٣٠٠ ياردة فأصاب ١٧ دبابة وتعثرت القوة العراقية.

حلّ الليل، وأصبح من الواضح للانر أن القوة التى عرف بأنها عراقية سوف تقوم بهجوم مكثف كبير. وكان قائد اللواء ٢٠ قلقاً بسبب تأخر وصول إحدى كتائبه، فقام بإرسال أحد ضباط قيادة اللواء بعربة جيب للبحث عنها. وأثناء قيادته للسيارة فى الظلام، اصطدم بدبابة. وعندما توقف ليبلغ طاقم الدبابة بأنهم يسيرون فى الطريق الخاطىء، اكتشف – ويالهول ما اكتشف – أنه اصطدم بمركبة عراقية. وتراجع على عجل. (فى النهاية أمكن تخليص الكتيبة، التى كانت قد ضلت الطريق، بمساعدة المدفعية من وسط بين العراقيين الذين وصلوا حديثاً.) وعندما حل الظلام، أخذ «لانر» يتأهب للقتال. وانتشر اللواء على الطريق عند قدم تل شعار؛ وانتشر لواء «سارج» (١٧) جنوباً على الطريق بين لواء «اور» وناسج، بينما تمركز اللواء ٢٠ على طريق جبا – مسحرة. وهكذا أقام «لانر» «صندوقاً» يمتد من مسحرة إلى جبا إلى ما عص إلى ناسج، مع ترك فتحة بمسافة حوالى ٤٫٥ ميل بين مسحرة وناسج. كان موقفاً لا يحلم به قادة المدرعات.

كانت الليلة مقمرة ومشرقة عندما أبلغ نائب «لانر»، البريجادير جنرال «موشى بريل»، وضابط مخابراته (أبلغا لانر) بأن العراقيين يتقدمون نحو الفتحة الموجودة بين ناسج ومسحرة. لم يصدقهما «لانر» وذهب إلى نقطة المراقبة كى يتأكد بنفسه. وتحولت جميع مدافع وعربات الفرقة إلى الداخل نحو مركز الصندوق استعداداً لإطلاق النار على أى هدف متحرك. وفجأة توقف العراقيون. وعند التاسعة مساءا كان الصمت مطبقاً. فقد أثارت تقارير «لانر» جواً من التوتر والترقب، ومع مرور الوقت دون أن يحدث شىء، بدأت التعليقات المشككة تصدر عن ضباط أركان القيادة الشمالية. وكان «لانر» يشعر بعدم ارتياح، وفى تلك الأثناء، تم تدعيم الفرقة الثالثة / مدرعات العراقية بلوائها السادس، وفى الثالثة من صباح السبت ١٣ أكتوبر، قامت بهجوم فرقى على ميمنة صندوق «لانر». وعندما بدأت الفرقة العراقية التحرك نحو المصيدة، فتحت قوات « لانر » النيران. وبدأت أشعة الشمس الأولى تظهر ناحية الشرق عندما فتحت دبابات شيرمان التابعة للواء ١٩ نيرانها. كان مداها ٢٠٠ ياردة . واحتدم القتال

وانسحب العراقيون فى فوضى مخلفين وراءهم ٨٠ دبابة محطمة. ولم تصب دبابة اسرائيلية واحدة. وتحمل اللواء الثامن الميكانيكى العراقى القدر الأكبر من الخسائر فى أول معركة دبابات كبيرة يخوضها الجيش العراقى على الإطلاق. والحقيقة أن لواءا كاملاً تقريباً ضاع خلال دقائق معدودة. وتقدمت قوات «لانر» لتستولى على تل مسحرة وتل ناسج، بينما تولى المظليون تطهير التلال.

مع وصول القوة المدرعة العراقية أرض المعركة، أضيف إلى الفرقة الثالثة/ مدرعات فيما بعد فرقة أخرى. وقرر «هوفى» أن يحمى أجنابه بينما يقوم، فى الوقت، نفسه بتطوير المجهود المحلى لتحسين المواقع الاسرائيلية. وكان اللواء السابع منتشراً فى ذلك الحين على جبهة واسعة، يسيطر على التلال الواقعة شمال وجنوب ناسج ويقاتل لصد الهجمات المضادة ليلاً ونهاراً عند مزرعة بيت جن وتل شمس وتل المال، والتى استمرت حتى وقف إطلاق النار. وقد كشف الاستيلاء- فى إحدى المعارك - على أسلحة غربية، من بينها عربات أ . إم . إل الفرنسية الصنع، عن دخول القوات السعودية جبهة القتال والاشتراك فيه. وطوال تلك الفترة قام «ايتان» بغارات ليلية ناجحة بالمظليين ووحدات من لواء «جولانى»، ضد الدبابات، والمواقع وطرق الإمداد خلف خطوط العدو. ودمر لواء «جولانى» وحده مالا يقل عن ٢٠ من دبابات العدو خلال هذه الغارات، ويتبقى هنا أن نذكر أن «ايتان» كان واحداً من أبرز القادة الاسرائيليين الذين حافظوا على التقاليد التى ترسخت فى القوات الاسرائيلية على مدى الأعوام.

أصبحت قوات «لانر» منهكة تماماً. لكن اللواء ١٩ تمكن من الاستيلاء على اثنين من المرتفعات على درجة كبيرة من الأهمية التكتيكية والاستراتيجية - تل عنتر وتل العلاقية - ثبت أهميتها الحيوية فى استقرار الخط الاسرائيلى. وفى تلك الأثناء، بدأ الإحساس بنقص ذخيرة المدفعية عيار ١٥٥ مم، كما أفادت القوات بنقص ذخيرة الدبابات. وصدرت الأوامر بالتوقف والصمود.

فى الثلاثاء ١٦ أكتوبر، تعرضت فرقة « لانر » مرة أخرى للهجوم. فقد أُبلغت قواته بتقدم دبابات من طراز « سنتوريون »، وعندما رأوا المثلث الأحمر فوق الهوائى أدركوا أن تلك هى دبابات اللواء ٤٠ / مدرعات الأردنى، الذى دخل سوريا يوم ١٣. وكانت إحدى نكات التاريخ أن ينطلق لواء الأردن المدرع ذاك لإنقاذ سوريا من الخطر الذى يتعرض له جيشها وعاصمتها من جانب القوات الاسرائيلية، لأنه فى سبتمبر ١٩٧٠ حاول السوريون، أثناء الحرب الأهلية التى شهدها الأردن (عندما كان الملك حسين يقاتل من أجل البقاء فى شوارع عاصمته ضد المنظمات الارهابية الفلسطينية) «طعنه من الخلف» بدفع قوة مدرعة فرقية إلى الأردن، عند منطقة إربد - الرمثا. وقد قاتل اللواء ٤٠ / مدرعات بشجاعة أمام الغزو وصمد أمام القوات

السورية المتفوقة حتى نصحهم مستشاروهم السوفيت بالانسحاب، بعد أن أصبح هناك عدد من الدلائل فى المنطقة تشير إلى احتمال تدخل الأمريكيين والإسرائيليين.

حسب اعتراف الملك حسين، كانت الحرب مفاجئة بالنسبة له. وسرعان ما مورست عليه الضغوط من أجل دخول الحرب، لكنه كان على إدراك بانه، وإن كان يثبّت القوات الاسرائيلية على حدوده، إلا أن أى هجوم على اسرائيل نفسها سيجعل القوات الجوية الاسرائيلية بكاملها تغير على قواته المدرعة. فلديه خبرة كافية فى هذا الصدد منذ ١٩٦٧. وفوق ذلك، فقد كان صدره ينطوى على بعض الحنق على جارته العربية فى الشمال: إنه يتذكر تماماً كيف تحمل وحده عبء ذروة الهجوم الاسرائيلى المضاد فى ١٩٦٧، بينما وقف السوريون يتفرجون دون أن يهبوا لنجدته. ولكن مع تزايد ضغط ضباطه، قام حسين بتعبئة الاحتياط، وفى ١٣ أكتوبر عبر اللواء ٤٠/ مدرعات إلى سوريا عند درعاً، مخترقاً الخط بين القوات السورية والعراقية جنوبى الحدود الاسرائيلية. وتحرك الأردنيون نحو تل مسحرة ثم انحرفوا فجأة نحو الغرب عند تل المال. وحرك «سارج» لواءه لصعود منحدرات التل والانتظار حتى تقترب الدبابات الأردنية قبل فتح النار. وأصابت نيرانه ٢٨ دبابة، فانسحب اللواء الأردنى. هنا، وبطريقة غير منسقة، بدأ العراقيون التحرك من كفر شمس فى الشرق باتجاه تل عنتر وتل العلاقية. وتصدى اللواءان ٢٠ ، ١٩ للهجوم، بينما أمر «لانر» لواء «سارج» (١٧) بالتحرك فى جبهة واسعة وتطويق الانسحاب العراقى، مما أدى إلى اشتعال النار فى ٦٠ دبابة فى ميدان القتال.

لقد كان التنسيق فيما بين العرب خاطئاً. ففيما بين العاشرة والحادية عشر من كل صباح، كان العراقيون والأردنيون، يدعمهم الطيران السورى والعراقى، يقومون بهجوم مضاد على الجناح الجنوبى للحد الاسرائيلى. ونادراً ما نجحوا فى التنسيق والتوصل إلى لغة مشتركة: فى مناسبتين قام الأردنيون بالهجوم بينما فشل العراقيون فى اللحاق بهم؛ ولأكثر من مرة تسقط قذائف المدفعية العراقية المعاونة على الأردنيين أثناء تقدمهم أو انسحابهم؛ وفى عدد من الحالات، هاجم الطيران السورى وأسقط طائرات عراقية. وبشكل عام، فقد كان تحرك القوات العراقية بطيئاً وحذراً، وافتقدت قيادتها إلى الخيال وحاسة التمييز. (انعكس هذا السلوك المتردد، مرة أخرى، على ادائها عندما قام الجيش العراقى بغزو ايران عند منطقة شط العرب خلال الحرب العراقية – الإيرانية فى سبتمبر ١٩٨٠. فقد كانت قيادته مترددة وتحركاته بطيئة، وبرغم تفوقه الساحق فى العتاد جاء أداؤه مخيبا للآمال.)

فى ١٧ أكتوبر، حلت فرقة «بليد» محل فرقة «لانر» فى القطاع الجنوبى من الحد الاسرائيلى. وأصدر «هوفى» أوامره إلى بليد بالاستيلاء على أم باطنة، وهى قرية يحيط بها مرتفع حاكم، على بعد حوالى أربعة أميال إلى الشرق من القنيطرة، وتتحكم فى ثغرة القنيطرة. فقد كان من الضرورى توسيع الثغرة الإسرائيلية حتى الحد الذى تسيطر عليه

سوريا، والاستيلاء على أم باطنه يحقق عمقاً أكبر للجناح الجنوبي. وفوق ذلك، فإن الاستيلاء على هذه القرية يقدم عنصراً إضافياً لتأمين فتحة القنيطرة ويحقق السيطرة على طريق شمالى - جنوبى داخل نطاق الحدّ. وقامت وحدات من اللواء ٣١ / مظلات، التى كانت قد استولت بنجاح على تل شمس منذ ليال قليلة فقط، بالهجوم ليلاً والاستيلاء على القرية. ثم أصدرت القيادة الشمالية أوامرها بإخلاء المظليين وإحلال المشاة المدرع محلهم. وفى أثناء التبديل، اقتربت ثمانى دبابات سورية مجهزة للقتال الليلى وهاجمت مقر كتيبة المظلات. وأنقذ الموقف هجوم اسرائيلى مضاد، لكن بعد أن وقعت خسائر كبيرة بسبب الخطأ الفادح بدفع الاحتياط أثناء الهجوم وقبل الهجوم المضاد الحتمى من جانب العدو.

فى منطقة تل عنتر وتل العلاقية، تعرض اللواء ٢٠ من فرقة « بليد » لهجوم من كتيبة صاعقة عراقية صباح الجمعة. وبعد ذلك، وقع هجوم عراقى بقوة فرقة عبر السهل، بقوة تفوق الاسرائيليين بنسبة ١:٣ : مائة وثلاثون دبابة وما يزيد على المائة من حاملات الجنود المدرعة، تدعمها تجمعات المدفعية الثقيلة، تقدمت للهجوم على وحدات اللواء ٢٠. وقام «بليد» بنشر اللواء ١٩ على الجناح الغربى للواء ٢٠. فى كل صباح، كانت تنشب معركة شرسة مع محاولة العراقيين اليائسة لاستعادة هذين التلين المشرفين على اللجا الكبرى. ووقعت ثلاث هجمات كبيرة خلال معركة دامت لسبع ساعات. كان يوماً لا تتوقع فيه القيادة الشمالية أى عون جوى (كانت القوات الجوية الاسرائيلية بكاملها مكلفة بمهام على جبهة السويس حيث كان الجيش المصرى الثالث على وشك أن يعزل عزلا كاملا بفضل التدفق الاسرائيلى على مدينة السويس بالضفة الغربية للقناة). لكن القوات نجحت فى تعويض نقص القوة الجوية عن طريق الاستخدام العالى الفعالية لسدود النيران المدفعية المعاونة.

أثناء الهجوم العراقى الأول على اللواء ٢٠ تعرض اللواء ١٩ لنيران كثيفة، وانعدمت فاعليته. وبفضل المناورة المدرعة، نجح فى التخلص من الموقف واندفع فى تشكيل واسع نحو الجناح الجنوبى للهجوم العراقى. ونجحت هذه الحركة فى كسر هجومهم الأول فى وقت مبكر من الصباح. وفى العاشرة، عندما قام العراقيون بهجومهم الثانى، تحرك اللواء ٤٠ / مدرعات الأردنى خارج منطقة تل الحارة باتجاه الجناح الغربى لفرقة «بليد» عند تل المال وتل مسحرة. وتقدم الأردنيون فى تشكيل أوسع من تشكيل العراقيين نحو تل مسحرة، الذى كانت تسيطر عليه قوة اسرائيلية صغيرة من سرية دبابات يدعمها المشاة. ومن الواضح أن شيئاً ما خاطئا وقع على الجانب العربى: الهجمات الأردنية والعراقية غير منسقة، بينما كانت القوات الاسرائيلية متأهبة تماماً للاستفادة من هذا؛ كما جاء الهجوم الأردنى متأخراً هذه المرة. كانت أوامر «بليد» تقضى بأن تقوم القوة الموجودة على تل مسحرة، والغير مدعمة، بالتصدى للقوة الأردنية المهاجمة، بالسماح لها بالتقدم حتى تصبح فى مدى قريب. على أن تقوم وحدة

الاستطلاع الموجودة غربى تل أم باطنه بالهجوم على ميسرة القوة الأردنية بمجرد اشتباكها مع القوة الاسرائيلية فى تل مسحرة. وتقدم الأردنيون ببطء، وقضوا ما يزيد على الساعة فى الوصول إلى هدفهم. وقد مكن هذا المدفعية من تركيز نيرانها بالكامل على هجوم القوة العراقية التى جاءت لمناوشة اللواء ٢٠. (فى تلك الأثناء، طلعت الشمس، ولم تكن تضايق بحال القوات الاسرائيلية). وعند الظهر، وصلت القوات الأردنية إلى تل مسحرة وبدأت فى صعود التل. واشتبكت القوة الاسرائيلية التى تسيطر على التل معها، ودمرت عناصر القيادة. وهنا، قامت وحدة الاستطلاع بهجومها على الجناح الأردنى. وترك الأردنيون حوالى ١٢ دبابة مشتعلة فوق التل وبدأوا الانسحاب، وظلت القوات الاسرائيلية تتعقبهم حتى الثالثة مساءً. وقد بلغ إجمالى الخسائر الأردنية من المدرعات فى ذلك اليوم حوالى ٢٠ دبابة.

فى تلك الأثناء، بدأ الهجوم العراقى الثالث والأخير حيث تدافعت بإصرار الموجة تلو الموجة من المدرعات على اللواء ٢٠. وتكبد الاسرائيليون خسائر كبيرة خلال النهار، وبدأ قائد اللواء يشعر بخطورة الموقف. وعند منتصف المعركة، قام بتشكيل احتياطى من ثلاث دبابات وضعها عند المؤخرة. وتقدم العراقيون، يصعدون التل فى مواجهة القوات الاسرائيلية المستنزفة وقذائف دباباتهم تنطلق فى بعض الأحيان من مسافة خمس ياردات. وأخذت الدبابات العراقية تنتشر بين الدبابات الاسرائيلية المدافعة، ومع تأرجح القتال فوق التلين أصبح الموقف حرجاً. وهنا، أمر قائد اللواء ٢٠ احتياطيه، المؤلف من الدبابات الثلاث، بالتحرك عبر السهل بفواصل كبيرة، والقيام بحركة تطويق إلى الشمال ومهاجمة القوات العراقية عند جناحها الشمالى. واندفعت الدبابات وجاءت من الشمال - الذى كان العراقيون يعتقدون أن القوات السورية تحميه - لتباغت القوات العراقية. وأفقد الظهور المفاجئ للقوة العراقيين توازنهم، وفى آخر اللحظات وأكثرها حرجاً استداروا وانسحبوا. وعلى السهل ومنحدرات تل عنتر وتل العلاقية، تناثرت حوالى ٦٠ دبابة عراقية مشتعلة، وحوالى العدد نفسه من حاملات الجنود المدرعة، وطوابير من المشاة القتلى، وتحددت بوضوح مسارات الهجمات الرئيسية الثلاث. وبرغم تواصل الهجمات العربية المضادة يومياً على الحدّ الاسرائيلى حتى وقف إطلاق النار، إلا أن تلك المعارك كانت هى آخر معارك المدرعات التى شهدتها الجبهة الشمالية.

استعادة جبل حرمون

فى ليلة ٢٠ أكتوبر، أصدر «هوفى» أوامره إلى وحدات من لواء مظلى اسرائيلى ووحدات لواء «جولانى» باستعادة الموقع الاسرائيلى بجبل حرمون. وقد تحددت الأوامر للمظليين، الذين كان عليهم أن يهاجموا من مرتفعات حرمون فنازل، بالاستيلاء على المواقع السورية، بينما كانت مهمة وحدات «جولانى»، التى صدرت إليها الأوامر بالتحرك من أسفل إلى أعلى، هى

التوجه إلى الموقع الاسرائيلى الذى سقط عند اندلاع الحرب. وفى الثانية من مساء ٢١ أكتوبر، تحركت قوات المظلات بالهليكوبتر تغطيها المقاتلات. وتولت إحدى الكتائب، بقيادة الليفتنانت كولونيل «هيزى»، تأمين منطقة هبوط الهليكوبتر وتطهير المنطقة لمسافة ميل من الموقع السورى، الذى أوكلت مهمة الاستيلاء عليه إلى كتيبة الليفتنانت كولونيل «اليشع». وبعد مباغتة السوريين، عند بداية الظهيرة، بهجوم غير متوقع يدعمه الطيران والمدفعية الاسرائيلية، كان على القوة المتقدمة بقيادة «هيزى» أن تتقدم لحوالى خمسة أميال على قمة جبل حرمون (ارتفاعها ٨٢٠٠ قدم) فى ظل تدخل المدفعية السورية. واقتربت ثلاث طائرات هليكوبتر سورية، لكن المدفعية تعرضت لها وتحطمت جميعها على جانب التل. ودفع السوريون بطيرانهم، وكانت قوة «هيزى» الأمامية ترى المعارك الجوية وهى تدور أسفلها. وعند حلول الظلام، قامت كتيبة بالهجوم على الموقع السورى المعروف باسم «الثعبانى»: قُتل الضابط الذى كان يقود الهجوم، لكن جنود الصاعقة السوريين تركوا الموقع وفروا، مخلفين وراءهم سبعة من القتلى. وواصل «هيزى» القصف حتى وصل إلى موقع سورى آخر. وفى طريقه صادف تكوينا صخريا ظلت قوته تقصفه دون توقف. واكتشف أخيراً أن هذا الموقع، الذى كان مقر القيادة السورية فوق حرمون، قد تلقى إصابة مباشرة من المدفعية الاسرائيلية. وكان هناك ١٢ من القتلى السوريين بالداخل، الأمر الذى يمكن أن يفسرالأداء الفقير نسبياً للصاعقة السورية فى الدفاع عن حرمون. وتحركت كتيبة «اليشع» بمساعدة المدفعية وهاجمت الموقع السورى الرئيسى، الذى وجدته خالياً. وعند الثالثة والنصف من صباح ٢٢ أكتوبر، أصبح الجزء السورى من جبل حرمون بأيدى المظليين الذين لم يفقدوا سوى جندى واحد. وأعد «اليشع» قوته للتحرك نحو الموقع الاسرائيلى فوق حرمون فى حال صدور الأمر له بذلك من القيادة الشمالية.

فى تلك الأثناء، كانت قوات «جولانى» تتحرك على ثلاث طرق، تتقدم كما كان شأنها أثناء الهجوم المضاد غير المثمر فى بداية الحرب. كانوا يتقدمون على الطريق الرئيسى بخمس دبابات. وعندما وصلت القوة إلى المنطقة التى انكسر عندها هجومها فى السابع من أكتوبر، اصطدمت بقوات التغطية السورية التى كانت تراقب تقدمها. وفى الفتحات وخلف الصخور بالجانب الصخرى للتل، انتشرت قوة كبيرة نسبياً من صاعقة العدو، يزيد حجمها على كتيبة، كل واحد من جنودها مزود بمنظار للقتال النهارى والليلى، بينما انتشرت الصواريخ المضادة للدبابات لمنع تقدم دبابات الدعم الاسرائيلية، وتمكن السوريون الذين تعذر تمييزهم فى الظلام من اصطياد الجنود الاسرائيليين الواحد وراء الآخر. وقد جرح قائد اللواء الاسرائيلى وأحد قادة كتائبه الذى كان يقود مجموعة المقدمة. وتبددت اثنتان من سرايا «جولانى» وصدرت الأوامر إلى المظليين ببدء التحرك لأسفل، لكن قوات «جولانى» التى كانت تحارب ببسالة بدون

قوادها وفى موقف شديد الحرج، أتمت مهمتها دون عون خارجي. فعندما أصبح الموقف حالكاً وميئوساً منه، تولى ضابط عمليات اللواء القيادة، وتحت النيران الكثيفة نجح فى تجميع قوته المنكسرة، وقاد بنفسه الهجوم اليائس الأخير. وانكسر السوريون، وبدأوا يخرجون من الفتحات ومن خلف الصخور، الواحد وراء الآخر. وعند العاشرة من صباح ٢٢ أكتوبر، عاد جبل حرمون مرة أخرى إلى أيدى الاسرائيليين. وقد كلف هذا الهجوم وحده لواء «جولانى» ٥١ قتيلا ومائة جريح. وبعد ذلك بأيام، قصّ رقيب شاب يتحدث بلهجة شرقية ثقيلة قصة المعركة فى التليفزيون الاسرائيلى بلهجة تقريرية: «لقد أبلغنا أن جبل حرمون هو عين دولة اسرائيل، وأدركنا أن علينا أن نأخذه بأى ثمن».

فى مساء ٢٢ أكتوبر، قبل السوريون وقف إطلاق النار الذى اقترحه مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. وكانوا قد فقدوا، خلال المعركة، ١١٥٠ دبابة بالإضافة إلى ما يزيد على ١٠٠ دبابة عراقية، وحوالى ١٥٠ أردنية. وفوق مرتفعات الجولان وحدها، استولى الاسرائيليون على ٨٦٧ دبابة سورية (المهم فى الأمرأن كثيرا منها كان بحالة جيدة) كما سقط ١٣٧٠ أسير سورى بأيدى الاسرائيليين، ويقدر عدد القتلى بين صفوفهم بحوالى ٣٥٠٠ جندى.

على الجانب الاسرائيلى، أصيبت دبابات فى مرحلة أو أخرى من مراحل القتال، لكن رجال الصيانة، بقدراتهم وشجاعتهم الفائقة، كانوا يتنقلون أثناء القتال ويقومون بإصلاح تلك الدبابات وسط النيران. وقد أصيبت حوالى ٢٥٠ دبابة اسرائيلية، منها ١٠٠ إصابات قاتلة، بينما أمكن إصلاح الباقى. وبلغت الخسائر الاسرائيلية حوالى ٧٧٢ قتيلا و ٢٤٥٣ جريحا و ٦٥ أسيرا، بينهم طياران. وبصمته المعهود ورزانته، قاد الجنرال «هوفى» قوات القيادة *الشمالية* نحو نصر باهر فى معركة دارت منذ بدايتها وسط ظروف معاكسة. وقاد طاقمه من القادة الفرقيين بصورة حازمة وفعالة. ويعكس غياب الجدل والاتهامات المتبادلة حول حملة الجولان نجاح قيادتها. لقد خاض جيش الدفاع الاسرائيلى معركة كشفت – ربما أكثر من أى معركة أخرى – القدرات الحقيقية للقوات الاسرائيلية والشعب الاسرائيلى

٣

الحرب الجوية والبحرية

صواريخ سام فى مواجهة «المدفعية الطائرة»

على عكس الحروب الأخرى التى خاضها جيش الدفاع الاسرائيلى، كانت المعارك الجوية والبحرية التى شهدتها حرب يوم كيبور انعكاسا، بصورة أو بأخرى، للتطورات الجديدة فى المجالات التكنولوجية والتكتيكية التى حدثت نتيجة لدخول أنواع جديدة من الطائرات و - قبل كل شىء - دخول الصواريخ إلى ميدان المعركة. وكانت القوات الجوية المصرية، فى تخطيطها لحرب جوية مستقبلية، متأثرة بشدة بصدمة الساعات الثلاث من صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧، عندما فاجأ الطيران الاسرائيلى القوات الجوية المتأهبة للهجوم على اسرائيل جميعها، وخاصة الطيران المصرى. أما العامل الهام الثانى الذى كان يوجه الاستراتيجية المصرية فهو سيادة التفكير السوفيتى على الفكر العسكرى المصرى والتخطيط، منذ أن أصبح الاتحاد السوفيتى المصدر الرئيسى لتسليح مصر. فقد سافرت أعداد كبيرة من الطيارين والضباط المصريين للتدريب فى الاتحاد السوفيتى. وشيئاً فشيئاً، مع مرور الأعوام، تشرب المصريون والسوريون العقيدة السوفيتية. وعند التخطيط للحرب، كانت المشكلة الجوية من أكبر المشكلات التى سيطرت على تفكير المخططين المصريين. فقد أدركوا أن عليهم أن يجدوا حلاً فعالاً للتفوق الجوى الاسرائيلى، وإلا فلن يمكنهم دخول الحرب. ولهذا الغرض، فقد كان من الضرورى تغطية خط جبهتهم بطريقة تحدّ من فعالية التدخل الجوى الاسرائيلى، أو إلغائه، فى المراحل الأولية من الهجوم، وتحقيق تفوق عربى مدفعى وحشد القوات المدرعة بالكامل عند نقطة الهجوم.

ولهذا الغرض، توصل السوفيت بالتدريج، خلال حرب الاستنزاف وما بعدها، إلى نظام دفاعى ببطاريات صواريخ أرض - جو على قناة السويس. ويشترط هذا توفير «خليط» من بطاريات سام٢ وسام ٣ وسام ٦. وعند اندلاع القتال، كان هناك على الجانب المصرى ١٥٠

بطارية من صواريخ سام٢ وسام٣ (مع ست منصات إطلاق لكل بطارية) وسام٦ (مع ١٢ صاروخ لكل بطارية، جاهزة لمهاجمة أربع دبابات). ومن بين الـ ١٥٠ بطارية، هناك حوالى ٥٠ منها منصوبة على جبهة قناة السويس. ويدخل سام٦ المتحرك، الذى يبلغ مداه المؤثر حوالى ٢٤ ألف ياردة، ضمن نظام أشمل يضم سام٢ الثابت نسبياً (مداه ٥٥ ألف ياردة) وسام٣ الأكثر حركية (مداه ٣٣ ألف ياردة). ولكل من هذه الأسلحة نظام توجيه اليكترونى مختلف، ساهمت فى تعقيد الإجراءات الألكترونية المضادة. وتكمن الميزة الرئيسية لسام٦ فى حركيته: ويُحمل على شاسيه دبابة، ويمكنه أن يتحرك سريعاً للعمل، ولا يحتاج إلا إلى دقائق فقط لتحميله قبل نقله إلى موقع تبادلى، ثم يحتاج إلى وقت قصير آخر ليكون جاهزاً للعمل مرة أخرى. ولاكتشاف قاذف سام٦، فمن الضرورى أن تدخل الطائرة فى مدى سام٢. وإذا ما أضفنا إلى ذلك النظام الشديد التشابك للمئات من سام٧ قواذف صواريخ ستريلا* المحمولة على الكتف والمنظمة فى فصائل ضمن القوات الأرضية – مع الأسلحة المضادة التقليدية (وخاصة الـ ٢٢ يو.إس.زد. المتعدد المواسير)، فسوف تختفى الدهشة من ثقة المصريين ومستشاريهم السوفيت فى توفير حماية جيدة لقواتهم من حيث الدفاع المضاد للطائرات.

كانت المشكلة الثانية التى واجهت القيادة المصرية عند الإعداد للحرب هى القدرة الاسرائيلية على مهاجمة أهداف فى عمق مصر وسوريا، دون ردع كاف، لأنه كان هناك شعور بأن القوات الجوية المصرية والسورية ليست ندّا للطيارين الاسرائيليين، فى حال عمل الطيران الاسرائيلى خارج مدى شبكات الصواريخ أرض – جو. وقد قدم الروس حلاً لهذه المشكلة. فقد أعطوا سوريا صواريخ «فروج» للمعاونة الميدانية، والذى يصل مداه إلى ٥٥ ميل، وهو مدى كاف لضرب التجمعات السكانية داخل اسرائيل. وفى مارس ١٩٧٣، وبعد زيارة وفد سوفيتى عالى المستوى للقاهرة، بدأ الاتحاد السوفيتى فى شحن صواريخ «سكود» أرض – أرض للمعاونة الميدانية إلى الجيش المصرى. وهو نوع من الصواريخ قادر على حمل رؤوس شديدة الانفجار أو رؤوس نووية، ويصل مداه إلى ١٨٠ ميل، مما يمكنه من إصابة التجمعات السكانية داخل اسرائيل من الأراضى المصرية. واعتقد الرئيس السادات أن ذلك سوف يزيل العقبة القائمة بسبب غياب القوة القاذفة متوسطة المدى، وهو صادق فى قوله بأنه اتخذ القرار النهائى بالحرب فى ابريل ١٩٧٣، أى بعد أن وصلت الصواريخ الأولى من «سكود» إلى الأراضى المصرية.

فى ١٣ سبتمبر ١٩٧٣، اشتبكت داورية جوية اسرائيلية روتينية فوق الساحل السورى، عند منطقة اللاذقية، مع وحدات جوية سورية. وخلال المعارك التى نشبت، أسقطت القوة

الإسرائيلية ١٣ طائرة سورية فى مقابل طائرة اسرائيلية واحدة. وأدرك الجنرال «بنيامين بليد»، قائد الجوية الاسرائيلية، أن نتيجة كهذه لابد وأن يعقبها إجراء انتقامى سورى، قد يأخذ شكل قصفى مدفعى واسع النطاق على سبيل المثال. وكان رأى «بليد»، فى حالة كهذه، أن المشكلة تكمن فى وجود أكثر من ٣٠ بطارية سام٦ إس أرض - جو سورية، وهى مشكلة خطيرة. وعندما وضعت القوات الجوية الاسرائيلية، يوم ٥ أكتوبر، فى درجة تأهب عالية وحشدت فعاليتها القتالية بالكامل، أمر «بليد» مخططيه بإعداد ضربة إجهاض. ونذكرّ هنا بأن الحكومة الاسرائيلية رفضت هذه الفكرة فى ٦ أكتوبر. كان الجنرال «بليد» أول قائد لسلاح الطيران الاسرائيلى أُعد إعداد كاملاً فى اسرائيل. وعندما كان طياراً مقاتلاً، أسقطته الدفاعات الأرضية عند شرم الشيخ أثناء حملة ١٩٥٦، وأفلت من الأسر عندما انتزعته طائرة «بايبركب» اسرائيلية من بين يدى آسريه. وقد أثبت مكانته فى الحرب كقائد بارز لقوة منتقاة. وهدوءه الواثق المتزن وعقله البارد يبث الثقة فى المحيطين به. ولم يقلل، فى أى وقت من الأوقات، من قيمة مخالفيه فى الرأى ، بل إنه يقلل من تقديره للقوة التى يقودها. عندما اعتزل العمل بالقوات الجوية بعد ذلك بسنوات، تولى رئاسة مؤسسة متخصصة فى الالكترونيات المتقدمة. وفى أحاديثه العامة، أصبح معروفاً بازدرائه الذى لا يخفيه لنمط الديمقراطية فى اسرائيل، ويمكن اعتبار آرائه رجعية متطرفة.

فى مواجهة القوات الجوية الإسرائيلية التى تتألف مقاتلاتها بالأساس من طائرات «سكاى هوك» و« فانتوم ٤أ» و« الميراج» الفرنسية، كان تسليح القوات الجوية المصرية والسورية يتألف بالأساس من «ميج ٢١ » و«ميج ١٩» و«ميج ١٧». وكانت النسبة حوالى ١:٣ لصالح القوات الجوية العربية، حيث تبلغ القوة الجوية المصرية والسورية وحدها حوالى ٩٠٠ مقاتلة، مقابل حوالى ٣٥٠ مقاتلة اسرائيلية.

بدأ الهجوم الرئيسى للقوات الجوية المصرية، التى كان يقودها الجنرال «حسنى مبارك»، يوم ٦ أكتوبر. والجنرال «مبارك» قوى البنية، هادىء، طيار قاذف يتميز بالصرامة. تدرج فى مناصب القوات الجوية، وأبدى كفاءة كبيرة أثناء عمله. سافر إلى الاتحاد السوفيتى مرتين للتدريب على الطيران والقيادة. وبعد حرب ١٩٧٣، اختاره الرئيس السادات نائباً له، وبعد اغتيال السادات فى ١٩٨١، أصبح رئيساً لمصر.

---

* تعرف كذلك باسم «الحيّة» (المترجم).

لم تكن الهجمات الجوية المصرية موجهة بشكل خاص ضد التشكيلات الاسرائيلية، وإنما تركزت أكثر على المطارات ومحطات الرادار ومقار القيادات والمعسكرات بسيناء، وكلها قريبة نسبياً من خط الجبهة. (كان العمق الطبيعى لاختراقها يقع غربى خط يمر ببلوظة ورفيديم والطاسة وممر متلاً.) ومن ناحية أخرى، تركزت الهجمات السورية على القوات الاسرائيلية المقاتلة. وكان الاختراق المحدود للغاية من جانب القوات العربية مقيداً، مع بعض الاستثناءات. وكانت أعمق الاختراقات هى تلك المحاولة المتأخرة التى قامت بها ست طائرات «ميراج» مصرية (قدمها الفرنسيون إلى الليبيين) لمهاجمة منطقة العريش، بعد طيرانها فوق البحر؛ وقد سقطت ثلاث من هذه الطائرات فوق البحر. كما كانت هناك محاولات أخرى، منها فشل قاذفتين من طراز «توبيليف تى.يو ١٦» فى مهمتها للوصول إلى ايلات، وتحطم إحداها بالقرب من أبو رديس؛ ومحاولة طائرتين سوريتين من طراز «سوخوى إس. يو ٢٠ إس» قصف ميناء حيفا، وتحطم إحداهما فوق نهارياً بينما فرت الثانية عائدة إلى سوريا. وكانت المحاولة السورية الثانية للاختراق فى العمق بأربع طائرات «سوخوى»، تحطم ثلاث منها فوق منطقة جبل ميرون بالجليل الأعلى. وحاول المصريون تعويض فشلهم فى قصف العمق بإطلاق صواريخ «كلت» جو – أرض البعيدة المدى من فوق الأراضى المصرية. (كانت تلك الصواريخ تطلق بشكل عام من العمق المصرى.) وقد وُجه أحد تلك الصواريخ إلى تل أبيب ظهر يوم ٦ أكتوبر، وأصيب فى الجو بواسطة أحد الطيارين الاسرائيليين أثناء قيامه بأعمال الداورية؛ ومن بين ٢٥ صاروخ «كلت» أطلقت على أهداف اسرائيلية، أُسقط ٢٠ صاروخ بواسطة القوات الجوية الاسرائيلية ونجح اثنان منها فقط فى إحداث أضرار.

كان التخطيط الجوى الإسرائيلى يرتكز بالأساس على أن العمليات الابتدائية للقوة الجوية هى عبارة عن هجوم شامل على شبكات الصواريخ لتحرير القوة الجوية، حتى تتمكن بعد ذلك من دعم المجهود الأرضى. لكن المبادأة المصرية والسورية، والطبيعة الشاملة للهجوم وتأثيرها على القوات الأرضية الاسرائيلية، والمعركة الباسلة التى خاضتها القوات الاسرائيلية على القناة ومرتفعات الجولان، كان لكل ذلك أثره فى منع الطيران الإسرائيلى من الهجوم، كما كان مخططاً، واضطر أن يقلع عن الحذر وتقديم المعاونة اللصيقة للقوات الأرضية الواقعة تحت الضغط، دون التعامل بما يكفى مع خطر الصواريخ من أجل تحقيق السيادة الجوية الكاملة. ولهذا، فقد كانت الخسائر كبيرة نسبيا. وعندما ازداد تدهور موقف القوات الأرضية الإسرائيلية خلال اليومين الأولين من القتال، أُلقى بالقوات الجوية الإسرائيلية فى المعركة ضد

عتاد غير متوقع، وتكبدت خسائر فادحة للغاية. وبعد ثلاثة أيام من القتال، أبلغ الجنرال «دايان» رؤساء تحرير الصحف الاسرائيلية بفقد حوالى ٥٠ طائرة مقاتلة. وبرغم الخسائر الكبيرة، إلا أن القوات الجوية الاسرائيلية واصلت هجماتها. وبينما كانت القوات الأرضية الاسرائيلية تتقدم نحو سوريا، نجح الطيران الاسرائيلى فى تدمير جزء من شبكة الصواريخ وبدأ يتوغل طولاً وعرضاً، يهاجم اهدافاً استراتيجية (منشآت نفطية ومحطات طاقة وكبارى) محدثاً أضراراً بالغة بالمرافق السورية. وبالمقابل تصدى الطيارون السوريون، وفقدت سوريا خلال الحرب ٢٢٢ طائرة، منها ١٦٢ خلال اشتباكات جوية.

على الجبهة المصرية، شن الطيران الاسرائيلى غارات على مواقع الصواريخ ومطارات العدو وقدم، فوق كل ذلك، المعاونة اللصيقة عندما كانت القوات المصرية تبتعد عن مظلة الصواريخ، كما فى حالة اللواء المصرى الذى تقدم باتجاه أبو رديس على الجناح الجنوبى المصرى، أثناء معركة الدبابات الكبيرة التى دارت رحاها يوم ١٤ أكتوبر، حيث كانت القوات الجوية الاسرائيلية عنصراً هاماً فى تدمير القوات المصرية المهاجمة. واعتباراً من ١٨ أكتوبر، عندما أدركت القيادة المصرية أخيراً دلالة العبور الاسرائيلى إلى الضفة الغربية لقناة السويس، أبدت القوات الجوية المصرية مزيداً من الإقدام والتصميم فى هجماتها. ورأينا مرة أخرى المواجهات الجوية التى تذكر بالحرب العالمية الثانية، حيث كان يصل عدد الطائرات فى الجو إلى ٤٠ -٥٠ طائرة فى بعض الأحيان. لكن الاسرائيليين احتفظوا بالسيطرة المطلقة على الجو. والحقيقة أن المصريين نجحوا فى إسقاط خمس طائرات اسرائيلية فى اشتباكات جوية، طوال فترة الحرب، مقابل فقدانهم لـ ١٧٢ طائرة بالطريقة نفسها، ليصبح مجموع الطائرات العربية التى سقطت خلال اشتباكات جوية ٣٣٤ طائرة مقابل خمس طائرات اسرائيلية.

شهدت الضفة الغربية لقناة السويس مثالاً غير عادى للتنسيق المتبادل بين القوات الأرضية المتقدمة والطيران الاسرائيلى. فعندما نجحت القوات المدرعة على الضفة الغربية للقناة فى تدمير بطاريات الصواريخ أرض - جو الواحدة تلو الأخرى، تحررت الذراع الجوية الإسرائيلية وأصبحت عاملاً حاسماً فى دعم القوات المتقدمة. لكن القوات الجوية الاسرائيلية تعاملت مباشرة مع بطاريات الصواريخ حسب الخطة عقب الهجوم الاستهلالى للقوات الأرضية المصرية، خاصة فى بور سعيد التى كانت منذ ٣١ أكتوبر بدون دفاعات صاروخية، وظلت كذلك حتى نهاية الحرب. وبحلول ١٤ أكتوبر، كانت الغارات الجوية الاسرائيلية على تسع من بطاريات الصواريخ فى منطقة القنطرة قد نجحت فى تطهير تلك المنطقة من الصواريخ. واعتباراً من ١٢ أكتوبر، أصبحت معظم منطقة الجيش الثانى المصرى وكل منطقة الجيش

الثالث على الضفة الشرقية من القناة ومنطقة خليج السويس حتى رأس الأدبية، خالية تماماً من الصواريخ .

لعبت القوات الجوية الاسرائيلية دوراً كبيراً فى حماية منطقة شرم الشيخ وذلك بإعاقة وصول قوات الصاعقة المحمولة بالهليكوبتر. وفوق ذلك، فقد ظلت السماء فوق بقية أجزاء اسرائيل «نظيفة» طوال فترة الحرب: لم تسقط قنبلة واحدة فوق اسرائيل، ولم تمس أى من المرافق الجوية، كما كان للاحتفاظ بالسيادة الجوية تضمينات استراتيچية كبرى، فقد أوضح الملك حسين لنظرائه العرب أن إحجامه عن دفع قواته إلى الأراضى الاسرائيلية يعود إلى سيطرة اسرائيل على أجواء ميدان المعركة المحتمل.

بلغ إجمالى الخسائر المصرية والسورية فى الحرب ٤١٥ طائرة، منها حوالى ٨٥ طائرة أسقطتها قواتهم نفسها، وبلغت الخسائر الاسرائيلية ١٠٢ طائرة، سقط ٥٠ منها خلال الأيام الثلاثة الأولى من القتال، حسب مايذكر «ديان» وزير الدفاع، وسقط الجزء الأكبر من الطائرات الاسرائيلية بواسطة الصواريخ ونيران الأسلحة التقليدية المضادة للطائرات، وخاصة أثناء عمليات المعاونةاللصيقة. لقد كانت الحرب مجالاً طيباً لاستخلاص الدروس. فبرغم الطريقة التى أدت بها القوات الجوية الاسرائيلية فى مواجهة الصواريخ، فلاشك أن من الضرورى إعادة النظر فى المفاهيم المستقرة حول الحرب الجوية. لقد تغير دور الطيران فى الحرب، وأصبحت هناك استراتيچيات واستخدامات جديدة للقوة الجوية، فمن الواضح أن الجيل الجديد من الأسلحة بعيدة المدى التى تطلق من الجو، والصواريخ التكتيكية أرض- أرض، التى يمكنها الانطلاق من خارج مرمى العدو، قد غيرت كثيراً من ظروف ميدان المعركة بينما أصبحت الصواريخ أرض- جو تعتمد أكثر فأكثر على تلك المنصات العالية الحركية، مثل سام ٦س، ولم يعد للقوة الجوية إلى حد ما، أثرها السابق، ومن الآن فصاعداً فإن تأثيرها الفورى على ميدان المعركة سوف يقل. ويعنى تزايد قواذف الصواريخ الخفيفة المحمولة على خطوط الجبهة أن المعاونة اللصيقة سوف تصبح فى المستقبل عملاً استثنائياً، لأن القوة الجوية سوف تضطر إلى التركيز على عزل ميدان المعركة، وتحقيق السيادة الجوية، وتدمير القوات الموجودة بميدان القتال والقريبة منه، وسوف يشهد المستقبل تركيزاً كبيراً على استخدام القوة الجوية فى حماية الجبهة الداخلية، إضافة إلى الغارات على شبكات الصواريخ التى تهدد الجبهة الداخلية وميدان المعركة.

الصواريخ فى البحر

نشبت الحرب والقوة البحرية المصرية الرئيسية منتشرة بالبحر المتوسط. وكانت تتألف من ١٢ قارب صواريخ من طراز «اوزا»، وعشر غواصات، وستة من زوارق الطوربيد المتطورة و٢٠ زورق طوربيد نظامى، بالإضافة إلى ثلاث مدمرات وفرقاطتين، وكاسحات ألغام، وزوارق داورية و١١ صندل إنزال طراز «إل.سى.تى». أما سوريا، فكان لديها حوالى تسعة زوارق صواريخ (ثلاثة طراز «اوزا» وستة من طراز «كومر»)، و١١ زورق طوربيد، وكاسحتا ألغام.

فى ليلة ٦/٧ أكتوبر، خرجت خمسة زوارق صواريخ اسرائيلية للقيام بأعمال الداورية على الساحل السورى، على مسافة حوالى ٢٠٠ ميل من قاعدتها. وفى الساعة ٢٨ر١٠، وبينما كانت القوة البحرية الاسرائيلية تتحرك شمالاً مخلفة وراءها الساحل اللبنانى، بمحاذاة الساحل السورى المواجه لقبرص، رصدت زورق طوربيد سورى باتجاه الشمال. فأبطأ الاسرائيليون من سرعتهم، ثم استداروا سريعاً وانسحبوا شرقاً نحو الساحل السورى. وفتحت النيران، وغرق خلال المعركة التى دارت زورق طوربيد سورى . وانقسمت القوة الاسرائيلية إلى قوتين متوازيتين واندفعتا شرقاً نحو الساحل السورى عند اللاذقية. وكانت القوة الجنوبية منهما تضم قطعة من طراز «رشيف» (أول قطعة بحرية اسرائيلية تصميماً وتصنيعاً تشترك فى القتال). وعندما اقتربت القوة من الساحل شوهدت كاسحة ألغام، اشتبكت معها «رشيف» بنيران الصواريخ وأغرقتها. لكن القوة لاحظت وجود قوة سورية من ثلاث زوارق صواريخ تنتظر إلى الجنوب من كاسحة الألغام - كان زورق الطوربيد محطة إنذار، والكاسحة بمثابة شرك، بينما انتشرت القوة السورية لتنقض على القطع الاسرائيلية من الجنب أثناء اشتباكها مع الكاسحة. واستدار الاسرائيليون إلى الجنوب ودخلوا فى معركة مع زوارق الصواريخ، التى أطلقت وابلا من نيران الصواريخ عند اقترابها. وأبحرت القوة الاسرائيلية فى طوابير متوازية باتجاه الجنوب حتى وجدت القوة السورية نفسها مطوقة وسط القوة الاسرائيلية. وفى الساعة ٢٥ر١١، تواصلت المعركة. وأطلق الجانبان وابلا من الصواريخ، وخلال ٢٥ دقيقة غرقت القطع السورية الثلاث. وكانت معركة اللاذقية أول معركة صواريخ بحرية فى التاريخ، وقد كسبتها البحرية الاسرائيلية دون خسائر.

واصلت البحرية الاسرائيلية أعمالها الهجومية بإصرار وعناد، مقتربة الليلة تلو الأخرى من السواحل السورية والمصرية، مجبرة البلدين على حشد قوات كبيرة نسبياً من المدرعات والمدفعية على سواحلهما. (تم نشر لواء مدرع كامل لحماية الساحل السورى).

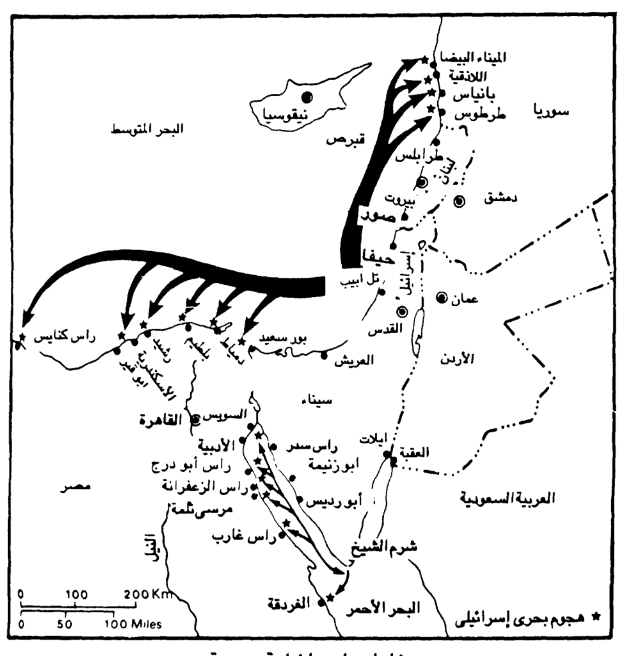
وكانت ثانى المعارك البحرية من حيث الأهمية هى تلك التى دارت عند دمياط - بلطيم أمام

الساحل المصرى فى البحر المتوسط، ليلة ٩/٨ أكتوبر. فقد اقتربت قوة بحرية من ستة زوارق من الساحل المصرى لقصف المنشآت العسكرية والدفاعات الساحلية بمنطقة دمياط. وعند منتصف الليلة تماماً، اشتبكت قوة مصرية من أربعة زوارق صواريخ مع الاسرائيليين بنيران الصواريخ. وتحركت القوة الاسرائيلية، التى كانت لاتزال خارج المرمى، بأقصى سرعة وعندما لاحظ المصريون اقتراب الاسرائيليين غير مبالين بنيران الصواريخ، أخذوا ينسحبون. وصوبت الزوارق الاسرائيلية صواريخها، وفى خلال أربعين دقيقة غرقت ثلاث زوارق مصرية بينما اختفى الرابع خارج المرمى.

وواصلت القوات الاسرائيلية إزعاجها للقوات البحرية والسواحل المصرية والسورية دون توقف. وكان لشدة الهجمات الاسرائيلية وضراوتها أثرها على البحريتين المصرية والسورية. وفى الوقت الذى تصاعد فيه الضغط الاسرائيلى، احتشدت البحريات العربية حول مرافئها دون الخروج إلى البحار المفتوحة، تطلق صواريخها من هناك بينما تعتمد فى الحماية على التجمعات الكثيفة من المدفعية الساحلية المدعومة بالمدرعات على طول الساحل. وكان المصريون قد أعدوا اسطولاً كبيراً من السفن الصغيرة بالمراسى وموانىء الصيد على خليج السويس، تقوم بنقل القوات والمؤن عبر الخليج إلى القوات المصرية المتقدمة. وفى الليلة الأولى من الحرب، رصد الإسرائيليون تجمعاً للقوارب بمرفأ «مرسى ثلمة»، جنوبى رأس الزعفرانة. وهاجم الاسرائيليون وأحدثوا حالة من الفوضى، وارتبكت العملية المصرية قبل أن تبدأ.

فى عدد من الحالات، هاجم المصريون الجزء الذى تسيطر عليه اسرائيل من ساحل سيناء، لكن الضغط الاسرائيلى جعل للبحرية الاسرائيلية السيطرة الكاملة على خليج السويس خلال أيام قليلة. وفى ٩/٨ أكتوبر، دارت معركة على الساحل المصرى عند رأس السادات، غرق خلالها قارب داورية مصرى بالرغم من المعاونة التى كان يتلقاها من محطة رادار ومدافع أرضية عيار ١٣٠ مم. وبعد ذلك بخمس ليال، دخلت قوة اسرائيلية من خمس زوارق داورية مرسى رأس غارب، حيث كان يتجمع ما يزيد على الخمسين سفينة صغيرة للتحرك عبر الخليج. وخلال المعركة التى دارت من مدى قريب، غرق ١٩ قارب صيد مصريا مسلحا.

عند اندلاع الحرب، أعلن المصريون خطراً بحرياً بالبحر الأحمر، شمالى خط عرض ١٣. كما وضعت مدمرتان من طراز «سكورى» وبعض قطع إضافية بميناء عدن، وكذلك مدمرتان ببور سودان. ومن جانبهم، أغلق الاسرائيليون خليج السويس، وتمركزوا فى شرم الشيخ وساحل سيناء على خليج السويس. وهكذا، أصبح كلا الطرفين محاصراً بحرياً، حيث أصبحت



غارات إسرائيلية بحرية

منافذ البلدين إلى شرق أفريقيا وآسيا مغلقة. (على الرغم من محاولات البحرية المصرية لفرض حظر على منافذ اسرائيل على البحر المتوسط، إلا أن خطوط الشحن من وإلى اسرائيل ظلت مفتوحة أثناء الحرب).

لقد أولى المخططون البحريون الاسرائيليون الكثير من التفكير والدراسة لمشكلة اسرائيل البحرية، وعملوا من أجل حشد أكبر قوة نيران فى سفينة صغيرة. وقد أخذت البحرية الاسرائيلية السريعة المتمكنة، التى ظهرت فى الساحة فجأة، البحريات العربية على حين غرة. ويمكن قياس مدى فاعليتها من أنها لم تتكبد طوال الحرب سوى ثلاثة قتلى و٢٤ جريحاً. ولم يغرق قارب اسرائيلى واحد، بالرغم من أن البحريتين المصرية والسورية أطلقت حوالى ٥٢ صاروخاً على أهداف اسرائيلية بالبحر، وتكبدت خسائر مؤكدة تصل إلى ١٩ قطعة بحرية، منها عشر زوارق طوربيد (ولا يدخل فى هذا الزوارق التى أصيبت وأعيد إصلاحها بعد ذلك).

فى الوقت الذى لم يكن فيه للمعارك البحرية فى حرب يوم كيبور تأثير حاسم من حيث نتائجها، إلا أن هذه الحرب البحرية الصغيرة التى شهدها الشرق الأوسط أتاحت لمخططى البحرية ومصمميها أن يشهدوا عن كثب حرب بحرية المستقبل. لقد دشنت معركة اللاذقية -أول معركة صواريخ بحرية فى التاريخ - عهداً جديداً من الحرب البحرية.

الخلاصـــة

عهـد جـديد

كانت أهداف العرب من وراء الحرب محدودة نسبياً من المنظور العسكرى، إذ كانت تهدف بالأساس إلى تحقيق مكاسب سياسية. فقد توصل الرئيس السادات فى وقت من الأوقات إلى أن الحرب مطلوبة، بل وضرورية، لتحقيق تقدم فى العملية السياسية. وكانت توجهات السادات، فيما يتعلق بالهدف الاستراتيجى للحرب، هى زعزعة عقيدة الأمة الاسرائيلية من خلال القيام بعملية عسكرية توقع خسائر كبيرة باسرائيل، وتؤثر تأثيراً مباشراً على معنوياتها القومية. وكان الهدف العسكرى الآنى للحرب هو تحييد القوة الجوية الاسرائيلية عن طريق إقامة شبكة صواريخ أرض – جو قادرة على ذلك؛ وعن طريق إلغاء تفوق اسرائيل فى العمل على خطوط المواصلات الداخلية بشن الهجوم على جبهتين فى وقت واحد؛ وبالاستيلاء على مساحة محدودة من الأرض التى يسيطر عليها الاسرائيليون وتكبيدهم فى الوقت نفسه خسائر كبيرة. وبالنسبة للعرب، فقد كان الهجوم فى حد ذاته خطوة كبيرة للأمام، ويشكل تحولاً سياسياً هاماً.

وبالرغم من الهجوم الأرضى والجوى الكبيرين لكل من مصر وسوريا على اسرائيل فى حرب يوم كيبور، فقد كانت الأهداف الاستراتيجية لكلا البلدين محدودة نسبياً. ويعود ذلك – كما يظهر مما نشر عن الحرب فى العالم العربى – إلى التقدير العالى الذى تكنه الجيوش العربية لجيش الدفاع الاسرائيلى منذ حرب الأيام الستة. لقد كان الهدف السياسى لكل من مصر وسوريا هو توجيه ضربتين قويتين لاسرائيل بهدف كسر الجمود الذى أصاب الصراع العربى الاسرائيلى منذ وقف إطلاق النار فى اغسطس ١٩٧٠. كان الهدف من هاتين الضربتين الاستراتيجيتين هو تحريك القوتين العظميين وإجبارهما على الضغط على اسرائيل للعودة الى حدود١٩٦٧، دون الحاجة إلى توقيع معاهدة سلام معها، وهو إجراء ينبغى تفاديه – من وجهة نظر العرب – لحرمانها أى شكل من أشكال الشرعية فى الشرق الأوسط. كان

هدفهم، باختصار، هو إعادة عقارب الساعة إلى عشية حرب الأيام الستة لعام ١٩٦٧، فيما يتعلق بالعلاقات الاسرائيلية العربية.

وعند تحليلنا للموقف الاسرائيلى سنجد أن الحرب كانت ضد مصالح اسرائيل، ومن هنا كان عليها تحاشيها قدر الإمكان. وكان هناك إدراك بأن مجرد اندلاع الحرب بحد ذاته سوف يحقق ميزة سياسية للعرب. ومن هنا، وجب بذل كل جهد ممكن لمنع العرب ابتداءا من الحصول على أية ميزة عسكرية. وفوق ذلك، كان من الضرورى أن يسفر الرد الاسرائيلى عن تدمير أكبر قدر من القوات العربية ومرافقها العسكرية، حتى تظل اسرائيل على حال من التفوق الملحوظ لعدد قادم من السنين. وهكذا، كانت أهداف اسرائيل هى تفادى الحرب بمنعها إن أمكن، ومنع العرب من تحقيق أية مكاسب إقليمية خلال الهجوم الأولىّ؛ والاحتفاظ بالسيادة الجوية عن طريق تدمير نظام الصواريخ العربى؛ وتدمير القوات العربية؛ والاستيلاء على الأرض لاستخدامها كورقة فى المساومة السياسية.

منذ المناورات العسكرية التى قامت بها اسرائيل فى صيف ١٩٧٢، وتقدير قيادة الأركان الاسرائيلية لنوع الهجوم الذى سوف يقوم به المصريون فى حالة وقوع حرب، صحيح. فقد كان الافتراض الأساسى فى اسرائيل هو أنه ينبغى أن يكون هناك تحذيرا من المخابرات قبل الهجوم بوقت كاف، حتى تتمكن اسرائيل من تعبئة قوات الاحتياط بسرعة، وأن تنتشر هذه القوات على الجبهة فى ظل حماية القوة الجوية. ومن جانبهما، افترضت مصر وسوريا أن الهجوم المتزامن على الجبهتين سوف يدفع بالقوات الاسرائيلية إلى الخط التالى، دون أن تتمكن من استخدام الطيران الاسرائيلى بفاعلية. وكان مفترضاً أن يتيح الهجوم العربى الاستهلالى للمصريين والسوريين الاستيلاء سريعاً على مرتفعات الجولان فى الشمال، وعلى شريط بطول الضفة الشرقية لقناة السويس.

كان على القوات البرية المصرية المقدر لها العبور أن تتسلح بالأسلحة المضادة للدبابات وبالصواريخ حتى التشبع، وذلك للقضاء على المدرعات الاسرائيلية، التى كان من الواضح أنها ستقوم بالهجوم المضاد فى حال اتساع نطاق رأس الجسر المصرى. وكانت الخطة المصرية تهدف، بعد استنزاف المدرعات الاسرائيلية، إلى نشر احتياطيات المدرعات مع أسلحة إضافية مضادة للطائرات (خاصة صواريخ أرض – جو) على الضفة الشرقية بهدف تطوير الهجوم نحو سيناء للاستيلاء على ممرى متلا والجدى على مسافة حوالى ٣٠ ميلا شرقى القناة، ورأس سدر على الساحل الشرقى لخليج السويس. ومع هذه الانطلاقات، تجرى التحركات الدولية من

قبل القوتين العظميين من أجل وقف إطلاق النار، وترك المصريين يفلتون بثمار النصر. وفى الشمال، خطط السوريون لهجوم مدرع كبير من أجل الاستيلاء على مرتفعات الجولان بأكملها خلال فترة من يوم إلى ثلاثة أيام؛ والسيطرة على مواقع دفاعية على نهر الأردن وبحر الجليل؛ وتقديم شبكة صواريخهم المضادة للطائرات ثم ملاقاة الهجوم الاسرائيلى المضاد الحتمى؛ والدخول من ثم فى حرب استنزاف تستهدف إنزال أكبر قدر ممكن من الهزائم بالقوات الاسرائيلية. وقد أعدت الخطط، فى حال النجاح فى احتلال مرتفعات الجولان، للقيام بهجوم لاحق على الجليل هدفه الأول هو عزل منطقة «إصبع» الجليل الشرقى.

كان أول انتصار عربى بارز - وأكثرها أهمية على الإطلاق - هو المفاجأة الاستراتيجية والتكتيكية التى حققوها. وقد تعزّز هذا النجاح بدرجة غير قليلة بالأخطاء التى ارتكبتها المخابرات الاسرائيلية والقيادة السياسية والعسكرية فى اسرائيل. فالفضل يعود فى جانب كبير منه لخطة الخداع المعقدة التى مارسها المصريون والسوريون. فقد نجحوا فى إقناع القيادة الاسرائيلية بأن النشاطات العسكرية المكثفة الدائرة غربى القناة فى صيف وخريف ١٩٧٣، لم تكن سوى سلسلة من المشروعات والمناورات. وينبغى أن نشير إلى أن هذا الخداع كان واحداً من أبرز خطط الخداع فى التاريخ العسكرى. وقد أثبت نجاح تلك الخطة أن نظام الدفاع التكتيكى والعملياتى لجيش الدفاع الاسرائيلى، سواء على قناة السويس أو فى مرتفعات الجولان، لم يكن كافياً.

ولا شك أنه لو جرى الالتزام بتشغيل نظام الدفاع الثابت بالكامل، حسب ما سبق تخطيطه، مع توفير المدفعية اللازمة والعون المدرع والجوى، فقد كان من الممكن إعاقة تقدم العدو إلى حد كبير. إذ كان من الممكن حرمان المصريين من الحصول على مكاسب ذات قيمة فى عدد من القطاعات، وكان بالإمكان تحويل الهجوم إلى اتجاهات يرغبها الاسرائيليون، ليسهل بذلك الهجوم الاسرائيلى المدرع المضاد. وقد أثبت سير العمليات أن نظام الدفاع الثابت الأمامى كان ضعيفاً، وفريسة سهلةنسبياً للهجوم المفاجىء. ويبدو أن نظاماً دفاعياً أكثر مرونة وحركية كان يمكن أن يكون ذا فاعلية أكبر فى ظروف كتلك.

ينبغى النظر إلى العبور المصرى الكثيف لقناة السويس، بما فى ذلك نقل خمس فرق خلال أربع وعشرين ساعة، كإنجاز عسكرى كبير. وبشكل عام، فإن التخطيط والتنفيذ من جانب الجيش المصرى، وقبل كل شىء القدرة التكنيكية والتنظيمية التى مكنتهم من نصب عشرة كبارى على القناة خلال ليلة واحدة، انتقل عبرها الدبابات والمركبات، بالإضافة إلى عشرة كبارى للمشاة، كل ذلك يعتبر بحد ذاته عملية عسكرية وتنظيمية ناجحة.

لم يخف الاسرائيليون فسلفتهم فى مجال المدرعات، والتى تقوم على شن هجوم مضاد

مدرع قوى سريع الانتشار. وطبقاً لذلك، فقد توصل المصريون بعد مثابرة إلى حل للتصدى لمثل ذلك الهجوم وكذلك الهجوم الجوى المصاحب له. وتمثل الحل فى تسليح القوات المهاجمة عبر القناة بكميات ضخمة من صواريخ «ساجر» المضادة للدبابات وصواريخ «ستريلا» (سام٧) الخفيفة المضادة للطائرات. لقد كان الاستخدام الكثيف لتلك الصواريخ إلى جانب نيران المدفعية، الحل الأولىّ للتحدى المفروض فى حال وقوع الهجوم المضاد المحتمل. ويبدو أن الخطأ الاسرائيلى يكمن فى القيام بهجمات مضادة سابقة التخطيط - الأمر الذى سبق ملاحظته خلال المشروعات التدريبية التى قام بها المصريون، والتى تم خلالها التدريب على الرد المناسب. وكان هذا التكتيك من جانب الاسرائيليين مكلفاً للغاية، وفقدوا بسببه الكثير من المركبات المدرعة. وعلى ضوء الخبرات المستفادة، يمكن أن نقول بأن القوات الاسرائيلية لو كانت قد تبنت سياسة أكثر حذراً، واستفادت بشكل أفضل من استطلاع مخابرات الميدان والاستطلاع الجوى، وقرأت التكتيكات المصرية بصورة أوضح، فقد كان من الممكن القيام بهجوم منسق بين المدرعات والمدفعية والمشاة المدرع، وتفادى الاسرائيليون بذلك هذا العدد الكبير من الإصابات. وكان يمكن لتكتيك كهذا أن يتجنب الفشل الذى أصاب الهجوم الاسرائيلى الكبير فى ١٨ أكتوبر، وأن يمنع اتصال رءوس الجسور المصرية لتصبح جسراً واحداً طويل ثبت فيما بعد استحالة إزاحته.

الإنجاز الآخر المهم للجيوش العربية هو نجاح الجيش السورى (المدعم بفرقتين من مدرعات الجيش العراقى وحملة مدرعة أردنية) فى صد تقدم جيش الدفاع الاسرائيلى نحو دمشق. والحقيقة أن الاسرائيليين لم يكن فى نيتهم الاستيلاء على دمشق، وإنما كانوا يهدفون إلى مجرد خلق تهديد للمدينة؛ إلا أنه برغم هزيمة السوريين أمام جيش الدفاع الاسرائيلى، فوق مرتفعات الجولان، فقد نجحوا فى الانسحاب بصورة منظمة، وفى الاحتفاظ ببعض احتياطاتهم (وخاصة الفرقة الثالثة المدرعة) وإقامة خط دفاع قوى على مسافة حوالى ١٨ ميلاً جنوبى دمشق. ولاشك فى أن قدرة العراقيين على دفع فرقتى مدرعات لمسافة ٣٠٠ -٤٠٠ ميل ودخولهما المعركة ضد الاسرائيليين المتقدمين فى ١٢ أكتوبر، لهو أمر يستدعى الانتباه من المنظور العسكرى. وعلى عكس القدرات المتواضعة التى أظهرها الجيش العراقى فى قتاله ضد الاسرائيليين، فإن قدرتهم على تنظيم دفع التشكيلات إلى مرتفعات الجولان، فى وقت قصير نسبياً، يعد عملاً فذا إلى حد ما فى مجال نقل القوات.

برغم النجاح الابتدائى الذى حققته الجيوش العربية، سواء على المستوى الاستراتيجى أو

التكتيكى، والتحسن العام الذى طرأ على أدائها القتالى مقارنة بسجلها فى الحروب السابقة، فقد حقق جيش الدفاع الاسرائيلى النصر العسكرى. ففى مجرى الحرب، نجح الاسرائيليون فى صد الجيوش العربية المتوالية على المسرحين الاستراتيجيين؛ وفى إنزال خسائر جسيمة بالقوات المهاجمة؛ وفى دفع الجيش السورى فوق مرتفعات الجولان إلى ما وراء خطوط بدايته؛ وفى اختراق العمق العملياتى الاستراتيجى فى مرتفعات الجولان والعمق الاستراتيجى المصرى على الضفة الغربية لقناة السويس، ووضع الجيش المصرى فى النهاية على شفا الكارثة، وهو الوضع الذى أجبر المصريين على طلب وقف إطلاق النار.

ويتمثل النجاحان الرئيسيان اللذين أحرزهما جيش الدفاع الإسرائيلى فى وقف التقدم العربى خلال أيام قليلة ثم شن هجمات متوالية على سوريا ومصر. فبعد أن تكبد الاسرائيليون الخسائر خلال هجماتهم المضادة الأولية المتهورة (خاصة على جبهة السويس والتى كبدتهم خسائر كبيرة)، سرعان ما تكيفوا مع الموقف الجديد. وبدأ الانتشار الاسرائيلى الجديد يحكم سيطرته تدريجياً على الموقف ويحبط جميع الهجمات المصرية والسورية. وبارتكازهم على «سندان» مدرع، يتحالف مع مشاة مدرع ومدفعية لإعاقة التقدم ثم وقفه نهائياً، بدأ الاسرائيليون الهجوم من الأجناب، وتمكنوا من التطويق الكامل للفرقة المدرعة السورية الأولى - على سبيل المثال - فى الخشنية فوق مرتفعات الجولان يومى ٨ ، ٩ أكتوبر. وقد بلغت القوات الاسرائيلية القمة، فى تلك المرحلة، خلال المعركة التى دارت يوم ١٤ أكتوبر، عندما حاول المصريون توسيع عمق اختراقهم حتى خط الممرات، على مسافة حوالى ٣٠ ميلا شرقى القناة. وكانت النتيجة انتصاراً كبيرا للقوات الاسرائيلية، وفقد المصريون لما يزيد على ٢٥٠ دبابة. لقد كان نصراً مهد الطريق أمام القرار الفورى بعبور القناة.

بمجرد استقرار الخط على الجبهتين، أصبحت اسرائيل مواجهة بالتساؤل الاستراتيجى حول نقل المجهود الرئيسى إلى جبهة سيناء من عدمه، بعد أن عادت اسرائيل إلى «الخط الارجوانى» فوق مرتفعات الجولان. وكان الغرض من مثل تلك العملية هو: إما إغراء القوات المدرعة المصرية بعبور القناة إلى الضفة الشرقية لقناة السويس وجرّها إلى معركة وهزيمتها فى حرب مناورة، أو القيام بسلسلة من الانقضاضات عبر القناة، مثل الاستيلاء على بور سعيد أو المناطق الواقعة على الساحل الغربى لخليج السويس. وقد أيدّ وزير الدفاع ذلك البديل الأخير، من بين بدائل أخرى. أما مدرسة البديل فكانت تميل إلى القيام بهجوم كبير على سوريا من أجل الاستيلاء على أراض يمكن استخدامها فيما بعد فى المساومة السياسية على

الجيوب المصرية على الضفة الشرقية للقناة. وكانت الخطة تقضى بالاقتراب قدر الإمكان من ضواحى دمشق لتهديد تلك المدينة - وهى خطوة تخرج السوريين من الحرب، وتضطرهم إلى طلب وقف فورى لإطلاق النار. وقد أيد رئيس الأركان وقائد القوات الجوية هذه الخطة، ونجحا فى إقناع وزير الدفاع بها. واتخذ القرار يوم ١٠ أكتوبر.

توغلت القوات الإسرائيلية لمسافة حوالى ١٥ ميلا داخل سوريا، لكن الهجوم توقف على مسافة حوالى ١٨ ميلاً جنوبى دمشق، عندما تصدت الفرقة الأولى/ مدرعات العراقية للقوات الاسرائيلية، فى ١٢ أكتوبر. ومن المنظور الاستراتيجى، فإن الهجوم الاسرائيلى لم ينجح فى تدمير القوات السورية والعراقية. فسوريا لم تخرج من الحرب، وعند هذه النقطة بدا الأمر كما لو أن المجهود الحربى الاسرائيلى يوشك بلوغ منتهاه؛ والحقيقة أن رئيس الأركان أبلغ الحكومة الاسرائيلية فى ١٢ أكتوبر بأن الهجوم الاسرائيلى فى الشمال قد توقفت مسيرته أمام القوات السورية والعراقية المشتركة، وبأنه لا طائل من وراء القيام بهجوم كبير فعال على الجيوب المصرية ورءوس الجسور على الضفة الشرقية للقناة. وبناء على هذا، فهو يرى أن من صالح اسرائيل وقف إطلاق النار. لكن عوامل إنسانية جديدة تدخلت لتؤثر على التحركات الجديدة.

ففى مصر، ثار الجدل حول دفع الفرقتين الرابعة والحادية والعشرين/ مدرعات إلى الضفة الشرقية من عدمه. ورفض الجنرال «احمد اسماعيل على»، وزير الحربية، هذا الاقتراح لأنه لم يكن يريد تحريك هذه القوات دون أن يسبقها انتقال شبكة مناسبة من صواريخ أرض - جو: لأن هذا سيوفر لها الحماية عند خروجها من رأس الجسر باتجاه الممرات. إلا أنه، فى ١٢ أكتوبر، وبعد التقدم الاسرائيلى باتجاه دمشق، ضغط السوريون على المصريين من أجل التخفيف عنهم، بشن هجوم يهدف إلى سحب القوات الاسرائيلية من الجبهة السورية إلى سيناء. وهذا ما أدى إلى القرار المصرى بنقل القوات المدرعة إلى الضفة الشرقية من القناة؛ وقد تم نقل الفرقتين المدرعتين الرابعة و٢١ بناء على تعليمات رئيس مصر، ومعها أوامر بمهاجمة الاسرائيليين يومى ١٣، ١٤ أكتوبر على ستة من محاور التقدم المتوازية، والوصول إلى ممرى متلا والجدى. وهو الأمر الذى نتج عنه نشوب معركة يوم ١٤ أكتوبر الكبيرة والانتصار الاسرائيلى الذى أدى فى نهاية الأمر إلى عبور القناة.

ثار جدل استراتيجى آخر داخل القيادة العليا الاسرائيلية حول إمكان شن هجوم رئيسى عبر قناة السويس، قبل انتقال احتياطى المدرعات المصرية إلى الضفة الشرقية من عدمه. فقد

كانت هناك مدرسة فى التفكير تفضل القيام بهجوم فورى، مؤكدة على إمكانية هزيمة القوات المدرعة المصرية على الجانب الآخر من القناة. وكانت هذه المدرسة فى التفكير ترى كذلك أنه حتى لو كانت هناك صعوبات فى دفع الكبارى إلى القناة، فمن الممكن الاستيلاء على الكبارى المصرية نفسها من الخلف، من داخل مصر، فى حال توفير قوات كافية لعبور القناة. وكانت المدرسة الأخرى فى التفكير تفضل الانتظار حتى يقوم المصريون بنقل قواتهم المدرعة إلى الضفة الشرقية، ووقتها فقط يمكن العبور. وبينما كان هذا الجدل دائراً، قام المصريون بحسمه أمام الاسرائيليين، وذلك بنقل الفرق المدرعة إلى الضفة الشرقية.

عند هذه النقطة يمكننا أن نجرى مقارنة بين تحركات القيادتين المصرية والسورية فى مجال استخدام احتياطى المدرعات. فقد فتح عبور الفرقتين الرابعة و٢١ المصريتين إلى الضفة الشرقية للاسرائيليين الثغرة اللازمة لعبور القناة، والسماح لهم بتوسيع وتعميق رأس جسرهم نسبياً على الضفة الغربية وتدعيم قواتهم حتى قبل أن تنصب الكبارى. وينبغى أن نسجل هنا أن أول كوبرى اسرائيلى لم يصبح جاهزا للعمل إلا بعد مرور ٣٦ ساعة من التوقيت المقرر. أما السوريون، فقد أصروا من جانبهم على الاحتفاظ بالفرقة الثالثة المدرعة كاحتياط، وكانت هذه الفرقة موقع الدفاع الرئيسى أمام القوات الاسرائيلية المتقدمة صوب دمشق يومى ١١، ١٢ أكتوبر. وقد ظهرت نتيجة احتفاظ السوريين بهذه الفرقة عندما شنت اسرائيل هجومها.

ومن هنا، فإن من المهم للغاية بالنسبة للمؤرخ العسكرى أن يلاحظ أن الحدث الذى كان سبباً فى التحول الاستراتيجى على جبهة السويس - وهو تحول أدى إلى تصعيد الموقف العسكرى إلى حد إجبار المصريين فى النهاية على طلب وقف إطلاق النار - لم يقع على هذه الجبهة وإنما بعيدا عنها، على الجبهة السورية. وعلى غير ما كان مخططاً، فإن القرار الاسرائيلى بشن هجوم على سوريا، باتجاه دمشق، هو الذى أدى فى النهاية إلى التغير الاستراتيجى على جبهة السويس، وهو ما قاد إلى سلسلة الأحداث التى أدت إلى انتهاء الحرب. فقد انتهت الحرب لأن جيش الدفاع الاسرائيلى دفع بثلاث فرق عبر القناة إلى الضفة الغربية، ولم يكن الجيش المصرى فى وضع يسمح له بالتصدى لهذه القوة. وكانت النتيجة هى حصار الجيش الثالث المصرى، وتهديد المؤخرة الإدارية ومناطق إمداد الجيش المصرى كله على قناة السويس. والأكثر من ذلك أن القاهرة نفسها أصبحت مهددة. وعندما أصبح من الواضح أن الموقف قد خرج من أيديهم، طلب المصريون وقف إطلاق النار. وفى رسالته إلى الرئيس الأسد، كتب الرئيس السادات يقول: «أنا لا أستطيع أن أتحمل أمام التاريخ مسئولية

تدمير قواتنا المسلحة مرة أخرى. ولهذا فقد أبلغت الاتحاد السوفيتي استعدادى لقبول وقف إطلاق النار فى المواقع الحالية. إن قلبى ليدمى وأنا أبلغك بهذا، لكنى أشعر بأن مسئوليتى تدفعنى لاتخاذ هذا القرار».

وهكذا، ذهب النصر العسكرى إلى اسرائيل. ونجح جيش الدفاع الاسرائيلى فى إنجاز المهمة الاستراتيجية التى أوكلت إليه إنجازاً شبه كامل. وكانت هذه المهمة هى «حرمان العدو من تحقيق أى تفوق عسكرى» . ففى الشمال، طُرد السوريين من مرتفعات الجولان، وتقدمت القوات الاسرائيلية نحو دمشق. وعلى الجبهة الجنوبية، كسب المصريون مساحة من الأرض، وإن كانت محدودة، فى شكل رءوس جسور على الضفة الشرقية لقناة السويس. لكن القوات الاسرائيلية نجحت، فى مواجهة هذا، فى استعادة المبادرة وعبور القناة، من بين الجيشين، إلى الغرب واختراق العمق العملياتى المصرى، ومحاصرة الجيش الثالث المصرى وعزله، والوصول إلى وضع يسمح لها بتهديد مجمل الانتشار المصرى على كلتا ضفتى القناة، إلى الحد الذى جعل المصريين يطلبون الوقف الفورى لإطلاق النار.

لكن اسرائيل لم تجن الثمار السياسية للحرب. فالرئيس السادات قام بهجومه منذ البداية بهدف كسر الجمود العسكرى والسياسى. وقد نجح فى ذلك. ثم تقدم لتطوير استراتيجيته السياسية، والتى أسفرت عن توقيع اتفاق مؤقت بخصوص سيناء، ثم توقيع معاهدة سلام مع اسرائيل فى نهاية الأمر، استعاد بمقتضاها حقول النفط الغنية ومنطقة شبه جزيرة سيناء بالكامل* .

استفادت الولايات المتحدة، كذلك، استفادة كبيرة من النتيجة التى انتهت إليها الحرب، وذلك من المنظور السياسى. فعند انتهاء حرب يوم كيبور، كان بيد الولايات المتحدة مفتاح فرض وقف إطلاق النار، واقتطاع نصيبها السياسى من الموقف الناجم عن ذلك. وأُجبر الروس على دعوة وزير الخارجية الأمريكى، «هنرى كيسنجر»، لزيارة موسكو، فى ٢١ أكتوبر، من أجل الاتفاق على ترتيبات وقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل، والذى كان مقرراً سريانه اعتباراً من السادسة مساء ٢٢ أكتوبر. كذلك، فقد كانت جميع الترتيبات الموازية، التى تجرى فى مجلس الأمن الدولى، خاضعة لتوجيه الولايات المتحدة وعلى الفور، أدرك الرئيس السادات المكانة الحيوية والمركزية للموقف الأمريكى واعتباراً من ٢٣ أكتوبر، أقام علاقة مباشرة مع واشنطن. على اعتبار أن أكثر الطرق فاعلية فى الضغط على اسرائيل تأتى من جانب واشنطن. وفى مقابل الضغط على اسرائيل، بدأ يتيح للولايات المتحدة تحسين وضعها فى مصر على حساب الاتحاد السوفيتى. وتفاوضت الولايات المتحدة من أجل الحصول على

* استعاد المصريون ثلثى سيناء خلال عام ١٩٨٠، وعاد اليهم ثلثها الباقى فى ابريل ١٩٨٢

تنازلات عسكرية اسرائيلية، بما فى ذلك وقف إطلاق النار على الضفة الغربية للقناة، وفتح طريق إمداد للجيش الثالث المصرى المحاصر، وعودة القوات الاسرائيلية من الضفة الغربية إلى ضفة القناة الشرقية، دون إجبار المصريين على التنازل عن أى من المساحات التى غزوها على الضفة الشرقية. وكان هذا مجرد مدخل لعدد من التطورات السياسية التى خلقت موقفاً - خطط له السادات وطوره - يعطى لمصر موقعاً خاصاً فى إطار الاستراتيجية الأمريكية الشاملة فى الشرق الأوسط.

مع تطور الحرب، ومن وجهة النظر العسكرية، أصبح هناك عدم توازن ملحوظ فى تركيب القوات الاسرائيلية. فنتيجة النقص فى حاملات الجنود المدرعة، افتقد المشاة الحركية، وبذلك لم تعمل الدبابات كجزء من فريق، وإنما ككتلة مستقلة. ولم يستفاد كذلك من المعلومات المتاحة، وخاصة تلك المتعلقة بصواريخ «ساجر» المضادة للدبابات، والاستفادة من تلك المعلومات تنظيمياً وعملياتياً. وفوق ذلك، وبسبب التعويل الزائد على القوة الجوية من جانب اسرائيل، أهملت المدفعية. ويمكننا القول، بشكل عام، أن القوات مالت، ابتداءا، إلى خوض المعركة اللاحقة ووصلت تدريجياً إلى مستوى العدو ثم أصبحت قادرة على الرد، فى أيام قليلة. وفى حرب يوم كيبور، لم يقم المشاة بواجبه على الوجه الصحيح. وفى هذه الحرب، واجهت القوات الاسرائيلية جيشاً مصرياً أفضل، لم تره من قبل، من حيث قيادته التكتيكية. ولقد أثبت الجيشان المصرى والسورى مقدرة فى القتال أفضل مما قدماه فى مواجهاتهما السابقة مع القوات الاسرائيلية. وفى معظم مراحل القتال، عملت القوات السورية كجيش جيد الانضباط. وخير تعبير عن ذلك ما رأيناه خلال الانسحاب الذى قاموا به باتجاه سوريا، بعد الهجوم الاسرائيلى فى ١٠ أكتوبر. فقد تم هذا الانسحاب بنظام، وإحكام.

ومن الأخطاء الجوهرية التى وقع فيها التقييم الاسرائيلى للاستراتيجية العربية فشل هذا التقييم فى تقدير أن المصريين قد قرروا تبنى حل عسكرى محدود لمشكلتهم يرتكز على مظلة الصواريخ، ومن ثم تبنى استراتيجية محدودة. ويكمن خطأ قيادة الأركان الاسرائيلية فى الحكم على قيادات الأركان العربية بمعاييرها هى فى التفكير العسكرى.

أثناء الحرب، قامت القوتان الأعظم بعمليات إعادة إمداد: الاتحاد السوفيتى لسوريا ومصر، والولايات المتحدة لاسرائيل. وكانت كثافة القتال مفاجأة للمسئولين عن الإمداد. فقد كان استهلاك الذخيرة عاليا للغاية، والخسائر فى الطائرات كبيرة، وكذلك أعداد الدبابات المدمرة. وكان من الواضح أن قوائم طلبات الذخائر التى كان يجرى التخزين على أساسها خلال الأعوام الماضية فى حاجة إلى مراجعة كبيرة. ومن الجلى أن الجسر الجوى الأمريكى كان حيوياً، من الوجهة العسكرية، بالنسبة لإسرائيل فى وقت حرج، ولربما كان هاما أيضاً من الوجهة السياسية، ولاشك أن دلالته الواضحة كان لها أثر كبير فى فرض وقف إطلاق النار وفى عودة الولايات المتحدة إلى مركز الصورة فى الشرق الأوسط خلال الشهور التالية. (كان هذا واضحاً فى رسالةالرئيس السادات إلى الرئيس الأسد التى أبلغه فيها بسعيه لوقف

إطلاق النار).

في مجرى الأحداث التي أدت إلى الحرب، وقع الاسرائيليون في خطأين قاتلين: كان الخطأ الأول هو تقدير المخابرات، والفشل عند مستوى القيادة والمستوى الوزاري في إدراك دلالة التطورات المتوازية التي كانت تجري على الجبهتين السورية والمصرية. أما الخطأ البالغ الثاني، فهو إصرار مؤسسة الدفاع والجيش على أن المعدل غير الواقعي وغير المحبذ للقوات على الجبهة، كان كافياً لصد أي هجوم مصري أو سوري. وكان هذا يرتكز بالمقابل على قراءة خاطئة للتطورات في ميدان المعركة، خاصة فيما يتعلق بقدرة القوات الجوية على التعامل مع شبكة الصواريخ أرض - جو، والفشل في إدراك دلالة الكثير من الوقائع، مثل إقامة السد العالي على الجانب المصري من القناة.

كانت النتائج المبدئية الفورية لحرب يوم كيبور هي التوصل لاتفاقيات فض الاشتباك بين مصر واسرائيل من ناحية، وبين سوريا واسرائيل من ناحية أخرى، وتوقيع اتفاق مؤقت بشأن سيناء بين اسرائيل ومصر في سبتمبر ١٩٧٥. وينص هذا الاتفاق المؤقت على انسحاب القوات الاسرائيلية إلى ممرى متلا والجدي، وإقامة نظام مراقبة اليكترونية بسيناء يديره الأمريكيون، وإعادة آبار أبو رديس إلى مصر. وفتحت قناة السويس أمام الملاحة من وإلى اسرائيل، وقد أدت كل تلك التطورات في نهاية المطاف إلى الزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس السادات إلى القدس، وظهوره أمام البرلمان الاسرائيلي (الكينست)، والتي قادت إلى توقيع اتفاقية سلام - وهي الاتفاقية الأولى من نوعها التي توقع بين اسرائيل ودولة عربية. ولاشك أن النجاحات العربية الابتدائية في حرب يوم كيبور قد أرضت شعورهم بالزهو القومي، وسهلت من مهمة السادات* بدفع الحوار بين الطرفين، والتوصل في النهاية إلى معاهدة سلام. لقد حققت حرب يوم كيبور نتائج تاريخية، وأكدت مكانتها كحرب ذات دلالة تاريخية عظمى. والحقيقة أنه ينبغي مراجعة علم الاستراتيجية العسكرية، وكذلك التقنيات على ضوء الدروس المستفادة من هذه الحرب.

من منظور كوني، شهدت حرب ١٩٧٣ أول محاولة من جانب الأمم العربية المنتجة للنفط لاستخدامه كسلاح. صحيح أن الحظر البترولي لم يكن فعالاً للغاية، وكان تأثيره نفسياً، بالأساس، وغير عملي، إلا أنه كان «تحذيراً واضحاً» للعالم الحر. ويؤكد على خطورة هذا الموقف تشرذم العالم العربي. بثروته الهائلة. وسيادة عدم الاستقرار بين أرجائه.

---

* في ٦ أكتوبر ١٩٨١، وأثناء حضوره للعرض العسكري المقام احتفالاً بالعبور المصري لقناة السويس في ١٩٧٣، اغتيل الرئيس السادات على يد جماعة صغيرة من الاسلاميين الأصوليين، يرتدي أفرادها ملابس الجنود. فعند مرور المركبة التي كانت تحملهم أمام منصة العرض المزدحمة، قفزوا منها وقصفوها، وأطلقوا نيران بنادقهم الآلية على السادات.

الباب السادس

الحرب ضد الإرهاب: عنتيبي

الحرب ضد الإرهاب: عنتيبى

منذ اوائل الخمسينات واسرائيل تتعرض للهجمات الإرهابية من عبر الحدود، وفى العديد من المرات ردت اسرائيل بغارات انتقامية. وفى ١٩٦٨، قامت منظمة التحرير الفلسطينية بأول هجوم لها على اسرائيل فيما وراء البحار، وذلك باختطاف إحدى طائرات شركة «العال» أثناء رحلتها من روما إلى تل أبيب، وتحويل خط سيرها إلى الجزائر. وبعد ذلك، أصبحت الطائرات الاسرائيلية القادمة من اسرائيل والمتوجهة إليها، والمكاتب الاسرائيلية فى الخارج ومبانى السفارات الإسرائيلية هدفاً للهجوم من جانب فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، تدعمها فى بعض الأحيان جماعات من منظمات الإرهاب الدولية. فقد تعرض حجاج من بورتريكو لهجوم بمطار اللد، قام به بعض أعضاء الجيش الأحمر اليابانى، وفى عدد من المرات ألقى القبض فى اسرائيل على إرهابيين ألمان وفرنسيين على صلة بعمليات المنظمة.

لقد تبنت اسرائيل منذ البداية سياسة ترفض المساومة أمام الإرهاب، وصممت على التصدى له أينما كان. وهكذا ، عندما اختطف الإرهابيون إحدى طائرات شركة «سابينا» البلجيكية، وأجبروها على العودة إلى مطار «بن جوريون»، فى مايو ١٩٧٢، تخفى رجال الكومندوز الاسرائيليين فى زى الفنيين والمعاونين الأرضيين، وتمكنوا من استعادتها، وقتلوا اثنين من المسلحين العرب، وأنقذوا ٩٧ راكباً. وعندما احتُجز عدد من الأطفال كرهائن بإحدى المدارس بمدينة معالوت بالجليل الشمالى فى مايو ١٩٧٤، اقتحمت وحدات من الجيش الاسرائيلى المبنى، برغم خطورة هذا على الأطفال: قتل الإرهابيين، لكن ٢٢ من الأطفال فقدوا حياتهم. وعندما اختطف الإرهابيون أحد الاتوبيسات فى هجوم على طريق حيفا - تل ابيب الساحلى، فى ١٣ مارس ١٩٧٨، دارت معركة قُتل خلالها جميع الإرهابيين عدا اثنين، وكذلك ما يزيد على الثلاثين راكباً. وفى هجوم على إحدى طائرات «العال» بمطار «كلوتن» فى زيورخ، هاجم أحد رجال الأمن الاسرائيليين الإرهابيين الفلسطينيين، الذين كانوا يطلقون النار على الطائرة، وقتل أحدهم برصاص مسدسه.

ويسرى نفس الشىء على رد الفعل الاسرائيلى الغريزى على الإرهاب فى كل مكان: المساومة فى مواجهة الإرهاب تقود إلى وضع مستحيل. وعلى كل إرهابى أن يعلم عند قيامه بمهاجمة هدف اسرائيلى بأن عليه أن يقاتل فى جميع الأحوال. لقد أعدَّ جيش الدفاع الاسرائيلى وحدة منتقاة عالية التدريب لمواجهة النشاطات الإرهابية. وقد وضع «شيمون

بيريز»، الذى كان وزيراً للدفاع أثناء عملية احتجاز الرهائن بمطار عنتيبى فى ١٩٧٦، السياسة التى يسترشد بها الاسرائيليون. وقد حدد سياسة اسرائيل تلك أمام مؤتمر خاص بالإرهاب الدولى، أكد خلاله على أنه لا ينبغى الاستسلام للإرهاب. وأشار إلى أن على اسرائيل أن تتبنى نظام مدروس للتخابر والإنذار المبكر، يتولاه أشخاص على درجة عالية من التدريب من أجل إنهاء ميزة المفاجأة التى يتمتع بها الإرهاب والهجمات العديمة التمييز. كما أكد «بيريز» على أهمية محاربة الإرهاب، لا على المستوى العملياتى وحده، وإنما على المستوى السيكولوجى كذلك. وكما أوضح، فإن «اختيار الجماعات الإرهابية لأسماء مثل «الجيش الأحمر» أو «منظمة التحرير» لا ينبغى أن يضللنا أو يخدع وسائل إعلامنا التى غالبا ما يجذبها مثل تلك المسميات... يجب أن نسمى الأشياء بمسمياتها الحقيقية، فالجماعات الإرهابية هم أناس يضيقون ذرعاً بالديمقراطية، ولا يخضعون لنظام، ونظرتهم إلى الحياة نظرة فاسدة، وهم غير قادرين على التحرر من ربقة القتل والكراهية». وأشار إلى أن الإرهاب أصبح عالميا، ومحاربته يجب أن تكون عالمية كذلك. والإرهابيون يعتبرون أكثر الأمم والشعوب تحرراً أعداء لهم؛ ومن هنا ينبغى تنسيق الجهود على المستوى الدولى.

ولعل العملية الاسرائيلية التى أسفرت عن إطلاق سراح مائة من الرهائن الاسرائيليين، اختطفت طائرتهم التابعة لـ «ايرفرانس» وأُجبرت على الهبوط فى عنتيبى بأوغندا، هى أكثر الردود على الإرهاب الدولى إثارة.

ففى يوم الأحد ٢٧ يونيو ١٩٧٦، قام أربعة من إرهابى منظمة التحرير الفلسطينية باختطاف طائرة «ايرفرانس»، رحلة رقم ١٣٩، والتى كانت متجهة من تل ابيب إلى باريس عبر أثينا، وذلك بعد إقلاعها من مطار اثينا. وكان بين المختطفين رجل وامرأة من الألمان، أعضاء بمنظمة «بادر ماينهوف» الإرهابية، واثينا من العرب، من أعضاء جبهة التحرير الفلسطينية. وكانت الطائرة تقل ٢٥٦ راكباً مع طاقمها المكون من ١٢ فرداً. استغل الإرهابيون الإجراءات الأرضية غير الصارمة بمطار ايثنا وسربوا البنادق والقنابل اليدوية إلى الطائرة. وبعد اختطافها، هبطت الطائرة فى مطار بنى غازى بليبيا للتزود بالوقود، ثم واصلت طيرانها جنوبياً، وهبطت بمطار عنتيبى بأوغندا، حيث انضم عدد آخر من الإرهابيين الفلسطينيين، ووحدات من الجيش الأوغندى، التى قامت بنقل المختطفين إلى مبنى المطار القديم.

وفى ٢٩ يونيو، أذاع راديو أوغندا مطالب المختطفين، التى تضمنت تسليم أكثر من ٥٣ إرهابياً من السجناء - ٤٠ باسرائيل، و٦ بألمانيا الغربية، و٥ بكينيا، وواحد بسويسر وآخر

بفرنسا. وأصبح على الحكومة الاسرائيلية أن تتصدى لمشكلة الإفراج عن الرهائن الاسرائيليين، وتشكيل فريق للتفاوض عبر وسطاء.

في مساء ٢٨ يونيو، أصدر الليفتنانت جنرال «موردخاى (موتا) جور»، رئيس الأركان، تعليماته بتجهيز قوة من المظليين على وجه السرعة تكون جاهزة للهبوط فى عنتيبى، أو التوجه اليها عبر بحيرة فيكتوريا، والاستيلاء على مهبط المطار، وقتل الإرهابيين، وحماية الرهائن لحين التوصل إلى ترتيبات مع الحكومة الأوغندية من أجل إطلاق سراحهم. لكن «اسحاق رابين»، رئيس الوزراء، رفض الخطة التنفيذية التى قدمت إليه، مؤكداً أنها لا تقدم حلا كاملاً للمشكلة. والحقيقة أن موقفه العام من احتمال العملية العسكرية، خلال تلك المرحلة من التطورات، كان سلبياً.

اتخذ «شيمون بيريز»، وزير الدفاع، موقفاً مخالفاً تماماً. وكان يؤكد فى كل نقاشاته على الأهمية القصوى لرفض الاستسلام أمام الإرهابيين، وعلى أن نجاحهم فى هذه العملية سوف يكون بمثابة هزيمة سياسية ومعنوية كبرى لإسرائيل، وسوف يشكل سابقة خطيرة فى النضال ضد الإرهاب والاختطاف مستقبلاً. وإلى جانب مناقشاته مع رئيس الأركان، ناقش الأمر تفصيلياً مع عدد من كبار الضباط المتصلين بالموضوع اتصال مباشر. وأكد الجنرال «جور» من جانبه على أهمية نجاح عملية كهذه والنتائج الفاجعة لفشلها، وأبلغ وزير الدفاع بوضوح بأنه لن يوصى بتنفيذ العلمية ما لم يقتنع شخصياً بأن العملية ملائمة وأن نسبة المخاطرة فيها معقولة. وفى يوم الأربعاء، اجتمع مجلس الوزراء مرة أخرى لمناقشة الموضوع وكرر، رئيس الوزراء قوله بأنه إذا لم يتلق موافقة قيادة الأركان العامة على القيام بعملية عسكرية، فإنه سوف يبلغ المجلس بقبول إنذار الإرهابيين وشروطهم من أجل الإفراج عن الرهائن.

وفى يوم الاثنين ٢٨ يونيو، وعلى التوازى مع الجهود التخطيطية للأركان العامة، قرر الميجور جنرال «دان شمرون»، رئيس أركان سلاح المشاة وضابط المظلات بجيش الدفاع الاسرائيلى (والذى قاد أحد ألوية المدرعات بسيناء أثناء حرب ١٩٧٣) ودون تعليمات من أعلى، قرر التخطيط للإفراج عن رهائن عنتيبى. وبمجرد بدء عملية فصل الركاب الاسرائيليين عن باقى الركاب، أخذ يستعيد عملية الانتقاء التى استخدمها النازيون فى معسكرات الاعتقال، وعلى الفور أصدر تعليماته إلى فريقه ببدء التخطيط. وعند مساء الأربعاء، كان مساعدوه قد توصلوا لخطة تقوم على إنزال جنود محمولين جواً إلى مطار عنتيبى الجديد، ثم التحرك فى

عربات (أدخل عليها بعض التعديلات بحيث تتلاءم مع مثيلها فى أوغندا) إلى المطار القديم، وقتل الإرهابيين وتخليص الرهائن. وكان من الواضح أمام المخططين أنه من غير الواقعى التخطيط لعملية تقوم على الاستيلاء على المطار بكامله، لأن ذلك يمكن أن يؤدى إلى قتل الرهائن بأيدى الإرهابيين والأوغنديين. كان مقدراً أن تكون الضربة الأولى ضد الإرهابيين هى النقطة البؤرية التى تتصاعد بعدها الأحداث. وأبلغت القوة الجوية مساعدى «شمرون» بأن طائراتها يمكنها الوصول إلى عنتيبى، لكن تظل هناك مشكلة التزود بالوقود فى طريق العودة، وكان الحل هو التزود فى عنتيبى نفسها، باستخدام مستودعات الوقود الموجودة بالمطار الدولى هناك.

فى صباح الخميس، الأول من يوليو، طلب رئيس الوزراء، الذى كان يتعرض فى ذلك الوقت لضغوط متزايدة من جانب الرأى العام وأسر الرهائن، طالب مجلس الوزراء باتخاذ قرار سريع بالموافقة على الإفراج عن الإرهابيين المسجونين الذين طالب الإرهابيين بإطلاق سراحهم كشرط لإعادة الرهائن. ووجه طلباً مماثلاً إلى زعيم المعارضة، السيد «مناحم بيجن»، ورئيس لجنة الدفاع والشئون الخارجية بالكنيست، وتلقى موافقتهما. لكن فى تلك الظهيرة نفسها، استدعى الميجور جنرال «يكوتيل ادم»، رئيس فرع العمليات، «شمرون» إلى قيادة الأركان العامة لتقديم خطته. وقد حضر اللقاء كل من «شيمون بيريز» وزير الدفاع؛ والجنرال «جور» رئيس الأركان؛ والجنرال «ادم» رئيس فرع العمليات؛ والميجور جنرال «بنيامين بليد» قائد القوات الجوية؛ والبريجادير جنرال «افيجدور بن جال» مساعد رئيس العمليات. وكانت هذه هى المرة الأولى التى تعرض فيها الخطة بتفاصيلها الكاملة. وكانت تقضى بالهبوط فى عنتيبى يوم السبت ٣ يوليو الساعة ١١ مساءا، على أن يسبق ذلك بروفة «جافة» على نموذج، يوم الجمعة. وكان هناك افتراض بأنه طالما أن طائرات الميج التى يستخدمها سلام الجو الأوغندى تبيت فى المطار القديم، فلابد أن يكون هناك ممر أسفلتى يصل إلى المطار الجديد .

عند انتهاء «شمرون» من عرضه، توجه «شميون بيريز» إلى كل عضو على حدة يسأله رأيه، وإمكانية النجاح، وحجم الخسائر التى يتوقعها، وما إذا كان يوصى بتنفيذ العملية أو صرف النظر عنها . فكان هناك من عارض العملية؛ وكان هناك من تفاوت عندهم كفة النجاح والفشل. وكان رد «شمرون» أن هناك نقطة ضعف واحدة: هبوط الطائرة الأولى دون أن تثير الشكوك، ومع بعض الحظ، فلن تكون هناك خسائر. وكان تقديره أنه فى حال تبادل إطلاق النار فإن الخسائر سوف تصل إلى عشرة اشخاص، وأوصى بتنفيذ العملية دون تردد. وأشار «بيريز»

إلى أن موافقته على الخطة رهن بالموافقة النهائية للمجلس، وأمرهم باستكمال كافة الاستعدادات. وعندما وقفوا لمغادرة المكان، استدار «شمرون» ناحية «بيريز» وقال : «أفهم من ذلك أننى أنا الذى سوف يقود العملية.» واستدار «بيريز» ونظر إلى رئيس الأركان، ثم قال : «حسن . أنت قائد العملية.» وقد منح «شمرون» سلطة اختيار الوحدات التى ستشترك فى العملية، وتم الاتفاق على إجراء تجربة للعملية على نموذج مساء الجمعة. وكان من المقرر أن ينطلقوا يوم السبت من شرم الشيخ إلى عنتيبى، فى الثالثة والنصف مساءا.

وحتى لا تثور الشكوك حول احتمال القيام بعملية عسكرية، كانت جميع المفاوضات الدبلوماسية، المتواصلة فى فرنسا وأوغندا فى ذلك الحين، توحى بأن اسرائيل سوف ترضخ لمطالب الإرهابيين وتقوم بالإجراءات اللازمة للوفاء بهذه المطالب قبل انتهاء المهلة، فى الرابع من يوليو. وقد جعل هذا الاعتبار من ليلة السبت الفرصة الأخيرة.

تمّ على الفور تجميع الوحدات المشتركة، وقُطع الاتصال التليفونى بين قاعدتهم والخارج، ومُنع الرجال من مغادرتها: مائتان من الرجال أصحاب التدريب العالى، معظمهم من النظاميين ذوى الخبرة القتالية السابقة.

تركت القيادة العامة المشكلة المعقدة للهبوط فى عنتيبى مفتوحة (كان الأمر فى حاجة إلى المزيد من معلومات المخابرات)، ووضعت الخطط العامة منذ وقت الهبوط، ووفرت الوحدات وحددت لها المهام. وكان ذلك على الوجه التالى:

١ – قوة لإضاءة الممر وتأمينه.

٢ – قوة لاحتلال المطار القديم وتحرير الرهائن.

٣ – قوة للسيطرة على المطار الجديد.

٤ – قوة لتأمين المطار وتدمير المقاتلات الأوغندية.

٥ – قوة لإجلاء الرهائن من المبنى إلى الطائرة.

وفى مجرى التخطيط والإعداد للعملية، تم الاستفادة بصورة كبيرة من الصور التى التقطها قبل ذلك بأعوام طيارو سلاح الجو الاسرائيلى، عندما كانوا يتولون تدريب القوات الجوية الأوغندية. (فى أحد الأفلام المحلية التى تم دراستها، يصل «عيدى أمين» حاكم أوغندا إلى المطار فى سيارة مرسيدس سوداء، ترافقه سيارة لاندرورفر، وقد أدى هذا إلى ظهور فكرة تدبير سيارة مرسيدس لاستخدامها فى التضليل أثناء العملية.) وأُضيف إلى هذه المعلومات بعض التحريات التى توفرت للمحققين الخصوصيين الذين التقوا بالركاب غير اليهود الذين

أفرج عنهم، بعد وصولهم إلى باريس. فمن خلال تقاريرهم أمكن تكوين صورة واضحة عن النظام اليومى للمطار : أين كانوا ينامون؛ أماكن الراحة وكيفية الوصول إليها؛ نظام الحراسة وفى أى غرف كان يعيش الإرهابيون؛ طبائع وسمات الإرهابيين وسلوكهم تجاه الرهائن؛ مواقع الجنود الأوغنديين فى المبنى وحوله، ونظام الحراسة الخاص بهم.

فى يوم الجمعة، عرض التليفزيون الاسرائيلى فيلماً أعده أحد المراسلين الأجانب، يبين مطار عنتيبى الجديد. وعرف منه أن المبنى الجديد يتكون من طابقين. كما تضمن أيضاً لقطات للمطار القديم، حيث يحتجز الرهائن الاسرائيليين. وشرح الركاب المفرج عنهم كيف وضع الإرهابيون الصناديق، المفترض أنها مملوءة بالمتفجرات، فى المبنى يخرج منها سلك أبيض للتفجير. ولكن بما أن المعلومات أشارت إلى تمركز الجنود الأوغنديين فوق سطح المبنى، فقد استبعدت فكرة أن تكون الصناديق مملوءة بالمتفجرات، وإن هى إلا حيلة لإرهاب الرهائن.

ومع تراكم معلومات المخابرات، قرر الجنرال «جور» أن العملية مناسبة تماماً، وأن بإمكانه أن يوصى وزير الدفاع بالشروع فى وضعها موضع التنفيذ. وفى الوقت نفسه، أصدر تعليماته بأن يتولى بنفسه قيادة العملية من مقره بقيادة الأركان العامة، بينما يشكل الميجور جنرال «يكوتيل ادم» رئيس فرع العمليات، والميجور جنرال «بنيامين بليد» قائد القوات الجوية قيادة أركان متقدمة فى إحدى الطائرات تحلق فوق مسرح العمليات. كما تقرر أيضاً أن ترافق قيادة الأركان المتقدمة طائرة أخرى، تضم مستشفى ميدانيا كاملا؛ على أن تهبط الطائرة الأخيرة فى نيروبى دون سابق إنذار، لإقامة المستشفى الميدانى لعلاج من يصاب من الرهائن أو الجنود.

ظل «جور» قلقاً بشأن إمكان هبوط الطائرة بأمان فى الظلام حتى طار، يوم الجمعة، مع «بليد» فى طائرة «هيركيوليز» للتأكد من قدرتها على الهبوط «الأعمى». وكانت الدلائل تشير إلى أن الجو سيكون طيباً ليلة العملية، وأن الظلام سيكون دامسا، لا ضوء للقمر فيه.

وفى يوم الجمعة، وبينما كانت التدريبات تجرى على نموذج، استمر الجدل داخل مجلس الوزراء. وعبر رئيس الوزارة عن شكوكه حول ملاءمة العملية. وفى تلك الأثناء، التقى رئيس الأركان بجميع القادة المشتركين فى العملية. وسأل كل منهم عن تقديره لفرص النجاح. وأفاد الجميع بأن المهمة ممكنة التحقيق، وأن فرصة النجاح طيبة. وتحدث «جور» إلى كل واحد منهم، وسألهم عما إذا كانوا يقدرون نتيجة الفشل. ومع ذلك، فقد أبلغهم بأنه سوف يذهب غداً السبت، يوم العطلة، إلى مجلس الوزراء ليوصى بتنفيذ العملية.

في الثامنة من صباح السبت، قدم «جور» خطته إلى وزير الدفاع، ثم قاما بتقديمها معاً إلى رئيس الوزراء. وبدأ «جور» حديثه بالقول: «أقدم لك خطة للتنفيذ هذا المساء. والقوات جاهزة والعملية تسير وفقاً للخطة الموضوعة». و أعطى رئيس الوزراء موافقته، بشرط موافقة المجلس. وبعد ذلك بثلاث ساعات أعطيت التعليمات النهائية للقوات. وتم الإقلاع في الثالثة والنصف مساءا.

كانت الخطة كالتالي: تهبط الطائرة الأولى على الممر وتقوم بإنزال وحدة من المظليين، مهمتها إضاءة الممر إضاءة طوارىء إضافة إلى الإضاءة العادية. بعد ذلك تتحرك الطائرة بسرعة حتى نهاية الممر، وهناك تنزل من الطائرة الوحدة المكلفة بالسيطرة على المبنيين. وكان على الوحدة التي يقودها الليفتانت كولونيل «يوناثان نتيناهو» (يوني)، والمحمولة في سيارة مرسيدس وسيارتين لاندروفر، أن تتجه مباشرة إلى المبنى القديم لتحرير الرهائن. وكان على المظليين الذين يقودهم الكولونيل «ماتان فلناي»، أن تتجه سيراً على الأقدام نحو المبنى الجديد وتسيطر عليه، وكذلك على برج المراقبة ومحطة الوقود. وكان على الميجور جنرال «دان شمرون»، مع قيادة أركانه، أن ينزل مع هاتين الوحدتين.

وكان على الطائرة الثانية أن تهبط بعد سبع دقائق من هبوط الأولى، لتتيح بذلك الوقت أمام قوة «نتنياهو» للاستيلاء على المبنى القديم على حين غرة، وتطلق سراح الرهائن. وكان علي هذه الطائرة أن تستكمل سيرها بعد ذلك حتي نهاية الممر وتنزل بقية القوات، بما فيها عربتين مدرعتين لضمان التطويق الفوري للممر وتحرير الرهائن. وكان على هذه الطائرة إن تحمل كذلك عربة قيادة «شمرون» الجيب، حتى يتمكن من الانتقال السريع بين الوحدات والسيطرة عليها والبقاء على اتصال مباشر مع طائرة القيادة التي تحلق فوقهم.

وكان على الطائرة الثالثة أن تهبط فور هبوط الثانية وتنزل عربتين مدرعتين أخريين لقوة الليفتانت كولونيل «نتيناهو»، ووحدة مشاة من لواء «جولاني» تحت قيادة الكولونيل «أور»، مهمتها السيطرة على المنطقة التي تربط بين المبنيين، والعمل كاحتياطي في حال وقوع تطور غير متوقع في أي من أجزاء المطار المختلفة، ومعاونة الرهائن في ركوب طائرة الإنقاذ.

وكان على الطائرة الرابعة والأخيرة أن تُنزل بقية قوات الاحتياط وسيارة إسعاف بيجو للإخلاء السريع للمصابين. وكانت تحمل طاقما طبيا وكذلك طاقما للتزود بالوقود. وكانت الأوامر الصادرة لهذه الطائرة تقضي بتحركها نحو المهبط القديم لحمل الرهائن.

كان المتخيل هو أن أكثر عناصر تلك العملية حرجاً هو الهبوط الفعلي للطائرات؛ واقتحام

المبنى القديم؛ ومنع وصول الإمدادات الأوغندية؛ وتأمين الممر لضمان العودة الآمنة للوطن.

وفى الثالثة والثلث مساءا، سمح مجلس الوزراء، الذى كانت مناقشاته لا تزال دائرة، بالإقلاع فى الثالثة والنصف؛ علماً بأن الموافقة على العملية الفعلية لم تكن قد تمت بعد. وكان مفهوماً أنه إذا لم تقر الخطة، فإن على الطائرات أن تعود إلى قاعدتها. وبحلول الساعة الرابعة، كانت الطائرات بحمولتها تحلق فى الجو، وبعد ذلك بفترة وافق المجلس بالإجماع على العملية.

وبعد سبع ساعات من الطيران، دخلت القوة مجال التوجيه لبرج عنتيبى. وكانت الخطة موضوعة بحيث تختفى الطائرة الأولى خلف طائرة شحن بريطانية تطير فى هذا الموعد، وبهذا لا تثير الشكوك. وكما كان مخططاً بالفعل، جاءت الطائرة خلف الطائرة البريطانية فى الوقت الذى طلب فيه قائدها الإذن بالهبوط. لقد عبروا بحيرة فيكتوريا وسط عاصفة ممطرة، وتم التمهيد للهبوط بواسطة الأدوات. وفجأة، توقف المطر وصفت السماء، وبانت لهم أنوار مطار عنتيبى.

هبطت طائرة الشحن البريطانية، وانزلقت وراءها مباشرة أول طائرة هيركيولز دون أن تثير أية شكوك فى برج المراقبة. وعندما لامست الطائرة الأرض، أبطأ الطيار من سرعته حسب الخطة، وقفز فريق المقدمة منها بينما كانت الطائرة لاتزال تسير. وانتشروا على جانبى المطار، ووضعوا رقبة الأوزة (أنوار هبوط متحركة) لتكون جاهزة لتوفير إضاءة بديلة للطائرات الثلاث التالية فى حالة إطفاء أنوار المطار. وتحركت الطائرة دون إضاءة إلى زاوية مظلمة، وخرجت منها قوة الإنزال الأولية، وكذلك السيارة المرسيدس وسيارتى اللاندروفر. كان يسود المكان جو من الهدوء والسكينة. وكان المصدر الوحيد للضوضاء هو طائرة الشحن البريطانية التى كانت تتحرك نحو المبنى، حيث غطت على ضجة الفريق الاسرائيلى. ونظر الميجور جنرال «شمرون» حوله وقال لرجاله : « لقد نجحت العملية يا أولاد رغم أن رصاصة واحدة لم تطلق بعد».

ركب الرجال العربات، التى انطلقت بهم ببطء إلى حيث يحتجز الرهائن والكشافات فوق رءوسهم. وتقدمت المرسيدس تتبعها سيارتان لاندروفر. كانت المنطقة جيدة الإضاءة ولا صعوبة فى اكتشاف الطريق إلى الهدف. وعلى مسافة مائة ياردة من برج المراقبة، رأى جنديان أوغنديان بوضوح أضواء الرأس الاسرائيلية. وسحب «نتنياهو» وضابط آخر مسدسيهما المزودين بكاتم للصوت. وصوب أحد الجنديين بندقيته إلى المركبة وطلب إليها التوقف. وأطلق «نتنياهو» والضابط الآخر النار على الجندى من مسافة عشر ياردات فأرداه

قتيلاً. وبسبب هذا التعرض غير المخطط له، اضطرت الوحدة إلى النزول فوراً بعيد عن المبنى بحوالى ٥٠ ياردة، وبدلاً من الوصول إليه بالسيارات أكملوا المسيرة على الأقدام. كان أحد مداخل المبنى مغلقاً، فدخلت القوة من المدخل المتبقى بدلاً من استخدام المدخلين كما كان مقرراً بالخطة. وكان هذا المدخل يقود إلى القاعة الموجود بها الرهائن، حيث ذهب معظمهم فى نوم عميق فوق الأرض. وفتح أحد الإرهابيين، كان يقف إلى اليمين، النار، وأمكن قتله. وإلى يسار الصالة، بجوار النافذة، كان هناك اثنان من الإرهابيين - أحدهما امرأة - أطلق عليهم جنود المقدمة النار. وأمكن التعرف على إرهابى رابع فى نهاية القاعة وأُطلق عليه النار. كانت القاعة مضاءة بالكامل، وكان من السهل التعرف على الإرهابيين لأنهم كانوا كلهم يقفون وهم يحملون السلاح. لقد فوجئوا مفاجأة تامة.

لم يتعد الفاصل الزمنى بين إطلاق النار على الحارس الأوغندى خارج مبنى المطار وبين قتل الإرهابيين الأربعة داخل البمنى، الخمس عشرة ثانية. ولاشك فى أن هذه السرعة التى تمت بها العملية كانت العامل الرئيسى للنجاح الابتدائى. ودعا أحد الجنود جميع الرهائن، بالعبرية والانجليزية، إلى البقاء رقوداً على الأرض - لكن أحد الرهائن لم يستطع، من فرحته، أن يستجيب للأمر، فقفز، فأطلق عليه النار. تتبع الليفتانت كولونيل «نتيناهو» وحدة الهجوم. وبلغ مدخل القاعة، وتوقف أمام الحديقة الموجودة أمام المدخل. وفجأة، أُطلقت النيران من برج المراقبة على الوحدة المهاجمة. وأصيب «نتيناهو» برصاصة فى عنقه. وبرغم إجلائه بسلام، إلا أنه توفى بعد ذلك.

كان مقرراً للطائرة الثانية أن تهبط بعد سبع دقائق بالضبط من هبوط الطائرة الأولى، وذلك حتى يتسنى للقوات المهاجمة مفاجأة الإرهابيين مفاجأة تامة. وطبقاً للخطة، هبطت الطائرات الثلاث الأخرى، وأنزلت عرباتها المدرعة. واندفعت العربات، ومعها «شومرون» في عربته الجيب، نحو المبنى. وفى داخل المبنى واصلت قوة الهجوم إطلاق النار والقضاء على أى من الإرهابيين أو الجنود الأوغنديين. وحاول اثنان من الإرهابيين الأوروبيين التسلل إلى خارج المبنى، تحت دعوى أنهما من الرهائن. وعندما لاحظ أحد قادة القطاعات قنبلة يدوية تتدلى من حزام أحدهما، أمرهما بالتوقف. لكنهما واصلا التحرك فأطلق عليهما النار، وانفجرت فيهما القنبلة اليدوية. وتولت وحدات إضافية البحث وتطهير قاعة كبار الزوار وصالة الجمارك: فر ٦٠ جندياً أوغندياً كانوا بالطابق الثانى. وعلى كل، قتل خلال هذه العملية ٣٥ من الجنود الأوغنديين. وقد أخذ ١٢ إرهابياً - كان بعضهم نائماً - بالمفاجأة، وقتلوا من مسافة قصيرة.

واصلت القوات الأوغندية ببرج المراقبة، إطلاق النار علي القوات الاسرائيلية، بينما كان يجرى إخراج الرهائن من القاعة على وجه السرعة. وتوجهت حاملة الجنود المدرعة مع قوة الجنود لتحييد برج المراقبة. وكان ذلك يتم بواسطة النيران المركزة والكثيفة لمدافع الماكينة وآر. بى. چى. وأصبح ممكناً الآن، والطائرة الثالثة تتجه نحو المبنى القديم، أن يقوم الكولونيل «اور»، مع اثنين من الوحدات، بإخلاء الرهائن من المبنى القديم. وكان يوجد بجانب طائرة الإخلاء الفريق الطبى، الذى بدأ على الفور فى معالجة المصابين. واستغرقت عملية نقل الرهائن والمصابين والقتلى إلى الطائرة حوالى ١٥ دقيقة.

فى تلك الأثناء، وبعد أن توقف إطلاق النار عند المبنى القديم، أمر «شمرون» الكولونيل «ڤلناى» بالتحرك. وتوجهت إحدى الوحدات إلى المبنى الجديد مباشرة، بينما قامت وحدة ثانية باستكشاف موقف الطائرات المواجه للمبنى. وقامت الوحدة الموجهة إلى المبنى باقتحامه وتفتيش المدخل وطابقى المبنى وكذلك سطحه. وطبقاً للتعليمات، صدرت الأوامر إلى القوات بعدم فتح النيران إلا إذا بادرت القوات الأوغندية، بالمبنى الجديد، بفتح نيرانها. وقد سمح لجميع الأوغنديين بالفرار، لكن ١٥ من الأوغنديين الذين استسلموا أُغلقت عليهم إحدي الحجرات، ونبه عليهم بعدم مغادرتها. وفى خلال ١٥ دقيقة من بدء العملية، أمكن لقوة «ڤلناى» السيطرة على المبنى الجديد، ووصلت عربة البيجو مع معدات التزود بالوقود. وهنا، أوصى «ڤلناى» وقائد طائرة القيادة (الذى كان قائداً للسرب) بعدم التزود بالوقود من عنتيبى. وقبل «شومرون» بتوصيتهما، وطلب من القيادة الأمامية للقيادة العامة الإذن بالإقلاع دون التزود بالوقود، وكانت تلك القيادة الأمامية تحلق فوقهم فى طائرة من طراز بونيج ٧٠٧. وصدرت التعليمات بعدم التزود بالوقود فى عنتيبى، والقيام بذلك فى نيروبى.

فى الحادية عشرة ودقيقة واحدة مساءا هبطت الطائرة الأولى؛ وفى الحادية عشرة وثمانى وخمسين دقيقة – أى بعد ٥٧ دقيقة من بدء العملية – أقلعت الأولى من عنتيبى وعلى متنها الرهائن باتجاه نيروبى. وبعد ذلك باثنتين وأربعين دقيقة، أقلعت الطائرة الأخيرة بعد أن انتهت إحدى الوحدات – التي كان عليها أن تظل حتى النهاية، ثم تطلق نيران مدافع الماكينة على ثمان من طائرات الميج التابعة للقوات الجوية الأوغندية – من مهمتها. وظل «شمرون»، بقيادته، مع وحدة المؤخرة وأقلع معها على متن آخر طائرة.

هبطت الطائرات بمطار نيروبى للتزود بالوقود، حتى تتمكن من مواصلة رحلتها بعد ذلك إلى اسرائيل، حيث استقبلوا وسط أجواء الفرح والنصر، بعد إنجاز بعد واحدة من أكثر

العمليات التى شهدها التاريخ إثارة وبراعة. وعند وصوله إلى مقر السيطرة الخاصة به بقيادة الأركان العامة بتل ابيب، شرب الجنرال «جور» ورئيس الوزارة ووزير الدفاع وأعضاء قيادة الأركان العامة نخب اولئك الذين لازالوا يطيرون فى طريق عودتهم من عنتيبى.

كانت العملية على درجة كبيرة من المخاطرة. فهى لم تكن عملية للاستيلاء على أرض أو لإحداث إصابات باستخدام النيران الكثيفة: كانت عملية لإطلاق سراح رهائن تحت الحراسة، وفى حالة كهذه فإنه لا طائل من وراء استخدام قوة نيران مركزة، بل إن ذلك يؤدى إلى نتائج عكسية فى حقيقة الأمر. وكان لعملية كتلك أن تكون معقدة للغاية بالضرورة، فهى مثل من يستخدم سكينا حادا بدلاً من بلطة غليظة. وكانت السرعة مسألة جوهرية، لأن أى تردد يمكن أن يكون ثمنه هو حياة الرهائن الاسرائيليين أنفسهم. فالقوة كانت تواجه ما بين ١٠ - ١٣ من الإرهابيين المتحفزين، يتخذون مواقعهم وسط الرهائن. وقد أثرت هذه الحقيقة المرشدة على مجمل الخطة وتحديد نمط العملية. وفوق ذلك، فإن الخطة لم تكن تحظى بهامش أمان. ففى ميدان المعركة إذا لم تنجح إحدى الهجمات، تبذل محاولة أخرى أو يجرى التحرك نحو قطاع آخر. وإذا ما فشلت كتيبة، فإن كتيبة أخرى تتقدم نحو المعركة. كما يمكن إضافة الدعم الجوى والمدفعى. هناك دائماً هامش أمان. أما فى عملية مثل عملية عنتيبى، فإن كل عنصر من عناصر العملية يعتمد على الآخر اعتماداً متبادلاً. وأقل خطأ أو ضعف فى التنسيق، يجعل البناء كله ينهار مثل مجموعة من ورق اللعب. وقد برز هذا الدرس خلال محاولة الولايات المتحدة المشئومة لتحرير رهائنها فى ايران عام ١٩٨٠. فمثل تلك العمليات لا تترك أدنى هامش للأمان.

لقد جرى تنفيذ الخطة وسط ظروف غاية فى الصعوبة، حيث كان هناك كثير من المعطيات غير معلومة. فجميع القصص اللاحقة حول العملاء فى أوغندا وعلى بحيرة فيكتوريا إنما هى محض افتراء ولا أساس لها من الصحة. إن عملية عنتيبى كانت ثمرة لسنوات من التدريب لوحدة مكافحة الإرهاب ومجموعات الكوماندوز التي رافقتها، تحسباً لاحتمالات كهذه، وهى شهادة على أن جيش الدفاع الاسرائيلى لا يترك شيئاً للصدفة. كل الاحتمالات جرى التفكير فيها والإعداد لمواجهتها مسبقاً، ولذلك كان من الممكن التخطيط لعملية كهذه وتنفيذها فى وقت قصير. لقد كانت عملية عنتيبى لطمة شديدة للإرهاب الدولى، ودفعة جديدة، فى الأمم المتحدة وفى كل مكان لمواجهة هذه الظاهرة الخطيرة واحتذاء المثال الاسرائيلى.

وخلال النقاش الذى دار فى مجلس الأمن، والذى جرى خلاله محاولة فاشلة لإدانة اسرائيل

على قيامها بعملية إنقاذ الرهائن فى عنتيبى، قال مؤلف هذا الكتاب، والذى كان يمثل اسرائيل:

«لقد كان من قدر بلد صغير كبلدنا، معرض للحرب ويواجه الصعاب، أن يعلن للعالم أن هناك بديلاً عن الاستسلام أمام الإرهاب والابتزاز. لقد كان قدرنا أن نثبت للعالم أن كارثة الإرهاب الدولى هذه يمكن التصدى لها. إن على أمم العالم، بصرف النظر عن الخلافات السياسية التى تفرق بينها، أن تتحد فى مواجهة هذا العدو المشترك الذى لا يعترف بسلطان، ولا يعرف حدوداً، ولا يحترم أى سيادة، ويتجاهل جميع قواعد اللياقة الانسانية، ولا يعرف حدوداً للوحشية الانسانية.

لقد جئنا إلى المجلس برسالة بسيطة: نحن فخورون بما فعلنا، لأننا أعلننا للعالم أنه فى بلد صغير يعيش ظروفاً كتلك التى تواجهها اسرائيل، والتي صارت معروفة لجميع أعضاء هذا المجلس، تشكل كرامة الإنسان وحياته والحرية الانسانية أغلى القيم، ولسنا فخورين فحسب لأننا أنقذنا حياة أكثر من مائة إنسان برىء - من الرجال والنساء والأطفال - وإنما لدلالة ما قدمناه من أجل قضية الحرية الإنسانية.

إننا ندعو هذه الهيئة لإعلان الحرب على الإرهاب الدولى وتحريمه واستئصال شأفته أينما وجد. نحن ندعو هذه الهيئة، وندعو، قبل أى شىء، الأعضاء الدائمين وبلدان العالم لتوحيد الجهود من أجل عزل هؤلاء المجرمين خارج المجتمع الإنسانى، وكذلك عزل أى بلد يتعاون، بأى شكل من الأشكال، معهم فى نشاطتهم المخزية.. »

الفصل السابع

عملية «السلام للجليل»

عملية

«السلام للجليل»

فى ربيع ١٩٨١، اتخذت الحرب الأهلية فى لبنان، والتى تسببت فى خراب هذا البلد التعس منذ ١٩٧٥، مساراً جديداً، عندما اندفعت القوات السورية، التى كانت تسيطر على طريق دمشق – بيروت، شمالاً لتخترق المنطقة الجبلية الواقعة شمالى الطريق وشمالى شرقى بيروت التى تسيطر عليها القوات المسيحية المارونية، بقيادة الزعيم المسيحى «بشير الجميل». وكانت هذه القوات تتلقى معونات عسكرية من اسرائيل منذ ١٩٧٦، وكانت تحث اسرائيل على التدخل العسكرى فى لبنان لطرد القوات السورية ومنظمة التحرير الفلسطينية.

أدى ذلك إلى تجدد القتال حول مدينة زحلة المسيحية بوادى البقاع، وعلى الطريق الرئيسى الذى يربط بيروت بدمشق. وكان مواطنو زحلة قد حاولوا إنشاء طريق بديل لهذا الطريق، الذى كان واقعاً تحت سيطرة السوريين، حتى يتمكنوا من الاتصال مباشرة بالمنطقة الواقعة إلى أقصى الشرق والتى تسيطر عليها القوات المارونية. لكن السوريين اعترضوا على إقامة مثل هذ الطريق، وبدأوا فى قصف مدينة زحلة قصفاً منتظماً. وقد نشب القتال بين الجيش السورى والوحدات المسيحية المدعمة، عندما أخذ السوريون فى تدمير المدينة دون تمييز، ووقعت خسائر بشرية ومادية كبيرة بسبب القتال حول زحلة، التى وضعها السوريون تحت الحصار.

وفى ابريل ١٩٨١، هاجم السوريون موقعاً مسيحياً فوق جبل صنّين، يعرف باسم الغرفة الفرنسية. وكان هذا الموقع الاسراتيجى يتولى توجيه نيران مدفعية كل من زحلة وميناء جونيه، الذى أصبح عاصمة للمنطقة المسيحية المارونية شمالى بيروت. وعن طريق هذا الميناء، كان المسيحيون يتلقون الإمدادات.

وعندما واجه السوريون مقاومة عنيفة فى الغرفة الفرنسية وفوق جبل لبنان، قاموا بهجمات بالهليكوبتر فيما بين ٢٥ – ٢٧ ابريل ١٩٨١. وقد وضع استخدامهم الفعال لنيران الصواريخ المباشرة، المنطلقة من الهليكوبتر، مواقع الجبل المسيحية فى موقف حرج للغاية، وأصبحت عرضة لخطر الاجتياح من جانب الجيش السورى.

وجه الموارنة إلى اسرائيل دعوة يائسة لطلب المساعدة، مؤكدين أن الطائفة المسيحية اللبنانية، دون حماية ضد الغارات الجوية، سوف تصبح معرضة لمذبحة، ويتهددها خطر الإبادة. فأصدر «مناحم بيجن»، رئيس الوزراء، أوامره إلى القوات الجوية الاسرائيلية لتقديم المساعدة للمسيحيين، مؤكداً أن الطائفة المسيحية تتعرض لخطر الإبادة التامة.

رأى الإسرائيليون فيما يحدث أن - ولأول مرة خلال أربع سنوات من عمر التدخل السورى فى لبنان - خطرا إبادة المسيحيين يشكل انتهاكا لمفهوم «الخط الأحمر» مع اسرائيل.

وتنفيذاً لقرار «بيجن»، قامت القوات الجوية فى ٢٨ أبريل بإسقاط طائرتى هليكوبتر روسية الصنع من طراز «مى ٨»، أثناء قيامها بإمداد القوات السورية المهاجمة. وكان هذا العمل كذلك خرقا لأحد المعاهدات غير المكتوبة التى تحدد العلاقات الاسرائيلية - السورية فى لبنان. ومنذ ذلك الحين، ومن أجل حماية قواتهم من الطيران الاسرائيلى، قام السوريون بتحريك صواريخهم أرض - جو - التى تغطى، من سوريا سهل البقاع الذى يسيطر عليه السوريون فى شرقى لبنان - إلى وادى البقاع، منتهكين بذلك اتفاقا اسرائيليا - سوريا آخر غير مكتوب. فوجود بطاريات صواريخ أرض - جو سورية فى وادى البقاع يعوق طلعات الاستطلاع الاسرائيلية المنتظمة فوق الأراضى اللبنانية، والتى كان السوريون يسلمون بها ضمناً.

وطالب الاسرائيليون، عبر السفير «فيليب حبيب» - الوسيط الأمريكى الذى أرسله الرئيسى «ريجان» إلى المنطقة - السوريين بسحب صواريخهم من الأراضى اللبنانية. ورفض السوريون، وطبقاً لما أعلنه «بيجن» أمام إحدى المسيرات السياسية (كانت اسرائيل فى ذروة حملة الانتخابات القومية التى كان مقرراً عقدها فى ٣٠ يونيو) فقد أُرسلت الطائرات الاسرائيلية للهجوم على مواقع الصواريخ فى أبريل، لكنها فشلت فى إنجاز مهمتها بسبب السحب الكثيفة فى المنطقة. وواصل السفير «حبيب» مهمته. ولم يحرز نجاحاً كبيراً.

فاز حزب «بيجن» (الليكود) بأغلبية طفيفة على تحالف العمل، الذى حقق نجاحاً كبيرا بحصوله على ٤٧ مقعداً مقابل ٣٢ مقعداً فى الانتخابات السابقة. واستطاع «بيجن»، بعد الحصول على تأييد الأحزاب الدينية الثلاثة فى الكنيست، أن يشكل حكومة ائتلافية.

فى يوليو ١٩٨١، فتحت وحدات منظمة التحرير الفلسطينية فى جنوب لبنان نيراناً كثيفة وبلا تمييز، من مدافع ١٣٠ مم السوفيتية البعيدة المدى وصواريخ كاتيوشا، على حوالى ٣٣ مدينة وقرية اسرائيلية فى الجليل الشمالى. واستمرت المعركة على الحدود الشمالية لإسرائيل حوالى عشرة أيام، التجأ السكان الاسرائيليون خلالها إلى المخابىء.

وأصبح من الواضح أن اسرائيل لا يمكنها القبول بوضع كهذا، يعوق الحياة الطبيعية فى

الجليل الشمالي. ففي كيريات شمونة، توقفت الصناعة وترك المدينة أعداد كبيرة من السكان وتوقفت حركة السياحة في منتجع نهارياً بالشمال.

وجاء رد اسرائيل واسع النطاق وشامل وعنيف، وشمل قصف مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، ومستودعاتها في بيروت، وقواعدها في لبنان. وعند هذا الحد، بدأ السفير «فليب حبيب» مفاوضاته من أجل التوصل لوقف إطلاق النار الذى كان الطرفان - الاسرائيليون الذين تعطلت حياتهم في الجليل الشمالي، ومنظمة التحرير التي كانت تعاني بشدة من الرد الإسرائيلي - يميلان إلى قبوله. وفى ٢٤ يوليو ١٩٨١، وبعد استخدام الوساطة السعودية لدى المنظمة، نجح السفير «حبيب» في ترتيب وقف إطلاق النار. وبدأت الحياة الطبيعية تعود سيرتها الأولى إلى الجليل.

على أنه سرعان ما بدأت تظهر الخلافات في وجهات النظر حول طبيعة وقف إطلاق النار: الاسرائيليون يصرون على أن وقف إطلاق النار سوف يكون كاملاً بحيث لا يسمح بأى عمل ضد أهداف في داخل اسرائيل أو أهداف إسرائيلية ويهودية في الخارج. منظمة التحرير الفلسطينية أصرت على أن الاتفاق يشمل فقط العمليات التي تجرى عبر الحدود اللبنانية الاسرائيلية. ومال التفسير الأمريكي إلي قبول تطبيق وقف إطلاق النار علي أهداف داخل اسرائيل مهما كان اتجاه الهجوم، وعدم سريانه على أهداف في الخارج. وبينما ظلت الحدود الشمالية آمنة، سرعان ما قامت المنظمة بعمليات أخرى. فوقع تراشق واشتباكات مع وحدات للمنظمة عبرت الحدود الاسرائيلية من الأردن عبر النهر؛ ووقعت أعمال إرهابية داخل اسرائيل؛ وتمت عملية اغتيال دبلوماسى اسرائيلى في باريس؛ وتعرضت للهجوم أهداف اسرائيلية ويهودية في أنحاء متفرقة من أوروبا. وأوضحت اسرائيل أن جميع هذه النشاطات تعد انتهاكاً لوقف إطلاق النار. وقد بلغت العمليات الإرهابية التي قامت بها المنظمة ضد أهداف اسرائيلية، أثناء وقف إطلاق النار، ما يزيد على ٢٤٠ عملية.

في عدد من المناسبات تصاعد التوتر ليقترب من نقطة الانفجار، وعُبئت القوات الاسرائيلية واحتشدت لعبور الحدود اللبنانية. وأوضح «اريل شارون»، وزير الدفاع، أن نية اسرائيل هي عبور الحدود بالقوة واستئصال شأفة المنظمة. وفي العديد من حواراته، ومنها تلك التى أجراها مع ممثلي الحكومة الأمريكية، أعلن عن رغبته في الوصول إلى المسيحيين في شمال بيروت ليسهم بذلك في إقامة حكم مستقر بلبنان، وتخليص لبنان من منظمة التحرير الفلسطينية والقوات السورية، حتى يصبح بالإمكان إقامة علاقات طبيعية مع اسرائيل.

كان هناك اعتبار كبير في ذلك الوقت لانسحاب اسرائيل النهائي من سيناء في ٢٦ ابريل

بمقتضى معاهدة السلام الاسرائيلية - المصرية. وكان الشعور السائد هو أنه لا مصر ولا الولايات المتحدة يمكنها أن تعارض نوايا اسرائيل فى عبور الحدود، حيث أن معارضة كهذه تعطى اسرائيل المبرر كى تعيد التفكير فى انسحابها من سيناء. لكن الضغط الشديد من جانب الولايات المتحدة والمعارضة داخل مجلس الوزراء أدى إلى تأجيل العملية.

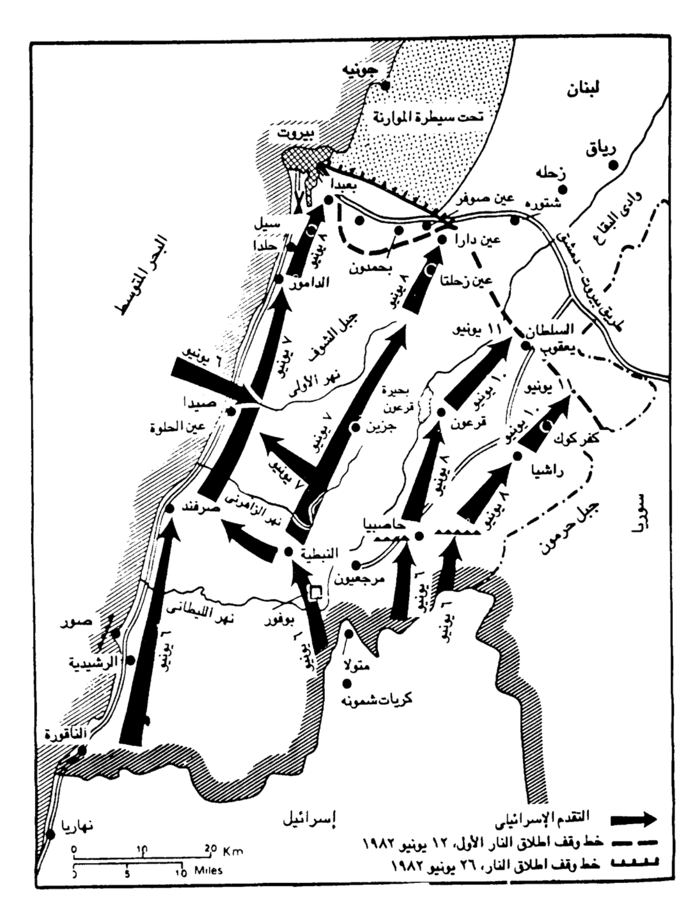
اكتمل الانسحاب الاسرائيلى من سيناء وسط معارضة داخلية شديدة، اضطرت معها القوات المسلحة الاسرائيلية إلى طرد الكثيرين ممن رفضوا إخلاء المستعمرات الاسرائيلية فى سيناء وقرية ياميث. وبعد ذلك تسارعت عملية التطبيع بين اسرائيل ومصر.

كان هناك علامات قلق متزايد داخل صفوف منظمة التحرير الفلسطينية لأن سريان وقف إطلاق النار مع اسرائيل أزال الكثير من مبررات وجود تلك المنظمة. وتزايدت الضغوط من أجل استئناف النشاطات المعادية لاسرائيل.

وفى يوم الخميس ٣ يونيو، وبينما كان المبعوث الاسرائيلى إلى القصر الملكى البريطانى، المستر «شلومو اجروف»، يغادر حفل العشاء الذى أقيم بفندق دورشستر بلندن، تعرض لمحاولة لاغتياله بإطلاق النار عليه، فأُصيب بجروح بالغة فى رأسه. وقد قتل الجانى برصاصات أحد ضباط الأمن الخاص التابعين لسكوتلانديارد، ونجح بوليس لندن بعد ذلك بقليل فى القبض على شركائه، الذين كشفوا عن عصابة إرهابية وكميات من الأسلحة وقائمة بأسماء عدد من الاسرائيليين واليهود البارزين ببريطانيا ينتوون اغتيالهم. وكان المعتقلون الثلاثة ايرانيا وأردنى وعراقيا. ومن الواضح أنهم كانوا ينتمون لمجموعة إرهابية عراقية منشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية، يقودها «أبو نضال» ويتبناها السوريون. وأنكرت منظمة التحرير اشتراكها فى محاولة الاغتيال.

اجتمع مجلس الوزراء الاسرائيلى وقرر أنه لا يمكن التزام الصمت حيال استفزاز كهذا، وفى فبراير قام الطيران الاسرائيلى بغارات مكثفة على أهداف منظمة التحرير بمنطقة بيروت وانحاء لبنان. وردت منظمة التحرير على الفور بقصف المستعمرات الاسرائيلية فى شمال الجليل بالمدفعية وصواريخ كاتيوشا، محدثة خسائر مادية كبيرة وبعض الخسائر فى الأرواح.

وفى الحادية عشر من صباح ٦ يونيو، قامت قوة مدرعة اسرائيلية كبيرة بعبور الحدود اللبنانية فى إطار عملية «السلام للجليل». وأعلنت الحكومة الاسرائيلية أن الهدف من العملية هو ضمان إبعاد جميع العناصر المعادية من شمال الحدود اللبنانية إلى مسافة تجعل القرى والمدن الاسرائيلية الحدودية خارج المرمى. فأعلن المتحدث باسم الحكومة أن الهدف من العملية



عملية السلام للجليل

هو جعل «... جميع المستوطنات بالجليل خارج مرمى مدفعية الإرهابيين... المتمركزة فى لبنان.» بمعنى آخر أن العملية سوف تشمل منطقة تمتد لمسافة حوالى ٤٠ كم (٢٥ ميلا) شمال الحدود الاسرائيلية.

تعد السلسلتين الجبليتين الشاهقتين: جبل لبنان، الذى يبلغ ارتفاعه ٢ر٠٤٦ متر جنوبى بيروت، وجبل لبنان الشرقى الذى يصل ارتفاعه إلى ٢ر٨١٤ متر عند جبل حرمون هما أهم مظاهر التضاريس فى لبنان. وتقسّم هاتان السلسلتان البلاد إلى أربع مناطق متوازية تمتد من الشمال إلى الجنوب. وهى السهل الساحلى، وجبل لبنان الغربى؛ ووادى البقاع؛ جبل لبنان الشرقى وهى القمم التى تحدد الحدود بين لبنان وسوريا.

وتعتبر المنطقة الجبلية منطقة صعبة، وبصفة خاصة أمام العربات المدرعة المقاتلة، فطرقها ضيقة وصيانتها فقيرة، ومن السهل الدفاع عنها. أما المنطقة الساحلية فيتراوح عرضها بين عدة مئات من الأمتار وعدة مئات من الكيلو مترات، ومدنها وقراها، مثل طرابلس وصيدا والدامور، وتعتبر عقبات على الطريق.

من اليسير تغطية وادى البقاع بالنيران من منحدرات الجبال المحيطة، كما أن الزراعة الكثيفة بالمنطقة تسهل عملية إخفاء القوات المدافعة. ويمر نهر الليطانى عبر جزء طيب من لبنان، من الشرق إلى الغرب، من منطقة وادى البقاع إلى البحر المتوسط، وتحتل مرتفعات بوفور، التى يبلغ ارتفاعها ٧١٧ متراً عند انحراف نهر الليطانى، وادى البقاع الجنوبى ومداخله من ناحية اسرائيل. ويسيطر على هذه المنطقة الجيدة الدفاع، قوتان عسكريتان: قوات منظمة التحرير الفلسطينية والجيش السورى. وتسيطر المنظمة على حوالى ١٥ ألف مقاتل ضمن تشكيلات عسكرية تخضع للقيادة العامة لمجلسها العسكرى الأعلى. وكانت هذه القوة تنتشر على السفوح الغربية لجبل حرمون، والمعروفة عموماً باسم «فتح لاند»؛ وفى منطقة النبطية المؤلفة من مرتفعات عرنون، والتى تتحكم فى انحناءة نهر الليطانى؛ وعلى المحور الرئيسى بين رأس وادى البقاع وساحل البحر المتوسط جنوبى صيدا. وتتحكم منطقة النبطية كذلك فى ما يسمى بالمحور الأوسط إلى الشمال من اسرائيل، ومنطقة عيشية - الريحان، وإقليم طرابلس، ومنطقة جنوب وشرق طرابلس المرتكزة على جونيه، ومنطقة صيدا الكبرى ومنطقة الساحل الشمالى فيما بين الدامور وبيروت. وكانت قوات المنظمة فى كل منطقة من هذه المناطق تتراوح بين ١٥٠ مقاتل وقوة لواء، ومسلحة بتشكيلة كبيرة من الأسلحة الخفيفة والثقيلة، والمدفعية التى تصل أعيرتها إلى ١٣٠ مم، وبمنصات لإطلاق صواريخ كاتيوشا، يمكن

لبعضها إطلاق أربعين صاروخ من عيار ١٢٢ مم. ويضم سلاح مدرعات المنظمة مائة دبابة من طراز «تى ٣٤» السوفيتية الصنع، وعددا من حاملات الجنود من طراز «يو.آر ٤١٦»، بالإضافة إلى تشكيلة كبيرة من الأسلحة المضادة للدبابات والطائرات.

كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد استولت، فى الحقيقة، على جزء كبير من منطقة لبنان الجنوبى، وأقامت عليه «دولة داخل الدولة». وكانت السلطة اللبنانية لا وجود لها بسبب الممارسات الإرهابية الوحشية للمنظمة التى خلقت كابوساً للشعب اللبنانى. فقد كان الكثير من منشآت المنظمة العسكرية موجودة وسط المناطق الحضرية والريفية؛ فتحولت بذلك شقق البنايات السكنية الكبيرة إلى مستودعات لتخزين الأسلحة والذخائر الشديدة الانفجار، كما تحولت الشقق فى الكثير من البنايات إلى مواقع للأسلحة . وكان انتشار قوات المنظمة مخططا بحيث يسمح بتحويل السكان المدنيين إلى درع حى، بل إلى رهائن بيد المنظمة.

ومنذ ١٩٧٦، وسوريا، التى دخلت لبنان بناء على طلب من القوات المسيحية لحمايتها من هجمات منظمة التحرير الفلسطينية، تحتفظ فى لبنان بجيش قوامه ٣٠ ألف رجل. وكانت هذه القوة - ظاهرياً - جزءا من قوة عربية لحفظ السلام، الغرض منها فرض وقف إطلاق النار أثناء الحرب الأهلية، لكن القوات العربية الأخرى انسحبت تدريجياً عندما اتضح أن قوة «حفظ السلام السورية» كانت، فى حقيقة الأمر، قوة احتلال لتنفيذ سياسة سوريا فى تحويل لبنان إلى دولة تابعة *.

يصل حجم القوة السورية فى لبنان إلى الفرقة، وتشتمل على لواء دبابات ولواء مشاة مما يعرف باسم جيش التحرير الفلسطينى. وعلاوة على ذلك، فقد نُشر لواء دبابات وقوات معاونة فى المنطقة الواقعة بين الحدود السورية وجب جنين، لتغطية بطاريات صواريخ سام٢ وسام٦ أرض - جو المتمركزة فى لبنان. وإلى الجنوب، انتشرت قوة بحجم اللواء بوادى البقاع، على جانبى بحيرة قرعون وحتى منطقة حاصبيا. وتضم القوة السورية فى لبنان حوالى ٢٠٠ دبابة ، بالإضافة إلى ١٠٠ دبابة على الحدود اللبنانية. وفى معظم المناطق الواقعة تحت السيطرة السورية، وخاصة فى القطاع الجنوبى الشرقى، تتمركز قوات منظمة التحرير الفلسطينية خلف القوات السورية الأمامية.

*لم تعترف سوريا، على الإطلاق، بلبنان كبلد مستقل، وليس لها فى الواقع علاقات دبلوماسية مع لبنان. فلم يكن هناك مطلقاً سفارة سورية فى بيروت. وهى تصر على أن لبنان جزء من سوريا الكبرى.

حشد الاسرائيليون قوة مدرعة كبيرة لدفعها نحو لبنان. وتقدر الأرقام المعلنة هذه القوة بثمان مجموعات فرقية. وكانت الخطة الاسرائيلية ترتكز على الاندفاع بثلاث شوكات: واحدة على السهل الساحلى الذى يقود القوات الاسرائيلية إلى شمال الدامور أو الضواحى الجنوبية لبيروت والمطار الدولى، ثم قوة مركزية تتقدم عبر Shouf Massif، وتقاطع طريق بيروت – دمشق عند منطقة عين دارا غربى شتوره؛ ثم قوة شرقية تتجه نحو «فتح لاند» فى الجزء الجنوبى من وادى البقاع.

وكان الغرض من الهجوم نو الشوكات الثلاث هو تدمير البنية العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتطهير شمال إسرائيل وحتى مسافة من ٤٠ – ٥٠ كم (٢٥ميل). وكان الهدف الاستراتيجى للقوة الوسطى هو الوصول إلى طريق دمشق – بيروت، والانحراف شرقاً على هذا الطريق، ثم القيام بهجوم مخادع باتجاه الحدود السورية لدفع القوات السورية فى وادى البقاع، التى ستصبح عندئذ عرضة لخطر الحصار، إلى الانسحاب شرقاً نحو الحدود السورية.

كان المفتاح الاستراتيجى الرئيسى المفترض هو تحقيق تواجد على طريق بيروت – دمشق. وكان هذا هو الهدف الاستراتيجى الأول لسوريا عندما دخلت قواتها إلى لبنان فى ١٩٧٦. وكان عزل بيروت عن دمشق يعد أمراً ضرورياً.

أوكلت قيادة العملية إلى الميجور جنرال «امير دورى»، القائد العام للجبهة الشمالية. وهو من أبناء الأكاديمية العسكرية الاسرائيلية، تدرج فى الترقى خلال عمله بالوحدات المقاتلة. فى حرب يوم كيبور ١٩٧٣، كان قائداً للواء «جولانى» / مشاة، وقاد المعركة التى شهدت قتالاً عنيفاً من أجل استعادة جبل حرمون. وقد جرح جرحاً بليغاً. صعد فى الترقى حتى صار قائد فرقة، ثم عين رئيساً لفرع التدريب بالقيادة العامة، وأخيراً آمراً عاماً للجبهة الشمالية. وهو هادىء، عذب الحديث، مثقف ويعتبر نموذجاً للضابط المحترف الجديد الذى شب فى جيش الدفاع الاسرائيلى.

كانت القوات العاملة بالقطاعات الشرقية تحت قيادة الميجور جنرال «افيجدور بن جال» (يانوش)، الذى كان قد ترك موقعه كقائد عام للجبهة الشمالية قبل ذلك بعام، لحضور دورة للدراسات الأكاديمية بالولايات المتحدة لمدة عام. وقد قطع دراسته وعاد لتولى القيادة الميدانية. ومرة أخرى، كان عليه أن يواجه القوات المدرعة السورية.

عقب الاندفاع الأوسط بوقت قليل، تحرك طابوران باتجاه الغرب لعبور الحدود – طابور

يتقدم على السهل الساحلى نحو طرابلس، وبمحاذاته يتحرك طابور آخر على طريق داخلى نحو منحدرات التلال المشرفة على الساحل.

وكان يتقدم الطابور الساحلى لواء مدرع بقيادة الكولونيل «ايلى جيفا»، الذى كان قائداً لسرية ضمن قوة المدرعات التى استبسلت أمام الغزو السورى لمرتفعات الجولان فى ١٩٧٣.

كانت الخطة الموضوعة تهدف إلى تقدم القوات وتحقيق أهدافها النهائية بأسرع وقت ممكن، لتسد بذلك طريق الفرار والإمداد أمام منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد ذلك فقط تبدأ عملية قصف واشتباكات مع قوات المنظمة.

وهكذا، تجاوزت القوات المتقدمة على الطريق الساحلى تجمعات كثيفة من وحدات منظمة التحرير الفلسطينية، وتقدمت بسرعة كى تنضم إلى الحملة التى نزلت من البحر بواسطة البحرية. وبحلول ليلة ٦/٧ يونيو، بلغت الوحدات المتقدمة مدينة صرفند. وبينما تقدم الطابور الساحلى، تم إنزال ناجح فى القاسمية عند مصب نهر الليطانى، وأُغلقت مدينة طرابلس.

إلى الشرق من هذه القوة، تحركت الحملة السورية عبر منحدرات حرمون نحو راشيا الفخار، بينما تقدمت قوة أخرى من متولا قاصدة حاصبيا. كذلك توجهت قوة أخرى فى اتجاه شمالى شرقى، متجاوزة مواقع بوفور ومتقدمة باتجاه منطقة النبطية الواقعة تحت السيطرة القوية.

فى اليوم الثانى من القتال، تم تعزيز القوات المتقدمة على الطريق الساحلى بالذراع الشرقى للهجوم الساحلى، التى عبرت قعقية الجسر على نهر الليطانى، وتقدمت على منحدرات التلا ل القائمة فوق الطريق الساحلى، لتتصل بالحملة التى نزلت من البحر شمالى صيدا.

فى تلك الأثناء، أصبحت طرابلس معزولة عزلاً تاماً، ونُصح سكانها بمغادرة المدينة والتجمع عند شاطىء البحر، حتى تتمكن القوات الاسرائيلية من التقدم وطرد إرهابيى منظمة التحرير، الذين كانوا يتخذون من البنايات المحيطة بالمدينة مواقع لهم. وقد أنقذ هذا الإجراء، بلا شك، أرواح الكثيرين من المدنيين، حيث كان القتال الذى دار مع المنظمة فى المدينة عنيفاً ومريرا.

فى القطاع الأوسط، وبعد منتصف ليلة ٧ يونيو بقليل، سقطت قلعة «بورفور» الصليبية العنيدة بعد قتال عنيف وإصابات خطيرة تكبدتها وحدة استطلاع لواء «جولانى». وكانت المنظمة تسيطر، بوساطة هذا الحصن، على الجليل الشمالى وتوجه نيران مدفعيتها نحو أهداف بتلك المنطقة، وفى الجزء الجنوبى من لبنان الذى يسيطر عليه الرائد «سعد حداد»

الضابط اللبنانى الذى تمكن من إقامة دويلة من حوالى ١٠٠ ألف من المسيحيين والمسلمين الشيعة وارتبط باسرائيل ونال تأييدها.

فى تلك الأثناء، قامت قوات الحملة الوسطى بالقطاع الأوسط باقتحام مرتفعات عرنون ودعمت موقفها فى قطاع النبطية. وأمكن الاستيلاء على جسر حردل على نهر الليطانى، وفى القطاع الأوسط بدأت القوات تتقدم على الطرق الجبلية الضيقة، أمام مقاومة شديدة. وصادفت القوات الاسرائيلية أول تجمع من القوات السورية عند مدينة جزين. وتقدمت الحملة الواقعة إلى الشرق ببطء على الطرق الضيقة والممرات السهل الدفاع عنها، متجاوزة حاصبيا. ودفع السوريون باللواء ٩١/مدرعات إلى جنوب وادى البقاع.

أصبحت المشكلة التي تواجه القيادة الاسرائيلية، الآن، فى القطاع الأوسط والشرقى هى أن السوريين يقفون حجر عثرة أمام تحقيق تقدم لمسافة أربعين كيلو مترا من حدود الجليل. وأعلنت الحكومة الاسرائيلية رسمياً أنها لن تشتبك مع الجيش السورى إلا إذا بادر بالاشتباك مع الجيش الاسرائيلى. وطارت الرسائل، عبر واشنطن، تقترح أن يتولى السوريون السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية، ومنعها من قصف أهداف داخل اسرائيل. ومما زاد مشكلة اسرائيل تعقيداً أن وحدات المنظمة فى القطاع الشرقى انسحبت إلى ما وراء ستار التغطية للقوات السورية، وظلت على مدى اليومين الأولين تطلق نيرانا متقطعة على اللسان الشرقى للجليل.

وعندما لم يتلق الاسرائيليون رداً على مقترحاتهم من السوريين، الذين تمثل رد فعلهم فى تعزيز قواتهم فى القطاع الشرقى، تحول التراشق المتقطع على الجبهة الاسرائيلية السورية إلى قتال شامل. وفى عموم المنطقة الواقعة إلى الجنوب من بحيرة قرعون، كان هناك فى مواجهة القوات الاسرائيلية كتيبة صاعقة سورية، إضافة إلى كتيبة مدرعة من اللواء ٦٢، الذى كانت وحداته تنتشر على طريق دمشق - بيروت. وإلى الجنوب، تحركت إمدادات سورية إضافية، من منطقة شتورة إلى جنوبى جزين، قوامها اللواء ٥١.

فى اليوم الثالث من القتال، أخذت القوات المتوازية، التى انضمت إلى بعضها على الطريق الساحلى، تتقدم فى طريقها نحو الدامور. وتصاعدت العمليات الموجهة إلى وحدات المنظمة فى طرابلس وصيدا؛ وواجهت القوات الاسرائيلية مشكلة كيفية تفادى الخسائر فى المدنيين فى الوقت الذى كانت المنظمة تحتفظ فيه بمجموعات كبيرة من المدنيين كرهائن لمنع الهجوم الاسرائيلى. وفى حالات كثيرة عرّض الاسرائيليون أرواح جنودهم للخطر حتى يتفادوا إحداث خسائر فى المدنيين، لكن لم يكن مفر من أن يطاول القتال الشرس المدنيين كذلك.

فى القطاع الأوسط، نشبت المعركة فى منطقة جزين، عندما اشتبكت حملة اسرائيلية مع

لواء مدرع سورى تدعمه كتيبة مشاة وأخرى من الصاعقة. وكانت الفرقة الأولى المدرعة السورية تتولى مسؤلية جنوبى منطقة بحيرة قرعون. وبعد يوم من القتال، انسحبت القوات السورية من مرتفعات جزين، وتقدمت الحملة الوسطى لمسافة حوالى ٢٠ كم، لتهدد بذلك المنطقة الواقعة إلى الشرق من بحيرة قرعون بالكامل والطرق المؤدية إلى البحر المتوسط. ووصلت القوات إلى ضواحى بيت الدين وعين دارا. وبدأ هذا التقدم يهدد سيطرة سوريا على بيروت.

تواصل القتال العنيف فى القطاع الشرقى، حيث استغل السوريون استغلالاً كاملاً امتلاك صاعقتهم للصواريخ المضادة للدبابات، التى كانت مؤثرة للغاية فى الممرات والطرق الضيقة المتعرجة فى المناطق الجبلية. وكانت الطرق ملغّمة، والممرات مدمرة، فأصبح التقدم بطيئاً للغاية. وأصبح دور الطيران الاسرائيلى مركزياً فى هذا القتال. وفى هذه الفترة، بدأ الطيران السورى يتدخل فى المعركة، وخلال ثلاث معارك جوية متفرقة، سقطت ست طائرات سورية من طراز ميج، ولم تقع أية خسائر اسرائيلية.

ربما كان أهم ما شهدته الحرب من أحداث، من المنظور العسكرى الصرف، هو ما وقع يوم ٩ يونيو، اليوم الرابع من القتال. فعندما قرر الاسرائيليون دفع القوات السورية فى لبنان إلى مسافة ٤٠ كم من الحدود الاسرائيلية، كان واضحاً أن المعاونة الجوية فى عملية كهذه هى مسألة جوهرية إذا ما أريد تقليل الخسائر إلى أدنى حد ممكن. فقد كانت المنطقة جبلية، وهى بطرقها الضيقة، وممراتها، الكثيفة، ملائمة أكثر للدفاع منها للهجوم المدرع. وكان الفضاء الجوى فوق ميدان المعركة تغطيه صواريخ أرض - جو التى أحضرها السوريون إلى البقاع قبل ذلك بعام، وقاموا بتعزيزها بعد ذلك. وتعوق هذه البطاريات، من طراز سام٢ وسام٣ وسام٦، عمليات الطيران الاسرائيلى فوق ميدان المعركة. ولذلك، قررت الحكومة الاسرائيلية الهجوم على الصواريخ أرض - جو. وفى الساعة الثانية من بعد الظهر، قامت القوات الجوية الاسرائيلية بغارة أسفرت عن تدمير ١٩ بطارية تدميراً كاملاً، وإصابة أربع بطاريات أخرى إصابة كبيرة، دون أن تسقط طائرة اسرائيلية واحدة.

ردت القوات الجوية السورية على هذه العملية الاسرائيلية بعنف، وشهد وادى البقاع واحدة من أكبر المعارك الجوية فى تاريخ معارك الطيران. وحسب التقديرات السورية، فقد اشترك فى العملية حوالى ١٠٠ طائرة اسرائيلية وتصدى لها ١٠٠ طائرة سورية. وخلال المعركة، سقطت ٢٩ طائرة سورية، ولم تقع خسائر فى الجانب الاسرائيلى. وخلال الأيام التالية، جدد

السوريون هجماتهم الجوية، عندما تدخل الطيران الاسرائيلى لإعاقة وصول بطاريات صواريخ أرض – جو إضافية إلى لبنان.

وبالإجمال، فقد بلغت الخسائر السورية خلال المعركة ٨٦ طائرة، جميعها خط أول، من طراز ميج ٢١ وميج ٢٣ وسوخوى ٢٢، دون أن تخسر اسرائيل طائرة واحدة. كانت الخسائر الجوية الاسرائيلية الوحيدة إسقاط طائرتين هليكوبتر، وأخرى سكاى هوك، بصواريخ منظمة التحرير الفلسطينية.

حقق الانتصار الاسرائيلى على الصواريخ السيادة المطلقة لاسرائيل فى الجو. وكانت التكهنات قد ثارت حول إمكان قيام سوريا بالهجوم على مرتفعات الجولان، فى حال حدوث مواجهة سورية – اسرائيلية فى لبنان. ولاشك أن تدمير اسرائيل لشبكة الصواريخ فى لبنان ولـ ١٥٪ من طائرات الخط الأول لسلاح الطيران السورى، قد أثر على الحسابات السورية فى هذا الشأن. فقد كان الانتصار الجوى مثيراً إلى الحد الذى أثار الاهتمام فى أوساط حلف وارسو، وكذلك فى البلدان الغربية، وخاصة فى حلف الاطلنطى. وقد دفع هذا التطور الجديد القوات الاسرائيلية إلى الاستفادة القصوى من القوة الجوية للسيطرة على ميدان المعركة.

فى تلك الأثناء، أحكمت القوات الاسرائيلية فى القطاع الغربى قبضتها على منظمة التحرير فى صيدا، وفى معسكر عين الحلوة للاجئين، وهى المنطقة التى كانت قوات المنظمة لاتزال تقاوم فيها. ومرة أخرى تجرى محاولة لإبعاد السكان المدنيين عن المقاتلين، وذلك بدعوة المدنيين إلى التجمع عند شاطىء البحر، لتفادى إراقة دماء المدنيين.

أصبحت المدرعات والمشاة تتقدم الآن نحو منطقة الدامور، على مسافة حوالى ١٨ كم (١١ميلا) جنوبى بيروت. وكانت الدامور، وهى منطقة مسيحية جميلة، قد دمرت على يد منظمة التحرير الفلسطينية فى ١٩٧٦، عندما قامت بذبح جزء كبير من السكان المسيحيين، وطردت الباقين. وكانت معسكرات ورئاسات المنظمة تشغل المنطقة، وتنتشر مستودعات الذخيرة والأسلحة فى كل مكان من المنطقة. وقد دار قتال عنيف فى هذه البلدة، التى سقطت بعد معركة شرسة.

فى تلك الأثناء، وفى القطاع الأوسط، كانت تدور معارك دبابات عنيفة مع السوريين حول عين دارا، التى تتحكم فى طريق دمشق – بيروت من مسافة ثلاثة كيلو مترات. وفى هذا المكان، خاض السوريون معركة عنيدة، استخدموا فيها التجمعات الكثيفة للأسلحة المضادة للدبابات التى تتسلح بها وحدات من الصاعقة، لمنع القوات الاسرائيلية من الوصول إلى الطريق الاستراتيجى.

وفى القطاع الشرقى، نجح مجهود قوة «بن جال» أخيراً فى اختراق الدفاعات السورية

وتوغل فى منطقة شرقى بحيرة قرعون، وهناك خاض معركة ضد الفرقة المدرعة الأولى السورية، التى قاتلت باستبسال وثبتت فى الدفاع عن كل موقع من مواقعها. وأرسل «بن جال» جزءاً من قوته إلى الشواطىء الغربية لبحيرة قرعون. وتمكنت هذه القوة من مهاجمة ميمنة الفرقة الأولى/ مدرعات التى كانت تتصدى للتقدم الاسرائيلى فى سهل البقاع، شرقى بحيرة قرعون.

كانت المناورة مثمرة، وخلال المعركة التى دارت تكبدت الفرقة المدرعة السورية خسائر كبيرة. فقد تم تدمير لواء مدرع سورى بالكامل، وبالإجمال فقد السوريون خلال هذه المعركة حوالى ١٥٠دبابة. وفى إحدى مراحل القتال، اكتشفت إحدى كتائب المدرعات الاسرائيلية أنها دخلت إلى نطاق دفاع منطقة سورى بسهل البقاع، وتعرضت للنيران من جميع الاتجاهات، خاصة من المرتفعات الواقعة على جانبى الوادى. وبدا موقفها ميئوساً منه، لكن أمكن تخليصها فى النهاية بفضل التجمعات الكثيفة لنيران المدفعية والدعم الجوى، بعد أن تكبدت خسائر كبيرة.

توقف التقدم بالقطاع الغربى بالقرب من كفارسيل، حيث أعد السوريون والمنظمة كميناً مدرعاً مع وحدات من الصاعقة وقوات خاصة مضادة للدبابات. ونجحت القوة المتقدمة فى تثبيت القوات السورية وقوات المنظمة، وذلك بمواجهتها من الشمال ثم القيام بحركة تطويق باتجاه الشرق، بهدف عزل بيروت والقوات الإرهابية فى ضواحيها الغربية والجنوبية عن الشرق وطريق دمشق.

فى تلك الأثناء، وفى الوقت الذى كانت تدور فيه المعارك فى القطاعين الأوسط والشرقى، دخلت تعزيزات سورية إلى لبنان؛ وقد نجح الطيران الاسرائيلى فى تدمير لواء مدرع سورى تدميراً كاملاً كان فى طريقه إلى الجبهة، بينما تحركت الفرقة الثالثة/ مدرعات السورية، التى كانت مزودة بدبابات «تى ٧٢»، والأحدث فى الترسانة السوفيتية، نحو وادى البقاع. وبذلك أصبحت القوة الإجمالية للدبابات السورية فى المنطقة تصل إلى ٧٠٠ دبابة.

واستمرت المعركة على الجبهة الشرقية يوم الجمعة ١١ يونيو، حيث دفعت القوات الاسرائيلية بالدبابة القتالية الرئيسية الجديدة «ميركافا» (شاريوت)، أمام أحدث الدبابات السوفيتية (تى ٧٢). وبينما كانت وحدات اللواءين ٩١ ، ٧٦/ دبابات من الفرقة الأولى المدرعة السورية تقاتل فى منطقة بحيرة قرعون، كانت عناصر من الفرقة الثالثة المدرعة تشتبك مع القوات الاسرائيلية فى وادى البقاع. وخلال المعركة، دمرت النيران الاسرائيلية تسعاً من دبابات «تى ٧٢».

أعلنت اسرائيل وقف إطلاق النار من جانب واحد، على أن يسرى اعتباراً من منتصف

نهار الجمعة ١١ يونيو. وفور الإعلان الاسرائيلي، أعلنت سوريا كذلك التزامها بوقف إطلاق النار. وأوضحت اسرائيل أن وقف إطلاق النار لا يسرى على قوات منظمة التحرير الفلسطينية. وعند بدء سريان وقف إطلاق النار، كانت القوات الإسرائيلية في القطاع الشرقي تتمركز عند خط جوب جنين - وتبعد أقصى عناصرها في الشرق بمسافة حوالى خمسة كيلو مترات من الحدود السورية. وكانت القوات الاسرائيلية في القطاع الأوسط تسيطر على الخط الواقع إلى الجنوب تماماً من عين دارا، ولكن في مرمى طريق بيروت - دمشق.

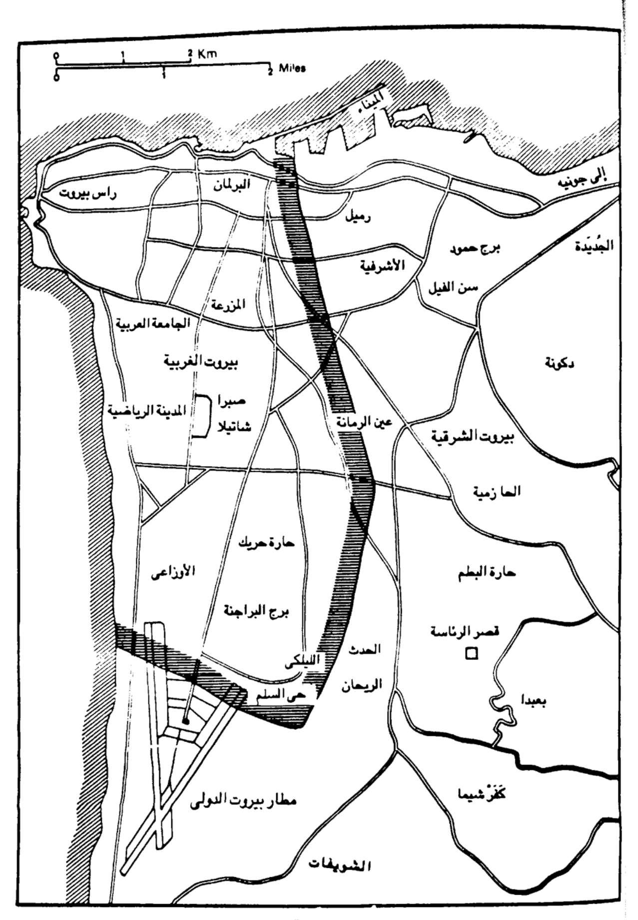
في القطاع الغربي، وعند منطقة كفارسيل التي يسيطر عليها اللواء ٧٥ السوري - الذي أصبح معزولاً تماماً في بيروت - حدث خرق لوقف إطلاق النار بعد ساعتين من سريانه. وأغلق السوريون الطريق الذي يمكن للقوات الاسرائيلية بوساطته الاتصال ببيروت عبر حلدا وبعبدا. وعند المساء، حاصرت القوات الاسرائيلية المواقع السورية.

استمر القتال في منطقة معسكر عين الحلوة للاجئين القريب من صيدا، حيث واصل الاسرائيليون دعوتهم لقوات منظمة التحرير بإلقاء سلاحها. فرفضوا، واستمر القتال . وفي تلك الأثناء، سلم المئات من مقاتلي المنظمة أنفسهم في المنطقة التي تحتلها القوات الاسرائيلية، وأصبحوا أسرى.

استمر القتال جنوبي بيروت حتى ٢١ يونيو، عندما نجحت قوة اسرائيلية في التقدم. بعد الاستيلاء على كفارسيل، والتحرك باتجاه حلدا وبعبدا، مقر الرئيسي اللبناني.

تم التوصل إلى وقف ثان لإطلاق النار عبر السفير الأمريكي، « فيليب حبيب»، بعد أن كانت القوات الاسرائيلية قد نجحت في محاصرة بيروت الغربية حصاراً تاماً، وفي الاتصال بالقوات المسيحية المارونية في بيروت الشرقية.

لم يسقط معسكر عين الحلوة، التي قاتلت المنظمة فيه قتالاً عنيفاً، إلا في الاثنين ١٤ يونيو. واستمر وقف إطلاق النار غير المستقر، مع تكرار التراشق مع محاولة كل من الجانبين تحسين مواقعه. وفي الثلاثاء ٢٢ يونيو، قامت قوات اسرائيلية بمهاجمة مواقع سورية وفلسطينية على طريق بيروت - دمشق عند منطقة عالية - بحمدون. وكان الهدف من هذا التحرك هو دفع القوات السورية، التي كانت تهدد أجناب القوات الاسرائيلية المحاصرة ببيروت، إلى الشرق. ومرة أخرى، يدخل الطيران الاسرائيلي الساحة. وأرسل السوريون تعزيزات إلى طريق بيروت - دمشق، واشتبكت قوات من الصاعقة السورية مع القوات الاسرائيلية، من منطقة المنصورية التي كانوا قد استولوا عليها في اليوم السابق. وبعد ٦٠ ساعة من القتال العنيف ضد القوات



0
1
2 Km
0
1
2 Miles
الميناء
إلى جونيه
راس بيروت
البرلمان
رميل
برج حمود
الجديدة
الأشرفية
سن الفيل
المزرعة
الجامعة العربية
بيروت الغربية
دكوانة
صبرا
شاتيلا
المدينة الرياضية
عين الرمانة
بيروت الشرقية
الحازمية
حارة حريك
الأوزاعي
حارة البطم
برج البراجنة
قصر الرئاسة
الحدث
الليلكي
الريحان
حي السلم
بعبدا
كفرشيما
مطار بيروت الدولي
الشويفات

بيروت

السورية المستبسلة، نجح جيش الدفاع الاسرائيلى فى إبعاد السوريين عن منطقة بحمدون – عالية على طريق دمشق. وقد تكبد الطرفان خسائر كبيرة، واعترف الاسرائيليون بمقتل ٢٨ من جنودهم وإصابة ١٦٨ آخرين فى هذا القطاع، خلال ثلاثة أيام من القتال. وانسحبت القوات السورية إلى شرقى بحمدون. وتجدد سريان وقف إطلاق النار.

استمر وقف إطلاق النار غير المستقر، مع إحكام جيش الدفاع الاسرائيلى لقبضته على بيروت، من المطار الدولى جنوباً وحتى الميناء فى الشمال. وكانت المفاوضات قد بدأت منذ منتصف يوليو، بين السفير الأمريكى «فيليب حبيب» من ناحية ومنظمة التحرير الفلسطينية، عبر الحكومة اللبنانية، من ناحية أخرى، من أجل الجلاء التام لحوالى ستة آلاف من مقاتلى المنظمة المحاصرين فى بيروت مع بقايا اللواء ٨٥ السورى.

وفى ١٤ يوليو، دعت الحكومة اللبنانية رسمياً إلى خروج جميع القوات الأجنبية. وكانت هذه هى المرة الأولى التى تقف فيها الحكومة اللبنانية إلى جانب السياسة التى تؤيدها اسرائيل والولايات المتحدة. وأعلن الاسرائيليون أنهم فى الوقت الذى يحتفظون فيه بحقهم فى الخيار العسكرى للتحرك نحو بيروت الغربية، فإنهم يوافقون على المطالبات العديدة بإفساح المزيد من الوقت، كى تأخذ عملية التفاوض مجراها.

كان القصف العشوائى لبطاريات وصواريخ «كاتيوشا» التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية المتمركزة بلبنان هو السبب المباشر لقيام الاسرائيليين بعملية لبنان، لكن الأمور تطورت إلى أبعد كثيراً من كونها مجرد رد على النيران المدفعية عبر الحدود.

وفى ١٩٧٠، وبعد أن فشلت منظمة التحرير الفلسطينية فى القضاء على العرش الهاشمى فى الأردن بعد حرب شرسة خاضتها ضد الملك حسين، نقلت المنظمة منطقة عملياتها من الأردن إلى لبنان. ومع وصولها إلى لبنان تحولت حدود ذلك البلد، التى كانت حدوداً آمنة بين اسرائيل ولبنان، إلى منطقة مواجهة رئيسية. واتفقت الحكومة اللبنانية مع قيادة المنظمة بدقة على الحدود المسموح بها للمنظمة فى العمل ضد اسرائيل. وفى أحد هذه الاتفاقات التى وقعت مع رئيس الأركان اللبنانى، وافقت المنظمة على عدم إطلاق النار على الأراضى الاسرائيلية من الأراضى اللبنانية. لكن المنظمة لم تحترم أيّا من الاتفاقات - يفوق عددها المائة - التى توصلت إليها الحكومة مع المنظمة.

وشيئاً فشيئاً، نجحت المنظمة فى أن تحقق فى لبنان ما قاتل الملك حسين من أجل الحيلولة دون تحقيقه فى الأردن، ألا وهو بالتحديد إقامة «دولة داخل الدولة». فقد أصبحت منطقة لبنان الجنوبى والمنطقة الساحلية، بما فيها طرابلس وصيدا، تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية : لم يعد للسلطة اللبنانية وجودا فى المناطق التى استولت عليها المنظمة، التى فرضت شكلاً من أشكال السيادة الفاعلة على جزء كبير من لبنان. وقد أدى هذا الموقف إلى الاضطرابات فى المنطقة الحدودية، والتى بلغت ذروتها بعملية الليطانى فى ١٩٧٨، عندما هاجمت القوات الاسرائيلية قوات المنظمة ودفعتها خلفاً حتى نهر الليطانى. وقد وضعت قوة من الأمم المتحدة بين إسرائيل ومنطقة منظمة التحرير. وانضمت قرى جنوب لبنان - ٦٠٪ من سكانها من الشيعة و ٤٠٪ من المسيحيين، ويصل مجموع سكانها إلى ١٠٠ ألف نسمة ويقودها ضابط لبنانى مسيحى هو الرائد «سعد حداد» - وأقامت مقاطعة متصلة باسرائيل،

فى الوقت الذى ظلت فيه جزءاً من لبنان. ولم تكن قوات الأمم المتحدة، التى يقدر عدد أفرادها بحوالى ستة آلاف، مؤثرة بدرجة كافية بسبب ضعف الصلاحيات التى حددها لها مجلس الأمن، والتى لا تخولها إبعاد عناصر المنظمة عن المنطقة التى تسيطر عليها، وإن كانت ذات أثر فى منع المنظمة من القيام بعمليات عدوانية من المنطقة الواقعة تحت سيطرتها.

كانت منظمة التحرير الفلسطينية تمتلك عتاداً حديثاً، من قاذفات صواريخ كاتيوشا والمدافع المتوسطة بالأساس، وكانت قادرة على قصف أهداف داخل اسرائيل من خارج منطقة الأمم المتحدة، وإن كانت القذائف تمر فوق تلك المنطقة. وقد أدى كل ذلك فى نهاية الأمر إلى قيام اسرائيل بعملية «السلام للجليل».

ربما كانت أهم النقاط على الإطلاق هى العزلة الكاملة التى وجدت المنظمة نفسها فيها بمجرد أن هاجمت اسرائيل لبنان الجنوبى. وبعيداً عن التشدق الكاذب، فإن الأمم العربية لم ترفع إصبعا لمساعدة قوات منظمة التحرير الفلسطينية المحصورة. والحقيقة أن القوات السورية فى لبنان ظلت ساكنة لا تبدي حراكاً عندما كانت القوات الاسرائيلية تتعامل مع قوات المنظمة، ولم تحاول التدخل بأى شكل من الأشكال لدعمها.

كانت العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية والسوريين، لبعض الوقت، أقل ما يمكن أن توصف به أنها متوترة. وقد وصلت العلاقات إلى هذا الوضع بسبب سلوك السوريين عندما كانت المنظمة تحارب الاسرائيليين. ولاشك أن المنظمة، بتصرفاتها، وافتقادها للمرونة، والحزازات داخل صفوفها، وتوجهها الإرهابى غير المسئول، قد عزلت نفسها عن شعبها العربى. ولعل معارضة البلاد العربية فى قبول قوات منظمة التحرير المحاصرة فى بيروت أثناء المفاوضات التي جرت فى يوليو ١٩٨٢، لأبلغ دليل على الموقف الحقيقى للبلاد العربية من المنظمة. والحقيقة أن نكستها الحالية قد خلقت حالة من الارتياح الخفى فى أجزاء من العالم العربى.

بنفس الطريقة وجد الرئيس الأسد نفسه معزولاً تماماً عن العالم العربى الذى يتشدق دائماً بالتضامن العربى عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، لكنه لم ينزعج كثيراً لهزيمة نظام الرئيس الأسد والخسائر التى تكبدها جيشه، وبالذات سلاح الطيران.

حتى منتصف يوليو، بلغت الخسائر السورية فى العملية ما بين ٣٥٠ - ٤٠٠ دبابة. أما الخسائر الاسرائيلية فكانت ما بين ٣٠ - ٤٠ دبابة. وبلغ عدد القتلى من الاسرائيليين حوالي ٣٠٠قتيلا أما الجرحى فبلغ عددهم ١٦٠٠جريحا وأسيرا واحدا. أما الخسائر السورية فى

الأرواح فقد بلغت حوالى ٣٧٠ قتيل، وحوالى ألف من الجرحى و٢٥٠ تقريباً من الأسرى. وفقدت سوريا ٨٦ طائرة مقاتلة، وخمس طائرات هليكوبتر و١٩ بطارية صواريخ أرض - جو. وخسرت اسرائيل طائرة واحدة من طراز «سكاى هوك» واثنتين هليكوبتر. وتقدر خسائر منظمة التحرير الفلسطينية بحوالى ألف قتيل وستة آلاف أسير.

بينما أخذت اسرائيل تحكم سيطرتها تدريجياً على الجنوب اللبنانى، وتتخلص من مراكز المنظمة، بدأت تتكشف شبكة واسعة من مخازن الأسلحة ومستودعات الذخيرة والإمداد الحربى، تنتشر بامتداد المنطقة. وتقدر الأسلحة الصغيرة التى اكتشفت بتسليح خمسة ألوية، ويحتاج مجموع ما تم اكتشافه إلى مائة مركبة تعمل يومياً لمدة شهر لنقله. وقد تم اكتشاف مستودعات سرية ضخمة متصلة بالجبال بواسطة أنفاق، بالإضافة إلى مخازن رئيسية بعنابر أسفل البنايات السكنية الضخمة.

من الواضح أن عملية «السلام للجليل» قد فاجأت منظمة التحرير الفلسطينية، وهى فى مفترق طرق من ناحية تطورها العسكرى. إذ يبدو أنها كانت فى مرحلة انتقال من عصابة إرهابية مائعة التنظيم إلى كيان عسكرى منظم. فأنواع الأسلحة والدبابات والمدفعية التى اكتشفت تشير إلى ذلك. وكان هناك البعض ممن يعتبر ذلك نوعاً من ربط التسليح من جانب الاتحاد السوفيتى، لكن نوع السلاح الذى اكتشف، والذى كان الجزء الأعظم منه للنشاطات الإرهابية وحرب العصابات، ينفى هذا الرأى. ولكن يبدو أن حل هذا اللغز أكثر بساطة من ذلك. فالمنظمة تتلقى مبالغ كبيرة من البلاد العربية. وقد وجد تجار السلاح الدوليين فيها سوقاً جاهزة؛ ولاشك أن الفوائد الجانبية الخفية التى كان يجنيها مشترو السلاح يتمتع بها اولئك المشاركون فى هذا النشاط من داخل المنظمة نفسها. وفوق ذلك، ينبغى أن نذكر بأن اسرائيل لم تكن المشكلة الوحيدة التى تواجه منظمة التحرير الفلسطينية. ففى ١٩٧٠، خاضت المنظمة معركة دموية كبرى ضد الجيش الأردنى. وفى ١٩٧٦، حلت بها خسائر كبيرة على يدى الجيش السورى: يقدر ما خسرته فى معركة واحدة مع الجيش السورى - معركة معسكر تل الزعتر للاجئين - بستة أضعاف خسائرها أمام جيش الدفاع الاسرائيلى فى ١٩٨٢، حيث بلغت فى المعركة الأولى ستة آلاف قتيلا وعدة آلاف من الجرحى والمشردين.

تشير كمية العتاد العسكرى، والذخائر والمرافق التى تم اكتشافها إلى أن منظمة التحرير الفلسطينية، كانت قد قررت أن تحول الـ «دولة داخل الدولة» فى الجنوب اللبنانى إلى حصن منيع يؤمنها فى مواجهة هجمات القوات العربية الشقيقة. ويبدو أن ذلك كان له اعتبار كبير من

جانب المنظمة، وهى تكدس الكميات الكبيرة من العتاد والأسلحة، بالإضافة، طبعاً، إلى هدفها الاكبر ألا وهو محاربة اسرائيل.

من المستحيل أن نقارن مشكلات الجيش الاسرائيلى فى هذه الحرب بتلك التى صادفها فى الحروب السابقة. ففى هذه المرة، كانت المبادرة بالكامل بيد اسرائيل، مع كل الفوائد الناتجة عن وضع كهذا. كانت اسرائيل تحارب على جبهة واحدة، وكانت تتمتع بترف أن تكون قادرة على تركيز قوتها الرئيسية على تلك الجبهة. ومنذ البداية، كان واضحاً أمام مخططى العملية الميزة الجيوبوليتيكية التى تتمتع بها اسرائيل. فالسلام يسود الحدود المصرية، وتدخل المصريين أمر بعيد الاحتمال للغاية. والحقيقة أن الحرب قد حققت مكسباً سياسياً للمصريين. فالمنظمة التى سبق أن سخرت من معاهدة السلام الاسرائيلية ورقص رجالها فى الشوارع عندما اغتيل الرئيس السادات، هى التى توجهت يائسة إلى الرئيس المصرى مبارك تسأله أن يتدخل سياسياً. وكان واضحاً أن «حسين» ملك الأردن، مع عدد من الحكام العرب، لا يرغبون فى التورط، سواء مع المنظمة أو مع سوريا، والحقيقة أنهم كانوا يبذلون جهداً لإخفاء رضاهم عن الورطة التى وقع فيها الطرفين.

كان الأمريكيون يعارضون على طول الخط عملية كهذه، لكن قراءة الجو السائد فى واشنطن أشارت إلى أنه إذا نجحت تلك العملية فى إزالة نقطة الاحتكاك المركزية على الحدود الاسرائيلية - اللبنانية، وأسفرت عن إبعاد قوات منظمة التحرير والقوات السورية عن لبنان، فإن القبول الأمريكى بها سوف يتحقق فيما بعد، إن ضمنيا أو صراحة. وفوق ذلك، فقد كان من الواضح تماماً أن الاتحاد السوفيتى أعطى تعهدات للجيش السورى فى سوريا، لكنه لم يعط هذه التعهدات للجيش السورى فى لبنان.

هكذا ذهبت اسرائيل للحرب، للمرة الأولى فى تاريخها، وهى متفوقة عسكرياً على القوات التى تواجهها. ومن الواضح أن الجيش الاسرائيلى فى ١٩٨٢، كان أفضل قوة حشدتها اسرائيل حتى ذلك الوقت. فقد كان جيد التسليح، عالى التدريب والمعنويات و - كالعادة - جيد القيادة. وكان النقل والإيواء على درجة من الاداء غير مسبوقة. وفى الحرب السابقة، كانت هناك عناصر محل انتقاد مثل قيادة النقل والسيطرة، والمدفعية والمهندسين، لكن هذه الحرب (حرب ١٩٨٢) اثبتت أن اسرائيل وعت دروس حرب يوم كيبور ١٩٧٣. وقد رفع رئيس الأركان، الليفتانت جنرال «(رافول) ايتان» من مستوى الانضباط إلى درجة لم يشهدها الجيش من قبل، وأضافت قيادته حالة من الثقة الهادئة أينما تحرك فى ميدان المعركة.

ومرة أخرى تقف التكنولوجيا الغربية فى مواجهة التكنولوجيا الشرقية. وقد أدخلت على التكنولوجيا الغربية والأمريكية إضافات وتحسينات اسرائيلية. وكانت النتائج جلية للعيان. ففى ١٩٧٣، ضاعت ٥٠ طائرة اسرائيلية خلال الأيام الثلاثة من القتال بواسطة الصواريخ المضادة للطائرات، وعلى مدى الحرب أسقطت مائة طائرة بتلك الصواريخ أما فى ١٩٨٢، فقد نجحت القوات الجوية الاسرائيلية فى تدمير شبكة الصواريخ أرض - جو السورية بالأراضى اللبنانية بالكامل دون خسارة تذكر. وفى معارك الدبابات، وبرغم تمتع السوريين بميزة الدفاع عن أرض سهل الدفاع عنها، فقد جاءت خسائرهم نحو عشرة أضعاف الخسائر الاسرائيلية.

كانت تلك أول المعارك التى تختبر فيها الدبابة السوفيتية الجديدة «تى ٧٢». وكانت تعتبر محصنة ضد القذائف المضادة للدبابات والصواريخ الموجودة بالخدمة آنذاك، لكن القوات الاسرائيلية نجحت فى تدمير تسع منها خلال المعركة. والحقيقة أن هذه الدبابة، مقارنة بسابقتها «تى ٦٤»، تنفجر فور إصابتها، ولا تتيح لطاقمها فرصة الفرار. ويقوم الاتحاد السوفيتى الآن بتصنيع ٣ آلاف دبابة «تى ٧٢» سنوياً، وهناك ما يزيد على الألف منها يتمركز فى ألمانيا الشرقية.

فى مواجهة هذه الدبابة، كانت هناك الدبابة الاسرائيلية «ميركافا»، تتعمد بالنار. وقد صمم هذه الدبابة الميجورجنرال «اسرائيل تال»، محدثاً تغييرات ثورية فى تصميم الدبابات ومستفيداً من الدروس والخبرات التى تعلمتها اسرائيل فى معارك الدبابات. ونظر للفعالية التى أبدتها هذه الدبابة من حيث تحقيق الأمان لطاقمها، أصبح الجنود يطلقون عليها «شركة التأمين». فقد صانت أرواحا كثيرة، وجاء صمودها فوق ما تخيله الخبراء.

مرة أخرى، وعلى عكس حرب ١٩٧٣، تسترد المدفعية الاسرائيلية مكانتها، وتقدم أداء مؤثراً وخلاقاً. فبفضل الدقة والقدرة التدميرية للمدفعية أمكن للقوات المدرعة الاسرائيلية أن تتقدم سريعاً خلال المناطق التى كانت سهلة الدفاع. لكن الأسلحة المعاونة المختلفة لم تكن وحدها الأكثر فعالية هذه المرة مقارنة بما سبق. كان التنسيق بين الأسلحة والهارمونية الخاصة بكل سلاح على قدر عال من الإجادة.

أثبتت المخابرات الحربية الاسرائيلية جدارتها مرة أخرى، بالرغم من أن هناك سؤالا لازال بلا إجابة: لماذا - حسب تصريح رئيس الوزراء نفسه - ثبت أن حجم الأسلحة التى تمتلكها منظمة التحرير الفلسطينية يفوق التقدير السابق بعشر مرات؟

ففى ميدان المعركة، عملت القوات الاسرائيلية وفق توقيتات مخابراتية حقيقية. إن أحد

المشكلات الكبرى التى تواجه مخابرات الميدان هى ضمان انتقال المعلومات التى تحصل عليها فى وقتها، حتى يتمكن القائد من اتخاذ القرار الصحيح فى الحال. ومن الواضح فى هذه الحرب أن جهاز المخابرات الحربية الاسرائيلية حقق إنجازات كبيرة فى هذا الصدد. فقد استفاد القادة الميدانيون استفادة شبه فورية من معلومات المخابرات التى سهلت مهتهم فى اتخاذ قرارات سريعة. ومن الواضح أن تطوير طائرات الاستطلاع التى تعمل بدون طيار، والذى قامت به الصناعة الاسرائيلية خلال السنوات الراهنة، قد لعب دوراً هاماً فى نجاح استخبارات الميدان.

وتعتبر السيادة الجوية التامة هى أعظم المزايا التى حققتها القوات الاسرائيلية خلال هذه المواجهة. فقد قادت خبرة حرب ١٩٧٣ السوريين إلى الاعتقاد بأنه من الممكن إعاقة القوة الجوية الاسرائيلية عن طريق حشود الصواريخ أرض - جو. وعلى هذا الأساس خططوا لانتشار قواتهم. وقد أدى تدمير الصواريخ فى البقاع يوم ٩ يونيو، مع الإطاحة بالعقيدة النظرية التى ترتكز عليها، إلى فقدان القيادة لسورية لتوازنها، وعندما ألقوا، يائسين، بقوتهم الجوية إلى المعركة - ليتكبدوا بذلك خسائر جوية إضافية ثقيلة - كان من الواضح أنهم يلحون فى البحث عن مخرج من الموقف الذى لم يكن واردا بخطتهم.

كان انتصار إسرائيل الجوى عاملاً مهماً فى قرار الحكومة السورية بالسعى من أجل وقف فورى لإطلاق النار. والحقيقة أنه عندما أعلنت اسرائيل قرارها بوقف إطلاق النار من جانب واحد، يوم الجمعة ١١ يونيو، استجاب السوريون سريعاً للقرار. ولاشك أن التطورات فى الجو قد قادت إلى القرار السورى بعدم توسيع نطاق القتال ليشمل مرتفعات الجولان، والتقليل كذلك من خسائرهم فى بيروت حيث تخلوا فعلياً - من الوجهة العسكرية - عن بقية لوائهم الخامس والثمانين.

ولاشك فى أن الهزيمة الجوية ستظل عائقاً أمام النوايا السورية تجاه اسرائيل فى المستقبل الآنى، وسيجعل الأردن يعيد التفكير فى بناء شبكة صواريخ أرض - جو، التى كان ينوى الاعتماد فيها على الصواريخ الغربية والسوفيتية. لقد ثار جدل كبير داخل قيادة القوات الجوية الاسرائيلية بعد خسائرها الكبيرة فى حرب ١٩٧٣، وخاصة بواسطة شبكة صواريخ أرض - جو السورية. وكان السوريون قد توصلوا إلى أن شبكة كثيفة من صواريخ أرض - جو يمكن أن تقدم حلاً لمواجهة التفوق الجوى الاسرائيلى. وفى داخل القوات المسلحة الاسرائيلية كان هناك من يتشككون فى إمكان التوصل إلى حل للمشكلة التى تثيرها شبكة الصواريخ.

لكن الميجور جنرال «بنى بليد»، قائد القوات الجوية الاسرائيلية فى حرب ١٩٧٣، كان له

رأى مختلف، وبدأ فى رصد اعتمادات كبيرة والقيام بأبحاث لإيجاد حل لهذه المشكلة المحيرة. وقد استوعبت القوات الجوية الاسرائيلية الدروس التى مرت بها واستخلصت منها النتائج، وتدربت وتأهبت للمستقبل. وقائدها الجديد، الميجور جنرال «دافيد إڤرى»، الذى كان نائباً لبليد خلال حرب ١٩٧٣، ومعه طاقم القيادة الذى يعمل معه، كان على اقتناع مسبق بالنجاح التام لوسائل إسرائيل الجديدة، عندما تستخدم فى هجوم مخطط على مواقع الصواريخ.

والجنرال «اڤرى» ضابط نحيل، رشيق، ذو شعر مموه، واضح. وهو واحد من أبناء سلاح الجو الاسرائيلى الذين تدرجوا فى الترقى فى مناصب القيادة والأركان. وهو رجل صلب الإرادة، منكر لذاته، يمارس القيادة بطريقة غير مسفة تخلق جواً من الثقة حوله.

لكن عندما نتعرض لتقييم المعركة الجوية، فوق البقاع، فإنه لا ينبغى أن ننظر إليها على أنها مجرد معركة بين طائرة وصاروخ. فقد كانت معركة بين مجمعين من النظم التكنولوجية يتضمنان أحدث أنظمة السيطرة الجوية وأكثرها، تعقيداً ومعدات الاتصال الالكترونى. وهذان النظامان جرى اختبارهما خلال المعركة ، سواء فى تدمير الصواريخ أو فى واحدة من أكبر المعارك الجوية فى التاريخ الحديث. والتحكم والتوجيه فى عملية كتلك، وكذلك التناغم المطلوب بين جميع العناصر المشتركة فيها، عمل شديد التعقيد، وبالرغم من التعقيد الشديد للمعدة، فلازال العنصر البشرى هو صاحب اليد العليا.

بعد أيام من المعارك الجوية، اندفع المئات من الخبراء والمستشارين الروس إلى سوريا، إذ أنه للمرة الثانية يتعرض النظام الذى يحمى الامبراطورية السوفيتية للاختبار أمام الطيران الإسرائيلى الذى ينال منه (كانت المرة الأولى فى مصر عام ١٩٦٩ أثناء حرب الاستنزاف). وسوف يجد السوفيت حتماً إجابة على الحلول التكنولوجية الاسرائيلية، لكن نتائج الحروب الجوية فوق وادى البقاع تقدم لهم سبباً قوياً للاهتمام.

لقد نجحت القوات الجوية الاسرائيلية فى التدخل ومنع وصول الإمدادات إلى ميدان القتال، كما حدث عندما انعزل لواء سورى من الفرقة الثالثة المدرعة فى أحد الممرات الضيقة وأبيد. على أن الرأى الذى تتبناه قيادة القوات الجوية الاسرائيلية يرى أنه بينما الطائرات الأمريكية التى يقودها طيارون اسرائيليون طائرات متفوقة، فإن من المستحيل الحكم على المعدّة الروسية على ضوء هذه المعارك. فهناك إجماع فى اسرائيل على أن الطائرات الروسية جيدة وعالية الكفاءة، وأن الفشل جاء هذه المرة من الطيار السورى وقيادته. فقد قاتل الطيارون السوريون بشجاعة، لكنهم أُلقى بهم فى المعركة بطريقة غير كفأة، وكان من نتيجة ذلك عدم تمكنهم من

إظهار المزايا التكنولوجية لمعَدتهم، وفقدوا فى العملية أكثر ٨٠ طائرة ونسبة كبيرة من طياريهم. فالخطأ - من وجهة النظر الاسرائيلية - لا يمكن فى الطائرة الروسية، وإنما فى القيادة السورية التى تستخدم قوتها بشكل سيء، وفى تدريب الطيارين.

فوق الأرض، حارب الجيش السورى بصورة طيبة: لم تفقد القيادة سيطرتها على القوات فى أى من مراحل القتال. وأثبت الجندى السورى مرة أخرى شجاعته وعزمه. وخير ما يوصف به السوريون هو العناد والصلابة. وكان أداء المدفعية حسناً؛ وعندما كان يتحتم عليهم الانسحاب فإن انسحابهم كان منظماً؛ ونجحوا فى التنسيق الفعال بين وحدات الدبابات والوحدات المضادة للدبابات. ويكمن ضعف الجيش السورى فى عجزه عن المناورة على مستوى التشكيلات الكبيرة.

قاتلت منظمة التحرير الفلسطينية بتصميم واستبسال. وقد سبب استخدامهم للأطفال من سن ١٢ عام فما فوق، الذين يعرفون باسم «أطفال الآر.بى.جى» بسبب استخدامهم الآر.بى.جى السوفيتى بكفاءة كبيرة من البنايات والمزارع ضد المركبات الاسرائيلية، سبب مشكلات عديدة للقوات الاسرائيلية. وبمجرد أن أدرك رجال منظمة التحرير أنهم واقعون فى الأسر لا محالة، بدأوا يسلمون أنفسهم بأعداد كبيرة. وبالرغم من انتظامهم فى ألوية وكتائب، فإنهم يعملون فى الميدان كوحدات صغيرة.

كان الهدف من الحرب الاسرائيلية هو خلق أوضاع تحول دون استخدام الجنوب اللبنانى مرة أخرى كقاعدة للهجوم على الأراضى الاسرائيلية. وقد تطلب ذلك تدمير مرافق منظمة التحرير الفلسطينية فى تلك المنطقة . وإذا كانت اسرائيل قد أوضحت أنها لن تذهب إلى الحرب فى لبنان من أجل طرد القوات السورية من هناك، أو المساعدة فى إقامة حكومة مركزية قوية، فلاشك أنه يمكن النظر الآن إلى تلك الأهداف كنتائج محتملة.

وفى الوقت الذى كان هناك شبه إجماع دولى على أهداف الحرب، كما حددها «بيجن» رئيس الوزراء أمام الكنيست عند بدء الحرب، وبالتحديد تطهير منطقة بعمق ٤٥ كم (٢٥ميلا) من الحدود الاسرائيلية لضمان سلامة الجليل، فقد تصاعدت صيحات ضد امتداد القتال إلى ماحول بيروت. فقد كان هناك معارضون للخروج عن النطاق الذى حددته الحكومة فى الأصل. واتهمت المعارضة المستر «شارون» بتجاوز السلطات التى فوضه إياها مجلس الوزراء. وخلال المناقشات العلنية، أصرّ هو من جانبه على أنه تلقى إذناً بكل تحرك من تحركاته، وأنه بدون إزالة وجود منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، فمن المستحيل وضع الأساس لحكومة مركزية لبنانية قوية.

أعلنت اسرائيل استعدادها للانسحاب من لبنان، شريطة نشر قوة متعددة الجنسيات تدعم

الحكومة اللبنانية وتضمن نزع سلاح العناصر المعادية لاسرائيل فى الجنوب اللبنانى. وتضمنت مطالب اسرائيل كذلك إبعاد حوالى ستة آلاف من أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية المسلحين عن بيروت الغربية وإخراج القوات السورية من لبنان. وأثناء كتابة هذه السطور، فإن مفاوضات تتم، عبر وساطة السفير الأمريكى «فليب حبيب»، مع الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية والسوريين والاسرائيليين، من أجل إيجاد حلول مرضية. وهذه المطالب بالنسبة لاسرائيل والولايات المتحدة ولبنان هى انسحاب جميع القوات الأجنبية من لبنان - قوات منظمة التحرير وسوريا واسرائيل - وتشكيل حكومة لبنانية قوية، تفرض إرادتها مرة أخرى على الأراضى اللبنانية، تدعمها قوة مسلحة لبنانية.

ومن الواضح أن السوريين، الذين كانوا يسيطرون، فى منتصف يوليو، على وادى البقاع بفرقتين مدرعتين وحشد من الأسلحة الأخرى، يرون فى وادى البقاع مصلحة سورية حيوية، ويرغبون فى حمايته عن طريق تواجد عسكرى سورى. ومن جانبها، ترى اسرائيل فى نزع سلاح الجنوب اللبنانى مسألة حيوية بالنسبة لاسرائيل. ومن هنا فقد تتوصل اسرائيل وسوريا مرة أخرى إلى اتفاق ضمنى - على أقل الفروض - يقوم على الإقرار المتبادل بمصالحهما تلك فى لبنان. ومن الممكن جداً أن يكون ذلك أساساً للاستقرار فى لبنان، يتضمن إقامة حكومة لبنانية فعالة، وإبعاد الكيان العسكرى لمنظمة التحرير الفلسطينية عن الأراضى اللبنانية.

ولأول مرة منذ سبع سنوات، تعود سلطة الحكومة اللبنانية إلى العديد من المناطق التى يسيطر عليها اليوم جيش الدفاع الاسرائيلى، وهناك جهود اسرائيلية - لبنانية مشتركة فى الكثير من المدن والمناطق من أجل إعادة تعمير المناطق التى خربتها الحرب وأصبح هناك علاقات عمل فى عدد من القطاعات يمكن أن تكون أساساً لقيام حدود آمنة أخرى لاسرائيل مع إحدى جاراتها العربية.

إن ما أسفرت عنه عملية «السلام للجليل» يفتح آفاقاً سياسية جديدة فى الشرق الأوسط. فقد أدت إلى خسوف عنصر من أكبر عناصر التوتر فى المنطقة، إلا وهو منظمة التحرير الفلسطينية التى تخلى عنها العالم العربى، والتى جلبت الكارثة على لبنان. والإضعاف الحتمى لقيادة المنظمة فى بيروت، سوف يفتح الطريق أمام الحوار مع العرب الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة من أجل حل مشكلة عرب فلسطين. فالفلسطينيون لم يتوصلوا إلى حل لقضيتهم لأن قيادة منظمة التحرير ترفض أى حل وسط ولا تطيق أى معارضة لموقفها المتطرف، وتحسم أى خلاف عن طريق الاغتيال. وإبعاد التهديد برصاص الاغتيال عن العرب

الفلسطينين فى الضفة الغربية وقطاع غزة يمكن أن يفتح الطريق أمام حوار مثمر يؤدى إلى حل مشكلة العرب الفلسطينيين. وتماما، كما أدت حرب يوم كيبور ١٩٧٣ إلى توفير المناخ والظروف الملائمة لبدء عملية انتهت بتوقيع اتفاق سلام اسرائيلى - مصرى، فإن العمليات اللبنانية، إذا ما نظرنا إليها فى إطارها التاريخى، وعلى خلفية سبع سنوات من الحرب الأهلية التى دمرت المجتمع الديمقراطى العربى الوحيد فى الشرق الأوسط، قد تؤدى إلى توفير الظروف المناسبة لإعادة تأسيس حكومة لبنانية وإقامة ديمقراطية، وفى النهاية، إقامة حدود آمنة بين اسرائيل وواحدة من الجارات العربية.

(١٥ يوليو ١٩٨٢)

منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية والشرق الأوسط – الذى حققت ٢١ من دوله العربية ودولة واحدة يهودية، هى اسرائيل، استقلالها الوطنى – تمزقه الحروب. والصراع المركزى فى المنطقة هو ذلك الدائر بين اسرائيل وجاراتها العربية التى لم ترحب منذ البداية بقبول قيام دولة يهودية بينها، والتى بذلت الجهود من أجل إبادتها. على أنه من غرائب الأمور أن غالبية الحروب التى مزقت الشرق الأوسط خلال العقود الثلاثة الماضية كانت بين الدول العربية بعضها البعض. ففيما بينهم، حارب العربى العربى، وحارب المسلم المسلم. وكانت الأسلحة التى استخدمت أصلا فى حروب الشرق الأوسط، هى تلك التى بحوزة الجيوش التى تواجدت فى المنطقة آنذاك، ومن الكميات الضخمة من العتاد التى تركتها قوات الحلفاء، التى تمركزت فى الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية. إلا أن جيوش المنطقة بدأت تسلح نفسها، شيئاً فشيئاً، بأسلحة أحدث، وأصبح تقدم هذه الجيوش ملحوظاً أكثر فأكثر.

وفى ١٩٥٥، قام الاتحاد السوفيتى بأول تحرك له منذ الحرب العالمية الثانية لدخول محيط الشرق الأوسط، وعن طريق ما عرف باسم «الصفقة التشيكية» أصبح المصدر الرئيسى للأسلحة الحديثة لمصر، وكان لهذه الخطوة أن تتبعها خطوات أخرى مثيلة تجاه بلدان شرق أوسطية أخرى. وشيئاً فشيئاً، انتقل صراع القوتين العظميين إلى الشرق الأوسط، وتجسد فى ميادين معارك المنطقة. ومع استمرار الصراع العربى – الاسرائيلى، وتمزق العالم العربى نفسه، وإنهاكه بفعل الثورات والاضطرابات والحروب الداخلية الضروس، تحولت الجيوش الصغيرة بالمنطقة إلى مؤسسات عسكرية، تتضاءل أمامها معظم جيوش العالم، باستثناء تلك التى تمتلكها القوى العظمى. والحقيقة أنه، باستثناء ترسانتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، فإن أكبر حشد من الأسلحة والعتاد والحربى الحديث، فى الثمانينيات، يتكدس فى الشرق الأوسط. وفى بعض الحالات، أدى هذا الوضع إلى تطور صناعى كبير، خاصة فى اسرائيل، حيث كان التقدم التكنولوجى الذى يتطلبه الاستخدام والصيانة وراء تطوير صناعة متقدمة قادرة على صيانة السلاح وإنتاجه. ولاشك أن الثمن الإنسانى لتطور كهذا مرتفع للغاية. وبينما تظل مشكلة اللاجئين قائمة فى المنطقة، فإن جانبا ضخما من الموارد المادية يتبدد على أسلحة الحرب. وإذا ما استثنينا تلك البلاد التى تتمتع بعائدات ضخمة من النفط،

فإن النتائج الاقتصادية لهذا الوضع خطيرة للغاية؛ لكن الكلفة الإنسانية، والتى لا مفر منها لأى من أطراف الصراع، هى الأثمن والأكثر تدميراً.

الخبرة العسكرية الاسرائيلية

لقد ولدت اسرائيل فى الحرب. وتشكل جيشها بنيران الصراع والنضال المستمر من أجل الوجود، الذى ميّز دولة اسرائيل منذ تأسيسها. فبعد أن انتهت حرب الاستقلال، أخذ يتضح شيئاً فشيئاً أن على الدولة الجديدة أن تعيش بالسيف لسنوات طويلة، قبل أن يتحقق السلام النهائى. ولكن كان من الواضح أن اسرائيل لن تكون قادرة على الاحتفاظ بجيش نظامى كبير، قادر على مواجهة المشكلات العسكرية التى يثيرها جيرانها. فهو من الناحية الاقتصادية، عبء معّوق. وكان الحل المنطقى هو أن تبنى اسرائيل جيشاً من المدنيين، الأمر الذى يعنى فى التطبيق تحويل الأمة بكاملها إلى جيش. وهكذا قام واحد من أكثر أنظمة الاحتياط فعالية (يرتكز جزئياً على النظام السويسرى). وفى فترات الهدوء، تهب الأمة نفسها لأهدافها الرئيسية.. وهى، تحديداً، خلق مجتمع ديمقراطى، واستيعاب المهاجرين، وتطوير التعليم والنظام القضائى، وإقامة اقتصاد مستقل. ولكن فى فترات الأزمات والحروب، ترتدى الأمة اليونيفورم، وهى تفعل ذلك حتى يومنا هذا، حتى تتمكن إسرائيل – وقت الحرب – من حشد أكبر جيش فى العالم، من حيث النسبة إلى عدد السكان. وكانت حملة ١٩٥٦ هى أول اختبار لنظام الاحتياط. وقد أثبت فاعليته. والحقيقة أن هذا النظام هو أحد أسرار نجاح إسرائيل العسكرى على مر السنين.

وفى جميع حروبها، تفوقت القوات الإسرائيلية فى الشجاعة والإقدام، وخاصة فى المعارك الكلاسيكية، مثل معركة تل الذخيرة بين المظليين الإسرائيليين والفيلق العربى الأردنى فى شرق القدس، والهجوم بالمشاة والمدفعية الاسرائيلية على المواقع والتحصينات السورية المنيعة فوق مرتفعات الجولان، خلال حرب الأيام الستة. إن المعايير التى تضعها أفضل وحدات جيش الدفاع الاسرائيلى هى الأعلى دوما. فالمستويات التى أرستها البلماح خلال حرب الاستقلال استمرت فى القوات المسلحة الاسرائيلية خلال سنواتها الأولى من التنظيم على يد «موشى ديان»، عندما أصبح رئيساً للأركان فى ١٩٥٣، والوحدة ١٠١/ كومندوز، التى كونها الميجور «اريل شارون» ونفذت باقتدار أول غارة انتقامية كبيرة يقوم بها جيش الدفاع الإسرائيلى ضد العرب، هى التى وضعت المعايير القتالية وأسس القيادة التى تسير على نهجها القيادة الإسرائيلية. و«دايان» هو الذى غرس الروح القتالية الشرسة تلك فى القوات المسلحة. وأنشأ قوات المظليين، تحت قيادة «شارون» مرة أخرى، كمثال تحتذيه جميع الوحدات القتالية الإسرائيلية. وقد أتت هذه السياسة أُكلها فى عام ١٩٥٦.

أدت الظروف التى أحاطت بحرب الاستقلال، التى كانت إسرائيل تعانى خلالها من نقص قواها البشرية والعتاد العسكرى والأسلحة الحديثة، إلى تبنى فلسفة عسكرية تقوم على المرونة والمفاجأة والارتجال: القتال الليلى، السرعة، العمليات ذات الطابع الفدائى، استراتيجية الاقتراب غير المباشر.. كل ذلك أصبح صبغة مميزة للفلسفة التى ينتهجها جيش الدفاع الاسرائيلى. والأهم من ذلك، هو إعطاء اهتمام خاص لغرس مرونة التفكير بالنسبة لضباط الميدان، وبخاصة صغار الضباط، الذى يركز تدريبهم على إكسابهم القدرة على التصرف وسط لهيب امعركة أمام المستجدات التى تقع حتماً أثناء سير القتال، وتجنب الخضوع المتعسف لكتب التدريب. ومن هنا، خرج من وسط القتال السرى، فوق مرتفعات وسهول الجليل وتلال يهوداً ورمال صحراء النقب، جيش يقوده ضباط كانوا فى مقدمة رجالهم دوماً.

لكن السيطرة على جيش حديث كبير لم تكتسب إلا عن طريق التجربة والخطأ. وقد اكتسبت القيادة العسكرية الاسرائيلية خبرتها وسط المعركة. شباب تلقى تدريبه على القيادة على مستوى السرية، أو على مستوى الكتيبة فى أفضل الظروف، يجد نفسه فجأة يقوم بمهام جنرال يقود جيشاً. ففى البداية، كانت القيادة العسكرية لا خبرة لها، ولم تكن فى كثير من الحالات على مستوى المهام الكبرى التى وضعها القدر على عاتقها فى ميدان القتال وقد وقع الكثير من الأخطاء، وكان بعضها مأساويا للغاية.

وخلال الحربين الأوليين، كان للاسرائيليين زعيم ذو مكانة دولية مؤكدة فى تاريخ الزعماء البارزين – فقد كان لبن جوريون من بعد النظر والحكمة والفهم ما يمكنه من استباق التطورات، والاستعداد لها إلى حد ما، والقدرة على إستثارة طاقات الأمة على التضحية بالنفس إلى حد كبير. وفى ٤٨ – ١٩٤٩، قاد «بن جوريون» سكان فلسطين من اليهود – المحاصرين، والمعزولين، والواقعين تحت الحصار البحرى البريطانى، والمحرومين فى كثير من الأحوال من الأسلحة الأولية اللازمة للدفاع عن النفس، والذين يقاتلون على جميع الجبهات فى مواجهة حشود مجيشة. وقد وقع عبء هذه الحروب على كاهل القيادة العسكرية عند مستوى السرية والكتيبة: كانت الخسائر فى الأرواح فادحة هذه المرة. ولكن، من بين القيادات الشابة فى الميادن، من بين قادة الكتائب فمن دونهم، خرج جنرالات المستقبل لجيش الدفاع الاسرائيلى وقادة الحروب الأربع، التى قدر لاسرائيل أن تخوضها، قبل أن توقع أول اتفاقية للسلام مع دولة عربية، وذلك فى عام ١٩٧٩.

وفى الحروب اللاحقة، ترسخت خلال المعارك المعايير الشخصية الاسرائيلية للقيادة، والتى لعبت دوراً هاماً فى نجاح القوات الاسرائيلية. وكانت حملة سيناء هى الحملة الوحيدة التى قادها الرجل الذى أصبح فيما بعد الجنرال «دايان»، الذى كان يتولى أثناء حرب الاستقلال قيادة كتيبة كوماندوز. وكانت التحركات الاستهلالية لهذه الحملة التقليدية تطبيقا بارعا

لاستراتيجية «الاقتراب غير المباشر». فلم يقتصر الأمر على إيهام البلاد العربية – خاصة مصر والأردن – بأن العمليات الاسرائيلية تستهدف الأردن وليس مصر، بل إن التحركات الافتتاحية الذكية جعلت المصريين، ولمدة ٤٨ ساعة، فى حيرة من أمرهم، لا يدرون هل الهجوم الاسرائيلى مجرد غارة انتقامية أخرى فى العمق أم هو هجوم عسكرى كبير. كما أن الأهداف الاستراتيجية للهجوم تحققت بالكامل. ومرة أخرى، وعن طريق الهجوم السريع للقوات الاسرائيلية (وبخاصة من جانب اللواء السابع/ مدرعات) نشهد التطبيق العملى لمرونة التفكير والقدرة على التصرف التى تتميز بها التحركات الاسرائيلية.

وفى حرب الأيام الستة، لقى العرب الهزيمة مرة أخرى – ولكن على ثلاث جبهات هذه المرة. على أن نصراً بهذا الحجم المذهل جعل القيادة الاسرائيلية تتغافل عن الكثير من أوجه القصور التى تعانى منها قواتها والتى كشفت الحرب عنها.. فهناك، فى حقيقة الأمر، بعض الإنجازات الاسرائيلية لم تكن سوى نتاج لأخطاء وتقصير من جانب العرب. وكانت القيادة السياسية والعسكرية الاسرائيلية، والتى كانت خاضعة – فيما يتعلق بمسألة الأمن – للسلطة الطاغية ونفوذ «موشى دايان» وزير الدفاع، يقودها، أكثر فأكثر، مفهوم خادع مسبق لما يجرى على الجانب العربى. وكان من نتيجة ذلك أن نجح الرئيس السادات فى وضع خطة خداع تتماشى مع التقديرات الاسرائيلية حسب المفهوم المستقر عندها. ومن الأخطاء الكبرى التى وقعت فيها قيادة الأركان العامة الاسرائيلية الحكم على قيادات الأركان العربية حسب مقاييسها العسكرية الخاصة بها فى التفكير؛ وكنتيجة لذلك فهى لم تتوصل إلى استنتاج صحيح بشأن ستراتيجية الحرب المحدودة التى تبناها العرب فى ١٩٧٣.

أدت صدمة حرب يوم كيبور، والنجاح الأولى للمصريين والسوريين، والخسائر الثقيلة نسبيا – حوالى ثلاثة آلاف قتيل – إلى إعادة تقييم أوضاع مؤسسة الدفاع الاسرائيلية تقييماً علنيا ومضنيا. وانكشف النقاب عن العديد من الأخطاء: فشل تقدير المخابرات؛ التقييم السياسى الخاطىء؛ الميل إلى القتال كما فى الحرب السابقة؛ وغيرها. لكن اسرائيل استطاعت أن تمرق عبر تلك النار.

إلى جانب البطولات الخارقة للجيش «المدنى» والقيادة الملهمة، ينبغى أن نقر بأن القوة الجوية كانت عنصر حاسماً فى كسب الحروب. وكانت حملة ١٩٥٦، هى المرة الأولى التى استطاعت فيها اسرائيل، بفضل طائرات «المستير» المقاتلة التى حصلت عليها من فرنسا، أن تفرض سيطرتها على الجو أمام القوات الجوية العربية، وأن تنجح منذ البداية فى إقامة قيادة فى الجو وأن تصونها. وجاء التخطيط للضربة الوقائية فى ١٩٦٧ وتنفيذها ذكيا، إذ حققت اسرائيل فى خلال ساعات من الغارات الجوية هيمنتها على الجو. والتفوق الجوى أمر توليه اسرائيل اهتمام كبير، وتحرص على الحفاظ عليه والاستفادة منه. وقد ظهر هذا بوضوح فى

يونيو ١٩٨١ عندما قامت طائرات سلاح الجو الاسرائيلي بعملية قصف محكم، دمرت خلالها مفاعلا ذريا أقيم في ضواحي بغداد بالتعاون مع الفنيين الفرنسيين. وكان هذا تحركا وقائياً للحيلولة دون امتلاك العراق لأسلحة نووية، أقر علناً عزمه على استخدامها ضد اسرائيل. ومرة أخرى، تقوم اسرائيل باستخدام جرئ- لسلاح ذى قوة حاسمة، تتفوق فيه على أية قوة جوية أخرى في العالم.

الخبرة العسكرية العربية

بشكل عام، مع استثناءات قليلة، تقدم الجيوش العربية أداء جيد في حالة الدفاع، لسبب أساسي هو أنها، في هذه الحالة، تعمل في ميدان معركة سابق التخطيط، ولا حاجة للانتقال منه. لكن أداءهم في حالة الهجوم ليس جيداً، بسبب عجز القيادات الصغرى عن التصرف في الميدان أمام المستجدات والظروف غير المتوقعة. وهم مبتلون بفقدان الثقة السياسية بين دولهم العربية بعضها البعض، والتشاحن الداخلي. وكان الاسرائيليون قادرين دائماً على الاستفادة من هذا الافتقاد إلى التماسك والوحدة بين الجيوش العربية، والتعامل معها الواحد بعد الآخر. وهكذا، لم يتمكن العرب مطلقاً من الاستفادة من تفوقهم العددى، بينما كان الاسرائيليون الذين يعملون، في الغالب على خطوط مواصلات داخلية، قادرين دائماً على الاستفادة من الشقاق الذى يعترى العالم العربي.

كان هذا هو الموقف في ١٩٥٦، عندما نجحت اسرائيل عملياً في عزل مصر سياسياً وعسكريا، وخلقت موقفا جعل هجومها لا يستدعى تدخل العرب إلى جانب مصر. وكان الخطأ الجوهرى العربي هو الادعاء بأن هزيمة القوات المصرية في ١٩٥٦ كان وراءها تدخل القوات البريطانية والفرنسية ضد مصر. فقد أدى هذا الافتراض إلى الثقة المبالغ فيها، والتقليل من شأن القوات الاسرائيلية عشية حرب الأيام الستة في ١٩٦٧، الأمر الذى أنزل الكارثة بكل من مصر والأردن وسوريا في الحرب. لقد حشد العالم العربي قواه خلف ناصر، رئيس مصر، عندما أعد العدة علنا لشن الحرب ضد اسرائيل في ١٩٦٧. ولكن هنا أيضاً تظهر المشكلة المتأصلة. فالقوات الأردنية ضللتها التقارير المصرية الزائفة وجرتها للهجوم على اسرائيل، كما أن الجيش السورى، برغم مناشدات الملك حسين، جرجر أقدامه، ولم يهب لنجدة الأردن وقت الشدة.

غير أن العرب تعلموا، بصورة أو بأخرى، من هزائمهم. فالرئيس ناصر، والرئيس السادات من بعده، قاما مع قيادات أركانهما بتحليل الأخطاء التى ارتكبتها قواتهما. وقد أثبتت المراحل الاستهلالية لحرب ١٩٧٣، التى قام بها الجيش المصرى، أن المصريين قد وعوا الدرس. وكان هدف الرئيس السادات من حرب ١٩٧٣ سياسياً أكثر منه عسكريا، وهو - بالتحديد - تحريك

العملية السياسية، بحيث تُجبر اسرائيل على العودة إلى حدود ١٩٦٧، دون الحاجة إلى توقيع أى دولة عربية على معاهدة سلام مع اسرائيل.

ولاشك أن المفاجأة الاستراتيجية والتكتيكية التى حققها المصريون والسوريون تعد نجاحاً عسكرياً بارزاً بحد ذاتها، جاءت بعد خطة تضليل ناجحة، وعلى قدر كبير من التعقيد. وكان العبور المصرى لقناة السويس إنجازا عسكريا كبيرا، لهم أن يحتفلوا به على مر السنين كأحد الانتصارات العظيمة للجيش المصرى. (من سخرية القدر، وفى واحد من أقسى منعطفات التاريخ، أن يغتال الرئيس السادات أثناء تفقده لعرض عسكرى، أقيم فى القاهرة احتفالاً بالذكرى الثامنة لعبور القناة.)

ولاشك أن حرب يوم كيبور هى التى أدت إلى رحلة الرئيس السادات التاريخية للقدس، التى أعقبها توقيع أول اتفاق للسلام بين اسرائيل ودولة عربية. لقد كان لتلك الحرب أثرها العسكرى والسياسى الكبير على الشرق الأوسط، وينبغى أن تتسنم المكانة التى تستحقها كحرب ذات أهمية تاريخية كبرى. فعلى ضوء الدروس المستفادة من هذه الحرب، أُعيد النظر فى علم الاستراتيجية العسكرية وتقنيات الحرب. وكانت هى الحرب التى استخدمت فيها الدول العربية المنتجة للنفط النفط كسلاح ذى فاعلية كبيرة، خلال السنوات التى أعقبتها. وكلما أوغلت هذه الحرب فى القدم كلما ازدادت أهميتها ومكانتها، بفضل محتواها ودروسها العسكرية والسياسية. وقد أدت اتفاقات فض الاشتباك بين اسرائيل وسوريا وبين اسرائيل ومصر؛ والاتفاق المؤقت بين اسرائيل ومصر بخصوص سيناء فى ١٩٧٥، والذى تضمن انسحاب القوات الاسرائيلية من قناة السويس، وآبار بترول ابو رديس بسيناء ونقاطا استراتيجية أخرى؛ وإقامة نظام للمراقبة الالكترونية بسيناء تديره الولايات المتحدة.. أدى كل ذلك فى النهاية إلى توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل التى اقترن بها الانسحاب الكامل لاسرائيل من سيناء، واستقرار الوضع على الحدود الاسرائيلية - السورية فى مرتفعات الجولان.

دور القوتين العظميين

العرب واليهود ليسوا سوى عنصرين فقط من العناصر الفاعلة فى الساحة السياسية للشرق الأوسط. وكان الرئيس ناصر يحصل على السلاح من الاتحاد السوفيتى، وكان للاتحاد السوفيتى دوره فى وقوع حرب الأيام الستة. وفتح النصر الاسرائيلى، الذى غير الوضع الاستراتيجى لاسرائيل تغييراً جذرياً، الطريق أمام الحوار مع العالم العربى: أصبحت اسرائيل تسيطر على أكثر من مليون من السكان الفلسطينيين العرب، ومهدت سياسة «الجسور المفتوحة» التى سمحت بحرية الحركة بين الأردن والضفة الغربية، الطريق أمام

التفاهم بين اسرائيل والعالم العربي. لكن الاتحاد السوفيتي كان يقاوم أي ميل من جانب العرب للتحرك باتجاه التفاوض مع اسرائيل. فبعد عشرة أيام من انتهاء الحرب، صوّت مجلس الوزراء الاسرائيلي بالإجماع لصالح إعادة سيناء إلى مصر ومرتفعات الجولان إلى سوريا مقابل السلام ونزع السلاح. لكن الاتحاد السوفيتي وقف في وجه هذه المبادرة. فتصرفات الاتحاد السوفيتي وسياسته اللاحقة هي التي شجعت مؤتمر القمة العربي، المنعقد في الخرطوم في سبتمبر ١٩٦٧، على رفض العرض الاسرائيلي بقرار «اللاءات الثلاث».. لا تفاوض، لا اعتراف، لا صلح مع اسرائيل. ويُعد المسرح مرة أخرى ليتجدد الصراع في الشرق الأوسط. وخلال السنوات التي تلت ذلك، اتيحت للاتحاد السوفيتي الفرصة كي يختبر الكثير من استراتيجية ونظرية الدفاع الجوي. فقد تزايدت أعداد القوات السوفيتية في مصر حتى بلغت ٢٠ ألف جندي، وتولت قوته الجوية المسئولية عن جانب من الدفاع الجوي عن مصر. إلا أن الرئيس السادات تولى الحكم في ١٩٧٠، وعندما قرر ضرورة دخول الحرب لكسر الجمود السياسي، قرر كذلك تغيير توجه مصر من دولة تابعة للسوفيت إلى دولة تؤيد الأمريكيين. وفي تحرك يتسم بالخيال والحسم أمر السادات، في يوليو ١٩٧٢، بطرد الروس من مصر - ثم أعد للحرب مع اسرائيل بتأييد من الروس، وربما بتشجيع خفي منهم.

قامت الولايات المتحدة من جانبها بجهود كبيرة لتقليل الفجوة بين المواقف الاسرائيلية والعربية على أساس قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، الصادر في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧. ويدعو هذا القرار - ضمن اشياء أخرى - إلى: «انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراض احتلتها خلال الصراع الحالي، وكذلك حق «جميع دول المنطقة... في العيش ضمن حدود آمنة ومعترف بها، والامتناع عن التهديد باستخدام القوة». وبالتوازي مع سياستها الهادفة إلى الحفاظ على قدرات اسرائيل الدفاعية أمام الإمدادات السوفيتية المتزايدة للبلاد العربية، بدأ وزير الخارجية الأمريكي تحركات تهدف إلى الخروج من المأزق الذي تعيشه المنطقة. فقد قدم «وليام روجرز»، وزير الخارجية الأمريكي، مشروعه الذي عرف باسم «مشروع روجرز» والذي لم يكتب له النجاح، في الوقت الذي نجح فيه في التوصل إلى وقف إطلاق النار على قناة السويس في أغسطس ١٩٧٠. وكانت جهود الولايات المتحدة موجهة بالأساس نحو احتواء التحركات التي يدعمها الاتحاد السوفيتي، مثل الغزو السوري للأردن في ١٩٧٠، والحفاظ على اسرائيل، والسعي لإيجاد حل سياسي عن طريق التفاوض.

تورطت كلتا القوتين الأعظم في حرب يوم كيبور: قام الاتحاد السوفيتي بعمليات إعادة إمداد كبيرة لكل من الجيشين المصري والسوري، بينما قامت الولايات المتحدة بالشيء نفسه لصالح اسرائيل. وكان قرار السادات بطلب وقف إطلاق النار متأثراً إلى حد كبير بعملية إعادة الإمداد الأمريكية الفعالة، كما أشار في خطابه أمام البرلمان المصري، وفي رسالته إلى

الرئيس السورى الأسد. وكان وزير الخارجية الأمريكية «هنرى كيسنجر» هو الذى توصل إلى وقف إطلاق النار بين اسرائيل ومصر، بما فى ذلك تنازلات عسكرية اسرائيلية بفتح خط إمداد للجيش الثالث المصرى المحاصر. وعند هذه النقطة، بدأت الولايات المتحدة تلعب دوراً مركزياً فى جميع المفاوضات، بينما أصبح توجه الرئيس السادات أمريكياً صرفا. واكتسب دور قوة الأمم المتحدة لحفظ السلام أهمية متزايدة فى تطبيق الاتفاقيات التى تم التوصل إليها بخصوص سيناء ومرتفعات الجولان، ولبنان فى وقت لاحق.

منظمة التحرير الفلسطينية

هناك عنصر كبير آخر، داخل الشرق الأوسط، يعوق عملية السلام. ففى الفترة ما بين حملة سيناء فى ١٩٥٦ وحرب الأيام الستة فى ١٩٦٧، أعلن عن قيام منظمة التحرير الفلسطينية بهدف معلن هو القضاء على اسرائيل. وبعد فشل محاولتها فى السيطرة على الأردن، قامت بنقل قاعدة عملياتها إلى لبنان - وهو تحرك مهد الطريق أمام تدمير القسم الأعظم من لبنان وللتدخل السورى اللاحق فى هذا البلد. وقد أدت الحرب الأهلية التى اندلعت فى لبنان فى ١٩٧٥، إلى خلق وضع جديد على الحدود الشمالية لاسرائيل. وتورط فى الأمر عناصر مسيحية متعددة، وجماعات اسلامية متنافسة، والجيش السورى، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وساد لبنان الذى مزقته الحرب حالة من الفوضى، بينما ظلت منظمة التحرير الفلسطينية تستخدم الأراضى اللبنانية كقاعدة انطلاق لهجماتها الإرهابية على السكان الاسرائيليين المدنيين. وهكذا تتواصل حرب الإرهاب.

ومنظمة التحرير الفلسطينية إئتلاف فضفاض يضم حوالى من ٦ - ٨ جماعات، تتبع كل منها أحد البلاد العربية، التى كثيراً ما تتعارض مصالحها مع بعضها البعض. وإضفاء الاعتدال على ميثاقها - الذى يدعو إلى تدمير اسرائيل - هو السبيل الوحيد الذى قد يمكنها من أن تكون طرفا فى التفاوض حول مستقبل المنطقة. لكن تركيبها وتكوينها يعوق إمكانية أى محاولة للاعتدال، حتى ولو لأسباب تكتيكية. والعالم العربى لا يقدم للمنظمة، فى واقع الأمر، سوى التشدق البلاغى. فأنشطتها فى بلاد عربية مثل الكويت والعربية السعودية محدودة وتخضع للرقابة المشددة؛ وغير مسموح لها بالعمل فى مصر؛ وممنوعة كحركة فى الأردن. وهى تخضع لرقابة شديدة فى سوريا، التى تتبنى أحد المجموعات داخل المنظمة تعرف باسم «الصاعقة». والملك حسين يعارض حركة أحد أهدافها الاستيلاء على السلطة فى الأردن (جرت محاولة لذلك فى ١٩٧٠). وعرفات، «رئيس» أكثر منه قائد لتنظيم يسيطر على مستوياته.

إن العلاقات بين اسرائيل والعالم العربى سوف تقررها اسرائيل ودول عربية ذات سيادة

مثل مصر وسوريا أو الأردن، الذين (بالرغم من استمرار الولاء البلاغى) لن يتبنى أى منهم أهداف تتعارض مع مصالحه الوطنية. ولن يكون من ضمن هذه الأهداف، بحال من الأحوال، السماح لمنظمة التحرير الفلسطينية أن تتحول إلى عنصر فعال على حدوده. ومن الممكن التوصل إلى حل نهائى على النمط الجزائرى للوضع فى مناطق يهودا والسامرا بالضفة الغربية ولقطاع غزة، وإيجاد قيادة محلية فى هذه المناطق تنتزع حق الاعتراف بوجودها فى مواجهة قيادة الحركة فى بيروت. إن الجمود المتأصل فى منظمة التحرير الفلسطينية يحول دون قيام هذه المنظمة بدور ذو معنى من أجل التوصل إلى حل سلمى للصراع العربى الاسرائيلى.

وهكذا، فإن اسرائيل بلد يعتمد فى وجوده على القدرة العسكرية. ومع ذلك فهو بلد يرفض العسكرة. وهذه الحقيقة، إلى جانب الحوار الحر والمفتوح الذى يميز الديمقراطية الاسرائيلية، تعتبر عناصر مهمة فى قوة اسرائيل المتأصلة. وجيش اسرائيل ليس جيش استعراضات، إنه جيش يرفض الزخارف والشكليات، التى ترتبط بشكل طبيعى بالعسكرية، ويخلص الولاء للزى الذى مزقته المعارك، لأن القوات المسلحة يُنظر إليها كشر لابد منه، والغاية الوحيدة من ورائها هى الدفاع عن وجود الأمة. ويتولى الدفاع عن اسرائيل اليوم أكثر جيوش العالم دربة. فمن الناحية الاحترافية (المهنية)، توفرت لهذا الجيش الفرصة تلو الفرصة للاختبار وسط المعارك. والقليل من جيوش العالم الذى أُتيح له رصيد الخبرة الذى توفر للجيش الاسرائيلى. فقد شاركت القوات المسلحة الاسرائيلية فى أول حرب صواريخ فى التاريخ. فالتاريخ العسكرى لجيش كهذا ينبغى أن يحظى بأكبر قدر من الاهتمام والأهمية. لقد كانت التطورات العسكرية للعالم العربى، خاصة فى مجال التسليح، مؤثرة ولقيت اهتماما كبيرا من جانب اسرائيل. وهناك عدد من الجيوش العربية تعتبر جيوشا كبيرة بالمقاييس العالمية. فسوريا تمتلك ٤ آلاف من أحدث الدبابات السوفيتية؛ والأردن يتلقى السلاح، لا من الولايات المتحدة وبلدان اوروبا الغربية فقط، وإنما من الاتحاد السوفيتى كذلك؛ وتحصل العربية السعودية من الولايات المتحدة على طائرات «إف ١٥» القاذفة المقاتلة البعيدة المدى، وأنظمة الإنذار والسيطرة المحمولة جوا (اواكس). وهذه الجيوش الثلاثة، بالإضافة إلى العراق، تمتلك من العتاد أكثر مما تمتلكه قوات حلف الأطلنطى فى اوروبا. ويحافظ الأردنيون والسوريون على المستوى الذى ظهرا به فى الحروب الماضية، وإن كان الاسرائيليون أكثر من ند للسوريين فى المعارك الجوية. وفى الحرب العراقية - الايرانية كان أداء الجيشين متوسطا.

شهد الشرق الأوسط توقيع أول معاهدة سلام بين اسرائيل والبلد العربى الرئيسى مصر. ويمكن لاتفاقية «كامب دافيد»، التى مهدت الطريق أمام معاهدة السلام الاسرائيلية- المصرية، أن تؤدى إلى تطورات إيجابية لاحقة إذا ما توفر الخيال والشجاعة التى أبداها الرئيس

السادات وكذلك رئيس الوزراء «بيجن»، والتى كانت السبب وراء توقيع المعاهدة. وما كان ممكنا لهذه لاتفاقية أن ترى النور دون الاشتراك المباشر للولايات المتحدة فى العملية وفى المفاوضات التفصيلية. والتعهد الواضح من جانب الولايات المتحدة بالاستمرار فى عملية كامب دافيد، ورفضها لمحاولات بعض دول اوروبا الغربية وبعض الدول العربية، هو الذى يضمن لكامب دافيد المزيد من النجاحات.

لقد دخل الشرق الأوسط فى ثورة بفضل مبادرة الرئيس السادات. وابتعدت المنطقة فى معظم الأحوال عن الرفض الكامل لاسرائيل، وبدأت النقاش فى مسائل واقعية. وأصبحت لاسرائيل حدود آمنة مع مصر. ويسود «شبه سلام» على الحدود الاسرائيلية مع الأردن، ويعبر الأردن من الاتجاهين ما يزيد على المليون مسافر سنويا، إضافة إلى عشرات الملايين من عائدات التجارة فى العام. وحدود اسرائيل مع لبنان الجنوبى حدود غير منظورة، وإذا ما استمرت العملية التى بدأت واحُترمت الاتفاقات التى أبرمت فى كامب دافيد، فسوف تتحرك اسرائيل وجيرانها إلى الأمام نحو السلام ببطء، ولكن بتصميم. وإذا ما تعثرت هذه العملية، فلا مفر من العودة المأساوية إلى إراقة الدماء.

إن البلاد العربية تشهد اليوم زلزالا يهز أركانها من تأثير القرن العشرين على مجتمعات من العصور الوسطى هبطت عليها الثروات الطائلة بين عشية وضحاها. والشرق الأوسط مسرح لقلاقل وثورات واضطرابات، فى افغانستان وايران، وعلى الحدود الإيرانية - العراقية، وفى سوريا، وفى الحرب الأهلية العربية - العربية بلبنان، وعلى حدود عمان/ اليمن الجنوبى، وفى الصراع ما بين اليمنين، وفى القرن الأفريقى وتشاد والصحراء الغربية. ويتهدد المنطقة شبح الإسلام الأصولى، الذين يسعى إلى الإطاحة بعدد من الأنظمة والقضاء عليها. ويضاف إلى هذه القلاقل الآن امتلاك الثروة النفطية لتكنولوجيا عسكرية غير محدودة، واحتمال امتلاك باكستان ثم العراق لقدرات نووية عسكرية. إنها صورة واقعية وتستدعى الحذر.

وينبغى النظر إلى اسرائيل على ضوء الخلفية السابقة. ومن وجهة النظر السياسية والتاريخية والإنسانية، فإن نضال دولة اسرائيل، طوال سنوات وجودها، من أجل البقاء، فى وقت ترسى فيه دعائم مجتمع ديمقراطى حر سليم، لهى واحدة من أروع قصص العصر الحديث حفزا للهمم والخلق والإبداع.

ببلوجرافيا

Abu-Lughod, I. (ed.) *The Arab-Israeli Confrontation of June 1967: An Arab Perspective*. Arab Information Center, New York, 1968.

Adan, A. ('Bren'). *On the Banks of the Suez*. Arms & Armour Press, London, 1980; Presidio Press, San Francisco, 1980; original title: *On Both Banks of the Suez*, Edanim, Jerusalem, 1979.

Allon, Y. *The Making of Israel's Army*. Vallentine, Mitchell, London, 1970; Universe Books, New York, 1971.

——. *Shield of David. The Story of Israel's Armed Forces*. Vallentine, Mitchell/Weidenfeld and Nicolson, London, 1970; Random House, New York, 1970; Weidenfeld and Nicolson, Jerusalem, 1970.

Associated Press. *Lightning out of Israel: The Six Day War in the Middle East*. The Press, New York, 1967.

Azcárate, P. de. *Mission in Palestine, 1948–1952*. Middle East Institute, Washington, 1966.

Badri, Hassan el, Taha el Magdoub, and Mohommed Die el-Din Zohdy. *The Ramadan War*. T. N. Dupuy, Dunn Loring, Va., 1977.

Barer, S. *The Weekend War*. Yoseloff, New York, 1960; Karni, Jerusalem, 1959.

Barker, A. *Suez: The Seven Day War*. Faber & Faber, London, 1964; Praeger, New York, 1965.

Beaufre, A. *The Suez Expedition 1956*; translated by Richard Barry. Faber, London 1969; Praeger, New York, 1969; original title: *L'Expedition de Suez*. Grasset, Paris, 1967.

——. 'Une Guerre Classique Moderne: La Guerre Israelo-Arabe.' *Strategie*, July/August, 1967, pp. 7-25.

Ben-Gurion, D. *Israel: Years of Challenge*. Blond, London, 1964; Holt, Rinehart and Winston, New York, 1963; Massadah, Tel Aviv, 1963.

Ben-Porat, Y. *Hamechdal* (Hebrew). Hotzaa Meyuchedet, Tel Aviv, 1973.

Berkman, T. *Cast a Giant Shadow: The Story of Mickey Marcus, Who Died to Save Jerusalem*. Doubleday, New York, 1962.

Blanchard, A. 'The Six-Day War'. *Army*, August, 1967, pp. 24–33.

Browne, H. *Suez and Sinai*. Longman, Harlow, 1971.

Bull, O. *War and Peace in the Middle East: The Experiences and Views of a UN Observer*. Leo Cooper, London, 1976.

Burdett, W. *Encounter with the Middle East: An Intimate Report on What Lies Behind the Arab-Israeli Conflict*. Deutsch, London, 1969; Atheneum, New York, 1969.

Burns, E. *Between Arab and Israeli*. Harrap, London, 1962; Obolensky, New York, 1963.

Byford-Jones, W. *The Lightning War*. Hale, London, 1967; Bobbs-Merrill, Indianapolis, 1968.

Carmel, M. *Campaigns of the North* (Hebrew). 'Maarachot' and Kibbutz Hameuhad, Tel Aviv, 1949.

Cavenagh, S. *Airborne to Suez*. Kimber, London, 1965.

Childers, E. *The Road to Suez*. Macgibbon & Kee, London, 1962.
Churchill, R. and W. *The Six Day War*. Heinemann, London, 1967; Houghton Mifflin, Boston, 1967.
Collins, L. and Lapierre, D. *O Jerusalem!* Weidenfeld and Nicolson, London, 1973; Simon and Schuster, New York, 1972.
Dawson, J. 'The Air War in the Middle East'. *Air Force & Space Digest*, August 1967, pp. 26–29.
Dayan, M. *Breakthrough*. Weidenfeld and Nicolson, London, 1981; Knopf, New York, 1981; Edanim, Jerusalem, 1981.
——. *Diary of the Sinai Campaign*. Weidenfeld and Nicolson, London, 1966; Harper and Row, New York, 1966.
——. *Story of My Life*. Weidenfeld and Nicolson, London, 1976; Morrow, New York, 1976; Edanim, Jerusalem, 1976.
Donovan, R. *Israel's Fight for Survival*. Signet Books, New York, 1967.
Draper, T. 'From 1967 to 1973'. *Commentary* (New York), Vol. 56, No. 6, December 1973.
Dupuy, Col. T. N. *Elusive Victory. The Arab-Israeli Wars, 1947–1974*. Macdonald and Janes, London, 1978; Harper and Row, New York, 1978.
Eban, A. *Abba Eban: An Autobiography*. Weidenfeld and Nicolson, London, 1977; Random House, New York, 1977.
Eden, Sir A. *Full Circle: The Memoirs of Anthony Eden*. Cassell, London, 1960; Houghton Mifflin, Boston, 1960.
Eisenhower, D. D. *Waging Peace, 1956-1961*. (Volume 2 of *The White House Years*), Heinemann, London, 1966; Doubleday, New York, 1965.
Gilbert, M. *The Arab-Israeli Conflict. Its History in Maps*. Weidenfeld and Nicolson, London, 1974.
Glubb, Sir J. B. *The Middle East Crisis. A Personal Interpretation*. Hodder & Stoughton, London, 1967.
——. *Peace in the Holy Land. An Historical Analysis of the Palestine Problem*. Hodder & Stoughton, London, 1971.
——. *A Short History of the Arab Peoples*. Hodder & Stoughton, London, 1969; Stein & Day, New York, 1969.
——. *A Soldier with the Arabs*. Hodder & Stoughton, London, 1957; Verry, Mystic, Conn., 1957.
Hadawi, S. *Bitter Harvest: Palestine Between 1914–1967*. New World Press, New York, 1967.
Handel, M. *Perception, Deception and Surprise. The Case of the Yom Kippur War*. Hebrew University, Leonard Davis Institute for International Relations, Jerusalem, 1976.
Heiman, L. 'Infantry in the Middle East War.' *Infantry*, January-February/March-April 1968, pp. 16-22 and 4–13.
Heikal, M. *The Cairo Documents*. Doubleday, New York, 1973.
——. *The Road to Ramadan*. Collins, London, 1975; Quadrangle/New York Times Book Company, New York, 1975.
Henriques, R. *A Hundred Hours to Suez. An Account of Israel's Campaign in the Sinai Peninsula*. Collins, London, 1957; Viking Press, New York, 1957.
Herzog, C. *Israel's Finest Hour* (Hebrew). Maariv Book Guild, Tel Aviv, 1967.
——. *Days of Awe*. Weidenfeld and Nicolson, Jerusalem, 1973.
——. *War of Atonement*. Weidenfeld and Nicolson, London 1975; Little, Brown, Boston 1974; Edanim, Jerusalem, 1975.
——. 'Middle East War 1973'. *RUSI* (Journal of the Royal United Services Institute for Defence Studies), London, 1975.
——. *Who Stands Accused?: Israel Answers its Critics*. Weidenfeld and Nicolson,

London, 1978; Random House, New York, 1978.
Hirst, D. and Beeson, I. *Sadat*. Faber & Faber, London, 1981.
Horn, C. C. van. *Soldiering for Peace*. Cassell, London, 1966; McKay, New York, 1967.
Hurewitz, J. C. (ed.) *Diplomacy in the Near and Middle East: A Documentary Record*. 2 vols. Macmillan, London, 1956; Van Nostrand, New York, 1956.
——. *Middle East Politics: The Military Dimension*. Pall Mall Press, London, 1969; Praeger, New York, 1969.
——. *Soviet-American Rivalry in the Middle East*. (Published for the Academy of Political Science, Columbia University.) Praeger, New York, 1969.
Hussein, King of Jordan. *My 'War' With Israel*; as told to and with additional material by Vick Vance and Pierre Lauer; translated by J. P. Wilson and W. B. Michaels. Owen, London, 1969; Morrow, New York, 1969.
Israel, Army Historical Branch. *History of the War of Independence* (Hebrew). Tel Aviv, 1975.
——. *The Sinai Campaign*. Tel Aviv, n.d.
Israel, IDF Spokesman's Office. *The Israel-Arab Wars*. Jerusalem, 1975.
Jonathan Institute. *International Terrorism - Challenge and Response*. Jonathan Institute, Jerusalem, 1980.
Joseph, D. *The Faithful City: The Siege of Jerusalem 1948*. Hogarth Press, London, 1962: Simon & Schuster, New York, 1960.
Journal of Palestine Studies. 'The October War and its Aftermath'. Institute of Palestine Studies, Beirut, and Kuwait University, Vol. III, No. 2, 1974.
Kahlany, A. *Fortress Seventy-Seven* (Hebrew). Schocken, Tel Aviv, 1976.
Kalb, M. and B. *Kissinger*. Hutchinson, London, 1974; Little, Brown, Boston, 1974.
'Keesing's Contemporary Archives'. *Arab-Israeli Conflict: The 1967 Campaign*. Keesing's Publications, Bristol; Scribner, New York, 1968.
Kimche, D. and Bawley, D. *The Sandstorm. The Arab-Israeli War of June 1967: Prelude and Aftermath*. Secker & Warburg, London, 1968; Stein and Day, New York, 1968.
Kimche, J. *Seven Fallen Pillars: The Middle East, 1915-1950*. Secker & Warburg, London, 1950.
Kissinger, H. *White House Years*. Weidenfeld and Nicolson, London, 1979; Little, Brown, Boston, 1979.
Kotsch, W. 'The Six Day War of 1967'. US Naval Institute *Proceedings*, June, 1968, pp. 72-81.
Kurzman, D. *Genesis 1948. The First Arab-Israeli War*. Vallentine, Mitchell, London, 1972; World Publishing Company, New York, 1970.
Laquer, W. *Confrontation 1973: The Middle East War and the Great Powers*. Wildwood House, London, 1974. US title: *Confrontation: The Middle East and World Politics*. Quadrangle, New York, 1974.
——. *The Road to War, 1967: The Origins of the Arab-Israeli Conflict*. Weidenfeld and Nicolson, London, 1968; US title: *The Road to Jerusalem: The Origins of the Arab-Israeli Conflict, 1967*. Macmillan, New York, 1968.
——. *The Israel-Arab Reader*. Weidenfeld and Nicolson, London, 1969: Citadel, New York, 1969.
Levine, E. and Shimoni, Y. (eds.) *Political Dictionary of the Middle East in the Twentieth Century*. Weidenfeld and Nicolson, London, 1972; Quadrangle, New York, 1972; Jerusalem Publishing House, Jerusalem, 1972.
Lewis, B. 'The Arab-Israeli War: The Consequences of Defeat'. *Foreign Affairs*, January 1968, pp. 321-335.
Liddell Hart, B. 'Strategy of a War'. *Military Review*, November 1968, pp. 80-85.

Lorch, N. *The Edge of the Sword: Israel's War of Independence, 1947–1949.* Putnam, London and New York, 196[illegible] Massadah, Tel Aviv, 1970.
Love, K. Suez: *The Twice-Fought W[illegible] History.* Longman, Harlow, 1970; McGraw-Hill, New York, 1969.
Luttwak, E. and Horowitz, D. *The Israeli Army.* Allen Lane, Harmondsworth, 1975; Harper, New York, 1975.
Luttwak, E. and Laquer, W. 'Kissinger and the Yom Kippur War'. *Commentary* (New York), Vol. 58, No. 3, September 1974.
Maarachot (Israel Defence Forces Journal) 'The Yom Kippur War' (Hebrew). Tel Aviv, Nov. 1973, Nov. 1980.
MacLeish, R. *The Sun Stood Still: Perspectives on the Arab-Israeli Conflict.* Macdonald, London, 1968; Atheneum, New York, 1967.
Mansfield, P. *The Arab-World: A Comprehensive History.* Thomas Crowell, New York, 1976.
Marshall, S. *Sinai Victory. Command Decisions in History's Shortest War: Israel's Hundred-Hour Conquest of Egypt.* Morrow, New York, 1958.
——. *Swift Sword. The Historical Record of Israel's Victory, June 1967.* American Heritage, New York, 1967.
Meir, G. *My Life.* Weidenfeld and Nicolson, London, 1975; Putnam, New York, 1975; Maariv Book Guild, Tel Aviv, 1975.
Murphy, R. *Diplomat Among Warriors.* Collins, London, 1964; Doubleday, New York, 1964.
Naor, M. *The War After the War* (The War of Attrition) (Hebrew). Ministry of Defence Publications, Tel Aviv, 1971.
Neguib, M. *Egypt's Destiny.* Gollancz, London, 1955; Doubleday, New York, 1955.
Nutting, A. *No End of a Lesson: The Story of Suez.* Constable, London, 1967; Potter, New York, 1967.
——. *Nasser.* Constable, London, 1972; Dutton, New York, 1972.
O'Ballance, E. *The Arab-Israeli War 1948.* Faber & Faber, London, 1956; Praeger, New York, 1957.
——. *The Sinai Campaign 1956.* Faber & Faber, London, 1959; Praeger, New York, 1960.
The Third Arab-Israeli War. Faber & Faber, London, 1972; Shoe String, Hamden, 1972.
O'Brien, P. 'The Six Day War of 1967'. US Naval Institute *Proceedings*, September, 1968, pp. 113–114.
Patai, R. *The Arab Mind.* Scribner, New York, 1976.
Pearlman, M. *The Army of Israel.* Philosophical Library, New York, 1950.
Peres, S. *David's Sling – The Arming of Israel.* Weidenfeld and Nicolson, London, 1970; Random House, New York, 1971.
Perkins, D. *Organization of the Israeli Army Reserve Forces and Their Mobilization in the Six Day War.* US Army War College, Carlisle Barracks, 1972.
Proceedings; International Symposium: 'Military Aspects of the Israeli-Arab Conflict' (Louis Williams, ed). University Publishing Projects, Tel Aviv, 1975.
Proceedings; International Symposium on the 1973 October War. *Al Ahram*, Cairo, 1976.
Quandt, W. B. *Decade of Decision: American Policy Toward the Arab-Israeli Conflict 1967–76.* University of California Press, Berkley and London, 1978.
Rabin, Y. *Rabin Memoirs.* Weidenfeld and Nicolson, London, 1979; Little, Brown, Boston, 1979; Maariv Book Guild, Tel Aviv, 1979.
Roosevelt, K. *Arabs, Oil, and History: The Story of the Middle East.* Gollancz, London, 1949; Harper, New York, 1949.

Rosenne, S. *Israel's Armistice Agreements with the Arab States. A Juridical Interpretation*. International Law Association, Tel Aviv, 1951.
Rothenberg, G. *The Anatomy of the Israeli Army.* Batsford, London, 1979; Hippocrene, New York, 1979.
Sadat, A. el. *In Search of Identity.* Collins, London, 1978; Harper and Row, New York, 1978.
Safran, N. *From War to War: The Arab-Israeli Confrontation, 1948–1967.* Pegasus, New York, 1969.
——. *Israel: The Embattled Ally.* Harvard University Press, London - Cambridge (Mass.), 1978.
Schiff, Z. *La Guerre Israelo-Arabe, 5–10 Juin, 1967.* Julliard, Paris, 1967.
——. *A History of the Israeli Army (1870–1974).* Straight Arrow Books, San Francisco, 1974.
——. *October Earthquake* (Hebrew). Zmora, Beitan, Modan, Tel Aviv, 1974.
Schmidt, D. A. *Armageddon in the Middle East.* John Day, New York, 1974.
Sharef, Z. *Three Days.* W. H. Allen, London, 1962; Doubleday, New York, 1962.
Sherman, A. *When God Judged and Men Died. A Battle Report of the Yom Kippur War.* Bantam Books, New York, 1973.
Shoemaker, R. 'The Arab-Israeli War'. *Military Review*, August 1968, pp. 56–59.
Stevenson, W. *Strike Zion!* Bantam Books, New York, 1967.
——. *90 Minutes at Entebbe.* Corgi, London, 1976; Bantam, New York, 1976.
Strategic Summary. 'The Middle East War'. International Institute for Strategic Studies, London, 1974.
Strategic Survey 1973. International Institute for Strategic Studies, London, 1974.
'Sunday Times' Insight Team. *Insight on the Middle East.* Deutsch, London, 1974.
——. *The Yom Kippur War.* Deutsch, London, 1975.
Teveth, S. *The Tanks of Tammuz.* Weidenfeld and Nicolson, London, 1968; Viking Press, New York, 1969.
Thomas, H. *The Suez Affair.* Weidenfeld and Nicolson, London, 1967; Harper and Row, New York, 1967.
Trevelyan, H. *The Middle East in Revolution.* Macmillan, London, 1970; Gambit, Boston, 1970.
Van Creveld, M. L. *Military Lessons of the Yom Kippur War: Historical Perspectives.* Sage Publications, Beverly Hills, 1975, London, 1976.
Wallach, J. 'The Israeli Armoured Corps in the Six Day War'. *Armor*, May/June 1968, pp. 34–43.
Watt, D. *Documents on the Suez Crisis, 26 July to 6 November 1956.* Royal Institute for International Affairs, London, 1957.
Weizman, E. *The Battle for Peace.* Bantam, London and New York, 1981; Edanim, Jerusalem, 1981.
——. *On Eagles' Wings.* Weidenfeld and Nicolson, London, 1976; Maariv Book Guild, Tel Aviv. 1975.
Weller, J. 'Lessons from the Six Day War'. *Military Review*, November 1971, pp. 44–50.
Wilson, Sir H. *The Chariot of Israel.* Weidenfeld and Nicolson/Michael Joseph, London, 1981.
Yost, C. 'The Arab-Israeli War: How it Began'. *Foreign Affairs*, January 1968, pp. 304–320.
Young, P. 'The Arab-Israeli War'. *RUSI* (Journal of the Royal United Services Institute for Defence Studies), November 1967, pp. 324–339.
——. *The Israeli Campaign 1967.* William Kimber, London, 1967.

مراجع المترجم

أ - الكـــتب:

١ – حرب فلسطين (١٩٤٧ – ١٩٤٨) الرواية الرسمية الإسرائيلية، ترجمة أحمد خليفة (عن العبرية)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، طبعة أولى ١٩٨٤

٢ – حرب فلسطين ١٩٤٨ رؤية مصرية، لواء أ.ح. دكتور ابراهيم شكيب، الزهراء للإعلام العربى، طبعة أولى ١٩٨٦.

٣ – النكبة فى صور، عارف العارف، دار العلم للملايين، طبعة أولى ١٩٦١.

٤ – ملفات السويس، محمد حسنين هيكل، مركز الأهرام للترجمة والنشر، طبعة أولى ١٩٨٦.

٥ – الانفجار ١٩٦٧، محمدحسنين هيكل، مركز الأهرام للترجمة والنشر، طبعة أولى ١٩٩٠.

٦ – الحرب الثالثة بين العرب وإسرائيل (يونيو ١٩٦٧)، ادجار اوبلانس، ترجمة مازن البندك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة ثانية ١٩٨٨.

٧ – حرب الثلاث سنوات (١٩٦٧/ ١٩٧٠) مذكرات الفريق محمد فوزى، دار المستقبل العربى، الطبعة الثالثة ١٩٨٣.

٨ – حرب رمضان ، الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة اكتوبر ١٩٧٣، اللواء حسن البدرى وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة خامسة ١٩٨٧.

٩ – حرب اكتوبر : العبور والثغرة، ادجار اوبلانس، ترجمة سامي الرزاز، دار سينا للنشر، طبعة أولى ١٩٨٨.

١٠ – من سيناء إلى الجولان، جمال حماد، الزهراء للإعلام العربى، طبعة أولى ١٩٨٨.

١١ – حرب اكتوبر (مذكرات)، الفريق سعد الدين الشاذلى، ١٩٨٨.

١٢ – شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان، د. جمال حمدان، عالم الكتب، ١٩٧٧.

١٣ – الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، طبعة أولى ١٩٨٤.

ب - الخرائــط:

١ – أطلس سوريا السياحى، وزارة السياحة السورية، ١٩٨٩.

٢ – خريطة فلسطين، جمعية الدراسات العربية (القدس)، ١٩٨٨.

٣ – خارطة فلسطين، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية.

٤ – خريطة المملكة الأردنية الهاشمية (بالانجليزية)، المركز الجغرافى الملكى الأردنى

٥– خريطة جمهورية مصر العربية – دار المعارف.

فهرست الخرائط

المحتويات



يعدّ هذا الكتاب من الكتب القليلة، بل ربما كان الوحيد، الذى يتناول الجولات العربية الأربع (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣.. إضافة إلى الحرب اللبنانية فى ١٩٨٢) مجتمعة من منظور عسكرى تفصيلى. فهو يعرض لتلك الحروب حرباً حرباً، ومعركة معركة بالخرائط التوضيحية (٥٣ خريطة). ومن اللافت للنظر أن المكتبة العربية تكاد تخلو من الكتب التى تتناول حروبنا مع إسرائيل فى جانبها العسكرى، وبالذات حربىّ ١٩٥٦، ١٩٦٧.

إن الكتاب يقدم بانوراما حربية لما يزيد على الثلاثين عاماً من عمر الصراع الذى شهدته المنطقة على الجبهات العربية المختلفة: فلسطين.. مصر.. سوريا.. الأردن.. لبنان.

ويكتسب الكتاب أهميته كذلك من أهمية كاتبه والمعلومات التى توفرت له بحكم المناصب التى تولاها والأدوار التى لعبها. فـ «حاييم هرزوج»، الرئيس السابق لإسرائيل، ارتبط بالمجهود الحربى الإسرائيلى منذ الثلاثينيات وهو بعد صبياً. بدأ خدمته العسكرية فى صفوف الجيش البريطانى فى شمال غرب أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية. أشرف على إنشاء جهاز مخابرات الجيش الإسرائيلى وتولى رئاسته مرتين (من ١٩٤٨ - [illegible] ١٩٦٢). عمل ملحقاً عسكرياً بواشنطن من ١٩٥٠ - ١٩٥٤. بعد [illegible] حاكم عسكرى للضفة الغربية لنهر الأردن. مندوب إسرائيل لدى الأمم [illegible] استقال من الجيش برتبة ميجور جنرال، وعمل كمعلق عسكرى [illegible] العالمية وكمراسل للصحف الأوروبية والأمريكية.